

التاريخ الإسلامي

— ٨ —

العهد العثماني

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الرابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

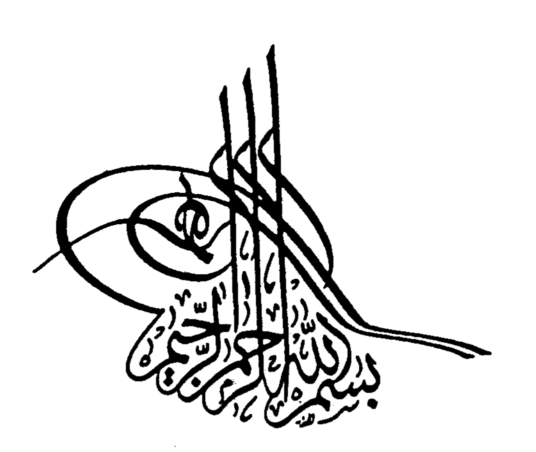
المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



— ٨ —

العهد العثماني


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين **وبعد**،

فإن المرحلة التاريخية (٩٢٣ ـ ١٣٣٧) من التاريخ الإسلامي يُطلق عليها اسم «العهد العثماني»، وإن لم يكن الحكم العثماني قد شمل الأمصار الإسلامية كلّها لكنه ضمّ أكثرها إذ امتد على أوسع رقعةٍ من مساحة تلك الأمصار، وكانت الخلافة العثمانية محطّ أنظار المسلمين ولو كانوا خارج حدودها بصفتها مركز الخلافة، وبصفة حاكمها خليفة المسلمين وليس خليفة العثمانيين، والعثمانيون جزء من المسلمين، كما كانت هذه الدولة أقوى دولةٍ إسلامية يومذاك بل وتعدّ من دول العالم الكبرى إن لم نقل أعظمها، وكانت تحرص على مساعدة المسلمين في كل بقعةٍ، وتعدّ نفسها مسؤولةً عنهم، وحاميتهم، وممثّلةً لهم، لذا فبشكل طبيعي أن تحمل هذه المرحلة اسمها.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد ظهرت منذ عام ٦٩٩ إلا أنها لم تكن خلافة منذ ذلك التاريخ، وإنما كانت الخلافة العباسية قائمةً في مصر بيد المماليك، ولم يُعلن العثمانيون خلافتهم حتى سلّمهم إياها العباسيون، إذ لا يصحّ قيام أكثر من خليفةٍ للأمة الإسلامية في وقت واحدٍ. لذا فإننا نعدّ المرحلة العثمانية منذ تسلّمهم الخلافة عام ٩٢٣هـ.

ولما كانت هذه المرحلة تشمل قيام عددٍ من الدول، لذا فقد قسمّت البحث إلى أبوابٍ بحيث يشمل كل باب دولةً أو منطقةً، وقد كان:

الباب الأول: عن الدولة العثمانية وركّزت على دراستها أكثر من غيرها.

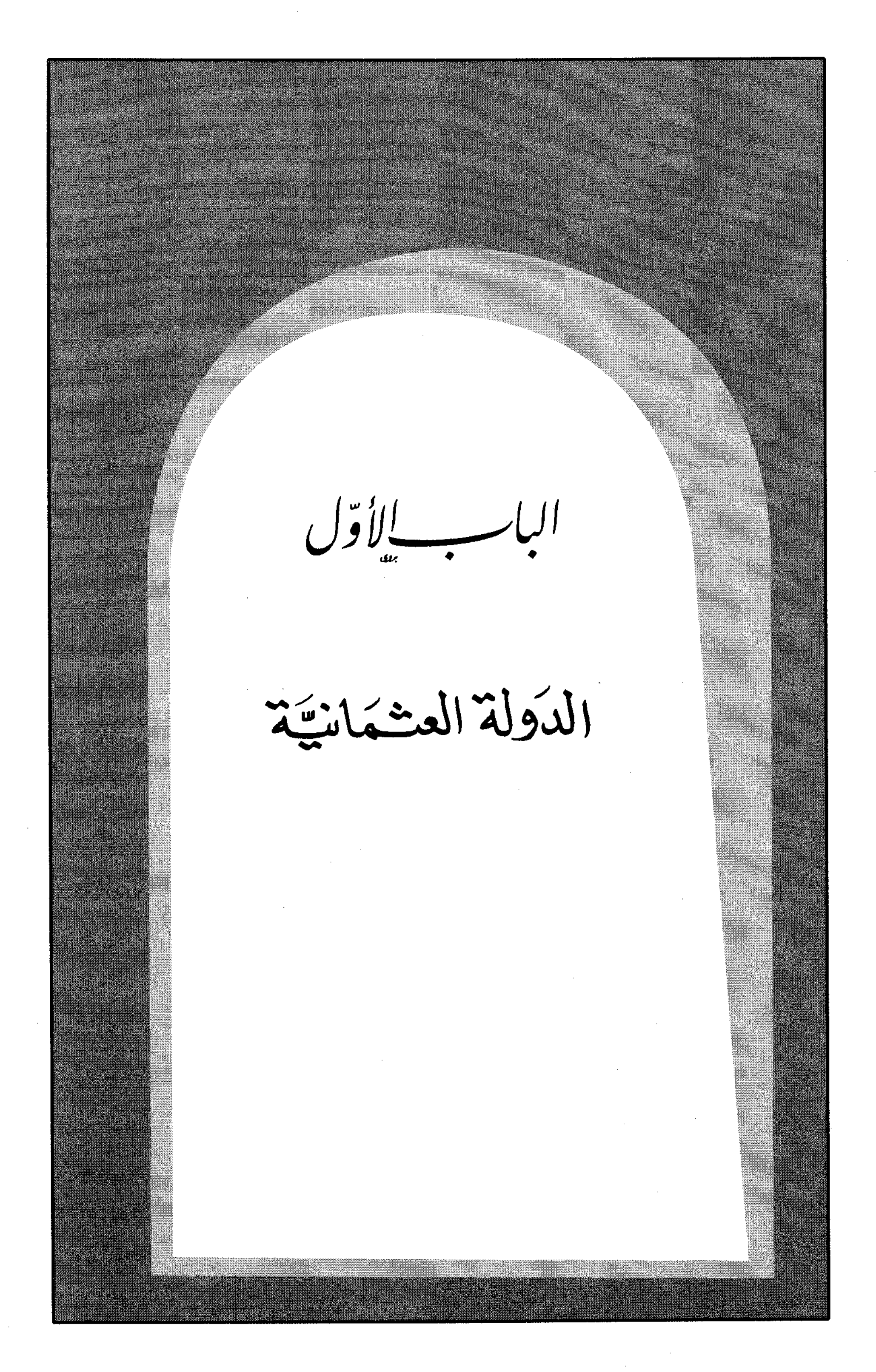
الباب الثاني: عن الجزيرة العربية رغم أنها تبعت الحكم العثماني غير أن ما وقع فيها من أحداث سواء أكان في منطقة الخليج أم في نجد حيث قامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ذات الأثر الكبير، أم ما حدث في اليمن مما جعل هذا القسم يستحقّ عندي أن أُفرد له باباً خاصاً.

الباب الثالث: فقد خصصته لبلاد التتار في أوروبا وبلاد الترك في آسيا الوسطى حيث امتد الاستعمار الروسي إليهما وهذا ما جعلني أضعهما في بابٍ واحدٍ، وقد أضفت إلى هذه المنطقة إيران وأفغانستان على اعتبارهما تقعان في وسط آسيا.

الباب الرابع: وشمل بلاد الهند، وأفردت فصلاً خاصاً من هذا الباب لجنوب شرقي آسيا ليتكامل البحث عن العالم الإسلامي، وفي هذه البقعة ظهر الاستعمار الصليبي متمثّلاً في الإنكليز، والفرنسيين، والهولنديين، وقام بينهم صراع ومنافسة على استعمار الأرض ونهب الخيرات. ووفاق على الحرب الصليبية.

الباب الخامس: حيث ختمت الدراسة به، وقد شمل بلاد المغرب وغربي إفريقية وشرقيها وإن تبع جزء من بلاد المغرب الخلافة العثمانية.

أسأل اللّه التوفيق وسداد الخطا... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



البابــ الأوّل

الدولة العثمانيّة



مقدمة عن الدولة العثمانية

إن التاريخ الإسلامي قد شوّه في المراحل التي سبقت العثمانيين بأيدٍ مُسلمة أو تدّعي الإسلام في سبيل مصالح لها أو أنّ ذلك نتيجة الخلافات السياسية أو المذهبية التي قد أضلّتها وأعمت بصيرتها فأرادت أن تسيء إلى الخلافة بادعاءاتٍ تدّعيها وحكاياتٍ خيالية تنسجها، لتُظهِر فساد ذلك العهد أو لتبرز عوراته بشكلٍ صارخٍ يخرج عن حدود المعقول، كما أنها تنسب قصصاً للمجتمع غير حقيقيةٍ لتقول: إن فساد المجتمع كان كبيراً بسبب المسؤولين الذين عاثوا في الأرض الفساد وأهملوا كل تبعةٍ عليهم وربما وصلت المبالغة إلى درجةٍ أن أخرجوا عدداً من الصحابة والمسؤولين عن الإسلام. ولا أقول: إن تلك المرحلة، كانت تمثّل الإسلام بشكل صحيح أو أنها كانت تسير بخطٍ مستقيم ليس فيه شيء من الانحراف أو الأخطاء، نعم لقد كانت بعض الأخطاء قائمةً، إذ بدأ الانعطاف بالخط السليم يظهر، ولكن ليس على تلك الصورة التي أعطاها أولئك المغرضون والتي عمّت تقريباً لدى القارئين أو الذين يدرسون التاريخ أو هكذا فهموا منها، وذلك لأن تلك الفئة المغرضة قد أعطت التاريخ همّها كلّه، وبذلت جهدها كلّه لذلك الغرض، ولم يكن لديها من شغلٍ سوى ما تفكر به، واشتُهرت آراؤها، وأخذ المؤرّخون والذين دوّنوا التاريخ الشيء الكثير من الروايات عنها. أما المسلمون الآخرون فكانوا يهتمون كمسؤولين بالحكم وأموره، والجهاد والفتوحات، وحياة المجتمع، وكعلماء في التوجيه والانطلاق مع المجاهدين وتدوين ما هو أهم، وانصرف الشعب في بداية الأمر إلى نشر الإسلام والعمل له، ثم اتجه إلى شؤون دنياه بعد أن خفّت حدة الفتوحات أو قلّ الاتجاه نحو الجهاد لأسبابٍ كثيرة.

لقد بدأت زاوية الانحراف تظهر مع بداية العهد الأموي، ثم أخذت بالانفراج تدريجياً وإن لم تتسع بالشكل الذي يُصوّره أولئك المغرضون، وجاء العصر العباسي، وجاءت معه التأثيرات المادية سواء نتيجة الاحتكاك بالمؤثرات الغريبة عن المجتمع أم نتيجة الثراء من الفتوحات، فشغلت المادة الناس، وأبطرت بعضهم النعمة لكثرة ما دخل البيوت من الجواري والعبيد إثر الفتوحات التي سبقت ذلك العهد فغبوا من شهوات الدنيا ومتاعها ما شاء لهم هواهم أن يغبوا، وغنّى بعضهم ولعب، وشاد وطرب، وابتنى القصور وشرب، وماج وصخب، ولكن هؤلاء كانوا قلةً، غير أن ضجيجهم كان واسعاً الأمر الذي ظنّه الآخرون سائداً، وجاء الماديون بعدئذ فأعطوا تلك الصورة صفة العمومية وعدّوا ذلك العمل حضارةً حتى عمّت هذه الفكرة لدى الناس أو أنصاف العلماء... أما الكثرة من المجتمع فكانوا على شيءٍ من المستوى الصحيح لم تُبطرهم النعمة، ولم تفتنهم الدنيا فانصرفوا إلى التجارة أو إلى العلم، فدوّنوا الكتب في الفقه والأدب والنحو والسِّيَر، وساروا بالتجارة فنشروا الإسلام إلى أقاصي المعمورة، وكان الإسلام ينتشر مع طرق التجارة، فحيثما انطلقت سار، والطرق البحرية شاهدة على ذلك في فطاني، وماليزيا، وأندونيسيا، وجنوبي الفيليبين، وسواحل فيتنام في تشامبا، وشواطئ الصين هذا من جهة الشرق، وشواطئ إفريقية الشرقية وجزرها في الغرب وكل هذا ينطق اليوم بذلك.

ومع ما ظهر من انحراف في ذلك العصر إلا أنه لم يصل إلى تلك المرحلة التي يصوّرها المغرضون إذ بقي الإسلام أساساً ثابتاً في النفوس لم يستطع وضعٌ أن يغيّره بصورةٍ سهلةٍ، وثابتاً في المجتمع لا يمكن أن يتجاوزه أو يخرج عليه أحد إذ يلقى عاقبةً وخيمةً لو فعل، وكم من خُرّميين انتهوا أو كم من مفسدين بطش بهم المجتمع قبل المسؤولين!

وما أُبرّئ المسؤولين من ذلك الانحراف الذي كان يقع في القصور، فأمر طبيعي أن يقع ما دام قد أشيد القصر لأداء مهمةٍ معينةٍ، ووُجد في داخل القصر ما وُجد، وانصرف من فيه إلى اللهو أو الشغل بالبناء، وجرّ

المياه إلى الحدائق والمتنزهات والأخذ من نعيم الدنيا جرّهم إليه أو طغا بهم وجود المادة الذي استطاع طغيانه أن يفتن منهم من افتتن.

ومع ذلك فقد بقيت أُسس الإسلام ثابتةً تقريباً حتى في داخل القصور لا يجرؤ خليفة على تجاوزها، وإن تجاوزها ففي السرّ دون الجهر والإخفاء دون العلانية، ولو تجرأ وأظهر خُلع أو انتهى.

فالخلفاء الذين أُلقي نعيم الدنيا أمامهم، وليس لهم من عملٍ سوى استلام المنصب دون أن يكون له تبعة عليهم أبداً، والناس في كفاية أيضاً، وليس من أمرٍ سوى الخلاف الذي ينشأ بينهم نتيجة الأطماع في الطلب لزيادة تحقيق الرغبات، وأصحاب النفوذ سواء أكانوا عرباً أم فرساً أم تركاً أم بويهيين. فهم الذين يتصرّفون بالأمور، ويتقاتلون لزيادة النفوذ أو للسيطرة على مناطق أوسع، ألا ينغمس هؤلاء الخلفاء في الترف؟ ومع هذا الانغماس إن صحّ تسميته، أو السكوت عنه فإن الخلفاء كان منهم الصالحون الذين يُكثرون من العبادة والصدقات والتفتيش عن أصحاب الحاجات وإن كنا نجهل هذا عنهم، ونحمل عليهم لضعفهم أو للأمر الذي آلوا إليه وربما ورثوا الأمر وهو على تلك الحال، ألا يُعدّ هؤلاء الخلفاء من العظماء فالجو المحيط بهم كله شهوات وكله مغريات ومع ذلك فقد امتنعوا عن الولوغ فيه والارتماء في وحوله، واعتصموا... أما ضعفهم فأمر آخر ورثوه وليس بإمكانهم إزالته كلياً أو التأثير فيه جذرياً... وقد استطاع بعضهم أن يغيّر قليلاً أو يسير شوطاً أفضل نحو الإصلاح.

واستمر هذا الضعف في المرحلة التي أتت فيما بعد في أيام المماليك بل أصبحت الخلافة اسميةً وغدا المماليك هم المتصرّفون بالأمور كلها، ويختلف بعضهم مع بعض، وبقي المجتمع متماسكاً نسبياً أيضاً، والإسلام مرهوب الجانب لا يجرؤ امرؤ على مخالفته، ونذكر بكل تقديرٍ وإكبارٍ موقف العزّ بن عبد السلام الذي أعلن للمماليك أنهم عبيد لا يحقّ لهم أن يتصرّفوا بأمور الدولة التي هي من اختصاص الأحرار فلم يستطع أن يقف أحد منهم في وجهه بل هو الذي وقف في وجههم، وهم أصحاب

السلطة، وهم أصحاب النفوذ، نقدّر هذا الموقف الذي يستغرب الإنسان وقوعه في تلك الأيام المتأخرة والتي يتصوّر المرء أن الإسلام قد انحسر عن الحياة، ومع هذا نقول: إن زاوية الانحراف بقي انفراجها بازدياد.

ولم يأتنا تشويه التاريخ الإسلامي في خلال هذه المراحل كلها من خارج نطاق المسلمين وذلك لأن الأعداء وخاصةً النصارى منهم كانوا يعيشون في مرحلة من الضعف العلمي والفكري بحيث لا يمكِّنهم من الهجوم فكرياً على المسلمين والكتابة عنهم في ديارهم. ولكن عندما قوي أمرهم، وجاءت النهضة، وصحوا من رقدتهم استفادوا مما شوّهه المغرضون من المسلمين وزادوا هم عليه، واستغلّوا ذلك الهجوم على الإسلام يدفعهم في ذلك الحقد الصليبي، فتشويه التاريخ الإسلامي من قبل الأعداء قد جاء في مرحلةٍ متأخرةٍ.

وكانت أوربا تترنّح لتقف على أقدامها عندما جاء العهد العثماني في الوقت الذي كان فيه المسلمون يقفون مكانهم لا يتقدّمون حيث كان جانب الإهمال لدينهم ـ الذي هو سبب مجدهم ومجال قوتهم ـ قد بدأ يظهر، والسعي للأخذ بالأسباب قد بدأ يفتر، ثم جاء الوقت الذي تعادلت فيه الكفتان، وبعدها أخذت ترجح كفة أوربا النصرانية على كفة المسلمين... وإذ بقي شعور لدى المسلمين بأنهم هم الأعلون وأنهم فوق النصارى مهما تقدّمت بهم الأيام ما دام المسلمون مؤمنين فإن هذا الشعور لم يواكبه عمل إيجابي، ولم يحرّكه دافع للتمسّك بالإسلام، والسير حسب منهجه الذي يطالبهم للعمل بالخلافة في الأرض وإعمارها واستخراج كنوزها، والإفادة من خيراتها، والبحث والتجربة لاستنتاجِ جديدٍ وتطورٍ في جميع المجالات.

ونهضت أوربا وتقدّمت في مختلف الميادين، وثبت المسلمون، بل غدت حالتهم تتأخّر مع الإهمال الذي أصابهم، والكسل الذي حلّ بهم، وإعطاء الميدان لغيرهم، وترك باب الجهاد، وما تركه قوم إلا ذلّوا، واستمروا على هذه الحال حتى أصبحوا مقلّدين لأوربا تقليداً أعمى، متتبعين لآثارها اتباعاً بلا وعي، يأخذ بعض المسلمين منها دون معرفة، وينقل دون

روية، وينهل من نتائجها من غير محاولة للنتاج «والله لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه وراءهم»، وحبذا لو كان الأخذ للمفيد المثمر والاتباع للبحث المنتج، غير أنه كان تقليد ما ساء من سلوكهم، وما خبُث من تصرّفهم، وترك ما حسُن بحجة الصعوبة وعدم القدرة في الوقت الراهن. فأصيب المسلمون بالصغار، وأصابهم الوهن «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . .» قال قائل: يا رسول الله ومن قلةٍ يومئذ؟ قال: «لا، بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، ولتعرفنّ في قلوبكم الوهن» قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

بدأت أوربا تكتب وتدوّن ويأخذ بعضنا كل شيءٍ منها وهم الذين خضعوا لأوربا فكرياً وثقافياً وعلمياً وفُتنوا بحضارتها، وبُهروا بعلومها فتتلمذوا على أيدي رجالاتها والمبشّرين بدينها، يأخذون منها وينقلون إلينا دون فحص، ومن غير تحقيق أو تدقيق. وماذا تدوّن أوربا عن العثمانيين؟ وهم أعداؤها العقيديين قبل كل شيء، فالعثمانيون كانوا يرفعون شعار الإسلام سواء أكان ذلك عن علمٍ ويقين أم عن جهل وتقليد فالمهم كان عاطفةً ويعدّون أنفسهم المدافعينَ عن الإسلام والذّابّين عن دياره، وكانت أوربا ترفع شعار النصرانية، وتعدّ نفسها حامية حماها والذائدة عن ذمارها. ومن آثار العقيدة تظهر العداوة السياسية فالعثمانيون يُقاتلون أوربا ويتقدّمون على أرضها من جهة الشرق بل لقد وصلوا إلى ما يقرب من منتصف أرضها فلقد حاصروا فيينا قاعدة إمبراطورية النمسا أكثر من مرة، ويحارب العثمانيون الأوربيين على عدة جهات أخرى، فهم ينازلون الإسبان في بلاد المغرب وفي البحر المتوسط، ويقفون في وجه البرتغاليين في جنوبي الجزيرة العربية، والبحر الأحمر، والخليج العربي، بل وسواحل الهند، ويضغطون على الروس من جهة الشمال ليُخفّفوا من وطأتهم عن بلاد التتار

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وأحمد في «المسند» الجزء الخامس برقم ٢٧٨.
وانظر: «صحيح الجامع الصغير» (٨١٨٣)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٥٦).

في شرقي أوربا وسواحل البحر الأسود الشمالية، وعن بلاد الشركس، وعن المسلمين في أواسط آسيا. فماذا يكتب الأوربيون النصارى الذين يدفعهم الحقد الصليبي عن العثمانيين؟ ومن هنا جاء تشويه التاريخ الإسلامي في أيام العثمانيين.

لقد سجّل النصارى الأوربيون عن العثمانيين كل سلبيةٍ، وجالت بها أقلامهم، وحلّقت بها أفكارهم، وأهملوا كل إيجابيةٍ أو تجاهلوها ونسوها فلم ينظروا إلا بعين البغض فلم تُبد لهم إلا المساوئ. ولكي يُثيروا عليهم بقية المسلمين عدّوا الحكم العثماني استعماراً، دخل إلى البلاد بالقوة وفرض سلطته بالقسوة، ودعوا العرب خاصةً إلى مناهضة العثمانيين فالخلافة - حسب دعواهم - يجب أن تكون محصورةً بالعرب لا اجتهاداً منهم وعلماً ولا دراية وفقهاً، وإنما حسداً وكرهاً للمسلمين كي يتحرّك بعضهم على بعض. ويُقاتل بعضهم بعضاً، ويتمرّد المحكوم على الحاكم باستمرار، ويهنأ لهم بعدئذٍ العيش، وينعمون، ويذلّون المسلمين ويحكمون ديارهم، ويتحكّمون بهم.

لقد عدّوا كلّ حركةٍ على الحكم العثماني نصراً للنصارى ونعتوا تلك الحركة بالإخلاص ولو كانت من قطّاع الطرق والأشقياء كحركة ضاهر العمر، ووصفوا كل ثورةٍ على العثمانيين بالوطنية وخاصةً إن كانت من قبل غير المسلمين مثل الفئات الخارجية عن الإسلام كحركة فخر الدين المعني، وبشير الشهابي وغيرهما وأفضل من ذلك إن كانت من الحركات التي ترتبط بالصليبية الأوروبية، كما ارتبطت حركة فخر الدين المعني بإيطاليا، وتلقت من هناك المساعدات والدعم، وكان فخر الدين المعني كلما هُزم آوى إلى إيطاليا فاحتضنته وشجّعته، وتوسّطت له لدى الباب العالي. أما إذا حملت الحركة ضد العثمانيين الدعوة الإسلامية ودعت إلى الإصلاح نعتتها أوربا بالجمود والتأخر، وحكمت سلفاً عليها بالفشل وإن أعطتها صفة الاستقلالية والوطنية وأثنت عليها لترمي المسلمين بعضهم ببعض، وجاء دورنا فنقلنا هذا كله عن الأوربيين، وعلّمناه لأبنائنا دون بحثٍ وتدقيق، وأصبحت شبه

حقيقةٍ، يدرّسه جيل لجيل، وقد آن لنا أن ننتبه، وأن نكتب وندوّن من خلال ما تمليه علينا العقيدة ويفرض علينا العلم من بحث وتحقيق.

أما النصارى الذين يعيشون في أجزاء الدولة العثمانية فلم يُظهروا العداء للحكومة، ولم يُبدوا معارضةً ما دام العثمانيون أصحاب قوة إذ يخشون أن تحلّ بهم ضربة قاصمة أو ينزل بهم عذاب شديد من تهجيرٍ وإقصاء عن مناطق معينةٍ غير أنهم كانوا يحرّضون السكان سرّاً ضد الدولة كلما وجدوا فرصةً سانحةً للتحريض، أو رأوا وقتاً يُناسب الإساءة أو الاتصال بنصارى أوربا.

وعندما ضعُف أمر العثمانيين، وبدأ الأوربيون يتدخلون في شؤونهم كشّر النصارى في الدولة العثمانية عن أنيابهم فكانوا يعدّون أنفسهم رعايا لدول أوربية، كل طائفةٍ منهم حسب ما تنتسب فالأورثوذكس كانوا يُحسبون على أنهم رعايا لروسيا، والكاثوليك رعايا لفرنسا، والبروتستانت رعايا لإنكلترا، ولم تكن الفئات الخارجة عن الإسلام بعيدةً عن هذا الصراع وخاصةً في الأيام الأخيرة بعد عام ١٢٧٦ عندما حدثت الأحداث في لبنان، فقد دخل الدروز في هذا الميدان، وأصبحت إنكلترا تدعمهم ضد الكاثوليك رعايا فرنسا وحلفائها، والمنافسة بين الدولتين أمر قائم ومعروف.

وبدأ النصارى أيضاً يدعون إلى التنظيمات السريّة باسم القومية التي بدأت تدخل إلى المنطقة، مع الأسف، والنصارى ليس لهم دعوة سواها إذ لو دعوا إلى عقيدتهم كرابطة لكانوا وحيدين في الساحة، ولحلّت بهم النكبات، وُعَدوا محاربين يجب قتالهم حسب الشريعة الإسلامية المعمول بها في الدولة ولو اسمياً.

وإذا كان النصارى لم يجدوا لهم مؤيداً بين المسلمين في أول الأمر إلا أنهم قد وجدوا ذلك بعد مدة إذ كثر الأشخاص الذين فُتنوا بأوربا، وساروا يلهثون وراءها.

لقد ظهرت القومية في أوربا بعد صراعاتٍ بين دولها المتعددة،

وكانت كلها قد طرحت ديانتها من الحساب، ولم تعد العقيدة الرابط الذي يجمع بين دول القارة، وإن لم تتخل واحدة منها عن الروح الصليبية التي بقيت تملأ النفوس، وتشحنها الكنيسة ضدّ المسلمين مع أن الكنيسة سقطت في المعركة التي قامت بينها وبين العلم للتباين بينهما على عكس الدين الإسلامي وهذا ما يجهله الأوربيون ويظنّون أن الأديان كلها تتعارض مع العلم، غير أن الكنيسة بقيت رمزاً لنصرانية تلك الدول ورمزاً للصليبية يستفيد من وضعها رجال الدين، ويستفيد منها الحكام لإثارة الناس للحروب ضد المسلمين أو للعمل الاستعماري الذي يسبقه عمل تبشيري بالنصرانية، ويبقى العملان يواكب أحدهما الآخر، وربما كان الاستعمار هو السبب الرئيسي في بقاء الكنيسة قائمةً أو ذات شأن أحياناً إذ لكنائس أوربا كلها أثر في خارج حدود دولها أكبر بكثير من الأثر القائم في داخلها فالدول تستفيد مما تقدّمه الكنيسة دعماً لأعمالها الاستعمارية وتستفيد الكنيسة مما تقدّمه الدولة من دعم ماديٍّ ومعنويٍّ للإرساليات التنصيرية، ويمكن ملاحظة هذا الدعم المتبادل في العمل التنصيري القائم في أكثر دول العالم وإن كان يبدو بشكلٍ واضحٍ في إفريقية، وأندونيسيا، ولا تكاد تخلو منه بقعة في العالم، ومع زوال العقيدة كرابطةٍ بين النصرانية وجدت الدول الأوربية المتصارعة في اللغة عنصراً أساسياً يجمع بين شعبها وخاصةً أن الجنس الواحد غالباً ما يتكلم لغةً واحدةً ولهذا كان العنصر واللغة أساس القومية الذي عملت تلك الدول له ليكون عاطفةً يربط بين رعاياها لمجابهة الدول المجاورة الأخرى ولتحديد الحدود.

وأوربا تختلف عن البلدان الإسلامية اختلافاً كلياً من هذا الجانب فالرابطة الأساسية بين المسلمين جميعاً إنما هي العقيدة، والمسلمون أمة واحدة من دون الناس لا اختلاف بين الأجناس أو الألوان أو اللغات ضمن هذه الأمة إذ إنهم أعضاء فيها لا يقوم بينهم فاصل أو ميزة، غير أن بعض المسلمين الذين فُتنوا بأوربا وبهرتهم حضارتها الحديثة قد بدؤوا يأخذون من أوربا كل ما يخرج عنها سواء أكان مفيداً أم كان مخالفاً لعقيدتهم مسيئاً إليها وإلى بلادهم وحتى إلى

سلوكهم ومجتمعهم، وكان مما أخذه هؤلاء فكرة القومية.

وتمسّكت أوربا بالفكرة القومية مدةً من الزمن لأنها اتخذتها سلاحاً سياسياً مُهمّاً ربما كان أقوى من أي سلاح فتاك آخر؛ إذ تمكنت بهذا السلاح أن تحطّم أعداءها السياسيين، وكانت أقواهم يومذاك الدولة العثمانية التي تتألف من عدة شعوب، فعندما انتشرت فكرة القومية وغذّتها دول أوربا النصرانية ودعمتها، وحملها المستغربون من المسلمين والنصارى من رعايا الدولة العثمانية، أخذت هذه الشعوب ينفصل بعضها عن بعض وهي التي تشكّل أمةً واحدةً، وإذ بهذه الأمة مجموعة متفككة تهوي أمام أوربا النصرانية التي تركت دينها، وإذا بالنصارى وأتباع الفرق الضالة كلها، والملحدين يعيشون في الدولة العثمانية كلهم قوميون ضد الدولة لإعلان إسلامها وقيامها باسم الإسلام. ورغم تعدد دول أوربا ولكن تجمعها فكرة العمل ضد المسلمين، وعمل كنائسها ضد الإسلام، وهذا ما نلاحظه من اتفاق كنائسها ضد الإسلام في كل ميدان: في إفريقية، في آسيا، في أوربا، في أميركا، في كل بقعة من بقاع العالم رغم اختلاف هذه الكنائس فيما بينها بين أرثوذكسية، وكاثوليكية، وبروتستانتية وربما بين فروعها. ونرى التقاء دول أوربا شرقيها وغربيها ومعهما أمريكا، وكل الدول النصرانية، بل والأفراد والمجموعات النصرانية ضدّ كل دولةٍ إسلاميةٍ أو عمل إسلامي، بل وتحرص الدول الكبرى أن تتقاسم مناطق نفوذها في الأمصار الإسلامية رغم الخلافات بين معسكراتها ومصالحها، هذا كله مع ادعاءات الدول النصرانية أنها علمانية لا تُعير الدين أي اهتمام بل إن دول أوربا الشرقية جميعها تُعلن عداءها للدين وحربها له، إلا أنها في الواقع تُعادي الإسلام وحده، إذ تُطالب المسلمين أن يكونوا نصارى أرثوذكس كي تتم الوحدة الوطنية بين أبناء الدولة الواحدة وتسعى جهدها لذلك، وتتخذ الإجراءات كافةً مهما كانت وحشيةً أو غير إنسانية ليترك المسلمون عقيدتهم، ويأخذوا بالنصرانية حتى على المذهب الأرثوذكسي وإن كانت الدول الشيوعية فعلاً لا تقوم بعمل ديني في داخل المناطق التي تسيطر عليها سوى معاداة الإسلام، ولا

تسمح لرجال الدين النصارى بأي نفوذ، غير أنها كما ذكرنا تتفق ضدّ الإسلام مع كل من يحاربه، وتتقاسم ديار المسلمين مع كل شريك لها، فمع معاداة الأديان كلها ـ حسب زعمها ـ يعد الدين الإسلامي العدو اللدود لها، أو العدو الأول بالنسبة لها.

في الوقت الذي أخذت فيه الفكرة القومية تنتشر بين المسلمين، كان المسلمون فيه على درجةٍ من الضعف بحيث لا يُمكنهم أن يردّوا كيداً، أو يقفوا في وجه فكر، بل لا يعرفون الأفكار، وإنما همّهم هو عملهم اليومي، وقد يُدفعون إلى القتال دفعاً دون أن يُدركوا من يُقاتلون؟ ولِمَ يقاتلون؟ وربما يستغلّهم بعضهم فيشجّعهم ضد آخرين باسم الإسلام، ولم يعرفوا إن كان عدوهم الذي يُحاربونه كافراً أم لا! لهذا كان انتشار الفكرة القومية بين فئةٍ قليلةٍ هي التي بيدها الأمر أو تستطيع أن تتحرّك على الساحة، فكان الأمر بيدها سرّاً دون معرفة الدولة، أمثال مدحت باشا من الترك وقد لعب دوراً مهماً وخاصة في البلدان العربية بصفته تولّى عدة مناصب إدارية فيها في مناطق مختلفة فكان يسكت عن حملة الفكرة القومية مع معاداتها إلى جنسه، أو إلى من يمثّله وهي الدولة العثمانية بل يَدعمها ويُشجّعها، ويأخذ بأيدي من يحملها ويُنادي بها ويرفعها شعاراً له، وأمثال الشريف حسين بن علي شريف مكة بصفته شريفاً، ويتسلّم أمور الأماكن المقدسة، وهي أكثر المناطق أهميةً بنظر المسلمين، وبصفته من العرب ثالثاً، وهم الذين يدّعون أن الخلافة يجب أن تكون حصراً فيه، لذا كانت صِلاته واسعةً، وقد تتحرّك هذه الفئة على الساحة إذ تتلقّى دعماً من بعض دول أوربا التي أصبح لها نفوذ في المنطقة مثل فرنسا وانكلترا، وكانت هذه الفئة إما من النصارى الحاقدين، أو المسلمين المغرّرين.

كانت الدولة العثمانية تتألف من عدة شعوب، لكن أهمها شعبانِ هما الترك والعرب، فالترك الذين منهم الخليفة، وتكاد تشيع لغتهم بصفتها لغة الخليفة والأسرة الحاكمة وكبار الدولة، وكان أغلب الجيش النظامي منهم، وبصفة مدينتهم حاضرة الدولة كلها، ويلتقي فيها مجلس المبعوثان.

والعرب الذين يشكلون جزءاً كبيراً من الدولة العثمانية، وتشغل أراضيهم مساحةً واسعةً ولغتهم رئيسية أيضاً بصفتها لغة القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً، وتلاوته لا تكون إلا بالعربية، كما أن حديث رسول الله ﷺ بتلك اللغة، والقرآن الكريم والحديث الشريف هما أساس التشريع الذي عليه تقوم الدولة ولو بصورةٍ اسمية، هذا بالإضافة إلى عددٍ من الشعوب الأخرى لكنها أقل أهمية لقلة عدد أفرادها، وقلة أهمية لغتها.

وأخذ عدد من الترك بالفكرة القومية وبدؤوا يبثّونها سرّاً في أوساط المجتمع ولعلّ هؤلاء الأفراد كان معظمهم ممن لهم مصالح؛ منها ما يعود إلى تحطيم الدولة العثمانية بالذات التي وقفت أمام مصالح اليهود في فلسطين أو أمام تطلّعاتهم القائمة على إقامة دولةٍ لهم في فلسطين، وكان أكثر أفراد هذه المجموعة من الذين يعودون إلى أصلٍ يهودي إذ أن الدولة العثمانية فتحت أبوابها لليهود الذين خرجوا من الأندلس نتيجة الاضطهادات النصرانية التي لحقتهم، تخطيطاً ومكراً، ورغم احتضان الدولة العثمانية لهم فإنهم لم يحفظوا هذا الإحسان وإنما قابلوه بمنتهى الإساءة وأظهر عدد منهم الإسلام، وبقوا في الواقع على دينهم الأصلي وهو اليهودية، وهم الذين عُرفوا باسم يهود الدونمة ويعودون في الأصل إلى أنهم أتباع ساباتاي زفي[1]. ومن هؤلاء الترك الذين تربّوا في الغرب، وتأثّروا بأفكاره، ومنهم

---

(١) ولد ساباتاي في أزمير عام ١٠٣٥، وادّعى أنه المسيح المنتظر، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وزار مصر عام ١٠٧٣، واستفاد من دعم الصيرفي رافائيل جوزيف (يوسف جلبي)، كما زار فلسطين عام ١٠٧٤، وعاد إلى أزمير عام ١٠٧٦ فجاءته وفود يهودية، وقسم العالم إلى ٣٨ جزءاً، وعيّن لكل جزء ملكاً، وتصوّر أن يكون الجميع يتبعون له وهو يُقيم دولته في القدس.
وادّعى آخر أنه المسيح المنتظر، ويدعى كوهين، ووقع الخلاف، فاشتكى الآخر إلى الدولة مدّعياً أن ساباتاي يعمل لقيام تمرد ضد الدولة، ويدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، فقبضت الدولة على ساباتاي، وتشكّلت له محكمة من كبار العلماء وقضت عليه بالإعدام فخاف من الموت وأعلن إسلامه وصار يدعى محمد البواب لأن السلطان منحه راتب رئيس البوابين، غير أنه في الباطن بقي يهودياً. وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام فأذنت له وبدأ يبث سمومه، ويطلب من أتباعه أن يُظهروا الإسلام ويُبطنوا =

الذين يطمعون بمناصب سياسية عالية أو الذين أهواهم الجنس، ولم يجدوا سبيلاً له إلا بالهجوم على الإسلام ومبادئه، والدعوة إلى ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للحرية الجنسية.

وأخذ عدد من العرب الفكرة القومية لأسبابٍ تكاد تكون نفسها التي من أجلها أخذ بعض أفراد الترك الفكرة فبعض هؤلاء العرب كان يطمع بإقامة خلافةٍ عربيةٍ يكون على رأسها نتيجة شرافته ومركزه، أو يكون عدد من الخلفاء، خلفاء من العرب، وآخرون من الترك، ومن الفرس، ومن الهنود، ومن السودان وغيرهم. ومنهم من كان يطمع بمناصب عالية سواء في الجيش أو الحياة السياسية وكلها حسب الإغراءات التي كانت تقدّمها دول أوروبية ذات صلات في المنطقة، هذا بالإضافة إلى الذين يسيرون وراء شهواتهم، ويرون في الإسلام سدّاً في وجههم، وقد يوجد من يعادي العقيدة أصلاً لسبب من الأسباب. وربما كان بين هؤلاء وأولئك من يسير باندفاع ذاتي فيرى المساوئ التي عمّت دوائر الدولة فيجب إصلاحها وينادي بذلك، وقد يقع بشرك أولئك باسم الإصلاح، وقد لا يقع، وإنما يسير جنباً إلى جنب معهم فيكون بجانبهم يستغلّونه وإن لم يحمل أفكارهم. وقد يكون بين هؤلاء وأولئك من اقتنع بالفكرة نتيجة بعض المرئيات التي حصلت لديه. وقد عُرف بينهم أيضاً من يرى أن الخلافة يجب أن تُحصر

= اليهودية ليهدّموا من الداخل فيصومون أحياناً ويحجّون أحياناً، ويدخلون المساجد وهم من اليهود. والدونمة ثلاثة فرق هي: اليعاقبة، والقراقاشية، والقبانجية واستطاعت الفرقة الأخيرة «القابانجية» من التغلغل في أوساط حزب الاتحاد والترقي، وأصبح لهم دور فيه، وأداروا الجزء الأكبر من الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، ليهود الدونمة لغتان، التركية للتفاهم مع مجتمعهم التركي، والإسبانية للتعامل فيما بينهم ولهم دور كبير في الإعلام، إذ يملكون أهم الصحف «مؤسسة حريت» التي قامت عام ١٣٦٧، وجريدة «كون ابدين» وتعني صباح الخير، وجريدة «مليت» وتتبع هذه الجريدة مجلة «صنعت» وتعني الفن، وجريدة «جمهوريت» وجريدة «ترجمان» وهذه أكبر الصحف التركية.

ويدعو الدونمة للاختلاط والسفور، وإلى الماسونية، وإقامة مسابقات ملكات الجمال، والتعاون مع إسرائيل، ومحاربة العرب، ومنهم الذين يتجهون نحو الغرب، ومنهم الذين يتجهون نحو الشرق ليكون لهم في كل مجال ميدان.

بالعرب فهو يسعى لذلك باسم العقيدة أو باسم الإصلاح ولا يريد أن يسير إلى أبعد من ذلك أو يصل إلى الطريق التي وصلت إليها البلاد فيما بعد.

وظهر ذلك أيضاً عند بقية الشعوب التي تتألف منها الخلافة العثمانية، وإن كانت على نطاق أضيق، أو لم تبذل لها تلك الجهود التي بُذلت للشعبين العربي والتركي لأهميتها أو لأن الخلافة قائمة عليهما وبانفصالهما تضيع الخلافة وتتفكّك عراها.

ونتيجة ذلك كله كانت الفكرة القومية السلاح القومي الذي استخدمته أوربا النصرانية ضد أعدائها المسلمين أو ضد الخلافة العثمانية التي كانت تمثّل المسلمين أو كانت الدرع القوي ضد خصومهم أو على الأقل كانت أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك، والمسلمون في كل بقاع الأرض ينظرون إليها على أنها حاميتهم أو تمثّلهم.

ومع انتشار الفكرة القومية تفككت عُرا الخلافة العثمانية وأصبحت أشلاء، أو تجزّأت وأصبحت دولاً، وأضاع المسلمون خلافتهم التي كانت رمزاً لهم، وأصبح كل قسم يعمل منفصلاً، وقد تصطدم مصالحه مع القسم الآخر فينشأ الصراع وتقع الوقيعة، ويكون العداء وربما كان أشد العداء ما وقع بين الشعبين الكبيرين في الخلافة العثمانية الشعب العربي والشعب التركي، وقد يكون هذا إحساسنا لأننا نعيش في منطقةٍ قريبةٍ من التقاء هذين الشعبين أو في منطقة الاحتكاك بينهما، وقد يكون العداء أكبر بين بقية الشعوب غير أننا لا نشعر به لبعدنا عنه.

إن أصحاب الفكرة القومية العربية يحسّون أن الشعب العربي أو هكذا عُلّموا، وكُتب لهم ورُبّوا على ذلك أن الأتراك قد استعمروهم باسم الإسلام مدةً تزيد على أربعة قرون (٩٢٢ ـ ١٣٣٧)، وأنهم كانوا السبب في تخلّفهم إذ حجبوهم عن التيارات الفكرية العالمية، وحاولوا تتريكهم في النهاية، الأمر الذي جعلهم يتحرّكون ضدهم وينتفضون في وجههم حتى يأخذوا استقلالهم أو ينفصلوا عنهم. هكذا وبكل بساطة يبحثون في بعض السلبيات دون ذكر الإيجابيات، وينسون أن الشعب العربي كان حريصاً على قدوم

العثمانيين وأنه قد استقبلهم في حلب ودمشق، وأن أطراف الجزيرة العربية رضيت بقدومهم بل طلبت حمايتهم خوفاً من البرتغاليين الذين كانوا يتهددون السكان وقد سيطروا على عُمان ومناطق الخليج العربي وجزيرة سوقطرى وجزر قمران وهاجموا عدن، ويُهدّدون الأماكن المقدسة، وأن الخلافة ـ أو الحكم ـ يمكن أن يكون لغير العرب، وحديث رسول الله: «أطيعوا ولو تأمّر عليكم عبد حبشي. . .».

ولم يكن الشعب التركي مفضلاً على الشعب العربي في يوم من الأيام لنقول عنه استعمار اللهم إلا إذا استثنينا المرحلة الأخيرة عندما حكم الاتحاديون، وقد حكموا باسم القومية. . فانتهى بذلك دور الإسلام، ونحن في الواقع نسمي الخلافة العثمانية حتى حكم الاتحاديين، فلما سيطر دعاة القومية أصبحنا نسمي تلك الدولة بالدولة التركية، وما غدا الخلاف إلا عندما نادى الاتحاديون بالقومية وحمل العرب فكرة القومية فاصطدمت القوميتان ما دام كل يفتخر بجنسه دون سائر الجنسيات ويتعصّب له.

أما حجبهم عن التيارات الفكرية العالمية فلا شك أن العثمانيين كانوا على جهل، وكان العرب مثلهم والجاهل لا يمكن أن يُقدّم شيئاً، ولم تكن التيارات الفكرية سوى أفكار أجنبية نصرانية، وهل أفادت الأتراك شيئاً عندما حاول السلاطين المتأخرين السير على النهج الأوربي. وهذه الأفكار كلها قد تلقّنها العرب من النصارى وليست نابعةً من ذاتهم.

وإن أصحاب الفكرة القومية التركية يحسّون أن الشعب التركي قد ضحّى كثيراً في سبيل شركائه، وأنه قدّم لهم الكثير، ومنع بلادهم من الوقوع فريسةً في يد الصليبيين، ووحّد جزءاً منها، ووقف في وجه الأوربيين وخاض الحروب الكثيرة وقدَّم الكثير من الضحايا ومع هذا فالشعوب الأخرى وخاصةً العرب قد خانت الترك وخذلتهم في ساعة الشدة وطعنتهم من الخلف. وبعد أن تجزّأت الخلافة، وذهب كل فريقٍ إلى جهة، فكر دعاة القومية العربية في الإفادة من وضعهم فإذا بهم يجدون عدة قوميات في بلادهم، العربية، والسورية، والفرعونية، والبربرية و. . .

وعندما بدأ الصراع لبقاء الأصلح أو الأقوى، وتفرّدت العربية بين بقية القوميات التي زال بعضها لضعفه واختفى، وبعضها الآخر بالقوة، وسيطرت العربية ولما حاول دعاة تلك القومية بالظهور إذا بعصر القوميات قد انتهى، وجاء دور الاشتراكية أو جاءتنا صيغة جديدة طُرحت من قبل النصارى أو من قبل أعداء الإسلام كي لا يبقى الشعب الواحد من المسلمين صفاً واحداً وربما يؤدي دوراً حتى ولو كان بأسلوبٍ علماني لكن يمكن أن يُصلح من أمره، ويعود إلى رشده، ويتحرّك في اتجاهٍ صحيحٍ، لذا كان من خطة الأعداء أن يبقى الانقسام قائماً، والصراع يجب أن يستمر، وانقسم الصف، واختلف المسؤولون، وافترقت الكلمة وأصبح الشعب شيَعاً وأحزاباً تارة يقع التباين بين اليمين واليسار، أو بين طبقةٍ وأخرى، أو مصلحةٍ وثانية، أو مسؤول وآخر، أو بين من يريد الاتجاه شرقاً ومن يبغي التحرّك نحو الغرب وكله على حساب المسلمين، فكلما بدت للمسلمين قوة قُضي عليها بوحشيةٍ، واجتمع المختلفون بالشعارات على ضربها، والتقى المتناحرون عليها.

وفكّر دعاة القومية التركية بالالتفات نحو دفاترهم السابقة، والتوجّه نحو أقرباء آبائهم، فاتجهت أنظارهم نحو أواسط آسيا حيث يُقيم إخوانهم الأتراك الآخرون، ولكن لم يجدوا بُدّاً من محادثتهم بالإسلام، أو مناداتهم به، وعندما سار أنور باشا نحوهم فشل لأن الروس كانوا قد أذلّوهم وأماتوا فيهم كل فكرةٍ للجهاد، وبقي انتسابهم للترك دون معنى وانتماؤهم للإسلام دون فكر اللهم إلا من قلةٍ يمكن أن يكون لهم دور، كما يمكن للعاطفة العقيدية أن تحرّكهم ولكن بعد وقت، وعاد دعاة التركية فانحصروا في بوتقةٍ صغيرة.

وهكذا رجع دعاة القومية سواء أكانت العربية أم التركية يجرّون وراءهم ذيول الخيبة والفشل، وقبع كل منهما ضمن دائرةٍ صغيرةٍ يتحرّك بفلك الشرق أو بفلك الغرب، ولا يجدون لهم دعماً من المناطق المحيطة بهم والتي سبق أن قطعوا الصلة بها، وإن بقي المسلمون في كلا المنطقتين

أصحاب فكرٍ، ويمكن أن يتحرّكوا ضمن العالم الإسلامي، ولكنهم محتفظ بهم لوقت الضرورة، موضوعون على الرفّ ينالهم البأس، والجميع يتّفق عليهم.

لم تكن الخلافة العثمانية تلك الدولة الإسلامية التي تسير على المنهج الإسلامي تماماً، وإنما كانت تحرص عليه عاطفةً وتُطبّق بعض الجوانب، وتهمل جوانب أخرى، وتبدو بعض الصور التي فيها مخالفة صريحة للإسلام، وهناك نواح بين هذه الحالات قد يشتبه فيها الأمر ويحتاج إلى التفسير، والنظر في النيات، ومعرفة المسؤولين بها أو إخفاؤها عنهم، وسبق أن ذكرت أن زاوية الانحراف عن الخط الإسلامي قد بدأت تظهر مع العهد الأموي وإن كانت يومذاك صغيرةً، وبدأ انفراجها يزداد مع الزمن حتى إذا ما وصلنا إلى العصر العثماني كانت قد اتسعت إذ زاد انفراجها وبرزت الانحرافات بصورةٍ واضحةٍ، ولكن حتى الآن لا نستطيع أن نقول: إن الانحراف قد عمّ فالخوف من الله قائم، ومحاولة التطبيق موجودة، ولا يمكن أن نقارن ذلك اليوم الذي نشتّد عليه بما آلت إليه الأمور بالزمن الذي نحن فيه، أو لا نستطيع أن ننزع الصفة الإسلامية عن الخلافة العثمانية أو نُزيل عن الخلفاء إسلامهم وحرصهم الأكيد على النظام الإسلامي.

إن العاطفة الإسلامية لدى العثمانيين كانت كبيرة، وإن كانوا لا يعرفون التصرّف لجهلهم بالإسلام الذي عرفوا منه العبادات، ولم تترسّخ في أذهانهم أنه منهج حياة وليس مجرد عباداتٍ أو أنه عبادات مجردة عن الحياة، لذا كان التقيّد بالأوامر والانضباط التام بالأحكام كاملةً غير قائم تماماً، وقد ذكرت أن بعض الأحكام كانت مطبقةً أو معمولاً بها غير أن هذا لا يكفي فتطبيق جانب من الإسلام وإهمال جانب آخر أمر يسيء إلى الإسلام إذ يعطي صورةً مُشوّهةً عنه، فالإسلام نظام متكامل يطبق كاملاً، وعندها تظهر النتائج في صلاح المجتمع وسعادته ورفاهيته ورخائه وتقدمه.

أما تطبيق جانبٍ وترك آخر فقد يُعطي نتائج إيجابية. فإقامة الحدود أمر أساسي في النظام الإسلامي ولكن ليس هو النظام، ووحدها لا تكفي،

ولا يمكن أن نقول: إننا نُطبّق الإسلام إذا اعتمدنا على إقامة الحدود فقط، فعندما نقيم حدّ الزنا ولكن نترك السفور وعدم الحشمة، والاختلاط، والخلوات، والنزهات المشتركة، والمخيمات الجماعية التي تضمّ الجنسين ثم نحرص على إقامة الحد، وندّعي أننا نعمل على تطبيق الإسلام فالأصل أن نمنع الأسباب التي تؤدي إلى الزنا، ثم نقيم الحدود، ومثل ذلك السرقة، فإذا انتشرت البطالة، وعمّ الفقر، وانقطع حبل الأمن، وسادت حاجة الناس، وأصبحوا في جوعٍ وخوفٍ وجئنا نُقيم حدّ السرقة بحجة تطبيق الإسلام، يجب أن نبدأ بتأمين العمل، وتطبيق الأمن، وسدّ حاجة المجتمع، وبعدها نقيم الحدّ، لأن من يتعدّى بعدها على حقوق الناس فإنما يكون همّه الفساد في الأرض، والإخلال بالنظام، ولا بدّ من ردعه بإقامة الحدّ عليه، أما إن أجبرته الحاجة ودعته الضرورة فقد لا يكون من طبعه الفساد، ولا في نفسه ميل إلى العبث بحقوق الآخرين وأمنهم، فمعالجته بسدّ حاجته، لا بضربه. فالمفسد من يتعدى على الآخرين وفي يديه ما يكفيه، بينما الرجل الصالح قد يحدث منه، ولكن دعته إلى ذلك الضرورة الملحّة والحاجة الماسة فشتان بين هذا التعدي وذاك، ويجب معه أن تختلف طريقة المعالجة لكلا الرجلين.

وإن على الذين يسعون لتطبيق الإسلام أن يعملوا على شمولية التطبيق، من صلات خارجية، وتحقيق الأمن ومنع الظلم والتعدي، وتأمين العمل، وإقامة العدل والمساواة، وتحقيق كفاية الناس في المأوى الجيد، والزواج، وبقية الحاجات، ويمكن بعدها إقامة الحدود، وقطع دابر الفساد ويكون المجتمع الفاضل. . . . أما تطبيق جانبٍ وترك جانبٍ فهو إخلال بالنظام وبتر لأسسه. وهذا ما لم يدركه المسؤولون من العثمانيين، كما لم يدركه بعد ذلك كثير من المسؤولين الآخرين في بلاد شتى، إذ يدّعون أنهم يريدون تطبيق الإسلام وأول ما يقومون به إقامة حدّ السرقة والزنا وإن طبقّوا هذا الحدّ على عددٍ من المفسدين وقلّت الجرائم نسبياً فظنّوا أنفسهم أنهم قد عملوا بالإسلام وأقاموا نظامه ورفعوا شعاره مع بقاء ارتباطهم في فلك

معين، أو سيرهم في اتجاهٍ معروف، ومع بقاء الظلم في المعاملات، والتعدّي على الحقوق، وانتشار الفقر والجوع والمرض... فما هو هذا الإسلام؟ وما هي نظرة الآخرين إلى هذا الإسلام ونتائج تطبيقه ؟ إن هذا ليس من الإسلام في شيء، وإنه لظلم له، وعدم فهم لنظامه.

وإن الذين ينتقدون الخلافة الإسلامية لا ينتقدونها أصلاً من ناحيةٍ إسلاميةٍ إلا بمقدار ما يريدون في الهجوم على الإسلام بصفتها كانت خلافةً وتقول بالحكم على أساس الإسلام. ولو كان النقد من وجهة نظر إسلامية لقبل الموضوع وبحث من هذا الجانب. وإن أكثر المنتقدين إنما هم من الذين يحملون أفكاراً معادية، أو من الذين يجهلون أحكامه، أو من الذين لا يعرفون التاريخ بشكل جيد. همهم الهجوم على الإسلام، أو على جانب إسلامي كان السوء في تطبيقه واضحاً والمخالفة صريحة وترك الجوانب الثانية التي فيها نوع من الصلاح. وينصبّ النقد عادةً على الجانب السياسي، والخلافة العثمانية من هذه الناحية كبقية الدول لها جوانب إيجابية وأخرى سلبية فيجب أن نعطي كل جانبٍ حقّه ثم نصدر الحكم. ونلاحظ أن العثمانيين قاموا بـ:

١ ـ توسعة رقعة الأرض الإسلامية، ويكفي أن نذكر فتح القسطنطينية والتقدّم في أوربا. لقد فتح العثمانيون القسطنطينية، وعجز المسلمون من قبلهم عن ذلك منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، عام ٥٠ حتى تمّ الفتح على يد العثمانيين عام ٨٥٧ أي أنه مضى أكثر من ثمانية قرون والمسلمون يعجزون عن هذا الفتح ويكفي أن نذكر حديث رسول الله ﷺ: «لتفتحنّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1]. وتقدّموا في أوربا، وساروا فيها شوطاً بعيداً، حتى وقفوا على أبواب ڤيينا وحاصروها أكثر من مرة، وهذه البلاد تطأها أقدام

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥) والحاكم في مستدركه عن أبي عبيدة بشر الغنوي الخثعمي.

المسلمين لأول مرة، والمسلمون الموجودون في تلك البقاع إنما هم بأكثريتهم من آثار ذلك التقدّم.

٢ ـ الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات، فقد تقدّموا في شرقي أوربا ليخفّفوا ضغط النصارى الإسبان والبرتغاليين ومن ورائهم أوربا عن المسلمين في الأندلس، وإن لم يكن هذا التقدّم واضح الأثر لبعد الشقة، ولضعف المسلمين في الأندلس الذين هم في اختلاف لم يستفيدوا من الدروس التاريخية التي حلّت بهم وبمن سبقهم في الأندلس على الأندلس، ولضعف العثمانيين الذين لم تقو شوكتهم بعد، ولم ينتهوا من هجمات تيمورلنك، والإمارات الأخرى المجاورة لهم، كما أن أساطيلهم كانت لا تزال في أول عهدها ولا يمكنها أن تخوض معارك بعيدة، وإن كانت قد قدّمت الدولة العثمانية في هذا المجال شيئاً في البحر المتوسط إلا أنه كان تقدماً محدوداً لا نستطيع أن نُبرزه أو أن نعطيه أكثر مما يجب. وعندما زادت قوة الدولة العثمانية في أيام محمد الفاتح، ودخل القسطنطينية عام ٨٥٧ كانت دولة بني نصر في غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وقد مزّقها الخلاف والاستنصار بطاغية النصارى، وأخيراً سقطت عام ٨٩٨ أي بعد أربعين عاماً من فتح القسطنطينية.

وعندما سقطت غرناطة بأيدي النصارى، وطُرد المسلمون من الأندلس، وسار الإسبان نحو الغرب في سبيل الوصول إلى الشرق لحصار المسلمين. وانطلق البرتغاليون نحو الجنوب للغرض نفسه، والتفوا حول إفريقية ووصلوا إلى جنوبي الجزيرة العربية يحملون معهم الروح الصليبية عندها وفي ذلك الوقت تماماً ترك العثمانيون مواقعهم في أوربا واتجهوا نحو الشرق فقاتلوا الصفويين الذين يدعمون البرتغاليين أو طلبوا منهم تشكيل حلفٍ للوقوف في وجه العثمانيين ثم التفتوا إلى الثغرات التي أوجدها البرتغاليون وأسرعوا نحوها، واجتاحوا البلدان العربية إذ وقف حكامها يومذاك من المماليك وحالوا دون وصول العثمانيين للتصدّي للبرتغاليين أو لم يقبلوا الاتفاق معهم لهذا الغرض، وامتدت ساحة القتال

بين العثمانيين والبرتغاليين في البحر الأحمر، وعدن، وحضرموت، وعُمان، والخليج العربي بل إن كل جبهةٍ يفتحها البرتغاليون كان العثمانيون يُسرعون للوقوف في وجههم، ويجب ألا ننسى السكان الذين كانوا يطلبون من العثمانيين حمايتهم أو يدعوهم لتسليمهم بلادهم، ووصل العثمانيون في دفاعهم عن ديار الإسلام إلى الهند حيث طلب المسلمون هناك دعمهم ومساعدتهم ضد الصليبيين من البرتغاليين، وربما كان للعثمانيين دور كبير في إنهاء النفوذ البرتغالي من بلاد المسلمين، وقد يكون قد فاق بقية أدوارهم في مقارعة الصليبيين.

كما أن الإسبان قد امتد نفوذهم في البحر المتوسط بعد سقوط غرناطة، وبدأت هجماتهم على المرافئ الإسلامية والنزول فيها مثل طرابلس، وتونس، والجزائر، ووهران غير أن العثمانيين كانوا أيضاً قد امتد نفوذهم إلى بلاد المغرب براً بعد دخول مصر، وبحراً بعد انضمام خير الدين باربروس إليهم وإعلانه أن الجزائر ولايةً عثمانية، هناك أيضاً وقف العثمانيون وجهاً لوجه أمام الصليبيين الإسبان.

ومن جهة الشمال انطلق العثمانيون إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار ضد الصليبيين من الروس، واستمروا على تلك الجبهة عدة قرون، كما شملت مساحات واسعة امتدت من شرقي أوربا حتى بلاد الداغستان على شواطئ بحر الخزر الغربية وتجاوزتها أحياناً إلى أواسط آسيا حيث الصراع بين المسلمين والروس أيضاً. وبهذا يكون وقوفهم في وجه الصليبيين المستعمرين من الجهات جميعاً أو أن جبهاتٍ فُتحت عليهم وتصدّوا لها من مختلف الجهات.

وربما سائل يقول: إن العثمانيين لم يوفّقوا في مواقفهم هذه أبداً بل حلّت بهم الهزائم في كل ناحية. فالعثمانيون بذلوا جهدهم كله، وعملوا بإمكاناتهم كلها، وعليهم السعي وليس عليهم إدراك النتائج لأن هذا الأمر ليس بأيديهم وإنما هو خارج عن إرادتهم، والمهم أن النيّة كانت صادقةً والبذل كان قائماً. والهزيمة ليسوا مسؤولين عنها وحدهم وإنما هي مسؤولية

المسلمين جميعاً من حيث التعاون، والالتفاف، والنفير، والإعداد الكامل، فنحن نتحمل جزءاً من هذه المسؤولية ويجب ألا نلقي العبء على غيرنا، ونجرّد أقلامنا وألسنتنا للنقد.

وربما نلاحظ أن العثمانيين قد وُفقوا في بداية الأمر فقد جمّعوا الإمارات المتعددة التي كانت منتشرة في الأناضول والتي كان يزيد عددها على العشرين إمارة فأصبحت قوة في وجه البيزنطيين بعد أن كانت موزعة وفتحوا القسطنطينية، وتقدّموا في أوربا، وانتصروا على الروس، وأجلوا الإسبان عن أكثر المرافئ الإسلامية التي نزلوا فيها على سواحل البحر المتوسط، ومنعوا من تسرّب النفوذ البرتغالي إلى الداخل، وكان لهم الباع الطويل في إنهائه، وهذا كلّه عندما كانوا أصحاب قوة، ولكن تبدّلت هذه المواقف عندما ضعفت قوتهم، فبدأت الانتصارات تنقلب إلى هزائم وتراجع، وربما نكون نحن العرب أحد أسباب الضعف الذي حل بالعثمانيين سواء أكان ذلك بالحركات الداخلية أم بالافتتان بأوربا، أم بعدم دعم الدولة بشكلٍ قوي، ولا أبرّئ ساحة العثمانيين في هذا الميدان فقد فُتن بعضهم بأوربا كما أصابنا الافتتان، وهبّت على بلادهم روح القومية كما هبّت علينا فأذلّتهم مثلنا أو أنها أذلّت المسلمين جميعاً.

٣ ـ عمل العثمانيون على نشر الإسلام، وشجّعوا على الدخول فيه، وقدّموا الكثير في سبيل ذلك، وقد نجحوا إلى حدٍّ كبير في كسب أكثر قبائل الشركس إلى الإسلام. إذ كانوا يشجّعون جنودهم على الزواج من الفتيات الشركسيات لكسبهن إلى الإسلام ثم جذب آبائهن إلى ذلك، ورغم ما في ذلك من بعض المخالفات المصلحية على الأقل إلا أن نجاحهم كان كبيراً في تلك الجهات حيث استطاع (فرح علي) الذي عُيّن ضابطاً في مركز (أنابا) عام ١١٩٤ بالقرب من منفذ البحر الأسود للوقوف في وجه التوسع الروسي أن يتزوّج ابنة أحد الشراكسة، وأن يقدّم الكثير لأهلها في سبيل كسبهم إلى الإسلام، وقد نجح في مهمته، ثم شجّع جنوده على ذلك ووعدهم بدفع نفقات الزواج كاملةً، وقد أظهر الشراكسة تفهّماً كبيراً،

وأقبلوا على الإسلام، وتعلّم القرآن الكريم. كما نجحوا في كسب قبائل الشاشان، غير أن نجاحهم كان أقل قليلاً مع قبائل القوشحة (الأوستين)، وكذلك كسبوا مجموعاتٍ من تلك الشعوب المنتشرة بين البحر الأسود وبحر الخزر.

وعملوا على نشر الإسلام في أوربا في البلدان التي وصلوا إليها، وإن كان نجاحهم قليلاً إلا أنهم عملوا على إسكان أعدادٍ من المسلمين في تلك البلدان كي يؤثّروا في المجتمعات التي يعيشون بينها، وقاموا بالأمر نفسه في المناطق الإفريقية التي دخلوها، والتي كانت بعض شعوبها لا تزال على الوثنية مثل بعض شعوب تشاد، والسودان، والصومال.

٤ ـ إن دخول العثمانيين إلى بعض الأمصار الإسلامية قد حماها من بلاء الاستعمار الذي ابتليت به غيرها، وعلى حين أن المناطق التي لم يدخلوها قد وقعت فريسةً للاستعمار باستثناء دولة المغرب التي لم تخضع للعثمانيين ومع ذلك لم يدخلها المستعمرون حتى وقتٍ متأخرٍ قبيل الحرب العالمية الأولى، فالهند، وأندونيسيا، وماليزيا دخلها المستعمرون من إنكليز، وفرنسيين، وهولنديين، كما دخل الروس إلى أواسط آسيا. وكلما كانت الأمصار بعيدةً عن قلب الدولة العثمانية أو قاعدتها في الأناضول كلما كان الاستعمار أسرع إلى تناولها، وكلما كانت أكثر قرباً بقيت في حمايةٍ نسبيةٍ من ذلك البلاء، فالجزائر خضعت للاستعمار قبل تونس، وتونس قبل ليبيا والتي تأخرت عن مصر لموقع مصر الخاص بها فقد جرّ عليها كثيراً من المتاعب وسبب لها الكثير من المشكلات مع المستعمرين، وبقيت بلاد الشام والعراق إلى آخر الأمصار الإسلامية بُعداً عن الاستعمار بسبب قربها من الأناضول، حيث لم يدخلها المستعمرون إلا في نهاية الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية، وخروجها من الساحة أو بالأحرى حتى انتهت وزالت عن الخريطة مع زوال الخلافة بل مع سيطرة دعاة القومية التركية رجال الاتحاد والترقي، وخلع السلطان عبد الحميد.

٥ ـ كانت الدولة العثمانية تمثّل الأمصار الإسلامية، فهي مركز

الخلافة، ولا يوجد سوى خليفةٍ واحدٍ في ديار المسلمين إذ لا يصحّ وجود خليفتين في آنٍ واحدٍ أو أكثر، لذا كان المسلمون في كل مكانٍ ينظرون إلى الخليفة نظرة احترامٍ وتقديرٍ، ويعدّون أنفسهم من أتباعه ورعاياه، وبالتالي كانت نظرتهم إلى مركز الخلافة ومقرها نظرة كلها المحبة والعطف، وكل حادثةٍ كانت تحلّ في ديار الخلافة نجد صداها في الأمصار الإسلامية كلها، بل وبين الجماعات الإسلامية التي تعيش كأقلياتٍ في دولٍ غير إسلامية، وعندما أُلغيت الخلافة ثارت ثائرة المسلمين في كل بقعةٍ حتى أطلق على كثيرٍ من الحركات والمؤسسات اسم الخلافة، أو العثمانية وخاصةً في جنوب شرقي آسيا، ولا تزال الجامعة العثمانية في حيدر أباد الهند تحمل هذا الاسم «الجامعة العثمانية».

وكلما وجد المسلمون أنفسهم في ضائقةٍ طلبوا الدعم من مركز الخلافة، بل إذا رغب أحد الحكام من غير المسلمين نشر الإسلام في بلاده أو فتوى عن أمرٍ يتعلّق بأحد رعاياه طلب ذلك من الخليفة المرجع الرئيسي والشرعي، ويتداعى إلى الذهن هنا طلب إمبراطور اليابان من السلطان عبد الحميد إرسال عددٍ من علماء المسلمين إلى اليابان لنشر تعاليم الإسلام.

٦ ـ وكانت الخلافة العثمانية تضمّ أكثر أجزاء البلاد الإسلامية فهي تشمل المنطقة العربية كلها باستثناء المغرب إضافة إلى شرقي إفريقية وأجزاء من تشاد، كما تضمّ تركيا وأكثر بلاد القفقاس مع ما شملته من بلاد التتار في شمال البحر الأسود، وقبرص، وما أخذته في أوربا وتكون قد زادت مساحة تلك المناطق على ٢٠ مليون كيلومتر مربع، وما خرج عن دائرتها من الأمصار الإسلامية التي كانت يومذاك سوى جنوب شرقي آسيا والمغرب وأواسط آسيا، وإيران، وبلاد الأفغان.

٧ ـ وكانت أوربا تُقاتل العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكاً، وتقف في وجههم بحقدٍ صليبي، وترى فيهم أنهم قد أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد، أو أنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد في النفوس

مدةً من الزمن، وترى فيهم مَدًّا إسلامياً جديداً بعد أن ضعف المسلمون ضعفاً جدّياً، وتنتظر أوربا قليلاً لتدفنهم، وترى أوربا في العثمانيين قوةً تخترق عليهم بلدانهم من الشرق بعد أن عجز المسلمون سابقاً عن هذا، وقد قضوا على الدولة البيزنطية إحدى قواعد الدول النصرانية، وتقدّموا في بقية أوربا النصرانية التي كادت أن تركع أمامهم، وترى فيهم أنهم الذين وقفوا دون انتشار النصرانية لأنهم وقفوا في وجه أتباعها في كل مكان، وحالوا دون امتداد النفوذ الاستعماري الصليبي وطلائعه من البرتغاليين، ومنعوا وصولهم إلى القدس وسيطرتهم عليها وعلى الأماكن المقدسة الإسلامية، وحالوا دون تقدّم الأحباش واتفاقهم مع أوربا صليبياً، كما منعوا القضاء على المسلمين الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة حسب التعبير الأوربي، وترى روسيا خاصةً أن العثمانيين هم إخوان التتار الذين كانوا يُسيطرون على بلادها، إخوانهم في العقيدة، وإخوانهم حتى في العصبية، وهم مسؤولون عما فعله التتار سابقاً سواء أكان ذلك قبل أن يدخلوا في الإسلام أم بعد إسلامهم، وترى فيهم الآن دعماً لأولئك التتار ومساعدةً لهم، بل يحولون دون تقدّم الروس في بلاد التتار. وترى في العثمانيين أعداءً ألداء قضوا على الدولة البيزنطية مركز المذهب النصراني الأرثوذكسي وقاعدته وحاميته، وهو المذهب الذي تدين به روسيا. وترى فيهم فاتحين للقسطنطينية ومُحوّليها من مدينةٍ نصرانيةٍ إلى مدينةٍ إسلاميةٍ بل صار اسمها استامبول (بلد الإسلام)، وترى فيهم رأياً سياسياً آخر إذ أنهم يحولون دون تقدّم الروس نحو الجنوب نحو المياه الحرة حيث تتجه الأنظار إلى تلك الجهات، وترى فيها الجنان التي ستدرّ عليهم المال والنصر والسياسة، وترى أنهم يملكون في أيديهم مفاتح الطرق البحرية، وهي مضائق البوسفور والدردنيل، وترى فيهم سدّاً منيعاً يحول دون تقدّم الروس نحو الشرق في بلاد التتار في أواسط آسيا في بلاد الأتراك وكلاهما من المسلمين، ويتلقّون دعماً من العثمانيين على أنهم مسلمون، بالإضافة إلى الصفة العصبية التركية التي تجمع بينهم، فالعثمانيون أعداء عقيديين، وأعداء سياسيين في نظر الروس، وإن كانت السياسة تنبع من العقيدة، ولولا العقيدة لربما حُلّ

الجانب السياسي، وعلى هذا فالعداء بين أوربا عامة والروس خاصة عداء ديني قبل كل شيء، ولا يزال الأمر حتى الآن رغم تغيير النظام الروسي جذرياً، وزوال الدولة العثمانية، غير أن الإسلام باقٍ لذلك فالحقد الصليبي قائم.

وكان يحزّ في نفوس الأوربيين أخذ العثمانيين أبناء النصارى الصغار الذين لا أهل لهم بعد المعارك الطاحنة التي كانت تدور بين الطرفين ووضعهم في مدارس خاصة يتلقّون فيها الديانة الإسلامية والتربية العسكرية وهؤلاء الناشئة هم الذين سيكونون عماد الجيش الذي سيُقاتل الأوربيين، ويُحلّ بهم الهزائم يوم أُحسنت التنشئة، ولقيت التربية العناية الكافية، ويوم كان العثمانيون أقوياء، حتى إذا ضعفوا أصبح هذا الجيش سبب بلائهم. كما أن أبناء السلاطين والخلفاء كانوا يربُون التربية نفسها تربيةً إسلاميةً وعسكريةً، فينشأ السلطان صاحب عاطفةٍ إسلاميةٍ، وفي الوقت نفسه عنده الروح العسكرية، ونتيجة كليهما كان يُلاقي أعداءه، ويقف في وجه أطماعهم، ولا يستطيعون أن يجدوا معه حيلةً يشترونه بها، فلم يكن هناك من خلفاء بني عثمان من يرى مُهادنة أوربا النصرانية إلا إذا كان ضعيفاً مجبراً على ذلك، ومع هذا كان يتحين الفرصة للانقضاض عليهم، أما وجود خليفةٍ قويٍّ، ويفكّر في السير بفلك أوربا والتفاهم معها سياسياً فهذا ما لم يحدث.

هذه الجوانب كلها جعلت أوربا تكره العثمانيين، وتصبّ جام غضبها عليهم حرباً، وسياسةً وكتابةً ومن هذه الكتابات الأوروبية التي دُوّنت بيد أعدائنا تُصنّف ضمن المراجع الرئيسية لنا بالنسبة إلى العثمانيين وقد أخذ منها بعضنا وهو المفتون بأوربا أو المستغرب كراهية العثمانيين ونقله إلى الطلاب جميعاً بل وإلى الأساتذة. أما الجوانب السلبية فقد بالغ فيها النصارى، وبالغ فيها أعداء العثمانيين من أصحاب الفكرة القومية سواء أكانوا عرباً أم تركاً أم غيرهم، كما بالغ فيها أصحاب النيّات الطيبة لما عرفوه من الكتابات الأوربية، مع ما في هذه الجوانب السلبية من سوءٍ

أيضاً، سوءٍ لا ينكر، ولكن ننظر إليه بعينٍ غير العين التي ينظر بها الأعداء وأحياناً طيّبو القلب من أبنائنا.

٨ ـ كانت للعثمانيين بعض الأعمال الطيبة والتي إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على صدق عاطفتهم وإخلاصهم، مثل عدم قبول النصارى في عداد جيشهم، وإعفاء طلبة العلم الشرعي من الجندية الإلزامية، وتعيين إمام لكل قطعةٍ منفصلةٍ، ولا يزال أكثر هذه الأعمال قائماً إلى الآن في تركيا رغم العلمانية التي سلكتها الدولة التركية الحديثة منذ أيام مصطفى كمال وإلى الآن. ومن ذلك أيضاً إصدار المجلة الشرعية التي تضمّ فتاوى العلماء في القضايا التي تحدث في نواحي الدولة المختلفة كلها.

٩ ـ وكان للعثمانيين دورهم في أوربا إذ قضوا على نظام الإقطاع، وفتحوا السجون التي كانت تضمّ المسجونين أبداً لغضب سادتهم عليهم أو لسبب تافه ليس بأفضل من ذاك، وأنهوا مرحلة العبودية التي كانت تعيشها أوربا حيث يولد الفلاح عبداً وينشأ كذلك ويقضي حياته في عبوديته لسيده مالك الأرض التي يعمل بها.

ولعلّ من أهم سلبيات الخلافة العثمانية، والتي كان لها أثر في إضعاف الحكم:

١ ـ إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما المصدر الرئيسي للتشريع، وعدم معرفتها المعرفة الجيدة يُسبّب عدم الفهم الصحيح لأحكام الإسلام، وكان يجب الاهتمام بها الاهتمام البالغ وكان الاتجاه نحو اللغة التركية أكثر منه إلى اللغة العربية بصفة أن الخلفاء والحكام يُجيدون التركية وهم من أبنائها، وفي هذا جهل لأن العربية لغة الإسلام، وصحيح أن بعض السلاطين أو الخلفاء سعوا وعملوا على إقامة المدارس باللغة العربية، واهتمّوا بالعلم الشرعي إلا أن ذلك كان دون المستوى المطلوب وأقلّ مما يجب أن يكون بكثير، وكان على الخلفاء أن يتعلّموا هم العربية ويشجّعوا عليها. ومع عدم تعلم اللغة قلّ الفهم الصحيح، وساد الجهل وخاصةً في الأمصار التي تتكلم العربية، وأثّر هذا على الضعف والتأخّر العلمي.

٢ ـ عدم الوعي الإسلامي الصحيح إذ كان كثير من المسؤولين لا يعرفون من الإسلام سوى العبادات، لذا كانوا يحرصون عليها وعلى تأديتها، ويُقيمون الاحتفالات ببعض المناسبات وهذه الاحتفالات ليست واردة ولا بذات أصل، ويحرصون على الأذكار، ثم على الذكر والانصراف أحياناً إلى ذلك انصرافاً تاماً، وهذا ما أدّى إلى انتشار الطرق الصوفية، ومع هذا الانتشار حدث التواكل وعدم السعي في الأرض وإضعاف فكرة الجهاد، وعدم الإنتاج، وعدم مناهضة الكفّار ومن هذه الأمور بدأ الضعف ينخر في الدولة. أما فهم الإسلام على أنه منهج حياة فهذا أمر آخر.

٣ ـ كان العثمانيون يحرصون على تغيير الولاة باستمرار وخاصةً في أواخر عهدهم ويعود ذلك على حسب تقديرهم إلى أن الوالي إذ استمر في ولايته مدةً طويلةً، فإنه يصبح على صلاتٍ وثيقةٍ بالناس، وربما استغلّ منصبه هذا في الحصول على بعض المنافع، كما أن نفسه قد تحدّثه بالاستقلال بالولاية، وقد اكتسبوا هذا من التجربة، ومما حدث لهم في السابق مع بداية الضعف الذي أصاب دولتهم، ويدلّ هذا دون شك على عدم الثقة بالوالي، وربما نتج هذا عن انتشار الفقر ورغبة المسؤولين في الحصول على المال. كما يدلّ على ضعف الحكم الذي أدّى إلى تغيير الولاة، ووجود عددٍ من الطامعين لا يُعطي صفة التعميم وخاصةً إذا كان الوضع طبيعياً والحكم قوياً. وإن هذا التغيير يُؤدّي بدوره إلى الضعف حيث أن الوالي الجديد لا يعرف شيئاً عن الولاية التي أتى إليها وربما لأول مرة فلا يستطيع أن يتعرّف على السكان ومشكلاتهم، وأوضاعهم، وما يعانون، وما فيه صلاحهم ليعمل له، وما يتمّ له ذلك حتى يُنقل إلى ولايةٍ ثانيةٍ، ويأتي آخر ليقوم بالدور نفسه، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى عدم الإصلاح وإلى التأخّر وسوء الأوضاع في الإدارة عامةً.

٤ ـ ومن الأمور التي عُرفت لدى بعض السلاطين العثمانيين قتل إخوتهم وذلك أنه عندما يتولّون الأمر يخشون من إخوتهم أن يُنازعوهم إياه، إذ سبق لإخوة بعض السلاطين أن خالفوهم، وقاتلوهم على الحكم،

فأصبح الحكام الجدد يخافون من ذلك فيتصرّفون بهذا التصرّف الشاذ الذي يرفضه الإسلام لأن فيه القتل عمداً ومن غير ذنب، وحدّه قتل القاتل. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[1] كما في هذا العمل اختلاف في الأمة إذ مجرّد أن يؤول الأمر إلى أحد إخوانه يخافونه قبل أن يقبض عليهم فيفرّون وتكون لهم جماعة، أو ينتفضون على الحكم، وهذا ما يُسبب فتناً وارتباكاً في الدولة ويُضعف من شأنها.

٥ ـ إن الزواج من الأجنبيات الكتابيات جائز ولكن ليس فيه مصلحة وخاصة إن بقيت على دينها، فإن هذا الزواج فيه منافسة للمسلمات اللواتي يبقين دون أزواج، وفيه أثر على تربية الأولاد، التربية الإسلامية الصحيحة، وربما كانت هذه النساء مطمعاً لاتصال أبناء عقيدتها فيها وأخذ ما عندها من أسرار وخاصةً إذا كانت الحرب قائمةً بين الطرفين، لذا كان الزواج من الكتابيات مُقيَّداً وليس مطلقاً، وأصعب الأمور إذا كان هذا الزواج من علية القوم، وقد كان بعض السلاطين والخلفاء يتزوّجون من الكتابيات لجمالهن، وفي هذا إساءة كبيرة للأمة، فإذا كانت هذه النساء لا تستطعن التأثير على أبنائهن في التربية لأنه يتربّى في مدارس إسلامية وعسكرية كما ذكرنا ويخرج بصورة لا يلتفت معها إلى أمّه، وهو يعلم ماضيها، إلا أن هذا لا يمنع من إمكانية التأثير عليه في بعض الجوانب، والحصول على بعض الأسرار، أو التأثير على بعض رجالات الدولة بصفتها والدة السلطان أو الخليفة، وربما حدثت بعض هذه التأثيرات، ووقعت بعض الأخطاء، ولكن بقيت في ضمن الأسرار لأنها في بيت الخلافة. وبعث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، بعدما ولاّه المدائن. بلغني أنك تزوّجت امرأةً من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها: فكتب إليه: لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام؟ وما أردت بذلك؟ فكتب إليه:

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم. فقال: الآن، فطلقها[1].

٦ ـ وإن الحكم الوراثي الذي مشى عليه العثمانيون غير مقبول من وجهة النظر الإسلامية، ولكن سبقهم إلى ذلك الأمويون، والعباسيون، وكلهم مخالف. وإن احتج بعضهم بصعوبة اجتماع أهل الحل والعقد، والمستوى الذي آلوا إليه، وصعوبة اختيار الخليفة، والظروف التي تعيشها الأمة بحيث يصعب تعرّضها لهزّات، وأنه في أثناء التطبيق تبدو الصعوبة، فالخوارج الذين بقوا يُقاتلون الأمويين والعباسيين، وينتقدون الحكم الوراثي ساروا عليه في كل دولهم التي أنشؤوها سواء أكان ذلك في المغرب أم في المشرق، وسواء الإباضية منهم أم الصفوية إذ وجدوا في أثناء التطبيق خلافاً لما يُنادون به نظرياً. ومع هذا فتبقى الحجة واهية، ولا يمكن الاستناد عليها.

٧ ـ إعطاء العسكريين أكثر من حقهم سواء أكانوا من الانكشارية أم من السباهية فقد تسلّطوا واستبدّوا وبدؤوا يتدخلون في الحكم ففسد، وأصبحوا أداةً كأداء في وجه الإصلاح الحقيقي لما لهم من نفوذ وما يملكون من قوة، كما أصبحوا هم سبب الفوضى والمفاسد بسبب تصرفاتهم.

٨ ـ كان العثمانيون يكتفون من البلاد المفتوحة بالخراج، ويتركون السكان على وضعهم القائم من العقيدة واللغة والعادات، إذ يهملون الدعوة والعمل على نشر الإسلام، وإظهار مزايا الإسلام من المساواة، والعدل، والأمن، وانسجامه مع الفطرة البشرية.

٩ ـ ولا شك فإن الضعف الذي آلت إليه الخلافة العثمانية وخاصةً في أواخر عهدها يُبرز السلبيات، ويُعدّ من أقواها، فقد تكالبت الدنيا على العثمانيين، وكلها تحاربهم بروحٍ صليبيةٍ، فالروس من الشمال، والنمسا من

---

(١) الطبري: ٦/ ١٤٧.

الغرب، والإمارات الإيطالية، ثم فرنسا، وانكلترا في البحار والمحيطات، وتنزلان جنودهما في الموانئ الإسلامية والبلدان التي تخفّ عنها قبضة العثمانيين أو البعيدة عن مركز الدولة، وقد تختلف الدول النصرانية فيما بينها، وعلى اقتطاع أجزاء من الدولة، ولكنها تتفق كلها ضد الدولة، وتتفق في مؤتمراتٍ عامةٍ لاقتسام المصالح ومناطق النفوذ، وسلخ رقعٍ من الأرض من أملاك العثمانيين وإرسال حملات، وهذه الحملات على المسلمين كانت سبباً في بلاء المسلمين أدّى إلى ضعف الدولة كما أدّى في الوقت نفسه إلى هزيمة المسلمين النفسية في تلك الجهات التي جاءت إليها الحملات، وإلى انتشار المفاسد، مع ما تدّعيه هذه الحملات من أنها جاءت لنشر العلم، ومعاداة الجهل، والأخذ بيد السكان نحو الحضارة والمدنية وإبعادها عن التأخّر والرجعية، وما يتمثّل في الخلافة العثمانية، لا تختلف في ذلك حملة عن أخرى ودولة أوربية عن ثانية، وإن أشدها وضوحاً وأكثرها أثراً على نفسية السكان الحملة الفرنسية على مصر، على حين كانت دعوى الفرنسيين خاصةً والأوربيين عامةً على أن هذه الحملة كانت بداية التطور الحضاري في مصر وترك تلك المظاهر المتخلّفة، وهذا ما سجّلته أقلامهم، ودُوّن في كتبهم، ومن هذه المصادر نقلت كتبنا التي نشأت عليها الأجيال وتربّت على معلوماتها الأبناء.

واستغلّت أوربا النصرانية هذا الضعف الذي آلت إليه الخلافة العثمانية، واختلاف الكلمة التي أصبحت عليه الأمة فأوقدوا بينهم نار الحرب بدعم هذا أو تأييد ذلك فإذا وجدت حركة إسلامية سليمة وجهت الجهود ضدّها، ووقّفت أوربا بين الأطراف المتنافرة فيما بينها والمخاصمة لها. ففي مطلع القرن الثالث عشر، وجدت ثلاث قوى تمثّل ثلاث وجهات نظر. كانت الخلافة العثمانية وتمثّل الاتجاه الإسلامي الاتكالي، والذي ظهر على حملته الضعف، وكانت مصر تحت حكم محمد علي الذي يمثّل الانفتاح نحو أوربا، والسير نحو التحرر من قيود العقيدة، وكانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب تمثل الاتجاه الإسلامي

السلفي، فعملت الدول الأوربية على أن يشنّ مركز الخلافة ومحمد علي مجتمعين الحرب على الحركة الإسلامية في الجزيرة العربية، حتى قوّضت عام ١٢٣٣، ثم عادت فعملت على تقوية محمد علي فضمّ السودان إليه ثم بلاد الشام، ثم أوقعت بينه وبين مركز الخلافة الذي بدا ضعيفاً، ثم خشيت أن تعود الحيوية إلى المسلمين فعملت مرةً ثالثةً على إضعاف شأن محمد علي وإعادته إلى رقعته الأولى التي انطلق منها وهي مصر فقط.

وبتدخل أوربا هذا صار لدولها أنصار ومؤيدون اتصلت بهم في أثناء هذا التدّخل وأعطتهم صفة الوطنية لأنهم عملاء لها فإذا انكشف أمرهم، وعُرف وضعهم، ونالوا جزاءهم كانوا شهداء في نظر أتباعها ومن ذلك ما عُرف بـ(شهداء ٦ أيار)، وكالت إليهم الثناء والمدح لخيانتهم لعقيدتهم وبلادهم وسيرهم خلفها. وذلك فيما دوّنه أبناؤها، وعن هذا أخذ كُتّابنا ومُؤرّخونا، حتى ضاعت الحقائق وأصبح ما زُيِّف هو الحقيقة.

هذا الضعف الذي حلّ بالخلافة في أواخر عهدها جعل القبائل البدوية تطمع فيما جاورها، وتشنّ الغارات على المناطق الحضارية التي تقع على حدود باديتها، وقوي أمر المتنفّذين وقطّاع الطرق، واستأسد من لم يعرف الرجولة ما دام عدد من الأعوان يلتّف حوله، ولا يفرّقون بين الحلال والحرام. كما أوجد هذا الضعف الفوضى في الإدارة حيث دخلت الرشوة إلى الدوائر، وأصبح للمحسوبيات دور، وللمتنفّذين سلطان، واختلطت المفاهيم حتى ضاع الحق في ثنايا الباطل، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفرّق بين النيّة الحسنة والقصد الخبيث، وهذا ما جعل بعض الرجالات الذين يريدون الإصلاح يرغبون في التخلّص من الحكم لما آل إليه، وحلا بنفسهم التغيير إلا أنهم وجدوا موقعهم بين دعاة القومية بل اختلطت عندهم المفاهيم الإسلامية مع العاطفة العربية فتارة يفسّرون العربية بالإسلام، أو لا يفرّقون بينهما، وتارةً أخرى يبدو عندهم الأثر الإسلامي واضحاً، وهم قد عُرفوا بذلك، وشُهد لهم بالصلاح، وقد استغلّ دعاة القومية العلمانيون هذا الجانب العاطفي في أولئك فقدّموهم وأبرزوا منهم ما يريدون، وأخفوا ما

يرغبون فظهروا بالمظهر القومي، وقلّدهم الناس، وانطلق ركب القومية يحرّك طيبي النفوس، ويستغلّهم حتى حدث هذا الشقاق، وبرز في ذلك الوقت رجال خلطوا بين العمل الإسلامي والقومي، أمثال عبد الرحمن الكواكبي، وعبد الحميد الزهراوي، و. . . وكان السلطان عبد الحميد الثاني يحرص على جمع الأمة وتوحيد الكلمة، ويريد الدعوة إلى الإسلام، وطرح فكرة الجامعة الإسلامية، ولكنه لم يشعر إلا والمركب قد تحرّك من تحت أقدامه. وكان الهجوم ينصبّ عليه من كل جهةٍ، هجوم صليبي حاقد تكلّمنا عن بعض جوانبه، وهجوم يهودي شرس يدعم الأول، ويستند عليه، ويُغذّيه وتنطلق شراسته من موقف السلطان عبد الحميد في وجه اليهود الذين يُريدون أن يُؤسسوا لهم مستعمراتٍ في فلسطين، وقد رفض كل المغريات التي عُرضت عليه، ووقف صامداً في وجه المحاولات والجهود التي بُذلت له، بل والتهديدات التي وجهت إليه، فانبرت له أجهزة الإعلام اليهودية، وسُخّرت معها الأجهزة الصليبية بل التقت معها، فأزيح بانقلابٍ عليه، فكان الخليفة المظلوم الثاني الذي سقط نتيجة الإعلام اليهودي والحقد اليهودي، ووقعت الواقعة، وانتصر المستغربون، وتجزأت الأمة، ودخل الاستعمار إلى البلاد، وفشت بين الزعماء روح الإلحاد.

هذه بعض الجوانب الإيجابية والسلبية في الخلافة العثمانية، وربما نُلاحظ بعض جوانب أخرى في أثناء دراسة هذه الدولة العظيمة، وربما تكون الإيجابية في مرحلة الخلافة الأولى في أيام القوة والتوسّع بل وفي مراحلها الأخيرة، وتكون الجوانب السلبية في مرحلة الخلافة الأخيرة في وقت الضعف والتراجع بل وفي المرحلة الأولى أحياناً.

الفصل الأول

الأناضول قبل العثمانيين

كانت بلاد الأناضول أو آسيا الصغرى من ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) قبل الإسلام، وكانت في صراعٍ دائمٍ مع الفرس، والحرب سجال بين الطرفين، فلما جاء الإسلام، وانطلقت الفتوحات الإسلامية في كل جهة، فقضت على دولة الفرس نهائياً وورثتها، وانتزعت من الإمبراطورية البيزنطية بلاد الشام ومصر ثم سائر الشمال الإفريقي، أما بلاد الأناضول فقد تمكّن المسلمون من انتزاع أجزائها الشرقية من أطراف أرمينيا حتى ذرا جبال طوروس، واشتهر حبيب بن مسلمة[1] من قادة فتح تلك الجهات. ومن ناحيةٍ ثانيةٍ حاصر المسلمون القسطنطينية منذ عام ٥٠هـ في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، غير أنهم قد عجزوا عن فتحها، وتكرر الغزو مرات، ولكنهم لم يُوفّقوا فيه، وبقيت قاعدةً للإمبراطورية البيزنطية، كما بقيت ذرا جبال طوروس حدّاً فاصلاً بين المسلمين والبيزنطيين مدة أيام الدولة الأموية، وقد أقيمت الثغور على تلك الذرا، وتتعاقب الصوائف والشواتي على تلك الثغور وعلى حركات الغزو والجهاد التي ما انقطعت، واشتهر من القادة مسلمة بن عبد الملك، ومروان بن محمد بن عبد الملك الذي أصبح خليفةً فيما بعد، ونقل عاصمته إلى حرّان في شرقي الأناضول، وهو آخر خليفةٍ أموي.

---

(١) حبيب بن مسلمة بن مالك الفهري القرشي: ولد قبل الهجرة بعامين، وشهد اليرموك، وتولّى أمر إنطاكية، فتح أرمينيا وأذربيجان ٢٣ ـ ٣١، وتوفي بأرمينيا عام ٤٢هـ.

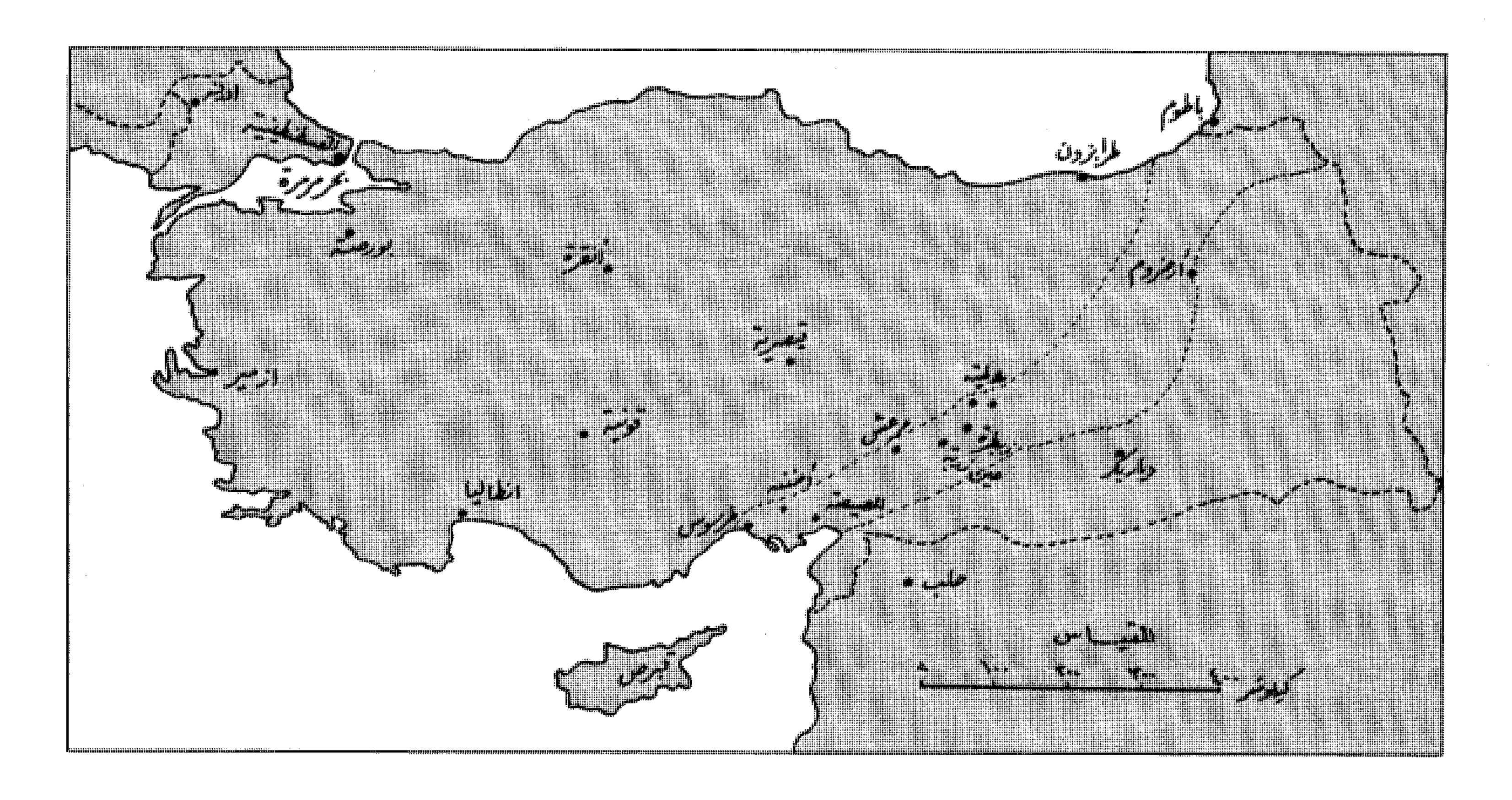
وجاء العباسيون وعملوا على توطين أقسام من جيش خراسان في الأجزاء الأناضولية الخاضعة لهم، وكان الخليفة المهدي[1] يستقدم الأتراك من فرغانة[2] ، وبلْخ[3]، ويُسكنهم الثغور مثل طرسوس، وأضنه، ومرعش، وملاطية، والمصيصة، وعين زربة، وزبطرة، وخرشنة، وآمد، وملازكرت، وخلاط، وقالبقاد، وكلها في المنطقة الجبلية الفاصلة بين المسلمين والروم (انظر المصور رقم ١). وقد زاد عدد الترك في هذه المناطق في عهد المأمون والمعتصم. وكانت حركات الجهاد تتجاوز الثغور أحياناً، وتدخل إلى الجهات الغربية، ونعلم أنه في أيام المعتصم أغار الروم على ثغر زبطرة، وانتهكوا الحرمات ووصل الخبر إلى المعتصم فجرّد حملةً انتقامية وتمكّن من الوصول إلى مدينة عمورية التي تُعدّ من أشهر مدنهم يومذاك، وتقع في قلب الأناضول، في الجنوب الغربي من أنقرة، أي بعيداً عن منطقة الثغور بأكثر من خمسمائة كيلومتر، اخترقها المعتصم كلها، وخرّب المدينة، وأحرقها، ولعل هذه الحملة تعدّ من أهم ما خلّد ذكر المعتصم، إذ أكثر الشعراء من مدحه بعدها، وذكر نتائجها. وفي عهد المتوكل أصبح الأتراك هم عماد الجيش في الدولة، وغدت الثغور الأناضولية تحت إمرتهم، وقد استمرت أعمال غزوهم، وكانوا يخضعون للخليفة العباسي في بغداد، أو للحمدانيين في حلب، أو للطولونيين في الفسطاط، ورغم هذا الانقسام فإن القتال لم ينقطع بين المسلمين والروم، وكانت الحروب سجالاً، أو أن التقدّم كان بين مدٍّ وجزر وإن كان قد أُعطي صورةً أكبر من الواقع بكثير في أيام الحمدانيين لأسبابٍ سياسية، ورسخ في

---

(١) المهدي: محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ثالث خلفاء بني العباس، تولّى أمر الخلافة بعد وفاة أبيه أبي جعفر المنصور عام ١٥٨، وتوفي عام ١٦٩هـ.

(٢) فرغانة: مدينة، وكورة واسعة في بلاد ما وراء النهر، يجري فيها نهر سيحون الأعلى، وتقع اليوم في جمهورية قيرغيزيا الاتحادية التي تخضع لسيطرة الروس.

(٣) بلخ، بفتح الأول وتسكين الثاني، مدينة مشهورة في خراسان، تقع اليوم في بلاد الأفغان، وتعرف باسم وزير أباد، على حين أن الإقليم يُعرف باسمها، أو يُنسب إليها.

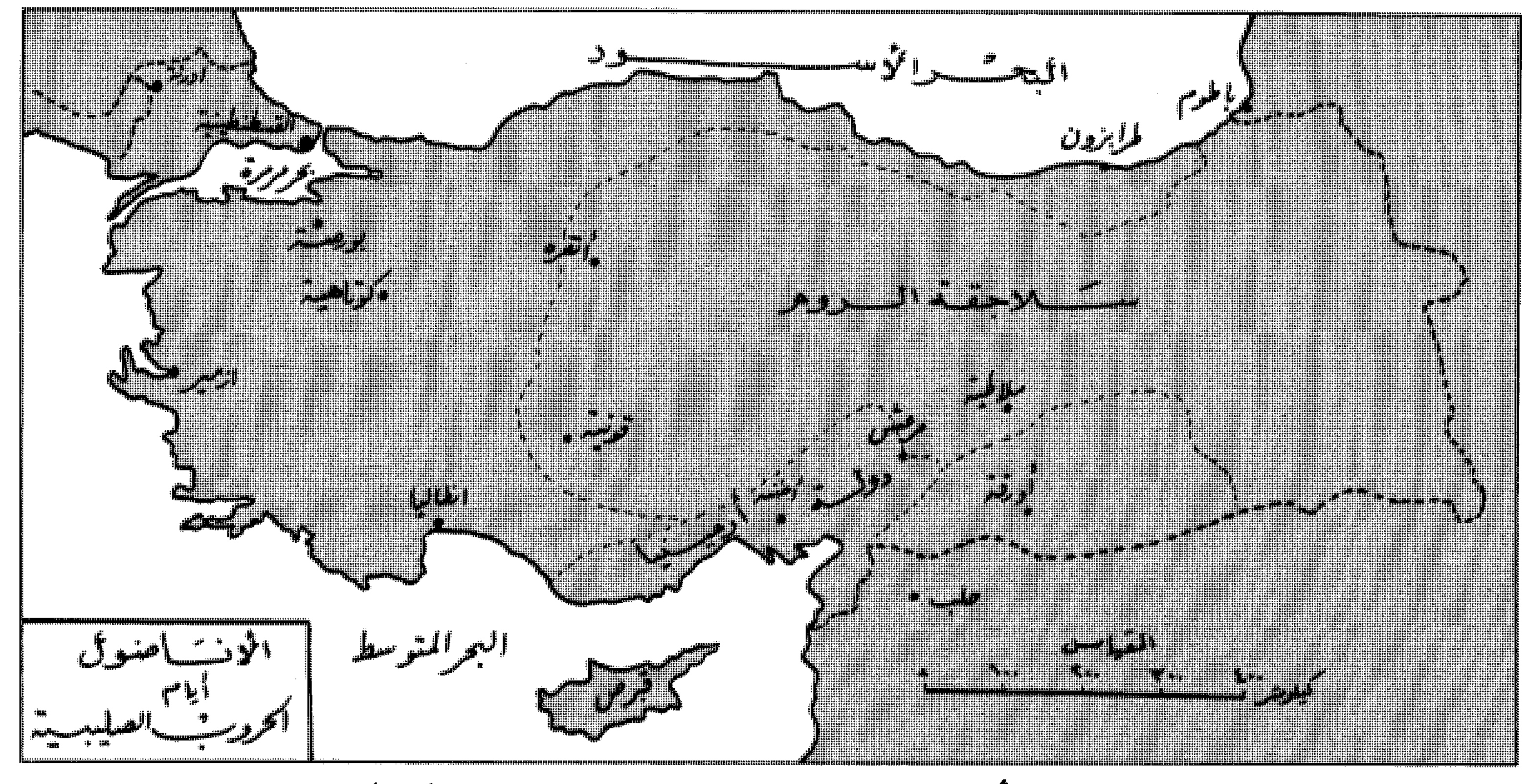


باطوم
طرابزون
القسطنطينية
بحر مرمرة
بروسة
أنقرة
أرضروم
قيصرية
ازمير
قونية
انطاليا
طرسوس
ديار بكر
حلب
قبرص
القياس
كيلومتر

مصور رقم [١]

النفس نتيجة تخليد الشعراء لهذه المعارك رغم أن أكثرها لم يكن في صالح الحمدانيين، كما لم تحمل معنى الجهاد وإنما المحافظة على السلطان وأطراف المملكة.

وضعُفت الدولة العباسية نتيجة الانقسام والتجزئة وسيطرة العسكريين على الدولة، وفكر الإمبراطور البيزنطي بالقضاء على الدولة العباسية، وكان أمله كبيراً في تحقيق حلمه حتى أنه قسم أمصار الدولة الإسلامية بين قادة جنده، وفي هذا الوقت كان السلاجقة قد وصلوا إلى غربي الدولة، ودخل زعيمهم طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق بغداد، وأصبح السيد المطاع فيها، وبدأ صراعه مع الروم، فاتجه إلى ديار بكر، وقاتل البيزنطيين، وانتصر عليهم، وعقد معهم هدنةً، واشترط فيها بناء مسجد في القسطنطينية، فأقيم المسجد، وأقيمت فيه الصلاة والجمعة، وخُطب لطغرل بك فيه. وتوفي طغرل بك عام ٤٥٥، ولم يكن له ولد فخلفه ابن أخيه سليمان بن داود، غير أن أخاه ألب أرسلان بن داود قد ثار عليه، وتسلّم الأمر، ودخل في الحرب مع الروم، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملازكرت عام ٤٦٣، وكانت جيوشهم تربو على مائتي ألف مقاتل، وتضمّ أخلاطاً من الروم، والروس، والكرج، والأرمن، والخزر، والفرنجة وكثيراً من القبائل الغزية التي لا تزال على كفرها، على حين لم يكن جيش ألب أرسلان ليزيد على عشرين ألفاً أي ما يعادل ١/ ١٠ من جيش البيزنطيين ومع ذلك فقد أحرز ذلك الانتصار المؤزّر، وأسر إمبراطور الروم (ديوجينيس رومانوس)، ولكنه أطلق سراحه مع جماعةٍ من أمرائه مقابل أن يُطلق الإمبراطور سراح كل مسلمٍ أسير، وأن يرسل إليه عساكر الروم لتُقاتل معه في أي وقتٍ يطلبها. وانساحَ السلاجقة بعد تلك المعركة في الأناضول حتى الجهات الغربية فملؤوها، وأسسوا إمارات فيها، ومن بين هذه الإمارات إمارة أسسها قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق، وقد خرج عن طاعة ألب أرسلان فقاتله فقتل، فقام مكانه ابنه سليمان بن قطلُمش. ثم قُتل ألب أرسلان عام ٤٦٥ على يد كمينٍ نُصب له، وهو في طريقه إلى الصين.



تراجع سلاجقة الروم أيام الحروب الصليبية وقيام دولة أرمينيا في كيليكيا وقيام امارة اورفة الصليبية

وتمكّن هؤلاء السلاجقة الذين انتشروا في الأناضول أن يُقدّموا خدمات للمسلمين في أول أمرهم إذ استردّوها من الروم بعض الأجزاء التي سبق لهم أن أخذوها من المسلمين، ومنها أنطاكية إذ استردّوها عام ٤٧٧، وكان الروم قد أخذوها من المسلمين منذ عام ٣٥٨، كما استردّت الدولة المرداسية منبج عام ٤٦٨. وتأسّست إمارت سلجوقية في الأناضول وأرمينيا، ومن أبرزها الإمارة التي أسسها سليمان بن قطلُمش بن أرسلان بن سلجوق، والتي كان مقرّها قونية، والتي أطلق عليها اسم سلاجقة الروم، ثم أعقبها قيام إماراتٍ أخرى. وفي الوقت نفسه فقد قامت دويلات أرمنية في أرمينيا، وأسّس الأرمن الذين فرّوا من وجه السلاجقة، واتجهوا إلى الغرب دويلةً في كيليكيا مقرها أضنه، وبقيت قائمةً حتى انهارت على يد المغول. وزاد توسع السلاجقة وانتشارهم في الأناضول في أيام ملكشاه بن ألب أرسلان.

وجاء الصليبيون عام ٤٨٩ بدافعٍ صليبي وحقد، وإن كانوا قد احتجّوا بأن السلاجقة يُسيئون معاملة النصارى وهم في طريقهم إلى القدس، واستطاع هؤلاء الصليبيون أن يجتازوا الأناضول التي يعمرها السلاجقة، وأن يفصلوا بين المناطق الغربية عن المناطق الداخلية، وفي الوقت نفسه فقد أسسوا إمارة صليبيةً في الرها، ودعمهم الأرمن الذين كانت لهم دويلة في كيليكيا، واضطر الأمير السلجوقي قليج أرسلان صاحب نيقية أن ينقل مقر إمارته من نيقية إلى قونية. ثم اختلف الإمبراطور البيزنطي مع الصليبيين فتركهم وشأنهم، واتجه لاسترداد بعض أملاك السلاجقة فدخل أزمير وأفسوس لانقطاع هذه المناطق عن بقية السلاجقة في الداخل بالصليبيين.

وقامت الحروب الصليبية في بلاد الشام، ووقف آل زنكي في وجههم، ولما توفي نور الدين محمود عام ٥٦٩ قام صلاح الدين الأيوبي فاستولى على أغلب البلاد التي كانت في يد آل زنكي، وأقطعها لإخوته وأبناء عمومته، وفتح كثيراً من البلدان التي كانت بيد الصليبيين، ودخل القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب عام ٥٨٣ وأنقذها من يد النصارى، وتوفي عام ٥٨٩ وبموته انفرط عقد الدولة الأيوبية، وتفرّقت كلمة أمرائها، واستقل

كل من أولاده ـ وكانوا سبعة عشر أميراً ـ في جزء منها، فاستقل العزيز عماد الدين عثمان في مصر، والأفضل في دمشق، والظاهر في حلب، وحاول كل منهم الحصول على ما في يد أخيه. وحارب العزيز بمساعدة عمه العادل صاحب الكرك أخاه الأفضل، وأخرجاه من دمشق، وملكها العادل، وتوفي العزيز عام ٥٩٥، وخلفه ابنه المنصور محمد، وكان صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره، فكاتب الأمراء في مصر عمه الأفضل ليتولّى أمر مصر فأسر إليها، فأراد الانتقام من عمه العادل، واستعان بأخيه الظاهر في حلب، وحاصرا دمشق، ثم اختلفا فتركاها، ولحق العادل بالأفضل إلى مصر، وتمكّن من إخراجه منها، وتسلّم مصر ودمشق عام ٥٩٩، وبقي حتى توفي عام ٦١٥، وخلفه ابنه الكامل في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى في حران، وخلاط في شرقي الأناضول، وبصورةٍ عامة لم تكن هناك دولة أيوبية بل دول متعددة، ويُطلق على حكامها اسم ملوك، والخلافات قائمة بينهم، ولم تجد تدخلات الخليفة العباسي للصلح بينهم، فمنهم من لجأ إلى الصليبيين، ومنهم من راسل خوارزم وغير ذلك.

وفي هذه الأثناء بدأ الهجوم المغولي من الشرق، فخاف بعض الحكام فانضموا إليه، وحدث اجتماع لهؤلاء الذين تحالفوا مع المغول عام ٦٤٣ ضم إضافةً إلى المغول الأمير مسعود بيك من بلاد ما وراء النهر، والأمير أرغون من خراسان، وصحبه أكابر من العراق، واللور، وأذربيجان، وشروان، ومن سلاجقة الروم الأمير ركن الدين، ومن الأيوبيين الملك الصالح إسماعيل بن العادل، ومن بغداد قاضي القضاة فخر الدين، وأمراء من الأرمن، والكرج، وتحالف مع المغول أيضاً إمارة أنطاكية الصليبية، وذهب سفراء صليبيون إلى بلاد المغول لعقد حلف معهم ضد المسلمين.

وتقدم المغول نحو الغرب، ووقعت بلاد سلاجقة الروم عام ٦٤١ تحت سيطرة المغول، واستسلم أمراؤها لهم، وصاروا معهم حرباً على المسلمين، وفتحوا بلادهم لهم. وهادن أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ هولاكو أيضاً، ودخل في طاعته، ويُعدّ الأراتقة في ماردين عمالاً للمغول،

وساهم ملك الأرمن حيتوم في احتلال بغداد، ومشى مع المغول نحو القدس ليملكها. ولم يتعرّض المغول فعلاً للنصارى بل كانت بيوتهم آمنةً، كما أعطى هولاكو لبطريرك النساطرة في بغداد أحد قصور الخليفة ليتخذه كنيسةً وأغدق عليه العطايا، ووجد النصارى في دمشق عوناً من الوالي المغولي الذي كان يُعظّم دينهم، ويزور كنائسهم، وارتكب الأرمن يومها أبشع الجرائم، وانتهكوا الأعراض في دمشق.

ثم هُزم المغول في عين جالوت عام ٦٥٨، وخرجوا بعدها من بلاد الشام، فسار الظاهر بيبرس عام ٦٧٥ إلى بلاد سلاجقة الروم لينتقم منهم، والتقى بهم وبحلفائهم المغول والكرج في معركة البستان شمال مرعش، وانتصر عليهم نصراً مبيناً، ثم سار حتى فتح عاصمتهم قيصرية، وقد أحسن إلى أهلها، وأعطاهم الأمان، وخُطب له في مساجدها.

ومع ضعف المغول زالت دولة سلاجقة الروم، وقامت عدة إمارات في الأناضول منها:

١ ـ أبناء آيدين:

في الغرب، وتضمّ أزمير وما حولها، وكان محمد بيك قائداً في دولة السلاجقة، ويحمل رتبة أمير السواحل، وقد خلفه ابنه آيدين في الزعامة، وكان يكره المغول فأعلن استقلاله وقد ضعف أمرهم وذلك عام ٦٩٩، وبقي حتى عام ٧٣٤، وقام بأمر الدولة من بعده ابنه محمد حتى عام ٧٤١، ثم ولده عمر الذي بنى أسطولاً أحرقه الصليبيون عام ٧٤٥، كما أنشأ قلعةً حصينةً في أزمير أزعجت الصليبيين كثيراً، وتوفي عام ٧٤٩، وخلفه أخوه عيسى، واضطر إلى تسليم إمارته إلى السلطان العثماني بايزيد، فترك له السلطان أزمير، وضمّ بقية أجزاء الإمارة إلى أملاك العثمانيين، وتوفي عيسى عام ٧٩٢، وضُمّت أزمير أخيراً للعثمانيين. واحتل تيمورلنك أزمير عام ٨٠٥، وأعطى حكمها إلى موسى بيك بن عيسى، غير أن موسى لم يلبث أن مات في ذلك العام، وخلفه ابنه عمر الثاني الذي توفي عام ٨٠٦، وخلفه ابنه مصطفى الذي كان عاملاً للعثمانيين على أزمير حتى عام

٨٢٥، وانتهت بعدها إمارة أبناء آيدين، وغدت جزءاً من الدولة العثمانية.

٢ ـ أبناء تكة:

وهم قبيلة تركمانية، كانوا من أمراء الأطراف في أيام دولة السلاجقة، وكان تكة باشا مجاهداً ضد الصليبيين، فلما دالت دولة السلاجقة أعلن استقلاله عام ٧٠٠، واستقل في انطاليا في الجنوب، واستولى السلطان بايزيد على إمارة أبناء تكة عام ٧٩٥، ثم عادت إلى الظهور بعد حروب تيمورلنك، وضُمّت إلى الدولة العثمانية عام ٨٣٠.

٣ ـ أبناء أرتنا:

بعد انقراض دولة سلاجقة الروم حكم بها دورخان أبو سعيد آخر حكام الدولة الإيلخانية القسم الأعظم من شرقي الأناضول، وقد أعطى هذا القسم عام ٧١٧ إلى تيمورتاش من أبناء شوبان من المغول، غير أن تيمورتاش سلّم أحد أركانه وهو أرتنا إدارة البلاد، وانتقل هو إلى مصر، فاعترف أبو سعيد بأرتنا حاكماً رسمياً عام ٧٢٨، ولما مات أبو سعيد عام ٧٣٦ استقل أرتنا بما تحت يده، ثم تبع كوشك بن شوبان في تبريز، ثم تبع المماليك في مصر حيث كان السلطان ناصر الدين محمد بن قلاوون، واتخذ قيصرية، ثم سيواس قاعدةً له، وكانت أنقرة، وتوقات، وأرزنجان، وأماسيا، وسينوب، وصامسون، وقونية تتبع له.

٤ ـ أبناء كرميان:

وكانوا قرب ملاطية، ثم انتقلوا إلى قرب أنقرة، واتخذوا مدينة كوتاهية حاضرةً لهم، وقامت دولتهم عام ٧٠٠ بعد زوال دولة سلاجقة الروم، واستمرت حتى عام ٧٩٢، حيث غضب السلطان العثماني بايزيد على أميرها يعقوب الثاني فقبض عليه وسجنه، غير أنه تمكّن من الفرار فالتجأ إلى تيمورلنك فأعاده إلى إمارته بعد عام ٨٠٥، وبعد وفاة تيمورلنك عادت الصلة الحسنة مع العثمانيين، ولم يكن له أولاد فأوصى بإمارته إلى السلطان مراد الثاني عام ٨٣٢.

٥ ـ أبناء حميد:

وأسس هذه الإمارة حميد بيك التركماني، وكان مقره في أكردير إلى الغرب من قونية، واستقل بإمارته هذه بعد انتهاء دولة سلاجقة الروم، وقد أعطى ابنه الذي خلفه وهو دندار الملقّب فلك الدين اسم عاصمته «فلك أباد»، وهاجم تيمورتاش والي المغول دندار الذي فرّ إلى أنطاليا، ولكن قُبض عليه، وقتل عام ٧٢٤، واستولى تيمورتاش على إمارة أبناء حميد. ولكن لم يلبث تيمورتاش أن فرّ إلى مصر، وظهر خضر بن دندار، واستعاد ملكه عام ٧٢٨، وخلفه ولده إسحاق، ثم إلياس بن إسحاق، ثم ولده كمال الدين حسين بن إسحاق الذي التجأ إلى السلطان مراد عام ٧٧٦ ليتخلّص من تهديدات إمارة قرمان له، وبقي كمال الدين حسين حتى توفي عام ٧٩٣، وضُمّت الإمارة بعد ذلك إلى العثمانيين، وانتهت سلطة أبناء حميد.

٦ ـ أبناء أشرف:

كان سيف الدين سليمان بن أشرف من أمراء غياث الدين مسعود الثاني سلطان السلاجقة، وقد توفي سيف الدين سليمان حوالي عام ٧٠١ فاستقل ابنه محمد في المنطقة، وكانت دولة السلاجقة قد انتهت، وتلقّب باسم مبارز الدين محمد، ثم خلفه ابنه سليمان شاه، وقد استولى والي المغول تيمورتاش على إمارة أبناء أشرف عام ٧٢٨، ولما فرّ إلى مصر، احتل أبناء حميد المنطقة في أيام خضر بن حميد.

٧ ـ أبناء قراسي (قره عيسى):

كان قره عيسى من أمراء السلطان مسعود الثاني، فاستقل عند ضياع دولة السلاجقة عام ٧٠٠ في مقاطعة (ميسيا)، واتخذ مدينة (باليكسر) عاصمةً له، ولما كانت المنطقة ساحلية فقد أسست هذه الإمارة أسطولاً لها، وخلف (قره عيسى) ابنه (عجلان بك)، وكان على صلة حسنةٍ

بعثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية، وخلف عجلان ولده (دمورخان)، ودخل أورخان بن عثمان إمارة (قره عيسى) عام ٧٣٧، بعد اختلاف ولدي دمورخان على الحكم. وهي أول إمارة ضمها العثمانيون إليهم، وهي إمارة صغيرة تقع جنوب بحر مرمرة وشرق بحر إيجه.

٨ ـ أبناء صاروخان:

وهم من أسرة تركمانية استقرت في مقاطعة (ليديا)، وكانوا أمراء عند السلاجقة، وقد استقل صاروخان بمنطقته عندما ضعفت دولة السلاجقة عام ٧٠٠، وأسس أسطولاً، واصطدم مع الجنويين الذين كانت لهم مراكز على سواحل آسيا الصغرى، وحاول عقد حلفٍ من الأمراء المستقلين ضد العثمانيين، وتعاون مع إمبراطور بيزنطة ثم نقض العهد معه، وتوفي عام ٧٤٦، وخلفه ولده فخر الدين إلياس حتى عام ٧٧٦ حيث توفي، وتولى مكانه ابنه مظفر الدين إسحاق چلبي فدخل في الحلف الذي شكّلته إمارة قرامان ضد العثمانيين فهزموا، وأخذ السلطان بايزيد بعض إمارته تأديباً، وأبقى له قسماً منها، ومات إسحاق چلبي عام ٧٩٠، وخلفه ابنه خضر شاه حتى عام ٧٩٢، حيث ضم السلطان بايزيد إليه الإمارة، وأعاد تيمورلنك خضر شاه إلى مملكته بعد انتصاره على السلطان بايزيد في معركة أنقرة عام ٨٠٥، وخلف خضر شاه ولده محمد چلبي الذي أعدم من قبل العثمانيين عام ٨١٣ لجريمةٍ أخلاقية، وانتهت يومها إمارة أبناء صاروخان.

٩ ـ أبناء منتشا:

ويعودون إلى أصل كردي، وكان حاجي أمير السواحل في عهد السلاجقة، واستقل ابنه منتشا في منطقة (قاريا) القديمة، واستمر حتى عام ٧٣٠، حيث خلفه ابنه أورخان شجاع الدين، ثم إبراهيم الذي زاره ابن بطوطة، ثم تاج الدين أحمد غازي بن إبراهيم، ثم محمد بن إبراهيم، ثم إلياس بن محمد الذي لم يتمكّن من مقاومة السلطان بايزيد ففرّ إلى سينوب عام ٧٩٢، وبعد هزيمة العثمانيين عام ٨٠٥ أمام تيمورلنك عاد

إلياس إلى منطقته حتى عام ٨٢٤ حيث خلفه بعد وفاته ابنه الليث حتى عام ٨٢٩ حيث دخل السلطان مراد الثاني الإمارة وقبض على أولاد منتشا وسجنهم في توقات، وانتهى أمرهم.

١٠ - أبناء جاندار (اسفنديار):

يدّعون أنهم مخزوميون من نسل خالد بن الوليد، وقد فتح مدينة قسطموني حسام الدين شوبان بك، وفي عام ٦٩١ نصّب الإيلخانيون عليها شمس الدين تمرجاندار، ثم خلفه ابنه سليمان، وألحقت بالدولة العثمانية عام ٧٩٥ في أيام السلطان بايزيد، وبعد هزيمة السلطان في معركة أنقرة أمام تيمورلنك عاد اسفنديار أحد أفراد أسرة جاندار إلى الحكم، واستمر حتى عام ٨٤٧ حيث توفي، والعثمانيون ينسبون إلى اسفنديار هذا، وقد تزوج السلطان العثماني مراد الثاني ابنة اسفنديار، وفي عام ٨٦٦ دخل السلطان محمد الفاتح قسطموني، وانتهى وضع هذه الإمارة.

١١ - أبناء براونه:

استولى عز الدين كيكاوس سلطان السلاجقة في الأناضول على مدينة سينوب الواقعة على البحر الأسود عام ٦١١، ثم عاد إمبراطور طرابزون إليها، غير أن أحد أمراء السلاجقة وهو براونه معين الدين سليمان تمكّن ثانيةً من استعادتها أيام السلطان قليج أرسلان الرابع الذي منحه حكمها، وخاف براونه أن يعاود فينتزعها منه فعمل على قتله. أناب معين الدين سليمان ابنه معين الدين محمد عليها، وفي عام ٦٧٦ أعدم براونه، فاستقل ابنه في سينوب، وبقي حتى مات عام ٦٩٦، وخلفه ابنه مهذب الدين مسعود فسالم المغول مخالفاً سياسية أبيه، وقد اختطفه الفرنجة من تجار جنوه إذ جاءوا إلى سينوب من (كفا) مستعمرتهم في شبه جزيرة القرم، ثم فدى نفسه بمبلغٍ ضخمٍ، وعاد إلى حكم سينوب، وبقي حتى مات عام ٧٠٠، وانتقلت بعد ذلكَ إلى غازي چلبي بن السلطان غياث الدين مسعود الثاني.

١٢ ـ أبناء صاحب أتا:

كان الصاحب فخر الدين علي بن الحسين بن أبي بكر من الوزراء البارزين عند سلاجقة الأناضول، ويُعرف في قونية باسم «صاحب أتا»، وبسبب الأحداث التي وقعت، وتدخل المغول في شؤون السلاجقة انزوى في قرية «نادر»، وحفظ أمواله في «قره حصار»، ثم توفي عام ٦٨٤، وكان أولاده قد قتلوا في معركة عام ٦٧٦، وحكم بعد ذلك أحفاد (صاحب أتا) قره حصار حتى استولى عليها أبناء كرميان.

١٣ ـ أبناء قرمان:

فتح علاء الدين كيقباد الأول مدينة أرمناك، وأسكن حولها بعض القبائل التركمانية، وعيّن عليهم أحد أمرائهم كريم الدين قرمان، وفي عام ٦٥٤ جعل السلطان قليج أرسلان الرابع كريم الدين قرمان أميراً على أرمناك، وعندما توفي عام ٦٦٠ خلفه ابنه محمد الأول وقد اتفق مع جمري الذي ادعى أنه أحد أولاد عز الدين كيكاوس السلطان السلجوقي، واحتل قونية عام ٦٧٥، وجاء غياث الدين كيخسرو الثالث بجيش من السلاجقة والمغول، وهزمهما وقتلهما عام ٦٧٦.

وتولّى الحكم بعد محمد أخوه محمود. وصاهر علاء الدين أمير القرمان عام ٧٨٣ السلطان مراد الأول، وتزوّج ابنته نفيسة، وأعطاه ابنته، ولم يمنعه هذا من محاربة العثمانيين، غير أنه أسر، فتوسطت له ابنته زوجة السلطان فأطلق سراحه، وأبقى له إمارته مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً. ثم عاد للحرب فقتل على يد أحد القادة العثمانيين في أيام السلطان بايزيد عام ٧٩٣، وسجن ابنه من نفيسة ابنة السلطان مراد في بورصة، وألحقت أكثر إمارته بالدولة العثمانية. فلما هُزم السلطان بايزيد أمام تيمورلنك عام ٨٠٥ بعد معركة أنقرة، خرج محمد بن علاء الدين من السجن وأعيد إلى ملكه، وضرب نقوداً باسم تيمورلنك، ثم توسع فسيطر عام ٨١٤ على إمارة أبناء كرميان، غير أن السلطان محمد چلبي أخرجه منها عام ٨١٧، وفي

حربٍ أخرى ووقع أسيراً بيد العثمانيين غير أن السلطان العثماني قد عفا عنه، فاتجه إلى المماليك في مصر، ثم عاد فحاربهم ووقع أسيراً فسيق إلى مصر عام ٨٢٢، وفرّ من مصر ورجع إلى ملكه عام ٨٢٤، وحارب العثمانيين ثانيةً وحاصر أنطاليا، وأخيراً توفي عام ٨٢٧، فأعلن أخوه علاء الدين علي استقلاله، وكان موالياً للمماليك، وقام إبراهيم بن محمد وأخوه عيسى ينافسانه، واتجها إلى مراد الثاني السلطان العثماني فزوجهما بأختيه، وولّى عيسى لواء الروملليي، ثم أخذ إمارة قرمان من علي علاء الدين وزوّجه بأخته الثالثة، وولّاه لواء صوفيا، وأعطى إبراهيم إمارة قرمان.

حاول إبراهيم أن يعطي ابنه الكبير إسحاق الحكم فوقع الخلاف بين الإخوة، وتولى بير أحمد الحكم وهو من ابنة السلطان محمد چلبي، فلجأ إسحاق إلى أوزون حسن ملك آق قيونلي (الخروف الأبيض) في أذربيجان، وتمكّن بمساعدته من احتلال قونيه، غير أن السلطان محمد الفاتح أعاد بير أحمد، وفر إسحاق إلى أوزون حسن، وبعد مدة أعلن بير أحمد الحرب على الدولة العثمانية غير أنه هزم ٨٧١، وغدت قونية تتبع الدولة العثمانية، واشترك بير أحمد وشقيقه قاسم في حكم بقية إمارة قرمان حتى عام ٨٧٤، ثم اختلفا ومات بير أحمد عام ٨٨٠.

انهزم قاسم أيضاً أمام العثمانيين عام ٨٨٠، وفرّ إليه الأمير العثماني (جم) من وجه أخيه بايزيد الثاني، وشاركه في الحكم، ثم غادر (جم) قرمان إلى فرسان رودوس النصارى الصليبيين، وعقد قاسم معاهدة مع السلطان بايزيد، وبقي قاسم حتى توفي عام ٨٨٨، واختار الأمراء من بعده محمود بن طورغوث أحد كبار إمارة قرمان، وفي الوقت نفسه ابن ابنة قاسم، وذلك ليكون حاكماً على الإمارة، وذلك لأن أولاد قاسم قد ماتوا معه، وقد وافق السلطان بايزيد واعترف بذلك، إلا أن محمود بن طورغوث لم يلبث أن أعلن العصيان على الدولة العثمانية، وأظهر الطاعة للمماليك في مصر، فأرسل العثمانيون له قوة عام ٨٩٢ أنهت الإمارة. وقد استعملت

هذه الإمارة اللغة التركية، وعمّت بعد ذلك على حين كان السلاجقة يستعملون اللغة الفارسية.

١٤ ـ أبناء رمضان:

وهم عشيرة تركمانية استقرت حول مدينة أضنه، وقد أسس هذه الإمارة شهاب الدين أحمد بن رمضان (مير أحمد) حوالي عام ٧٧٩، وقد حارب المماليك، وانتصر عليهم، ثم تزوّج السلطان المملوكي فرج بن برقوق ابنة الأمير أحمد هذا، فتحسّنت العلاقات بين الطرفين، ووقفا معاً ضد تيمورلنك، وأخذ طرسوس من إمارة أبناء قرمان عام ٨١٨ بعد حصار دام ستة أشهر، وتوفي أحمد هذا عام ٨١٩، فاختلف أبناؤه من بعده، ثم تسلّم الأمر ابنه إبراهيم، وانتهى الخلاف، وعرض إبراهيم على إخوته وأبناء عمه عام ٨٢٠ الطاعة لسلطان مصر، غير أنه عاد فأظهر الخلاف عام ٨٣٠ فقبض عليه، وسجن في مصر، ثم قتل عام ٨٣١، واختار المماليك مكانه ولده عز الدين حمزة، ولم تطل أيامه، وكان عماه محمد وعلي يملكان مدناً أخرى تتبع أضنه، فحدثت خلافات انتهت باستلام أرسلان داود بن إبراهيم الإمارة، واستمر في وضعه حتى قتل في جهات ديار بكر عام ٨٨٥. وخلف داود ولده غرس الدين خليل، وبقي حتى عام ٩١٦، وبقي أبناء رمضان هذه المدة كلها بجانب مصر، غير أن قوة العثمانيين التي برزت قد جعلت خليلاً يتقرّب منهم. وخلف خليل أخاه محمداً فاتجه إلى إستانبول، واتفق مع السلطان، وسار معه لقتال المماليك، وقتل في معركة الريدانية على أبواب القاهرة عام ٩٢٣. وخلفه أخوه بيري بك، وبقي تحت سلطة العثمانيين ٩٢٦ ـ ٩٤٨ ثم استقال من الإمارة، وأصبحت منطقة أضنه ولايةً عثمانيةً، وجُرّد أبناء رمضان منها، وحدثت خلافات في المنطقة فكُلّف بيري بك بالعودة إليها فعاد واستمر في عمله حتى توفي عام ٩٧٦، وعُيّن إخوته في ولاياتٍ ثانيةٍ. وخلف بيري بك ابنه الأصغر درويش، وكان من قبل أميراً على طرسوس، وبعد ستة أشهر قام مكانه أخوه الأكبر إبراهيم الذي كان أميراً على عينتاب، واستمر حتى عام ٩٩٧ حيث خلفه ابنه محمد حتى انقرضت إمارة أبناء رمضان عام ١٠١٧.

١٥ ـ أبناء ذي القادر:

وقد وصل هؤلاء إلى الأناضول مع هروب التركمان من وجه الهجوم الوحشي المغولي في أيام جنكيزخان، ومع أنهم يدعون أنهم من أصل فارسي، ويعودون إلى الساسانيين، إلا أن الأصل التركماني واضح عليهم، وفي أثناء فرارهم كان أمير إحدى الفرق منهم ذو القادر، وتمكّن ابنه زين الدين من تقوية نفسه في منطقة البستان، ثم أعلن استقلاله عام ٧٤٠، وطال به العمر، وتوفي عام ٧٨٠، وخلفه ابنه خليل الذي ملك ملاطية ومرعش ثم قتله أخوه إبراهيم أمير خربوت الذي أعلن الطاعة للمماليك وذلك عام ٧٨٨. وتسلّم الحكم بعد خليل أخوه الثاني (صولي) الذي وقع بين ناري المماليك وأبناء قرمان الأمر الذي جعله يتجه إلى العثمانيين، وعاد ثانيةً إبراهيم إلى قتل أخيه (صولي) عام ٨٠٠، وكان الأمير العثماني محمد شلبي قد تزوج ابنة (صولي). ورغم فعلة إبراهيم في قتل أخويه إلا أنه لم يتمكّن من استلام السلطة إذ أن أخاه الثالث ناصر الدين محمد قد أخذها وقاتل المماليك، وأبناء قرمان، والعثمانيين، كما قاوم تيمورلنك عام ٨٠٣ غير أنه اضطر للخضوع فيما بعد، ولما رجع تيمورلنك عادت الصلة فتوطّدت بين السلطان محمد چلبي وناصر الدين محمد والتقيا في أنقرة عام ٨١٥. لكنه رجع فاستعان بالمماليك ضد أبناء قرمان، فقدّم له المماليك مدينة قيصرية مكافأةً له، ولكن العثمانيين قد احتلوا هذه المدينة، ثم اختلف ثانيةً مع المماليك والتجأ إلى السلطان العثماني مراد الثاني فأعاد إليه مدينة قيصرية. ورجع إلى المماليك، وزار القاهرة، ولما رجع إلى مقر ملكه لم يلبث أن أدركته المنية عام ٨٤٦.

خلف سليمان أمير ملاطية أباه ناصر الدين محمد، وعاد إلى حسن الصلة مع العثمانيين، وزوّج ابنته مكرمة للأمير العثماني محمد (الفاتح)، وتوفي عام ٨٥٨، وتولى مكانه ابنه أرسلان فهاجمه ملك الأسرة القراقيلونية أوزون حسن وأخذ منه (خربوت) فاستنجد بالمماليك، وسار إلى القاهرة فاغتيل في المسجد عام ٨٧٠، وتولّى مكانه أخوه (شاه بودان) مؤيداً من

قبل المماليك على حين نصّب العثمانيون أخاه الآخر (شاه سوار)، واختلف الأخوان، وفرّ (شاه بودان) إلى مصر عام ٨٧١، فعيّن المماليك مكانه عمه رستم بن ناصر الدين محمد والياً على البستان، ولكن شاه سوار قد تغلّب على المماليك، وعلى أبناء رمضان عام ٨٧٢، غير أنه عاد فانهزم أمام المماليك في عينتاب عام ٨٧٦ ووقع أسيراً بأيديهم، فحُمل إلى مصر، وأُعدم هناك عام ٨٧٧، وأعادوا شاه بودان إلى الحكم، ودعم العثمانيون أخاه الآخر بوزقورت علاء الدولة، ففرّ شاه بودان إلى مصر عام ٨٨٤، وخلا الجو لعلاء الدولة، فاتخذ الدهاء وأظهر الميل إلى المماليك، وتمكّن من القبض على أخيه شاه بودان وسلّمه إلى مصر فقُتل عام ٨٩٥، وعندما حقق ما يريد رجع إلى العثمانيين، وزوّج السلطان بايزيد ابنته عائشة وهي والدة السلطان سليم، ولكنه عاد فأعلن مخالفة العثمانيين، فشنوا عليه حرباً بعد أن انتهوا من الصفويين، وقبضوا عليه، وقتل عام ٩٢١، وحُمل رأسه إلى ابن ابنته السلطان سليم الأول.

وعيّن العثمانيون مكانه علي بن شاه سوار، وأصبحت الخطبة للسلطان العثماني، وسار الأمير علي هذا في حملة السلطان سليم التي قضت على حكم المماليك في الشام ومصر، ولكنه أعدم عام ٩٢٨ بأمر السلطان سليمان القانوني، وانتهت الإمارة منذ ذلك اليوم.

ولم تكن هذه الإمارات أو الدويلات التي قامت في الأناضول وحدها بل هناك غيرها كثير دون اتساعها أو أقل منها أهمية مثل أمراء دنزلي الذين انتهت إمارتهم في أيام السلطان العثماني مراد الثاني عام ٨٣٢، وأمراء سيواس، والأقيونيون في ديار بكر الذين انتهت دولتهم في آمد، وماردين حوالي ٩١٢ على يد السلطان سليم الأول و. . . .

وكانت الإمارات المعاصرة بعضها لبعض متنافسة، وتنتقل المدن من يد إمارة إلى أخرى أو المناطق ثم تعود للإمارة الأولى عندما تتقوّى أو تجد لها دعماً، حتى قضت الدولة العثمانية عليها جميعاً في أوقات متفاوتة.

مصور رقم [٣]

الفصل الثاني

تأسيس الدولة وقوتها

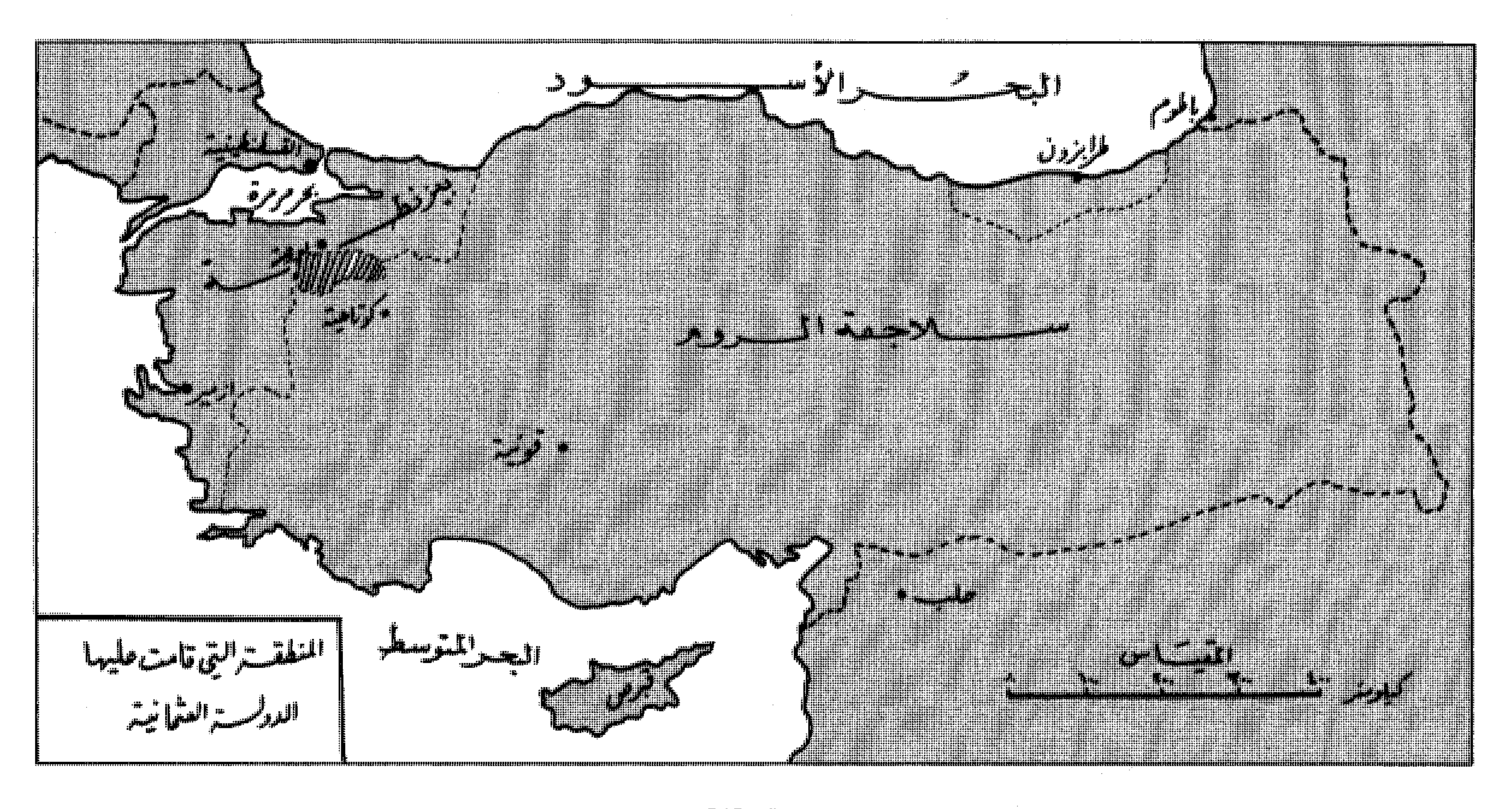
في الوقت الذي بدأ فيه الهجوم المغولي نحو الغرب قاصداً دولة خُوارزم بالدرجة الأولى عام ٦١٧ خافت القبائل من ذلك الهجوم الوحشي، والذي يقتل دون حساب، ويحرق الأخضر واليابس، لا يعرف رحمة، ولم تمرّ على مسامعه كلمة شفقة أو إنسانية كأنما قُدّت قلوب عساكره من صخر، وبدأت القبائل تهجر مواطنها، وتتجه نحو الغرب أمام ذلك الزحف الخطير، وكانت من بين هذه القبائل قبيلة قاتي التركمانية والتي يرأسها سليمان شاه بن قيا ألب، وكان موطن قبيلته بالقرب من مرو قاعدة بلاد التركمان فيمّم وجهه شطر الغرب، فمرّ على طوس، ومن شمال نيسابور فجرجان، ثم اتجه إلى شمال الري، ومرّ على قزوين فتبريز ثم وصل إلى خلاط شمال بحيرة وان، واستقر هناك، وهدأت موجة المدّ المغولي، إذ عاد المغول إلى بلادهم، فرغب في الرجوع إلى موطنه الأول، واتخذ طريقاً ثانيةً، إذ تابع إلى ديار بكر، واتجه نحو الرقة، وأراد عبور نهر الفرات فهوى فيه وغرق، عام ٦٢٨، فدفن هناك قرب قلعة جعبر، واختلف من بعده أبناؤه الأربعة في الطريق التي يجب أن يسلكوها، أما ابنه الكبير (سنقورتكن) فقد حقق رغبة أبيه، ورجع مع أخيه (كون طوغري) إلى موطنهم الأول، وكان (سنقورتكن) هو الذي تولّى إمرة القبيلة وزعامتها بعد موت أبيه. وأما أخواه الآخران، وهما (أرطغرل) و(دندان) فقد عادا أدراجهما، واتجها نحو الشمال حيث وجدا طيباً في العيش، وجودةً في المرعى، وكانت معهما أربعمائة أسرةٍ تركمانيةٍ، ومهما قيل: من هو أول

من اعتنق الإسلام في هذه القبائل؟ فإنها كانت مسلمة بالأصل قبل أن ترحل من مكانها الأول، ولا صحة في أن عثمان مؤسس الدولة هو أول من اعتنق الإسلام، إذ معروف أن هذه القبيلة تركمانية، وكلمة تركمان تُطلق على الترك الذين يعتنقون الإسلام، فالقبيلة مسلمة من بداية ظهورها، واسم زعيمها سليمان دليل على ذلك.

تولّى أرطغرل زعامة أفراد القبيلة الذين بقوا في الأناضول، وأخذ يتجوّل في تلك الربوع ولا يريد أن يصطدم مع حكام تلك الجهات فالظروف غير مواتيةٍ له ليدخل في اشتباكات لذا فقد أرسل ابنه (ساوجي) ليطلب من الأمير علاء الدين السلجوقي أمير إمارة قرمان التي مركزها مدينة قونية، والتي بقيت من بعد ما زالت دولة سلاجقة الروم ليطلب أرضاً تعيش فيها القبيلة كي لا تقع نزاعات، غير أن (ساوجي) لم يعد إلى أبيه إذ توفي في الطريق. وفي هذه الأثناء لاحظ أرطغرل جيشين يقتتلان، فأسرع ودعم الجيش السلجوقي بعاطفة إسلاميةٍ ضد الجيش البيزنطي، إضافةً إلى أنه يعيش في أرضه، وأرسل إليه يطلب منزلاً لمن معه، ويعرف رايته، وهتافات الجيش، ويلتقي معه بالأصل التركماني، أما أنه ساعد الجيش الذي بدت عليه علائم الهزيمة، أو الجيش الضعيف ليكون لمساعدته أثر واضح في النصر فهذا غير مقبول، إذ لا يمكنه أن يقف بجانب البيزنطيين النصارى أبداً، فهم أعداؤه ولا يمكن أن يكافئوه، ويعطوه أرضاً في بلادهم ثم يكون عدواً لهم، وإن فعلوا تقع الحرب بينه وبينهم بعد حين. وأحرز الأمير علاء الدين النصر بدعم صديقه الجديد أرطغرل فكافأه، وأقطعه أرضاً على حدود بلاد الروم ليكون درءاً له يصدّ به عن إمارته غارات البيزنطيين، وتوفي أرطغرل عام ٦٨٧، وخلفه ابنه عثمان أكبر أولاده، وبناءً على رأي الأمير علاء الدين أيضاً. وإلى عثمان هذا تُنسب الدولة، فهو مؤسسها، وأول حكامها.

١ ـ عثمان:

بدأ يوسّع إمارته فتمكّن أن يضم إليه عام ٦٨٨ قلعة قره حصار (القلعة السوداء) أو أفيون قره حصار، فسُرّ الملك علاء الدين بهذا كثيراً،



البحر الأسود
باطوم
طرابزون
القسطنطينية
بحر مرمرة
كوتاهية
سلاجقة الروم
ازمير
قونية
حلب
البحر المتوسط
قبرص
المقياس
كيلومتر
المنطقة التي قامت عليها
الدولة العثمانية

مصور رقم [٤]

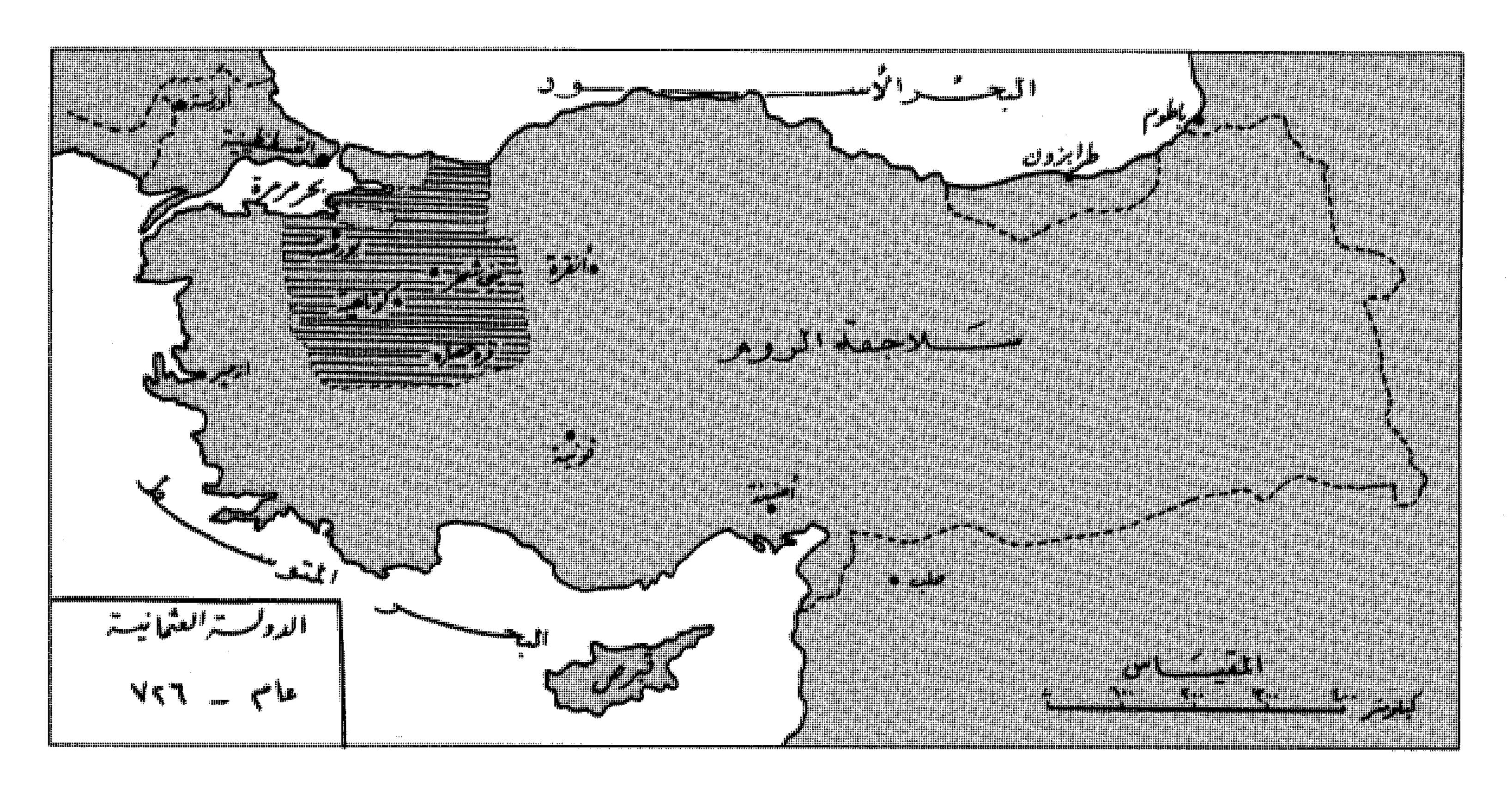
فمنحه لقب (بيك)، والأراضي التي يضمها إليه كافة. وسمح له بضرب العملة، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة.

وفي عام ٦٩٩ أغارت المغول على إمارة علاء الدين ففرّ من وجههم، والتجأ إلى إمبراطور بيزنطة، وتوفي هناك في العام نفسه، وإن قيل: إن المغول قد تمكّنوا من قتله، وتولية ابنه غياث الدين مكانه، ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين، ففُسح المجال لعثمان إذ لم تعد هناك سلطة أعلى منه توجهه أو يرجع إليها في المهمات، فبدأ يتوسّع، وإن عجز عن فتح أزميد (أزميت)، وأزنيق (نيقية) رغم محاصرتهما، واتخذ مدينة (يني شهر) أي المدينة الجديدة قاعدةً له، ولقّب نفسه باديشاه آل عثمان. واتخذ رايةً له، وهي علم تركيا اليوم ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام، فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية فإن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم، فخشوا على أملاكهم منه، فاستعانوا بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده، غير أن عثمان قد جهز جيشاً بإمرة ابنه أورخان الذي قارب الثلاثين من العمر، وسيّره لقتال المغول فشتّت شملهم، ثم عاد واتجه إلى بورصة (بروسة) فاستطاع أن يدخلها عام ٧١٧ وتعدّ من الحصون الرومية المهمة في آسيا الصغرى، وأمّن أهلها، وأحسن إليهم فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها (أفرينوس)، فمنحه عثمان لقب بيك، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين. وتوفي عثمان عام ٧٢٦، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

٢ ـ أورخان:

ولد عام ٦٨٧ في السنة التي تولّى أبوه فيها الحكم، وهو ثاني أبناء أبيه من حيث السن، لكن يبدو أنه كان أكثرهم نباهةً، وأشجعهم فنال بذلك الملك، ولم يخالفه أخوه الأكبر منه علاء الدين، ولكنه رضي بذلك فقدّره أخوه أورخان، وسلّمه الوزارة، فانصرف علاء الدين إلى الأمور الداخلية، وتوجه أورخان إلى الأعمال الخارجية.

نقل أورخان قاعدته إلى بورصة، وضرب العملة الفضية والذهبية،


البحر الأسود
طرابزون
باطوم
سلاجقة الروم
أنقرة
قونية
حلب
قبرص
الدولة العثمانية
عام ـ ٧٢٦
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٥]

وأسس الجيش (يني تشري) أي الجيش الجديد من أبناء الأسرى، والصغار الذين يقعون في الأسر، فيُربون في ثكنات عسكرية تربيةً إسلاميةً ويُدرّبون تدريباً عسكرياً، ويتخرّجون لا يعرفون إلا القتال والحياة العسكرية والإسلام والجهاد في سبيل الله، ليس روابط قبلية أو عشائرية إذ لا يعرفون إلا السلطان سيداً لهم، لذا كانوا قوةً كبيرةً ساعدت العثمانيين في ضرب خصومهم، وامتداد الفتوحات العثمانية، وكان يمكن أن تبقى كذلك لو بقي السلاطين أقوياء لا يسمحون لهم بالتدخل في غير ما اختصوا به، ولا يسمحون للأمراء والوزراء بالاتصال بهم، وأخذ الدعم منهم، ولا أن يعطوهم أكثر من قدرهم فتتغيّر طباعهم، فما تدخّل العسكريون في شؤون الحكم إلا أفسدوه، ولا تصرّفوا في أمور البلاد إلا أضاعوها إلا من عصم ربك، وهكذا كان شأنهم في النهاية إذ غدوا طريق الهزيمة وسبب المفاسد حتى قضي عليهم عام ١٢٤٢ في أيام السلطان محمود الثاني:

فتح أزميت، ثم حاصر أزنيق وفتحها، وعيّن ابنه الكبير سليمان حاكماً عليها، وأحسن إلى أهلها، فسمح بالهجرة إلى من يريدها، وسمح لمن بقي بإقامة شعائر دينه. وبعد مدة توفي أخوه علاء الدين فعيّن مكانه سليمان بن أورخان.

وفي عام ٧٣٦ توفي حاكم إمارة (قره سي) الواقعة جنوب بحر مرمرة وإلى الشرق من بحر إيجه، واختلف ولداه فيما بينهما على السلطة، فأسرع أورخان وضمها إلى إمارته كي لا تقع فريسةً بيد الروم.

وفي عام ٧٥٦ طلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس (يوحنا باليوج)[١] من أورخان مساعدته ضد إمبراطور الصرب أصطفان دوشان الملقب بالقوي الذي تحالف مع البندقية، والإمارات الصربية للهجوم على القسطنطينية.

---

(١) يوحنا الخامس، توفي والده الإمبراطور أندريونيكوس الثالث عام ٧٤٢، وكان يوحنا صغيراً ابن تسع سنوات، فتسلّم رئيس الوزراء يوحنا كانتاكوزين الوصاية، وكان يحاول أن يزيح الإمبراطور عن العرش، ويتسلم مكانه بحجة صغره، ورغم أنه زوج ابنته. واستمر يوحنا الخامس إمبراطوراً على القسطنطينية حتى عام ٧٩٣ أي حكم إحدى وخمسين عاماً.

مصور رقم [٦]

مصور رقم [٧]

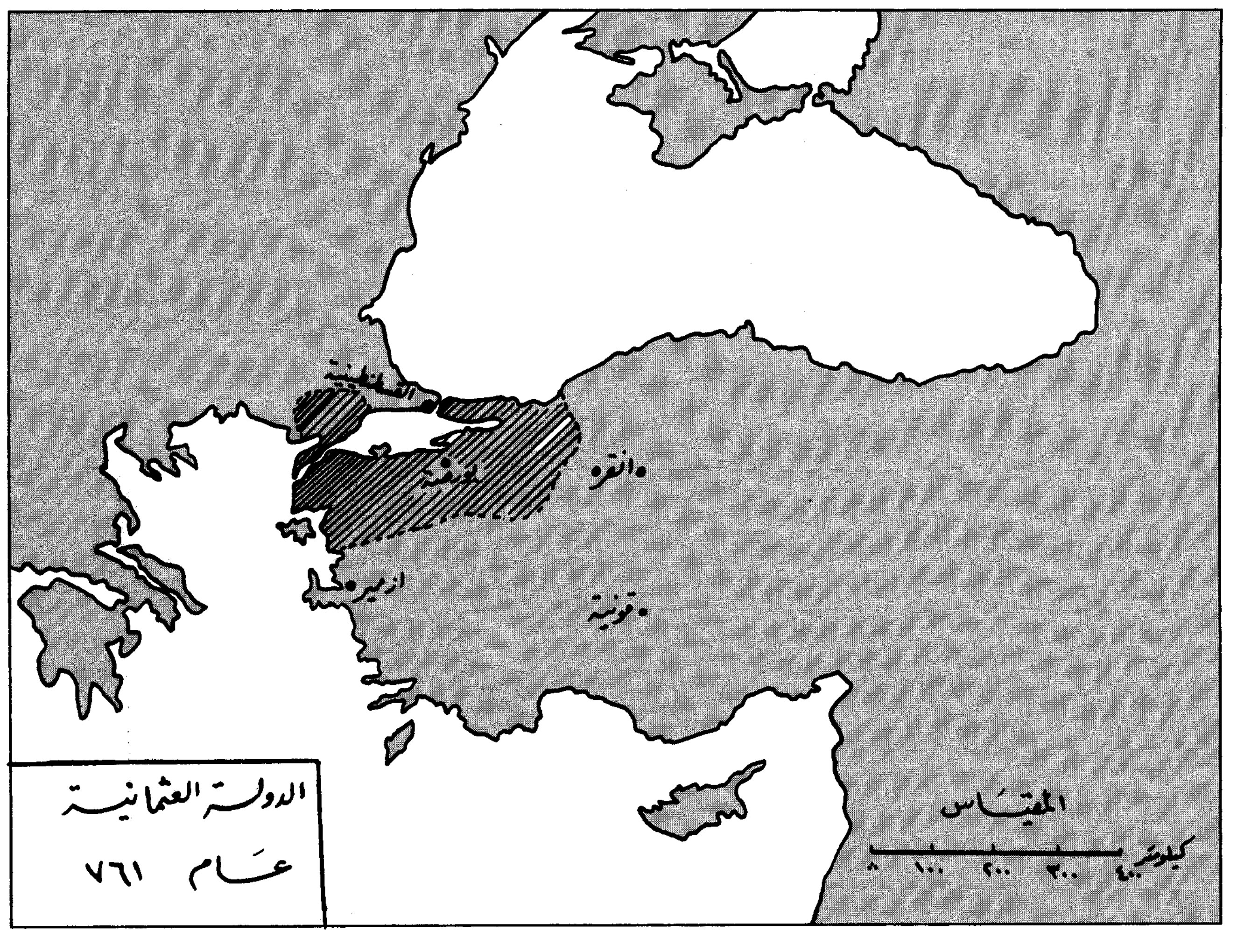
ووعد بأن يزوّجه ابنة الوصي على العرش يوحنا كانتاكوزين التي تزوّج هو أختها الأخرى، أي يصبح عديلاً له، وأرسل له أورخان الجند، غير أن أصطفان دوشان قد أدركه الموت، وتوقّف الاستعداد، وعاد الجنود العثمانيون إلى بلادهم دون قتال، وتزوّج أورخان ابنة الوصي.

وشعر أورخان بضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد أن طلب الامبراطور منه المساعدة للوقوف في وجه الصرب، ورأى أن ينتقل إلى الضفة الغربية من مضيق الدردنيل ليتقدّم بعدها في أوربا، ويتمكّن من الإحاطة بالقسطنطينية، والهجوم عليها من الغرب فقد عجز المسلمون من قبل عن فتحها بالهجوم عليها من الشرق، وإن لم يكن هو فمن يأتي بعده، فقرر الجهاد، وأرسل ابنه الكبير سليمان، وولي العهد، ووزير الدولة الأول لدراسة الغزو والتخطيط له، وفي عام ٧٥٨ اجتاز سليمان مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين رجلاً من أبطاله، ولما وصلوا إلى الضفة الغربية استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث نقلهم إلى الشاطئ الأوربي، حيث احتلوا قلعة (تزنب)، وغاليبولي التي فيها قلعة (جنا قلعة) المشهورة، وابسالا، ورودستو، وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال حتى تصبح ردوستو على بحر مرمرة.

وفي عام ٧٦٠ توفي ولي العهد سليمان، أو هذا القائد الفذّ، نتيجة سقوطه عن جواده وأصبح ولي العهد مراد، وفي العام التالي توفي السلطان أورخان فخلفه ابنه مراد.

٣ ـ مراد الأول:

ولد مراد في عام ٧٢٦، وهو العام الذي تولّى فيه والده الحكم، فكان عمره يوم أصبح سلطاناً ستاً وثلاثين سنةً. وفي هذه الأثناء أثناء انتقال الحكم من سلطان إلى آخر أخذت الحماسة أمير دولة القرمان في أنقرة فاستنهض همم الأمراء المستقلين في آسيا الصغرى لقتال العثمانيين، وعمل


الدولة العثمانية
عام ٧٦١
القسطنطينية
بورصة
انقره
ازمير
قونية
المقياس
كيلومتر ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

مصور رقم [٨]

على تجميعهم، غير أن هذا الأمير وهو علاء الدين لم ير إلا وجيش مراد الأول يحيط بمدينته أنقرة، ويدخلها فاتحاً، فاضطر إلى عقد الصلح معه الذي يتنازل فيه عن أنقرة، ويعترف السلطان مراد بالأمير علاء الدين أميراً على بقية أملاك دولة القرمان، وتزوّج مراد الأول ابنة علاء الدين.

وفي عام ٧٦٢ فتح العثمانيون مدينة أدرنة، وقد سلّمها القائد الرومي بعد أن يئس من المقاومة، فنقل مراد الأول عاصمته إليها ليكون على مقربة من الجهاد في أوربا، وليكون الهجوم على القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوة، وبقيت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية عام ٨٥٧. كما فُتحت مدينة (فيلبه) قاعدة الرومللي الشرقي (جنوب بلغاريا اليوم)، وأصبحت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين، وتقدّم إمبراطورها فدفع الجزية طواعية، وقلبه مليء بالأحقاد.

وخاف الأمراء الأوربيون الذين أصبح العثمانيون على حدودهم فكتبوا إلى ملوك أوربا الغربية وإلى البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين، حتى إمبراطور القسطنطينية ذهب إلى البابا وركع أمامه وقبل يديه ورجليه، ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبى البابا النداء وكتب إلى ملوك أوربا عامةً يطلب منهم الاستعداد للقيام بحربٍ صليبيةٍ جديدة حفاظاً على النصرانية من التقدّم الإسلامي الجديد، غير أن ملك الصرب (أوروك الخامس) الذي خلف أصطفان دوشان لم يتوقع هذا الدعم السريع من البابا وملوك أوربا، لذا فقد استنهض همة الأمراء المجاورين له والذين أصبحوا على مقربة من الخطر على حد زعمهم، فلبى دعوته أمراء البوسنة (غربي يوغوسلافيا) والأفلاق (جنوب رومانيا)، وأعداد من فرسان المجر المرتزقة، وسار الجميع نحو أدرنة حاضرة العثمانيين، مستغلّين انشغال مراد الأول ببعض حروبه في آسيا الصغرى، غير أن الجيش العثماني قد أسرع للقاء أعدائه فاصطدم بهم على نهر مارتيزا[1] فهزمهم هزيمةً منكرةً، وولّوا

(١) نهر مارتيزا: نهر صغير ينبع من غربي بلغاريا، ويمر من أدرنة، ثم يصب في بحر إيجه.

الأدبار. واضطرت بعد ذلك إمارة نصرانية صغيرة على بحر الأدرياتيك على ساحل يوغوسلافيا اليوم، وهي إمارة (راجوزه) أن ترسل وفداً إلى السلطان، وتعقد معه صلحاً تدفع الإمارة بموجبه للدولة العثمانية ٥٠٠ دوكاً ذهباً كجزية سنوية.

وحاول ملك الصرب الجديد (لازار بلينا نوفتش) وأمير البلغار سيسمان الاتفاق على قتال العثمانيين، وقد وجدا نفسيهما ضعيفين رغم أنهما لم يخوضا سوى بعض المعارك الجانبية، فاضطرا إلى دفع جزيةٍ سنوية، وتزوج السلطان ابنة أمير البلغار عام ٧٨٠.

ونُظّمت فرق الخيالة في عهد السلطان مراد الأول، وهي التي عُرفت بـ(سيباه) أو السباهية ويقصد بها الفرسان، وأصبح لها نظام خاص بحيث يُعطى كل فارسٍ جزءاً من الأرض إقطاعاً له، ويبقى بيد أصحابه سواء أكانوا من المسلمين أم من النصارى يعملون به، ويدفعون خراجاً معيناً لصاحب الإقطاع الذي يسكن وقت السلم في إقطاعه، ويعدون وقت الحرب نفقته، ويجهّز معه جندياً آخر، وهذا النظام وإن قدّم خدمات في بداية الأمر إلا أن هؤلاء السباهية قد أصبحوا في النهاية أصحاب نفوذ يصعب السيطرة عليهم، ويختلفون مع أصحاب الأرض الأصليين وبيدهم القوة فيُنفّذون ما يريدون، ويتضايق أصحاب الأرض فينقمون على السباهية وبالتالي على الحكم، وتكون الفوضى والفجوة بين الحكم والرعية.

ولم ينس السلطان مراد الأول آسيا الصغرى بل بقي دائب التفكير فيها وفي التخلّص من تلك الإمارات الصغيرة التي تشكل رقعاً محدودة المساحة، فهو لا يريد أن يأخذها بالقوة ويُشكّل نقمةً عليه، ولا يريد أن يتركها تتصارع فيما بينها، وتجعل مجالاً للتدخل في شؤونها من قبل الغرباء، وفي الوقت نفسه لا تتفق وتتوحّد لتقوم بغزو القسطنطينية يداً واحدة، وتُجاهد كقوةٍ واحدة، ورأى أن يحلّ مشكلاتها تدريجياً مع الزمن. وقد بدأ بإمارة كرميان أقرب الإمارات إلى أملاكه، فزوّج ابنه بايزيد من ابنة أمير كرميان فقدّم الأب لابنته مدينة كوتاهية فضُمّت إلى الدولة العثمانية،

وفي عام ٧٨٢ ألزم أمير دويلة الحميد الواقعة بين إمارات قرمان، وتكه، ومنتشا بالتنازل عن أملاكه للدولة العثمانية.

وتأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية ويبدو أنه على اتفاقٍ بينهما في هذا التأخير، فتوجهت الجيوش العثمانية إلى بلادهم ففتحت بعض الأراضي الصربية التي تقع اليوم في جنوبي يوغوسلافيا، كما حاصرت عاصمة البلغار صوفيا وفتحتها عام ٧٨٤ بعد حصار استمر ثلاث سنوات. كما فُتحت مدينة سلانيك، المدينة اليونانية المشهورة والواقعة على بحر إيجه.

تمرّد ساوجي بن السلطان على أبيه بالاتفاق مع ابن إمبراطور القسطنطينية (اندرونيكوس بن يوحنا باليوج)، وكان يوحنا قد حرم ابنه هذا من ولاية العهد وأعطاها لابنه الآخر (عمانويل)، فأرسل السلطان لابنه جيشاً انتصر عليه وقتله، كما أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي فقتل ابنه أيضاً.

وقام أمير دويلة القرمان علاء الدين، وبعض الأمراء المستقلين بحرب الدولة العثمانية فأرسل السلطان لهم جيشاً انتصر عليهم في سهل قونية، وأخذ الأمير علاء الدين أسيراً غير أن ابنته زوجة السلطان قد توسطت له فأطلق سراحه، وأبقى له إمارته، ولكنه فرض عليه دفع مبلغ من المال سنوياً وذلك عام ٧٨٧.

واستغل الصرب انشغال الجيوش العثمانية في الأناضول لقتال علاء الدين أمير القرمان ومن معه فهاجموا القوات العثمانية في جنوب الصرب وحصلوا على بعض النجاح عام ٧٨٨، وتأهب أمير البلغار سيسمان للقيام بدوره أيضاً غير أن الجيوش العثمانية قد داهمته، واحتلت بعض أجزاء من بلاده ففر إلى الشمال، واعتصم في مدينة نيكوبلي القريبة من الحدود الرومانية، وجمع فلول جيشه وهاجم بها العثمانيين غير أنه هُزم، ووقع أسيراً، لكن السلطان أحسن إليه فأبقاه أميراً على نصف بلاده، وضم الباقي إلى الدولة العثمانية كي لا يعاود الهجوم. ولما علم ملك الصرب لازار ما تمّ بأمير البلغار انسحب بجيوشه نحو الغرب للانضمام إلى الألبانيين ومحاربة العثمانيين معهم، غير أن الجيوش العثمانية أدركته قبل وصوله إلى مبتغاه، والتقت معه عام ٧٩١ في معركة وسط سهل (قوص

أوه) أي (إقليم كوسوفو) جنوبي يوغوسلافيا، وكان القتال سجالاً بين الطرفين إلا أن صهر لازار قد انحاز إلى جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل، فانهزم الصربيون، ووقع ملكهم لازار أسيراً بأيدي العثمانيين، وهو جريح فقتلوه لما فعل من أفاعيل خسيسة بأسراه من المسلمين، وإذا كانت الصرب قد فقدت استقلالها غير أن السلطان مراد الأول ذهب في المعركة أيضاً وبينما كان يتفقد نتائج المعركة ويتفحّص الجثث إذ قام إليه جندي صربي من بين الجثث وطعنه بخنجر فأرداه قتيلاً، وقتل الجند العثمانيون القاتل الصربي مباشرةً.

٤ ـ بايزيد:

ولد بايزيد عام ٧٦١ أي في العام الذي تولّى فيه أبوه السلطنة، فكان عمره ثلاثين عاماً عندما تسلّم الحكم، وكان دائم الجهاد ينتقل من أوربا إلى الأناضول ثم يعود مسرعاً إلى أوربا يحقق فيها نصراً جديداً أو تنظيماً حديثاً حتى لُقّب باسم (يلدرم) أي الصاعقة نظراً لتلك الحركة السريعة والانقضاض المفاجئ.

عيّن اصطفان بن لازار ملكاً على الصرب في عام ٧٩٢، وسمح له بالحكم على مقتضى نظمهم وشرائعهم مقابل دفع جزيةٍ سنويةٍ، وتقديم عددٍ من المقاتلين ينضمون إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب وحينما يطلب السلطان ذلك. كما تزوّج السلطان أخت اصطفان وهي «أوليفير»، وربما فعل ذلك كي لا يبقى مشغولاً في موضوع الصرب وغاراتهم وحركاتهم.

انتقل السلطان بايزيد إلى الأناضول فضمّ عام ٧٩٣ إمارة منتشا، وإمارة (آيدين)، وإمارة (صاروخان) إلى العثمانيين دون قتال، ولكن فرّ أبناء حكامها إلى قسطموني مركز ولاية (أسفنديار)، كما تنازل أمير دولة القرمان عن جزء من أملاكه إلى السلطان كي يبقي له الجزء الباقي، كما فتح مدينة الأشهر بقرب أزمير، وهي آخر مدينة كانت قد بقيت للروم في غرب بلاد الأناضول وبذا يكون قد أمّن خلفه، إذ كان حكام هذه الإمارات يمكن أن يتعاونوا مع أية قوةٍ في سبيل المحافظة على إماراتهم.

اتجه إلى الغرب وحاصر القسطنطينية عام ٧٩٤، وضيّق الحصار، ثم تركها محاصرةً وسار بجيشٍ إلى الأفلاق[1]، وأجبر حاكمها على توقيع معاهدةٍ يعترف فيها بسيادة العثمانيين على بلاده، ويدفع جزيةً سنوياً، ثم أبقاه حاكماً على بلاده، يحكم فيها بقوانينهم الخاصة ونظمهم.

اضطر السلطان بايزيد إلى العودة إلى الأناضول مسرعاً، لأن أمير دولة القرمان علاء الدين قد ندم على تنازله عن جزء من أملاكه للعثمانيين، ووجد السلطان مشغولاً بأوربا وحربه لحاكم الأفلاق، فاستغل هذا الظرف، وعبّأ جنده، وأثار خصوم السلطان من بعض الأمراء، وهاجم العثمانيين، وقد تمكّن من إحراز بعض النصر، وأسر أكبر القادة العثمانيين في الأناضول، فأسرع السلطان، وهزمه، ولاحقه حتى أخذه وولديه أسرى، وأنهى دولة القرمان، كما أنهى إمارة سيواس، وتوقات، ثم التفت إلى أسفنديار التي كانت ملجأ لأبناء الأمراء الفارين من وجه العثمانيين فطالب السلطان أمير هذه الدولة بتسليمه أبناء الأمراء الذين يحتمون عنده فلما أبى هاجمه وضمّ بلاده إليه، أما الأمير فقد فرّ والتجأ إلى تيمورلنك.

استمر حصار القسطنطينية، وسار السلطان إلى بلاد البلغار، وقد قُتل أميرها سيسمان، فجعل تلك البلاد ولايةً عثمانيةً، وأسلم ابن الأمير مقتول، فأخذه السلطان وجعل والياً على صامسون.

ولما وصلت أخبار الانتصارات العثمانية هذه إلى ملك المجر استغاث بالبابا وملوك أوربا، وأعلنها البابا حرباً صليبية ودعا إليها الملوك، والأمراء فاستجاب دوق بورغونيا لذلك وإن كانت إمارته صغيرة نسبياً، وتقع في شرقي فرنسا، وليس لأحد سلطان عليها، وأمراء النمسا، وبافاريا التي تقع في جنوبي ألمانيا، ورؤساء فرسان القديس يوحنا الذين خرجوا من عكا في الحروب الصليبية بعد أن أجبروا على ذلك فرحلوا إلى قبرص، ثم إلى رودوس، ثم إلى مالطة، وسار الجميع فاجتازوا نهر الدانوب، وحاصروا مدينة نيكوبلي الواقعة في شمالي بلغاريا ووصل جيش السلطان بايزيد،

---

(١) الأفلاق: الجزء الجنوبي من رومانيا اليوم.

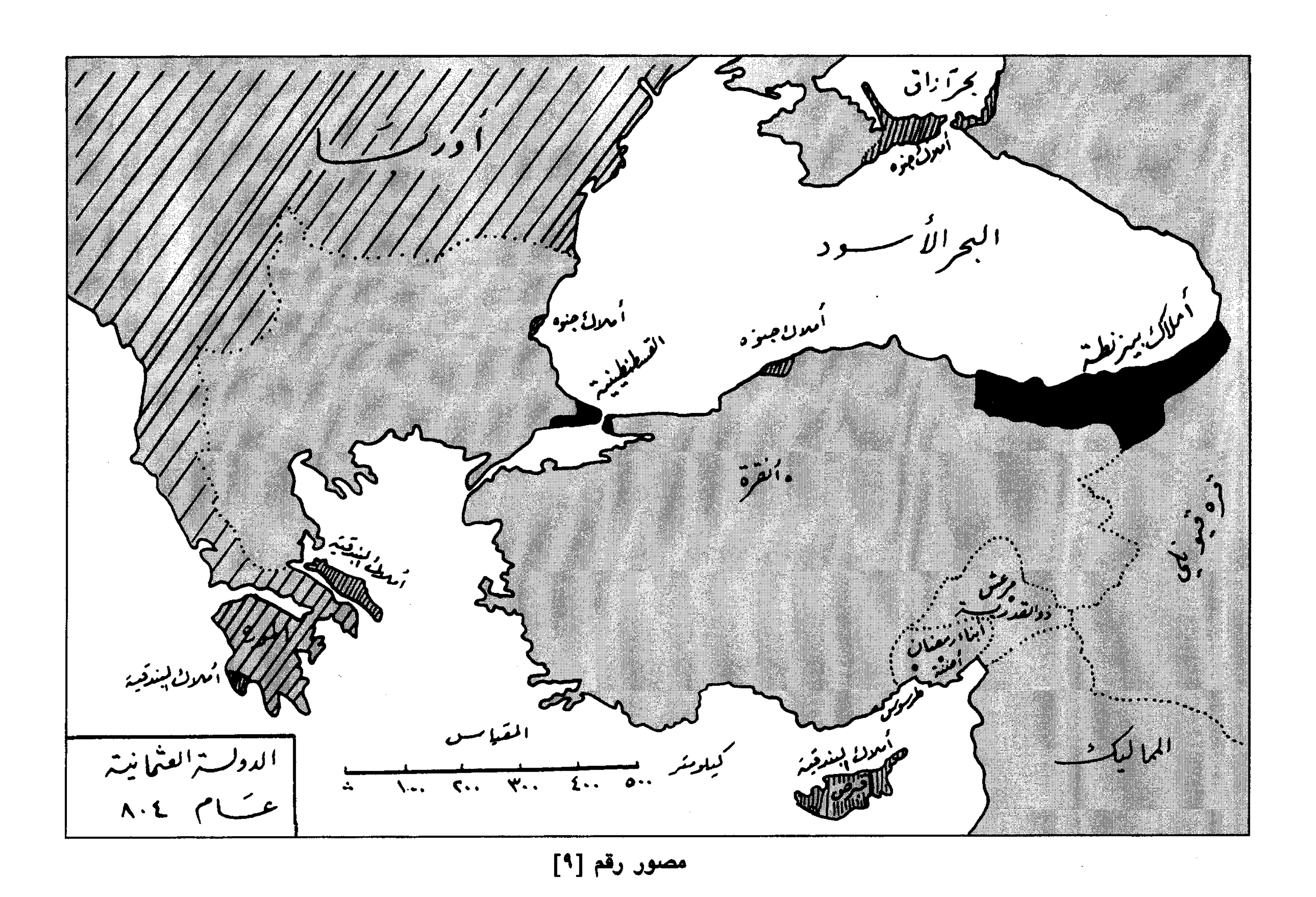
وكان بقيادة أمير الصرب اصطفان بن لازار ومعه كثير من الشعوب النصرانية الخاضعة للحماية العثمانية، إضافة إلى الجند العثمانيين، وكان عدد ذلك الجيش حوالي مائتي ألف مقاتل، وكان اللقاء في يوم ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨ فانتصر العثمانيون، وأسروا دوق بورغونيا وعدداً من الأمراء، وفدى الدوق نفسه بمبلغٍ ضخمٍ من المال.

وبعدَ هذا الانتصار عقد السلطان بايزيد صلحاً مع إمبراطور بيزنطة فك بموجبه الحصار عن القسطنطينية مقابل دفع ما يعادل عشرة آلاف دينار ذهبي، والسماح للمسلمين ببناء مسجد لهم في القسطنطينية.

وقعة تيمورلنك وضعف السلطنة:

وصل تيمورلنك في انسياحه الوحشي نحو الغرب إلى بغداد ففرّ من وجهه أحمد بن أويس الجلائري الذي التجأ إلى السلطان بايزيد، فأرسل تيمورلنك إلى السلطان يطلب منه أن يسلمه أحمد بن أويس فرفض ذلك، فاتجه تيمورلنك إلى آسيا الصغرى، ودخل مدينة سيواس، وقبض على الأمير أرطغرل ابن السلطان بايزيد وقتله، وتابع سيره نحو الغرب، فأسرع السلطان بايزيد إليه وقد حشد له ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل، على حين ضمّ جيش تيمورلنك ما يربو على ثمانمائة ألف مقاتل، ومعه أمير قسطموني وعدد من أبناء أمراء الدويلات التي ضمّها العثمانيون إليهم، وكانت مستقلةً قامت على أنقاض دولة السلاجقة في الأناضول، والتقى الجيشان في سهل أنقرة يوم ١٩ ذي الحجة عام ٨٠٤، واستمرت المعركة طيلة ذلك اليوم من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، ورغم ما أبداه السلطان من شجاعة إلا أنه هُزم بعد أن فرّت فرق آيدين، ومنتشا، وكرميان، وصاروخان، وانضمت إلى جيش تيمورلنك حيث أبناء أمرائها فيه، وكانت النتيجة أن وقع السلطان بايزيد نفسه وابنه موسى في الأسر، حيث وقفا في وجه الخصم، وصمدا في وسط ميدان المعركة، واختفى ابنه الآخر مصطفى، وفرّ من المعركة أبناؤه سليمان، وعيسى، ومحمد.

ورغم أن تيمورلنك لم يُسيء إلى السلطان إلا أنه شدّد عليه المراقبة


الدولة العثمانية
عام ٨٠٤
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك جنوه
أملاك جنوه
القسطنطينية
أملاك بيزنطة
أنقرة
أملاك البندقية
أملاك البندقية
المقياس
كيلومتر
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
أملاك البندقية
قبرص
طرسوس
أدنة
أبناء رمضان
دو القدر
مرعش
المماليك

مصور رقم [٩]

حيث حاول الفرار من الأسر ثلاث مرات، وفشل فيها كلها، والإهانة النفسية تعدّ عظيمة إذ كلّف بحراسة موسى بن بايزيد أمير كرميان أي عدوّه، وقد أصاب السلطان ضيق شديد فتوفي في ١٥ شعبان عام ٨٠٤، وعمره لا يزيد على أربعة وأربعين عاماً، وسمح تيمورلنك بنقل جثة السلطان لتُدفن في بورصة.

تابع تيمورلنك نحو الغرب بعد معركة أنقرة فاستولى على أزنيق، وبورصة، ودكّ حصون أزمير، ولما وصل إلى أقصى الغرب في الأناضول وأراد الرجوع أعاد الإمارات التي كانت قائمةً قبل أن يضمّها العثمانيون إليهم وهي: قسطموني، وصاروخان، ومنتشا، وآيدين، وكرميان، وقرمان فعادت التجزئة إلى الأناضول كما كانت من قبل.

ورأت الإمارات الأوربية التي كانت خاضعةً للعثمانيين ما حلّ بالدولة وسلطانها، فأعلنت استقلالها وهي: البلغار، والصرب، والأفلاق فصغرت رقعة الدولة من جديد.

واختلف أبناء السلطان بايزيد على السلطة بعد عودة تيمورلنك عن الأناضول فزاد الأمر ضعفاً، والدولة تمزّقاً، وشجّعهم تيمورلنك أيضاً على هذا الاختلاف ليبقوا في ضعف، وتبقى له الهيمنة، واستعان بعضهم به ضد بعض، كما طلب بعضهم دعم إمبراطور القسطنطينية ضد بعض، وهذا شأن الدول عندما تكون ضعيفةً والحكام عندما يكونون عجزةً.

استقل سليمان بن بايزيد في أدرنة وجعله جنده سلطاناً عليهم، وعلى المناطق العثمانية في أوربا، وعقد حلفاً مع إمبراطور بيزنطة عمانويل الثاني، وتنازل له عن مدينة (سلانيك)، وعن سواحل البحر الأسود ليساعده على إخوته، وتزوّج من إحدى قريباته.

وأما عيسى فقد كان مختبئاً بجهات بورصة فلما علم بوفاة والده أعلن نفسه سلطاناً، وساعده كبير قادة بني عثمان (ديمور طاش).

وأما محمد فقد كان مخبؤه في أواسط الأناضول فلما وجد الفرصة مناسبةً له، وخفّ ضغط التتار خرج وجمع حوله الجند، وانطلق يقاتل التتار، وتمكّن من أخذ مدينة (توقات) ومدينة (أماسيا) منهم، وقوي أمره، واستطاع أن يخلص أخاه موسى من يد أمير كرميان المكلّف بحراسته من قبل تيمورلنك، وسار لمحاربة إخوته.

الدولة العثمانية
عام ٨٠٥
بعد الهزيمة أمام تيمورلنك

أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك جنوه
القسطنطينية
أملاك جنوه
سليمان جلبي
أدرنة
سفنديار
أماسيا
توقات
أنقرة
بورصة
عيسى جلبي
محمد جلبي
ايدين
منتشا
قره مان
ذو القدرية
تكة
أملاك البندقية
المورة
أملاك البندقية
المماليك

المقياس
كيلومتر ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠

مصور رقم [١٠]

الفصل الثالث

عودة القوة إلى السلطنة العثمانية

اتجه محمد بن بايزيد لقتال أخيه عيسى، وجرت بينهما عدة معارك خرج محمد إثرها منتصراً، وقُتل عيسى، ورجعت الأناضول تحت إمرته. وأرسل بعدها أخاه موسى على رأس جيش لقتال أخيهما سليمان غير أن موسى قد هُزم، وعاد خائباً من أوربا، فأعاد الكرة بعد أن قاد جيشاً آخر للغرض نفسه، وقد تمكن من قتل سليمان على أبواب أدرنة عام ٨١٣. ثم اتجه لمعاقبة الصرب الذين أعلنوا انفصالهم عن الدولة العثمانية في أثناء الأزمة التي وقعت فيها، فأسرع ملك المجر لقتاله دفاعاً عن الصرب فحاربه وانتصر على الصرب.

عاد الخلاف بين الأخوين الباقيين من أبناء السلطان بايزيد، وهما: محمد وموسى إذ اغترّ موسى بقوته وانتصاراته في أوربا، وأراد الانفصال عن أخيه، وتأسيس دولة له في أوربا، وسار لفتح القسطنطينية، وألقى عليها الحصار فاستنجد امبراطورها بالأمير محمد، فأسرع لنجدته، ووقع القتال بين الأخوين، واضطر موسى لرفع الحصار عن المدينة، وتشكل حلف من الأمير محمد، وإمبراطور القسطنطينية، وملك الصرب ضد الأمير موسى، وبدأ الاتصال سرّاً بقادته حتى تركوه، ووقع بين يدي أخيه فأمر بقتله عام ٨١٦، وبقي الأمير محمد وحده من أبناء السلطان بايزيد بعد أن قتل إخوته الثلاثة عيسى، وسليمان، وموسى، وتفرّد بالأمر من أجل الملك، والملك عقيم. وبتفرّد الأمير محمد بدأت السلطة العثمانية تقوى من جديد، وتتابع خمسة سلاطين في الحكم، وهم:

١ ـ محمد چلبي:

ولد السلطان محمد عام ٧٨١، وانفرد بالسلطة عام ٨١٦ إلا أن الفتن الداخلية قد تتابعت رغم الخوف من السلطان بسبب قتله إخوته، فإذا فعل هذا بإخوته فكيف يكون مع الآخرين؟ ويبدو أنه كان مع الآخرين أرحم بكثير مما كان مع إخوته، لأن الملك عقيم، فقد انتصر على أمير القرمان، وأخذه أسيراً، وعفا عنه، وأقسم له بالطاعة، غير أن الأمير قد حنث بيمينه، وعاد إلى قتال السلطان فانتصر السلطان عليه، وأخذه أسيراً مرّةً أخرى، وعفا عنه أيضاً. وانتصر على أمير أزمير (قره جنيد)، وعفا عنه، وعيَّنه حاكماً على مدينة (نيكوبولي)، وقام بالدعوة إلى الاشتراكية بدر الدين الذي كان قاضي الجيش عند الأمير موسى، وكثر أتباعه فقاتله، وانتصر عليه، وقتله.

وظهر الأمير مصطفى بن بايزيد وأخو السلطان محمد، وهو الذي كان قد اختفى بعد معركة أنقرة، وطالب أخاه بالحكم، وانضم إليه (قره جنيد)، ودخل إلى بلاد اليونان، ولكنه هُزم أمام جند أخيه، ففرّ إلى مدينة (سلانيك)، وكانت تتبع الدولة البيزنطية منذ هزيمة العثمانيين في أنقرة، فطلب السلطان تسليمه، فأبى الإمبراطور ولكن وعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية، ما دام السلطان على قيد الحياة، فوافق السلطان على ذلك وخصَّص لأخيه راتباً شهرياً. ويبدو أن السلطان بعد أن قتل إخوته السابقين قد خفَّف من شدة وطأته وقسوته على أقربائه وعلى الآخرين، أو أحسّ بجريمة القتل، وقدوم الموت بعد أن سبقه إخوته إليه على يديه. وكذلك عفا عن (قره جنيد) عام ٨٢٢.

ومات السلطان عام ٨٢٤ بعد أن أوصى لابنه مراد من بعده، وقد كان يوم وفاة أبيه في أماسيا، وكتم وفاة السلطان حتى وصل مراد إلى أدرنة بعد واحد وأربعين يوماً، ودفن محمد چلبي في بورصة.

٢ ـ مراد الثاني:

ولد عام ٨٠٦، وتولّى أمر السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤، فكان

عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة، رأى أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الإمارات في الأناضول إلى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن أعادها دويلات تيمورلنك عند سيطرته على المنطقة، ولهذه الغاية فقد عقد هدنةً مع ملك المجر لمدة خمس سنوات، كما صالح أمير القرمان، وأما إمبراطور القسطنطينية فقد طلب من السلطان أن يتعهد له بعدم قتاله، وكي يكون هذا العهد مضموناً فيجب على السلطان أن يسلمه اثنين من إخوته رهينةً، وإذا ما فكر السلطان بالحرب فإن الإمبراطور على استعداد لأن يُطلق سراح عم السلطان وهو مصطفى بن بايزيد المحجوز في سلانيك. رفض السلطان هذا التعهد فما كان من الإمبراطور إلا أن أطلق سراح مصطفى ودعمه بعشرة مراكب كمساعدة له على حصار مدينة غاليبولي على شاطئ مضيق الدردنيل، ولم يتمكن مصطفى من دخول قلعتها رغم دخوله المدينة فترك في المدينة حاميةً لحصار القلعة كي لا يصل إليها المدد، وسار نحو أدرنة، فالتقى بالقائد العثماني بايزيد باشا فانتصر عليه وقتله، وتابع سيره نحو ابن أخيه مراد، غير أن قواد مصطفى لم يطيعوه وتخلّوا عنه مع جنودهم وقت الشدة ففرّ، وسار نحو مدينة (غاليبولي)، فقبض عليه وأعدم. وسار السلطان مراد نحو القسطنطينية انتقاماً من إمبراطورها وألقى عليه الحصار، وهاجمها في مطلع رمضان من عام ٨٢٥ كي تكون الروح المعنوية أقوى، غير أنه عجز عن فتحها، واضطر إلى رفع الحصار عنها لأن أخاه مصطفى قد شقّ عصا الطاعة عليه وساعده أمراء الدويلات في الأناضول، وقد تمكن من هزيمة أخيه مصطفى وقتله. ووجد أن هدفه الأول وهو إعادة الإمارات إلى الدولة يجب أن يعود إليه، وأن يقدمه على غيره، وإن قتال هذه الإمارات فيه كلام لأن كلا الطرفين مسلم، وتركها لا يمكنه معها الجهاد فهي مطمع للأعداء أولاً، ودخول إلى معركة من غير قوة.

وخاف أمير قسطموني على نفسه إذ كان يدعم الأمير مصطفى وقد انتهى أمره، لذا فقد أسرع وتنازل عن نصف إمارته، وزوّجه ابنته عام ٨٢٦.

وقام (قره جنيد) واستولى على إمارة آيدين، وأعلن انفصاله عن الدولة، غير أنه هُزم وقُتل. ثم دخل السلطان إمارات آيدين، ومنتشا، وصاروخان، وقتل أمير القرامان محمد، وعيّن مكانه ابنه إبراهيم الذي تنازل للعثمانيين عن إقليم الحميد. وتوفي عام ٨٣١ أمير دويلة الكرميان ولم يكن له عقب فأوصى أن تلتحق الإمارة بالدولة العثمانية. وانتهى بذلك من كل مشكلة في الأناضول، وأصبح بإمكانه التوجه إلى أوربا لتصفية حسابه مع الحكام الذين أساؤوا للعثمانيين في أثناء المحنة التي حلّت بهم أيام السلطان بايزيد، وبعدها يصفو له الجو لفتح القسطنطينية ومعاقبة إمبراطورها الذي حرّض عليه. وكان السلطان مراد الثاني يرى أن القتال في أوربا أسهل فهو جهاد والروح المعنوية لدى المسلمين تكون عالية ما داموا يقاتلون ضد النصارى، ويعملون مجاهدين لنشر دينهم على حين كانوا يُساقون لقتال أمراء الدويلات في الأناضول دفعاً.

بدأ بقتال ملك المجر وعقد معه معاهدة تنازل فيها للسلطان عن أملاكه التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب الذي سيكون حدّاً فاصلاً بين الطرفين.

ورأى أمير الصرب (جورج برنكوفتش) عجزه فعقد معاهدة مع السلطان تقضي بدفع جزيةٍ سنويةٍ قدرها خمسين ألف دوك ذهبي، وأن يُقدّم فرقةً من جنوده لمساعدة السلطان في حروبه، وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر، وأن يتنازل عن بعض المواقع للعثمانيين، كما تزوج السلطان ابنة (جورج برنكوفتش) مارا.

واستعاد مدينة سلانيك عام ٨٣٣ من البندقية، وكان إمبراطور القسطنطينية قد تنازل عنها لهم، وقد حاصرها السلطان خمسة عشر يوماً.

واعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦.

وخضعت له ألبانيا بعد حروب بسيطة، واشترط أميرها عدم التعرّض لعقائد السكان، وسلم أولاده الأربعة رهينة للسلطان، وعندما توفي هذا الأمير عام ٨٣٤ ضمّ السلطان أملاكه إليه.

ظنّ السلطان أن وضعه في أوربا قد استقر، وأن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند لا في الأناضول، ولا في أوربا وبإمكانه الآن التوجه إليه وإلزامه على الاستسلام، ودخول القسطنطينية عسى أن يكون مغفوراً له، كما بشَّر بذلك رسول الله، ﷺ، وما أن بدأ يستعد لمهمّته حتى عاد حكام أوربا المتعاقدين معه على نقض العهد وإعلان العصيان.

لقد حرّض ملك المجر أمير الأفلاق وأمير الصرب فثارا فأدبهما السلطان، ثم سار إلى ملك المجر فخرّب عدداً من المدن، وعاد بعدد عظيم من الأسرى.

عاد أمير الصرب (جورج برنكوفتش) فثار، فهاجمه السلطان، وفتح جزءاً من بلاد الصرب، وحاصر العاصمة بلغراد ستة أشهر، وغادرها أميرها متوجهاً إلى ملك المجر، ثم غادرها، وأرسل جيشه للهجوم على ترانسلفانيا من أملاك المجر، وتقع شمال الأفلاق وإلى الغرب من البغدان، وتشكّل اليوم الجزء الغربي من دولة رومانيا، غير أن جيشه قد هُزم وقُتل قائده مع عشرين ألفاً من الجند، وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب. فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانون ألفاً غير أنه هُزم أيضاً، وأسر قائده عام ٨٤٥، وسار الجيش المجري بعد ذلك إلى بلاد الصرب فالتقى عام ٨٤٦ بالسلطان مراد الثاني نفسه فنشبت بين الفريقين ثلاث معارك هُزم فيها السلطان كلها، واضطر إلى توقيع معاهدة تنازل فيها السلطان عن الأفلاق للمجر، وردّ للصرب بعض المواقع، وقامت بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنوات.

شعر السلطان بالتعب فرأى أن يخلد إلى الراحة، فترك الحكم لابنه الثاني محمد [1] الذي لم يبلغ من العمر الرابعة عشرة، وسافر إلى غربي الأناضول في ولاية آيدين حيث الهدوء.

---

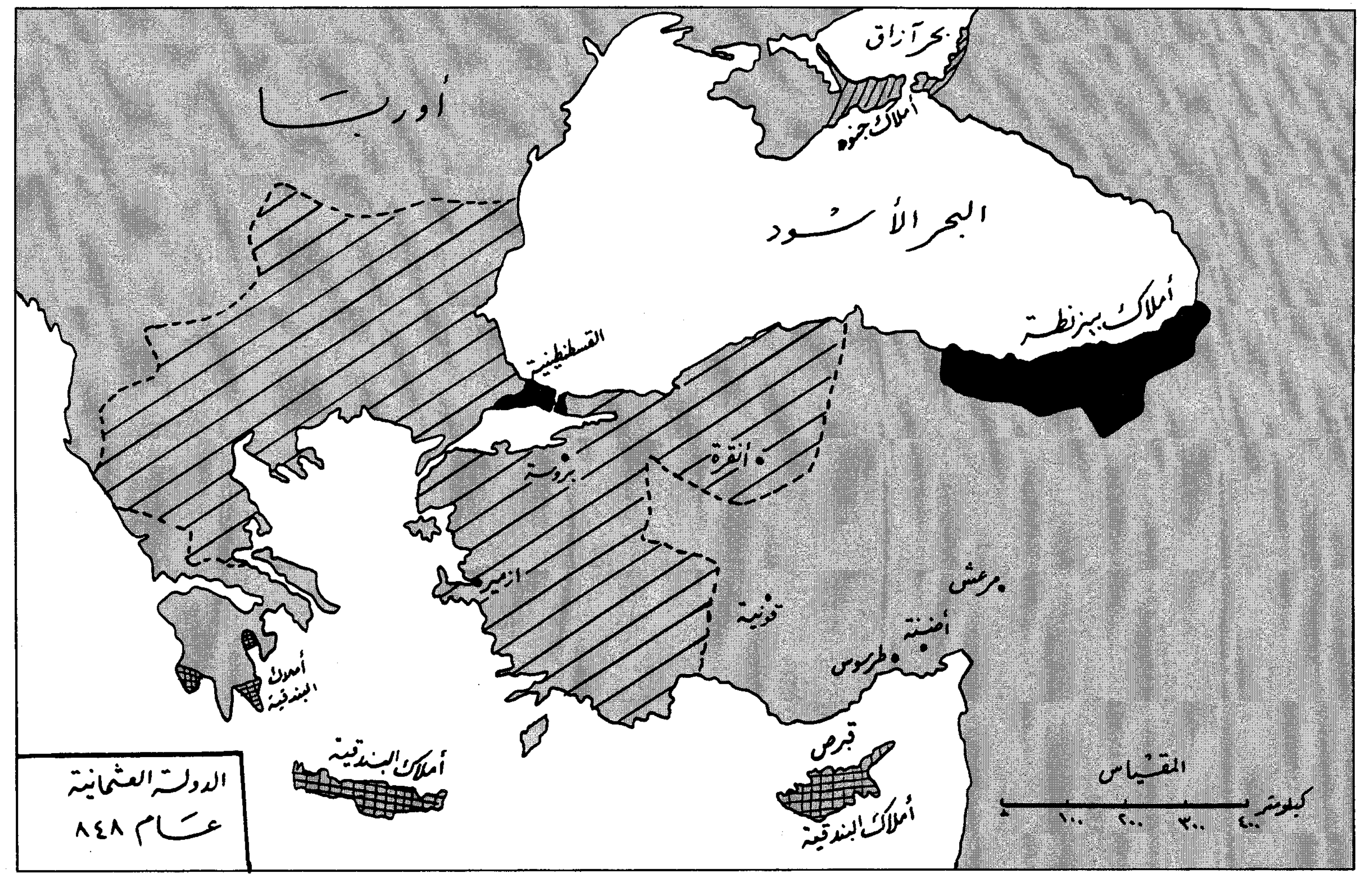
(١) الابن الأكبر اسمه علاء الدين، وقد توفي عام ٨٤٨ قبيل اعتزال أبيه السلطة، وربما كانت هذه الوفاة سبباً في اعتزال الوالد.

كان البابا يراقب الأحداث، وكم سره هزيمة السلطان وخاصة أنه كان قد اشترك مع المجريين أعداد من الصليبيين من بولنديين، وفرنسيين، وألمان، وبنادقة، وجنويين إضافةً إلى الأفلاق، والصرب وغيرهم. وأثارت البابا تلك المعاهدة التي وقعها السلطان مع المجريين وأنهت الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات لذا فقد أرسل مندوباً من قبله وهو (سيزاريني) إلى ملك المجر، وطلب نقض العهد، وليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية، فليس مع الكفار نقض لعهد أو حنث بقسم.

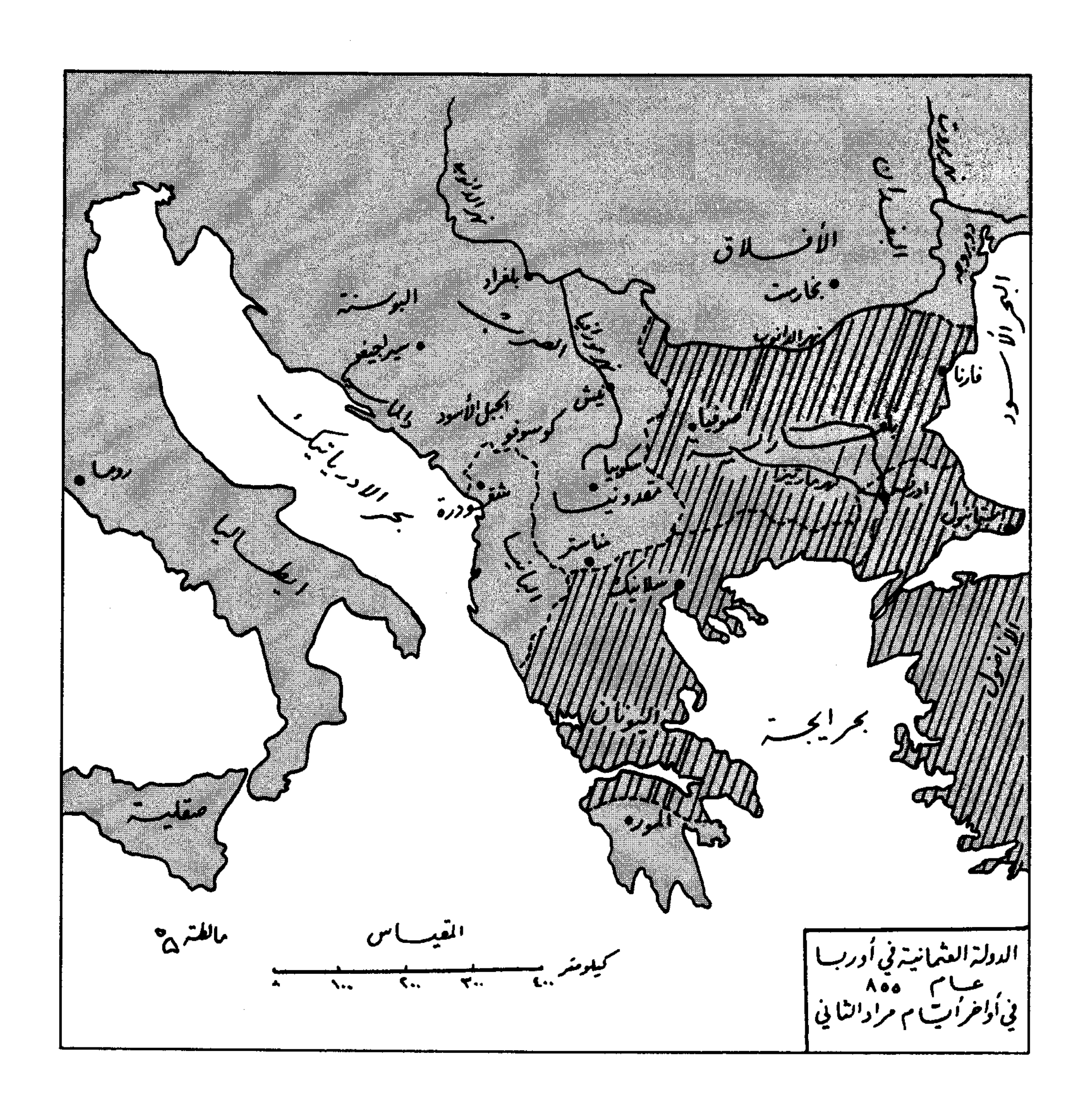
تنادى ملوك النصارى لشن حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، فجمعوا جموعهم، وهاجموا بلاد البلغار، وساعدهم على ذلك أن السلطان كان في مكان عزلته في مقاطعة (آيدين) في مدينة (مغنيسيا)، وأن طفله لم يتمرّس بعد على القتال، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر مكانه، واتجه إلى أوربا، فقاد الجيش وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة فارنا البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، فنازلهم، وقُتل ملك المجر في ساحة المعركة، فاختل ترابط الجند، فهاجم السلطان معسكر الأعداء، واحتله، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا، وتم النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨. وعاد فترك السلطان الأمر إلى ابنه، ورجع إلى مغنيسيا.

ولم تطل إقامته أكثر من ثلاثة أشهر إذ اضطر للعودة إلى أدرنة قاعدة الدولة حيث استصغر قادة الجيش العثمانيين من الانكشارية السلطان الصغير، إذ عصوا أمره، ونهبوا المدينة، ووصل السلطان فأدب القادة وأشغلهم بالقتال في بلاد اليونان، ذلك أن إمبراطور القسطنطينية قد قسم أملاكه بين أولاده إذ أعطى ابنه حنا مدينة القسطنطينية وابنه قسطنطين بلاد المورة أي جنوب اليونان، فسار السلطان لحرب اليونان، واستعمل المدافع لأول مرّة، ولم يتمكن من فتحها بسبب تمرّد إسكندر بك.

كان إسكندر أحد أبناء أمير ألبانيا الذين عاشوا رهينة عند السلطان عندما سلّم أبوه البلاد للسلطان فأظهر إسكندر الإسلام، ولما وجد السلطان مشغولاً بالحروب فرّ إلى ألبانيا، وطرد العثمانيين منها. فسار إليه السلطان


الدولة العثمانية
عام ٨٤٨
أوربا
بحر آزاق
أملاك جنوه
البحر الأسود
أملاك بيزنطة
القسطنطينية
بروسة
أنقرة
ازمير
قونية
مرعش
أضنة
طرسوس
أملاك البندقية
أملاك البندقية
قبرص
أملاك البندقية
المقياس
كيلومتر ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠

مصور رقم [١١]


الدولة العثمانية في أوربا
عام ٨٥٥
في أواخر أيام مراد الثاني
الأفلاق
بخارست
بلغراد
البوسنة
سيراييفو
الجبل الأسود
نيش
كوسوفو
اسكوبيا
مقدونية
مناستر
سلانيك
صوفيا
أدرنة
استانبول
فارنا
البحر الأسود
الأناضول
بحر إيجة
اليونان
المورة
بحر الأدرياتيك
ايطاليا
روما
صقلية
مالطة
المقياس
كيلومتر
٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

مصور رقم [١٢]

بقوةٍ كبيرةٍ وهزمه، وأخذ منه بعض المواقع عام ٨٥١، ثم اضطر إلى تركه للتوجّه إلى مقابلة الجيش المجري الذي أراد أن يثأر من معركة (فارنا)، والتقى به في وادي كوسوفو، وانتصر عليه انتصاراً مؤزراً عام ٨٥٢، ثم عاد فاتجه إلى إسكندر بك، وحاصر مدينة (آق حصار)، ولم يتمكن من فتحها لتعب جيوشه، فأراد أن يتفق مع إسكندر بك بحيث يسلمه حكم ألبانيا مقابل جزيةٍ سنويةٍ، غير أن إسكندر بك لم يقبل، واضطر السلطان أن يعود إلى أدرنة ليستعد بصورة أفضل، وبينما هو كذلك إذ وافته المنية في مطلع عام ٨٥٥ (٥ محرم) عن عمرٍ يناهز التاسعة والأربعين، ونقلت جثته إلى بورصة حيث دفن هناك، وتسلم السلطنة ابنه محمد باسم محمد الثاني، وهو الفاتح.

٣ ـ محمد الثاني (الفاتح):

ولد محمد الثاني عام ٨٣٣، وتولّى السلطنة عام ٨٥٥ فكان عمره يومذاك اثنتين وعشرين سنة، وأراد أن يتمم ما بدأ به أبوه. وكان أول عمل قام به أن أرجع زوجة أبيه الأميرة الصربية (مارا) إلى أبيها. وقتل أخاً له رضيعاً اسمه أحمد[1]، ثم بنى قلعة على مضيق البوسفور على الشاطئ الأوروبي مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد على الشاطئ الآسيوي كي يتحكم بالمضيق، ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية من مملكة طرابزون الروحية الواقعة على ساحل البحر الأسود شمال شرقي الأناضول. ورأى قسطنطين أن محمد الثاني عازم على دخول مدينته فعرض دفع الجزية التي يريد فرفض السلطان، ورأى أن يتزوج بأرملة السلطان مراد الثاني أم السلطان محمد وكانت لا تزال على نصرانيتها فرفضت، واعتكفت في بعض الأديرة. وبدأ الامبراطور يستنجد بالدول النصرانية، فأرسل البابا ثلاثين سفينة حربيةٍ لكنها هربت من القرن الذهبي، وطلب النجدة من الروس

(١) هذا القتل لا يصح أبداً، فالطفل رضيع ولا ذنب له، ولا يتحمّل وزر غيره إن كانت هناك أوزار يريد السلطان أن ينتهي منها. فهذا القتل مخالفة شرعية، وحدّها القتل.

لكنهم لم يكونوا أصحاب قوة آنذاك، وتظاهر الجنويون في موقع غلطة[1] أنهم على الحياد، ثم جاءه دعم من جنوده، وهو عبارة عن قوة بحرية كبيرة بقيادة جوستنيان وقد اصطدمت هذه القوة البحرية بالسفن العثمانية التي حاولت منعها، وانتصر الجنويون، وتمكّنوا من دخول القرن الذهبي، حيث رفعت السلاسل التي تسد المداخل لهم، وأغلقت في وجه العثمانيين.

عرض السلطان على الإمبراطور تسليم المدينة كي لا تُصاب بأذى، ولا يحلّ بالأهالي النكبات، ويتعهد السلطان بحماية العقائد وإقامة الشعائر فرفض الإمبراطور.

حاصر السلطان المدينة من البر (الجهة الغربية) بجنود يزيد عددهم على مائتين وخمسين ألف مقاتل، ومن جهة البحر بمائة وثمانين سفينة بحرية، وأقام المدافع حول المواقع، وكان أشهرها المدفع العظيم[2] الذي اخترعه المجري أوربان للسلطان، ثم استطاع نقل سبعين سفينة بحرية إلى القرن الذهبي على ألواح خشبية مسافة تقرب من عشرة كيلومترات بعد أن مهد الطريق ثم وضع على الألواح الزيوت والشحوم كي تنزلق المراكب عليها، وبهذا أحكم الحصار على القسطنطينية. وبدأ الهجوم يوم ١٠ جمادى الأولى عام ٨٥٧ بعد أن شجع السلطان المهاجمين ومنّاهم بالأعطيات. وانطلق المهاجمون مع الفجر، وتسلقوا الأسوار، وقتلوا من عارضهم، ودخلوا كنيسة أيا صوفيا، ودخل السلطان المدينة ظهراً، فمنع أعمال السلب التي كانت قائمة، ووصل إلى كنيسة أيا صوفيا فأمر أن يؤذن للصلاة وقد تحولت بعدها إلى مسجد. وسمح للنصارى بإقامة شعائرهم

---

(١) موقع غلطة: نقطة التقاء مضيق البوسفور مع القرن الذهبي، وقد قُدّم لأهل جنوة مكافأةً من الروم، كما قدم لهم غيره، مثل أزمير في الأناضول، وكافا في شبه جزيرة القرم، حيث كان للجنويين مواقع متفرقة.

(٢) كان المدفع الذي اخترعه أوربان يقذف كرات من الحجر وزن الكرة ١٢ رطلاً لمسافة ١،٦ كليومتر، وجرّه يحتاج إلى ٧٠٠ شخص.

دون معارضة، وأعطاهم نصف كنائسهم، وحق اختيار بطريرك لهم، وحوّل نصف الكنائس الأخرى إلى مساجد. وبعد أن أقام العدل عاد النصارى الخائفين الذين كانوا يريدون الفرار إلى بلاد نصرانية، وأطلق على القسطنطينية اسم استانبول أي مدينة الإسلام.

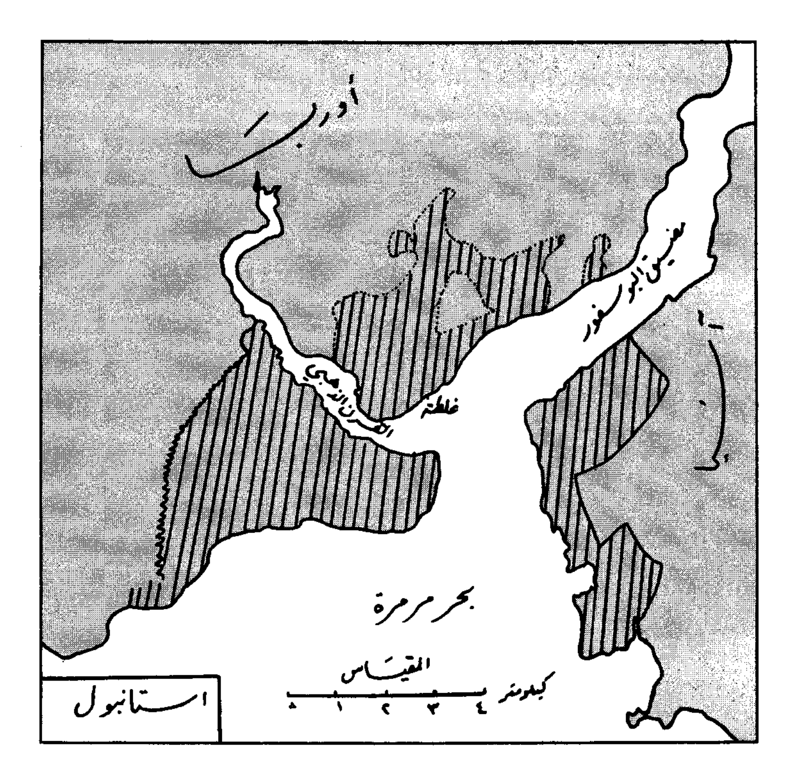
أراد السلطان الفاتح بعدئذ أن يتوجه إلى بلاد المورة لفتحها، فأرسل ملكها وفداً إليه يعرض عليه دفع جزية سنوية قدرها ١٢ ألف دوك ذهبي.

وصالح أمير الصرب مقابل جزية قدرها ثمانون ألف دوك عام ٨٥٧، وفي السنة الثانية دخل السلطان إلى بلاد الصرب، وحاصر بلغراد، ودافع عنها المجر، ولم يتمكن العثمانيون من فتحها، ثم سار الصدر الأعظم محمود باشا ففتحها بين ٨٦١ ـ ٨٦٣.

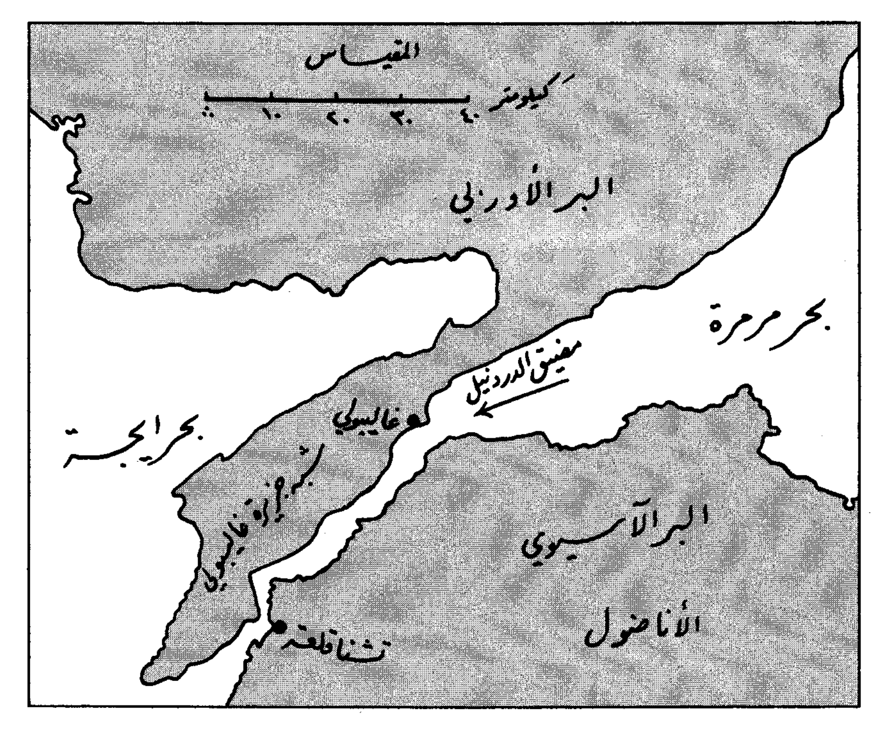
وتمكّن من فتح بلاد المورة عام ٨٦٣، وفرّ ملكها إلى إيطاليا، كما فتح الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل. وعقد صلحاً مع إسكندر بك أمير ألبانيا.

توجه سرّاً إلى الأناضول ففتح ميناء (أماستريس) الذي يتبع جنوه، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء سينوب، واحتل مملكة طرابزون دون مقاومة، وكانت تتبع القسطنطينية.

سار إلى أوربا لمحاربة أمير الأفلاق لظلمه وتعدّيه على العثمانيين، فطلب الأمير صلحاً مقابل جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوك، فوافق السلطان غير أن هذا الأمير لم يطلب هذا الصلح إلا لتتاح له الفرصة ليتفق مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين. فلما اتفقا، وعلم السلطان أرسل إليه رجلين يستوضحان الخبر فقتلهما أمير الأفلاق، وسار مُغيراً على أملاك الدولة العثمانية في بلغاريا، فأفسد فيها، واستاق الأسرى. فأرسل إليه السلطان وفداً يطلب منه أن يعيد الأسرى، ويبقى على صلحه، فمثّل بهم شرّ تمثيل، فسار إليه السلطان ففرّ أمير الأفلاق إلى ملك المجر، فضمّ السلطان الأفلاق إلى العثمانيين، وعيّن أخا أمير الأفلاق والياً عليها من قبله.



مصور رقم [١٣]



مصور رقم [١٤]

وامتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج فسار إليه السلطان، وانتصر عليه، وضمّ البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أهل البوسنة (البوشناق) لكنه هُزم. وأسلم الكثير من البوشناق بعد ذلك.

واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع في بلاد المورة، وجزراً كثيرة في بحر إيجه، وقد هاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها، فسار إليهم السلطان ففروا من مواقعهم ودخلها العثمانيون. وبعد هدنة سنة عاد البنادقة لغيّهم إذ أرادوا استعادة ما فقدوه، وبدؤوا يُغيرون على الدولة فكانت النتيجة أن فقدوا بعض مواقعهم المهمة.

بدأ البابا يدعو إلى حربٍ صليبيةٍ فشجع إسكندر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوربا وأمراءها لمساندته، غير أن البابا قد توفي ولم تقم الحرب الصليبية، لكن إسكندر بك نقض العهد، وحارب العثمانيين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين. وتوفي إسكندر بك عام ٨٧٠.

اتجه السلطان إلى الأناضول فضمّ إليه إمارة القرمان نهائياً إذ اختلف أبناء أميرهم إبراهيم الذي أوصى عند وفاته لابنه إسحاق فنازعه إخوته، فأيّد السلطان إخوة إسحاق عليه وهزمه، وعيّن مكانه أحد إخوته، فلما رجع السلطان إلى أوربا، احتل إسحاق قونية وفرض نفسه، فرجع إليه السلطان وهزمه، وضمّ الإمارة إلى الدولة العثمانية.

وهاجم أوزون حسن أحد خلفاء تيمورلنك شرقي الأناضول، واحتل مدينة توقات، فأرسل إليه السلطان جيشاً هزمه عام ٨٧٤، ثم سار إليه السلطان بنفسه على رأس جيش وأجهز على ما بقي معه من جنود.

عرض السلطان عام ٨٧٨ على أمير البغدان اصطفان الرابع الجزية حتى لا يحاربه فلم يقبل الأمير، فأرسل إليه جيشاً وانتصر عليه بعد حروبٍ عنيفة، ولكن لم يستطع فتح هذا الإقليم، فعزم السلطان على دخول القرم للإفادة من فرسانها في قتال البغدان، وتمكّن من احتلال أملاك الجنويين

الدولة العثمانية
عام
٨٨٦
البندقية
المجر
البغدان
الأفلاق
القرم
البحر الأسود
استانبول
اوترانت
ذوالقدرية

مصور رقم [١٥]

الممتدة على شواطئ شبه جزيرة القرم، ولم يقاوم التتار سكان القرم العثمانيين بل دفعوا لهم مبلغاً من المال سنوياً. وأقلعت السفن الحربية العثمانية من القرم إلى مصب نهر الدانوب فدخلت، وكان السلطان يدخل بلاد البغدان عن طريق البر، فانهزم اصطفان الرابع فتبعه السلطان في طريق مجهولة فانقض عليه اصطفان الرابع وانهزم السلطان، وارتفع اسم اصطفان الرابع وذلك عام ٨٨١.

وصالح السلطان البنادقة، وانهزم أمام المجر عندما سار لفتح ترانسلفانيا، ولكنه في البحر فتح الجزر التي بين اليونان وإيطاليا، كما فتح مدينة أوترانت في جنوبي شبه جزيرة إيطاليا عام ٨٨٥، وحاصر في العام نفسه جزيرة رودوس، ولم يتمكن من فتحها.

وفي أثناء حصار القسطنطينية عُرف ضريح أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، رضي الله عنه، فبنى عنده مسجداً، وأصبح تنصيب السلاطين يتمّ في هذا المسجد.

وتوفي السلطان محمد الفاتح يوم ٤ ربيع الأول عام ٨٨٦ عن عمر ينوف على خمس وخمسين سنة بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة.

٤ ـ بايزيد الثاني:

كان بايزيد أكبر أولاد السلطان محمد الفاتح، وكان حاكماً في عهد أبيه لمقاطعة (أماسيا)، وكان الولد الثاني للسلطان محمد الفاتح يُدعى (جم)، ويحكم مقاطعة القرمان، والأمير بايزيد هو الذي سيتولّى السلطنة بعد وفاة أبيه، وكلا الولدين كان بعيداً عن استانبول، وكانت رغبة الصدر الأعظم قرماني محمد باشا في تولية الأمير جم، لذا فقد أرسل إليه من يخبره بوفاة والده كي يأتي وربما استطاع تسلم الأمر، غير أن حاكم الأناضول سنان باشا أدرك اللعبة فقتل رسول الصدر الأعظم إلى الأمير جم قبل أن ينقل له الخبر. وكانت رغبة الإنكشارية وعاطفتهم مع الأمير بايزيد فلما أُخبروا بما فعل الصدر الأعظم قاموا عليه وقتلوه، ونهبوا المدينة، وأقاموا (كركود) نائباً عن أبيه حتى يصل إلى عاصمته.

وصل الأمير بايزيد فاستقبله الإنكشاريون، وطلبوا منه العفو على ما فعلوا كما طلبوا منه طلبات نفّذها لهم كلها، وبويع بايزيد سلطاناً، وتسلّم الأمر، ومع أنه كان محباً للسلم والاشتغال بالعلم إلا أن أحوال البلد اقتضت أن يترك ما عُرف عنه ويتسلم الأمر بشدة.

وعندما وصل خبر وفاة السلطان محمد الفاتح إلى ابنه جم سار إلى بورصة، واحتلها عنوة، ودعا أخاه السلطان بايزيد لتقسيم البلاد بينهما بحيث يستقل جم بآسيا، ويستقل بايزيد بأوربا، فلم يوافقه السلطان وحاربه، ودخل بورصة ففرّ جم، والتجأ إلى المماليك عام ٨٨٦ حيث بقي عاماً كاملاً عند السلطان قايتباي في القاهرة، وبعدها انتقل إلى حلب، وبدأ يراسل الأمير قاسم حفيد أمراء القرمان، ووعده بإعادة إمارة القرمان إن تمكّن الأمير جم أن يحكم الدولة العثمانية، فسارا معاً للهجوم على قونية لكنهما فشلا فشلاً ذريعاً.

وحاول الأمير جم المصالحة مع أخيه السلطان على أن يعطيه مقاطعة، فرفض ذلك السلطان حيث فهم منه تقسيم الدولة، وانطلق الأمير جم إلى رهبان جزيرة رودوس فاستقبلوه، غير أن السلطان اتصل بهم، وطلب منهم إبقاء الأمير جم عندهم تحت الإقامة الجبرية مقابل دفع مبلغ من المال من السلطان للرهبان، وعدم التعرّض للجزيرة ما دام حياً فوافق الرهبان على ذلك، ورفضوا تسليمه إلى ملك المجر، ثم رفضوا تسليمه إلى إمبراطور ألمانيا ليتخذه سيفاً يقاتل به الدولة العثمانية، ولكنه سُلِّم بعدئذٍ إلى فرنسا، ومنها إلى البابا والمهم أنه مات عام ٩٠٠ وهو بهذه الصورة، وقد استراح منه السلطان سواء أكان تحت الإقامة الجبرية أم عندما فارق الحياة.

وحصلت خلافات مع مصر التي كان لها نفوذ على بعض الإمارات في جنوب الأناضول، ووقع قتال بين الطرفين غير أن باي تونس قد أصلح بينهما، خوفاً من زيادة القتال بين المسلمين على حين أن النصارى يتربّصون الدوائر بالمسلمين، ويُسَرّون للخلافات التي تحدث بينهم.

وفشل العثمانيون في فتح بلغراد، وتوطدّت الصلات مع بولونيا عام ٨٩٥، ثم حدث الخلاف بينهما إذ كان كل من الجانبين يدّعي الحماية على

البغدان، وقد اعترف أمير البغدان بالحماية العثمانية، وقاتل معهم البولونيين.

وبدأت الدول تتقرّب من الدولة العثمانية، وتطلب عقد الحلف معها للإفادة منها في قتال خصومها، وخاصةً الإمارات الإيطالية، وقد حارب العثمانيون دولة البندقية، وانتصروا عليها، فاستنجدت بملك فرنسا والبابا، وكانت حرباً صليبيةً بين الطرفين.

وظهرت دولة روسيا عام ٨٨٦ حيث استطاع دوق موسكو إيڤان الثالث من تخليص موسكو من أيدي التتار، وبدأ بالتوسع، وفي عام ٨٩٧ وصل أول سفير روسي لإستانبول، ويحمل معه الهدايا، وكان وصول السفير الثاني عام ٩٠١، وقد حصل على بعض الامتيازات للتجار الروس.

كان السلطان بايزيد الثاني قد عيّن أولاده الثلاثة الذين بقوا أحياءً على الولايات، فكان كركود والياً على شرقي الأناضول، وأحمد على أماسيا، وسليم على طرابزون كما عيّن حفيده سليمان بن سليم على مدينة (كافا) في شبه جزيرة القرم. وكان سليم محارباً طموحاً فأراد أن يكون والياً على بعض المقاطعات في أوربا ليمارس الجهاد، ويؤيده في ذلك الإنكشارية والعسكريون عامةً، ولكن السلطان قد رفض من ابنه ذلك كما رفض الولد ولاية طرابزون، وانتقل إلى ابنه سليمان في كافا، ثم جمع جيشاً، وسار إلى أوروبا وحاول السلطان تهديد ولده الذي أصرّ على القتال، ونتيجة حبه للسلم تراجع عن قراره وعيّنه على بعض المقاطعات الأوروبية عام ٩١٦، فطمع سليم وسار إلى أدرنة، وأعلن نفسه سلطاناً عليها، فحاربه أبوه وهزمه، وفرّ إلى القرم، ثم تدخلت الإنكشارية فعفا السلطان عنه، وأعاده إلى أوروبا، فسار به الإنكشارية إلى إستانبول، وطلبوا من السلطان التنازل للأمير سليم عن الحكم فوافق واستقال عام ٩١٨، وانتقل السلطان ليعيش بعيداً عن الحكم فتوفي في الطريق. أما الأمير كركود، وهو الولد الكبير للسلطان فقد رأى أخاه سليماً يفرض رأيه لذا اتجه إلى مقاطعة صاروخان، واستلمها دون أمر أبيه، فحاربه أبوه وهزمه قبيل وفاته بقليل.

ملاحظات على السلطنة العثمانية

امتدت سلطنة بني عثمان ما يقرب من مائتين وإحدى وثلاثين سنة، ومرت بمرحلتين تجاوزت كل مرحلة مائة سنة، وبينهما مدة من الخلاف بين أبناء السلطان بايزيد الأول تجاوزت أحد عشر عاماً. وحكم في كل مرحلة أربعة سلاطين، انتهت أولاهما بأيام بايزيد الأول، وانتهت الثانية بعهد بايزيد الثاني، وهاتين المرحلتين هما:

أولاً:

١ ـ عثمان	٦٨٧ ـ ٧٢٦
٢ ـ أورخان	٧٢٦ ـ ٧٦١
٣ ـ مراد الأول	٧٦١ ـ ٧٩١
٤ ـ بايزيد الأول	٧٩١ ـ ٨٠٥

وإن كانت سلطنة عثمان الحقيقية أو التي حملت لقب سلطان قد بدأت عام ٦٩٩ عندما زالت دولة سلاجقة الأناضول، وتفرّد بعدها، وأعلن نفسه سلطاناً، أما قبل ذلك فقد كان أميراً عادياً.

ثانياً:

١ ـ محمد چلبي	٨١٦ ـ ٨٢٤
٢ ـ مراد الثاني	٨٢٤ ـ ٨٥٥
٣ ـ محمد الثاني «الفاتح»	٨٥٥ ـ ٨٨٦
٤ ـ بايزيد الثاني	٨٨٦ ـ ٩١٨

وبين هاتين المرحلتين كان خلاف بين أبناء السلطان بايزيد الأول الذي قُتل

في معركة أنقرة عام ٨٠٥، والتي دارت بينه وبين تيمورلنك، واستمرت مدة الخلاف أحد عشر عاماً ٨٠٥ ـ ٨١٦ حيث تفرّد السلطان محمد چلبي بالسلطنة.

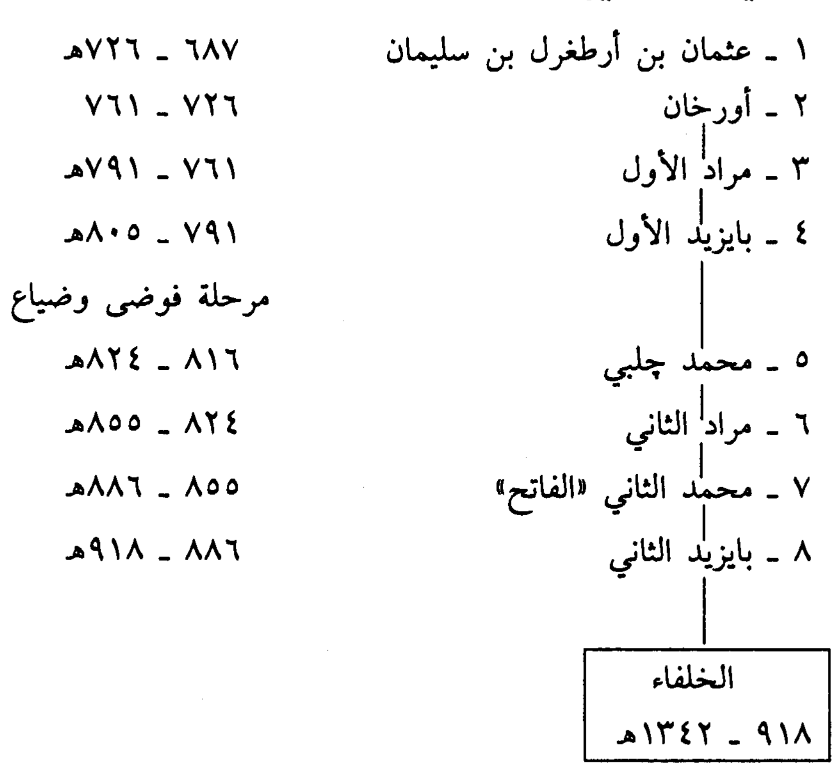
ويمكن أن نلاحظ في مرحلة السلطنة العثمانية أن همّها الأول كان محصوراً في فتح القسطنطينية، ويبدو تذليل الصعاب في سبيل هذه المهمة هو القضاء على الإمارات التركمانية التي كانت قائمة في الأناضول لتوحيد جهود المسلمين أولاً، وكي لا يبقى سنداً للروم فيما إذا أرادوا الاعتماد على بعض الرجال الذين يفضلون مصالحهم على مصلحة الأمة، واستمرت هذه المهمة مدةً طويلة بل شغلت عهد السلطنة الأول كله، وربما تجاوزت قليلاً حتى قضى السلطان سليم على إمارة أبناء رمضان، وإمارة ذي القادر عام ٩٢٢، وكانت مهمة السلطنة الثانية هي التوسع في أوروبا للغاية نفسها، وإسقاط كل دعمٍ يفكر فيه الروم، واستمر هذا أيضاً في عهد السلطنة الثاني كله.

ونرى أيضاً أن اهتمام السلاطين العثمانيين بالأمة المسلمة كان ضعيفاً رغم فكرة الجهاد التي حملوها ورغم أن أوربا قد وقفت في وجههم باسم الصليبية، وكان البابا المحرك الرئيسي لقتال العثمانيين لحماية النصرانية ـ على حد زعمه ـ فكان يرسل النداءات لملوك أوروبا وأمرائها للوقوف أمام الدولة العثمانية. وإن عدم اهتمام العثمانيين بالأمة المسلمة لأنهم كانوا يشعرون أن سلطنتهم ضعيفة وصغيرة لا تشكّل ثقلاً عظيماً في الأوساط العالمية، أو بين الدول القائمة آنذاك فيرون أن دولة المماليك أقوى منهم، وهي مركز الخلافة وعليها المسؤولية الأولى في هذا المجال، مع أن العثمانيين كانوا يتصوّرون في أن الضغط على أوربا من جهة الشرق يُخفّف عن مسلمي الأندلس مما يعانونه من حرب صليبية. مع أن مسلمي الأندلس قد وصلوا آنذاك إلى مرحلةٍ من الضعف لا يجدي معها دعم، ولا ينفع معها مدّ، فقد كانوا يعيشون في البذخ والترف، ويصرفون وقتهم في الفن وتزيين القصور، وزراعة الحدائق وفي الوقت نفسه يستنجدون بطغاة نصارى الإسبان بعضهم على بعض. وعندما سقطت الأندلس بيد نصارى الإسبان مع مطلع عام ٨٩٨ كان سلطان العثمانيين بايزيد الثاني محباً إلى الدعة والسلم.

كما نلاحظ أن روسيا لم تدخل ميدان الصراع في أثناء السلطنة العثمانية وذلك لأن الروس كانوا تحت حكم التتار المسلمين، وأول مرة استطاع دوق موسكو إيڤان الثالث أن يُخلّص مدينته من حكم التتار هي عام ٨٨٦ أي في العام الذي توفي فيه السلطان محمد الفاتح، أو أن عهد السلطنة كان في آخره، وقد أرسل الروس السفراء إلى إستانبول في تلك المدة.

ونلاحظ أن الصراع لم يحدث بين العثمانيين وبين الدول المسلمة المحيطة بهم من الجنوب والشرق بشكلٍ عنيفٍ وذلك لانصراف العثمانيين إلى مهمتهم التي تكلمنا عنها، أو لانصرافهم إلى شؤونهم الخاصة، وعندما كاد النزاع يقع بينهم وبين المماليك تدخل باي تونس في الأمر، وحال دون وقوع قتال بين المسلمين هذا مع العلم أن العثمانيين كانوا يهتمون بالجانب الإسلامي كثيراً، وكانوا أصحاب عاطفة إسلامية فاهتمامهم كان نحو الجهاد لا إلى قتال المسلمين.

السلاطين العثمانيون:



الفصل الرابع

الخلافة العثمانية - عصر القوة

اختلف عهد الخلافة العثمانية عن عهد السلطنة إذ بدأ الاهتمام بالأمة المسلمة، والعمل على توحيدها، ثم الوقوف أمام الصليبية صفاً واحداً، وقد عمل الخلفاء على هذا حتى ضعف أمرهم فأصبح تفكيرهم ينحصر بالمحافظة على ما تحت أيديهم، حتى إذا زاد الضعف بدأت الدول النصرانية تقتطع من الدولة جزءاً بعد آخر حتى أنهت عليها، واصطنعت لنفسها أعواناً بين المسلمين، حتى قضت على الخلافة الإسلامية نهائياً، وتشتّت أمر المسلمين، وانقسموا فرقاً وشيعاً وعصبيةً، لذا فقد توالى على الخلافة العثمانية ثلاثة عصور كان أولها عصر القوة، وتعاقب عليه خليفتان فقط هما: سليم الأول وابنه سليمان الأول.

١ ـ سليم الأول:

بعد أن تنازل بايزيد لابنه سليم عن الحكم بدعم الإنكشارية، أرضى السلطان سليم الإنكشارية وتوجه إلى آسيا للتخلّص من إخوته الذين يُنازعونه السلطة أو لا يرضون به سلطاناً، فتعقّب أخاه أحمد إلى أنقرة، وقبض عليه بعد جهد، وقتله، ثم سار إلى ولاية صاروخان وتتبّع أخاه الآخر كركود ففرّ منه، وبعد البحث عليه تمكّن منه، وقتله، وأخذ خمسةً من أولاد إخوته في بورصة، وأمر بقتلهم، واطمأن بعدها حسب قناعته من المنافسة الأُسرية. وكان قد عيّن ابنه سليمان حاكماً على إستانبول ليتفرّغ لأموره التي في رأسه.

انتقل بعد ذلك إلى أدرنة فوجد سفراء البندقية، والمجر، وموسكو، وسلطنة مصر ينتظرونه، فعقد معهم معاهدات حيث يريد أن يتفرّغ إلى ما يُخطِّط له.

إنّ السلطان سليم ذو شخصية قويةٍ، وهو عسكري بفطرته، لذا كانت نظرته إلى القضايا كلها من وجهة نظرٍ عسكريةٍ، فيرى أن الأمور المستعصية لا تحلّها إلا القوة، وهذا ما جعل العسكريين يُحبّونه، ويعملون على تسلّمه السلطة.

رأى السلطان سليم أن دولته قد أصبحت أقوى الدول الإسلامية آنذاك لذا عليه أن يقوم بالمهمّة الملقاة على عاتقه في توحيد أبناء الأمة المسلمة. ورأى أن الأندلس قد سقطت بيد النصارى الإسبان، ولم تعد هناك فائدة للضغط على أوربا من جهة الشرق للتخفيف عن المسلمين في الغرب.

ورأى أن أوربا النصرانية لا يمكن مواجهتها إلا بالمسلمين كافةً لذا يجب أن يخضع المسلمون لدولةٍ واحدةٍ، ولا شك أنه يُفكّر في أن هذا الخضوع يجب أن يكون للعثمانيين بصفة أن دولتهم أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك. ورأى أن دولة المماليك قد ضعُف أمرها، ولم تتمكن من تأدية دورها في مواجهة البرتغاليين الذين قدموا على المسلمين من الجنوب، وأن الخلافة العباسية في مصر ليست سوى خلافةٍ صوريةٍ يتصرّف بها المماليك كيف يشاؤون.

ورأى أن البرتغاليين يُهدّدون العالم الإسلامي من جهة الجنوب، ويُهدّدون باحتلال المدينة المنورة، وأخذ رفات النبي الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، وعدم تسليمها للمسلمين حتى يتخلّوا عن القدس للنصارى، وقد عجز المماليك عن مقاومتهم، وفوق هذا فإن هؤلاء البرتغاليين قد وجدوا لهم أعواناً بين المسلمين أنفسهم، إذ طلب الصفويون من البرتغاليين أن يُشكّلوا حلفاً ضدّ العثمانيين بل ضدّ أهل السنة من المسلمين، ورأى أيضاً أن موقف الصفويين في الخليج ضد البرتغاليين كان موقفاً فيه كثير من الميوعة.

ورأى أن الصفويين بعامل الخلاف المذهبي بينهم وبين العثمانيين قد بدؤوا يتحرّشون بالعثمانيين من جهة الشرق، ويُحاولون التوسّع، كما يعملون على نشر المذهب الشيعي، فقد دخل الشاه إسماعيل الصفوي ديار بكر، وجعل عاصمته تبريز القريبة، وطلب من المماليك التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسّعهم. كما ساعد الأمير أحمد ضد والده السلطان بايزيد الثاني، ثم ضد أخيه السلطان سليم، فلما تمكّن السلطان من أخيه كان لا بدّ من ضرب من كان يعاونه.

أمام هذه المرئيات وحسب طبيعته العسكرية، وجد أن يحسم الأمور بالعمل العسكري، وقرّر أن يسير نحو الصفويين ليُأدبهم ويُبعدهم عن البرتغاليين، ثم يتحالف مع المماليك ليقفوا معاً في وجه البرتغاليين فإن أبى المماليك التفاهم احتل بلادهم، ووقف أمام البرتغاليين يجاهدهم وخاصةً أنها حرب صليبية واضحة يتابع البرتغاليون من خلالها المسلمين بعد أن أخرجوهم من الأندلس. وفي الوقت نفسه يكون قد قطع مرحلةً في توحيد المسلمين بضمّ أجزاء واسعة إلى دولته، وكلها أقسام من بلاد المسلمين، وربما شجّعه على ذلك ضعف دولة المماليك، وخوف السكان من البرتغاليين، وسمعة العثمانيين التي ارتفعت في نفوس الأهالي، وأمل المسلمين في قدوم السلطان العثماني لمنازلة البرتغاليين.

اتجه السلطان سليم من أدرنة على رأس جيش عظيم باتجاه الصفويين، وكان قد أحصى الشيعة الذين يُقيمون في شرقي الدولة لأنهم سيكونون أنصاراً للصفويين، وأمر بقتلهم جميعاً، ثم تقدّم نحو تبريز عاصمة الصفويين الذين أرادوا خديعته بالتراجع المخطّط حتى إذا أنهك الجيش العثماني انقضّوا عليه، وبقي السلطان في تقدّمه حتى التقى بالجيش الصفوي في جالديران جنوب مدينة قارص في شرقي الأناضول وكانت معركةً عنيفةً بين الطرفين في الثاني من رجب عام ٩٢٠، انتصر فيها العثمانيون، وفرّ من الميدان الشاه إسماعيل الصفوي، وبعد عشرة أيام دخل السلطان تبريز، واستولى على الخزائن، ونقلها إلى إستانبول، وتتبع الشاه، ولكن لم يتمكّن

من القبض عليه، وأقبل فصل الشتاء ببرده في تلك المرتفعات فاشتد الأمر على الجنود العثمانيين، وبدا تذمرهم، فترك السلطان المنطقة، وسار نحو مدينة أماسيا حتى انتهى فصل الشتاء، رجع السلطان إلى أذربيجان ففتح بعض القلاع، ودخل إمارة ذي القادر، وترك الجيوش العثمانية تنفّذ المهمة التي أعطاها لها، وعاد إلى إستانبول، فقتل كبار الضباط من الإنكشارية الذين أبدوا تذمُّراً من التقدّم بسبب البرد كي لا تتكرر الحادثة. وكانت الجيوش العثمانية قد دخلت أورفة، والرقة، وماردين، والموصل.

بعد الحرب التي شنّها السلطان سليم على الصفويين بدأ يستعّد لحرب المماليك الذين تحالفوا مع الصفويين على العثمانيين، والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر على الحدود بين الطرفين، والتي قاعدتها مرعش، وشجّعه على هذه الحرب وجهاء الشام الذين خافوا البرتغاليين، ولم يجدوا في المماليك القدرة على المقاومة، وبروز العثمانيين كقوةٍ ضخمةٍ اكتسحت أجزاء من أوربا. ولما علم سلطان المماليك قانصوه الغوري الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين استعداد السلطان سليم لغزو بلاد المماليك أرسل إليه رسولاً يعرض عليه وساطته للصلح بين العثمانيين والصفويين، غير أن السلطان سليم بطبيعته العسكرية طرد الرسول وأهانه، لأنه قرر الحسم العسكري.

سار السلطان سليم بجيشه نحو بلاد الشام، واستعدّ السلطان الأشرف قانصوه الغوري، واتجه نحو الأناضول، والتقى الطرفان في مرج دابق شمال غربي مدينة حلب، وكان السلطان العثماني قد اتصل بولاة الشام ومنّاهم، أو التقوا به، وتقرّبوا إليه، وعندما التحم الجيشان يوم ٢٥ رجب من عام ٩٢٢، انفصل ولاة الشام بمن معهم وانضموا إلى العثمانيين فانتصروا، وهُزم المماليك رغم شجاعة السلطان الأشرف[1] والجهد الذي قدّمه، وثباته في المعركة حتى قُتل.

---

(١) تولّى السلطان أشرف قانصوه الغوري السلطة في مصر عام ٩٠٦، وهو لا يريدها، وكانت سنه فوق الرابعة والستين، وقام بإصلاحات كثيرة، وخاض معركة مرج دابق وعمره ثمانون عاماً.

دخل السلطان سليم حلب، وحماة، وحمص، ودمشق دون مقاومة بل بالترحيب في أغلب الأحيان، وأبقى ولاة الشام على ولاياتهم حسبما وعدهم، بل زاد في مناطق نفوذ بعضهم حسبما بذلوا في ميدان مرج دابق، واتجه إلى مصر، بعد أن قابل العلماء وأكرمهم، وأمر بترميم مسجد بني أمية بدمشق، وقد عيّن جانبرد الغزالي على دمشق، وفخر الدين المعني على جبل لبنان، وهو من الدروز، وقد ساعد السلطان سليم، ووقف إلى جانبه بعد أن ترك المماليك ليحصل على الولاية، وهو من ألد أعداء العثمانيين وما يحملونه من أفكار إسلامية.

كان المماليك في مصر قد اختاروا سلطاناً جديداً هو خليفة قانصوه الغوري ويُدعى طومان باي، وقد أرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر، غير أن طومان باي رفض ذلك، واستعد للقتال، والتقى الطرفان عند حدود بلاد الشام فهُزم المماليك، ودخل العثمانيون غزة، وفي اليوم الأخير من عام ٩٢٢ التقى الطرفان في معركة الريدانية على أبواب القاهرة، وانطلق طومان باي مع كوكبةٍ من فرسانه إلى مقرّ السلطان سليم، وقتلوا من حوله، وأسروا الوزير سنان باشا، وقتله طومان باي بيده ظنًّا منه أنه السلطان سليم، ورغم الشجاعة التي أبداها المماليك، والمقاومة التي أظهرها المقاتلون فإن العثمانيين قد انتصروا عليهم لتفوّقهم بالمدفعية، وفي ٨ محرم ٩٢٣ دخل العثمانيون القاهرة. وانطلق طومان باي إلى جهات الجيزة يقاتل العثمانيين، غير أنه سقط أسيراً بأيديهم، وقُتل في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣.

بقي السلطان سليم في القاهرة ما يقرب من شهر وزّع خلالها الأُعطيات، وحضر الاحتفالات، وقد تنازل له الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله عن الخلافة، وسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين، فأصبح السلطان العثماني منذ ذلك اليوم خليفةً للمسلمين، كما جاءه محمد أبو نمي بن الشريف بركات شريف مكة، وأعلن له الطاعة.

وسافر الخليفة العثماني من مصر متجهاً نحو الأناضول عن طريق

الشام، وقد عيّن حاكماً على مصر خير بك، وترك عنده حاميةً من الإنكشارية، واصطحب معه الخليفة العباسي المتنازل أو المخلوع، ومرّ على دمشق، وأقام فيها مدةً، بنى خلالها الجامع على ضريح محيي الدين بن العربي، ومرّ على حلب وأقام بها شهرين، ثم سافر إلى أدرنة. وهناك جاءه سفير إسبانيا من أجل السماح لنصارى الإسبان بزيارة بيت المقدس مقابل مبلغ يُدفع له سنوياً، كما كان الأمر مع المماليك، وبدأ يستعدّ لمحاربة الصفويين غير أنه توفي في ٩ شوال عام ٩٢٦.

٢ ـ سليمان:

ولد سليمان عام ٩٠٠، وتولّى الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٩٢٦، وفي عهده بلغت الدولة أوج قوتها واتساعها. وما أن شاع خبر وفاة الخليفة العثماني الأول حتى أعلن جانبرد الغزالي حاكم الشام تمرده، واتصل بخير بك حاكم مصر ليكون نصيره فراوغه ووعده، وفي الوقت نفسه أطلع الخليفة الجديد على مراسلاته له. وسار الغزالي ليأخذ حلب وألقى الحصار عليها، وهو في حصاره لها وصلت إليه الجيوش العثمانية فترك الحصار، وأسرع إلى دمشق ليتحصّن بها، فلحقته الجيوش وحاصرته فيها، فخرج يريد القتال يوم ١٧ صفر ٩٢٧ فانهزم جنده، وفرّ هو متنكراً، ولكن أخذه بعض أعوانه، وسلّمه إلى فرحات باشا قائد الجيوش العثمانية فقتله.

وأرسل الخليفة رسولاً إلى ملك المجر يطالبه بدفع الجزية، فقتل الملك الرسول، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة جمع جيشه، وسار على رأسه لقتال المجر، ودخل مدينة بلغراد بعد حصار قصير، وغادرتها الجنود المجرية.

وفتح جزيرة رودوس في ٢ صفر عام ٩٢٩ مستغلاً انشغال أوربا بقضاياها الخاصة، واختلافاتها فيما بينها كي لا تساعد رهبان هذه الجزيرة الذين يُسيطرون عليها، وقد انتقل هؤلاء الرهبان إلى جزيرة مالطة.

وأصبحت شبه جزيرة القرم ولايةً عثمانيةً، وكانت من قبل ولايةً

يحكمها التتار من فرع القبيلة الذهبية، ثم وقع الخلاف بين حكامها فتدخّلت الدولة العثمانية في شؤونها، ولكن بقيت الفوضى قائمةً حتى ضمها إليها عام ٩٣٩.

وفي عام ٩٣١ أرسل جيشاً استولى على عاصمة الأفلاق، وأخذ أميرها إلى إستانبول، وكانت من قبل تعترف بالسيادة العثمانية، وتدفع الجزية. ولكن الأعيان ثاروا على ذلك بمساعدة أمير ترانسلفانيا وعيّنوا أميراً جديداً فوافق السلطان مقابل زيادةٍ في الجزية.

وقد رغب ملك فرنسا في التحالف مع العثمانيين كي يحاربوا المجر التابعة لملك النمسا شارلكان الذي تحيط أملاكه بفرنسا من كل جهة إذ كانت تتبعه إسبانيا، وهولندا، وإمارتا جنوه وفلورنسا، وصقلية، وجزر البالئار، وفي الوقت نفسه يعدّ إمبراطوراً لألمانيا، لذا فقد أرسل ملك فرنسا سفيراً للخليفة العثماني في هذا الشأن، ووعده الخليفة بذلك، وفعلاً فقد سار الخليفة عام ٩٣٢ على رأس مائة ألف مقاتل إضافة إلى ثمانمائة سفينة انطلقت في نهر الدانوب، وقد جعل قاعدته مدينة بلغراد. وأحرز الانتصار، وقتل ملكهم لويس، ودخل بعدها العاصمة «بودا» في ٣ ذي الحجة عام ٩٣٢، وعيّن أمير ترانسلفانيا «جان زابولي» ملكاً على المجر، ورجع بعدها إلى إستانبول غير أنه في العام التالي ٩٣٣ ادعى الأمير فرديناند أخو ملك النمسا شارلكان أحقيته بملك المجر، فسار إليها، ودخل عاصمتها «بودا»، وهزم ملكها «جان زابولي» الذي استنجد بالخليفة، فسار إليه عام ٩٣٥، وحاصر «بودا»، وفرّ منها فرديناند متجهاً نحو «ڤيينا» فتبعه، وألقى الحصار على المدينة، وأمر بالهجوم عليها في ٢٠ صفر ٩٣٧ بعد أن أحدث ثغراتٍ في أسوارها ولكنه لم يقو على اقتحامها إذ نفذت ذخيرة المدفعية، وداهمه فصل الشتاء البارد فقرّر فك الحصار والعودة. وفي العام التالي ٩٣٨ أرسل ملك النمسا جيشاً لدخول «بودا» غير أنه عجز عن ذلك أمام مقاومة الحامية العثمانية. وعاد الخليفة نحو ڤيينا عام ٩٣٩ إلا أنه رجع من الطريق لما علم من استعدادات شارلكان الدفاعية.

وجاءت سفن بحرية تابعة لشارلكان والبابا واحتلت بعض المواقع في شبه جزيرة المورة اليونانية والتابعة للدولة العثمانية. وبعد ذلك وقعت معاهدة بين النمسا والخليفة العثماني.

وفي عام ٩٤١ اتجه العثمانيون نحو تبريز فدخلوها ثانيةً، وجاء إليها الخليفة إثر ذلك، وسار منها نحو بغداد ففتحها في العام نفسه.

العمل العثماني في بلاد المغرب:

كان البحار المشهور خير الدين وأخوه عرّوج نصرانيان من إحدى جزر بحر إيجه، ويعملان في القرصنة البحرية، ثم هداهما الله إلى الإسلام فأسلما، ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي في تونس، وكانا يعترضان السفن النصرانية، ويأخذان ما فيها، ويبيعان ركابها وملاحيها رقيقاً. وقد أرسلا للسلطان العثماني سليم إحدى السفن التي أسروها فقبلها منهما، وأجزل لهما العطاء، فقويت نفسيهما، وعندما جاء السلطان سليم إلى مصر أرسلا له رسولاً يُعلن له خضوعهما للدولة العثمانية.

واستطاع عرّوج أن يستولي على مدينة الجزائر، وأن ينتصر على جيوش شارلكان التي أرسلها لمحاربة عرّوج، كما استولى على مدينة تلمسان غير أنه قُتل في إحدى حروبه مع الإسبان. وأرسل خير الدين بعد ذلك رسولاً إلى الخليفة العثماني سليم الأول وكان لا يزال في مصر يُعلمه أنه قد فتح مدينة الجزائر باسم الخليفة، فأصدر الخليفة أمراً يقضي بتعيين خير الدين والياً على إقليم الجزائر، وأعطاه رتبة (باشا)، وبذا أصبحت الجزائر ولايةً عثمانيةً.

وكان الإسبان قد أخذوا طرابلس الغرب من بني حفص عام ٩١٦، وبنزول الإسبان في طرابلس شعر السكان بالخطر الصليبي يتهددهم، فأرسلوا إلى الخليفة العثماني سليمان الأول وفداً عام ٩٢٦ يستغيثون به، فأنجدهم بقوةٍ صغيرةٍ بإمرة مراد آغا الذي نزل شرق طرابلس، وسار لحصارها، لكنه لم يتمكّن من فتحها، وجاءت قوة من جنوه ونابولي

الإيطاليتين وغزت بعض سواحل بلاد المسلمين، واحتلت بعضها ومنها جزيرة جربا التونسية. عندها أحسّ الخليفة العثماني بالخطر الصليبي على حقيقته هناك، فأرسل الأسطول العثماني بقيادة طورغول الذي هاجم الإسبان في طرابلس، وفتح المدينة، وطرد النصارى الإسبان منها، وتولى الإمارة فيها، كما أخرج الإسبان من بنزرت ووهران، وغزا ميورقة، وكورسيكا.

واستمر خير الدين في عمله البحري فنزل على شواطئ إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وأخذ حصن (بينون) الذي أقامه الإسبان على جزيرة أمام مدينة الجزائر. غير أن السلطان سليمان قد طلب منه أن يكفّ عن مراكب فرنسا بعد المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والعثمانيين، فكفّ عن ذلك، ولكن وجّه اهتمامه ضدّ الإسبان انتقاماً لما فعلوه بالمسلمين في الأندلس بعد أن سقطت غرناطة بأيديهم عام ٨٩٨.

وفي عام ٩٣٩ دعا الخليفة سليمان إلى إستانبول خير الدين، وكلّفه ببناء السفن والاستعداد لغزو تونس، فقام بالأمر حق قيام، وعندما سافر الخليفة إلى تبريز عام ٩٤٠ سار خير الدين عبر مضيق الدردنيل إلى مالطة كي يُخفي قصده، كما غزا بعض موانئ جنوبي إيطاليا، ثم قصد تونس عام ٩٤١، وتمكّن من احتلالها بسهولةٍ باسم الخليفة العثماني، وقد عزل مولاي حسن آخر الحفصيين، وعيّن مكانه أخاه الرشيد. ونتيجة ذلك الفوز اتفق شارلكان، وأشراف الإسبان في برشلونة، ورهبان مالطة على حرب المسلمين، وقاد الجموع شارلكان بنفسه، وتوجّه نحو تونس وتمكّن من دخولها، وقام جنوده بأحقر وأبشع الأعمال، وأعاد حسن الحفصي إلى الحكم بعد معاهدة معه، سمحت للنصارى بالاستيطان في إقليم تونس، وإقامة شعائرهم بِحرّية، ودفع الحفصي تكاليف الحرب، وتنازل لشارلكان عن بنزرت وعَنّابة. واضطر خير الدين أن ينسحب إلى الجزائر.

والتقى خير الدين عام ٩٤٤ بأسطول شارلكان وانتصر عليه، كما غزا جزيرة كريت، وتوفي عام ٩٥٣هـ.

الحروب في أوربا:

هاج الرأي العام النصراني في أوربا على فرنسا وتحالفها مع الدولة العثمانية المسلمة التي تقاتل النمسا الدولة النصرانية فما كان من ملك فرنسا فرانسوا الأول إلا أن خضع للرأي الصليبي، وهادن ملك النمسا، وأخلف بما وعد به العثمانيين من غزوٍ مشتركٍ لإيطاليا.

وعادت الحرب بين العثمانيين والنمسا عام ٩٤٣، وانهزمت النمسا، وحرّض فرديناند أخو شارلكان أمير البغدان على التمرّد على العثمانيين لكن فتنته قد قُمعت، وعُزل عن الإمارة، وتولّى مكانه أخوه اصطفان عام ٩٤٤، وعزّز العثمانيون حاميتهم هناك.

واتفق جان زابولي ملك المجر، مع الأمير النمساوي فرديناند على اقتسام المجر، وإنهاء التدخل العثماني، وللإيقاع بزابولي فقد أرسل فرديناند نسخةً من الاتفاق إلى الخليفة العثماني ليعرف عدم ولاء زابولي، ويُقصيه عن الملك، وعندها يزداد النفوذ النمساوي في المجر، ويزول من طريقه حليف العثمانيين.

ومات جان زابولي ملك المجر عام ٩٤٦ قبل أن يلقى الجزاء من الخليفة، وهاجمت الجيوش النمساوية المجر بسرعة لإنهاء الحماية العثمانية، وحاصرت مدينة «بودا» وفيها أرملة زابولي وطفلها، واحتلت مدينة «بست» المقابلة لمدينة «بودا»، ومع وصول الخبر إلى الخليفة اتجه فوراً عام ٩٤٧ على رأس جيش ففرّ النمساويون، وغدت المجر ولايةً عثمانيةً، وأما أرملة زابولي وأم الطفل والوصية عليه، فقد قبلت تلك الحماية الموقتة لبلوغ الطفل سن الرشد. وأخيراً عُقدت معاهدة بين الخليفة العثماني والنمسا عام ٩٥٤ لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزيةً سنويةً لقاء ما بقي تحت يدها من المجر.

العمل العثماني في جزيرة العرب:

أمر الخليفة العثماني سليمان القانوني حاكم مصر سليمان باشا أن

يُجهّز أسطولاً، ويتجه به لمحاربة الصليبيين البرتغاليين، وأن يفتح عدن وبلاد اليمن كي لا تقع بأيدي الصليبيين، فبنى سليمان باشا أسطولاً مؤلفاً من سبعين سفينة، واتجه به على رأس عشرين ألف جندي، وفتح عدن، ومسقط، وحاصر جزيرة هرمز عام ٩٤٤. وكان قد وصل إلى إستانبول قبل عام سفير من كوجرات بالهند، يستنجد بالخليفة ضد البرتغاليين الذين وصلوا إلى سواحل الهند، وآخر من دهلي يستنجد به ضد همايون بن ظاهر الدين محمد المشهور ببابر، وهو من المغول الذين دخلوا الهند وحكموها.

وانطلق سليمان باشا إلى كوجرات، ودخل بعض القلاع التي أقامها البرتغاليون على سواحل الهند، ولكنه هُزم في معركة (ديو) البحرية أمام البرتغاليين، ورجع إلى بلاده، وكانت اليمن قد أصبحت ولايةً عثمانيةً.

العمل العثماني في أذربيجان:

جاء إلى إستانبول أخو الشاه الصفوي، يشكو إلى الخليفة ظلم أخيه، وهضم حقوقه، وطلب منه مساعدته ضده، فسار الخليفة عام ٩٥٤ ودخل تبريز، وكان هذا الدخول العثماني لهذه المدينة المرة الثالثة، وعاد الخليفة إلى إستانبول عام ٩٥٥.

العودة إلى أوربا:

تنازلت إيزابيلا أرملة زابولي عن ترانسلفانيا إلى فرديناند الأمير النمساوي مخالفةً بذلك شروط الهدنة الموقعة بين العثمانيين والنمساويين، فأرسل الخليفة جيوشه التي احتلت ترانسلفانيا بعد مقاومةٍ، وذلك عام ٩٥٧، كما انتصرت على النمساويين في عدة مواقع عام ٩٥٨.

ومات ملك فرنسا فرانسوا الأول وخلفه ابنه هنري الثاني فجدّد المعاهدة مع العثمانيين عام ٩٥٩، وأغارت بعدها الدولتان على صقلية وجنوبي إيطاليا، وفتحت أساطيلهما جزيرة كورسيكا، ثم اختلف القائدان، فتركا الجزيرة، وعاد كل منهما إلى بلده.

وحاصر العثمانيون جزيرة مالطة عام ٩٧١ مدة أربعة أشهر، ولم يتمكّنوا من فتحها.

وعاد الخليفة للقتال في بلاد المجر عام ٩٧٣ نتيجة الخلاف بين اصطفان زابولي ملك المجر، ومكسمليان ملك النمسا الذي خلف أباه فرديناند. وتوفي الخليفة في أثناء حصاره لإحدى القلاع هناك عام ٩٧٤.

وكان الخليفة قد قتل ابنه مصطفى بدسيسة من زوجته الروسية (روكسلان) ليتولّى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه. وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، كما سعت (روكسلان) لقتل ابن مصطفى الذي لا يزال رضيعاً، وكذلك قتل سليمان القانوني ابنه الآخر بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسةٍ من أحد الوزراء بتعليم من سليم بن سليمان، واضطر بايزيد أن يتمرّد على أبيه خوفاً منه عندما امتنع عن تنفيذ أوامره بالانتقال من حكم ولاية قونية إلى (أماسيا)، غير أنه هُزم، ففرّ مع أبنائه إلى الصفويين، فراسل الشاه طهماسب الخليفة، ثم سلّمهم إلى رسول الخليفة الذي بُعث لاستلامهم فقتلهم مباشرة في مدينة قزوين.

الفصل الخامس

عَصرُ الضَّعف

لم يطل عصر القوة في الخلافة العثمانية، إذ لم يزد كثيراً عن النصف قرن، ولم يشمل سوى عهد خليفتين هما: سليم الأول (٩٢٣ ـ ٩٢٦) وابنه سليمان الأول «القانوني» (٩٢٦ ـ ٩٧٤)، وهما الخليفتان الأوليان، وجاء عصر الضعف بعدهما مباشرةً، وبدأ الخط البياني للخلافة العثمانية بالهبوط باستمرار، وإن كان يتوقف عن الهبوط، ويسير مستوياً في بعض المراحل لقوة بعض الخلفاء النسبية أو لهمّة حاشيتهم وخاصة الصدر الأعظم، وكان لهذا الضعف عوامل كثيرة يمكن أن نتلّمس بعضها للعبرة والفائدة التاريخية، ومنها:

١ ـ سيطرة العقلية العسكرية:

هذه العقلية التي تنزع إلى حلّ الأمور بالسيف، وتبتعد عن الدراسة والتخطيط ومناقشة الموضوعات، وكانت سيطرتها عامةً سواء أكان على الخلفاء أم على أبنائهم أم على ضباط الإنكشارية، ثم الولاة، فالسلاطين أو الخلفاء كانوا يربون تربيةً عسكريةً وإسلاميةً، فالتربية العسكرية إن لم يطغ عليها الإيمان ويُشذّبها ويحدّ من طغيانها كانت ـ أعوذ بالله ـ أقرب إلى حياة الجزّار، وفي بداية الأمر كان الإيمان هو الأقوى، وهو المحرّك، لذا كانت الحياة العسكرية تدريباً وفناً ومعرفةً بأصول القتال، فلما مرّت الأيّام وغدا الحرص على السلطان نقطةً جوهريةً، أصبح تطبيق التدريب أساساً على من يقف في وجهه أو يُنازعه، وربما يزيد الأمر إلى أن يتصوّر تصوّراتٍ خياليةٍ

في منازعين له من أهله وأقربائه فيعمل فيهم السيف، فيقتل إخوته، وكل من يتوهّم أنه يخالفه، وتصبح الأسر المنكوبة مُعاديةً، ويفتُر عندها الجهاد، ويضعُف إخلاصها، وتقلّ خدمتها، وأول أسرةٍ أصابها عدم التماسك والتجزئة هي الأسرة الحاكمة، أسرة بني عثمان، بل إن الرابطة بين أفرادها أصبح واهياً، بل بين الأب والأبناء، والأخ وإخوته، والمهمّ عند كل فرد أن يصل إلى السلطة ويعمل على المحافظة عليها.

ولما كان السلطان أو الخليفة يخشى على نفسه أو على سلطانه من إخوته وأقربائه، فإنه يعمل على تولية أبنائه على الولايات ذات الأهمية، وعلى قيادة الجيوش أحياناً، وهنا يشعر كل ولد من أولاد الخليفة أنه ذا مكانةٍ في الدولة، وأن إخوته دونه، وخاصةً أنهم ليسوا أشقاء، وتربّوا تربيةً متباينة، وغالباً ما تكون أعمارهم متقاربة لأنهم من عدة أمهات، فيعمل كل منهم إلى الوصول إلى السلطان. فيدسّ الدسائس لإخوته، وتساعده أمه بل هي التي تحرضه أحياناً، وتتولّى كبر ذلك وخاصةً إن كانت لها مهمة، إذ كانت بعضهنَّ على غير ديانة الإسلام، أو أن كل واحدةٍ تحبّ أن تكون أم الخليفة، وتكون المكرّمة المبجّلة، فإذا ما مات الخليفة، والموت غاية كل حي، بدأ النزاع بين الإخوة ونتيجة النزاع يحدث الضعف للدولة.

والإنكشارية وهم عماد الجيش، ونتيجة التربية الإسلامية والعسكرية التي رُبُّوا عليها، كانوا قوةً ضخمةً، ولديهم روح معنوية عالية، لذا فقد أحرزوا انتصاراتٍ عظيمةٍ، وأسدوا للدولة خدمات جلّى، وبعد هذه الانتصارات أُعطيت لهم امتيازات، وقُدّمت لهم إقطاعات، فأخلدوا إلى الأرض، ومالوا عن القتال، وسُمح لهم بالإقامة خارج الثُكنات فزاد ارتباطهم بالحياة المدنية، فبدأت علائم الضعف تظهر على الجيش بعد أن كان مهيباً. وكان السلطان أو الخليفة يخرج على رأس الجيش للقتال فيزيد ذلك من قوة المقاتلين، ويرفع من روحهم المعنوية، فلما قوي أمر الإنكشارية أصبحوا لا يخرجون للقتال إلا إذا خرج السلطان معهم، وهذه بداية التذمُّر، وإظهار شيء من عدم الرضا أو عدم الخضوع الصحيح، فلما

كان حكم الخليفة سليمان القانوني أبطل قاعدة خروج السلطان، وسمح لأكبر ضابطٍ في الإنكشارية في قيادة الجيش، وهنا يصبح الضابط ذا شأن، ويرى نفسه في مركزٍ لا يكاد يعادله أحد، فتصبح له متطلبات واجبة التنفيذ، ويغدو في الدولة أكثر من سلطةٍ فتفسد الأمور، إذ تتضارب المصالح، وتضعف الدولة.

ولما كان للإنكشارية دور كبير في الحياة العسكرية لذا كانت تفضّل ولداً من أولاد السلطان على ولد وغالباً ما تفضِّل القائد القوي، وتسعى جاهدةً لدى السلطان لتقديم هذا على ذاك، وقد لاحظنا كيف رغب الإنكشاريون في تولية السلطان سليم على إخوته، ودعموه بكل إمكاناتهم وطاقاتهم حتى تمّ له الأمر، وساروا معه، ويكون الحسد بين الإخوة نتيجة ذلك، ويقع الخلاف ويحدث الشقاق، وتضعُف الدولة.

ولما كان للإنكشارية دور كبير في الانتصارات الحربية التي يخوضونها، ولهم دور كبير في تنصيب السلطان كان لا بدّ من أن يكون لهم مُتطلبات على من عيّنوه، وكان على السلطان الجديد أن يُرضي قادة الإنكشارية على الأقل يوم تنصيبه فيعطيهم مبالغ من المال، أو يُقدّم لهم امتيازات جديدة، فيرضى هذا وقد لا يرضى غيره، وتقع الخلافات وتضعف الدولة.

فسيطرة القوة العسكرية بصورةٍ عامةٍ تضعف الدولة لأن العسكري يحبّ بطبعه التسلُّط، ويُفكر بسيفه وأحياناً بحذائه لا بعقله، وتولية الأبناء على مقاطعات ذات أهميةٍ تجعلهم يشعرون بشأنهم وإمكاناتهم، ويفكر كل بالسلطة، والملك عقيم، فيقع الخلاف وتحصد نتاجه الدولة، وإعطاء العسكريين امتيازات، ومحاولة إرضائهم باستمرار يجعلهم يُفكرون باستخدام قوتهم إن لم تُحقق رغباتهم، وهذا من البلاء الذي تحصد نتاجه الدولة أيضاً. فالعسكريون يجب أن يبقوا في معسكراتهم، تُقدّم لهم حقوقهم، ويقدّمون واجباتهم في الطاعة وتنفيذ المهمات الموكلة إليهم، لا يتدخلون في شؤون البلاد أبداً، إلا إذا دعت الضرورة أو كُلّفوا بتنفيذ مهمّاتٍ محددةٍ.

٢ ـ الاتفاقيات مع الدول الأجنبية:

لم يكن للأجانب عامةً وللنصارى خاصةً أيّ أثرٍ في سكان الدولة الإسلامية سواء أكانوا من النصارى أم من غيرهم، وإنما يشعر الجميع أنهم غرباء لا علاقة لهم بما يدور في داخل الدولة، فلما كان الخليفة سليمان القانوني أراد أن يحطّم اتفاق الدول الصليبية عليه، ويُفكّك وحدتهم، فأعطى من اتفق معه امتيازات خاصة، وقدّم لهم صلاحيات لم تكن موجودة من قبل، ولم يحلموا بها أبداً. وكذلك أراد أن يُعيد للبحر المتوسط ما فقده من دور في الملاحة والتجارة بعد أن التفّ البرتغاليون حول إفريقية، وعرفوا رأس الرجاء الصالح، وبدؤوا يستولون على بلاد المسلمين في شرقي إفريقية وجنوب شرقي آسيا بل أخذوا يُهاجمون أطراف الجزيرة العربية، ويستقرون في مراكزهم، ويُخضعون موانئها لهم، ومن ثم يُتاجرون مع تلك الجهات، وينقلون البضائع إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بعيدين عن البحر المتوسط ففقدت بذلك موانئه قيمتها، وفقد التجار الأرباح التي كانوا يجنونها، وارتفعت أسعار الحاجيات، وانعكس هذا على الدولة، على حين بدأت الأرباح تزداد على التجار الأوربيين، وبدأت تصل إليهم بشكل أرخص وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية إذ بدأ يظهر الرفاه نتيجة ذلك التطور إضافةً إلى الاحتكاك الذي يحدث مع الأمم الأخرى ونقل العادات وبعض الصناعات التي يعرفونها في تلك البلاد سواء أكانت مسلمةً أم لها صلة بالبلاد الإسلامية، فأراد لذلك الخليفة أن يعقد اتفاقات مع بعض الدول تكون من مصلحتها عودة الملاحة والتجارة إلى البحر المتوسط مثل فرنسا، والإمارات الإيطالية.... جنوه.... والبندقية.... وغيرها. ولا بدّ من أن يُقدّم بعض التنازلات ليحصل على مثل هذه الاتفاقات. وظنّ السلطان أن هذه الاتفاقات موقتة وما دامت القوة بيده فإنه يستطيع أن يُلغيها في الوقت الذي يريد بل يُحطّم هذه الدول صاحبة الاتفاقات متى شاء، ويُجبرها على أن تسلك ما يرغب.

عقد الخليفة سليمان القانوني اتفاقية مع دولة البندقية عام ٩٢٨ تنصّ

على: يحق لقنصل البندقية في الدولة العثمانية في النظر في تركات النصارى، كما يحق له أن يرسل ترجمان لحضور المرافعات التي تُقام ضد رعايا البندقية. كما سمحت الاتفاقية للبندقية بالبقاء في جزيرة قبرص مقابل دفع عشرة آلاف دوكا في كل سنة.

وعقد اتفاقيةً مع فرنسا عام ٩٤٢ مؤلفة من ستة عشر بنداً ومما جاء فيها: يحق لرعايا فرنسا المتاجرة مع العثمانيين ونقل البضائع من وإلى الدولة العثمانية براً وبحراً، ويحق لقنصل فرنسا في إستانبول أو أثينا أن يحكم ويقطع بمقتضى قانونه في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا دون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضٍ شرعي أو أي موظف آخر. ويحق لقنصل فرنسا الاستعانة بالسلطة العثمانية لتنفيذ ما قضى به. (من البند الثالث).

ولا تسمع الدعاوى المدنية التي يُقيمها السكان العثمانيون أو جباة الخراج ضد التجار الفرنسيين أو رعايا ملك فرنسا عامة. (من البند الرابع).

يُدعى المتهمون الفرنسيون إلى مكان الصدر الأعظم الرسمي، ولا يحقّ دعوتهم إلى المحكمة أو أي مكان آخر. (من البند الخامس).

لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم فيما يختصّ بالمسائل الدينية أمام القاضي، وإنما تكون محاكمتهم أمام الباب العالي. ولهم الحق باتباع شعائرهم. (من البند السادس).

إذا خرج فرنسي من الدولة العثمانية وعليه ديون فلا يُطالب بها أحد. ولا يُسأل القنصل الفرنسي عن ذلك، وكذلك لا تُطالب المملكة الفرنسية بذلك. (من البند السابع).

لا يجوز استخدام أملاك الفرنسيين على كرهٍ منهم. (من البند الثامن).

ما يتركه الفرنسيون في الدولة العثمانية بعد وفاتهم تُنقل أو تُوزّع بمعرفة القنصل (من البند التاسع).

واشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا، ولملك إنكلترا أخيه وحليفه الأبدي، وملك إيقوسيا الحق في الاشتراك بمنافع هذه المعاهدة.

وهكذا أصبح لرعايا فرنسا وحلفائها دولة ضمن دولة، محاكمهم خاصة، وعلى أعلى مستوى، وفي مقر الصدر الأعظم، ولا يحقّ للعثمانيين التدخل في شؤونهم، وإنما يكون ارتباطهم بالقنصل، وفي الوقت نفسه أصبح الفرنسيون يتصلون برعاياهم مباشرة، وأصبحوا تبعاً لهم، ويرتبطون بهم لا بغيرهم.

ونسي الخليفة أن هذه الاتفاقيات أصبحت مُلزمة لمن بعده، وإذا كان هو قادراً على تغييرها وإلغائها فإن غيره قد لا يكون قادراً على ذلك، بل لا يمكنه، وهذا ما حدث، فأصبحت طوقاً في أعناق الخلفاء فيما بعد تقودهم إلى الهاوية.

ونسي الخليفة من جهة ثانية، أن هذه الدول التي كانت توافقه ظاهراً على عودة الملاحة إلى البحر المتوسط، وكانت عواطفها مع البرتغاليين والإسبان إخوتها في العقيدة، ونعرف أنها كانت تدعمهم بكل ثقلها وإمكاناتها لطرد المسلمين في الأندلس، حتى تمّ لهم ذلك.

إذن بدأت الدول الأجنبية تتدخّل في شؤون الدولة العثمانية عن طريق رعاياها من النصارى، كما أصبحت معنويات هؤلاء الرعايا كبيرةً بحيث لا يهتمّون بالدولة أبداً، ويتصرّفون كما يريدون، الأمر الذي سبب إزعاجاً للدولة وضعفاً، إذ كانوا يحرّضون على التمرّد، ويؤسسون الجمعيات.

٣ ـ الترف:

حصلت الدولة نتيجة الفتوحات على كثيرٍ من الغنائم فأثرت، وفسح المجال أمام الخلفاء وكبار الدولة أن ينصرفوا إلى اللهو في قصورهم، وأن يبذّروا الأموال على الشهوات، وبناء القصور، والحدائق، وقد كان السلاطين من قبل يقودون الجيوش بأنفسهم فيبقوا بعيدين عن الترف، وعلى

شيء من الحزم والجد، والاستعداد الدائم، فلما غيّر الخليفة سليمان القانوني في هذه القاعدة، وسمح لضباط الإنكشارية بقيادة الجيوش بقي الخليفة في القصر لا يهتمّ بأمر النصر كما كان من قبل إذ يلقي التبعة على غيره.

وكانت رئاسة مجلس قضايا الدولة المهمة للسلطان نفسه أو الخليفة ليكون على اطلاعٍ دائم بما يدور، وإعطاء الرأي بما سيكون، ومتابعة القضايا بدقة، فلمّا غيّرَ القانوني هذه الطريقة، وأوكل رئاسة هذا المجلس إلى الصدر الأعظم أصبح الخليفة في القصر بعيداً عن مهمات الدولة الأساسية، وأصبح الحاكم الفعلي هو الصدر الأعظم، وفي الوقت نفسه لم يعد للخليفة من عملٍ مهمٍ، لذا يجد عنده الفراغ الكافي فينصرف إلى اللهو وتحقيق الشهوات، ومع قَلة المسؤولية للخليفة ضعفت الدولة إذ أصبحت بيد غير أولي الأمر وأصحاب السلطة، ومن الحكم باسمهم، وخاصةً إذا كان الصدر الأعظم من غير المسلمين حقيقةً، وإن كان يدعي الإسلام.

الزواج من الأجنبيات:

يصحّ الزواج من الفتيات النصرانيات واليهوديات، وهذا الجواز مقيّد إذ تقتضي المصلحة السياسية بعدم الزواج منهن إن كان لهن تأثير على أزواجهن وهم من أصحاب السلطة، أو على أبنائهن وهم من أهل الحكم، أو إذا كانت المسلمات يبقين بلا أزواج وغير ذلك.

وكان السلاطين يتزوجون بالفتيات من النصارى أو اليهود إعجاباً بجمالهن، أو لمصلحةٍ سياسيةٍ، كأن يتزوجون بنات الأمراء من الأعداء، ويحبون أن يبقى هؤلاء الأمراء على وئام مع الدولة دون تمرد، أو لتوطيد الصّلات بين الدولتين، أو لتوثيق المعاهدات والاتفاقات وما إلى ذلك، غير أن هذه النسوة قد يبقين على عقيدتهن السابقة فيكون ارتباطهن بأصحاب عقيدتهن أكثر بكثير من ارتباطهن بدولتهن الجديدة، لذلك يعملن لأبناء دينهن وهم من النصارى غالباً، وهم من أعداء العثمانيين والمحاربين لهم،

أو يكُنّ من اليهود، والأمر واحد في مرارته، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هذه النسوة يُربين أولادهن على محبة النصارى أو عدم كرههم على الأقل. كذلك تحرص كل واحدة على تولية ابنها الخلافة أو السلطنة ليكون لها نفوذ كبير، فنفوذها غالباً ما يكون لمصلحة أبناء دينها، وخلاف ابنها مع إخوته يكون لمصلحة أعداء العثمانيين، وقد لاحظنا دسائس روكسلان الروسية زوجة الخليفة سليمان القانوني كي يتولّى ابنها سليم الثاني الحكم. كما لاحظنا أن أم محمد الفاتح قد بقيت على عقيدتها، وكذلك زوجة أبيه الأخرى (مارا) ابنة أمير الصرب، وقد أعادها محمد الفاتح إلى أهلها بعد أن تولّى السلطة.

٥ ـ عدم وجود مهمة أساسية:

منذ أن قامت دولة بني عثمان كانت أمامهم مهمات أساسية يجب إنجازها وإلا قُضي عليهم، ومن هذه المهمات الانتهاء من الإمارات القائمة في بلاد الأناضول، والتي دولتهم إحداها، وكل دولةٍ تريد أن تتوسع على حساب الأخرى، وتحاول القضاء عليها لتحكم أرض الثانية، واستمر العثمانيون في صراعٍ مع هذه الإمارات حتى قُضي على آخرها في عهد السلطان سليم، كما كانت من المهمات الأساسية للعثمانيين فتح القسطنطينية لهدف ديني، ثم لاحتلال هذه المدينة وامتلاك أرضها، وقد سعوا لذلك، وعملوا على تطويقها فدعا ذلك إلى تقدّمهم في أوربا، وفي النهاية تمّ فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام ٨٥٧، ثم كان من مهماتهم بعد ذلك إضعاف الدول الأوربية المجاورة لهم خاصةً كي لا تحاول الهجوم على الأملاك العثمانية، وتحاول استردادها، وإثارة أوربا النصرانية، والقيام بحربٍ صليبية جديدة، وقد تمّ لهم ذلك. وكان من مهماتهم تحطيم القوة الصفوية التي عملت على نشر الشيعة في شرقي الدولة العثمانية، والتي اتفقت مع البرتغاليين النصارى ضد المسلمين، ومع المماليك ضد العثمانيين، وقد تمّ للعثمانيين ذلك، كما ضربوا الإسبان وأجلوهم عن بعض الجهات في شمالي إفريقية، وقضوا على دولة المماليك، ونازلوا البرتغاليين، وانتصروا

عليهم، وأجلوهم عن بعض المواقع التي كانوا قد احتلوها... فلم يعد يشعر الخلفاء أن هناك مهمةً تُهددهم وتُهدد كيانهم، لذا لم يكونوا دائماً على استعداد، ولم يبذلوا الجهد من أجل مهمةٍ جديدةٍ، بل قصّروا في الأمر، فبدأت تظهر أمامهم المشكلات التي أدّت بالتالي إلى ضعف الدولة.

٦ ـ سعة رقعة الدولة:

اتسعت الدولة العثمانية كثيراً نتيجة الفتوحات فامتدت أراضيها من أواسط أوربا حتى سواحل بحر الخزر، ومن جنوب جزيرة العرب حتى سواحل البحر الأسود الشمالية، إضافة إلى شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وأجزاء من إيران اليوم، وشمالي إفريقية كله، وزادت مساحتها على ستة عشر مليون كيلو متر مربع، أي ضعف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الاتساع يحتاج إلى خليفة قوي الشخصية، ولا يمكن أن يتعاقب بالوراثة خلفاء أقوياء، فلا بد من الشورى واختيار الرجل القوي الأمين، ولا بدّ من أن يكون هذا القائد على أهبة الاستعداد، يُتابع الأمور بنفسه، ويُقيم منهج الله، فإن فعل ذلك أمكنه ضبط الأمور، وإذا لم يكن ذلك بدأ الضعف وهذا ما حدث، وخاصة أنه انتهى عهد الأقوياء الذين بذلوا وبنوا، وجاء دور الذين ورثوا المجد ولم يُقدّموا شيئاً، ولم يُضحّوا بشيء، بل تركوا الأمر لغيرهم فصعُب عليهم القبض على زمام الأمور، وتراخت أيديهم عن أملاكهم فضعفت الدولة، وخاصةً يجب أن نعلم صعوبة المواصلات يومذاك والعقبات الطبيعية التي تحول دون الوصول إلى منطقة ما لقمع حركة فيها، أو لدعم والٍ أو.... وهذا ما يُشجّع أصحاب النفوذ، الطامعين في السلطة والمصالح في أن يثيروا الفوضى أو يعبثوا في الأمن وهذا ما يؤدي إلى الضعف.

٧ ـ الصليبية الأوربية:

كانت أوربا عامة وعلى رأسها البابا تُذكي الحماسة الصليبية ضد

العثمانيين كي تقف الدول كافة في وجه التوسع الإسلامي القادم من الجنوب الشرقي، ومع أن هذه الدول الأوربية لها مصالح تتضارب بعضها مع بعض، وينشأ خلافات وحروب إلا أنها تلتقي معاً ضدّ المسلمين، وعندما تحاول بعض هذه الدول أن تستفيد من قوة الدولة العثمانية فتعقد معها اتفاقات أخرى إلا أنها لا تستطيع أن تقوم بالتزاماتها كاملةً تجاه العثمانيين بسبب الروح الصليبية التي تحملها، وبسبب التيار الأوربي الصليبي الذي تخشاه أيضاً بسبب مصالحها ففرنسا عندما اتفقت مع الدولة العثمانية لتعملان معاً ضدّ النمسا، ومع أن مصالح فرنسا أكثر من مصالح الدولة العثمانية في ذلك، إذ أن أملاك النمسا أصبحت تحف بفرنسا من كل جهةٍ غير أن فرانسوا الأول ملك فرنسا أحجم عن القيام بدوره خوفاً من أن يُرمى بالمروق من النصرانية باتحاده مع دولةٍ إسلاميةٍ ضدّ دولةٍ تدين بدينه، وقد هدده البابا بذلك، وربما كانت الامتيازات القنصلية التي قدّمها سليمان القانوني لفرنسا والبندقية إنما كانت الغاية منها تحطيم تجمع الدول الصليبية ضده وفك عقدها، واستغلال خلافها فيما بينها، والواقع أنه قدّم الكثير، والذي كان سبباً رئيسياً في ضعف الخلافة العثمانية والذي أسرع فيها بالسير نحو حتفها إلا أنه لم يستفد كثيراً من هذه الامتيازات التي قدمها لتلك الدول إذ أن النزعة الصليبية هي المحركة لهم، وإن أظهروا مؤقتاً موافقتهم للعثمانيين، أو أن مصالحهم برزت مؤقتاً فوق تعصبهم.

وإذكاء الروح الصليبية لا يُثير الدول الأوربية فقط، وإنما يُثير النصارى الذين يعيشون في رعاية الدولة العثمانية أيضاً، فكانوا يقومون بالحركات ضدّ الخلافة وتدعمهم الدول النصرانية وهذا ما يؤدّي إلى التمرد وإشعال الثورات والحروب، وبالتالي إلى إنهاك الدولة العثمانية وإضعافها.

٨ ـ عدم الانصراف نحو العلم:

انصرف العثمانيون بكل ثقلهم نحو التدريب العسكري والقتال وتعبئة الجيوش وبناء الأساطيل، وربما كانت المهمة الملقاة على عاتقهم اضطرتهم

إلى ذلك، أو أن طبيعتهم الأولى الأقرب إلى البداوة قد حرصوا عليها أو لم تسمح لهم بالتوجه نحو العلم بسبب انصرافهم إلى ميادين القتال والتوجه إلى ما أسند إليهم من مهمات، فبقيت الأساليب العلمية على طريقتها الأولى لم ينلها شيء من التطور وكانت أوربا في البداية أقل منهم حظاً في هذه الناحية، غير أن انطلاقة أوروبا نحو الخارج بعد طرد المسلمين من الأندلس، ومحاولة ملاحقتهم، ومعرفة رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى الشرق، وبدء عهد التجارة قد جعل دول أوربا تحصل على شيء من الثراء فبدأت تتطور في حياتها المادية، كما أن احتكاك الأوربيين من قبل في الأندلس، وصقلية، وجنوبي فرنسا، وتلقّي العلم في هذه المراكز على أيدي المسلمين، ومحاولة تلمس طريق العلم، وجاء الثراء ودعم ذلك فبدأ يؤتي ثماره... ففي الوقت الذي بدأت فيه أوربا تتطوّر وتتقدّم في المجال العلمي بقيت الدولة العثمانية محافظة على ما كانت عليه قديماً، ولم تواكب التطور العلمي فنجم عن ذلك التخلّف، ومع الأيّام برز التطوّر الأوربي وأصبح واضحاً وغدا التخلّف العثماني جلياً فظهرت الهزيمة النفسية والفكرية لدى العثمانيين... وكفى هذا ضعفاً بل قتلاً، وبرزت فكرة تقليد أوربا والسير على خطاها إذ كان ينظر إلى أوربا نظرة الأعلى... وهذا هو الضعف، وهو الهزيمة، وهو عقدة الصغار... ولا يمكن أن يتمّ نصر والصورة على هذه الحال.

٩ ـ الحركات والثورات:

لا شك أن ضعف الدولة يجعل أصحاب الأطماع والمصالح يتحرّكون، يريدون تحقيق منافع لهم، أو تأسيس إمارات ودول على أنقاض الدولة الضعيفة، أو اقتطاع أجزاء منها يبنون عليها أمجادهم، وقد ساعدهم في الدولة العثمانية اتساع رقعة الدولة إذ يصعب عليها أن تطالهم لبعد الشقة، أو لوعورة مناطقهم، ولضعف الدولة بصورةٍ أساسية، إلا أن نقطة تبرز هنا هي الامتيازات الأجنبية التي حصلت عليها الدول الأوربية بحيث يمكنها الاتصال مع النصارى الذين يعيشون في الدولة العثمانية، ويحثّونهم

على تحريض الناس للقيام بحركات، وخاصة الأقليات الموجودة والموزعة في أرجاء الدولة العثمانية كالدروز، والأرمن، وغيرهم.

ولم يقم النصارى أنفسهم بحركات وإنما كانوا يكتفون بالتحريض، لا يقومون هم لأنهم يخشون بطش الدولة، ولا تستطيع الدول النصرانية حينذاك حمايتهم، أما التحريض فلا ينالهم بطش الدولة لأنهم ليسوا هم الذين يقفون في الوجه، وإنما يعملون من الخلف، وعندها تحميهم الدول الأوربية التي يرتبطون بها، ولا تستطيع الدولة محاكمتهم أمام القضاء الشرعي.

١٠ ـ الجمعيات السرية والتنظيمات:

عندما زاد ضعف الدولة العثمانية تجرأ النصارى، وبدؤوا يعملون على تأسيس الجمعيات، وإن كانت تحمل الطابع الأدبي، أو تأخذ الصفة العلمية إلا أنها تعمل في الحقيقة ضدّ الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه شجّعوا على تأسيس الجمعيات السرية وتشجعوا أحياناً وانضموا إليها، ولعل أهم هذه الجمعيات ما حمل الدعوة القومية، وليس لهم من دعوة يمكنهم أن يحملوها وتعمل على تهديم الدولة سوى القومية لذا فقد ساهموا فيها ونشطوا، وكانت عاملاً مهمّاً في إضعاف الدولة إذ انقسم أبناؤها إلى قوميات متعددة تعمل كل منها بين أبناء جنسها، وتريد الانفصال بهم عن الدولة، ويكفي في الانفصال والتجزئة ضعفاً للدولة، أو تقطيع أوصالها وقبرها في النهاية وهذا ما حدث.

١١ ـ ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل:

تعدد الجواري والمحظيات لدى أصحاب السلطة، وينشأ عن هذا تفكك الأسرة الحاكمة لتعدد أمهات الأولاد وبالتالي اختلاف الأولاد فيما بينهم، وتدخُّل هذه الجواري والنساء في القصر عامةً في سياسة الدولة والتوسُّل لدى الخليفة لرفع هذا، وتسليم الصدارة العظمى إلى هذا، وبين

هذه النساء يعيش ولي العهد محجوباً لا يعرف شيئاً من أمور الدولة فعندما يؤول إليه الأمر ينظر إلى ما يُعرض عليه نظرة الجاهل فيتلاعب به الوزراء، وكبار المسؤولين أو الصدر الأعظم. وبعدئذٍ أصبح عدد من الخلفاء ألعوبة بيد الإنكشارية فيعزلون، ويقتلون، وينصّبون.

وربما يخون الصدر الأعظم الدولة، إذ وصل إلى هذا المنصب عدد منهم غرباء عن البلاد، أو لم يكونوا مسلمين، فأظهروا الإسلام، وأبدوا الطاعة، وقدّموا الخدمات فوصلوا إلى ما وصلوا إليه، وعندما حكموا نفّذوا ما خططوا له، وخانوا الدولة، وقد يلاحظ هذا الخليفة فيُنزل فيهم القتل، ولكن يكون قد حدث ما أضر بالأمة وأنهكها.

١٢ ـ الحرص على جمع المال:

إن القتال قائم على مختلف الجبهات، وتجهيز الجيوش يحتاج إلى مال، والمنطلقون إلى الجبهة يتركون أعمالهم من زراعة وصناعة فتقل الواردات، وهذا ما يجعل الدولة توافق على أخذ الجزية، والتعويض من الأعداء بعد انتصارها عليهم لتسد العجز.

١٣ ـ وفوق كل هذا وذاك:

كان من أهم أسباب الضعف الذي أصاب الدولة العثمانية هو مخالفة منهج الله، فالدولة العثمانية منذ أن قامت كانت العاطفة الإسلامية جيّاشةً، ولكن العاطفة لا تقدّم شيئاً، فلما تبعتها التربية الإسلامية والتدريب السليم للنظام الجديد العسكري الذي أوجد وهو الإنكشارية كانت القوة وكان الفتح، وكان التوسع، فلما ضعُفت التربية الإسلامية، وسرى تعاطي الخمرة، وبدأت أعمال السلب عند الفتح، وفي هذا انحراف واضح لمنهج الله، ثم وجد عدم الطاعة فلما حاول الخليفة العثماني الرابع مراد الثالث منع شرب الخمر فشل لأن الإنكشارية لم تطعه، ولم يتمكن من إجبارها فتراجع عن القرار، واستمر الانحراف... وزادت أعمال السلب

والنهب... وتبعتها أحداث الفوضى، والثورات إن لم تنفذ رغبات الجند... بل وصل الأمر إلى المخالفة، وقتل الولاة، وإظهار العصيان، هذا من جانب الإنكشارية أما من جانب السلاطين فقد انصرفوا عن الاستعداد المادي والمعنوي لجهاد الأعداء من طواغيت وظالمين فعكفوا في قصورهم، وتركوا قيادة الجيوش لكبار ضباط الإنكشارية بعد سليمان القانوني، كما تركوا بحث الأمور التي تعترض الدولة وأوكلوا ذلك إلى الصدر الأعظم، وجلسوا هم في قصورهم يبحثون في شهواتهم وملذاتهم وأمور دنياهم، ولا شك فإن الولاة وكبار الموظفين صورة عن السلاطين والخلفاء، ويتبع ذلك من هو دونهم، فالصغير يُقلّد الكبير حتى تصل إلى أسفل السُّلَّم، وفي هذا انحراف عن منهج الله. ثم هناك إعطاء الامتيازات حتى للمسيء من الإنكشارية بل ربما تكون الإعطاءات أكثر والإقطاعات أكبر، والامتيازات أوسع لمن يُظهر الفوضى وعدم الطاعة خوفاً منه... وفي هذا انحراف، فمن لم يستطع أن يقف في وجه الظالمين يتخلّى عن الأمر ليحل محلّه من يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، وليس هناك من ناصح، أو ناهٍ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1]. ويمكن أن نشير أيضاً إلى انحراف عظيم وهو قتل الإخوة الأبرياء ومن غير ذنب سوى الخوف من المنازعة على السلطان.

ولم يستعدّ العثمانيون معنوياً فقد أهملوا الجانب العلمي ليتقوّوا مادياً، فالدراسة، والبحث، ومتابعة التطور والنتائج تؤدي إلى الابتكار والاختراع الجديد الذي تستفيد منه الدولة لإنشاءات تستطيع أن تصد أعداءها بها بل تتفوّق عليهم، وفي الوقت نفسه لم يُذكوا روح الجهاد، ولم يُلقوا الدروس والخطب الإيمانية لترتفع معنويات الجند، وإنما كانوا يكتفون بالقول بأننا

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨، ٧٩.

نُقاتل كفاراً، ويكتفون بالعاطفة إذا كانت قد بقيت هناك عاطفة، وإن وجدت فعند القليل، أما الباقي فلا يعرفون شيئاً لِمَ يُقاتلون؟ ومن يقاتلون؟. كما لم يستطيعوا نشر الإسلام في المناطق التي فتحوها إذ لم تكن عندهم إمكانات فإن فاقد الشيء لا يعطي شيئاً. وإن حاولوا أحياناً نشر الإسلام بالسيف، وهذا لا يُفيد، وإن أفاد ففي الظاهر ولا يلبث أن يتغيّر إن قُدّم له ما هو أفضل في نظره، أما عن نتيجة الفكر والإقناع، والقدوة الصالحة، والتطبيق السليم للإسلام لتظهر النتائج المشجعة فهذا لم يحدث، وهذا كله عاطفة فقط.

وتولّى في هذه المرحلة خمسة عشر خليفة ويُعد أكثرهم مغموراً، إلا من حدثت في أيّامه أحداث جسام فسلّطت الأضواء عليه وعُرف بسببها، وأولهم وهو سليم الثاني، وتعود معرفته لتوليه الحكم بعد أبيه الذي طارت شهرته، وبصفته أول الخلفاء الضعفاء، وقد توقف الخط البياني عن الارتفاع ثم هبط فجأة وبدأت الدولة تتراجع عن أجزاء من أملاكها تدريجياً حتى لم يبق لها إلا القليل ثم انهارت. وإذا كانت هذه المرحلة قد طالت إذ زادت على ثلاثة قرون ونصف (٩٧٤ـ ١٣٢٧) فذلك يعود لهيبة الدولة السابقة، واتساع رقعتها، والعاطفة الإسلامية الباقية نسبياً، واختلاف الدول الأوربية فيما بينها على التقسيم، وقيام بعض الخلفاء الأقوياء نسبياً.

١ ـ سليم الثاني:

ولد عام ٩٣٠ في أيام خلافة أبيه، وأمه روكسلان الروسية، وتولّى بعد أبيه عام ٩٧٤، وبعد أن قتل أبوه ابنيه الآخرين بدسائس من زوجته روكسلان، وابنها سليم أيضاً ـ كما مر معنا ـ. وأعطى الجنود العطايا بعد أن تمنّع، فأظهروا العصيان فاضطر إلى العطاء، وهو في بلغراد ينتظر وصول جثة أبيه.

كان السلطان سليم الثاني ضعيفاً إلا أن هيبة الدولة في السابق، وقوة وزيره محمد الصقلي قد أوقف سقوط الدولة أو ظهور الضعف المباشر.

عقدت الدولة صلحاً مع النمسا عام ٩٧٦، اعترفت فيه بأملاك النمسا في المجر، وعلى أن تدفع النمسا مقابل ذلك الجزية السنوية المقررة، ومقابل اعترافها أيضاً بتبعية أمراء ترانسلفانيا، والأفلاق، والبغدان للدولة العثمانية.

وجددت هذه المعاهدة مع بولونيا مع اعتراف الدولة العثمانية بالتحالف الذي تمّ بين ملك بولونيا وأمير البغدان.

وجددت المعاهدة مع فرنسا عام ٩٧٧، وكان ملك فرنسا شارل التاسع الذي تولّى الحكم بعد موت أخيه فرانسوا الأول، وهما ولدا هنري الثاني، وأيّد سليم الثاني الامتيازات القنصلية، ونتيجة ذلك بدأت فرنسا ترسل إرساليات نصرانية كاثوليكية إلى رعاياها في الدولة العثمانية مثل بلاد الشام، وبذلك بدأ العمل من الداخل ضد العثمانيين، وتربية النصارى على الارتباط بفرنسا، وأيدت الدولة ترشيح أخي ملك فرنسا ملكاً على بولونيا معاداة للنمسا وروسيا، وأصبحت بولونيا تحت حماية الدولة العثمانية.

استطاعت الدولة قمع ثورةٍ قامت باليمن بإمرة المطهر بن شرف الدين، فأرسلت جيشاً كبيراً بقيادة عثمان باشا، ودعم سنان باشا والي مصر ذلك، فقضت على الثورة عام ٩٧٦.

وفُتحت قبرص عام ٩٧٨، وكانت تتبع البندقية من قبل، وأصبحت تتبع الدولة العثمانية، حتى جاءت إنكلترا عام ١٢٩٦هـ. كما أخذت من البندقية بعض المواقع على بحر الأدرياتيك، وغزت جزيرة كريت، فأسرعت البندقية وعقدت حلفاً مع البابا وإسبانيا للوقوف في وجه العثمانيين، وانضمّ إلى ذلك رهبان جزيرة مالطة، وحدثت معركة بحرية انتصر فيها التحالف النصراني، فابتهج البابا وأعلن الانتصار الصليبي، واستاء المسلمون في إستانبول، وهمّوا بالقضاء على النصارى في مدينتهم لولا منع الوزير محمد الصقلي قيام تلك التعديات. وأسرع الوزير بإنشاء أسطول جديد للثأر مما حدث، واختلف النصارى فيما بينهم، إذ عرضت البندقية الصلح معترفة بدخول العثمانيين لجزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية خوفاً من تجديد القتال، وقد تم الصلح عام ٩٨٠.

وأما إسبانيا فقد احتل دون جوان تونس عام ٩٨٠، وارتحل عنها العثمانيون دون قتال لقلة عددهم، وأعيد مولاي حسن الحفصي إلى الحكم. لكن العثمانيين عادوا فاسترجعوا تونس بعد ثمانية أشهر بقيادة سنان باشا.

وحدث تمرُّد في إمارة البغدان غير أنه قد قضي عليه عام ٩٨١.

وتوفي الخليفة سليم الثاني في ٢٧ شعبان عام ٩٨٢ بعد أن حكم ثمانية أعوام.

٢ ـ مراد الثالث:

ولد عام ٩٥٣، وتولّى الخلافة عام ٩٨٢ بعد وفاة أبيه. وبعد أن تولّى السلطة أمر بمنع شرب الخمر، غير أن ثورة الإنكشارية أجبرته على ترك هذا القرار. ثم أمر بقتل إخوته الخمسة خوفاً من نزاعه على الملك.

ترك ملك بولونيا هنري منصبه، وعاد إلى فرنسا، فأوصى الخليفة أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم، ففعلوا، وأصبحت بولونيا فعلاً تحت حماية العثمانيين وذلك عام ٩٨٣. واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية عام ٩٨٤ ومدتها ثماني سنوات، وأغار التتار على حدود بولونيا عام ٩٨٤ فاستنجدت بالخليفة فأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية.

وجدّد للدول الأوروبية امتيازاتها، وهي فرنسا والبندقية، وزاد عليها أن أصبح السفير الفرنسي يأتي في مقدمة سفراء الدول الأجنبية الذين كثروا في إستانبول، وكانت كل سفن الدول الأوروبية تدخل الموانئ العثمانية تحت ظلّ العلم الفرنسي باستثناء البندقية، ثم جاءت بعدئذ انكلترا التي حصلت على امتيازات لتجارها أيضاً.

وفي عام ٩٨٥ حدث في مراكش ثورة، واستعان زعيمها بالبرتغاليين النصارى، واستنجد السلطان بالخليفة فأنجده، وأرسلت قوة من طرابلس

اشتبكت مع البرتغاليين في معركة القصر الكبير جنوب طنجة انتصر فيها العثمانيون وحلفاؤهم على البرتغاليين وأنصارهم، وأُعيد السلطان الشرعي إلى حكمه.

وفي الدولة الصفوية توفي طهماسب عام ٩٨٤، وخلفه ابنه حيدر فقُتل بعد ساعات، ودفن مع أبيه، وتولّى أخوه محمد خدابنده، واختلف الناس عليه، فاستغلّ العثمانيون هذه الفرصة، وأرسلوا جيشاً احتل الكرج، ودخل عاصمتها تفليس عام ٩٨٥، وفي العام التالي بعد انقضاء فصل الشتاء، دخل العثمانيون شروان (أذربيجان الشمالية). وفي عام ٩٩١ استولى العثمانيون بقيادة عثمان باشا على بلاد داغستان، ثم سار هذا القائد بجنده إلى بلاد القرم عبر جبال القوقاز لتأديب خان القرم الذي رفض إرسال مدد للعثمانيين لمحاربة الصفويين، وقد أنهكه التعب لبعد الشقة، ولغارات الروس عليه، وأخيراً تمكن خان القرم من حصاره، فمنّى عثمان باشا أخا الخان بالحكم، فترك أخاه وانضم إلى العثمانيين بعد أن قتل أخاه بالسمّ، فدخل عثمان باشا (كافا) عاصمة الخان، ورجع إلى إستانبول براً، وعُيّن صدراً أعظم، وكان محمد باشا الصقلي قد قُتل، وكثرت التولية والعزل بعده، وكان عماد الدولة وركنها الأساسي.

وسار عثمان باشا ثانية إلى الصفويين فانتصر على قائدهم حمزة ميرزا، ودخل تبريز عاصمتهم، ثم جرى الصلح بين الطرفين، وتنازل الصفويون للعثمانيين عن بلاد الكرج، وشروان، ولورستان الواقعة جنوب أذربيجان عام ٩٩٣، ثم قلت الحروب العثمانية.

ومع عدم الحرب ثارت الإنكشارية الذين اعتادوا النهب والسرقات، وثاروا في إستانبول، والقاهرة، وتبريز، وبودا، وقتلوا الولاة، فأشار سنان باشا الذي أعيد إلى منصب الصدر الأعظم بإشغالهم بالحرب في المجر، وبدأت الحرب ولكن بجنود عثمانية اختل نظامها، واعتادت على الفوضى، فهزمت أمام النمسا التي دعمت المجر، واحتلت عدة قلاع حتى استعادها سنان باشا عام ١٠٠٣هـ.

وأعلن أمراء الأفلاق، والبغدان، وترانسلفانيا التمرّد، وانضموا إلى النمسا في حربها للعثمانيين، فسار إليهم سنان باشا عام ١٠٠٣، ودخل بخارست عاصمة الأفلاق. إلا أن أمير الأفلاق قام برد فعل واستطاع أن يحرز النصر فانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب، وخسروا عدة مدن.

وتوفي الخليفة مراد الثالث عام ١٠٠٣هـ.

٣ ـ محمد الثالث:

ولد عام ٩٧٤، وهو ابن جارية بندقية الأصل اسمها (بافو)، استرقها قراصنة البحر، وبيعت في السراي، فاصطفاها السلطان مراد الثالث لنفسه، وأسماها (صفية)، وكان مولعاً بها لذا كان تدخلها وأثرها في السياسة كبيراً. وتولّى محمد الثالث الخلافة بعد موت أبيه عام ١٠٠٣، فأمر مباشرة بخنق إخوته التسعة عشر، ودفنهم مع أبيه.

ترك شؤون الدولة بيد الصدر الأعظم، فكثُرَت المفاسد، وهزمت الجيوش أمام أمير الأفلاق ميخائيل الذي تمكن بمساعدة النمسا أن يضمّ إليه إقليم البغدان، والجزء الأكبر من ترانسلفانيا، لعدم وجود القادة الأكفاء.

ورأى محمد الثالث ما حلّ بجيوشه فقادها بنفسه، وهزم جيوش المجر والنمسا في موقعة (كرزت) عام ١٠٠٥، واستمرت المعارك ما بين الطرفين، وكانت سجالاً.

وحدثت في أيامه ثورة في الأناضول، كان عمادها الجنود الذين فرّوا من معركة (كرزت) حيث نُفوا إلى الأناضول، فقام أحدهم، واسمه (قره يازجي)، وادعى رؤية الرسول ﷺ في المنام، وقد وعده بالنصر على آل عثمان، فأعلن التمرُّد بعد أن تبعه عدد كبير من الجنود المنفيين، ودخل مدينة عينتاب، وحاصرته الجيوش العثمانية، فأعلن الاستسلام على أن يُعطى ولاية أماسيا، فوافق العثمانيون على ذلك، فلما ابتعدت عنه الجيوش أظهر العصيان ثانية، وساعده أخوه (دلي حسن) والي بغداد، وجاء الجيش

العثماني بقيادة صقلي حسن باشا فانتصر على قره يازجي الذي توفي متأثراً بجراحه، وجاء أخوه فانتصر على صقليّ حسن باشا وقتله عام ١٠١٠، ولما قوي أمره أخذته الدولة بالسلم والإرضاء، وأعطته ولاية البوسنة فانصرف لقتال الأوروبيين حتى فني وجنوده.

وقامت ثورة الخيالة (السباه) في إستانبول مطالبين بالتعويض عما لحق إقطاعاتهم من أضرار بسبب الثورة هناك، ولم يكن بإمكان الدولة أن تُعطيهم لعجزها، فاستعانت عليهم بالإنكشارية، وقضت على ثورتهم، بعد أن أفسدوا، ونهبوا المساجد وغيرها مما وصلت أيديهم إليه.

وتوفي السلطان عام ١٠١٢.

٤ ـ أحمد الأول:

ولد عام ٩٩٨، وتولّى الحكم عام ١٠١٢ بعد وفاة والده، ولم يتجاوز عمره الرابعة عشرة، ولم يقتل أخاه مصطفى كما جرت العادة، وإنما أبقاه محجوزاً مع الجواري والخدم. وقامت في عهده عدة حركات ضد الدولة منها:

حركة جان بولاد الكردي، وحركة والي أنقرة قلندر أوغلي، وحركة فخر الدين المعني الثاني حفيد فخر الدين المعني الأول الذي انضمّ إلى السلطان سليم الأولى عندما دخل بلاد الشام عام ٩٢٢، وآل المعني أسرة درزية، وقد تمكّن فخر الدين المعني الثاني الذي أخذ السلطة في لبنان عام ٩٩٩ أن يجمع المعادين للإسلام من نصارى ونصيرية، ودروز وأمثالهم، وأن يتقرب من الخليفة، ويُظهر الطاعة له حتى أعطاه الإشراف على منطقة جبال لبنان، والسواحل، وفلسطين، وأجزاء من سوريا، ولما قوي أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال فبنى القلاع والحصون، وكوّن لنفسه جيشاً زاد عدده على الأربعين ألفاً، ثم أعلن العصيان عام ١٠٢٢، غير أنه هُزم وفرّ إلى إيطاليا، وكان قد تلقّى الدعم من إمارة فلورنسا الإيطالية، ومن البابا، ورهبان جزيرة مالطة فرسان القديس يوحنا.

واستغل الشاه عباس ملك الصفويين، والذي تولّى الأمر عام ٩٩٣ هذه الثورات فاسترجع شمالي العراق، ومدن تبريز، ووان، وضعُفت جيوش الدولة العثمانية عن المقاومة، ومات الصدر الأعظم مراد باشا الملقب بـ(قويوجي) الذي أسهم إسهاماً كبيراً في القضاء على الفتن والثورات، والحفاظ على الدولة رغم أن سنّه كانت أكثر من الثمانين عندما استلم منصبه هذا. لذا فقد أبرم الصلح بين العثمانيين والصفويين ١٠٢١ فقدت بموجبه الدولة العثمانية كل ما ضمه سليمان القانوني من أراضٍ في تلك الجهات بما في ذلك بغداد، وكان هذا بداية التراجع.

كما عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا عام ١٠١٥ تخلّصت فيه النمسا مما كانت تدفعه من جزيةٍ سنويةٍ للعثمانيين، على أن تدفع مائتي ألف دوكاً دفعةً واحدةً، وكانت الجزية السنوية ثلاثين ألف دوكاً. وذلك بعد الخلاف على بلاد المجر ومحاولة النمسا إبعاد أمير المجر عن العثمانيين، وإغرائه ليكون ملكاً بمساعدة النمسا، وبقيت المجر بعد هذا الصلح تتبع الدولة العثمانية.

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان مالطة، والإمارات الإيطالية، وغالباً ما كان النصر إلى جانب النصارى، لذا سُحبت السفن العثمانية من البحر الأسود، وتوجّهت إلى البحر المتوسط فاستغل أمراء القازاق هذا التصرّف، وأغاروا على ميناء سينوب ونهبوه، فوقع الخلاف بين الخليفة والصدر الأعظم نصوح باشا الذي قُتل إثر ذلك.

وجددت الدولة امتيازات فرنسا، وانكلترا، وحصلت هولندا على مثلها، كما جددت الاتفاقية مع بولونيا بحيث تمنع الدولة تتار القرم من التعدي على بولونيا، وتمنع بولونيا القازاق من التعدي على الدولة العثمانية. وانتشر شرب الدخان بواسطة الهولنديين، وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوى بمنعه فهاج الجند، وأيدهم الموظفون فاضطر العلماء إلى السكوت عنه.

وتوفي السلطان أحمد الأول عام ١٠٢٦، وعمره ثمان وعشرون سنة، أمضى نصفها في الحكم.

٥ ـ مصطفى الأول:

كان عثمان بن أحمد صغيراً، لذا فقد عهد الخليفة أحمد الأول إلى أخيه مصطفى، وكان محجوزاً بين الجواري والخدم لذا لم يعرف شيئاً من أمور الحكم عندما آلت إليه. وهو من مواليد عام ١٠٠١، ولكن لم يلبث سوى ثلاثة أشهر حتى عُزل، ونُصّب ابن أخيه عثمان بن الخليفة أحمد الأول رغم صغره.

٦ ـ عثمان الثاني:

ولّي الحكم بعد عزل عمه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثالثة عشرة. أطلق قنصل فرنسا، وكاتبه، ومترجمه الذين سجنهم عمه مصطفى لتدخلهم في شؤون الدولة ومساعدة أحد أشراف بولونيا على الهرب من السجن، كما اعتذر لملك فرنسا عما حدث. وقتل أخاه محمداً حسب العادة السيئة المتبعة.

أعلن الحرب على بولونيا لتدخلها بشؤون إمارة البغدان، لكن حدث الصلح بين الطرفين عام ١٠٢٩ بناءً على رغبة بولونيا، وطلب الإنكشارية الذين تعبوا في القتال، فغضب الخليفة عليهم. وعندما أراد استبدالهم بمن درّبهم ثاروا عليه، وقبضوا عليه، ثم قُتل بعد أن عزلوه، وأعادوا مكانه عمه مصطفى الأول عام ١٠٣١.

وكان عثمان الثاني قد عفا عن فخر الدين المعني الثاني وسمح له بالعودة إلى جبل لبنان، فبدأ من جديد بالتحرّك للثورة والعصيان على الدولة.

وعندما وصلت الأخبار بقتل الخليفة، تمرّد كل طامع، فأعلن والي طرابلس الاستقلال، وطرد الإنكشارية من ولايته، كما أعلن العصيان والي أرضروم أباظة باشا ودخل سيواس وأنقرة، وزادت الاضطرابات وعمّ نهب الإنكشارية... ثم عيّنوا (كمانكش علي باشا) صدراً أعظم، فأشار عليهم بعزل الخليفة مصطفى الأول لعجزه، وتنصيب مراد الرابع ابن الخليفة أحمد الأول.

٧ ـ مراد الرابع:

ولد عام ١٠١٨، وتولّى أمر الخلافة بعد عزل عمّه مصطفى عام ١٠٣٢، وهو أخو عثمان الثاني، ولصغر سنه الذي لم يزد على الرابعة عشرة فقد سيطر عليه الإنكشارية في بداية الأمر.

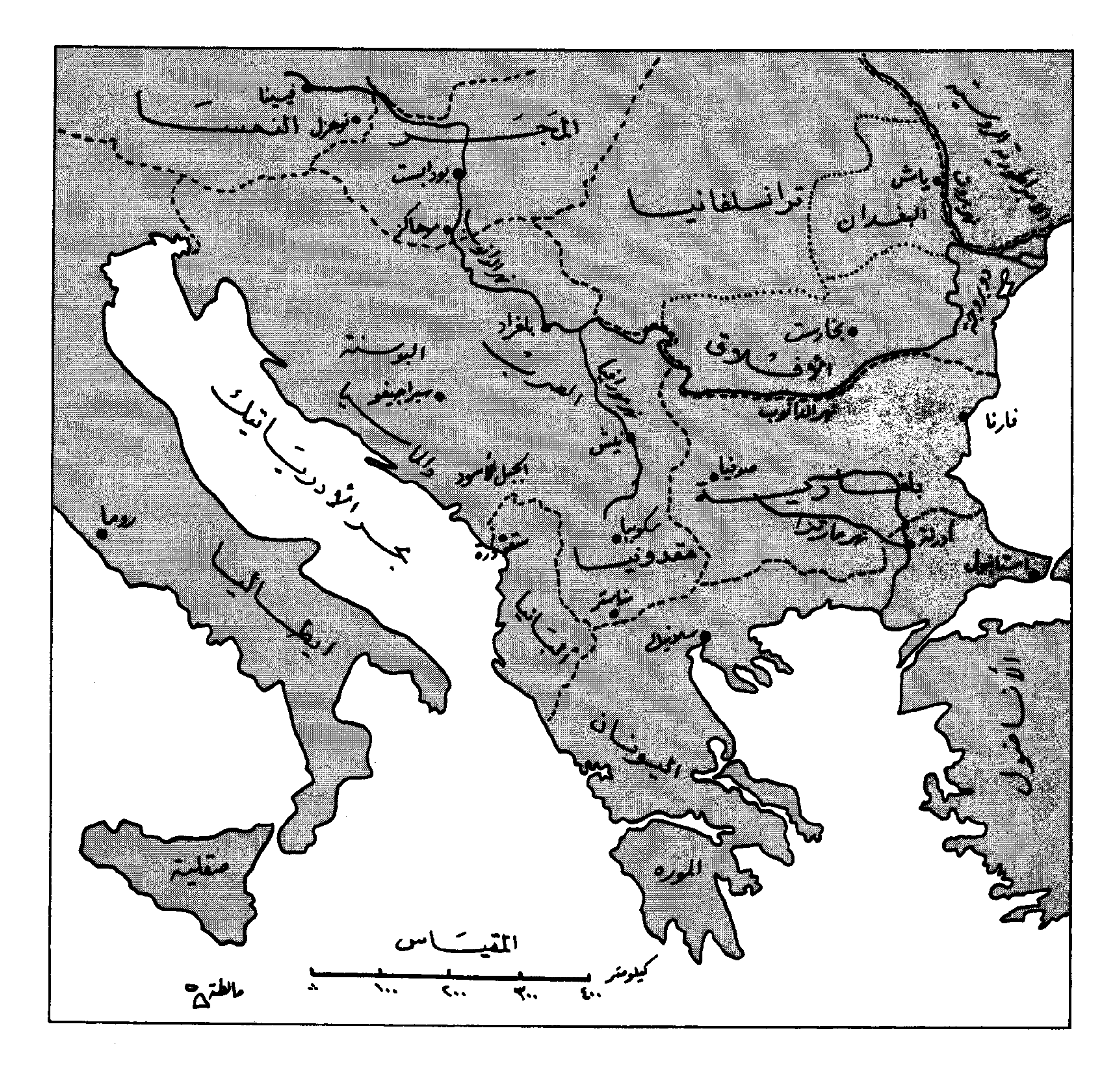
قام قائد الشرطة في بغداد بكير آغا وقتل الوالي، وتسلّم الأمر مكانه، فأرسلت له الدولة قوةً بقيادة حافظ باشا، فحاصره في بغداد، فاتصل بالشاه عباس وعرض عليه تسليم المدينة، فسار نحوها، وفي الوقت نفسه اتصل بالقائد العثماني وعرض عليه تسليم المدينة على أن يتسلّم هو ولايتها، فوافق القائد، ودخلت جنوده المدينة قبل وصول الشاه، فلما وصل الشاه إليها، وألقى الحصار عليها مدة ثلاثة أشهر اتصل بابن بكير آغا، وأغراه بتسليم الولاية فوافق، وخان الدولة، ودخل الشاه بغداد، وقتل بكير آغا، وابنه معاً.

وفي عام ١٠٣٣ قُضي على الثائر أباظة باشا بعد معركة قيصرية. وسار الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا لاسترداد بغداد غير أن الإنكشارية لم يستمرّوا معه في القتال، وعُزل الصدر الأعظم نتيجة ذلك. وعاد أباظة باشا للثورة، وأحرز النصر، وسار إليه خسرو باشا الصدر الأعظم الجديد، وأدخله في الطاعة، وعيّنه والياً على البوسنة عام ١٠٣٧.

وفي عام ١٠٣٨ توفي الشاه عباس، وتولّى مكانه ابنه الصغير شاه ميرزا فاستغلّ الصدر الأعظم الفرصة وسار إلى بلاد الصفويين، ودخل مدينة همدان عام ١٠٣٩، وحاصر بغداد، ولم يتمكّن من فتحها بعد مرتين من الحصار.

وثارت الإنكشارية، فتأثّر الخليفة من ثورتهم وفسادهم، وكان قد كبُرت سنّه فوقف في وجههم، وقتل رؤوس الفتنة منهم، فخافوه، وسكنوا.

وثار فخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان، فنهض إليه والي دمشق، وانتصر عليه، وأسره وولديه، وأرسلهم إلى إستانبول غير أن الخليفة قد عاملهم بإكرام رغم أنهم أكثر الناس خيانةً باتصالهم الدائم مع الصليبيين عامةً، والطليان خاصةً، وأكثر الثائرين فساداً في العقيدة، وهذا ما جعل الكفار يثنون عليه، وهذا الإكرام من قبل الخليفة شجّعهم، شجّع



فينا
نوعزل النمسا
المجر
بودابست
موهاكز
ترانسلفانيا
ياش
البغدان
بلغراد
البوسنة
الصرب
سيراجيفو
بخارست
الأفلاق
فارنا
نيش
صوفيا
بلغاريا
أدرنة
استانبول
سكوبيا
مقدونيا
بحر الأدرياتيك
روما
إيطاليا
سالونيك
اليونان
المورة
صقلية
المقياس
كيلومتر
٤٠٠
٣٠٠
٢٠٠
١٠٠
مالطة

مصور رقم [١٦]

قرقماز حفيد فخر الدين بالتحرك، لذلك فإن الخليفة أعاد النظر، وقتل فخر الدين وابنه الكبير عام ١٠٤٤، وأرسل إلى قرقماز من أخضعه.

وسار الخليفة بنفسه إلى الصفويين، وفتح بعض القلاع، وأمر بقتل أخويه بايزيد، وسليمان، ثم انطلق إلى مدينة تبريز فدخلها عنوةً عام ١٠٤٥، ورجع السلطان إلى إستانبول، فقويت عزيمة الصفويين، وانتصروا على الجيوش العثمانية، واستردّوا بعض القلاع، ووصلت الأخبار إلى إستانبول فرجع الخليفة على رأس جيش فقويت معنويات العثمانيين وتمكّنوا من دخول بغداد ١٠٤٨، وإن فقدوا الصدر الأعظم طيار محمد باشا في ميدان المعركة، وبقيت بغداد بعدها بيد العثمانيين. وتمّ الصلح بين الدولتين عام ١٠٤٩.

وتوفي مراد الرابع عام ١٠٤٩، وعمره إحدى وثلاثون سنة.

٨ ـ إبراهيم الأول:

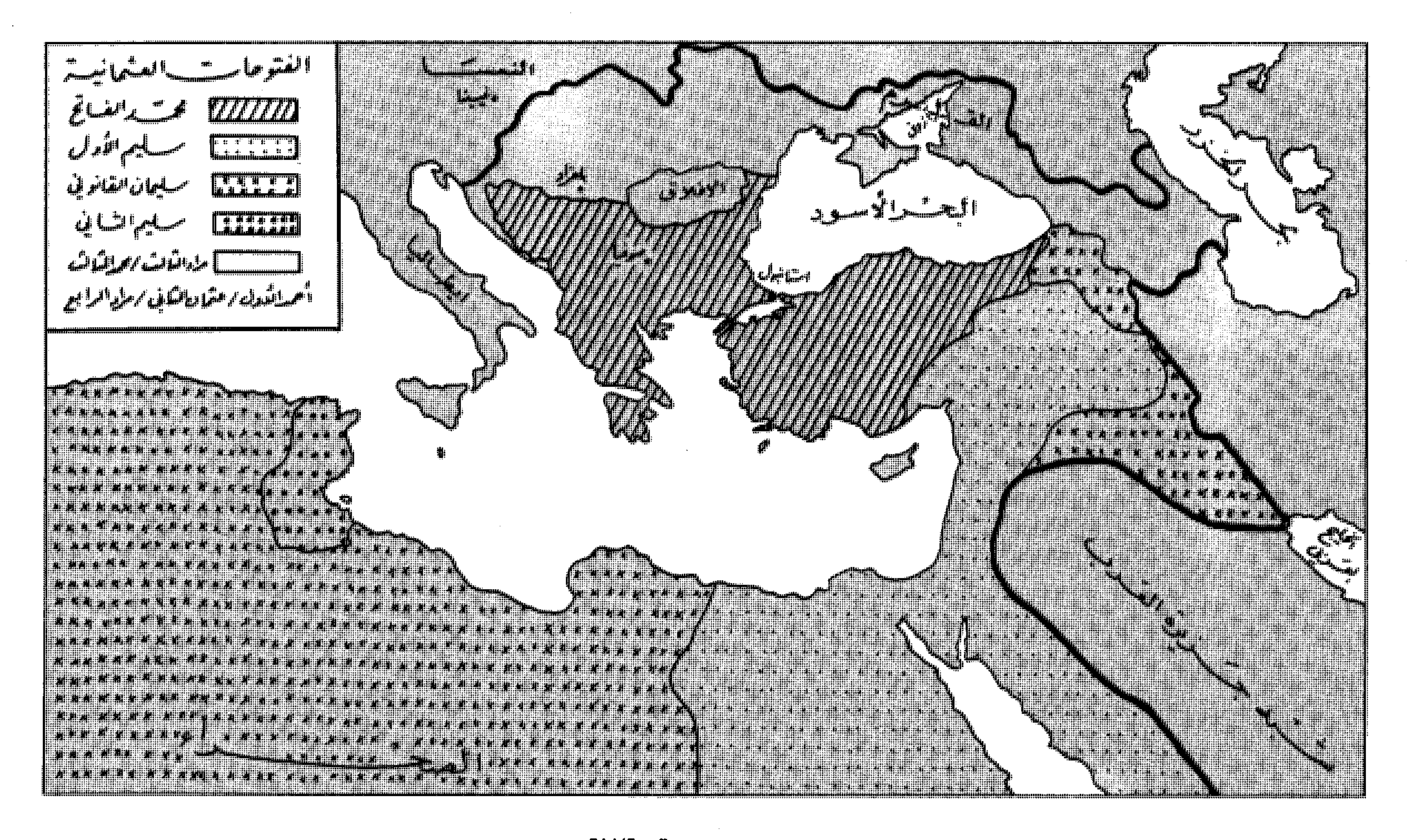
هو ابن الخليفة أحمد الأول، ولد عام ١٠٢٤، وتولّى الخلافة بعد وفاة أخيه مراد الرابع عام ١٠٤٩ أي أن عمره كان يوم تسلّمه الحكم خمساً وعشرين سنة.

احتل القازاق مدينة آزاق (آزوف)، فأرسل لهم إبراهيم الأول جيشاً استردّها عام ١٠٥٢، وكذلك فقد فتحت في أيامه جزيرة كريت، وكانت من قبل تتبع البندقية، وكان فتحها عام ١٠٥٥، وأراد البنادقة الثأر فأحرقوا عدداً من مرافئ المسلمين في بلاد الموره، وأراد الخليفة الردّ على ذلك بقتل النصارى غير أن المفتي لم يوافقه على ذلك فلم يحدث.

وأراد أن يفتك برؤوس الإنكشارية لمعارضته، وعلموا بذلك فتآمروا على عزله، وتولية ابنه الصغير محمد الرابع الذي لم يزد عمره على السابعة، وتمّ ذلك عام ١٠٥٨، وبعد عشرة أيام رغب الخيالة (السباه) إعادة إبراهيم فخاف من عمل على عزله، لذا فقد أسرعوا وقتلوه في ذلك العام.

٩ ـ محمد الرابع:

ولد عام ١٠٥١، وتولّى الحكم بعد أبيه عام ١٠٥٨، وكان عمره سبع سنوات، ولصغر سنه فقد عمّت الفوضى.


الفتوحات العثمانية
محمد الفاتح
سليم الأول
سليمان القانوني
سليم الثاني
النمسا
فيينا
بلغراد
البحر الأسود
استانبول

مصور رقم [١٧]

اضطر حسين باشا الذي كان يُحاصر مدينة (كنديا) في كريت أن يرفع الحصار عنها للفوضى التي أثارتها الإنكشارية.

وقامت ثورة في الأناضول بزعامة رجل يعرف (قاطرجي أوغلي) أي ابن سائق البغال، ودعمه (كورجي يني) وقد انتصر على والي الأناضول أحمد باشا، ثم توجّها نحو إستانبول، ولكن اختلفا فسلمت العاصمة منهما لاختلافهما، وانتصر عليهما الخليفة لذلك الخلاف الذي وقع بينهما، فقتل (كورجي يني)، وطلب (قاطرجي أوغلي) العفو، وتسلّم ولاية القرمان، ورغم انتهاء هذه الثورة فلم تتحسّن الأوضاع الداخلية، بل ولا الخارجية.

انتصرت البندقية على أسطولٍ عثماني، واحتلّت جزيرتين عند مدخل مضيق الدردنيل تتحكّمان فيه، وتحميانه، وهما جزيرتا (تنيدوس) و(لمنوس)، وبذلك فقد تحكّمت البندقية بهذا المضيق، وحالت دون وصول المواد الغذائية إلى إستانبول من هذا المضيق فارتفعت الأسعار.

وتولّى عام ١٠٦٧ الصدارة العظمى محمد كوبريلي، فقتل كثيراً من الإنكشارية حتى خضعوا، وأعدم بطريرك الروم لأنه من الذين أثاروا الفتنة سراً. وحاول استرداد ما أخذته البندقية من جزرٍ عند مدخل مضيق الدردنيل فلم يتمكّن إلا بعد جهدٍ ووقتٍ، وموت قائد البحر البندقي.

ووقعت الحرب بين السويد وبولونيا فطلب ملك السويد من العثمانيين أن يُعاونوه ضد بولونيا، وتكون تحت حماية الدولة العثمانية، ولكن الصدر الأعظم رفض ذلك، واتفق أمير ترانسلفانيا مع أمراء الأفلاق والبغدان التفاهم مع السويد ومحاربة بولونيا. فعزلت الدولة العثمانية هؤلاء الأمراء، وعيّنت غيرهم في أماكنهم، فعصى أمير ترانسلفانيا الأمر، وحارب العثمانيين وانتصر عليهم. فسار إليه الصدر الأعظم كوبريلي وهزمه ففرّ من البلاد، ولم يلبث أن عصى أمير الأفلاق بعد عودة الجيوش العثمانية إلى إستانبول وأعلن التمرّد. فرجع الصدر الأعظم إلى القتال وأخضع الثائرين.

وضعفت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا لأن الثانية دعمت

البندقية سرّاً في جزيرة كريت، فلما اطلعت الدولة على ذلك سجنت ابن السفير الفرنسي الذي لم يقبل حلّ رموز البرقيات، وتوتّرت الحالة بين الطرفين، ودعمت فرنسا البندقية جهاراً في كريت وأنجدتها بقوة.

وتوفي الصدر الأعظم محمد كوبريلي عام ١٠٧٢، وكان قد أعاد للدولة هيبتها، وخلفه ابنه أحمد كوبريلي فكان كوالده، إذ رفض الصلح مع النمسا والبندقية، وسار على رأس جيشٍ لقتال النمسا، وتمكّن عام ١٠٧٤ أن يفتح أعظم قلعةٍ في النمسا، وهي قلعة (نوهزل) شرقي ڤيينا فأرعب أوربا، ثم دخل مورافيا[١] وسيليزيا[٢]. واضطر ملك النمسا ليوبولد أن يرجو البابا العمل على مساعدة فرنسا له ضد المسلمين، وكان قد رفض ذلك في البداية اعتماداً على النفس وإظهاراً للقوة، فتوسّط البابا في ذلك فدعمته فرنسا في ستة آلاف جندي. ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عنيفة أهمها، معركة (سان غوتار)، ولم يحصل أحد الطرفين على نصر، ثم وُقِّعت معاهدة صلحٍ بين الفريقين المختلفين، وقُسّمت فيها المجر بين الدولة العثمانية والنمسا، وتوقّفت الحرب على هذه الجبهة، إلا أن فرنسا قد تابعت القتال في البحر المتوسط، وحدث صدام بين السفن الفرنسية والمغربية، ودخلت فرنسا الجزائر وتونس، وتمّ هذا دون إعلانٍ رسمي للحرب.

وحاولت فرنسا التقرّب من الدولة العثمانية وتجديد الامتيازات غير أن الصدر الأعظم قد رفض ذلك، ثم حاولت التهديد حيث أرسل ملك فرنسا لويس الرابع عشر السفير الفرنسي مع أسطول حربي، وهذا ما زاد الصدر الأعظم ثباتاً، وقال: إن الامتيازات كانت مِنحةً، وليست معاهدة واجبة التنفيذ، وكان ملك فرنسا يريد إعلان الحرب غير أن وزيره نصحه بعدم ذلك الفعل، وسار الوزير بسياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتى

---

(١) مورافيا: المنطقة الواقعة بين إقليمي تشيكوسلوفاكيا اليوم. بوهيمية وسلوفاكيا.
(٢) سيليزيا: تقع اليوم في بولونيا، وقد ضمت إليها من ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وهي من المناطق الغنية بالفحم.

جُددت له المعاهدات القديمة، وأُعيد لفرنسا حق حماية بيت المقدس وذلك عام ١٠٨٤، وعادت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا إلى الصفاء السابق.

رغب القوزاق في التبعية إلى الدولة العثمانية فأعلنوا ذلك، وكانوا يُقيمون في أوكرانيا والمناطق التي تقع إلى الشرق منها، وهذا ما أغضب بولونيا فأغارت على أوكرانيا التي طلبت النجدة من العثمانيين، وسار الخليفة بنفسه على رأس جيشٍ انتصر على البولونيين الذين طلبوا الصلح، فعُقد، ولم يمض على الحربِ أكثر من شهرٍ واحدٍ، وقد اعترفت بولونيا فيه: بأن أوكرانيا للقوزاق، وأن إقليم (بودوليا) في غرب أوكرانيا للدولة العثمانية، وفوق هذا الاعتراف تدفع بولونيا جزيةً قدرها ٢٢٠ ألف بندقي ذهباً، وذلك عام ١٠٨٣، وتضايق الشعب البولوني من هذه المعاهدة التي عُرفت باسم (بوزاكس)، فأعلن رفضه لها، وسار القائد البولوني (سوبيسكي) بجيوشٍ جرارةٍ وقاتل العثمانيين، وانتصر عليهم، واستلم الملك بعد وفاة ملك بولونيا ميشيل عام ١٠٨٤، واستمرت المعارك سجالاً بين الطرفين، ثم عادت المفاوضات فعُقد صلح بين الطرفين، تنازل فيه ملك بولونيا إلى العثمانيين عما تنازل له سلفه باستثناء بعض المواقع وذلك عام ١٠٨٧.

توفي أحمد كوبريلي عام ١٠٨٧، وخلفه في الصدارة العظمى صهره قره مصطفى، ولم يكن صاحب إمكانات وإنما صاحب هوى ومصالح فأثار القوزاق، فثاروا ضد العثمانيين، واستنجدوا بروسيا فوقعت الحرب بين الطرفين عام ١٠٨٨، واستمرت حتى عام ١٠٩٢ حيث عُقدت معاهدة أنهت الحرب، وبقيت الأمور كما كانت قبل الحرب، ولكن أصبح القوزاق أميل إلى أعدائهم الروس منهم إلى العثمانيين إخوانهم في السابق، وتمت هذه المعاهدة المعروفة باسم معاهدة (رادزين) نسبةً إلى المدينة التي وقعت فيها، والتي تقع جنوب غربي فارسوفيا، تمت عام ١٠٩٢.

وسار الصدر الأعظم قره مصطفى عام ١٠٩٢ لمحاربة النمسا إذ طلب

نجدته سكان الأقسام المجرية التي تخضع للنمسا إذ أثارهم استبداد النمسا المذهبي، وانتصر الصدر الأعظم في عدة معارك، ثم سار نحو فيينا، وألقى عليها الحصار مدة شهرين عام ١٠٩٤، وكادت تُفتح أمام قوة العثمانيين لولا نداءات البابا إلى الدول النصرانية، وإثارة الهمم الصليبية، فوصلت قوات ملك بولونيا، وأمراء ساكسونيا، وبافاريا الألمان إلى العاصمة النمساوية في الوقت المناسب، وهُزم المسلمون، وانسحبوا بعد معارك طاحنة، واتجهوا نحو مدينة بودا، ووجد ملك بولونيا فرصةً لثأره فتبعهم يقتل كل من يستطيع قتله من مؤخرة العثمانيين. ووصل خبر الهزيمة إلى الخليفة فغضب على الصدر الأعظم قره مصطفى، وأمر بقتله، وإعطاء هذا المنصب إلى إبراهيم باشا عام ١٠٩٥.

هذا الانتصار الذي أحرزه النصارى زاد من أوار الصليبية وشجّعها على المضي فعقدت الدول الأوروبية تحالفاً يُسمّى التحالف المقدس لاستمداد قوته من النصرانية، وقد ضمّ البابا، والبندقية، ورهبنة مالطة، والنمسا، وبولونيا، وروسيا. وبدأ هذا التحالف بالعمل ضد الدولة العثمانية.

فالنمسا بدأت تُهاجم بلاد المجر، وتمكّنت من دخول مدينة (بست)، وحاصرت مدينة (بودا)، ثم أخذت عدة مواقع، منها قلعة (نوهزل) التي سبق أن تكلّمنا عنها، وبسبب هذه الهزيمة عُزل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، ونُفي إلى جزيرة رودوس، وعُيّن مكانه سليمان باشا الذي أسرع لنجدة (بودا) غير أن النمساويين قد دخلوها عنوةً، وهُزم العثمانيون عام ١٠٩٧، ثم هزموا ثانية عام ١٠٩٨ في (موهاكز).

وكانت جيوش ملك بولونيا (سوبيسكي) تُغير على ولاية البغدان وتُهدّدها.

وسفن البندقية تُغير باستمرار على سواحل اليونان والمورة، وتسندها سفن البابا، ورهبان مالطة، وتمكّنت من دخول (أثينا) و(كورنتا) وعدداً آخر من المدن عام ١٠٩٧.

وأمام هذه الهزائم، والفوضى التي حدثت بسبب ذلك فقد اتفق العلماء والوزير على عزل السلطان فعُزل عام ١٠٩٩، وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني. وبقي محمد الرابع حتى توفي عام ١١٠٤.

١٠ ـ سليمان الثاني:

ولد عام ١٠٥٢، وتولّى الحكم بعد أخيه محمد الرابع عام ١٠٩٩، وكان عمره يزيد على أربع وأربعين سنة، وقد أكثر من عطايا الجند، ولم يُعاقبهم على ما فعلوه بأخيه، وهذا ما أطمعهم فيه فتمرّدوا عليه، وقتلوا قادتهم، وقتلوا الصدر الأعظم سياوس باشا، وسبوا نساءه، وعمّت البلاد الفوضى. فعيّن الخليفة صدراً أعظم جديداً هو مصطفى باشا.

انتهز الأعداء هذه الفوضى، وتقدّموا في أملاك الدولة العثمانية، فأخذت النمسا كثيراً من المواقع والمدن ومنها بلغراد عام ١٠٩٩ و١١٠٠، كما أخذت البندقية سواحل دالماسيا (السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك) وبعض المواطن في بلاد اليونان. وتوالت الهزائم، ولم يكن الصدر الأعظم كفئاً فعزله الخليفة، وعيّن مكانه، مصطفى باشا بن محمد كوبريلي المعروف، فسار على نهج أبيه وأخيه. فحمى الأهالي من تصرّفات الجند، وأعطى الجند حقوقهم، وسمح للنصارى في إستانبول ببناء ما تهدّم من كنائسهم، وأحسن إليهم، فأحبّه الناس حتى أن نصارى المورة ثاروا ضد البندقية، وطردوا جيشها من بلادهم، وقد أرادت نشر الكاثوليكية بينهم وهم من الأرثوذكس.

واتجه على رأس جيش نحو النمسا فاستعاد بعض المواقع مما أخذت، ومنها بلغراد عام ١١٠١، كما أخضع خان القرن سليم كراي ثوار الصرب، وفي الوقت نفسه أعاد تيكلي المجري إقليم ترانسلفانيا إلى الدولة العثمانية. وبذا استعاد العثمانيون هيبتهم.

توفي الخليفة سليمان الثاني عام ١١٠٢، ولم يُنجب، فتولى مكانه أخوه محمد الثاني.

١١ ـ أحمد الثاني:

ولد عام ١٠٥٢، وهو أصغر من أخيه سليمان الثاني بأقل من شهرين، وقد تولّى الحكم بعده عام ١١٠٢، وفقدت الدولة في أيامه الصدر الأعظم مصطفى كوبريلي الذي كان أملها، حيث استشهد في ميدان القتال ضد النمسا عام ١١٠٢، والصدر الأعظم الذي تولى بعده، وهو عربجي باشا، وكان ضعيفاً، فاحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجه، ولم تطل أيام الخليفة فقد توفي عام ١١٠٦، وكان القتال في أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات، وتولّى الحكم بعده ابن أخيه، وهو مصطفى الثاني ابن محمد الرابع.

١٢ ـ مصطفى الثاني:

ولد عام ١٠٧٤، وآل إليه السلطان بعد وفاة عمّه أحمد الثاني عام ١١٠٦. كان شجاعاً، قاد الجيوش بنفسه، فسار إلى بولونيا، وانتصر عليها في عدة معارك بمساعدة القوزاق. ثم انطلق إلى مدينة آزاق (آزوف) التي يُحاصرها بطرس الأكبر القيصر الروسي فأجبره على ترك الحصار عام ١١٠٧. ثم توجّه إلى بلاد المجر فهزم جيوشها أمامه، غير أنه هُزم أمام القائد النمساوي الجديد (أوجين دي سافوا) على نهر تيس، وقُتل يومذاك الصدر الأعظم محمد باشا، وغرقت أعداد من العثمانيين في النهر، ولاحقهم القائد النمساوي حتى دخل بلاد البوسنة.

استغل بطرس الأكبر انشغال العثمانيين في قتال النمساويين، فسار إلى آزوف ودخلها عام ١١٠٨.

تولّى الصدارة العظمى حسين كوبريلي، فسار نحو النمسا فتقهقرت أمامه جيوشها، ودفعهم إلى ما بعد نهر السافا، وفي الوقت نفسه انتصر الأسطول العثماني على البندقية، واستردّ بعض الجزر في بحر إيجه، ثم عقدت معاهدة بين الدولة والنمسا، والبندقية، وروسيا، وبولونيا بجهود فرنسا، وذلك عام ١١١٠، وعرفت تلك المعاهدة باسم معاهدة (كارلوفتس)

فقدت في خلالها الدولة مدينة آزوف لروسيا، وبلاد أوكرانيا، وإقليم بودوليا، وبعض المدن لبولونيا، وساحل دالماسيا وبعض الجزر للبندقية، وبلاد المجر، وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعُقدت هدنة مع النمسا لمدة خمس وعشرين سنة، ولم تَبق أية دولة تدفع أي مبلغٍ كجزيةٍ للدولة العثمانية. وبذا كانت الدول النصرانية كلها تقف في وجه العثمانيين، وكانت متفقةً فيما بينها على الوقوف في وجه التقدم للدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها، وذلك خوفاً من انتشار الإسلام في أوربا.

واستقال حسين كوبريلي من الصدارة العظمى عام ١١١٤، وثار الإنكشارية على خلفه، واستبدلوه بآخر، فثاروا عليه أيضاً، وطلبوا من الخليفة أن يعزله فرفض، فعزلوا الخليفة عام ١١١٥، وولّوا أخاه أحمد الثالث مكانه.

١٣ ـ أحمد الثالث:

ولد عام ١٠٨٣، وتولّى الخلافة عام ١١١٥، فكان عمره يومذاك اثنتين وثلاثين سنة، سار مع الإنكشارية مدةً فأعطاهم الأُعطيات، ووافقهم على قتل المفتي فيض الله حتى إذا تمكّن اقتصّ من قادتهم، وعزل الصدر الأعظم نشانجي أحمد باشا الذي اختاروه، وكان قد قادهم في حركتهم، وعيّن صهره حسن باشا، ثم لم يلبث أن عزله، وتوالى على الصدارة العظمى الكثير، وشغل الناس بذلك، وأعداء الدولة يُخططون لقوتهم وحربهم لها، وفي مقدمتهم قيصر روسيا بطرس الأكبر الذي انتصر على السويد، وقويت دولته، ولم يوافق الصدر الأعظم نعمان كوبريلي دعم السويد ضد روسيا. وجاء الصدر الأعظم الجديد بلطجي محمد باشا فأعلن الحرب على الروس، وقاد الجيوش ضدهم، وتمكّن من حصار القيصر وخليلته كاترينا الأولى التي أغرت الصدر الأعظم ففكّ الحصار، ونجا القيصر، وخليلته، وجيشه من الإبادة، ووُقّعت معاهدة بين الطرفين تعهّد فيها القيصر بعدم التدخل بشؤون القوزاق، والتخلي عن ميناء آزوف، ولكن

عُزل الصدر الأعظم بجهود خان القرم، ودعم ملك السويد، ونفي إلى جزيرة لمنوس في بحر إيجه. وتولّى يوسف باشا منصب الصدر الأعظم فعقد مع روسيا معاهدةً جديدةً تنصّ على هدنةٍ بين الطرفين مدتها خمس وعشرون سنة. غير أن الحرب كادت تتجدد لإخلال القيصر بالشروط، وتدخّلت الدول، وعُقدت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥ من جديد تنازلت فيها روسيا عن كل ما أخذته على سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلّت في الوقت نفسه عما كانت تدفعه إلى خانات القرم.

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيون على البنادقة، وأخذوا منهم ما بقي بأيديهم في كريت، وبعض الجزر الأخرى، فاستنجد البنادقة بالنمسا التي ارتاحت من الحروب بينها وبين فرنسا، فطلب إمبراطور النمسا من الدولة العثمانية إرجاع ما أُخذ من البنادقة إليهم فرفضت الدولة، وقامت الحرب بين الطرفين، وانتصرت النمسا، وقُتل الصدر الأعظم علي باشا، وسقطت بلغراد ١١٢٩، وانتصرت ثانيةً على الصدر الأعظم الجديد خليل باشا الذي جاء مدداً للعثمانيين ثم جرى الصلح عام ١١٣٠، وعُقدت معاهدة (بساروفتس) أخذت فيها النمسا بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق، ولكن تُبقي سواحل دالماسيا للبندقية، وتُرجع بلاد المورة للعثمانيين.

ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوار بيت المقدس المرور من أراضي الدولة العثمانية دون دفع شيء، فوافق العثمانيون على ذلك.

وضعفت الدولة الصفوية، وتنازل الشاه حسين عن السلطة لمير محمد أمير بلاد أفغانستان فأسرع الصدر الأعظم إبراهيم باشا، واحتل بلاد أرمينيا، وبلاد الكرج، وأسرع قيصر روسيا بطرس الأكبر واحتل بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية، واصطدمت الجيوش العثمانية والروسية وكادت الحرب تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا التي وجدت نفسها عاجزةً عن القتال، فبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الفريق الآخر.

وانتفض الصفويون، وقاتلوا العثمانيين غير أنهم هُزموا، وفقدوا تبريز، وهمدان، وعدداً من القلاع، ثم جرى الصلح عام ١١٤٠، ثم مات الشاه أشرف، وبقي الشاه طهماسب فطلب من العثمانيين أن يتخلّوا عما أخذوه فلم يقبلوا فغزاهم، ولم تكن عند الخليفة حرارة القتال، فثار الإنكشارية، وقتلوا الصدر الأعظم وأمير البحر، ثم امتد أذاهم وعصيانهم، وعزلوا الخليفة، ونصّبوا مكانه ابن أخيه، وهو محمود الأول ابن مصطفى الثاني وذلك عام ١١٤٣، وبقي أحمد الثالث معتزلاً حتى توفي عام ١١٤٩.

وقد دخلت المطبعة في عهد أحمد الثالث، وتأسست دار للطباعة في إستانبول بعد موافقة المفتي.

١٤ ـ محمود الأول:

ولد عام ١١٠٨، وتولّى الحكم وعمره خمس وثلاثون سنة، وكانت السلطة الحقيقية بيد زعيم الثورة (بطرونا خليل) الذي عزل الخليفة وفعل ما فعل، ثم نقم عليه الإنكشارية وقتلوه، وهدأت الأحوال، واتجهت الدولة إلى قتال الصفويين فتغلّبت على طهماسب الذي طلب الصلح عام ١١٤٤، وتخلّى للعثمانيين عن تبريز، وهمدان، وإقليم لورستان، غير أن والي الشاه على خراسان، وهو نادر شاه لم يقبل بهذه المعاهدة فسار إلى أصفهان، وعزل الشاه طهماسب، وولّى مكانه ابنه عباساً الذي لا يزال طفلاً، وأخذ الوصاية عليه، وسار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد، وطلبت الدولة الصلح، وجرى الاتفاق عام ١١٤٩ في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس، واتفقوا على أن يردّ العثمانيون إلى الفرس كل ما أخذوه.

اختلفت الدول بشأن بولونيا، وأعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولونيا عداوةً بالنمسا وحليفتها روسيا، وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة ڤيينا، واتفقتا من جهةٍ ثانيةٍ لقتال الدولة العثمانية، وفتحت روسيا القتال لحجةٍ

بسيطةٍ واحتلت آزوف، فاتفقت الدولة العثمانية سريعاً مع نادر خان واتجهت لمقاومة الروس، وتمكّنت في خلال مدةٍ قصيرةٍ من وقف تقدُّمهم في إقليم البغدان الذي احتلوا عاصمته (ياسي)، وأوقفت كذلك تقدُّم النمسا في البوسنة، والصرب، والأفلاق وانتصرت على الصرب، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الميدان، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتمّ في معاهدة بلغراد عام ١١٥٢ تنازل النمسا عن مدينة بلغراد، وعما سبق أن أخذته من بلاد الصرب، وإقليم الأفلاق. وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف.

اتفقت الدولة العثمانية مع السويد ضد روسيا بجهودٍ فرنسيةٍ عام ١١٥٣.

وقامت الحروب بين النمسا التي تولت أمرها ماريا تيريزا عام ١١٥٣ وبين فرنسا، وحاولت فرنسا الاتفاق مع الدولة العثمانية لقتال النمسا، ولكن العثمانيين رفضوا ذلك، وانتصرت النمسا.

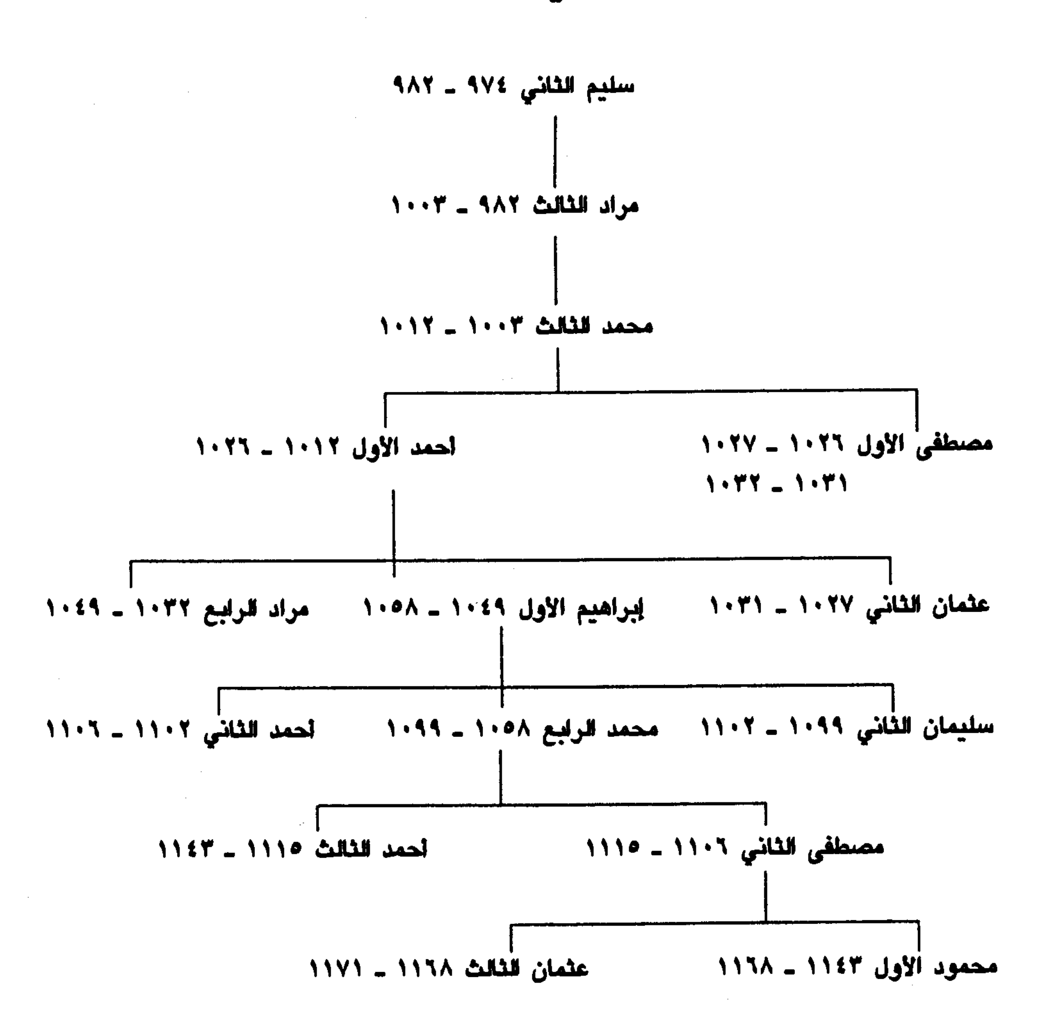
وأعطت الدولة العثمانية أمر إقليمي الأفلاق والبغدان إلى رومٍ من إستانبول فساموا أهل البلاد سوء المعاملة فاتجه السكان نحو روسيا.

وتوفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨، وخلفه أخوه عثمان الثالث.

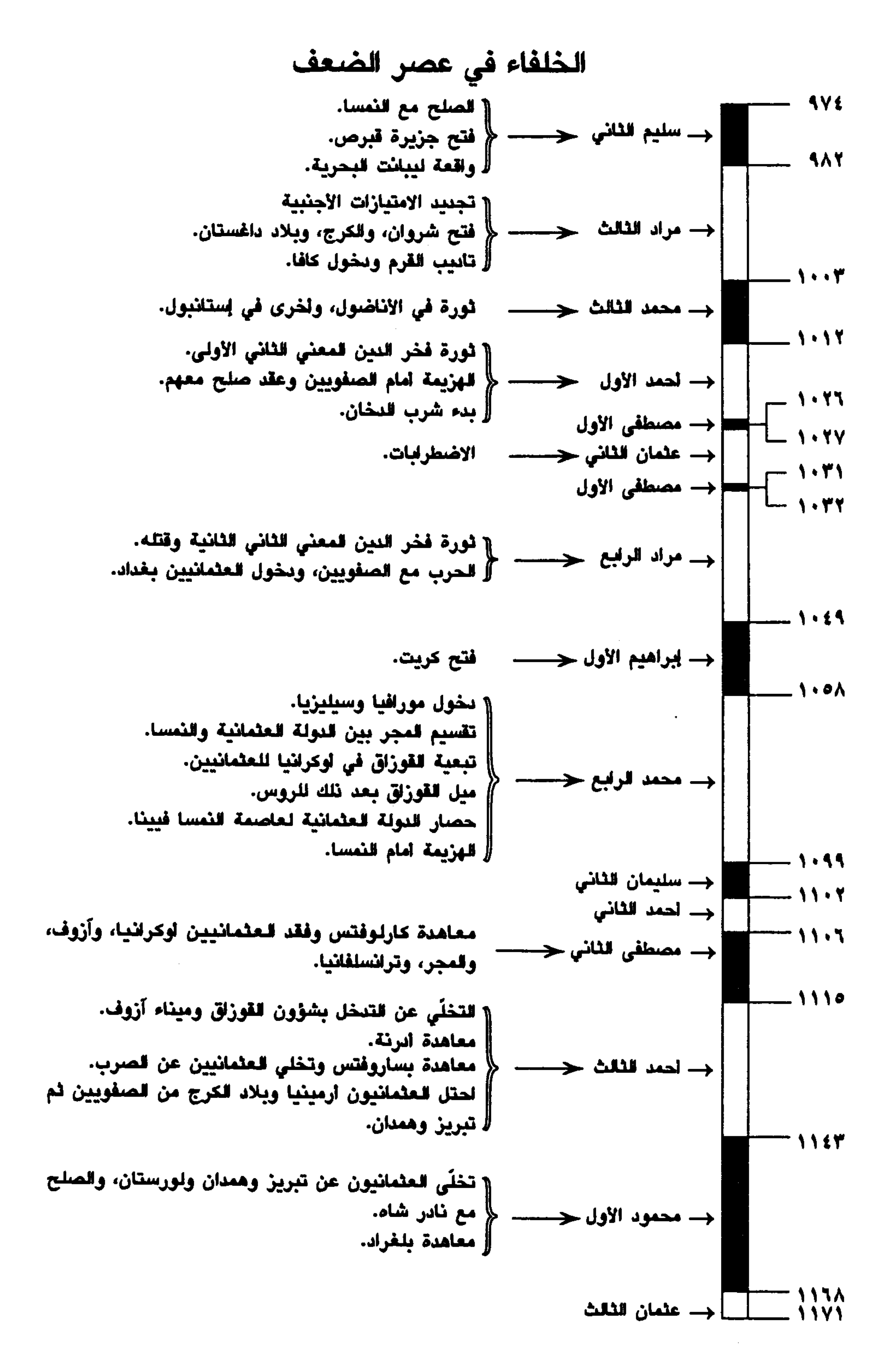
١٥ ـ عثمان الثالث:

ولد عام ١١١٠، وكان عمره عندما آل إليه الأمر يزيد على الثامنة والخمسين عاماً، قتل الصدر الأعظم علي باشا لسوء تصرفه، وعيّن محمد راغب باشا مكانه، فكان عوناً له، وأهلاً للإصلاح، وكان الخليفة يسير مُتنكّراً في الليل، ويطّلع على أحوال الرعية، ويعمل على الإصلاح. وقد توفي عام ١١٧١.

الخلفَاء في عصر الضعف



الخلفاء في عصر الضعف



الفصل السادس

عصر الانحطاط والتراجع

لقد بدأ عصر الانحطاط والتراجع بعد الضعف الكبير الذي آلت إليه الدولة العثمانية، وبعد النهضة التي تمت في الدول الأوروبية، وبعد اتفاق الدول النصرانية كلها مع خلافها بعضها مع بعض على الدولة العثمانية والتفاهم على حربها وتقسيمها، تحرّكها في ذلك الروح الصليبية، وقد عُرف هذا الاتفاق ضد المسلمين في الكتب الأوربية باسم المسألة الشرقية أي مشكلة الدولة الواقعة في الشرق من أوربا. وامتاز هذا العصر ببعض السمات الرئيسية لعلّ من أهمها:

١ ـ التحالف النصراني الضمني، وإن كان يظهر أحياناً بحقدٍ صليبيٍ واضحٍ، ويختفي أحياناً نتيجة الخلافات القائمة بين الدول الأوربية بسبب مصالحها الخاصة، والمنافسة فيما بينها على التقسيم، ولو كان التفاهم قائماً تماماً، وليست هناك من مصالح متباينة لانتهت الدولة العثمانية قبل الوقت الذي انتهت فيه ـ والله أعلم ـ.

٢ ـ ظهور عدد من الخلفاء الأقوياء، ولكن لم تُفد قوتهم كثيراً بسبب ضعف دولتهم، واجتماع كلمة أوربا عليهم، وتحريضها في الداخل عليهم، بوساطة رعاياها النصارى، والامتيازات التي حصلت عليها، وأصحاب المصالح والنفوذ والطموحات الذين اتصلت بهم.

٣ ـ اختفاء فكرة قتل الإخوة، وإن كانت قد انتهت منذ عام ١٠٠٣ عندما تولّى الحكم محمد الثالث الذي أمر بقتل إخوته التسعة عشر ودفنهم

مع أبيهم، فكانت أكبر مجزرةٍ وآخرها، وكانت الخاتمة ـ ولله الحمد ـ. ولكن خليفته أحمد الأول الذي تولّى الأمر عام ١٠١٢ قد سار على خطة الحجز، إذ حجز أخاه مصطفى الأول ـ وولي عهده ـ في قصره طيلة أيامه، ثم آلت إليه السلطة عام ١٠٢٦، فكان جاهلاً بأمور الدولة فقد عُزل عن الحكم مرتين، وأصبح عزل الإخوة قائماً بدل القتل.

٤ ـ بقي أثر من سيطرة العقلية العسكرية وهو أن قائد الجيش إذا فشل في المعركة، أو لم يُحرز النصر، ثار عليه من ثار، وطالبوا بقتله وغالباً ما يكون مصيره القتل. بحجة أن يكون عبرةً لمن يأتي بعده، وحتى يعلم القائد الجديد أن مصيره القتل إن تراجع، فالإقدام والثبات حتى الموت أفضل من الهزيمة ويعقبها القتل أيضاً. وفي هذا تعسف وظلم، فإن على القائد أن يسعى، ويبذل الجهد، ويثبت في الميدان، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء. فقد هُزم المسلمون مرات ومرات، ولم يُفكر أحد بما يحدث أيام العثمانيين. كما كان الجنود من الإنكشارية يثورون في وجه الخليفة ويطلبون عزله، ويتمّ لهم، أو يطلبون قتل الصدر الأعظم فيقتل إرضاءً لهم.

٥ ـ تمّ القضاء على الإنكشارية في عهد السلطان محمود الثاني، وبذلك انتهت تعدّياتهم على الأهالي، وقتلهم لرجالات الصدارة العظمى، والقادة، وعزل الخلفاء. وأخذت الجيوش النظامية تحلّ محلّهم.

٦ ـ ظهرت الهزيمة النفسية بوضوح، وأصبح تقليد أوربا والسير على منهجها أمراً محموداً يُسعى إليه، ويُفتخر به، وغدا استقدام الضباط للتدريب، وإرسال البعثات للإفادة أمراً قائماً، وكان مما ظهر الفكرة القومية التي مزّقت الدولة ثم قضت عليها نهائياً.

٧ ـ زاد الأثر اليهودي سواء أكان يهود الدونمة الذين اختفوا وسط المجتمع بأسماء إسلامية أم اليهود الذين على دينهم، وقد بذلوا جهدهم وأموالهم، واستخدموا النصارى للوصول إلى أهدافهم وتحقيق غايتهم، وقد أزاحوا من وقف أمامهم وفي مقدمتهم الخليفة عبد الحميد الثاني، وفي النهاية قضوا على الخلافة.

٨ ـ كانت مدة الخلفاء طويلة نسبياً، وقد توالى من الخلفاء في هذا العصر الممتد من عام (١١٧١ ـ ١٣٢٧) ـ أي أكثر من قرن ونصف ـ تسعة خلفاء هم:

١ ـ مصطفى الثالث:

هو ابن أحمد الثالث، ولد عام ١١٢٩، وتولى بعد ابن عمه عثمان الثالث عام ١١٧١، فكان عمره اثنتين وأربعين سنة، وكان الصدر الأعظم محمد راغب باشا عضده إذ كان مثالاً للمصلحين، ولكنه توفي عام ١١٧٦.

أرادت الدولة العثمانية أن تُؤدّب روسيا قبل أن يستفحل أمرها، فقد اعتدى القوزاق الذين يتبعون روسيا على الدولة العثمانية في بعض نقاط الحدود، ورأت الدولة أن تُعلن الحرب على روسيا، وبدأت بإغارة خان القرم كريم كراي على بعض الأراضي الروسية فخرّب عدداً من الضياع، وحمل معه كثيراً من الأسرى الروس، وذلك عام ١١٨٢.

وسار أيضاً الصدر الأعظم لفكّ الحصار عن بعض المواقع التي يُطوّقها الروس، ولكنه فشل، فكان جزاؤه القتل، وانطلق خلَفه من بعده فهُزم أيضاً، وهو يجتاز بجيشه نهر الدينستر إذ جاءت في أثناء ذلك موجة من الفيضان فغرق عدد كبير من الجند والمراكب، ورجع من كان على الضفة اليُمنى، وقُتل من كان على الضفة اليسرى وذلك عام ١١٨٣. واحتل الروس بعدها إقليمي الأفلاق والبغدان.

وبدأ الروس يثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس الذين يعيشون في الدولة العثمانية فقد أثاروا نصارى شبه جزيرة الموره فقاموا بثورةٍ، ودعموهم بأسطولٍ جاء عن طريق الالتفاف حول أوربا، ولكنه هُزم غير أن بعض المراكب الفارة أغارت على الأسطول العثماني وأحرقته، وفكر القائد الروسي في الهجوم على إستانبول غير أنه لم ينجح، كما أن ثورة الموره قد أُطفئت.

وهاجم الروس مدينة طرابزون ولكنهم لم ينجحوا في دخولها، غير أن روسيا قد نجحت في اقتحام بلاد القرم وفصلها عن الدولة العثمانية، وجعلها تحت حماية روسيا، وتعيين (جاهين كراي) خاناً عليها من قبل الإمبراطورة، وذلك عام ١١٨٥، ثم جرت مفاوضات الصلح بوساطة النمسا غير أن روسيا كانت تطلب استقلال تتار القرم، وحرية الملاحة للأسطول الروسي في البحر الأسود والبحار الأخرى التي تُشرف عليها الدولة العثمانية، وحق حماية روسيا للنصارى الأرثوذكس الذين هم في رعاية الدولة العثمانية ففشلت لذلك المفاوضات وعادت الحرب، وانتصر العثمانيون.

وفي الوقت الذي كان الروس يُثيرون النصارى الروم كانوا يُحرّضون أصحاب المصالح والأطماع من الولاة العثمانيين والمتنفذين، وقد استطاع قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط أن يتصل بالرسل مع علي بك والي مصر الذي كان يتصرّف فيها تصرّف المستقل وأن يُشجّعه على محاربة العثمانيين لمدّ نفوذه في بلاد الشام، وأن يمدّه بالذخائر، وذلك من أجل إحداث الفوضى في داخل الدولة العثمانية وطعنها من الخلف، وإمكانية قهرها في الجبهة الروسية، واستجاب علي بك لهذه الآراء وأصغى إليها، أو حرّكت ما كان يجيش في نفسه فسار بجيشه نحو بلاد الشام واحتل غزة، ونابلس، والقدس، ويافا، ودمشق، وبدأ بالتوجه نحو الشمال ليداهم بلاد الأناضول ويتقدّم عندها الروس من جهة الشمال، غير أن محمداً أبا الذهب نائبه في القاهرة قد ثار ضده فاضطر إلى أن يعود إلى مصر، ويقاتل محمداً أبا الذهب لكنه هُزم أمامه فالتجأ إلى ضاهر العمر الذي كان أحد جباة الأموال وقُطّاع الطرق في الوقت نفسه، وتمكّن أن يجعل حوله قوةً تستفيد من اعتداءاتها، ثم استطاع أن يُسيطر على صفد مكان عمله، وأن ينطلق منها إلى الجهات الثانية فدخل عكا وتسلّم ولايتها، واضطر السلطان أن يعترف بذلك لانشغاله بالحروب مع الروس.

وعندما التجأ علي بك إلى ضاهر العمر اتفقا على محاربة العثمانيين،

وقبلا دعم الروس وخدمتهم، وسارا معاً إلى مدينة صيدا لاحتلالها، والتقيا بالعثمانيين خارجها وانتصرا على جيوش الدولة، وكان الأسطول الروسي في البحر المتوسط يتحرّك مع سيرهما ويدعمهما، ويضرب القوات العثمانية، والمدن الساحلية فقد ألقى قذائفه على مدينة بيروت وخرّب جزءاً منها.

بعد هذا النجاح الذي حققاه، رجع علي بك إلى مصر ليتخلّص من محمد أبي الذهب، ويحمي ظهره قبل أن ينطلق وحليفه ضاهر العمر باتجاه الأناضول. وسار نحو مصر وتحرّك معه أربعمائة جندي روسي وذلك في مطلع عام ١١٨٧، والتقى الطرفان، وانتصر محمد أبو الذهب، ووقع علي بك ومعه أربعة من كبار ضباط الروس أسرى بيد محمد أبي الذهب، وقُتل كل من كان معهم، وتوفي علي بك متأثراً بجراحه، وأرسل رأسه والضباط الروس إلى الوالي العثماني خليل باشا الذي قام بدوره فأرسلهم إلى إستانبول.

وتوفي الخليفة عام ١١٨٧، وتولى مكانه أخوه عبد الحميد الأول.

٢ ـ عبد الحميد الأول:

ولد عام ١١٣٧، وبقي محجوزاً في قصره مدة حكم أخيه مصطفى الثالث، وتولى الحكم بعد وفاته عام ١١٨٧، وكانت روسيا تستعدّ للأخذ بالثأر، فأرسلت قوةً كبيرةً باتجاه (فارنا) المدينة البلغارية على البحر الأسود، وقد انتصرت على العثمانيين، وتابعت إلى معسكرهم الذي يقوده الصدر الأعظم في الغرب من (فارنا)، فطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتمّ ذلك في مدينة (قينارجة) في بلغاريا عام ١١٨٧ اعترفت فيها الدولة العثمانية باستقلال تتار القرم، وإقليم بسارابيا[١]، ومنطقة قوبان[٢] على أن

(١) بسارابيا: إقليم في رومانيا اليوم في الجزء الشمالي منها، ويمتد حتى سواحل البحر الأسود شمال مصب نهر الدانوب.

(٢) قوبان: إقليم في شمال غربي القفقاس، نسبة إلى نهر قوبان الذي يجري فيه، وأكثر سكانه من الأديغة (الشركس).

تكون الدولة العثمانية المرجع لسكان تلك المناطق في الشؤون الدينية. وتُعطى للسفن الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود، والمتوسط، وتدفع الدولة العثمانية لروسيا غرامةً حربيةً مقدارها خمسة عشر ألف كيس على ثلاثة أقساط في مطلع كل عامٍ نصراني، ويكون لروسيا حق حماية النصارى الأرثوذكس من رعايا الدولة العثمانية، وتبني كنيسةً في إستانبول.

وبذا حققت روسيا ما تُريد، ولم يبق أمامها سوى الحرب الدائمة مع العثمانيين، ورغم المعاهدة بقيت روسيا تستعدّ وتحرص لضمّ أجزاء إليها من الدولة العثمانية. فقد أشعلت الفتن في بلاد القرم حتى عزل السكان الخان دولت كراي الذي انتخب بمقتضى اتفاقية (قينارجة) واستبدلوه بجاهين كراي المؤيد من قبل روسيا، وانقسم الناس إلى قسمين، وكادت الفتنة تشتعل فأسرعت روسيا واحتلت بلاد القرم، وهبّ الناس في الدولة العثمانية التي كادت تُعلن الحرب من جديد على روسيا لولا نصائح فرنسا التي أظهرت للعثمانيين استعداد الروس وقوتهم، ففضّلت الدولة العثمانية السكوت والاعتراف بالأمر الواقع، وخاصةً أن فرنسا ذكرت أن روسيا والنمسا قد اتفقتا على حرب الدولة العثمانية، واستيلاء روسيا على الأفلاق والبغدان وبسارابيا وإقامة دولةٍ أرثوذكسية في هذه الأقاليم تكون فاصلاً بين روسيا والعثمانيين، وأن تحتل النمسا الصرب والبوسنة والهرسك وساحل دالماسيا، وتُعوض البندقية بأجزاء في اليونان، والمورة، وكريت، وقبرص. وإذا احتل المتحالفون إستانبول أعادوا دولة بيزنطة القديمة.

وكان همّ روسيا إشعال الحرب من جديد لتحقيق المزيد من الانتصارات لذا كانت تتحرّش بالعثمانيين وتُثيرهم، وقامت بتحصين ميناء سيباستيبول، وأنشأت السفن الكثيرة في البحر الأسود، وأدخلت الكرج في حمايتها، وبدأت جواسيسها تكثر في أقاليم الأفلاق، والبغدان، وبلاد اليونان لتُثير الدولة وتدفعها إلى القيام بالحرب، ثم قامت إمبراطورة روسيا القيصرة كاترينا الثانية بزيارة إلى بلاد القرم فاستُقبلت بالحفاوة، وقد كتُب

لها على أقواس النصر الطريق إلى بيزنطة[1]، فعلمت الدولة العثمانية أن روسيا تريد الحرب لذا أرادت أن تبدأ هي بالحرب قبل أن يستعدّ خصومها، ولإيجاد سبب لذلك فقد طلبت من السفير الروسي إبلاغ حكومته عدة طلبات هي:

١ ـ تسليم حاكم الأفلاق الذي أعلن العصيان على الدولة والتجأ إلى روسيا.

٢ ـ التنازل عن حماية بلاد الكرج لأنها تحت سيادة الدولة العثمانية.

٣ ـ عزل القناصل الذين يُثيرون السكان، وقبول قناصل عثمانيين في موانئ البحر الأسود.

٤ ـ من حق الدولة العثمانية تفتيش المراكب الروسية التجارية خوفاً من نقلها الأسلحة.

وقد رفضت روسيا هذه الطلبات فأعلنت الدولة العثمانية الحرب عليها عام ١٢٠٠، وطلب القائد الروسي من الإمبراطورة الانسحاب من بلاد القرم نتيجة عدم الاستعداد، ولكنها رفضت ذلك، وأمرته بالتقدّم، فامتثل، وتمكّن أن يحتل ميناء (أوزي) عام ١٢٠٣، وأعلنت النمسا الحرب على الدولة

---

(١) من أهم أحلام روسيا سواء القيصرية أم الشيوعية الاستيلاء على إستانبول وإعادة بيزنطة الدولة الرومانية الشرقية حامية مذهب الأرثوذكس، وإن موسكو وريثة القسطنطينية الموقتة. وتدعو إلى هذا الحلم بفكرة مستترة هي الوصول إلى المياه الحرة. وأهم أعداء الروس هو الإسلام إذ أن أهله قد احتلوا روسيا، وهم التتار، وفتحوا القسطنطينية وهم العثمانيون، والعثمانيون والتتار شعب واحد، وصاحب عقيدة واحدة هي الإسلام. ويحاربون التتار باسم التوسع نحو الشرق، تحت شعار التوسع في المناطق المخلخلة سكانياً، على حين أن مناطقهم مزدحمة بالسكان، وكل تقدّم لهم في الشرق إنما هو على حساب المسلمين. وقامت الشيوعية في بلادهم على حرب الأديان، وإن كانت تقصد الإسلام فليست اليهودية، والنصرانية، أو غيرهما على قدم المساواة في الحرب، ليس هناك من حرب لليهود فهم أصحاب نفوذ، ولا للنصارى الأرثوذكس إذ هم قاعدة الوحدة الوطنية التي تقضي أن يكون جميع السكان نصارى أرثوذكس كي تحقق الوحدة الوطنية، وإنما الحرب للإسلام.

العثمانية تضامناً مع الروس، وحاول جوزيف الثاني ابن الإمبراطورة ماريا تيريزا احتلال بلغراد لكنه فشل، وهُزم أمام العثمانيين الذين لاحقوه.

أما ما حدث في بلاد الشام أيام الخليفة عبد الحميد الأول، فقد أمر الخليفة والي مصر محمد أبا الذهب ملاحقة ضاهر العمر فحاصره في عكا، ففرّ إلى جبال صفد، ثم قتل عام ١١٨٨، وتخلّصت منه الدولة.

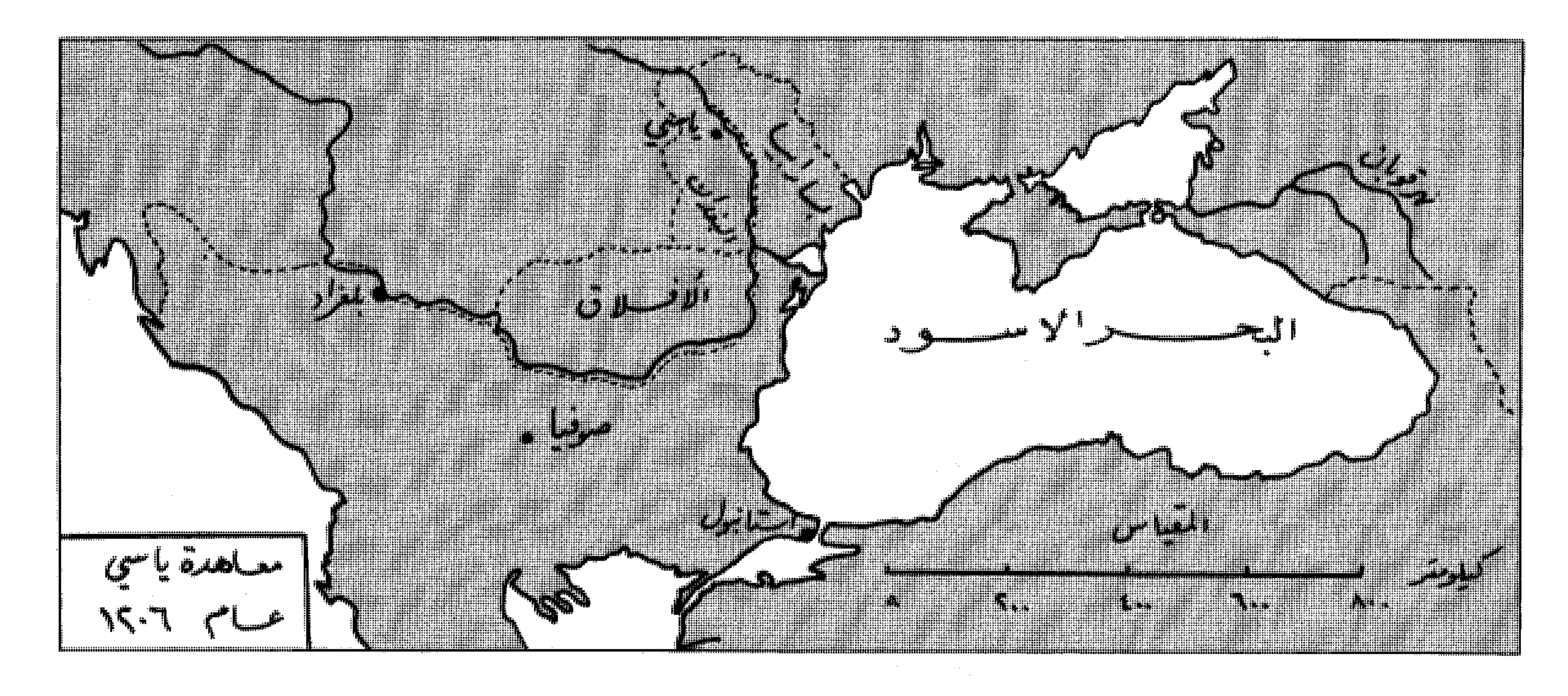
وتوفي عبد الحميد الأول عام ١٢٠٣، وخلفه ابن أخيه، وهو سليم الثالث بن مصطفى الثالث.

٣ ـ سليم الثالث:

وهو ابن الخليفة مصطفى الثالث أول خلفاء هذا العهد، عهد الانحطاط والتراجع، ولد سليم الثالث عام ١١٧٥، تولّى السلطة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول عام ١٢٠٣، وكانت المعارك الحربية دائرة، فأعطى وقته وجهده للقتال، غير أن الجند قد ضعفوا، واتحدت الجيوش الروسية والنمساوية فتمكّنت روسيا من الاستيلاء على الأفلاق، والبغدان، وبساربيا، واستطاعت النمسا احتلال بلاد الصرب، ودخلت بلغراد.

غير أن اتفاق الروس والنمساويين لم يطل إذ انصرف إمبراطور النمسا ليوبولد الثاني الذي خلف جوزيف الثاني في هذا الوقت إلى الثورة الفرنسية وما حدث نتيجة ذلك من قتل الملك لويس السادس عشر ملك فرنسا، وخوف إمبراطور النمسا من امتداد الثورة نحو بلاده، وقد حرص على مصالحة الدولة العثمانية لذلك، ونتيجة الصلح أعيد للدولة بلاد الصرب وبلغراد. وكان هذا لا شك في صالح العثمانيين، وتمّ عام ١٢٠٥.

أما روسيا فقد استمرت بالحرب، واستولت على بعض المدن فارتكبت من الجرائم ما لا يوصف. ثم توسطت إنكلترا، وهولندا، وبروسيا للصلح بين الطرفين خوفاً على مصالحهم فكانت معاهدة (ياسي) عام ١٢٠٦، أخذت روسيا بموجبها بلاد القرم نهائياً، وبسارابيا، وجزءاً من بلاد الشراكسة، والمنطقة الواقعة بين نهري (بوغ) و(دينستر)، وأصبح هذا النهر الأخير فاصلاً بين الدولتين، كما تنازلت الدولة العثمانية عن مدينة (أوزي).


معاهدة ياسي
عام ١٢٠٦
ياسي
بلغراد
الافلاق
صوفيا
استانبول
البحر الاسود
المقياس
كيلومتر
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
٨٠٠

مصور رقم [١٨]

وبعد هدوء القتال على الجبهات انصرف الخليفة للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجند النظامية للتخلّص من الإنكشارية الذين غدوا سبب كل فتنة، واتجه نحو تقليد أوربا التي تجاوزتهم كثيراً، فأصبح إنشاء السفن على طريقة إنشاء السفن الأوربية وخاصةً فرنسا، وصبّ المدافع على أيدي رجال من السويد، وترجم كتب الرياضيات والفن العسكري.

وفي عام ١٢١٣ دخل نابليون بونابرت مصر، وانتصر على المماليك، فبدأت الدولة العثمانية تستعد لقتال الفرنسيين وإخراجهم من مصر. وكانت روسيا والنمسا مشغولتين بالثورة الفرنسية وما يمكن أن تجرّه عليهما، وقد عرضت إنكلترا على الدولة العثمانية مساعدتها خوفاً على مصالحها في الهند، فوافقت على المساعدة، وكذلك عرضت روسيا دعمها حربياً فوافقت، وانتقلت السفن الروسية من البحر الأسود إلى البحر المتوسط، وعزم نابليون على ضرب القوات العثمانية قبل أن تستكمل استعداداتها، وقرر أن يحتل بلاد الشام، فسار إليها، وفشل في اقتحام عكا لقوة حصونها، وتشبُث واليها أحمد الجزار، ودعم الأسطول الإنكليزي من جهة البحر، غير أنه انتصر على القوة العثمانية عند جبل طابور قرب الناصرة. ثم تراجع عن عكا، وعاد إلى مصر، وهرب إلى فرنسا، وقُتل خليفته كليبر عام ١٢١٥ على يد سليمان الحلبي، وقامت الثورات في وجه الفرنسيين، وكانت انطلاقاتها من الجامع الأزهر، ونزل العثمانيون ومعهم قوة إنكليزية إلى أرض مصر، ووصلوا إلى القاهرة، واضطر الفرنسيون أخيراً إلى الانسحاب من مصر بعد اتفاق العريش عام ١٢١٦.

وعاد نابليون بونابرت يفاوض الدولة العثمانية لتحسين العلاقات بين الدولتين، وإعادة التفاهم بينهما وتمّ ذلك عام ١٢١٦ على أساس إخلاء فرنسا لمصر، وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الدولة العثمانية، كما اتفقت فرنسا وإنكلترا بمصالحة أميان عام ١٢١٧ خرجت إنكلترا بموجبها من مصر، وأصبح لفرنسا حق الملاحة في البحر الأسود أسوة بروسيا، وأُقيمت في اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الدولة العثمانية، وذلك بالاتفاق

مع روسيا، وأُعيد لفرنسا ما صودر لها من أملاك في الدولة العثمانية وعادت لها امتيازاتها.

وبدأ في الدولة العثمانية تنظيم الفرق العسكرية النظامية، وعمل الإنكشارية على إلغائها، وفصل الخليفة المدفعية والبحرية عن الإنكشارية.

وذكرنا أن العلاقات قد تحسّنت بين الدولة العثمانية وفرنسا، وأرسل نابليون بونابرت مندوباً له إلى إستانبول لتأكيد ذلك. وعزل الخليفة أميري الأفلاق والبغدان من منصبيهما، وكانا مؤيدين من قبل روسيا فثارت ثائرة روسيا، وأرسلت جيوشها لاحتلال الإقليمين دون إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وتضامنت إنكلترا مع روسيا، وأرسلت قطعات بحريةٍ إلى مضيق الدردنيل، وطلبت من الخليفة أن يقوم حلف بين إنكلترا والدولة العثمانية، وأن تسلّم الدولة الأسطول وقلاع مضيق الدردنيل إلى إنكلترا، وأن تتنازل عن إقليمي الأفلاق والبغدان لروسيا، وأن تُعلن الحرب على فرنسا، رفضت الدولة العثمانية اقتراحات إنكلترا فاجتازت القطعات الحربية مضيق الدردنيل بسهولة وساد الأهالي الخوف، ورأى الخليفة أن يقبل طلبات إنكلترا غير أن مندوب فرنسا الذي أُبلغ بالخروج من إستانبول قابل الخليفة وعرض عليه دعم فرنسا، واستقدام الأسطول الفرنسي، وعدم التنازل لإنكلترا، وخطر ذلك، ووافق الخليفة وبدأ الاستعداد لتحصين العاصمة ومضيق الدردنيل ودعم الفرنسيون ذلك، واضطرت القطعات البحرية الإنكليزية للخروج من الدردنيل خوفاً من الحصار في بحر مرمرة، غير أن هذه الهزيمة قد جعلت القائد الإنكليزي يريد أن يمحو ما فشل فيه فأرسل حملةً بقيادة فريزر إلى الإسكندرية، واحتلها في مطلع عام ١٢٢٢، وأرسل فرقةً إلى ثغر رشيد لكنها هُزمت، وأعاد الكرة بعد أشهر فكان مصيره كالمرة السابقة، وجاء محمد علي للدفاع عنها، واضطر الإنكليز للرحيل عن مصر بعد دخولهم بستة أشهر.

وجاء محمد علي إلى مصر مع الجنود الذين جاؤوا لإخراج الفرنسيين منها، واستطاع بعد مناورات مع المماليك، والولاة، والعثمانيين، والأهالي

أن يتوصل إلى ولاية مصر في ١٠ ربيع الثاني من عام ١٢٢٠. وعندما حاول الإنكليز لدى الدولة العثمانية عزله أو نقله تمسّك به العلماء والقادة، فصدر أمر بتثبيته عام ١٢٢١، ثم ضرب العلماء بعضهم ببعض، وتخلّص من المماليك في حادثة القلعة عام ١٢٢٦، وصفا له الجو، وتفرّد بالحكم.

وثار الجنود غير النظاميين، وأيدتهم الإنكشارية فقتلوا المؤيدين للنظام العسكري الجديد، واضطر الخليفة أن يصدر أمراً بإلغاء النظام العسكري الجديد، ولكن لم يقبل الثائرون بهذا، بل قرروا عزل الخليفة، فنودي بعزله في ٢١ ربيع الثاني عام ١٢٢٢، وبقي معزولاً مدة عام وشهر تقريباً، وتوفي بعدها.

٤ ـ مصطفى الرابع:

هو ابن عبد الحميد الأول، ولد عام ١١٩٣، تولّى بعد عزل ابن عمه سليم الثالث، وأصبح يتحرك بأيدي قادة الثورة، إذ عيّن زعيم الحركة (قباقجي أوغلي) حاكماً لقلاع البوسفور. وانتصر أعداء النظام العسكري الجديد حتى أن الإنكشارية قتلوا الصدر الأعظم القائد للجيوش التي تُقاتل روسيا. وكانت روسيا آنذاك في حربٍ مع نابليون وقد هُزمت جيوشها أمامه. إلا أن الصلح قد تمّ بين فرنسا وروسيا، وتوسّطت فرنسا بين الدولة العثمانية وروسيا في إنهاء الحرب بينهما على أن تتخلّى روسيا عن الأفلاق والبغدان دون أن تدخلهما جيوش الدولة العثمانية، فإن رفضت الدولة العثمانية اتفقت فرنسا وروسيا وأرضتا النمسا بسلخ الولايات العثمانية في أوربا وتقسيمها فيما بينها. ووافق الطرفان على مقترحات نابليون ولكن لم تتخل روسيا عن الأفلاق والبغدان، ومع ذلك توقّفت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا مدة سنتين اثنتين.

أما في الداخل فقد اختلف زعماء الحركة التي أطاحت بالخليفة سليم الثالث، وقُتل (قباقجي أوغلي)، وطلب من تسلّم الحركة أن يُعاد الخليفة سليم الثالث، إلا أنه كان قد توفي يومذاك. غير أن الخليفة مصطفى قد

قتل هذا الزعيم وأعلم جنده أن سليم الثالث قد توفي، فنادوا بعزله وحجزه مكان سليم الثالث، وأُقيم بعده أخوه محمود الثاني عام ١٢٢٣.

٥ ـ محمود الثاني:

ولد عام ١١٩٩، وتسلّم الخلافة وعمره أربع وعشرون سنة، فقلّد مصطفى البيرقدار منصب الصدارة العظمى، وطلب منه إصلاح نظام الإنكشارية فاعترضوا عليه، ووقع الخلاف، وأرادوا إعادة الخليفة مصطفى الرابع المعزول، فقُتل، وأُلقيت جثته إليهم، وهم يحاصرون الصدر الأعظم في قصره الذي أحرقوه وهو في داخله. واصطدم أنصاره بالإنكشارية، وكادوا أن يُحرزوا النصر عليهم ويُبيدوهم بموافقة الخليفة لولا أنهم أضرموا النار في المدينة، فاضطر الخليفة إلى إمهالهم، واستجاب لطلباتهم آنياً.

عقد محمود الثاني صلحاً مع إنكلترا عام ١٢٢٤. وحاول أيضاً مع روسيا ولكن لم يتمّ الاتفاق، واشتعلت نار الحرب، وهُزم العثمانيون بقيادة ضياء يوسف باشا الصدر الأعظم، واستولى الروس على بعض المواقع، وعُزل الصدر الأعظم وتولّى مكانه أحمد باشا الذي انتصر على الروس، وأجلاهم عن المواقع التي دخلوها، ثم عاودوا الكرة فانتصروا. وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعُقدت بين الطرفين معاهدة بخارست التي نصّت على بقاء الأفلاق، والبغدان، وبلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية، وبسارابيا لروسيا. وهذا ما فسح المجال لروسيا أن تسحب جيوشها من الجبهة العثمانية وتزجّ بها في مقاومة نابليون بونابرت الذي جاءها غازياً، ولما انتصرت عليه عدّ هذا خيانةً من الدولة العثمانية له.

ولما علم الصربيون بمعاهدة بخارست، وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية قاموا بالثورة غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفرّ زعماء الحركة إلى النمسا لكن أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيين، وبقي يعمل سرّاً ضدهم حتى إذا تشبّع الناس بما يُثيره فيهم من روح الثورة

أعلن العصيان عام ١٢٣٠، وبعد معارك دامت سنتين بينه وبين العثمانيين وكانت سجالاً بين الطرفين وافق على الخضوع لسلطان الدولة العثمانية دون التدخل في شؤون الصرب الداخلية، وعلى أن تبقى وظيفة الوالي للعثمانيين الذين يسيطرون على القلاع والحصون، وذلك عام ١٢٣٢، وتمكّن من قتل قره جورج الذي كان قد فرّ إلى روسيا، وعاد إلى البلاد مختفياً، وأرسل رأسه إلى إستانبول إشارةً إلى الطاعة في حين أنه كان سيّد البلاد، ويتّصرف دون مشورة الوالي، وكأنه ملك متوج.

القتال في جزيرة العرب:

مع التخلّف الذي آلت إليه الدولة العثمانية، والنهضة التي بدأت تظهر في أوربا، ومع الهزيمة النفسية التي وجدت في أجزاء الدولة العثمانية كلها بل في الأمصار الإسلامية جميعها كان لا بدّ من أن ينشأ اتجاهان في بلاد المسلمين، أحدهما يرى أن النهوض والقوة لا يتمّان إلا بتقليد أوربا والسير على خطاها شبراً بشبر، وقد استطاع أحد أصحاب هذا الرأي من السيطرة على مصر، واستلام ولايتها، والسير في هذا الاتجاه، أو كما يعتقد، إذ بدأ يرسل البعثات إلى أوربا وخاصةً إلى فرنسا، وإن أوربا عامةً تُؤيّد هذا الاتجاه وتُشجّعه حيث ترى فيه امتداداً لأفكارها خارج نطاق دولها، وبُعداً عن عقيدة المسلمين التي هي سبب قوتهم ودوام عزّهم، فإذا أبعدت أهلها عنها فإنما تكون قد حصلت على أكبر غنم، إذ تُضعف المسلمين دون خسارة شيء، ومع حمل المسلمين لأفكار أورّبا فإنهم مع الزمن يذوبون في مجتمعها، وينصهرون في بوتقتها، ويتعلّمون لغتها، ويتركون لغتهم فيزيدون بُعداً عن دينهم إذ أن المصدر الرئيسي لهم وهو القرآن الكريم إنما هو باللغة العربية فإذا جهلوه مع تعلّم لغات أوربا زاد ابتعادهم عن دينهم، لذا كانت أوربا عامةً مسرورةً من محمد علي وتُثني عليه في كتبها، وهذا ما أخذناه عنها أو من جملة ما أخذنا.

أما أصحاب الاتجاه الثاني فيرون أن التخلّف القائم في بلادنا إنما

يعود إلى جهلنا بأمور ديننا الذي يحثّنا على العلم، ويدعونا إلى التفكير، ويُبعدنا عن الخرافات، ويُحرّرنا من الأوهام، ويأمرنا بالاستعداد للعدو بكل إمكاناتنا وطاقاتنا بمختلف الاستعدادات وأنواع القوة، ويُحرّم علينا الظلم، ويرون أن ما هو قائم في بلادنا، وما اعتاد عليه الناس، ويفعلونه أحياناً باسم الدين، وهو بالأصل محرّم في الإسلام، ومرفوض، وقد بدأ بعض أصحاب هذا الاتجاه من أهل العلم ينتقدون ما آل إليه المسلمون، ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي نشأ في وسط بلاد العرب، في نجد، حيث شاعت الخرافات كثيراً، ودخل على الدين ما ليس منه، ولم يأت الشيخ محمد بن عبد الوهاب بجديد، وإنما دعا إلى تطبيق الإسلام الصحيح، واتباع العقيدة بشكلٍ سليم، وظنّ بعض الناس الذين اعتادوا على الخرافات والبدع أن ما يقومون به إنما هو من الدين، لذا ظنّوا أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أحدث أمراً جديداً، فأنكروا عليه وقاوموه جهلاً وبغياً.

وليست هذه المقاومة من جهةٍ واحدةٍ أو من طرفٍ معينٍ بل من الجهات كلها ومن الأطراف كلها. أتت المقاومة من قبل المشايخ الذين يريدون أن يتمسّكوا بنفوذهم الذي يُعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ما هم عليه من البدع والخرافات ظانّين أنها من الدين. وأتت من الناس الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتى بجديد يخالف ما اعتادوا عليه، وهؤلاء وأولئك منتشرون بأنحاء الدولة العثمانية كلها بل في العالم الإسلامي أجمع، ويُشكّلون الأغلبية العظمى. وأتت المقاومة من أصحاب السلطة في الدولة الذين يريدون أن يُحافظوا على سلطانهم وملكهم، وأفتى لهم علماء السوء بسوء ما يدعو إليه الشيخ وفساد عقيدته، وهم على جهل أيضاً، وجاءت بشكل طبيعي من قِبَل الذين يريدون تقليد أوربا والسير على منهجها ويُمثّل هؤلاء محمد علي باشا والي مصر وصاحب السلطان، وصاحب القوة الكبيرة. ولا شك فإن أوربا التي بدأ نفوذها يقوى في الدولة العثمانية، ولها تأثير على محمد علي باشا والي

مصر، تُعادي هذا الاتجاه وترى فيه خطراً كبيراً عليها، حيث ترى فيه إحياء لفكرة الجهاد التي ترفع الروح المعنوية لدى المسلمين فإذا ما قُدّر لهذا الاتجاه الامتداد والتوسع فإن أوربا تضيع مع عودة الحياة إلى الدولة الإسلامية لذ يجب القضاء عليه، وعملت سرّاً كي تقضي الدولة العثمانية عليه، وتساعدها على ذلك بتوقيف القتال على جبهاتها في هذه المرحلة.

وكان ضعف الدولة الذي آلت إليه، وضعف جيوشها التي كانت تُواصل القتال على مختلف الجبهات يحول دون إمكانات إرسال قوةٍ تقضي على هذا الاتجاه في تلك الديار النائية، وسط القفار والمفازات، وكانت قوة محمد علي باشا واليها على مصر لا تزال فتيةً، ومُدرّبة لم تدخل المعارك بعد، لذا فقد أوكلت إليه مهمة القضاء على هذه الحركة عام ١٢٢٢.

وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد سار إلى الدرعية التي يحكمها محمد بن سعود بعد أن خذله قومه في بلده العيينة والمناطق التي انتقل إليها، واتفقا على العمل معاً عام ١١٥٧، وامتد نفوذهما كثيراً حتى شمل أكثر أجزاء الجزيرة، وقامت الدولة، وتولى عليها بعد محمد بن سعود ولده عبد العزيز، ثم سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد، وهو الذي بلغت الدولة في أيامه الأوج إذ وصلت إلى كربلاء في العراق، وإلى حوران في بلاد الشام، وخضعت له الجزيرة كاملةً باستثناء اليمن.

قبل والي مصر محمد علي باشا القيام بمهمة قتال الدولة السعودية، ورأى أن الانتقال إلى الجزيرة براً أمر صعب لسيطرة السعوديين على شمال الجزيرة وتركزهم على الطرق الرئيسية، وعمل على الانتقال بحراً، فبنى المراكب اللازمة له في بولاق، ونقلها إلى السويس على الجمال، وعليها نقل جنده إلى ميناء ينبع في غرب المدينة المنورة، وقبل أن يسافر جنده تخلّص من منافسيه المماليك إذ خشي أن ينقضّوا عليه بعد مسير عساكره، فأبادهم في حفلة دعاهم إليها في القلعة بمناسبة سفر ابنه على رأس الجيش المنطلق إلى الجزيرة يوم الجمعة ٥ صفر عام ١٢٢٦.

استطاع طوسون بن محمد علي باشا أن يدخل المدينة، وكتب إلى والده بذلك، ثم حوصر طوسون في الطائف وجاء محمد علي باشا بنفسه إلى مكة، وخلع الشريف غالب، وأقام مكانه يحيى بن سرور. وأحرز بعض الانتصارات وضعف مركز الدولة السعودية، وتوفي سعود الكبير، وخلفه ابنه عبد الله عام ١٢٢٩.

وسار طوسون باتجاه نجد، واحتلّ بلدة الرسّ في القصيم، وأرسل إليه عبد الله بن مسعود من يفاوضه للصلح والخضوع للدولة العثمانية، فوافق بعد سفر والده الذي لم يستطع أن يأخذ رأيه، وتمّ الصلح، وأرسل إلى والده بضرورة سفر عبد الله بن سعود إلى إستانبول، وإن لم يوافق يتابع طوسون سيره إلى الدرعية قاعدة الدولة السعودية.

ووصل خبر إلى طوسون مفاده أن تمرداً قام في القاهرة ضد والده، فترك جيشه في الجزيرة بإمرة أحد قادته، وسافر إلى القاهرة عام ١٢٣٠.

وهدأ الوضع في القاهرة فأرسل محمد علي باشا حملةً جديدةً إلى الجزيرة بقيادة أكبر أولاده وهو إبراهيم ومعه بعض المستشارين الفرنسيين، ووصل إلى الدرعية، وطلب عبد الله بن سعود الصلح في ٧ ذي القعدة عام ١٢٣٣، فتمّ بعد تسليم الدرعية، ووافق عبد الله على السفر إلى إستانبول عن طريق القاهرة، فوصل إلى القاهرة ١٧ محرم ١٢٣٤، وقابل هناك محمد علي، وسافر بعد يومين إلى إستانبول حيث قُتل بعد وصوله إليها بقليل، ولم يف السلطان بوعده. ورجع إبراهيم من الجزيرة في ٢١ صفر عام ١٢٣٥.

ثورة اليونان:

فُتن أهالي البلاد التي دخلها العثمانيون بالتقدّم الذي تمّ في أوربا، فأراد بعضهم السير على منهجها، ومن هؤلاء لا شك النصارى الذين يأتون في مقدمة المفتونين ناهيك عن المسلمين، وبدؤوا يرسلون أبناءهم إلى أوربا للتعلّم، وكان من أخطاء العثمانيين ترك أهالي البلاد التي يدخلونها على ما

هم عليه من العقائد، واللغة، والعادات ويكتفون بأخذ الخراج منهم، ومعنى ذلك أن تبقى الروابط بينهم وبين دول أوربا قوية، فأسس اليونانيون جمعيات سرية لهم في النمسا وروسيا وبدؤوا يعملون للانفصال عن العثمانيين لاختلاف الرابطة الأساسية بين الطرفين ألا وهي العقيدة. وكانت مراكز جمعية الأخوة أهم هذه الجمعيات في ڤيينا عاصمة النمسا، وفي أوديسا في روسيا على البحر الأسود ثم انتقل مركزها إلى كييف قاعدة أوكرانيا الروسية. وكثر أعضاء هذه الجمعية، واستغلّوا انشغال الدولة بقتال علي باشا، وبدؤوا بالحركة، وما أن قضى خورشيد باشا على علي باشا والي (يانية) حتى أعلنوا العصيان بتحريض من الروس بالدرجة الأولى. فكلّف خورشيد باشا بإخضاعهم فسار إليهم فانتصروا عليه، وشتّتوا جنده، وانتحر هو بالسمّ في نهاية عام ١٢٣٧.

كلّف الخليفة محمود الثاني محمد علي باشا والي مصر بإخضاع اليونان، وكان قد انتهى من فتح السودان. وأصدر أمراً بتعيين محمد علي باشا والياً على شبه جزيرة المورة من بلا اليونان، وجزيرة كريت، وهاتان المنطقتان مركز الثورة اليونانية، وهذا إضافةً إلى ما تحت يد محمد علي باشا من أراضٍ.

سارت جيوش محمد علي باشا بحراً من الإسكندرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا ومساعدة مستشاره سليمان الفرنساوي عام ١٢٣٩، إلى رودوس ومنها إلى جزيرة كريت، فاحتلها، وانطلق إلى شبه جزيرة المورة التي كانت الثورة قد ألهبت نارها شبه الجزيرة كلها، وسيطرت عليها سوى مينائين، فأنزل إبراهيم باشا جنوده بصعوبةٍ كبيرةٍ، حيث كانت أوربا كلها من خلف ثورة اليونان تحركها ضد المسلمين العثمانيين بدافعٍ صليبيٍّ، حيث تأسست جمعيات في أوربا باسم جمعيات محبي اليونان، وتُرسل هذه الجمعيات المال والسلاح لليونان لتُقاتل المسلمين، كما تطوّعت أعداد كبيرة من أعضاء هذه الجمعيات للقتال في بلاد اليونان، ومن هؤلاء واشنطون ابن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، والشاعر الإنكليزي اللورد بيرون وأمثالهم كثير... ووُضعت القصائد الحماسية.

استطاع إبراهيم باشا أن يُحرز النصر، وأن يفتح مدينة نافارين عام ١٢٤٠، وأن يدخل العثمانيون أثينا عام ١٢٤١ رغم دفاع القائد الإنكليزي البحري اللورد كوشران. ثم تدخلت الدول الأوربية باسم حماية اليونان ظاهراً وبحقدٍ صليبيٍّ واضحٍ، إذ كانت روسيا تدعم الحركة اليونانية علناً، وتأوي اللاجئين إليها، وقدَ رأت أن الفرصة مناسبة جداً لدخول إستانبول وإعادتها إلى عهدها السابق «القسطنطينية مركز الأرثوذكس». ووقفت إنكلترا بجانب روسيا، وعقد الصلح مع الدولة العثمانية، وهو معاهدة «آق كرمان» في ٢٨ صفر عام ١٢٤٢، وأهم ما جاء فيه: يحق لروسيا الملاحة في البحر الأسود، ومرور سفنها من المضائق العثمانية دون تفتيش، وتنتخب حكام مقاطعتي الأفلاق والبغدان، ولا يحقّ للدولة العثمانية عزل أحدهما أو كلاهما إلا بموافقة روسيا. وأن تصبح ولاية الصرب مستقلةً، وتحتفظ الدولة العثمانية بثلاث قلاع فيها فقط من بينها بلغراد، ووافقت كل من النمسا، وبروسيا، وفرنسا أيضاً على هذه المعاهدة، ورغم أنها عقدت بسبب الثورة في اليونان إلا أنها لم تذكر شيئاً عنها.

تجدّد القتال:

طلبت إنكلترا من الدولة العثمانية في ٨ رجب عام ١٢٤٢ أن تتوسّط الدول الأوربية النصرانية بين الدولة العثمانية وبين ما يتبعها، فرفضت الدولة العثمانية ذلك لأن هذا تدخّل صريح في شؤونها الداخلية، فكان هذا الرفض حجةً تذرّعت بها لإعلان الحرب مرةً أخرى، بعد أن أضعفت الدولة سياسياً، وخسرت مناطق من أملاكها في معاهدة آق كرمان، والطلب الإنكليزي ما كان إلا مبرراً أو إيجاد مبرر لإعادة القتال، واتفقت روسيا، وفرنسا، وانكلترا في ١١ ذي الحجة على إجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، على أن تدفع جزيةً سنويةً يتفق عليها الطرفان، وأُعطي الخليفة مدة شهر لإيقاف الأعمال العدوانية ضد اليونان، وإذا عجز عن ذلك أو رفض فإن الدول النصرانية تتخذ ما تراه مناسباً، ولم يعمل الخليفة أي عمل بهذا الخصوص، وبعد شهر أمرت الدول الثلاث روسيا، وفرنسا،

وإنكلترا أساطيلها بالتوجّه إلى سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم باشا التوقف عن القتال فكان جوابه طبيعياً بأنه يتلقّى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرهما، ومع ذلك توقّف عشرين يوماً عن القتال ريثما تصل إليه التعليمات من المسؤولين عنه، واجتمعت أساطيل الدول الأوربية في ميناء نافارين محيطةً القوات الأوربية، فدُمر الأسطول العثماني، وأكثر الأسطول المصري، وقُتل ما يزيد على ثلاثين ألف جندي مصري، واحتجّ الخليفة فلم ينفعه احتجاجه فأعلن أن القتال دينياً لا سياسياً في منشور أصدره للمواطنين ودعاهم فيه للدفاع عن عقيدتهم، وخصّ بذلك روسيا التي تأثّرت من ذلك، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ١١ شوال عام ١٢٤٣.

ولما رأى محمد علي باشا والي مصر ذلك أمر ولده بالانسحاب من اليونان بجنده، وترك قوةٍ بسيطةٍ في المدن التي لا تزال بيده حتى يتسلّمها العثمانيون. وكان الفرنسيون يحلّون محل الجنود المصريين المنسحبين. وعقدت الدول الثلاث مؤتمراً في لندن، ودُعيت إليه الدولة العثمانية فرفضت الحضور، وقرر المؤتمر إعلان استقلال اليونان، وحكمها من قبل حاكم نصرانيٍّ، تنتخبه هذه الدول، ويكون تحت حمايتها، وتدفع جزيةً سنويةً للدولة العثمانية مقدارها خمسمائة ألف قرش، ولكن الدولة رفضت هذا المؤتمر وقراراته التي تتعلق بالدولة ورعاياها، ولا يحق لأحدٍ أن يُصدر قرارات بشأنها أو تتعلق فيها. وانصرفت الدولة إلى قتال روسيا التي أعلنت الحرب عليها.

الحرب مع روسيا:

بعد أن أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية اجتازت جيوشها نهر (بروت) الفاصل بين الدولتين والذي يرفد نهر الدانوب قرب مصبه، واحتلت عاصمة إقليم البغدان (ياش) الواقعة على النهر، ثم دخلت (بخارست) عاصمة الأفلاق، وجعلت على الإقليمين حكّاماً من قبلها. ثم

اجتازت نهر الدانوب، واتجهت جيوشها لحصار مدينة (فارنا) الواقعة في بلغاريا على ساحل البحر الأسود، وحاصرتها براً وبحراً، وجاءت إليها الإمدادات براً وبحراً، ولكن سُلّمت في النهاية خيانةً بعدما يئس الروس من دخولها، وكان تسليمها في أول ربيع الثاني عام ١٢٤٤ على يد يوسف باشا أحد القادة العثمانيين والذي التجأ أيضاً إلى بلاد الروس. وكذلك احتلت روسيا مدينة (قارص) في شرق الأناضول، ثم تقدّمت من جهة الغرب، واحتلت مدينة (أدرنة)، وخافت فرنسا وإنكلترا من أن تحتلّ روسيا إستانبول فإن ذلك يُهدد مصالحهما الخاصة فسارعتا للوقوف في وجه روسيا، وبجهود مملكة بروسيا عُقدت معاهدة أدرنة عام ١٢٤٥ في منتصف شهر ربيع الأوّل، ومن أهم ما جاء فيها.

١ ـ إعادة الأفلاق، والبغدان، ودوبروجه، والبلغار، والبلقان، وقارص، وأرضروم إلى الدولة العثمانية.

٢ ـ يُعَد نهر (بروت) الحدّ الفاصل بين الدولتين.

٣ ـ تكون الملاحة في نهر الدانوب عند مصبه من حق الدولتين.

٤ ـ حرية الملاحة الروسية في البحر الأسود.

٥ ـ لا تُفتش السفن الروسية أثناء عبورها للمضائق العثمانية.

٦ ـ تعوّض الدولة العثمانية لروسيا مبالغ كمصاريف حرب.

٧ ـ يطلق سراح الأسرى الذين عند الدولتين.

٨ ـ تستقل بلاد الصرب، وتُعطى ما بقي من أجزائها تحت حكم الدولة العثمانية.

٩ ـ تُعاد الامتيازات القنصلية الروسية، ورعايا روسيا لهم المعاملة نفسها التي لرعايا الدول الأوربية الأخرى، وكذا الامتيازات.

إلغاء نظام الإنكشارية:

تضايق الخليفة محمود الثاني من الأوضاع التي آلت إليها الإنكشارية

والتصرّفات التي تقوم بها، وأعجب بالأنظمة العسكرية الحديثة، وسُرّ بالجنود المصرية في حرب اليونان لذا فقد قرر إلغاء نظام الإنكشارية، فدعا كبار الدولة، وكبار ضباط الإنكشارية إلى بيت المفتي، وتكلم الصدر الأعظم سليم محمد باشا، وشرح المواقف، فأبدى الجميع تأييدهم، إلا أن الإنكشارية قرروا العصيان، واستعدوا لذلك، واجتمعوا في ساحة (آت ميدان) فأحاطت بهم المدفعية وحصدتهم في يوم ٩ ذي القعدة عام ١٢٤٠، وفي اليوم التالي أصدر الخليفة قراراً بمنع هذا النظام، وبدأ بتنظيم جديدٍ للجنود على الطريقة الأوربية مستفيداً من المدربين الأجانب، وسار بالبلاد مجارياً أوربا، فتزيّا بالزي الغربي، وأدخل ذلك على الجيش والحياة المدنية معاً، واستبدال العمامة ووضع الطربوش.

احتلال فرنسا للجزائر:

كانت فرنسا تطمع باحتلال أجزاء من ساحل بلاد المغرب لتكون قواعد لها، وكانت تدّعي دائماً بتعدّي قراصنة بلاد المغرب على سفنها، وقد قررت الاحتلال فكانت تفتش عن ذريعةٍ لاختلافها مع والي الجزائر الباي حسين. ولحادثةٍ بسيطةٍ قررت الحرب، وأمر الملك الفرنسي بضرورة احتلال إقليم الجزائر وذلك في ١٣ شعبان عام ١٢٤٥، فأرسلت الحكومة الفرنسية جيشاً من ٢٨ ألف مقاتل، وأسطولاً يضم مائة سفينة، وثلاثة سفن تحمل ٢٧ ألف جندي بحري، وأُنزلت بالقرب من مدينة الجزائر. وبعد قتالٍ عنيفٍ دخلوا مدينة الجزائر، وقامت المقاومة بقيادة عبد القادر الجزائري حتى استسلم في ٢٤ رجب ١٢٦٣، وسيطرت فرنسا على الإقليم، وإن بقيت المقاومة عنيفةً، وتظهر بين الآونة والأخرى.

وكانت إنكلترا قد خشيت من هذا العمل الفرنسي خوفاً من منافستها، وطلبت من الدولة العثمانية أن تأمر واليها بالتساهل مع فرنسا وإرضائها كي يفشل مخططها، فأرسل مندوباً لذلك، لكن قبض عليه، وأخذ أسيراً حيث بقي في السجن، حتى أنهت فرنسا مهمتها.

دخول محمد علي باشا بلاد الشام:

كان محمد علي باشا يطمع في توسعة أملاكه، ويرغب في ضمّ بلاد الشام إليه، ولما فرّت أعداد من مصر إلى الشام، والتجؤوا إلى والي عكا عبد الله باشا الجزّار هرباً من الضرائب الفادحة التي فرضها عليهم محمد علي باشا في مصر، ورفض الجزار إعادتهم. لذا جهز محمد علي جيشاً برياً وآخر بحرياً بإمرة ابنه إبراهيم باشا وسيره إلى بلاد الشام، وسارت الحملة في ٢٦ جمادى الأولى عام ١٢٤٧ عن طريق البحر، أما البرية فقد سبقتها واحتلت غزة، ويافا، والقدس، ونابلس، والتقتا في حيفا، ثم سار إبراهيم وحاصر عكا براً وبحراً.

كلّف الخليفة عامله على حلب عثمان باشا بقتال إبراهيم باشا فسار إليه فترك إبراهيم حصار عكا لقوةٍ صغيرةٍ، وسار لملاقاة عثمان باشا، فالتقيا قرب حمص فهُزم عثمان باشا، ورجع القهقرى، وعاد إبراهيم باشا فشدّد الحصار على عكا ودخلها، وانطلق بعدها متجهاً نحو الشمال.

سيّر الخليفة لقتال إبراهيم باشا القائد حسين باشا الذي انهزمت مقدمته أمام المصريين الذين دخلوا حلب، وتراجع حسين باشا حتى تحصّن في ممر بيلان الذي يُعدّ الطريق الطبيعي من وإلى الأناضول. فانتصر المصريون، وجهز الخليفة جيشاً آخر بقيادة رشيد باشا الذي التقى مع إبراهيم باشا قرب قونية بعد أن اجتاز إبراهيم باشا جبال طوروس واحتل أضنه، وانتصر إبراهيم باشا، وأخذ القائد العثماني أسيراً، وأصبحت أبواب إستانبول مفتوحةً أمامه. وخشيت الدول الأوربية من سيطرة محمد علي باشا على الدولة العثمانية وإحيائها من جديد، ودبّ روح الحياة فيها، وكانت أكثر الدول خوفاً هي روسيا التي عرضت على الخليفة دعمه، وأرسلت ١٥ ألف جندي لحماية إستانبول، فخافت إنكلترا وفرنسا من التدخل الروسي، وطلبت من الخليفة ضرورة التفاهم مع محمد علي باشا.

معاهدة كوتاهية:

اتفقت الدولة العثمانية ومحمد علي باشا واليها على مصر في عام ١٢٤٨ في كوتاهية على النقاط التالية:

١ ـ أن ترجع جيوش محمد علي عن إقليم الأناضول إلى ما بعد جبال طوروس.

٢ ـ يُعطى محمد علي ولاية مصر مدة حياته.

٣ ـ يُعيّن محمد علي والياً من قبله على ولايات الشام الأربع (عكا، وطرابلس، ودمشق، وحلب) وعلى جزيرة كريت.

٤ ـ يُعين إبراهيم بن محمد علي والياً على إقليم أضنه، وهو الإقليم المتاخم للأناضول.

ويبدو أن السلطان وافق مرحلياً على هذه النقاط ليستعدّ للحرب ثانيةً، ويُنقذ موقفه من تعديات واليه على مصر. وكذلك كانت موافقة محمد علي مرحليةً خوفاً من تدخل الدول وإجباره على التراجع وهو يريد الانفصال التام. وفي هذه الأثناء أصدر الخليفة بعض التعليمات الإصلاحية وهو ما عرف باسم (خط شريف كولخانة).

معاهدة خونكار إسكله سي مع روسيا:

وأثناء وجود القوات الروسية في الدولة العثمانية للدفاع عن إستانبول عقدت معاهدة جانبية مع الدولة، تعهدت فيها بالدفاع عن الدولة ضد جيوش محمد علي أو أي معتدٍ، وبذلك أصبح بإمكانها التدخل في شؤون الدولة الخاصة. وكذلك فإن موافقة الخليفة على هذه المعاهدة كانت مرحليةً.

تجدد القتال في بلاد الشام:

حدثت ثورات في بلاد الشام ضد حكم إبراهيم باشا فأخضعها بكل شدة، فهدأت وفي النفس أشياء، وفاتح محمد علي وكلاء الدول الأوربية في مصر بأنه يريد ولاية مصر والشام وجزيرة العرب له ولأولاده من بعده، ونُقلت هذه الرغبات إلى الدولة العثمانية التي أرسلت له مندوباً اتفق معه

على أن تكون مصر وجزيرة العرب ملكاً متوارثاً لأسرة محمد علي، وبلاد الشام لمحمد علي مدة حياته، وتعدّ جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام والأناضول، ولم يوافق الخليفة إلا أن تكون له فجاج جبال طوروس وبذا تكون سفوحها من كلا الجانبين للدولة، وأصرّ محمد علي على عكس ذلك، فوقع الخلاف.

وسار حافظ باشا على رأس جيش من أرمينيا وسيواس، وتقدّم إلى بلاد الشام، وفي ١١ ربيع الثاني من عام ١٢٥٥ التقى مع إبراهيم باشا في بلدة (نزيب)[١]، فانهزم العثمانيون، وتركوا عتادهم في ساحة القتال فأخذ المصريون ١٦٦ مدفعاً، و٢٠ ألف بندقية. وكان في الجيش العثماني القائد الألماني المشهور (فون مولتكه).

وتوفي الخليفة العثماني محمود الثاني قبل أن تصل إليه أنباء المعركة وذلك في ١٩ ربيع الثاني عام ١٢٥٥.

٦ ـ عبد المجيد الأول:

ولد عام ١٢٣٧، وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه، وعمره دون الثامنة عشرة. وبعد أن توفي محمود الثاني، سار قائد البحرية العثماني أحمد باشا بقطعاته إلى الإسكندرية وسلّمها إلى محمد علي والي مصر، وقد رأى فيه القوة التي يمكن أن تُدافع ضد أوربا حيث كان على جهلٍ بالأمور، كما كان على خلاف مع خسرو باشا الذي عُيّن صدراً أعظم، وقد كان من قبل والياً على مصر، وطُرد منها، وعُيّن مكانه محمد علي بناءً على رغبة العلماء والأهالي، فخافت الدول الأوربية النصرانية إذ لم تعد للدولة العثمانية قوة بحرية تحميها، ولا قوة برية تدافع عنها فإذا ما سار إليها محمد علي تسلّم إستانبول، أو تقدّمت روسيا للدفاع عنها بناءً على

---

(١) نزيب: بلدة تقع في تركيا اليوم، إلى الغرب من نهر الفرات تبعد عن الحدود السورية مسافة ٢٥كم، وإلى الشمال الغربي من جرابلس البلدة السورية الواقعة على نهر الفرات عند اجتيازه الحدود السورية التركية.

المعاهدة الدفاعية المعقودة بين الطرفين سابقاً لذا فقد قدّمت دول أوربا لائحة مشتركة من روسيا، وبروسيا، والنمسا، وفرنسا، وإنكلترا تطلب من الخليفة الجديد ألا يقرّ موضوعاً في شأن يتعلق بوالي مصر دون الرجوع إليهم، وفي الوقت نفسه فإنهم مستعدون للتوسط بينهما فقبل الخليفة اللائحة، واجتمع السفراء عند الصدر الأعظم، وتداولوا الرأي، وظهر تباين في وجهات النظر، روسيا تريد أن تحتفظ بالمعاهدة الدفاعية مع الدولة العثمانية التي تُبقيها تحت حمايتها، وإنكلترا وفرنسا تخشيان من ذلك وترغبان أن تكون لهما قطعات بحرية في المضائق بحيث تشاركان، وتمنعانها من أن تنفرد بالتصرف في شؤون الدولة وحدها. ومن ناحية أخرى فإن فرنسا تود دعم محمد علي وأن يحتفظ بما أخضعه، وإنكلترا لا تريد ذلك منافسةً لفرنسا على مركزها في مصر، وخوفاً من منافستها على طريق الهند، والنمسا وبروسيا تريان في قوة محمد علي خطراً على أوربا خشية من أن يُسيطر على الدولة ويُعيد لها الحياة فهما أقرب إلى إنكلترا، وبعد فشل لقاءات، وتهديدات بالانسحاب، ودعوة إلى مؤتمرات نجحوا في عقد اتفاقية عام ١٢٥٦ بين إنكلترا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا بعد انسحاب فرنسا ومحاولة اتفاقها مباشرة مع الدولة العثمانية ومحمد علي وتشجيعه على رفض مطالب إنكلترا، ودعمه إن عارضته إنكلترا. غير أن الاتفاقية قد نصت على:

١ ـ يجب على محمد علي أن يُعيد إلى الدولة العثمانية ما دخله، ويحتفظ لنفسه بالجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول عكا في هذا الجزء.

٢ ـ يحق لإنكلترا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة موانئ الشام ومساعدة كل من أراد من السكان خلع طاعة محمد علي والعودة إلى الدولة العثمانية، ومعنى ذلك التحريض على العصيان.

٣ ـ أن يكون لمراكب روسيا، وإنكلترا، والنمسا حق الدخول إلى إستانبول لحمايتها فيما إذا تعرّضت لهجوم من قبل المصريين. ولا يحق لأحدٍ أن يدخلها ما دامت غير مهددة بهجوم.

٤ ـ يجب أن تصدق هذه الاتفاقية خلال شهرين في لندن، كما يجب تصديقها من الخليفة.

وبدأت إنكلترا تحرّض سكان الجبال من دروز، وموارنة، ونصيرية. وبدأ تحرك الأساطيل الإنكليزية والفرنسية على سواحل بلاد الشام. ثم بُلّغت الاتفاقية لمحمد علي باشا، وجاءته بعد ذلك قناصل الدول الأربع (إنكلترا ـ النمسا ـ بروسيا ـ روسيا) وعرضوا عليه باسم دولهم، أن تكون له ولاية مصر وراثيةً، وولاية عكا مدى حياته، وأعطوه مهلة عشرة أيام للجواب، وأفهموه أن فرنسا لا يمكن أن تساعده. وبعد مضي عشرة أيام جاءه القناصل ومعهم مندوب عن الدولة العثمانية بأنه بقي له الحق في ولاية مصر فقط فرفض ذلك وطردهم من بلاده، فأعطوه مهلة عشرة أيام للجواب فإن رفض فالدول تتخذ ما تراه مناسباً، وبعد انقضاء المدة كتبوا إلى سفراء دولهم في إستانبول فاجتمعوا مع الصدر الأعظم، واتخذوا قراراً بسلخ ولاية مصر من محمد علي. وضعفت الحكومة الفرنسية، وسحبت قواتها البحرية إلى مياه اليونان ثم إلى فرنسا، وتركت سواحل مصر والشام لسفن إنكلترا، وثار الرأي العام الفرسي ضد حكومته التي شجّعت محمد علي على المقاومة ثم لم تستطع مساعدته في الوقت المناسب.

اقتصرت روسيا بعدم الابتعاد عن إستانبول، ولم يكن لبروسيا مراكب يومذاك، واقتصر العمل على إنكلترا مع دعم قليلٍ من النمسا، ووُزّعت المنشورات في بلاد الشام، وأعلن المصريون فيها الأحكام العرفية، وحُصّنت الموانئ الشامية وخاصةً بيروت وعكا. وجاء إبراهيم باشا من مقره قرب بعلبك إلى بيروت بناءً على طلب سليمان باشا الفرنساوي. وأنزلت إنكلترا قواتها شمال بيروت، وبدأت المعارك، وهُدّمت أكثر المدينة وأُحرقت، وكذا بقية الثغور الشامية. وتمكّنت القوات الإنكليزية ومن معها من أخذ الموانئ وإجلاء المصريين، وطلب محمد علي باشا من ابنه إبراهيم الانسحاب حيث لا يستطيع مقاومة الدول كلها، فانسحب، وتعرّض أثناء انسحابه لكثير من الهجمات عليه من العرب حتى فقد ثلاثة أرباع الذين معه.

وعرض قائد القوات البحرية الإنكليزية على محمد علي باشا التوسط لدى الدولة العثمانية لإبقاء مصر وراثيةً له فيما إذا تنازل عن ولاية الشام، وردّ القطعات البحرية التي جاءته مع أحمد باشا إلى الدولة العثمانية فوافق على ذلك. ووافق السلطان على أن يُحدّد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً، ويمكن أن يزيد وقت الضرورة، ولا تصنع مصر سفناً، ولا يحق للوالي تعيين ضباط أعلى من رتبة ملازم، والرتب الأعلى من ذلك ترجع للسلطان، واتفق على أن ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً.

إلغاء معاهدة خونكار إسكله سي:

بدأت إنكلترا وفرنسا تعملان لإلغاء المعاهدة الدفاعية بين روسيا والدولة العثمانية (خونكار إسكله سي) التي تقضي بمرور السفن الروسية من المضائق العثمانية في الوقت الذي تشاء ودون تفتيش سفنها، وقد استطاعت الدولتان فرنسا وإنكلترا الاتفاق مع الدول الأخرى بما فيها روسيا على أن تبقى المضائق مقفلةً أمام جميع الدول بلا استثناء، ووقعت المعاهدة التي عُرفت بمعاهدة المضائق في ٢٣ جمادى الأولى عام ١٢٥٧.

مسألة لبنان والحرب الطائفية:

دعمت فرنسا الموارنة في لبنان، على حين دعمت إنكلترا الدروز. واعتدى الدروز على الموارنة عام ١٢٥٧، ودخلوا دير القمر، وارتكبوا أبشع الأعمال. وكرروا الاعتداء عام ١٢٦١، فعزل الخليفة الأمير بشير الشهابي، ووضع والياً عثمانياً مكانه، وحُرم الجبل مما كان له من امتيازات، ولم تقبل الدول الأوربية ذلك، فاضطر أن يُعيد للجبل امتيازاته، وأن يعين قائمقام درزي وآخر ماروني وذلك عام ١٢٥٨، ولكن الأمر لم يستقم لاختلاط الطوائف في القرى، فرأى الخليفة ضمّ شمال الجبل أي منطقة الموارنة إلى ولاية طرابلس، فاحتج الموارنة، فأرسل من يدرس

الموضوع ويُقدّم الحلول، فلم يُفد ذلك شيئاً، وأصرّ الدروز أن يبقى الموارنة تحت سلطانهم، وفضّل بعدئذ الموارنة أن يتبعوا ولايةً أخرى من أن يكونوا تحت سلطان الدروز، فاستحسن الخليفة الرأي، ولكن لم يُعجب الدروز فقاموا باعتداءاتهم الثانية ـ التي ذكرناها ـ في عام ١٢٦١.

أرسلت الدولة بعد ذلك جيوشها واحتلت المنطقة كلها، وأعلنت فيها الأحكام العرفية. ثم اتفقت الدول الأوربية مع الخليفة على تشكيل مجلسٍ يضمّ أعضاء من المجموعتين ومن غيرهم، ولم تنته القضية إلا بمذابح عام ١٢٧٧.

اتفاق بلطه ليمان:

ثار أهالي الأفلاق والبغدان رغبةً في تكوين دولة واحدة تشمل الإقليمين مع ترانسلفانيا، ففرّ أميرا الإقليمين، وتشكّلت حكومة مؤقتة، فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً بقيادة عمر باشا لإعادة الوضع إلى ما كان عليه، وسارعت روسيا واحتلت البغدان والأفلاق وطردت الحكومة المؤقتة، فاحتجت الدولة العثمانية على هذا الفعل، وكادت تقع الحرب بين الطرفين، ثم جرى اتفاق بلطه ليمان (قرب إستانبول) عام ١٢٦٥ ينصّ على أن يبقى تعيين أمراء الإقليمين من حق الدولة العثمانية، وأن يبقى فيهما جيش عثماني ـ روسي لمدة سبع سنواتٍ حتى يستقر الوضع.

حرب القرم:

كانت فرنسا بحكم الامتيازات القنصلية تملك الإشراف على الكنائس في بيت المقدس، وقد حصلت روسيا على هذا الإشراف لانشغال فرنسا بحروب نابليون، فلما انتهت فرنسا مما تعاني أرادت العودة إلى ما كانت عليه فحصل خلاف بين رجال الكنائس الكاثوليك والأرثوذكس فشكّلت الدولة العثمانية لجنةً من رجال كنائس مختلفي المذاهب، فأقروا بحق فرنسا في ذلك فاحتجّت روسيا وهددت بالحرب، وأرسلت سفيراً فوق العادة إلى

إستانبول هو الأمير منشيكوف لإيجاد الشقاق، وحاول إعادة معاهدة (خونكار إسكله سي) الدفاعية مع الدولة العثمانية، فلم يقبل الخليفة ذلك.

واتصل إمبراطور روسيا نيقولا بسفير إنكلترا معرّضاً له بالاستيلاء على مصر مقابل الاتفاق على تقسيم الدولة العثمانية والقضاء عليها، فلم يجد عنده آذاناً صاغية، واتصل بسفير فرنسا معرّضاً باحتلال تونس والوقوف في وجه إنكلترا فلم ير عنده ما يرتاح له.

ورفض الخليفة أيضاً من السفير الروسي حق حماية روسيا للنصارى المقيمين في الدولة العثمانية، بل أعاد رشيد باشا إلى الصدارة العظمى، وكان قد عزله إرضاءً لروسيا، فأرسل السفير بلاغاً نهائياً للخليفة مع مهلة ثمانية أيام فلم يردّ عليه الخليفة، فارتحل عندها السفير من إستانبول مُهدّداً باحتلال الأفلاق والبغدان.

أبلغ الخليفة سفراء الدول ما تمّ، فأعطت إنكلترا الأوامر لقطعاتها البحرية المنتظرة في مالطة بالتحرّك إلى مياه اليونان حيث القطعات الفرنسية والاشتراك معها في الأعمال كافةً. وتلقّت القطعات المشتركة الأوامر بالتحرك نحو مضيق الدردنيل لتكون على مقربة من ميدان المعركة المرتقبة.

تقدّمت الجيوش الروسية، واحتلت إقليمي الأفلاق والبغدان حسب تهديدات سفيرها فوق العادة، وسعت النمسا للصلح بين روسيا والدولة العثمانية وعقد مؤتمر في ڤيينا، وكان ظنّ الروس أن النمسا ستقف بجانبهم حيث عملوا بجانبها ضد الثورة التي اندلعت في بلادها، وأخمدوا التهاب نيرانها للملك النمساوي فرانسوا جوزيف وعُقد المؤتمر عام ١٢٦٩ في الشهر الأخير من هذا العام، وسعت النمسا، وبروسيا، وإنكلترا، وفرنسا للتوفيق بين الطرفين وقُدّمت عُروض وافقت عليها روسيا ورفضها الخليفة، وشجّعت إنكلترا وفرنسا الدولة العثمانية في عدم الخضوع لطلبات الروس وانفضّ المؤتمر دون اتفاق.

أرسلت الدولة العثمانية إلى روسيا بضرورة إخلاء ولايتي الأفلاق

والبغدان في مدة خمسة عشر يوماً من تاريخ البلاغ ١/١/ ١٢٧٠، وأمرت في الوقت نفسه قائدها عمر باشا بالتحرك ودخول هاتين الولايتين إثر الموعد المحدد. ودخل عمر باشا فعلاً في أول صفر وانتصر، وأجبر الروس على الانسحاب، كما انتصر العثمانيون في الوقت نفسه على جبهة القفقاس، واحتلوا بعض القلاع. . . وتوقّف القتال بسبب برد الشتاء.

واتصل إمبراطور روسيا بإمبراطور النمسا طالباً منه النجدة فيما إذا تدخلت الدول الغربية في القتال الدائر بين العثمانيين والروس، فلم يُوافق إمبراطور النمسا بل اعتذر عن تلك المساعدة.

دمّرت الأساطيل الروسية في البحر الأسود القطعات البحرية العثمانية في ميناء (سينوب) العثماني، وكانت القطعات البحرية الفرنسية، والإنكليزية قد اقتربت من إستانبول، ثم دخلت إثر ذلك الاعتداء إلى البحر الأسود، ولم تجد محاولات الصلح والرسائل، وكان موقف فرنسا وإنكلترا ضد روسيا خوفاً على مصالحهم لا حباً بالمسلمين، وظهر لإمبراطور روسيا أن النمسا بجانب خصومه وليست بجانبه، ويشكّ في أمر بروسيا.

وجرى اتفاق في إستانبول بين الدولة العثمانية، وفرنسا، وإنكلترا على محاربة روسيا وذلك في ١٢ جمادى الآخرة عام ١٢٧٠، واقتضى ذلك الاتفاق أن تُرسل فرنسا خمسين ألف جندي، وتبعث إنكلترا بخمسة وعشرين ألفاً، وأن تجلو هذه الجنود عن الدولة العثمانية بعد خمسة أسابيع من الصلح مع روسيا. وأعلنت فرنسا الحرب على روسيا بالاتفاق مع إنكلترا، ثم اتفقت الدولتان في لندن في ١٢ رجب من العام نفسه ألا تنفرد إحداهما بالاتصال مع روسيا أو الاتفاق معها، وأن تمنعا روسيا من ضمّ أي جزء من الدولة العثمانية إليها، وجمعت جيوشهما في غاليبولي وإستانبول.

بدأت المعارك البحرية قبل أن تصل الجيوش البرية، إذ أرسل أحد القادة الإنكليز في البحرية أحد مراكبه ليحمل الرعايا الإنكليز من ميناء أوديسا، ويرفع العلم الأبيض، فأطلقت القلاع الروسية المدافع عليه، ورفض الحاكم للمدينة الاعتذار فهدّمت القطع البحرية الإنكليزية والفرنسية

قلاع المدينة، ثم انطلقت إلى الأسطول فأعلن الإمبراطور الروسي نيقولا الحرب على الدول المعادية له في ١٣ رجب عام ١٢٧٠.

اجتازت الجيوش الروسية نهر الدانوب، وحاصرت مدينة (سلستريا) مدة خمسة وثلاثين يوماً، ولم تستطع اقتحامها، وجاء المدد للعثمانيين فترك الروس الحصار، وانسحبوا، وأراد العثمانيون ملاحقتهم واحتلال الأفلاق والبغدان حيث أخلاهما الروس، إلا أن النمساويين قد احتلوا هذين الإقليمين، ووقفوا في وجه العثمانيين.

نقلت الدول المتحالفة المعركة إلى أرض الروس، وحاصرت ميناء سيباستبول، وهزمت الجيوش الروسية. ثم أقنعت النمسا بالانضمام إليها فوافقت، ورفضت بروسيا ذلك من النمسا. وبعد مدةٍ انضمت أيضاً مملكة البيمونت بإيطاليا إلى الدول المتحالفة التي احتلت ميناء كيرتش وبحر آزوف لمنع وصول الإمدادات إلى سيباستبول التي أخلاها الروس بعدئذٍ وأحرقوها، ودخلتها الدول المتحالفة في ٢٦ ذي الحجة ١٢٧١، وكانت بعض القطع البحرية الفرنسية والإنكليزية قد أطلقت القذائف على موانئ بحر البلطيق الروسية وعطلت التجارة فيها، وحاصرت مدخل البحر الأبيض الشمالي، وكذلك احتلت بعض الموانئ على المحيط الهادي. ثم تقدّمت بعد سيباستبول في أراضي أوكرانيا، وفي جبهة القفقاس استطاع الروس أن يستولوا على مدينة قارص. ثم جاء فصل الشتاء وتوقفت العمليات الحربية. وانضمت السويد إلى الدول المتحالفة. ثم وافقت روسيا على طلبات أعدائها بعد أن كانت قد رفضتها من قبل، بل قبلت ما زادت عليه هذه الدول من شروط أقسى، وعقدت معاهدة باريس، وتنص على ما يأتي:

١ ـ تُخلى المناطق التي احتلت أثناء الحرب من كلا الطرفين، ويُطلق سراح الأسرى، ويصدر عفو عام عن جميع الذين تعاونوا مع خصوم دولهم.

٢ ـ تُطلق حرية الملاحة في البحر الأسود للدول جميعاً، ولا تُنشأ فيه قواعد بحرية حربية سواء أكان من قبل الدولة العثمانية أم من قبل روسيا.

٣ ـ تُطلق حرية الملاحة في نهر الدانوب.

٤ ـ تبقى الأفلاق والبغدان تحت حماية الدولة العثمانية.

٥ ـ تبقى الصرب مرتبطةً بالدولة العثمانية، ولها استقلال ذاتي يُضمن من قبل الدول.

وأعقب ذلك بحث بعض الشؤون الأوربية، فاتفقوا على تكوين دولةٍ واحدةٍ من الأفلاق والبغدان شبه مستقلة تُسمّى حكومة الإمارات المتحدة، وتكون تحت حماية جميع الدول، أي إخراجها من تبعية الدولة العثمانية، ووقع ذلك في باريس عام ١٢٧٥. وكان الخليفة قد أصدر بعض التعليمات الإدارية في سبيل الإصلاح وهو ما عرف باسم (الخط الهمايوني) وذلك عام ١٢٧٢.

وأوجدت الدول النصرانية كذلك مشكلات في الصرب، والجبل الأسود، والبوسنة والهرسك، لتفصلها عن الدول العثمانية، فبدأت تقوم الثورات، وتمنع دول أوربا الدولة العثمانية من قمع هذه الثورات بتهديد الدولة، وقطع العلاقات السياسية معها، بل غالباً ما كانت الدول الأوربية هي التي تدعم هذه الثورات وتثيرها، وأصبح سفراء هذه الدول شركاء في السلطة تقريباً. وأثيرت آنذاك مشكلة جزيرة كريت، وحدث اعتداء على النصارى في جدّة، وأصيب قنصل فرنسا، وهدّأ والي مكة الوضع غير أن الإنكليز قد ضربوا جدة بالمدافع.

الفتنة الطائفية في الشام:

تساهل السلطان عبد المجيد مع الدول الأوربية فاستقرت الأوضاع في الأفلاق والبغدان، والصرب، واشتعلت الفتنة في بلاد الشام إذ اعتدى الموارنة على الدروز عام ١٢٧٦ فقام الدروز يأخذون بالثأر، وامتد اللهيب من جبل لبنان إلى طرابلس، وصيدا، وزحلة، ودير القمر، واللاذقية، ودمشق. . . وأسرعت الدولة فأرسلت فؤاد باشا، وقضى على الفتنة،

وعاقب المسؤولين عنها، كلاً بما يستحق، واحتجت الدول الأوربية، وهددت بالتدخل، وكانت متفرقة الرأي، ثم أجمعت أو اتفقت على أن ترسل فرنسا ستة آلاف جندي لمساعدة الدولة فيما إذا عجزت عن إطفاء الفتنة ـ حسب زعمها والحجة التي اتخذتها ـ وأنزلت فرنسا قوتها في بيروت في ٢٢ محرم عام ١٢٧٧ بعد اتفاق الدول الأوربية الذي تمّ قبل أسبوع (١٥ محرم)، وهذا الاتفاق تدخّل في شؤون الدولة التي أحسنت القيام بمهمتها لكن كان القصد تقوية النصارى، وإظهارهم بمظهر القوة، وأن أوربا كلها من خلفهم، لتزداد قوتهم، ويخشى خصومهم بأسهم، وجرى الاتفاق مع فؤاد باشا على أن يُعوّض النصارى على ما خسروه، ويُمنح أهل الجبل حكومةً مستقلةً تحت سيادة الدولة، وأن يرأس هذه الحكومة رجل نصراني لمدة ثلاث سنوات، ولا يحق عزله إلا برأي الدول الأوربية، وتقترحه الدولة، وتوافق عليه أوربا، وقد اختير أول حاكم داود الأرمني... وهذا التساهل قد ألزم فرنسا بالانسحاب من الشام، إذ أخلت المناطق التي دخلتها في ٢٧ ذي القعدة عام ١٢٧٧، أي بعد عشرة أشهر وخمسة أيام من دخولها.

وتوفي الخليفة العثماني عبد المجيد في ١٧ ذي الحجة عام ١٢٧٧.

٧ ـ عبد العزيز:

ولد عام ١٢٤٥، وتولى بعد أخيه عبد المجيد في أواخر عام ١٢٧٧.

قامت في عهده ثورة في جزيرة كريت، وأخمدت عام ١٢٨٣. وتم فتح قناة السويس عام ١٢٨٥، وصدرت مجلة الأحكام العدلية في العام نفسه، وقانون التجارة البحرية عام ١٢٧٩، كما حُصرت ولاية مصر في أبناء إسماعيل باشا الذي حصل على لقب خديوي أي نائب السلطان.

زار الخليفة عبد العزيز أوربا، وفكر كثيراً في أمر الدولة، ورأى اتفاق الدول الأوربية عليها بصفتها تحمل اسم دولةٍ إسلاميةٍ، وأن سكانها من المسلمين، ولم يستطع الأوربيون أن ينسوا أبداً الحقد الصليبي المغروس في

نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة. ورأى أن الدول الأوربية الغربية أكثر نفوذاً في إستانبول من روسيا، ففكر بالاستفادة من خلاف دول أوربا فيما بينها، وظنّ أنه لو أظهر الميل نحو روسيا لقدمت دول أوربا الغربية بعض التساهلات للعثمانيين حرصاً على مصالحها وخوفاً من روسيا، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي في إستانبول فخافت الدول الأوربية، وبدأت تُشيع عليه الشائعات في التبذير والإسراف و.... وتولّى رئيس مجلس الشورى أحمد مدحت باشا فكرة عزل الخليفة فعُزل عام ١٢٩٣، ثم عمل على قتله وقُتل، وأشاعوا أنه انتحر، وتولى أمر الخلافة بعده ابن أخيه عبد المجيد، وهو مراد الخامس.

٨ ـ مراد الخامس:

ولد في ٢٥ رجب ١٢٥٦، وتولى بعد عزل عمه عبد العزيز وعمره سبع وثلاثون سنة، وقد عُزل بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، بويع في ٧ جمادى الأولى، وعُزل في ١٠ شعبان من العام نفسه (١٢٩٣)، وبويع بعده أخوه عبد الحميد الثاني، وأُشيع أن العزل كان لاختلال عقل مراد الخامس.

٩ ـ عبد الحميد الثاني:

ولد عام ١٢٥٩ من زوجة عبد المجيد الثانية، وتولى الخلافة بعد عزل أخيه مراد الخامس عام ١٢٩٣ فكان عمره يومذاك أربعاً وثلاثين سنة.

بدأ التعصب القومي أو بالأحرى الدعوة إلى العصبية تظهر بوضوح أيام الخليفة عبد الحميد الثاني، وإن برزت قبل أيامه إلا أن بروزها كان ضعيفاً، ومع الدعوة إلى العصبية بدأ تأسيس الجمعيات ذات الأهداف السياسية، وإن كانت تحمل أحياناً صفات أو أسماء أدبية وعلمية، ولعل أهم مراكز هذه الجمعيات كان بيروت وإستانبول، ففي المركز الأول لعبت النصرانية دورها الكبير، وبرز أثر الإرساليات التبشيرية النصرانية، وظهر رجال نصارى كان لهم أثرهم في الجمعيات بل وفي الحياة العلمية، فقد

نشطوا في هذا الجانب كي يستطيعوا جمع الناس حولهم. وتشكلت جمعية العلوم والفنون تحت رعاية الإرساليات التنصيرية الأمريكية، ومن مؤسسيها بطرس البستاني، وناصيف اليازجي، وكان هدفها نشر العلوم الغربية والدعاية لدول أوربا، ولم ينضمّ إلى هذه الجمعية خلال عامين مرا على تأسيسها سوى خمسين عضواً كلهم من نصارى بلاد الشام، وقام اليسوعيون بتأسيس الجمعية الشرقية عام ١٢٦٦، وكان أعضاؤها من النصارى أيضاً، ومن أشهر مؤسسيها مؤسسو الجمعية الأولى أي بطرس البستاني وناصيف اليازجي على حين تدعم الأولى الإرساليات البروتستانتية في حين تساعد الثانية الإرساليات الكاثوليكية لكن ما دام جميعهم من النصارى، والهدف واحد فلا مانع من العمل على أي طريق والضرب على أي وتر، ولم يكن للنصارى من دعوة يقومون بها سوى العصبية أي رابطة الجنس الواحد، أو ما عُرف باسم القومية، ولما لم تؤت هذه الجمعيات ثمارها لاقتصارها على النصارى وابتعاد المسلمين عنهم لمعرفتهم بنوايا النصارى في تجزئة الأمة، ومعرفة الذين خلفهم من الدول الأوربية التي تحركها الصليبية، ولما لم تنجح الخطة لجأ النصارى بتوجيه من الصليبية إلى تأسيس جميعةٍ بحيث تضمّ أعضاءً غير نصارى، ويُفضّل أن يكون فيها مسلمون ودروز وغيرهم... كي يمكن ضرب الإسلام بيد أبنائه، وتأسست الجمعية العلمية العربية عام ١٢٧٣ وضمّت خمسين ومائة عضو من النصارى أمثال البستاني واليازجي، ومنهم نصارى أظهروا الإسلام أمثال الشدياق، ومنهم الدروز، ومنهم المسلمون أيضاً، وإن كانوا من أبناء البلاد إلا أن المحرّك لهم كان من الخارج، وقد تحسّنت الصلات بين بعض الساسة من أوربا وبعض الشخصيات من مختلف الفئات أيضاً. وأما المركز الثاني وهو إستانبول فقد ضمّت الجمعيات مختلف العناصر فيه، وإن كان معظمها من الأتراك إلا أنهم من الذين فُتنوا بأوربا، ويُريدون تغيير الوضع، ويدعون إلى العصبية التركية، أو من أصحاب المصالح الذين يُريدون الحصول على مكاسب لهم، ومن اليهود، وخاصة يهود الدونمة، أو بصورة عامة من الناقمين على الحكم ويُريدون تغييره، ومن الناقمين على الإسلام ويريدون ضربه، ومن

أشهر هذا النوع من الجمعيات، جمعية تركيا الفتاة التي تأسست في باريس، وكان لها فروع في برلين، وسلانيك، وإستانبول إضافةً إلى المركز الرئيسي في باريس، وكانت رئاستها لأحمد رضا بك الذي فُتن بأوربا وأفكار الثورة الفرنسية، وقد حرر جريدة المشورة، فكانت مقالاته تدعو إلى تقليد الغرب، والإدارة اللامركزية بالدولة العثمانية، كما كانت جريدة الأبناء التي يصدرها وتُهَرب سراً إلى إستانبول، ورحّبت المحافل الماسونية بهذه الجمعية، وكان فرع برلين معتدلاً، أما التوجيه فمن مركز باريس، غير أن مركز سلانيك كان أكثر المراكز تطرّفاً، وضمّ عدداً من الضباط الذين كوّنوا جناحاً عسكرياً في هذه الجمعية، وعرف باسم الاتحاد والترقي، وكانت اللقاءات تتم في المحافل الماسونية التي اهتمت اهتماماً كبيراً بحركة الجمعية ونشاطها، وتنظيم الاتحاد والترقي فيها.

ومن الذين فُتنوا بأوربا وأفكارها رجال كان لهم دور خطير في الدولة أمثال أحمد مدحت باشا رئيس مجلس الدولة، وصاحب اليد الأولى في خلع الخليفة عبد العزيز وفي قتله، وفي خلع الخليفة مراد الخامس. وهؤلاء المفتونون كانوا بعيدين عن معرفة الإسلام لذا كانوا يتّهمون الخلفاء بالحكم المطلق، ويُطالبون بوضع دستورٍ للدولة إذ يريدون أن تكون على نمط الدول الأوربية النصرانية، وأن يكون دستورها من وضع البشر بالشكل الذي عليه الدساتير الأوربية، ولا يقبلون أن يكون القرآن الكريم «كتاب الله» دستور الأمة، وهو الذي يحدّ من تصرّفات الخليفة وصلاحياته، وما ذلك إلا عداءً للإسلام، وانبهاراً بالحياة الأوربية، وانهزاماً نفسياً، وتحقيقاً للشهوات والأهواء الذاتية.

وزاد النفوذ اليهودي في الدولة مع أطماع اليهود، ومع استلام يهود الدونمة عدداً من المراكز الرئيسية، وقد نسي الناس أصلهم، وحقيقتهم، وطبيعة اليهود، إذ أظهروا الإسلام، وعاشوا مع أبنائه، واختلطوا بهم، ويُؤدّون الصلاة أمامهم بل يُؤدّون الحج...

وزاد اتفاق الدول الأوربية على الإجهاز على حياة الرجل المريض إذ

كانوا يطلقون ذلك على الدولة العثمانية، وإن ظهرت الاختلافات بين تلك الدول، فظهرت روسيا في جهة، والدول الأخرى في جهة ثانية.

في وسط هذه التيارات والأمواج المتلاطمة تسلّم عبد الحميد الثاني الخلافة فكان عليه أن يسير بالدولة إلى شاطئ النجاة دون أن يُعرّض دولته للخطر. فأكثر من رجاله الذين يأتونه بالأخبار، ويُراقبون تحركات أعداء الدولة من أبناء البلاد وخاصة أصحاب المراكز المهمة، وإذا استطاع أن يبطش بأحدهم دون أن يُحدث هزّة لم يقصّر في ذلك، حتى أُطلق عليه السلطان الأحمر... وأكثروا من التهم عليه، وإطلاق الإشاعات، ومن يستطع أن يجلبه إلى صفه بأي نوعٍ من أنواع العطاء لم يدّخر في ذلك وسعاً، حتى بالتزويج من الأميرات أو الجواري حتى أُشيع عليه أنه يمتلك الكثير من الشركسيات، وقد اضطر أن يُعلن دستوراً وضعياً للبلاد تحت ضغط هؤلاء، وعندما قوي أمره ودبّر شأنه عاد فألغاه.

وحاول جمع كلمة الأمة، ودعم المسلمين له في كل مكان ليستفيد منهم ضد حكامهم من المستعمرين إن رغب أن يحركهم أو يهدد دول أوربا، فدعا إلى الجامعة الإسلامية، ووُفّق في هذا الشأن إلى حدٍ كبيرٍ، وقرّب العلماء، واستمع إلى نصائحهم، وسار مع الصوفية، ونظّم المحاكم القديمة، وتابع العمل في مجلة الأحكام العدلية وفق الشريعة الإسلامية، وقام ببعض الإصلاحات العظيمة مثل القضاء على معظم الإقطاعات الكبيرة المنتشرة في كثير من أجزاء الدولة، والعمل على القضاء على الرشوة وفساد الإدارة.

وكان كلما شعر بأن إحدى الدول الأوربية تريد الضغط على العثمانيين وتسعى للإنهاء على الدولة يلين لها، ويُظهر التقرب لها بتعيين الصدر الأعظم من الذين يوالونها. إذ كان كامل باشا يرى تأييد السياسة الإنكليزية، وسعيد باشا يرغب في التقرب من فرنسا، وخليل باشا يود مسايرة روسيا، وتوفيق باشا يحب زيادة النفوذ الألماني أو يرى فيه أقل أطماعاً من غيره، فكان عبد الحميد الثاني يُعيّن الصدر الأعظم الذي يراه ملائماً للسياسة التي

يُريد أن يتبعها، وربما كان النفوذ الروسي أقوى من غيره لقوة روسيا، وكثرة أطماعها، وقربها من الدولة العثمانية، يلي ذلك النفوذ النمساوي إذ أن النمسا كانت تطمع في بلاد الصرب والبلقان عامةً، وتتنافس مع روسيا في هذا المجال، يلي ذلك، إنكلترا ففرنسا، وإن زاد النفوذ الألماني على غيره في نهاية أيام السلطان عبد الحميد.

وعامل الأقليات والأجناس غير التركية معاملةً خاصةً كي تضعف فكرة العصبية، وكان يضطر أن يسكت عن بعض إساءاتهم، مثل الرعب الذي نشرته عصابات الأرمن من الطاشناق في منطقة الأناضول لتفسح المجال للتدخل الأوربي في شؤون الدولة، كما عمل الأرمن مع اليهود لاغتياله أثناء خروجه للصلاة، واضطر مع كل هذا للسكوت كي لا يترك أي ثغرةٍ يمكن أن تنفذ منها الدول النصرانية. ولم يفده كل هذا... ولم يخفف من الإشاعات الكثيرة ضده من المجموعات كلها وعلى رأسهم اليهود الذين منع هجرتهم إلى فلسطين، والأرمن الذين خدموا الروس، والنصارى عامةً، وأصحاب الدعوات العصبية، والمفتونون بأوربا من كل جنسٍ وفي مقدمتهم الترك والعرب. بل تضامنت الدول على انتهاب أجزاء من دولته خوفاً من عودة القوة إليها.

أصدر السلطان عبد الحميد الثاني في ٥ شوال عام ١٢٩٣ إرادته بتنظيم مجلس عموم، ويتكوّن من مجلسين أحدهما منتخب، ويسمى مجلس المبعوثان، والآخر مجلس الأعيان ويتمّ تعيين أعضائه من قبل الدولة.

كبرت سن محمد رشيد باشا الصدر الأعظم، فقدّم استقالته، فعيّن السلطان عبد الحميد مكانه أحمد مدحت[1] باشا. وبعد أيام أربعة أرسل

---

(١) ولد أحمد مدحت باشا في إستانبول عام ١٢٣٧ انضم إلى الصدارة العظمى، زار العواصم الكبرى في أوربا، وأمضى هناك ستة أشهر وفتن بأوربا وأفكارها، أصبح وزيراً عام ١٢٧٧، وعُيّن في مجلس الدولة، ثم حاكماً لبغداد عام ١٢٨٥، ثم والياً على سلانيك، ثم وزيراً للعدل، ثم رئيساً لمجلس الدولة، ثم تولّى وزارة الحرب يوم خلع =

السلطان إلى الصدر الأعظم مدحت باشا القانون الأساسي للدولة لينشره، ويتألف من مائة وتسع عشرة مادة، وقد أعطى لجميع رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون، وأباح التعليم وجعله إجبارياً على جميع العثمانيين، وسمح بحرية المطبوعات، وأبطل التعذيب أثناء التحقيق، ومصادرة الأموال، وأعمال السخرة، وعدم جواز عزل القضاة إلا بشكل شرعي.

وفي ٢١ محرم ١٢٩٤ عُزل أحمد مدحت باشا من الصدارة العظمى حيث ظهر أنه يُؤيّد جمعية تركيا الفتاة، ويعمل لنشر أفكارها، ويسعى لعزل عبد الحميد الثاني وإعادة أخيه مراد الخامس بعدما أُشيع أنه قد عوفي، ويقول بفصل الدين عن الدولة، ويرى أن الخليفة العثماني لا يُمثّل المسلمين الذين يعيشون خارج حدود الدولة في الوقت الذي كان المسلمون في كل مكان يعدّون الخليفة مرجعهم الأعلى، وما فصلهم عنه سوى ضعف المسلمين وقوة أعدائهم وخاصةً الصليبيين، وبذا لم تصل مدته في الصدارة العظمى إلى شهرين، وأوكل هذا المنصب إلى محمد أدهم باشا.

وفي ٤ ربيع الأول عام ١٢٩٤ اجتمع المجلس العثماني.

كانت الثورة قد اشتعلت في بلاد الهرسك بتحريض من سكان الجبل الأسود والصرب، غير أن الثورة قد أخمدت ثم إن السلطان رغب في اللين كي لا يكون مجال لتدخل الدول الأوربية فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة والتوحيد في الضرائب بين المسلمين والنصارى... ولم يُرضِ ذلك السكان، فعادوا إلى الثورة التي قمعت أيضاً، ولم يُرق ذلك النمسا التي

= السلطان عبد العزيز، وعُيّن صدراً أعظم في أوائل حكم عبد الحميد الثاني، ثم أزيح وطرد من البلاد بعد أقل من شهرين من تسلّمه منصب الصدارة العظمى، ثم استدعي وعُيّن حاكماً لأزمير، ثم صدر قرار باعتقاله عام ١٢٩٩ لاتصاله بالأجانب، وطلب من الدول الأوروبية التدخل في قضيته بعد أن فرّ إليها، ثم قُبض عليه، وحوكم، وحُكم عليه بالإعدام لقتله السلطان عبد العزيز، وخيانته، وتوسطت له بريطانيا فخُفّف عنه الحكم، وصدر حكم بسجنه مدى الحياة، ثم خُفّف عنه فعاش في الطائف، ومات أو اغتيل عام ١٣٠١.

كانت وراء الثورة وترغب في ضمّ البوسنة والهرسك إليها، فعملت مع روسيا وألمانيا على إرسال لائحة إلى السلطان تعرض عليه الإصلاحات التي يجب القيام بها، ورفعت اللائحة إلى فرنسا وإنكلترا ومنهما إلى الدولة العثمانية فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة والهرسك لم يقبلوا بذلك وطالبوا بأمور أخرى.

وحدثت حادثة شغلت الساسة في الدول، وهي أن فتاةً نصرانيةً في سلانيك اعتنقت الإسلام، وذهبت إلى المحكمة لإشهار إسلامها فاختطفها النصارى في الطريق، فثار المسلمون وطالبوا الحكومة بالبحث عن الفتاة، فوعدهم الوالي بذلك، ولم يتمكّن من الحصول عليها، فاجتمع المسلمون ثانيةً في أحد الجوامع وتكلّموا عن الحكومة، وجاء إلى الجامع قنصلا ألمانيا وفرنسا، وسرت شائعة أنها في بيت القنصل الألماني، فاعتدوا على القنصلية، ووصل الخبر إلى الدول فاضطرب رؤساؤها، وحرروا لائحةً في برلين (وزير روسيا، ووزير النمسا، ووزير ألمانيا) ووقعت عليها كل من فرنسا، وإيطاليا وقد طالبوا الدولة العثمانية بإصلاح حال الرعايا النصارى، والاتفاق مع الثائرين، وتعيين مجلس دولي لمراقبة ذلك وإلا تضطر الدول الأوربية إلى استخدام القوة.

ثورة البلغار:

تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهدها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتُحرّضهم على الثورة ضد العثمانيين، وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية في بلاد البلغار، بعد فرارهم من بلادهم إثر احتلال الروس لها، أُشيع في البلغار أن الحكومة تريد إقطاع الشركس أراضي بلغارية، فقاموا بثورةٍ، وكانت تمدهم روسيا، والنمسا حيث يوجد فيها مركز لتلك الجمعيات يموّنها بالأسلحة. ولكن الدولة العثمانية استطاعت أن تقضي على

هذه الحركة فقامت الدول الأوربية تشيع الشائعات عن تصرّف الجنود العثمانيين وارتكابهم الأعمال الوحشية على حين أن ما صدر إنما هو من جانب البلغاريين الذين كانوا يهاجمون المسلمين ويبيدونهم، وبهذه الشائعات أُثير الرأي العام ضدّ الدولة العثمانية، وطالب الحكومات الأوربية باتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ ضدّ العثمانيين فقدمت لائحة تُطالب الدولة بالتحقيق لمصلحة البلغار، والتعويض لهم، وتعيين حاكمٍ نصراني لهم.

ثورة الصرب والجبل الأسود:

شجّعت روسيا، والنمسا، وألمانيا الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، إذ كانت روسيا تريد توسعة حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم، فإن انتصرا جاءت الجيوش وقضت على الدولة العثمانية، وإن انتصرت الدولة عليهما وقفت الجيوش الروسية بجانبهما ونصرتهما على الأعداء. وبدأت الجنود الروسية تتدفق سراً على بلاد الصرب والجبل الأسود، فالحقيقة أن الروس هم الذين يحاربون العثمانيين تحت اسم الصرب والجبل الأسود. وبدأ الأميران يجمعان الجيوش ولما سألهما الصدر الأعظم عن سبب حشد الجيوش أجابا لردّ غارات الأرناؤوط، وللأمن الداخلي. وعندما تهيأت جيوش الصرب والجبل الأسود، طلب أمير الصرب من الدولة العثمانية أن تعهد إليه بإخماد الثورة في البوسنة لأن جيوش العثمانيين فيها يهدد بلاده، كما طالب أمير الجبل الأسود الدولة العثمانية بالتنازل له عن جزء من الهرسك وما ذلك إلا لإيجاد ذريعة للحرب فلم يجابا على طلبهما فعندها دخلت جيوش الصرب والجبل الأسود الأراضي العثمانية.

وكانت الدولة العثمانية قد استعدت للقتال وحشدت الجيوش، وجاءتها قطعات من مصر، وتمكّنت من الانتصار على الصرب[1] في عدة

(١) كانت المعارك في الجبل الأسود بسيطةً لوعورة تلك البلاد، فبقي الثوار في مرتفعاتهم=

مواقع، وأصبح طريق بلغراد مفتوحاً غير أن الأوامر قد جاءت إلى القائد العثماني بالتوقف بسبب تدخل الدول الأوربية، واشترطت الدولة شروطاً لم تقبلها الدول النصرانية، فتابع القائد العثماني زحفه، فتدخلت الدول، وطلبت من العثمانيين إصدار أوامر بوقف القتال مباشرة وإلا يُغادر سفراء الدول إستانبول إشارة إلى قطع العلاقات وتوقع الحرب.

واجتمع مندوبو الدول في إستانبول خوفاً من تفرّد روسيا والهجوم على الدولة، واحتلال عاصمتها والمضائق، وقدّموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين ويكون ولاتها من النصارى الأجانب أو التابعين للدولة، وألا تحتل جنود الدولة العثمانية سوى القلاع وبعض المدن الكبرى، وأن تشكل الشرطة البلغارية من النصارى ويكون نصف ضباطهم من المسلمين والنصف الآخر من النصارى، وأن تُشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تُعطى هذه الامتيازات لإمارتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود في الصلح الذي يعقد معهما. ولكن الدولة رفضت هذه القرارات رغم التهديدات. وكان الدستور قد أعلن، ورفض هذه القرارات، كما رفضها أيضاً اليهود والنصارى من رعايا الدولة. وسافر إثر ذلك مندوبو الدول وسفراؤها إيذاناً بقطع العلاقات السياسية مع الدولة العثمانية.

عقدت الدولة العثمانية في هذه الآونة صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت بنتيجته جيوشها من بلاد الصرب، على ألا تبني الصرب قلاعاً جديدةً، وأن يُرفع العلم العثماني والصربي معاً دليلاً على السيادة العثمانية، ومددت الهدنة مع الجبل الأسود، ولم يُعقد معه صلح إذ طالب بأراضي جديدة لضمّها إليه.

وأرادت روسيا أن تستغلّ الفرصة، وأن تنفرد، بحل مشكلتها وحدها

= لم يتمكنوا أن يخترقوا الجيوش العثمانية المحيطة بهم ومساعدة الصرب، كما لم يتمكّن العثمانيون من إنزال الثائرين من حصونهم وجبالهم وإخضاعهم.

مع الدولة العثمانية، ولكنها حسبت حساباً للدول الأخرى فأرسلت تستشيرها فيما ستفعل، وأرسلت لائحةً إلى إنكلترا تُعرضها عليها، وتوقع عليها إن وافقت، فوافقت عليها إنكلترا واجتمع سفراء الدول الأوربية في لندن، ووضعوا لائحة وقدّموها إلى الدولة العثمانية، وفيها تأكيد الاتفاق بين الدول الأوربية لتحسين أحوال النصارى في الدولة العثمانية، وإجراء الإصلاح في البوسنة والهرسك، والبلغار، وتعيين الحدود مع الجبل الأسود، وحرية السفر، والصلح معه، ومع الصرب. وأن تُراقب سفراء الدول في إستانبول، وعمالها في الولايات تنفيذ اللائحة. غير أن هذه اللائحة التي وقعت عليها كل من روسيا، وإنكلترا، والنمسا، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا لم تعترف عليها الدولة لأن هذه الدول تُريد أن تتدخل في شؤون العثمانيين الخاصة باسم حماية النصارى، وحتى لا تُستشار الدولة فيها أيضاً، ولم تُشارك في مناقشتها، وأعلنت أن ما حدث من فوضى إنما كان نتيجة التدخلات الخارجية، وفي الوقت نفسه فإن الإصلاحات قائمة وتسير فيها الدولة بخطا حثيثة، وإن المساواة قائمة بين الجميع، وكيف تكون تدخلات الدول في شؤون العثمانيين عن طريق السفراء في إستانبول، والعمال في الولايات الأخرى؟

الحرب مع روسيا:

وقَّعت روسيا اتفاقاً سرّياً مع رومانيا (الأفلاق والبغدان)، وضعت رومانيا بموجبه جميع إمكاناتها تحت تصرف روسيا، ثم قطعت روسيا العلاقات السياسية مع الدولة العثمانية، وأعلنت الحرب عليها بناء على رفض الباب العالي للائحة لندن، وأخبر الباب العالي دول أوربا ثانية عما تصرّفت به روسيا فلم يتلق أي موقف إيجابي وذلك عام ١٢٩٤، رغم المعاهدة السابقة وخاصةً التي وقَّعتها إثر حرب القرم.

اخترقت روسيا حدود رومانيا فاحتجت الدولة العثمانية لأن رومانيا لم تزل تحت سيادة العثمانيين، واخترقت نهر الدانوب، وانتصرت على

العثمانيين في عدة مواقع، ثم توقفت بعد المقاومة التي اعترضتها، وانقلب وضع الجيوش العثمانية من مدافعة إلى مهاجمة، وبعد تقدّم بسيطٍ عاد النصر إلى جانب الروس، واضطر القائد العثماني عثمانَ باشا إلى الاستسلام، وهو جريح، وتوقف القتال في الجبهة الأوربية.

أما في شرقي الأناضول فقد حاصر الروس عدة مدن وقلاع ومنها قارص، وباطوم إلا أنهم اضطروا إلى فكّ الحصار عنها والتراجع بجهود أحمد مختار باشا، وإسماعيل حقي باشا، وانتصر العثمانيون على الروس في ستة وقائع، وقد طلب الروس إمدادات فجاءتهم جيوش جرارة، ولم يتمكّن العثمانيون من إرسال الإمدادات إلى الجبهة، وجاء الهجوم الروسي الثاني، فتراجعت الجيوش العثمانية حيث انسحب أحمد مختار باشا إلى أرضروم، وسقطت مدينة قارص بيد الأعداء، ثم حاصروا أحمد مختار باشا في أرضروم. وبسقوط قارص في جبهة الأناضول، وسقوط بلافنا بعدها بشهر على الجبهة الأوربية، استأسد الصرب فأعلنوا الحرب على الدولة العثمانية بعد لقاء بين إمبراطور روسيا وأمير الصرب، كما تابع سكان الجبل الأسود قتالهم للعثمانيين، فأصدر الباب العالي منشوراً يعلن عزل أمير الصرب عن إمارته، ويوضح للسكان هذه الخيانة، فلم يُجده ذلك نفعاً.

وتقدّم الروس فاحتلوا صوفيا عاصمة بلغاريا اليوم، ومنها ساروا إلى أدرنة فدخلوها، وانطلقوا منها نحو إستانبول، ولم يبق بينهم وبينها سوى خمسين كيلو متراً. وعندما اقتربت الجيوش الروسية من أراضي البلغار انقض النصارى على المسلمين يفتكون بهم ذبحاً وقتلاً، وفرت أعداد من المسلمين متجهةً نحو إستانبول حيث ملؤوا الشوارع، وتشكّلت عدة جمعيات لمساعدتهم. وفي ٧ ذي الحجة من ١٢٩٤ اجتمع المجلس النيابي، فاستمع إلى خطابٍ باسم السلطان، ثم صدر أمر بحلّه.

وأرسل الباب العالي وفداً عسكرياً من نامق باشا، وسرور باشا لوقف القتال فقابل الوفد القائد الروسي، وتوقف القتال في مطلع عام ١٢٩٥، وأعلن الباب العالي عن رفع الحصار عن سواحل روسيا على البحر الأسود.

وفي هذه الأثناء وقعت عدة أحداث بعضها في الداخل وبعضها خارجية، ففي الداخل حاولت مجموعة من الثائرين مستغلة النقمة أيضاً والفوضى التي حدثت. أما من جهة الخارج فعندما علمت إنكلترا أن قوات روسيا أصبحت على مقربة من إستانبول أمرت قطعاتها البحرية بدخول مضيق البوسفور، ولو بالقوة وقد تمّ ذلك، وأرادت روسيا مقابل ذلك أن ترسل قوات إلى إستانبول بحجة حماية النصارى، ثم اتفقت الدولتان، وهدأت الأوضاع..

معاهدة سان استيفانوس:

التقى مندوبو الدولة العثمانية ومندوبو روسيا في بلدةٍ قرب إستانبول على بحر مرمرة تسمى سان استيفانوس، وذلك بعد محادثات تقدّم فيها الروس قليلاً عن خط وقف إطلاق النار الذي اتُّفق عليه، ونُقل أيضاً مركز المحادثات من أدرنة إلى هذه القرية.

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرةً وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل إستانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتنص المعاهدة على:

١ ـ تعيين حدود جديدة للجبل الأسود لإنهاء النزاع. وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال، وإذا حدثت خلافات جديدة تحلها روسيا والنمسا.

٢ ـ تستقل إمارة الصرب، وتضاف لها أراض جديدة، وتُحدد الحدود حسب الخريطة المرفقة، وبمساعدة الروس.

٣ ـ تأخذ بلغاريا استقلالاً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدّداً إلى الدولة العثمانية، ويكون موظفو الدولة والجند من النصارى فقط. وتُعين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس، ويُنتخب الأمير من قبل السكان، ويخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا، ويحق للعثمانيين نقل جنودهم إلى ولايات أخرى ضمن الأراضي البلغارية.

٤ ـ تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.

٥ ـ يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن النصارى من الأكراد والشركس.

٦ ـ يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

٧ ـ تدفع الدولة العثمانية غرامةً حربيةً قدرها (٢٤٥,٢١٧,٣٩١) ليرة ذهبية. ويمكن لروسيا أن تتسلّم أراضي مقابل هذا المبلغ.

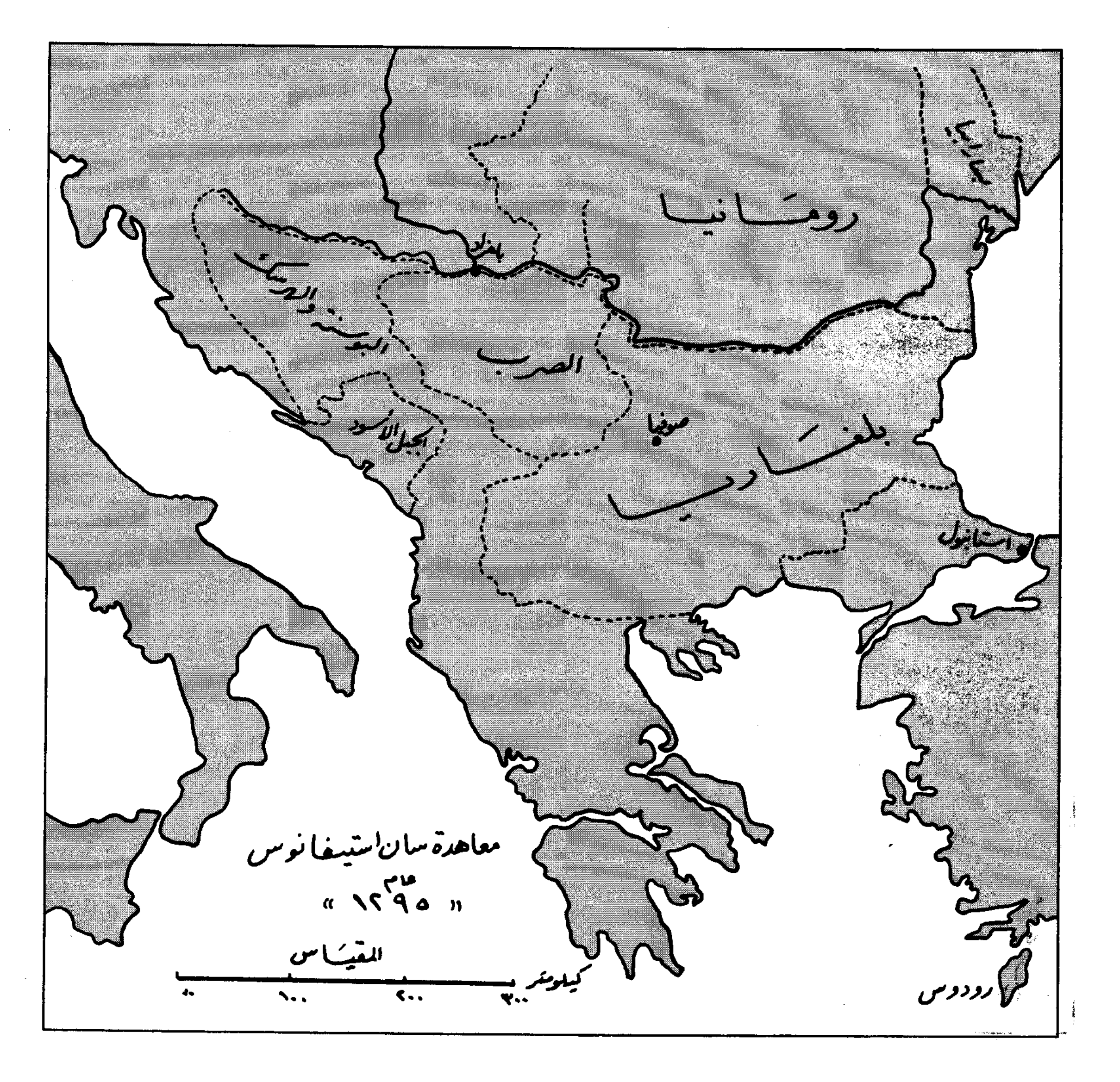
٨ ـ تبقى المضائق (البوسفور والدردنيل) مفتوحةً للسفن الروسية في زمن السلم وزمن الحرب.

٩ ـ يُمكن للمسلمين الذين يعيشون في الأراضي التي اقتطعت من الدولة العثمانية أن يبيعوا أملاكهم ويهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية.

أما بقية الدول فقد كانت إنكلترا أكثرها اهتماماً وتخشى من احتلال روسيا لإستانبول ووصولها إلى المياه الحرة ومنافستها لبقية الدول في تلك الجهات، وأما النمسا فترغب في اقتسام التركة مع روسيا وسيطرتها على بلاد البوسنة والهرسك والوصول إلى ميناء سلانيك ودخول المياه المتوسطة من تلك الثغرة، وأما ألمانيا فلا تهتم كثيراً، وربما تميل إلى موقف روسيا، وكذلك كانت إيطاليا قليلة المصلحة في هذا الموضوع، وكانت فرنسا تقف على الحياد وخاصة أنها كانت تئن من هزيمتها أمام ألمانيا عام ١٢٨٨.

معاهدة برلين:

دعت النمسا الدول إلى حضور مؤتمر في برلين، واختارت برلين لأن ألمانيا ترى من الضرورة أن تحتل النمسا مقاطعتي البوسنة والهرسك. واشترطت إنكلترا أن يُعاد النظر في معاهدة سان استيفانوس، واختلفت مع روسيا وكادت تقع الحرب بينهما، غير أن روسيا أمام إصرار إنكلترا والدول الأخرى التي معها، وأمام الحركات الانتقامية التي قام بها المسلمون


رومانيا
بلغراد
البوسنة والهرسك
الصرب
الجبل الأسود
صوفيا
بلغاريا
استانبول
رودوس
معاهدة سان استيفانوس
عام
« ١٢٩٥ »
المقياس
كيلومتر
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

مصور رقم [١٩]

البلغار، فاعتصموا بالجبال وانطلقوا يهاجمون القوات الروسية، وينتقمون من النصارى الذين فتكوا بهم سابقاً، ثم هدأت الأمور إلا أن إنكلترا بقيت تخشى من قوة روسيا لذا طلبت من الباب العالي عقد معاهدة دفاعية بين الدولة العثمانية وإنكلترا خوفاً من تقدم روسيا نحو إستانبول، والسماح لإنكلترا باحتلال جزيرة قبرص، وإصلاح أوضاع النصارى كي لا يتجهوا نحو روسيا، فوافقت الدولة على ذلك خوفاً من الروس الذين يهددونها، وضحّت بجزيرة قبرص. وإن تعهدت إنكلترا بإخلاء الجزيرة فيما إذا انسحبت روسيا من باطوم وقارص. وبقيت المعاهدة الدفاعية بين الدولة العثمانية وإنكلترا سرية حتى أشرفت أعمال معاهدة برلين على الانتهاء.

وكان من أهم ما اتفق عليه المؤتمرون في برلين، وفيه تعديل على معاهدة سان استيفانوس.

١ ـ استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها إذ تراجعت من ناحية الغرب إلى الشرق لمصلحة الصرب، كما تراجعت من ناحية الجنوب إلى الشمال لمصلحة الدولة العثمانية، وأصبحت سواحل بحر إيجه الشمالية للعثمانيين. وتتشكل في جنوب البلقان ولاية باسم الروميللي الشرقي تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً. ويحكمها نصراني، يُعيّن لمدة خمس سنوات باتفاق الدول. وتبقى قوة لروسيا في بلغاريا والروميللي الشرقي وتحدد بخمسين ألف جندي.

٢ ـ تقدمت حدود اليونان قليلاً إلى الشمال مع العلم أن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان استيفانوس أي جزء منها.

٣ ـ أعطيت البوسنة والهرسك للنمسا.

٤ ـ أعيدت بسارابيا إلى روسيا، وأُخذت من رومانيا. وتُعطى رومانيا مقاطعة دوبروجيه، وبعض الجزر. وشملت معاهدة برلين ٦٤ مادة.. ووقعت في رجب من عام ١٢٩٥.

وهكذا حصلت روسيا والنمسا، وإنكلترا على أجزاء من الدولة العثمانية، ولم يكن لألمانيا وإيطاليا مطامع مباشرة، أما فرنسا التي كان موقفها على الحياد فرغبت أن تحصل على نصيبها من التركة، وقد عادت لها قوتها بعد هزيمتها أمام ألمانيا عام ١٢٨٨، فادعت عام ١٢٩٩ أن اعتداءات على أرض الجزائر وقعت من جهات تونس فأرسلت قوةً مؤلفةً من ثلاثين ألفاً بحجة حماية الأمن، ثم دعمتها بقوة أخرى، واتجه الجيش نحو العاصمة وأجبر الباي على توقيع معاهدةٍ اعترف فيها بالاحتلال الفرنسي، واعترفت الدول النصرانية بهذا الاحتلال، وأرسلت الدولة العثمانية قوةً بحريةً، وأخرى بريةً لتعزيز القوات في طرابلس على حدود تونس... وكادت الحرب تقع، ونصحت ألمانيا السلطان بعدم الذهاب بعيداً فأبدى رغبته بحل المسألة عن طريق المفاوضات.

ويبدو أن إنكلترا لم تقنع بما حصلت عليه في قبرص، وكانت عيونها ترنو نحو مصر، وخاصةً بعد أن احتلت فرنسا تونس، فاستغلت ما حدث في مصر من حركات نتيجة الديون التي تراكمت على الحكومة بعد فتح قناة السويس، وتبذير الخديوي إسماعيل، وخلعه وتولية ابنه توفيق، وتدخلت في شؤون مصر، وانتصرت على قوّات أحمد عرابي، واحتلت البلاد عام ١٢٩٩.

وقامت الثورة المهدية في السودان في هذا الوقت، ثم سيطرت على السودان كله، ووجدت إنكلترا التي أصبحت تحكم مصر وبالتالي تخضع لها السودان بحكم أنها كانت تتبع مصر رأت أن تسحب الجيوش المصرية من السودان وشرقي إفريقية التي أيضاً كانت تتبع مصر بعد أن تنازلت عنها الدولة العثمانية لصالح مصر، ثم تعيد إخضاع السودان من جديد بجنود مصرية وقادة إنكليز، وتمكّنت فعلاً من الانتصار على المهديين، والقضاء على ثورتهم، والسيطرة على البلاد من جديد. أما شرقي إفريقية فقد تقاسمته مع فرنسا، وإيطاليا، والحبشة.

وهكذا حصلت كل دولة أوربيةٍ على ما تريد من الدولة العثمانية في

تلك المرحلة، ثم تركتها تلتهب فيها النار من الداخل، وهي تتفرّج وتؤيد، وفي الوقت نفسه تتقاسم مناطق النفوذ في إفريقية وبقية المناطق، وتأخذ نصيبها أيضاً تلك الدول التي لم تأخذ أجزاء من الدولة العثمانية مثل إيطاليا وألمانيا، كما تتنافس هذه الدول أحياناً فيما بينها، وقد يقع بينها الصدام ولكن صدام محلي.

الحركة الداخلية:

شعر المفتونون بأوربا أنهم قد وصلوا إلى أهدافهم بعد تولية مدحت باشا الصدارة العظمى أيام السلطان عبد الحميد الثاني، ومدحت باشا كبير هؤلاء المفتونين، وأمل الدول النصرانية في فرنجة التفكير العثماني أصبح كبيراً بعد أن وعد السلطان عبد الحميد الصدر الأعظم بأن يعيّن نامق كمال بك، وضياء باشا[1] مستشارين في ديوان القصر السلطاني، وكذا كان قد وعده بأن يُعلن دستوراً للبلاد، وقد أعلن السلطان فعلاً، كما جمع المجلس، غير أن السلطان عبد الحميد لم يلبث أن خلع مدحت باشا[2] من الصدارة العظمى، ولم يمض على تسلمه إياها أكثر من شهرين، ولم يف

---

(١) ضياء كوك ألب: من أصل كردي، وُلد في ديار بكر عام ١٢٩٣، اشتغل في التعليم فتأثر بمدير المعهد الذي يعمل به، وكان من اليهود، وكانت له ميول متطرفة، كما تأثر بالإلحاد، سافر إلى إستانبول عام ١٣١٥، والتحق بكلية الطب البيطري، وانضم إلى جمعية الاتحاد والترقي السرية، وأُقصي عن التعليم، وسجن، ثم أُطلق سراحه، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية في ديار بكر، أصدر جريدتين بعد خلع السلطان عبد الحميد، ثم أقام في إستانبول، وعُيِّن عام ١٣٣٤ أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة إستانبول، هرب من البلاد عام ١٣٣٦، وعاد بعد انتصار مصطفى كمال، وانتخب نائباً عن ديار بكر عام ١٣٤١، وتوفي بعدها بعامين (١٣٤٣هـ).

(٢) كان خلع مدحت باشا نتيجة اتصاله بالإنكليز، إذ كان على صلةٍ مع دذرائيلي اليهودي رئيس وزراء إنكلترا، وكان مدحت باشا يلمح بضرورة وصاية إنكلترا على الدولة كي لا تستطيع الدول الأخرى اقتطاع أي جزء من أملاكها، وعمل على اختيار ٤٨ نائباً نصرانياً من مجموع ١١٧ نائباً. كما حوكم على خلع السلطان عبد العزيز وتبيّن أنه وراء عملية قتله. فكانت جريمة القتل والخيانة العظمى في حق أمته، ووضعت إنكلترا كل ثقلها في سبيل إنقاذه.

بوعده بتعيين الرجال الذين وعد بتعيينهم، وعلّق الدستور، وأرجأ اجتماع مجلس النواب في صفر عام ١٢٩٥ إلى أجل غير مسمى، حيث لاحظ أن أكثر أنصار الدستور كانوا على صلة بالساسة الأوربيين، ومن الذين يُعادون القانون الإسلامي، لذا بدأ يبطش بكل من يدعو إلى تبني الفكر الغربي، وفي الوقت نفسه كان يهتمّ بتدريب الجيش، ويقوّي مركز الخلافة، ويدعو إلى الجامعة الإسلامية. فخاب ظن هؤلاء المفتونين بأوربا، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الدستوريين»، وانطلقوا في كل مكان يعملون على نشر أفكارهم، ويؤلفون الجمعيات السرية سواء أكانت بين المدنيين أم بين العسكريين، فتأسست جمعية الاتحاد والترقي[١] في باريس عام ١٣١٦، ووجدت جمعية الحرية في سلانيك عام ١٣٢٣، ثم اندمجتا معاً، وأصبحت الجمعية العمومية للاتحاد والترقي في باريس، أما إدارة الحركة فكانت في سلانيك. وكان أقدم هذه الجمعيات الشبيبة[٢] العثمانية التي تأسست في إستانبول عام ١٢٨٢ ولكنها كانت علنية. أما التنظيمات العسكرية فكان أولها تنظيم نيازي بك في رسنة، وتنظيم أنور بك[٣]، وتنظيم رائف بك،

---

(١) كانت جمعية الاتحاد والترقي هي الجناح العسكري من جمعية تركيا الفتاة، وعمل هذا الجناح على ترك فكرة القومية التركية مرحلياً كي لا ينفر منها غير الأتراك، فنجحت مبدئياً مما جعلها تظهر على حين يختفي اسم تركيا الفتاة.

(٢) الشبيبة العثمانية تأسست في إستانبول عام ١٢٨٢، وتهدف إلى تغريب الدولة العثمانية، وكانت سرية، لم يزد عدد أعضائها عام ١٢٨٤ على ستة أعضاء، ثم ازداد إلى ٢٤٥ عضواً مباشرة، وعندما ضغط عليها الوزير عالي باشا انتقل مركزها إلى باريس. وصدر العفو عن أولئك الأعضاء بعد وفاة عالي باشا عام ١٢٩٩ فعادوا إلى إستانبول، وضعف شأنها في باريس، حيث انضم أعضاؤها إلى الاتحاد والترقي.

(٣) أنور بك: ولد عام ١٢٩٩ في إستانبول، كان أبوه أحمد بك من حاشية السلطان عبد الحميد الثاني. وتزوج ابنة أخي السلطان، دخل الكلية الحربية في إستانبول وتخرّج منها برتبة رئيس، وعُيّن في الفيلق الثالث بسلانيك، وقاد عام ١٣٢١ العمليات العسركية العثمانية ضد العصابات المقدونية، وفي عام ١٣٢٤ عُيّن في أركان الفيلق الثالث بمناستر، وانضم هناك إلى الاتحاد والترقي، وجذب إليها الجنرال محمود شوكت، وفي عام ١٣٢٧ عُيّن ملحقاً عسكرياً في برلين فتعلّم اللغة الألمانية. ترك برلين، وانضم إلى المقاومة العثمانية في ليبيا، وعُيّن عام ١٣٣١ حاكماً على بنغازي. وعاد إلى إستانبول =

وتنظيم حسن بك، وتنظيم صلاح الدين بك، وبدأت التنظيمات العسكرية تنمو وتتسع دائرتها بسرعة، والحكومة منصرفة إلى تقوية الجيش وإلى الخطر اليهودي الذي بدأ يبرز بشكلٍ واضحٍ سواء عن طريق يهود الدونمة، أم عن طريق الماسونية، أم عن طريق اليهود من خارج الدولة، إذ ساعدوا الجمعيات السرية، وكان اليهود قد دعوا إلى اجتماع لبحث قضيتهم، وعقد المؤتمر الذي دعوا إليه في (بازل) بسويسرة عام ١٣١٤، ورأوا في المؤتمر أن يعملوا على تأسيس وطن لهم يجمعوا فيه أبناء عقيدتهم الذين يُضطهدون في العالم نتيجة تصرّفاتهم وآرائهم وعقائدهم الخاصة بهم سواء أكانت ابتزاز الأموال أم تسخير الجنس لحسابهم، أم قتل الأبرياء للحصول على الدماء لعمل فطيرهم في عيدهم، وأصرّ (هرتزل) يومذاك على أن تكون فلسطين هي الوطن لهم، وأعطى الصلاحيات من أجل تحقيق غايتهم، فنشأت الفكرة الصهيونية. وأصبح هرتزل يتصل بالسلطان عبد الحميد، ويحاول أن يعظّمه لتتوطد الصلة بينهما غير أن عبد الحميد لم يأبه به، فحاول هرتزل تحقيق هدفه عن طريق دولة أوربية واختار لذلك إنكلترا التي هي حريصة على مصر بصفتها تملك الممر لطريق الهند، على أن مصر تجاور فلسطين، لذلك فقد اختار إنكلترا، فعرض على الإنكليز إنشاء دولة يهودية في فلسطين يكون لها استقلال ذاتي، وتُساعد إنكلترا على الوصول إلى الهند إن تعذّر طريق مصر، كما يمكن مدّ خطٍّ حديدي من فلسطين إلى الخليج العربي، وذلك منافسة للألمان الذين كانوا على صراع مع الإنكليز، ولهم نفوذ في الدولة العثمانية في أواخر عهد السلطان عبد الحميد، وقد حصلوا على امتياز خطٍّ حديدي يصل بين إستانبول والبصرة عبر بغداد... وأن

= وقاد انقلاباً ضد خصومه من أعضاء تجمّع الائتلاف الحر، واستعاد أدرنة من البلغار في حرب البلقان الثانية، وحكم البلاد مع طلعت باشا، وجمال باشا حتى هُزمت الدولة في الحرب العالمية الأولى، واحتل باكو بعد الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، وفرّ إلى ألمانيا، وذهب إلى موسكو عام ١٣٣٩، ورجع إلى برلين للذهاب إلى الأناضول، وحاول الروس الاحتفاظ به، ففرّ منهم بحيلة، وانضم إلى الثورة المضادة للشيوعية في بخارى، وطلب من الروس إخلاءها، فقُتل في المعركة عام ١٣٤٢.

اليهود يمكنهم أن يقدموا المال اللازم للدولة العثمانية لتصحيح المالية بصفة أن الدولة هي صاحبة السيادة على فلسطين.

وعرض هرتزل مشروعه على روسيا أيضاً فتجاوبت معه على لسان وزير الداخلية يومذاك الذي عرض عليه أن روسيا يمكنها أن تتخلى عن أعدادٍ كبيرةٍ من اليهود الذين يعيشون في بلادها لكنها لم تكن لتتخلّى عنهم جميعاً إذ تود أن تحتفظ بأصحاب الإمكانات الفكرية منهم.

ولم يُفلح هرتزل مع السلطان عبد الحميد لذا حرص أن يستعين عليه ببعض الزعماء من العثمانيين الذين استطاع إغراءهم بالمال أو بأشياء أخرى، واستعان كذلك ببعض أصدقائه من الأجانب الذين كانوا على صلة بالسلطان نفسه أو ببعض أصحاب النفوذ، ومن هؤلاء سفراء ألمانيا والنمسا... ورفض السلطان عبد الحميد من كل من عرض عليه سواء أكان من الأجانب أم من هرتزل نفسه أم من بعض العثمانيين، ثم حاول هرتزل أن يخدم السلطان ببعض الخدمات ضد المتمرّدين من الأرمن واليونان.... ولكن ذلك لم يفد شيئاً وعندما زار إمبراطور ألمانيا إستانبول عام ١٣١٥، ومنها انتقل إلى بلاد الشام لحقه هرتزل وقابله في القدس بوساطة رئيس وزراء ألمانيا، وبوساطة السفارة الألمانية في إستانبول تمكّن ومعه الحاخام اليهودي (موشيه ليفي) من مقابلة السلطان، وقدموا الإغراءات فطردهم السلطان، وأصدر أمراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، وعندها قرّر اليهود العمل على خلعه، وبدأوا يعملون ضده، وحاولوا الإفادة من المنظمات الأرمنية.

وأما الماسونية فهي منظمات عالمية تضمّ مختلف الأديان والأجناس والشعوب وتعمل على خدمة بعضها لبعض، ولكن تعمل بوحي يهودي، وأسرار يهودية، وينتمي إليها معظم الرجالات الذين بحاجة إلى دعم وخاصة زعماء البلاد، ومن يريد لنفسه الزعامة، وقد دعمت هذه الحركة الجمعيات السرية التي تعمل ضد السلطان عبد الحميد، وبذلت قصارى جهدها لمساعدة اليهود في مسعاهم سواء أكانت الهجرة إلى فلسطين في البداية،

وتكليف الرؤساء لهذا، والقضاء على السلطان عبد الحميد في النهاية، وفي الوقت نفسه فقد عملت هذه الحركة في صفوف العثمانيين سرّاً، فهي منظمة سرية بالأصل، وتمكنت أن تضم إليها أعداداً من الأشخاص البارزين، وهي بالأصل توجه اهتمامها إلى البارزين كي تستفيد منهم، وتستطيع أن تُكلفهم بخدمات لغيرهم كي تجلبهم إليها، أو تحقق على أيديهم بعض أغراضها، ومن هؤلاء الذين كسبتهم محمد طلعت باشا[1] الذي انتخب رئيساً لمحفل الشرق العثماني. ومن الذين انضموا إلى الماسونية أحمد جمال باشا، وقد أوقعت هذه الحركة الدولة بكثير من الأزمات السياسية، وخرجت الدولة خاسرةً، ومنها حرب طرابلس، التي أعطت إيطاليا من أجلها المبالغ الطائلة للماسونية كي يقنعوا الدولة في سحب قواتها، كما عملت هذه الحركة لإرسال القطعات العسكرية إلى اليمن، وبصورة عامة أصبحت الدولة تحت نفوذ الماسونية بتأثير طلعت باشا وجمال باشا، ولما علم طلعت باشا بالمؤامرات قتلته الماسونية على أيدي الأرمن في برلين.

وأما يهود الدونمة فمن المفيد الحديث عنهم بعض الشيء. حدث اضطهاد لليهود في الأندلس في نهاية القرن العاشر الهجري فهرب كثير منهم من محاكم التفتيش، وتشرد كثير منهم من الأندلس ومن روسيا، وهاموا على وجوههم إذ يكرههم الناس، والمجتمعات، والدول لتصرفاتهم القذرة، ولم يجدوا لهم إلا التوسط لدى الدولة العثمانية لتسمح لهم بالاستقرار في

---

(١) ولد محمد طلعت عام ١٢٩٢ في أدرنة، وكان أبوه موظفاً صغيراً لدى الدولة العثمانية، درس القانون في سلانيك، وانضم إلى شركة الهاتف، ودخل في جمعية تركيا الفتاة ورأس أول خلية للاتحاد والترقي في سلانيك مع سبعة من أصاقائه، ثم اعتقل لنشاطه السياسي، وأُطلق سراحه بعد سنتين، وعُيّن رئيساً لأمناء البريد والهاتف في سلانيك، ثم عُيّن نائباً عن أدرنة عام ١٣٢٦، ثم وزيراً للداخلية، فوزيراً للبريد، وتقلّد الأمانة العامة للاتحاد والترقي عام ١٣٣٠، وانحاز في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان تحت تأثير أنور باشا، وعمل على تهجير الأرمن إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام، استقال عند الهزيمة عام ١٣٣٧، وغادر البلاد إلى ألمانيا، وقتل هناك عام ١٣٤٠.

بلادها، ووجدوا ضالتهم في زوجة السلطان سليمان القانوني اليهودية[1]، فتوسطت لهم لدى السلطان وحصلت على إذن منه بالهجرة لهم إلى بلاده، فأقام قسم منهم في إزمير، ومن هذا القسم أسرة سيفي التي وُلد لها ولد عام ١٠٣٥ أسمته سباتاي، وهو الذي ينتمي إليه يهود الدونمة، إذ ادعى أنه المسيح، وادعى عام ١٠٥٧ النبوة، وحكم عليه بالإعدام من قبل رجال الدين اليهودي، ولكن لم تُنفذ الدولة فيه الإعدام لانشغالها بالحروب، رحل بعدها إلى إستانبول فأثينا ثم رجع إلى إزمير، وعاد مرةً أخرى إلى إستانبول، ولم يطب له المقام فيها فانتقل إلى إزمير، وتزوج من فتاة يهودية اسمها (سارا)، وبعد مدة اعتقل، وأنكر ما سبق أن ادعاه أمام المحققين، وسُجن في سجن شناق قلعة، وزاره حاخام يهودي بولوني في السجن مدّعياً أيضاً أنه المسيح أيضاً فحدث خلاف بينهما، ونُقل سباتاي إثر ذلك إلى أدرنة، وهناك أظهر الإسلام خوفاً من القتل، وادعى أنه سيعمل على نشر الإسلام بين أتباعه، وفعلاً فقد تظاهروا بالإسلام، وبدؤوا يعملون ضده من داخله، وزاد أثرهم عند دخولهم في الاتحاد والترقي التي كثر عدد أعضائها وزاد خطرهم وخاصة في الجيش.

لم يعد تنظيم الاتحاد والترقي خافياً على الدولة بل ولا على الناس إذ كثرت قوتهم بين الضباط، وألّفوا عصابات تقف في وجه الحكومة إن أرادت شرّاً، حيث تسيطر على الفيلق الأول الذي مقره في إستانبول ولا تستطيع أن تحركه حتى لا تبقى العاصمة دون قوةٍ، هذا من جهة، ومن

---

(١) زوجة سليمان القانوني، هي روكسلان (خُرّم)، وكان سكان القرم قد سبوها في بعض غزواتهم في روسيا فقدموها للسلطان سليمان القانوني بصفتها جميلة جداً، فأنجبت منه ابنه سليمان الثاني، وبنتاً ولما كبرت البنت زوجتها من رستم باشا اللقيط الكرواتي، واستطاعت هذه الزوجة أن تغدر بالصدر الأعظم إبراهيم باشا وتقتله، وتُنصّب مكانه صهرها رستم، كما تمكّنت من قتل ولي العهد الأمير مصطفى بن سليمان القانوني من زوجةٍ أخرى، وأن تُنصّب ابنها مكانه بدعم من صهرها ومؤامرة معه. ولما عُزل رستم باشا تحت تأثير الانكشارية وتولّى مكانه أحمد باشا استطاعت ثانية أن تسعى مع زوجها لقتل أحمد باشا وإعادة صهرها رستم باشا ثانيةً، وتوفيت هذه المرأة عام ٩٧٣.

جهة ثانية فإن عدداً لا بأس به من الضباط فيه ينتمون إلى الاتحاد والترقي. وكان الفيلق الثاني والفيلق الثالث يُعسكران في الجهة الأوربية وهما تحت سيطرة الاتحاد والترقي. أما الفيلق الرابع فيُعسكر في أرضروم، وفيه أنصار للدولة كما فيه أنصار للاتحاد والترقي.

أرسلت الدولة الفريق أول شمسي باشا أرناؤوط قائد الفيلق الثالث للقبض على نيازي بك غير أن شمسي باشا قد قتل قبل أن يقوم بالمهمة، وسيطر قائد الجناح نيازي على مركز البريد في (رسنة)، وحدث اضطراب شعبي في العاصمة بسبب اغتيال شمسي باشا. فأرسلت الدولة ثلاثين فرقةً من الاحتياط في أزمير فانضمت هذه الفرق إلى رجال الاتحاد والترقي فقوي أمرهم.

أرسل نيازي بك برقية إلى السلطان يُعلمه فيها بأنه سيُعلن ما أطلق عليه اسم الدستور والحريات مطالباً إياه بالقبول دون قيدٍ أو شرط. فأرسل السلطان برقيةً إلى المفتش العام حسين حلمي باشا يستوضح فيها عن قوة الاتحاديين وإمكانية مقاومتهم، فجاء الجواب بما يدعو إلى إمكانية المقاومة. فكلّف السلطان حينئذ المشير خيري باشا الذي كان في سلانيك فرفض الأوامر. وتكفَّل بالأمر إبراهيم باشا قائد إحدى القطعات لكنه لم يستطع عمل شيء.

أرسل رجال الاتحاد والترقي البرقيات من كبريات المدن في الجهة الأوربية (سلانيك، ومناستر، وسكوب، وسيرز) إلى الصدر الأعظم يُهدّدون فيها بالزحف على إستانبول إن لم يُعلن الدستور.

فدعا السلطان مجلس الوزراء إلى الانعقاد، وتأخرت الصحف عن الصدور لتأخر جلسة مجلس الوزراء، إلا أن رجال الاتحاد والترقي قد سبقوا وأعلنوا عن الحرية في سلانيك ومناستر بشعارات الماسونية (العدالة، المساواة، الأخوة). واضطر السلطان أن يُصدر أوامره السامية بمنح الدستور.

وجاءت أعداد من رجال الاتحاد والترقي فاستُقبلوا استقبالاً عظيماً، وحدثت إعدامات عاجلة لكبار ضباط الشرطة السرية الذين يُعادون الاتحاد والترقي، ثم أُعلن عن استقالة وزارة فريد باشا، وتعيين سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة، وأُعلن الدستور والحريات، وصدر العفو العام، وفُتحت أبواب السجون، فانتشر المجرمون من كل نوعٍ، ومن كل جنس في البلاد.

واجتمع المجلس، وفاز فيه الاتحاديون بأغلبيةٍ كبيرةٍ، وتسلّم أحمد رضا رئاسة المجلس، وهو مؤسس جمعية تركيا الفتاة في باريس، ولاحظوا أنهم لم يحصلوا إلا على جزء من أهدافهم، أو أن نجاحهم قد غرّهم وأطمعهم في أكثر مما حصلوا عليه، أو أن السلطان عبد الحميد قد قطع عليهم الطريق عندما وافق على طلباتهم وأعلن الدستور، لذا أرادوا متابعة الأهداف وخلع السلطان عبد الحميد، فبدؤوا يُثيرون القلاقل عن طريق أولئك المجرمين الذين خرجوا من السجن، أو تنكُّر أحدهم وهجومه على الدين أو على العادات مثل لبس القبعة، وتارةً المطالبة بعزل الصدر الأعظم، أو أحد رجالاتهم أو عددٍ منهم كي تظهر المطالبة على أنها من رجال السلطان وأعوانه، أو الدعوة إلى إحياء الشريعة أو التظاهرات التي تتحرك نحو مبنى المجلس النيابي أو نحو القصر، وتحدث أثناء هذه التظاهرات الإثارات وأحداث الشغب والقتل أحياناً، و. . . ومن تلك المطالب التي نسبت إلى رجال القصر، وقاموا بها هم:

١ ـ إحياء الشريعة الإسلامية.

٢ ـ عزل الصدر الأعظم وناظري الحربية والبحرية.

٣ ـ طرد أحمد رضا، وحسين جاهد بك، وجاويد بك، ورحمي بك، وطلعت بك، وإسماعيل حقي من المجلس.

٤ ـ عزل محمود مختار باشا.

٥ ـ العفو العام.

ومن ينظر في هذه المطالب لا يشك في أنها من أعداء رجالات

الاتحاد حيث تطالب بإبعادهم غير أنها كانت منهم لإثارة القلاقل والفوضى، ورمي غيرهم بها.

وفي الوقت نفسه فقد بدأت الصحف تكيل الثناء للسلطان عبد الحميد بتوجيه من الاتحاديين كي يتأكّد الناس أنه استعاد شيئاً من قوته، وأن المطالب فعلاً إنما هي من أنصاره، وهي أيضاً تزيد الحماسة لدى الذين يدعون إلى الدستور الوضعي وإلى ما أسموه بالحرية، وتزيد من الدعم الخارجي لرجال الاتحاد خوفاً من عودة السلطان عبد الحميد إلى قوته ودعوته إلى الجامعة الإسلامية.

وأنكر السلطان عبد الحميد ما نُسب إليهِ، وخاطب العسكريين بأن الفيلق الثالث أو ما سمي باسم جيش الحركة إنما هم جنود وضباط من المسلمين مثلكم، فلا تتعرّضوا ولا تنظروا إليهم أية نظرةٍ غير لائقةٍ، ولكن عليهم ألا يصدقوا ما يُشاع، وليبقوا في ثكناتهم ولا يستعملوا السلاح كي يُفوّتوا الفرصة على أعداء البلاد. وأمر بعدم مقاومة جيش الحركة ليقطع عليهم الطريق.

أُبعد الاتحاديون قادة الكتائب من العاصمة، ولم يبق منهم سوى إسماعيل حقي الذي أمر الجنود عندما اجتمعوا في الساحة بالهدوء وتنفيذ الأوامر، فلم يبق للاتحاديين أية ثغرة ينفذون منها.

اجتمع المجلس النيابي، ولم يزد عدد الأعضاء الحاضرين على خمسين عضواً ومع ذلك فقد قرّروا إجابة المطالب التي طُرحت، وأبلغوا السلطان ذلك، فتقرّر عزل الصدر الأعظم السابق، وتعيين توفيق باشا مكانه، كما تقرّر تعيين أدهم ناظراً للحربية، وأصدر عفواً عاماً، فحدثت احتفالات بين الجند، وإطلاق الرصاص لإبقاء حالة الفوضى بإسماع دويّ الرصاص في كل وقت. ثم اجتمع المجلس وقرّر قبول استقالة أحمد رضا من رئاسة المجلس.

وادعى رجال الاتحاد أن الدستور معرض للإلغاء، والحرية مهدّدة

بالاستبداد لذا فقد تقدّم الجيش المرابط في سلانيك بإمرة محمود شوكت[١] لحماية الدستور والمجلس النيابي، وكان في هذا الجيش عناصر مشبوهة ارتدت زي الضباط. ووصل الجيش بقيادة محمود شوكت والذي أطلق عليه جيش الحرية إلى العاصمة دون مقاومة فألقى الحصار عليها، ولم يجد ما يمنعه من شيء فوقف أمام الثكنات على أمل الانتظار إلى الصباح غير أنه لم يلبث أن بدأ يصبّ نيرانه عليها فحدثت الاشتباكات الدامية وأمر إسماعيل حقي جنده برفع الأعلام البيضاء إشارة إلى الاستسلام، فتوقّف القتال، وبرز أنور باشا مع بعض رجاله فقتلوا من وجدوا في طريقهم، ثم ساروا إلى مقر إسماعيل حقي فقتلوه أيضاً، وجرّدوا الضباط من سلاحهم، ثم انتقلوا للإغارة على قصر (يلدز) حيث يُقيم الخليفة فقتلوا مرافقه، ونهبوا القصر، وأحدثوا مذبحةً كبيرةً فيه دون سبب، وأُعلنت الأحكام العرفية، ومُنع التجول من بعد المغرب.

شكّل المجلس النيابي مجلساً أطلقوا عليه اسم المجلس الملكي فاجتمع مع مجلس الحركة، وقرروا خلع السلطان عبد الحميد باستصدار فتوى من شيخ الإسلام. واجتمع مجلس المبعوثان مع مجلس النواب وقررا في جلسةٍ مشتركةٍ خلع السلطان بعد صدور فتوى من شيخ الإسلام بضغط الاتحاديين. واستدعى المجلس الصدر الأعظم توفيق باشا. لتكليفه بإبلاغ القرار إلى الخليفة فرفض، فكلّف المجلس وفداً من الفريق البحري عارف حكمت، وآرام الأرمني، وعمانوئيل قره صو اليهودي[٢]، وأسعد طوبطاني، وذهب

---

(١) محمود شوكت: ولد في بغداد عام ١٢٧٦، دخل المدرسة العسكرية في إستانبول، وتخرج منها عام ١٣٠٠ برتبة نقيب، وذهب في البعثة العسكرية إلى ألمانيا عام ١٣٠٤، ورجع برتبة جنرال (عميد)، قاد عناصر حركة ١٣٢٧، ثم عُيّن وزيراً للحربية، ثم رئيساً للوزارة عام ١٣٣١، واغتيل بعد ستة أشهر.

(٢) عمانوئيل قره صو: عُرف بسلانيك، وكان يحمل جنسية عثمانية وأخرى إيطالية، احتضن محمد طلعت منذ بداية أمره، واعتقلا معاً، واستطاع أن يُنقذ نفسه، وأن ينقذ طلعت معه، قاد العمل ضد السلطان، وقبض أربعمائة ألف ليرة ذهبية من البنك الإيطالي وسلّمها للاتحاديين لهذا الغرض وأصبح نائباً عن سلانيك، وعضو الوفد الذي بلّغ السلطان خلعه.

الوفد إلى الخليفة وقرأ الفتوى، فتقبل السلطان ذلك الأمر، ولكنه خاطبهم قائلاً: ولكن لماذا جئتم بهذا اليهودي (وأشار إلى قره صو) إلى مقام الخلافة؟

ومن ينظر إلى رجال الاتحاد والترقي، وهم من الشباب الذين لم يتجاوز أكبرهم الثلاثين كيف كانوا يلعبون بالأمة وأمورها؟ ويتغيّر رأي الواحد فيهم بين ساعةٍ وأخرى حسب المؤثر عليه، فترى أنور باشا تارةً من أكبر المتطرفين، وأخطر الثائرين، وأبعد الناس عن التفكير في تصرفاته مثل موقفه أمام الثكنة وقتل الجنود ثم قتل إسماعيل حقي... وتراه تارةً أخرى من أكبر أنصار الإسلام والمدافعين عنه مثل موقفه في قتال الطليان في ليبيا وقتاله الروس في بخارى وهكذا... ويبدو أن هؤلاء الشباب كانت طموحاتهم واسعةً فهم يفكرون في مستقبلهم المشرق بالزعامة وكان يُخطط لهم اليهود والمخابرات الإنكليزية سرّاً وهم لا يدرون إلى أين يسيرون! منهم المخلص لبلده ونفسه ومنهم ما هو دون ذلك، ولكن لا يدري ماذا يُفعل به!

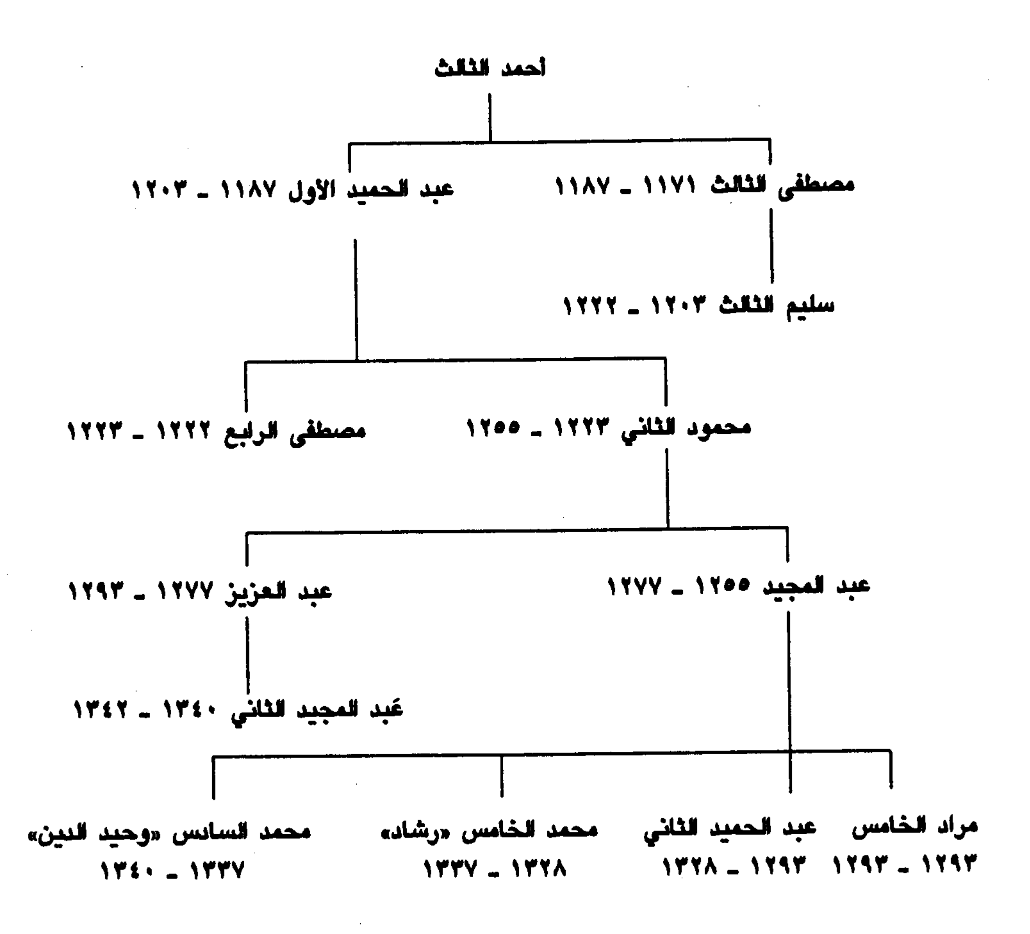
ونقل السلطان عبد الحميد إلى سلانيك مع أسرته ومرافقيه وبقي تحت حراسة الاتحاديين حتى حرب البلقان إذ نُقل بعدها إلى قصر بكلربكي في إستانبول، وبقي فيه حتى توفي.

استمر حكم السلطان عبد الحميد أكثر من ثلاثٍ وثلاثين قدّم خلالها عدداً من الخدمات إذ حفظ الدولة من الانهيار بعد الحرب مع روسيا، وقمع تمرّد كريت، وانتصر على اليونان، ودرّب الجيش على أساليب القتال الحديثة على أيدي مدربين من ألمانيا. وفتح المدارس، ودور المعلمين، والجامعة بكلياتها كافةً، ودار العلوم السياسية، والفنون النسوية، والمتاحف، والمكتبات، ومدرسة الطب، ومستشفى الأطفال، ودار العجزة، ومركز البريد، ومدّ أنابيب مياه الشرب، ودار النفوس العامة، والغرف الزراعية والصناعية والتجارية، ومعملاً للخزف، ومدّ الخط الحديدي الحجازي من دمشق إلى المدينة المنورة، وكان طوله ١٣٢٧كم، واستغرق العمل فيه سبع سنوات (١٣٢٠ - ١٣٢٧).

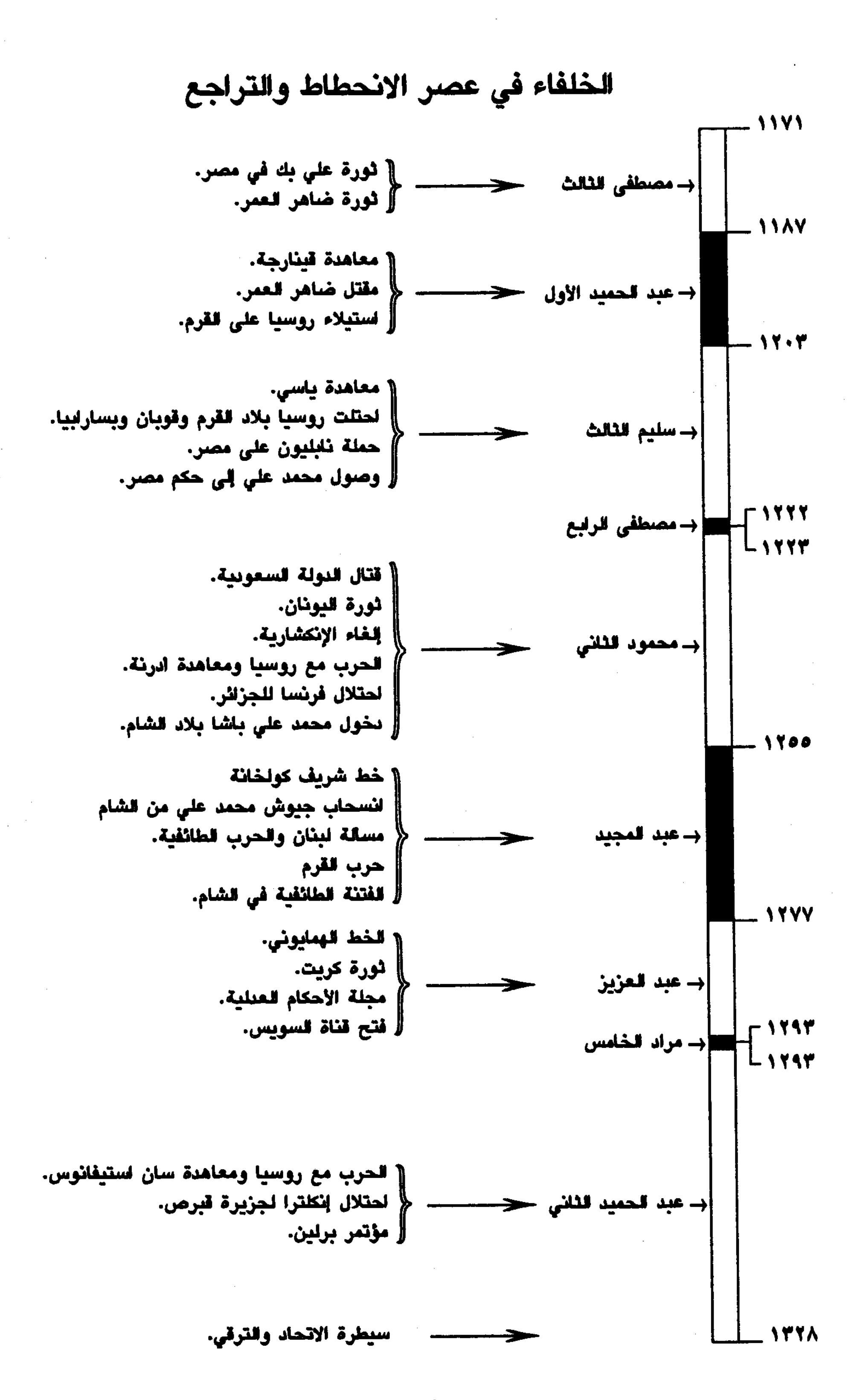
واشتهر بدعوته للجامعة الإسلامية.

وتسلّم الحكم بعده أخوه محمد رشاد. وبقي السلطان عبد الحميد في قصره حتى توفي عام ١٣٣٦.

الخلفاء في عصر الانحطاط والتراجع



الخلفاء في عصر الانحطاط والتراجع



الفصل السابع

حكم الاتحاديين

بعد خلع السلطان عبد الحميد أصبح كل شيء في الخلافة بيد الاتحاديين، أما الخليفة فكان صورةً، غير أن الأمر لم يطل إذ لم يتعاقب على الخلافة سوى ثلاثة خلفاء، وكانت الدولة قد اشتركت في الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، فهُزمت وتجزّأت، وغادر البلاد رجال الاتحاد البارزين أو الذين كانت بيدهم الأوامر والنواهي، وجاء إلى الحكم من جديد مصطفى كمال الذي كان منصرفاً إلى شهواته وبناء مجده فألغى الخلافة حسب دورٍ مخططٍ له، وزالت الخلافة العثمانية أو الإسلامية التي دامت أكثر من أربعة قرون، وبزوالها لم يعُد للمسلمين خلافة فانقسمت بلادهم، وظهرت النعرات القومية، وتصارع بعضها مع بعض حتى وهن أمر المسلمين، وهذا ما سنراه في الأجزاء التالية من الكتاب ـ إن شاء الله ـ أما الخلفاء الذين تعاقبوا أيام حكم الاتحاديين فهم:

١ ـ محمد رشاد (محمد الخامس):

ولد عام ١٢٦٠ وتولى الحكم بعد أخيه عبد الحميد الثاني عام ١٣٢٨، أي كان عمره ثماني وستين سنة.

جرت الانتخابات النيابية عام ١٣٣٠ وحصل الاتحاديون على فوزٍ ساحقٍ فيها، وانتشرت الدعوى القومية، وبدأت الصحف، والمجلات، والكتب تركّز على هذا الموضوع، وبذا فإن شعارات الاتحاد والترقي في

المساواة قد ذهبت هدراً إذ لم يتساو بذلك الترك مع بقية العناصر التي تؤلّف الدولة العثمانية، وظهرت المهاترات في الصحافة بين القوميات بسبب الحرية التي أُعطيت فسببت الإشكالات، وظهر الاختلاف بين الدعوة المركزية واللامركزية، وتبنّى الاتحاديون فكرة المركزية، وعارضهم حزب الائتلاف الحر إذ دعا إلى اللامركزية، وبصورةٍ عامةٍ فقد بدأت الدولة تتخبط في تياراتٍ فكريةٍ دخيلةٍ أشعل أوارها النصارى واليهود سواء أكانوا من الذين يعيشون كرعايا في الدولة العثمانية أم كانوا من الذين يعيشون خارج الحدود، وتتدخل مخابرات الدول الأوربية في الأمر على أية صورة كان الاختلاف.

الحرب الطرابلسية ـ الإيطالية:

كانت إيطاليا تطمح بالسيطرة على طرابلس، وخاصةً بعد أن احتلت فرنسا تونس عام ١٢٩٩، وبدأت إيطاليا تعقد الاتفاقات السياسية مع الدول الأوربية الأخرى مثل إسبانيا، وفرنسا، وإنكلترا، والنمسا، ثم انصرفت إلى تهيئة الوضع داخل ليبيا فعملت على شراء الأراضي، وإنشاء المشروعات الزراعية، وإرسال البعثات النصرانية الكاثوليكية، وفتح المدارس الإيطالية، وتأسيس شركةٍ للبواخر التي تقوم بالنقل بين ليبيا وأوربا... ومسح السواحل عن طريق ضباط يُظهرون العمل بصيد الإسفنج.

وفي ١٢٣٨ قدّمت إيطاليا إنذاراً للدولة العثمانية اتهمتها بعرقلة المساعي لتحضير سكان ليبيا، ولا تريد إضاعة الوقت بالمفاوضات، وإنما قرّرت احتلال ذلك الجزء من شمالي إفريقية، واحتج الباب العالي لدى الدول الأوربية وقد كانت على علم مسبق بالموضوع، وأعلنت الدولة العثمانية رفض ذلك الإنذار، غير أن إيطاليا قد حاصرت سواحل طرابلس وبرقة كي لا تصل إليها مساعدات، وكذا حاصرت إنكلترا الحدود البرية من جهة مصر رغم تظاهرها بالحياد. وبدأ الأسطول بقصف السواحل، وإنزال القوات، التي احتلت طرابلس، وبنغاري، والخمس، وعرفت البلاد باسم

ليبيا، وأعلنت روما ضمّ هذا الجزء من شمالي إفريقية إليها. وبدأت المقاومة تشتد حتى ألجأت المستعمرين إلى الساحل، وتقدّم العثمانيون بقيادة عزيز المصري، والمتطوعون بقيادة أنور باشا، وأخوه نوري، وعمه خليل، والسكان، ومنهم السنوسيون، ووصلوا إلى طرابلس، وانتصروا على الطليان في بنغازي.

هدّدت إيطاليا باحتلال إستانبول، إذ أرسلت بارجتين إلى هناك، واحتلت بعض الجزر، وضربت ميناء بيروت، واضطرت الدولة إلى عقد معاهدة مع إيطاليا، وانسحبت من ليبيا وتركت المجاهدين وحدهم في الميدان، واضطر أنور باشا بل أُجبر على الانسحاب فتولى قيادة المجاهدين عزيز المصري...

حدثت معاهدة السلم عام ١٣٢٩، ولم تعترف الدولة العثمانية بالاحتلال الإيطالي وإنما تعهدت بسحب موظفيها وجنودها، وصدر قرار سلطاني بإعطاء ليبيا الاستقلال الذاتي، وتعهدت إيطاليا بإعطاء الحرية الدينية، والعفو العام، وقبول ممثلٍ عثماني، ولم تُنفّذ إيطاليا بنود الاتفاقية.

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بجانب الألمان على حين وقف الطليان بجانب الحلفاء الإنكليز، والفرنسيين، والروس، فعادت الدولة وإيطاليا وجهاً إلى وجه، وعادت الدولة تُرسل المؤن والمساعدات إلى المجاهدين حتى انتهت الحرب العالمية وخرجت الدولة مهزومة مفكّكة الأوصال مقسّمة الأجزاء كل قسم يهتم بمصالحه الخاصة.

هذه الهزائم التي مُنيت بها الدولة أو جماعة الاتحاد والترقي في ليبيا جعلت خصومهم يتقوّون عليهم، وجاء التهديد من جانب الجيش فأجبرهم على التخلي عن السلطة عام ١٣٣٠، وتشكل ائتلاف سياسي من خصومهم عُرف باسم الائتلاف الحر أو الاتحاد الحر. وهكذا تخلّى الاتحاديون عن الحكم، وشكّل الوزارة محمد كامل باشا.

حرب البلقان:

رفضت البوسنة والهرسك دعوة مندوبيها لحضور المجلس النيابي في

إستانبول عام ١٣٢٧ مع أنها كانت لا تزال تتبع الدولة العثمانية اسمياً، واتجهت نحو الصرب، وهذا ما أثار النمسا التي ترغب في وضع يدها على البوسنة والهرسك، وتختلف مع الصرب عقيدياً وسياسياً، إذ أنها تدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي على حين تعتنق الصرب الأرثوذكسية، فأسرعت النمسا واتفقت مع روسيا سرّاً على أن تضمّ البوسنة والهرسك إليها مقابل أن تكون مضائق البوسفور والدردنيل مفتوحةً دائماً في وجه حركة السفن الروسية، وبالفعل فقد احتلت النمسا مقاطعة البوسنة والهرسك، ولم تتمكّن روسيا من فعل شيء، إذ لم توافق الدول الأوربية ذلك بل اضطرت روسيا أمام ضغط ألمانيا على الاعتراف بالواقع في ضمّ النمسا للبوسنة والهرسك، وزاد العداء بين النمسا والصرب.

أما إيطاليا فقد تأثّرت من فعل النمسا لأن لها أطماعاً في مقاطعة البوسنة والهرسك كذلك، وأسرعت لعقد اتفاق سري مع روسيا أيضاً، ويتضمن الوقوف في وجه النمسا فيما إذا حاولت أن تتقدّم أية خطوةٍ ثانيةٍ في بلاد البلقان.

وأعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية عام ١٣٣٠ ووقف بجانبه أعضاء التحالف البلقاني وهم: صربيا، وبلغاريا، واليونان، وتمكّنوا من إحراز النصر على العثمانيين، واستعملوا الطائرات لأول مرةٍ في هذه الحرب، وقصفوا مدينة أدرنة، وفقدت الدولة معظم أراضيها في أوربا، وبعد وقف القتال جرى الاتفاق على استقلال ألبانيا، وقُسّمت الأراضي الباقية التي كانت للعثمانيين بين أعضاء التحالف البلقاني. وعرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الأولى.

بعد هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان الأولى فقد الاتحاد الحر الحاكم في الدولة شعبيته نتيجة تلك الهزيمة، وقامت مجموعة من الضباط الاتحاديين بقيادة أنور باشا بانقلاب، وأجبرت رئيس الوزارة محمد كامل باشا على الاستقالة وتشكّلت وزارة جديدة برئاسة محمود شوكت، ولم يكن من أعضاء الاتحاد والترقي، ولم تتمكّن مجموعة الاتحاد والترقي من تمكين

قبضتها على الحكم حتى اغتيل محمود شوكت بعد ستة أشهر من تسلّمه السلطة، وبرز من هذه المجموعة طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا وإن اختلفت آراؤهم إلا أنهم كانوا هم المجموعة التي تُسيطر على الحكم وتُسيّره، وقد كانت آراء طلعت باشا تميل إلى الفكرة العثمانية والبعد عن الحكم اللامركزي، ويميل أنور باشا إلى الفكرة الإسلامية، على حين كان جمال باشا من أنصار فكرة القومية الطورانية.

ولم يلبث أعضاء التحالف البلقاني أن اختلفوا على تقسيم التركة التي حصلوا عليها، وتنازعوا حول سيادة بلغاريا على مقدونيا، وقد أصرّت بلغاريا على ذلك، فوقفت في وجهها كل من رومانيا، والصرب، واليونان، ووقعت الحرب في عام ١٣٣٢ فانضم العثمانيون في هذه الحرب ضد البلغار، وحصلوا من البلغار على جزء مما خسروه في حرب البلقان الأولى إذ ضمّوا إليهم تراقيا بما فيها مدينة أدرنة نتيجة معاهدة لندن عام ١٣٣٢، وعُرفت هذه الحرب باسم حرب البلقان الثانية.

الدولة والحرب العالمية الأولى:

لقد استطاع أنور باشا أن يجرّ الدولة إلى الحرب بجانب الألمان رغم معارضة طلعت الذي لم يلبث أن وافق على دخول الحرب، وجاويد الذي ظل متمسكاً برأيه فاستقال، وجمال[١] الذي قال بالحياد ثم انضمّ إلى جانب أنور. أما السلطان محمد رشاد فكان ضدّ الحرب ويؤيّده في ذلك ولي العهد يوسف عز الدين[٢]، وأكثر الوزراء، ولعله مما قوّى جانب أنور باشا

(١) جمال باشا: ولد في إستانبول عام ١٢٩٠، انضم إلى اللجنة السرية للاتحاد والترقي وهو ضابط ركن، أصبح عضواً في الإدارة العسكرية بعد حركة عام ١٣٢٧، ثم حاكماً لإحدى الولايات، ثم قائد قوى الأمن في إستانبول، ثم وزيراً للأشغال العامة، ثم غدا أحد عناصر الحكم بعد حركة ١٣٣١، قاد الهجوم على قناة السويس في الحرب العالمية الأولى وفشل، وعُيّن بعدها حاكماً على سورية فعمل على سحق الأرمن، غادر البلاد بعد الحرب، وعمل عند الأفغان، واغتاله الأرمن في تفليس.

(٢) يوسف عز الدين بن السلطان عبد العزيز كان ولياً لعهد السلطان محمد رشاد بصفته أكبر=

استيلاء الإنكليز على دارعتين للدولة، ولجوء طرادين ألمانيين إلى مياه الدردنيل ورفضت الحكومة تسليمهما رغم إلحاح الحلفاء، واقتراح فرنسا على جمال باشا عندما زارها مندوباً عن الباب العالي لحضور المناورات الفرنسية، ولعقد معاهدة لتقوية الصلات بين الدولتين، وكان هذا الاقتراح إعطاء استقلالٍ ذاتيٍ لسوريا وإطلاق يد فرنسا فيها. كل هذا ساعد على دخول الدولة إلى جانب الألمان في الحرب مع الاستشعار بالخطر الروسي وسيطرته على أجزاء واسعة من بلاد المسلمين في بلاد التتار والشركس وبقية القوفاز وأواسط آسيا، وسيطرة بقية دول الحلفاء من إنكليز، وفرنسيين، وطليان على مساحات واسعة من بلاد المسلمين سواء أكان في إفريقية أم في آسيا. وفي الوقت نفسه لم تكن أطماع ظاهرة بعد لألمانيا في الدولة خاصة وبلاد المسلمين عامة.

وحاول الحلفاء إبقاء الدولة على الحياد بإغرائها بالقروض المالية، وإلغاء الامتيازات الأجنبية التي كانت قائمةً والتي كانت سبباً في كثيرٍ من المشكلات الداخلية، والسماح للبحارة الألمان بالعودة إلى ألمانيا غير أن حكومة الاتحاد والترقي قد رفضت هذا كله، وألغت الامتيازات الأجنبية بنفسها، وقدّمت مذكرة للحلفاء تطلب منهم.

١ ـ إلغاء الامتيازات الأجنبية.

٢ ـ خروج إنكلترا من مصر.

٣ ـ إعادة الجزر في بحر إيجه للدولة العثمانية.

٤ ـ منع روسيا من التدّخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

وحاول الحلفاء التأخر في ردّ الجواب، وانقطعت العلاقات.

كانت ألمانيا قد تقدّمت في بلاد فرنسا، ولكنها توقّفت عند نهر

= أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة سناً، غير أنه توفي عام ١٣٣٥ قبل وفاة محمد رشاد، قيل: انتحر، وقيل: قتله الاتحاديون لمخالفتهم، وقيل: قتل بالسم.

المارن أحد روافد نهر السين الذي يمر من العاصمة باريس، فرأى الألمان يومذاك أن يضغطوا على الدولة العثمانية كي تشترك في الحرب إلى جانبهم لتُفتح جبهة جديدة في الشرق على روسيا فيخفّ الضغط على الألمان في تلك الجهة ويمكنهم التحرك نحو الغرب والهجوم من جديد، وكسر القوات الحليفة المتمركزة عند نهر المارن. وعرضوا على الاتحاديين قرضاً مالياً بمبلغ خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية مقابل دخولهم إلى جانبهم.

أمر وزير الحربية أنور باشا الأسطول العثماني بالتحرك إلى البحر الأسود وضرب مرافئ روسيا على البحر الأسود، فلم يوافق وزير البحرية جمال باشا، وكاد الخلاف يقع بينهما إلا أن جمال عاد وامتثل لرأي أنور، وخاصة كان القرض الألماني من أهم المغريات له.

ضربت القطعات البحرية العثمانية مرفأ أوديسا وأغرقت طراداً روسياً، وضربت دارعة ألمانية ميناء سيباستيبول وفي أثناء انسحابها أغرقت باخرة نقل روسية، وجرت معارك بحرية في ذلك البحر بين الطرفين، وبذا دخلت الدولة الحرب إلى جانب الألمان وإن كان الخليفة والصدر الأعظم لم يعلم بذلك بعد. ولما علم ووافق تحت الضغط والقبول بالأمر الواقع أعلن الجهاد المقدس ضد الحلفاء، غير أن المسلمين لم يتجاوبوا معه لأنّ ألمانيا دولة نصرانية مثل بقية دول الحلفاء، ولأن رجال الاتحاد والترقي لم تكن عندهم تلك الحماسة الدينية أو العمل للإسلام بشكل واضح هذا بالإضافة إلى ضعف المسلمين وعدم معرفتهم بما يدور حولهم، ومصالح بعضهم، ورغبة بعض زعمائهم ببقاء الدولة على الحياد فربما كان ذلك في مصلحة المسلمين.

أما دول الحلفاء فلم تكن سوى إنكلترا ترغب بدخول الدولة العثمانية إلى جانب الحلفاء، لأن فرنسا تريد تحقيق مصلحتها في سوريا، وروسيا تريد الاستيلاء على إستانبول والسيطرة على المضائق فإذا دخلت الدولة إلى جانبهم لم تتحقق مصلحة فرنسا ولا مصلحة روسيا، لذا كانتا تريان بقاءها على الحياد والتحكم فيها بعد تحقيق النصر.

اشتعلت نار الحرب بين الدولة والحلفاء على عدة جهات، وقد جمعت الدولة بعد التعبئة العامة نصف مليون جندي تحت السلاح، وربع مليون آخر كان تحت التدريب. احتفظ منها بمائتي ألف حول العاصمة والدردنيل، وخمسين ألفاً في تراقيا احتمالاً لأي طارئ يأتي من هذه الجهة، ومائة ألف وضعوا على الجبهة الشرقية التي كان مقرها أرضروم، وأربعين ألفاً أرسلوا إلى فلسطين، وكان أكثر من مائة ألف على شكل قطعات موزعة في سوريا والقوقاز.

١ ـ الجبهة الشرقية:

هاجم العثمانيون الروس من ناحية القوقاز لتخفيف الضغط عن حلفائهم الألمان، متحدّين برد الشتاء القاسي، وهذا ما لم يتوقعه أحد، وقاد هذه الجبهة أنور باشا بنفسه بمائة ألف جندي، غير أن الهجوم العثماني قد فشل، وأُبيدت قطعات عثمانية بشكل تام، واضطروا إلى التراجع إلى قاعدتهم في أرضروم.

٢ ـ جبهة قناة السويس:

أراد العثمانيون الهجوم على قناة السويس لقطع طريق الهند عن الإنكليز، وإخراجهم بالتالي من مصر، وتوقّعوا أن يقف الشعب المصري بجانبهم في الوقت الذي يصلون فيه إلى ضفاف القناة، وبناءً على هذا التوقع لم يستعدوا كثيراً لهذه الحملة. وساعدهم على التقدّم في سيناء يومذاك هطول أمطار فتماسكت الرمال، وأمكن الحركة بسهولة، غير أن المدافع الثقيلة صعب نقلها إلى خط الجبهة. وإن بُعد هذه الجبهة لم يُمكّن العثمانيين القيام بالهجوم على هذه الجبهة في بداية الحرب، وإنما تأخر قليلاً، ومما زاد في التأخير أن القوة التي تشكلت في دمشق والتي تؤلّف الجيش الثامن، ومعظمها من سكان بلاد الشام، قد فرّت أعداد منها من الجيش، فاضطر المسؤولون إلى إبدالها بقواتٍ من الأناضول حيث تشكّل

الجيش الرابع وأعطيت قيادته إلى جمال باشا على حين نُقل الجيش الثامن إلى بلاد الأناضول.

وتحرّكت قطعات من الجيش الرابع إلى الجبهة المصرية، وبقيت قطعات أخرى مرابطة في بلاد الشام خوفاً من أن ينزل الحلفاء قوات على سواحل بلاد الشام، إضافة إلى الخوف من السكان وخاصةً النصارى الذين كانوا على صلة مع الحلفاء سواء أكانوا من الكاثوليك الذين يعدون أنفسهم رعايا لفرنسا، أم من الأرثوذكس الذين يعدون أنفسهم رعايا للروس، ويكثر الأوائل منهم في لبنان على حين يزيد الآخرون في بقية بلاد الشام.

تحرّكت ثماني فرق عثمانية من بلاد الشام عبر سيناء إلى قناة السويس، في بداية شتاء عام ١٣٣٣، وقد سلكت محورين في تحرّكها أولهما محور رفح ـ القنطرة، وهو الأقصر ويزيد طوله على ٢٢٥ كيلومتراً، وثانيهما، وهو طريق معان ـ السويس وهو طريق للقوافل يوازي خط العرض ٣٠° شمالاً ويزيد طوله على ٣٢٥ كيلومتراً.

ووصلت القوات العثمانية إلى ضفاف قناة السويس بعد خمسة عشر يوماً من الحركة، وكانت القطعات الهندية مكلفةً بحماية القناة من أي هجوم عثماني، وقام العثمانيون بهجومهم قبل الموعد المحدد سابقاً والمتفق عليه مع زعماء مصر المسلمين الذين وعدوا بالحركة ضد الإنكليز، ونفذت ذخيرة العثمانيين واضطروا إلى العودة بعد أسبوعين إلى مراكزهم في غزة ومعان، غير أن البدو بدؤوا يغيرون على مصر من الغرب من جهات ليبيا ومن الشرق من جهات سيناء، ولكن الغارات لا تدخل في حساب الحرب العالمية وإنما مهمتها إرباك الخصم، وشل حركته، وإبقاء قطعات من جيشه على أهبة الاستعداد لردّ تلك الغارات.

وبعد شهرين جرت محاولة ثانية للهجوم على قناة السويس مع مطلع شهر الربيع، وقاد الألمان العمليات، غير أن الفشل كان حليف الهجوم الثاني، وقام هجوم ثالث بعد ثلاثة أشهر أخرى في منتصف فصل الصيف وكان قادة العمليات من الألمان أيضاً، وفشل هذا الهجوم كذلك.

٣ ـ جبهة عدن:

وكانت هذه الجبهة ثانوية إذ حاول العثمانيون الهجوم على عدن لإخراج الإنكليز منها، وعرقلة طريق الهند عليهم، ووقف أهل اليمن بجانب العثمانيين على الرغم من القتال السابق والذي استمر عدة قرون، فكانت أرض اليمن مقابر للجنود العثمانيين، وكان العداء مستحكماً بين الطرفين، وكان موقف اليمن بجانب العثمانيين بمقتضى العقيدة، وفشل الهجوم العثماني ـ اليمني على عدن.

ووقف الإدريسي في تهامة عسير، والذي كان مقره «صبيا» بجانب الإنكليز، وقدّم لهم مساعدات كثيرة، وكان على خلاف مع الأئمة الزيود في صنعاء، وربما كان دعم الإنكليز له، هو الذي ساعد على دخول اليمن إلى جانب العثمانيين إضافةً إلى ما ذكرنا من أثر العقيدة.

٤ ـ جبهة الدردنيل:

يُعدّ مضيق الدردنيل مهماً جداً إذ يحول دون وصول الأعداء إلى العاصمة إستانبول، لذا فقد اهتمّ العثمانيون بتحصين هذه الجبهة سواء من ناحية البر الآسيوي أم من ناحية البر الأوربي، واشتهرت قلعة (تشانقلعة) من جهة البر الآسيوي وهي عند المدخل الجنوبي، وغاليبولي من جهة البر الأوربي قبل الدخول في بحر مرمرة، وكانت قطعات الحلفاء قريبة من مضيق الدردنيل، وقام العثمانيون بهجومٍ عليها غير أنهم فشلوا في هجومهم هذا.

الهجوم الإنكليزي:

جرت اتصالات بين الإنكليز وشريف مكة من الهاشميين انتهت بالاتفاق على العمل معاً ضد العثمانيين، ووقف آل رشيد في حائل على الحياد، وعُزل جمال باشا من قيادة الجيش الرابع المكلف بالحملة على قناة السويس، وغدت القيادة في تلك الجبهة كلها بيد الألمان. وهجم الإنكليز

على سيناء، وتقدّم فيصل بن الحسين من مكة يقود فيالق العرب، وهوجمت القوات العثمانية في جبل الدروز، وبعلبك، وحدثت المجاعة في صفوف القوات العثمانية، كل هذا جعل العثمانيين يتراجعون، وكان لهم ثلاثة جيوش في جنوبي بلاد الشام، وقائدها العام الضابط الألماني (ساندرس).

١ ـ الجيش الرابع في البلقاء في الأردن.

٢ ـ الجيش السابع في الوسط، ويقوده مصطفى كمال.

٣ ـ الجيش الثامن في الغرب، ويحمي السواحل.

تقدّم الإنكليز في فلسطين بقيادة الجنرال «اللنبي»، ودخلوا القدس، وأعلن «اللنبي» صليبيته فقال: الآن تنتهي الحروب الصليبية. وقاموا بهجوم عام ١٣٣٦ في جنوب نابلس، وتقدّموا نحو مقر القيادة في الناصرة، وكاد يقع الجنرال الألماني «ساندرس» في الأسر، وتراجع العثمانيون بقيادة مصطفى كمال، وكان الفيلق العربي بقيادة فيصل بن الحسين ويساعده لورانس الإنكليزي قد دخل معان واتجه شمالاً، وانتظره الإنكليز حيث طلبوا منه أن يدخل دمشق قبلهم تكريماً له أو سياسةً ليرضوا أطماعه فيبقى بجانبهم، أو ليعرفوا كيف يستغلونه، ثم دخلت بلاد الشام كلها في قبضة فيصل والإنكليز.

وعلى جبهة المضائق أصدر القائد الإنكليزي (هاملتون) الأوامر بالنزول في بر المضيق، وأعطى القطعات الإنكليزية مهمة النزول على البر الأوربي في غرب غاليبولي، ومهمة النزول في البر الآسيوي إلى القطعات الفرنسية، فنزل عشرون ألف جندي، وأعطت القيادة المشتركة من الألمان والعثمانيين الأوامر إلى مصطفى كمال بالتحرك إلى ساحة المعركة، والتقى الطرفان، ولم يحدث نصر واضح لأية جهة، إذ دافعت القوات العثمانية دفاعاً قوياً، وأظهرت القطعات الاسترالية حماسةً للتقدم أيضاً.

قامت القيادة المشتركة بهجوم على قوات الحلفاء لكنها أخفقت في

زحزحتهم عن مواقعهم، ثم قام هجوم إنكليزي كانت نتيجته الفشل أيضاً، وبدت الكفتان متوازنة تقريباً. ثم تراجع الحلفاء أمام مصطفى كمال دون معارك، وبدأ يلمع نجم مصطفى كمال.

ومع انسحاب العثمانيين من بلاد الشام، وتراجعهم في العراق، بدت عليهم علائم الضعف، ولم تكن حال حلفائهم الألمان بأفضل حالاً، وإن كان التماسك لا يزال قائماً إلا أنه تماسك مؤقت. والتقى مسؤولون عثمانيون وإنكليز على ظهر الباخرة الإنكليزية (أغامنون) ووضعت شروط للهدنة، وأعلنت الدولة استسلامها.

فكان الاتحاديون في أثناء حكمهم القصير والذي لا يتجاوز عدة سنوات قد أضاعوا كل أجزاء الدولة في أوربا، إذ استقلت بلغاريا، واحتلت النمسا البوسنة والهرسك، وأخذت اليونان كريت و... كما احتلت إيطاليا ليبيا، وبعض جزر البحر المتوسط... ومع هذا فقد سيطرت فكرة القومية التركية أو الأفكار الطورانية رغم الرغبة الملحة بالمحافظة على الرابطة العثمانية... وفي الوقت نفسه فقد أزال الاتحاديون بعض الزعماء الذين كان لهم نفوذ في الدولة من العرب خاصةً إن لم نقل كلهم أمثال عزت باشا العابد. فنشأ عند العرب ردّ فعلٍ لهذا إن لم نقل أنهم تأثروا أيضاً بالفكر القومي الذي بدأ يظهر، وتُذكيه أوربا النصرانية لتفكيك أوصال الدولة العثمانية، حتى نستطيع أن نقول: إن الاتحاديين بتصرّفاتهم، وهزائمهم، ودعوتهم القومية قد حملوا العرب على قبول الفكر القومي أو شجعوهم على ذلك، فأسسوا حزب اللامركزية في أثناء الحرب البلقانية، ويدعو إلى الإدارة اللامركزية بحيث تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقى مرتبطةً بإستانبول خارجياً، وعسكرياً، ومالياً. واتفق هذا الحزب مع فرنسا قبيل الحرب العالمية الأولى على تدريب الفرنسيين لرجاله، وأخذ عشرين ألف بندقية. وفي الوقت نفسه تشكلت جمعيات سرية تتقارب أهدافها مثل الجمعية القحطانية برئاسة عزيز المصري، وعبد الكريم الخليل، ويدعو إلى إقامة دولة عربية واحدة تتحد مع دولةٍ تركيةٍ في ظل الخلافة

العثمانية، والجمعية العربية الفتاة التي أسسها طلاب يدرسون في باريس، وكانوا أكثر تطرّفاً إذ يدعون إلى انفصال العرب كلياً، إذ كانوا متأثرين بالفكر القومي، وآراء الغرب، وأهداف الماسونية، ومع قوة النفوذ الفرنسي تمكنوا من نقل مقرهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق، وبدأ عدد الأعضاء يزداد بسرعة بعد أن كان مقصوراً على سبعة أعضاء يقومون بنشاطاتهم بمساعدات ودعم فرنسي.

وفي عام ١٣٣١ تألفت جماعة في بيروت سمت نفسها لجنة الإصلاح ودعت هذه الجماعة إلى الإدارة المحلية، وجعل اللغة العربية رسمية ومكافئة للغة التركية في المجلس النيابي العثماني، وتأدية الخدمة الإلزامية للعرب ضمن بلادهم، غير أن الاتحاديين قد قاموا بحل هذه الجمعية وإغلاق مراكزها، فقامت هذه الجمعية بالتعاون مع جميعة النهضة اللبنانية في المهجر بالاتصالات المستمرة مع القنصليات الفرنسية، وقدمتا مذكرة إلى فرنسا تطلبا منها احتلال بلاد الشام. أما أصحاب الفكر القومي في العراق فكان اتصالهم مع إنكلترا، وهذا يدلّ على أن التفاهم كان قد تمّ على مناطق النفوذ.

ولما شعر الاتحاديون بالخطر المحدق بالدولة من جراء أصحاب الفكر القومي، وما يجرونه من اتصالات مع النصارى الأوربيين لجؤوا إلى طريق القمع الأمر الذي أدّى إلى عودة الجمعية العربية الفتاة إلى باريس، والدعوة إلى عقد مؤتمر في باريس، وعقد المؤتمر عام ١٣٣٢ وحضره مندوبون عن بلاد الشام والمقاطعات العربية الأخرى، وعن المهجر، وكان عدد الأعضاء النصارى فيه يعادل الأعضاء المسلمين، وقدّمت فرنسا للمؤتمر الخدمات والمساعدات كلها، وحاول الاتحاديون الضغط على فرنسا لإلغاء المؤتمر، ولكنهم لم يفلحوا لأن فرنسا كانت تتصل مع الاتحاديين وتعقد معهم المعاهدات وفي الوقت نفسه تدعم هؤلاء المعارضين للسلطة، وتعدهم أنصاراً لها ليكون لها النفوذ القوي في البلاد، وقد نجحت فرنسا في تحقيق أهدافها إلى حدٍ كبير إذ تمكنت أن تخفف من قيمة الرابطة

الدينية لدى المسلمين، وتنمي الفكر القومي عندهم حتى أن عبد الحميد الزهراوي من الذين وقعوا في هذه الشباك، ويُعدّ من المغرر بهم رغم علمه قد قال في مؤتمر باريس هذا «إن الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية».

أرسل الاتحاديون إلى باريس أمين سر جمعية الاتحاد والترقي وهو مدحت شكري فاتصل مع زعماء العرب وحضر المؤتمر، واتفق معهم على أن تكون:

١ ـ اللغة العربية رسميةً في الولايات العربية، وفي المدارس الابتدائية والثانوية.

٢ ـ الخدمة العسكرية في المناطق المحلية.

٣ ـ ثلاثة وزراء من العرب، وخمسة ولاة، وعشرة متصرفين.

٤ ـ نائبان في مجلس الأعيان عن كل ولاية عربية.

ووقع هذه الاتفاقية عن الحكومة الاتحادية وزير الداخلية محمد طلعت باشا وعن المؤتمرين العرب عبد الكريم الخليل. أما المؤتمرون العرب فكانت مقررات مؤتمرهم:

١ ـ ضرورة القيام بالإصلاح الإداري وبشكل سريع.

٢ ـ اشتراك العرب في الإدارة المركزية.

٣ ـ تأدية الخدمة الإلزامية محلياً.

٤ ـ جعل اللغة العربية رسميةً.

٥ ـ تأييد الأرمن في مطالبهم القومية. ويظهر من هذا البند الأخير الأثر النصراني في المؤتمر.

لم يتمّ شيء مما اتفق عليه لاختلاف الاتحاديين فيما بينهم، وتباين آرائهم، ولاندلاع الحرب العالمية الأولى واشتراك الدولة فيها، إذ أن هذا

الاشتراك لم يكن يريده أبداً هؤلاء المتزعمون، وخاصةً أن الاشتراك كان بجانب الألمان، وهم على صلة بالفرنسيين والإنكليز، وكان الاشتراك معناه الأحكام العرفية والقبض على المتعاونين مع الأعداء، وقد ألقي القبض على عزيز المصري وحُكم عليه بالإعدام غير أنه لم ينفذ فيه لتدخل الإنكليز. وقامت جمعية العهد التي تألفت من الضباط العرب وكان أغلبهم من العراق لكثرتهم في الجيش العثماني، وحلّت محلّ الجمعية العربية الفتاة.

وفي هذه الأثناء حصل اتفاق بين الدولة العثمانية والإمام يحيى حميد الدين في اليمن على أن يكون له حكم مرتفعات اليمن، له ولأبنائه من بعده، وعلى أن تبقى تهامة وسواحل البحر الأحمر تحت سيطرة العثمانيين.

وقوي أمر الملك عبد العزيز آل سعود في وسط الجزيرة، وأظهر العصيان، غير أن آل رشيد في حائل قد وقفوا إلى جانب الدولة. وأرسل الاتحاديون الشريف حسين بن علي من إستانبول إلى مكة ليحولوا به دون أطماع سلطان نجد، فكان عليهم، وكانت المراسلات مع مكماهون في القاهرة، وكانت الحركة العربية، وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد نصح باستبقائه في إستانبول لمعرفته بنواياه وطموحاته، إذ أرسل الشريف حسين بن علي ابنه عبد الله إلى القاهرة حيث التقى مع كتشنر، ولم تكن نتيجة اللقاء أمراً أكثر من إرساء دعائم اللقاء. وكان الإنكليز يرغبون أن يكون بيدهم رجلاً ذا مكانةٍ بين العرب، يمكن الإفادة منه وقت الضرورة، إذ يُهمّهم بالدرجة الأولى طريق الهند، والردّ على إعلان الجهاد الذي يمكن أن يعلنه الخليفة. لذا فعندما دخلت دولة الخلافة الحرب إلى جانب الألمان، تغيّرت طبيعة العلاقات بين العرب وإنكلترا، إذ أعلنت إنكلترا إنهاء السيادة العثمانية على مصر التي جعلتها محميةً إنكليزية، وخلعت الخديوي عباس حلمي، وعينت مكانه عمه حسين كامل، وأطلقت عليه اسم (سلطان) نكايةً بالخليفة العثماني إذ أصبح كلاهما سلطان، فإذا أعلن الخليفة الجهاد نادى به السلطان، وضاع المسلمون فأي جهاد يلبون. وفي الوقت نفسه كشفت

الصلات مع شريف مكة الحسين بن علي إذا دعا لإعلان الجهاد من البيت الحرام، وبهذه الطريقة حاولت إنكلترا تحقيق هدفها. وفي الوقت الذي يتصل فيه الحلفاء مع العرب وخاصةً إنكلترا وفرنسا كانوا يتفقون فيما بينهم لتقسيم البلدان العربية أو التركة العثمانية ـ كما يسمونها ـ وقد كان اتفاق سايكس ـ بيكو المعروف الذي سنتناوله في الجزء القادم ـ إن شاء الله ـ.

ومع دخول دولة الخلافة الحرب كان لا بدّ من إلقاء القبض على الذين يتصلون مع الأجانب وبخاصة أن هؤلاء الأجانب نصارى ضد عقيدة الدولة وضد عقيدة السكان، ومن ناحية أخرى فهم الآن أعداء لأنهم في حرب معهم لذا يمكن القبض على النصارى والمسلمين الذين يتصلون مع فرنسا وإنكلترا وروسيا بوجه خاص، وقام جمال باشا ودخل القنصليات الأجنبية في بيروت، وإن كان هذا الدخول ليس من حقه دولياً غير أن وقت الأزمات لا يعترف عادة بالحقوق، وإنما الحق للقوة، فوجد الوثائق التي يتوقّعها وهي الصلات بين بعض الزعماء والأجانب فألقى القبض عليهم وحاكمهم وحكم عليهم بالإعدام، بعد أخذ رأي عددٍ من العلماء في ذلك. وقد أثارت هذه الإعدامات شيئاً من النقمة على جمال باشا خاصةً، وسُمّي الذين أُعدموا بالشهداء، وكان حجةً لثورة الشريف حسين ضد الدولة إذ أرسل ابنه فيصلاً ليتوسط لدى هؤلاء فأراد جمال باشا أن يلقي القبض عليه فاختبأ وأرسل لوالده فاندلعت الحركة من مكة، وكان قد تمّ التفاهم مع الإنكليز، وهُزم العثمانيون.

ويمكن القول: إن عدداً من الزعماء المسلمين العرب كانوا يريدون إصلاح الجهاز الإداري، وتأدية الخدمة العسكرية محلياً، والمحافظة على اللغة العربية ولا يريدون الانفصال عن الدولة العثمانية وتجزئتها أبداً غير أنهم وقعوا في شباك أصحاب الفكر القومي، والآراء الغربية، والافتتان بأوربا، وبالتالي بالتأثير النصراني، والتوجيه الخارجي، والاتصالات الأجنبية، والجهل لا يُعفي من المسؤولية، والسذاجة لا يرضى بها الإسلام، أما النصارى من رعايا الدولة العثمانية ودعاة القومية فقد كانوا

على صلةٍ بالأجنبي، ويطالبون بالانفصال، ويدعون إلى ذلك، ويعادون الإسلام بكل وقاحة.

وتوفي الخليفة محمد رشاد قبل استسلام الدولة بعدة شهور، وتولى بعده أخوه محمد وحيد الدين.

٢ ـ محمد السادس (وحيد الدين):

استسلمت في عهده الدولة بل بعد أن استلم الخلافة بعدة شهور فقط، وهو من مواليد ١٢٧٧، وعندما آل إليه الأمر كانت قد هُزمت الدولة، واحتل الأعداء أكثر أجزاء الدولة باستثناء بعض المناطق لأن روسيا كانت قد قامت فيها الثورة الشيوعية فانسحبت من الحرب، ولم تستطع أن تفعل شيئاً من تقدّمٍ في المناطق الشرقية أو احتلال أجزاء من الدولة.

لقد سيطر الحلفاء على إستانبول والمضائق، واحتلت اليونان الأقسام الغربية، وإيطاليا أجزاء من الجنوب، وضاعت البلدان العربية، وأراد السلطان محمد وحيد الدين أن ينقذ الدولة مما هي فيه، فوضع ثقته في مصطفى كمال فخاب ظنّه، وكان مصطفى كمال قد لمع نجمه، وأصبح يعمل لنفسه، فلما وجد محمد وحيد ذلك اعتزل السلطة، وتنازل عن الخلافة عام ١٣٤٠...

ونتيجة الهزيمة كان لا بدّ من استقالة الوزارة التي يرأسها طلعت باشا أحد كبار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وتألفت وزارة جديدة برئاسة أحمد عزة باشا الأرناؤوط، وقد بعثت هذه الوزارة وفداً وزارياً برئاسة وزير البحرية رؤوف بك[1]، أرسلته إلى مدينة مودروس في جزيرة لمنوس في بحر إيجه.

---

(١) رؤوف بك: تولّى وزارة البحرية، ثم أصبح رئيساً للوزراء في أول عهد مصطفى كمال، ثم اختلف معه، وفر من البلاد، وحكم عليه بالموت غيابياً، وانتقل إلى الهند عام ١٣٥٠، وعاش في باريس، ثم رضي عنه مصطفى كمال فرجع إلى بلاده عام ١٣٥٥، ثم عُيّن سفيراً لتركيا في لندن.

أما زعماء البلاد من الاتحاد والترقي فقد غادروا البلاد على ظهر سفينة ألمانية إلى شبه جزيرة القرم، ومنها انتقلوا إلى برلين ومنهم: طلعت باشا، وأنور باشا، وجمال باشا، ووالي بيروت عزمي بك، واغتيل طلعت باشا في برلين، وفرّ أنور باشا من بين أصدقائه خلسةً من القطار، وسار إلى القفقاس حيث أخوه نوري يقاتل الروس، ثم انتقل إلى موسكو، وأراد الإفادة منهم فخدعوه، ففر منهم وسار إلى بخارى يريد قتال الروس، وقتل هناك أثناء الثورة التي أثارها. وذهب جمال باشا إلى أفغانستان بدعوة من أمان الله خان، وبدأ ينظم جيشها، وسافر إلى باريس ماراً بموسكو فاحتجزه الروس، وأعلن أنه سيسافر إلى تركيا فسمحوا له بذلك وقد اغتاله الأرمن في تفليس. كما اغتيل بقية الزعماء في برلين.

وبقي في الدولة رجالات الاتحاد والترقي من الدرجة الثانية وغيرهم من الضباط أمثال مصطفى كمال فقرّبه السلطان وحيد الدين إذ كان يعرفه عندما كان مرافقاً له أثناء سفره إلى برلين عندما كان وحيد الدين لا يزال ولياً للعهد. فعيّنه مفتشاً للجيوش في الأناضول وزوّده بصلاحيات واسعة وبمبلغ ضخم من المال، وعهد إليه القيام بالثورة هناك كي يتمكن السياسيون من المناورة.

أبلغت لجنة الحلفاء العليا المجتمعة في باريس والمؤلفة من رؤساء وزارات كل من إنكلترا، وفرنسا، وإيطاليا، واليونان الحكومة التركية قراراً يقضي بنزول الجيوش اليونانية في أزمير، وحذّر القرار الدولة من المقاومة، وأن المقاومة تعني نقض الهدنة وإعادة الحرب. وقد نزل اليونانيون فعلاً في اليوم الثاني في مطلع صيف ١٣٣٨.

ويبدو أن الحلفاء قد أدركوا ما يقصد من إرسال مصطفى كمال إلى الأناضول، فاحتجوا على ذلك، كما احتج ولاة الأناضول من تصرفاته هناك، حيث كان قد عقد مؤتمراً في أرضروم ضمّ زعماء المنطقة، ونواب الأقاليم الشرقية، وقرروا انتخاب مصطفى كمال[١] رئيساً للمؤتمر، واتفقوا

---

(١) مصطفى كمال: ولد في سلانيك عام ١٢٩٨ من سفاح، تسمّى أمه زبيدة، ونسب إلى=

على الولاء للخليفة، والدفاع عن البلاد، ودعوا إلى عقد مؤتمر في مدينة «سيواس».

عقد المؤتمر في سيواس بعد مدةٍ قصيرةٍ، وضمّ أعداداً أكبر من سابقه، وعُدّ أنه يمثل البلاد جميعها إذ أرسلت البرقيات إلى ممثّلي المناطق كلها لحضوره، وتمّ انتخاب مصطفى كمال رئيساً له بعد أخذٍ وردٍّ، وكان

= علي رضا أحد موظفي الدولة في سلانيك، وسافر إلى إستانبول عام ١٣١٨ للالتحاق بالكلية الحربية، وتخرّج منها عام ١٣٢٢ برتبة رائد، وعُيّن في لواء الفرسان الثلاثين التابع للجيش الخامس في الشام، ولم يكن نظامياً فكان يذهب دون إذن من يافا إلى سلانيك، وتحذره أمه مغبة ذلك، لكن لا يبالي. وفي عام ١٣٢٥ انهى مرحلة التدريب فعُيّن في إدارة الجيش الثالث في بلده سلانيك، وحاول تأسيس جمعية الوطن والحرية لتنافس جمعية الاتحاد والترقي التي كان على خلاف مع زعمائها، ونفي إلى طرابلس عام ١٣٢٦ فعاد هارباً بعد شهرين، وكان مع جيش محمود شوكت الذي سار إلى إستانبول لخلع السلطان عبد الحميد الثاني، كان مع الجيش بصفته ضابطاً في ذلك الجيش لا لأنه كان مع أعضاء الحركة، وفي عام ١٣٢٨ أصبح نائباً لقائد اللواء ٣٨ المرابط في سلانيك، وسافر يومها إلى فرنسا لمشاهدة المناورات الفرنسية. وسار عام ١٣٢٩ إلى ليبيا للقتال مع المقاومة ضد الطليان حباً في الشهرة، وانتقل من مصر إلى إستانبول عن طريق رومانيا، واشترك في حرب البلقان الأولى، وعُيّن إثرها مديراً لدائرة الحركة العسكرية المكلفة بحماية شبه جزيرة غاليبولي، وكُلّف بالقيام بهجوم في حرب البلقان الثانية فقام به قبيل صدور الأوامر إليه فهُزم وفرّ من الميدان، وعُيّن ملحقاً عسكرياً في صوفيا، ورجع بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وحاول ملازمة أنور باشا مع وجود الكراهية بين الاثنين، وكان يطلب منه مهمةً في خط النار، فأوكلت إليه قيادة الفرقة ١٩ المكلفة بحماية (تشنا قلعة) ثم انتقل مع فرقته إلى ديار بكر، ورقي إلى رتبة لواء (باشا) عام ١٣٣٤، وعُيّن نائباً لقيادة الجيش الثاني، ثم اقترح أن يكون قائداً لقوة الجوالة التابعة للجيش السابع للدفاع عن المدينة المنورة، غير أن هذه القوة لم تشكل. وبعد إجازة قضاها في الحانات أعيد إلى الجيش السابع أيام السلطان وحيد الدين فانسحب أمام الإنكليز أثناء تقدمهم في الشام، واتصل الإنكليز به يومذاك وحرضوه على القيام بالثورة على الخلافة على أن يدعموه بما يريد فوافق ولكن لم يجد له أعواناً من الضباط يساعدونه في حركته فتركها، وعندما وُقّعت الهدنة طلبت منه وزارة عزة باشا العودة إلى إستانبول فعاد، وحاول الإفادة من حزب الحرية والائتلاف الذي ظهر بعد الحرب وسقوط الاتحاد والترقي. ولكن لم يركنوا إليه.

كان مصطفى كمال منصرفاً إلى الخمرة والنساء، ويأخذ ذلك منه جلّ وقته، وعلى كرهٍ شديد للإسلام، وعلى صلة مع الإنكليز، وهم الذين رفعوه، مستميتاً على الزعامة.

الإنكليز يرحبون بهذه التصرّفات، وقد اتصلوا بمصطفى كمال في الأناضول.

انتقل مصطفى كمال من سيواس إلى أنقرة لمقابلة النواب الذين سيسافرون إلى إستانبول، وانتخب نائباً عن أنقرة غيابياً، وكان يرغب في رئاسة المجلس، ويعمل لذلك، ولكن لم يتمكّن من السفر إلى إستانبول، إذ كان قد استدعي إليها أثناء حركته فلم يُلب، وتكررت الاحتجاجات ضده، وتكرر رفضه، وعدم الاستجابة حتى هدد الحلفاء بالرجوع إلى الحرب، واضطرت وزارة فريد باشا إلى الاستقالة، وكان رئيسها غائباً لحضور مؤتمر الصلح.

قررت الوزارة الجديدة إقالة مصطفى كمال من منصبه، وعرضت القرار على الخليفة لتوقيعه فرفض، وتتالت الاحتجاجات، ولم يقبل الخليفة التوقيع على القرار حتى بلغ السيل الزبى فوقع عندها القرار، ولم يرضخ مصطفى كمال للأمر، وبقي في عناده.

اجتمع المجلس النيابي في إستانبول، ونجح رؤوف بك في رئاسة المجلس، وشكّل علي رضا باشا الوزارة، وعمل مصطفى كمال على إسقاط هذه الوزارة، غير أن النواب قد خذلوه، وأعطوا الثقة للوزارة، فعمل مصطفى كمال على الثورة من جديد، وتحت ضغط الحلفاء استقالت الوزارة، وتشكلت وزارة صالح باشا التي عقدت اتفاقاً مع مصطفى كمال في (أماسيا) انسحب بموجبه الإنكليز والحامية العسكرية من أنقرة.

سيطر الحلفاء على إستانبول، وألقي القبض على رئيس الوزراء السابق سعيد حليم باشا، وعلى عدد من النواب من أنصار مصطفى كمال، وفرضت الرقابة على البريد ووسائل الإعلام كلها. فاستقال صالح باشا، وحلّ المجلس النيابي، وكُلّف فريد باشا بالوزارة من جديد، فأعلنت الحكومة أن مصطفى كمال متمرداً، فلم يُبال وتقدّم إلى الغرب، وحاصر (أسكي شهر)، فانسحب الإنكليز منها دون مقاومة، فدخلها، ودخل مدينة (قونية) كذلك.

أعلن مصطفى كمال عن إجراء انتخابات جديدة بحيث تكون أنقرة مقراً للمجلس الجديد، فنجح أنصار مصطفى كمال، واجتمع المجلس، وبدأ يعمل على تشكيل جيشٍ خاص، فسيّرت الحكومة حملةً من العاصمة إلى الأناضول من ناحية الغرب، وحملةً أخرى من كردستان من ناحية الشرق، فخضعت الولايات بسرعة لحكومة إستانبول وبقيت أنقرة وحدها، وكادت تسقط، فأذاع الحلفاء في هذا الوقت شروط معاهدة سيفر التي وافق عليها الخليفة ورئيس الوزراء الداماد فريد باشا مرغمين، ولما فيها من إجحاف بحق الدولة المهزومة فقد ثار الأهالي، إذ تنص هذه المعاهدة على:

١ ـ إقامة دولة في إستانبول.

٢ ـ سلخ الولايات العربية من الدولة.

٣ ـ إعطاء الاستقلال لأرمينيا.

٤ ـ إعطاء كردستان استقلالاً ذاتياً.

٥ ـ تُعطى تراقيا وجزر بحر إيجه لليونان.

٦ ـ توضع المضائق تحت إشراف دولي.

٧ ـ يوجّه الحلفاء الجيش، ويحدد عدد أفراده.

٨ ـ يحق للحلفاء السيطرة على المالية.

وبدأت ثورة الأهالي على حكومة فريد باشا. وبدأ هجوم مصطفى كمال على حكومة إستانبول حيث يعلن أن حكومة إستانبول عميلة، وإذا كانت عاجزةً عن الدفاع، عن البلاد، فإن الشعب في الأناضول يعرف الدفاع عن بلاده، وإذا كانت العاصمة تحت ربقة الاستعمار فإن الأناضول في حرية ويمكن أن تكون مقر الدفاع. وإضافة إلى هذا فإن مصطفى كمال كان يظهر الجانب الإسلامي ويستغل صلته مع السلطان وإرساله هو إلى الأناضول لإنقاذ البلاد، كما يستغل أحمد السنوسي الذي كان يعيش في الأناضول.

وبدأت كفة أنقرة ترجح، وعندها دعت إنكلترا لعقد مؤتمر في لندن

لإعادة النظر في معاهدة سيفر، ودعت لذلك حكومة إستانبول وحكومة أنقرة، غير أن مصطفى كمال قد اعترض على ذلك، إذ قال: يجب أن يكون صوت واحد في البلاد، واستنكر دعوة رئيس الوزراء الداماد فريد باشا...

عزل السلطان فريد باشا من الوزارة وكلف توفيق باشا بالوزارة الجديدة، وهو من أنصار مصطفى كمال، وبقيت هذه الوزارة في الحكم سنتين خدمت خلالها مصطفى كمال حتى قوي أمره في البلاد. ومن ناحية أخرى فقد اتفق مع الدول الأخرى، إذ اتفق مع اليونان على إعطاء أزمير استقلالاً ذاتياً تحت حكم نصراني. وتنازل لروسيا عن باطوم، وانسحبت فرنسا من كيليكيا، وانسحبت إيطاليا من أنطاليا.

دفعت إنكلترا اليونان فتقدموا من ناحية الغرب، وجرى القتال بين الأتراك واليونانيين، وقد انتصر الأتراك في معرفة سقاريا المشهورة، وبرز مصطفى كمال، واضطرت اليونان أن تنسحب من تركيا عام ١٣٤٠.

دعيت أنقرة وإستانبول إلى مؤتمر لوزان، وجرى انقلاب في إستانبول، وعزلت حكومة السلطان، واعتزل السلطان محمد وحيد الدين لأنه رفض أن يكون ملكاً رمزياً لا علاقة له بالحكم، ولا شأن له بالخلافة، ورُحّل إلى جزيرة مالطة، ونودي بابن عمه عبد المجيد بن عبد العزيز سلطاناً على البلاد.

٣ - عبد المجيد الثاني:

هو ابن السلطان عبد العزيز، ولد في إستانبول عام ١٢٨٣، أصبح خليفة بعد إلغاء السلطنة عام ١٣٤٠، وجُرّد الخليفة من السلطات السياسية كافةً، والتفّت حوله الجماعات المناوئة لمصطفى كمال.

وبعد ثلاثة أيام من تولي عبد المجيد الثاني المنصب افتتح مؤتمر لوزان، وحضره وفد أنقرة فقط، ووضع رئيس الوفد الإنكليزي (كرزون) أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي:

١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢ ـ طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود.

٣ ـ إعلان علمانية الدولة.

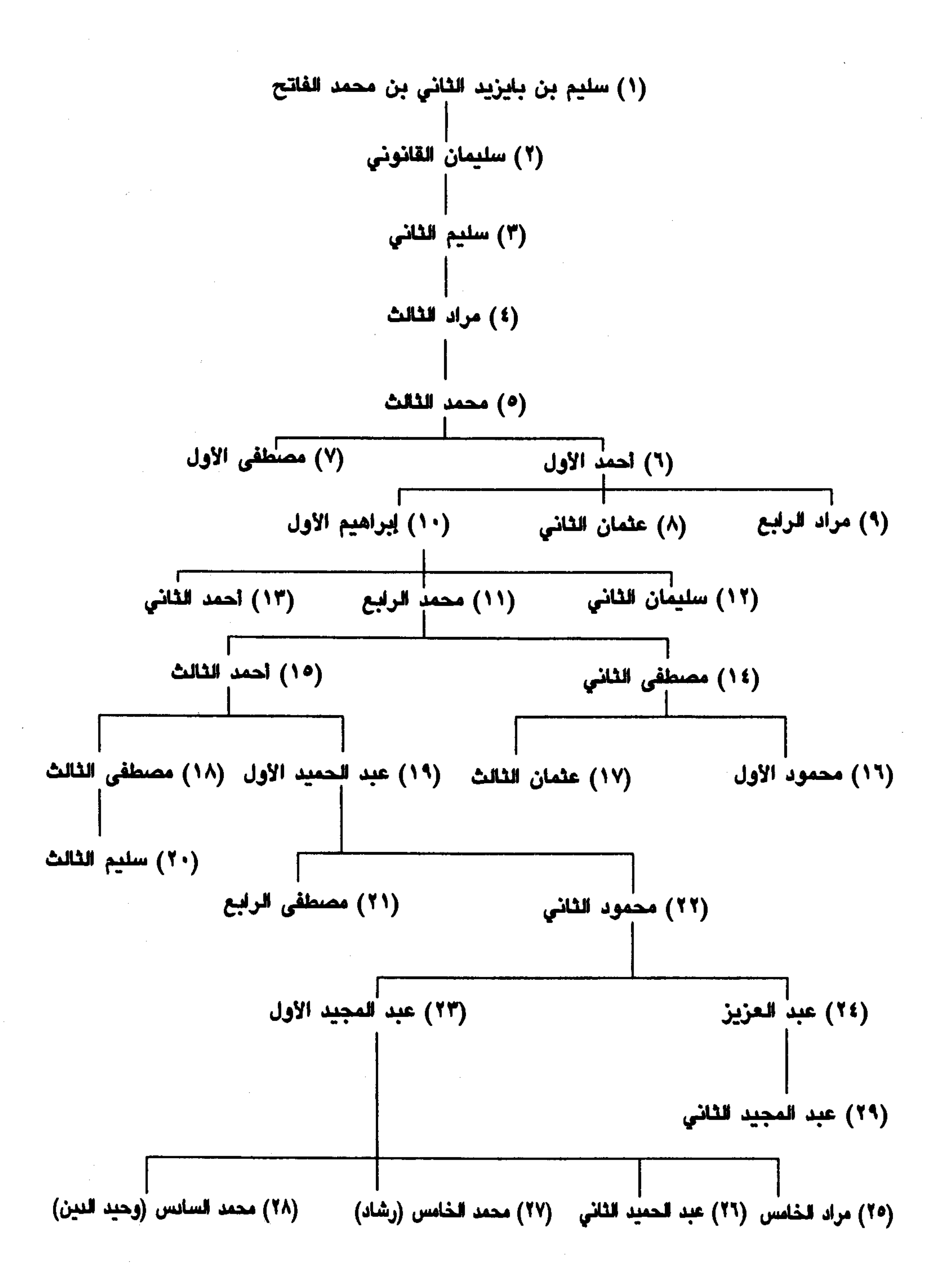
٤ ـ مصادرة أملاك وأموال بني عثمان.

ويتوقف نجاح المؤتمر على ذلك، وأخفق المؤتمر، ورجع إلى البلاد الوفد التركي برئاسة عصمت إينونو، واختلف مصطفى كمال وعصمت إينونو مع رئيس الوزارة وبجانبه الجمعية الوطنية، فاستقال رئيس الوزارة. . . . وبدأت الدسائس، إذ حل مصطفى كمال الجمعية الوطنية. . . وكانت الجمعية الجديدة ضده، ولكنها عجزت عن تشكيل وزارة بسبب الألاعيب. . . وكثرت الفوضى.

وقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية، واجتمعت الجمعية الوطنية وكان الجو مكفهراً والصخب هو المميز، وتفادياً للمشكلات دعي مصطفى كمال لتشكيل الوزارة فوافق على ألا يناقش في تصرفاته وشكل الوزارة، وأعلن الجمهورية، وانتخب رئيساً لها، فعمت الفوضى، وغادر أنقرة عدد من الزعماء، واتجهوا إلى إستانبول حيث التفوا حول الخليفة عبد المجيد، وقامت الاحتجاجات، إلا أن الاغتيالات و. . . تعددت ودعا المجلس الوطني لعقد جلسة وقدم مرسوماً بإلغاء الخلافة، وطرد الخليفة، وفصل الدين عن الدولة، وأمر عبد المجيد بالسفر إلى سويسرا، ثم أصدر مرسوماً بإلغاء الوظائف الدينية، وامتلاك الدولة للأوقاف. . . وأرسل عصمت إينونو وزير خارجيته إلى لوزان، وأعيد المؤتمر، واعترفت إنكلترا باستقلال تركيا، وانسحبت من المضائق وإستانبول. . .

وطويت صفحة الخلافة العثمانية عام ١٣٤٢.

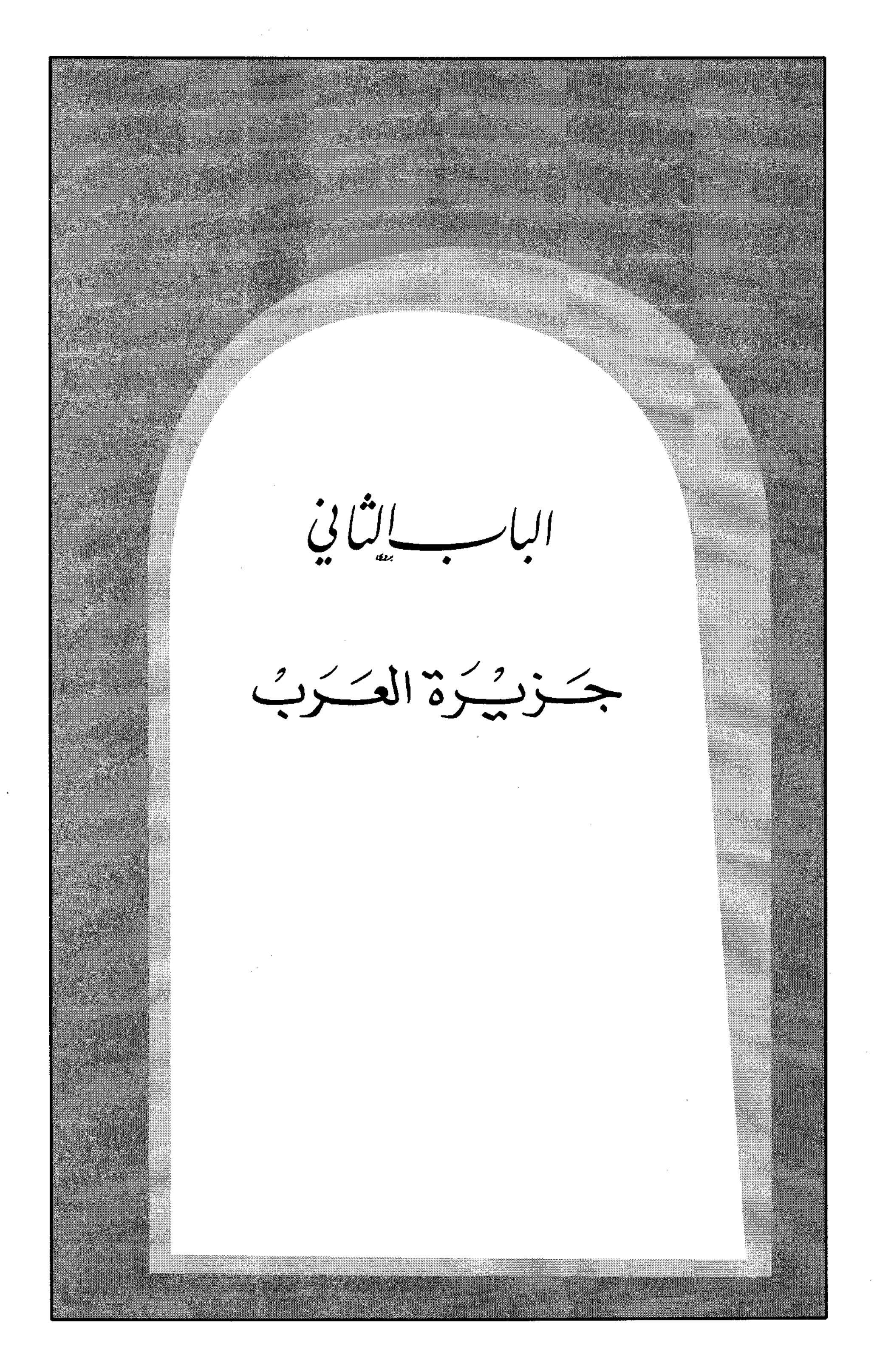
الخلفاء العثمانيون:



الخلفاء العثمانيون:

١ ـ سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح	٩١٨ ـ ٩٢٦هـ
٢ ـ سليمان القانوني	٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ
٣ ـ سليم الثاني	٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ
٤ ـ مراد الثالث	٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ
٥ ـ محمد الثالث	١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ
٦ ـ أحمد الأول	١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ
٧ ـ مصطفى الأول (١)	١٠٢٦ ـ ١٠٢٦هـ
(٢)	١٠٣١ ـ ١٠٣٢هـ
٨ ـ عثمان الثاني	١٠٢٦ ـ ١٠٣١هـ
٩ ـ مراد الرابع	١٠٣٢ ـ ١٠٤٩هـ
١٠ ـ إبراهيم الأول	١٠٤٩ ـ ١٠٥٨هـ
١١ ـ محمد الرابع	١٠٥٨ ـ ١٠٩٩هـ
١٢ ـ سليمان الثاني	١٠٩٩ ـ ١١٠٢هـ
١٣ ـ أحمد الثاني	١١٠٢ ـ ١١٠٦هـ
١٤ ـ مصطفى الثاني	١١٠٦ ـ ١١١٥هـ
١٥ ـ أحمد الثالث	١١١٥ ـ ١١٤٣هـ
١٦ ـ محمود الأول	١١٤٣ ـ ١١٦٨هـ
١٧ ـ عثمان الثالث	١١٦٨ ـ ١١٧١هـ
١٨ ـ مصطفى الثالث	١١٧١ ـ ١١٧٦هـ
١٩ ـ عبد الحميد الأول	١١٧٦ ـ ١٢٠٣هـ
٢٠ ـ سليم الثالث	١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ
٢١ ـ مصطفى الرابع	١٢٢٢ ـ ١٢٢٣هـ
٢٢ ـ محمود الثاني	١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ
٢٣ ـ عبد المجيد الأول	١٢٥٥ ـ ١٢٧٧هـ
٢٤ ـ عبد العزيز	١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ
٢٥ ـ مراد الخامس	١٢٩٣ ـ ١٢٩٣هـ.
٢٦ ـ عبد الحميد الثاني	١٢٩٣ ـ ١٣٢٨هـ
٢٧ ـ محمد الخامس (رشاد)	١٣٢٨ ـ ١٣٣٧هـ
٢٨ ـ محمد السادس (وحيد الدين)	١٣٣٧ ـ ١٣٤٠هـ
٢٩ ـ عبد المجيد الثاني	١٣٤٠ ـ ١٣٤٢هـ

أُلغيت الخلافة على يد أتاتورك بتاريخ ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ.
الموافق ٣/ ٣/ ١٩٢٤م.



الباب الثاني

جزيرة العرب

توجّه اهتمام المسلمين نحو جزيرة العرب في بداية هذا العهد بسبب قدوم المستعمرين البرتغاليين، وسيطرتهم على مواقع مهمة سواء أكانت في الخليج العربي أم في جنوبي الجزيرة، ونواياهم الصليبية في المنطقة، واتصالهم مع دولة الحبشة النصرانية: وحرصهم الوصول إلى المدينة المنورة، والضغط على المسلمين كي يسلّموا لهم بيت المقدس. وهذا الاهتمام دفع العثمانيين إلى الوصول إلى الجزيرة ومنازلتهم البرتغاليين من الصليبيين، واستمر هذا الاهتمام حتى زال النفوذ البرتغالي، أو نستطيع أن نقول: إن التفكير كان منصباً بأطراف الجزيرة التي تعرضت للغزو الصليبي أو لتهديداته...

وقلّ الاهتمام بعد ذلك، مع أن إنكلترا سيطرت على بعض المواقع، وكانت تحرص على تأمين وسلامة طريق الهند لها، وقلّة الاهتمام لا تعني زواله وإنما خفته بالنسبة إلى ما كان عليه في أول العهد حيث بقيت ملاحقة البرتغاليين في شرقي إفريقية قائمة، والخوف من النفوذ الفارسي في منطقة الخليج العربي، ومتابعة حركة الحج، ومحاولة تأمين الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة سواء أكانت برية أو بحرية، أما داخل الجزيرة فقد بقي مهملاً، هذا بالإضافة إلى الجمود الذي يخيّم على أجزاء الدولة العثمانية عامة، بل على أمصار العالم الإسلامي كافةً نتيجة الضعف الذي أصاب المسلمين، وقوة أعدائهم من الصليبيين الذين خضعت لهم مواطن كثيرة من أرض المسلمين.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري قامت الدولة

السعودية وسط الجزيرة العربية، وقوي أمرها بسرعة، وامتدّ نفوذها، ووقفت في وجه الدولة العثمانية بغية الإصلاح، ووجهت الدولة إليها الجيوش، واستعانت بمحمد علي الذي جاء واحتل الحجاز، وحارب الدولة السعودية، وتمكّن من الانتصار عليها ودخل ابنه إبراهيم عاصمتها الدرعية وخرّبها، وبقي محمد علي يُلاحق مُؤيدي أفكارها في عسير، فعاد اتجاه الأفكار نحو الجزيرة، وإن كان نابليون بونابرت قبل هذه المرحلة بقليل قد سيطر على مصر بعد حملته المشهورة عليها، وبدأ يُفكّر في التحكم بأطراف الجزيرة وممراتها الرئيسية، واستطاع أن يحتلّ جزيرة بريم في مضيق باب المندب.

وبعد هذه المدة كان القتال على أشدّه في اليمن بين الجيوش أو الحملات العثمانية والأئمة الزيود الذين يسيطرون على مرتفعات اليمن، وإذا كان قد استمر هذا في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة إلّا أن وسط الجزيرة قد خفّ الاتجاه نحوه في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وكان الإنكليز قد بسطوا نفوذهم في الجزء الشرقي من الجزيرة، وعقدوا المعاهدات مع أمرائه وشيوخه.

ودخل القرن الرابع عشر، وكثرت الإمارات، في الجزيرة العربية، سواء أكانت على أطرافها أم في داخلها، وكان أكثر هذه الإمارات على خلاف مع الدولة وسواء أكان بتوجيه من الإنكليز أم نتيجة الأطماع فإن الارتباط مع إنكلترا كان واضحاً في كلا الحالتين، وربما كان الإدريسي في تهامة عسير على ارتباط مع إيطاليا، ثم ارتبط مع إنكلترا، ولهذا نستطيع أن نقول: إن رصيد الدولة العثمانية في الجزيرة العربية في أوائل القرن الرابع عشر كان قليلاً.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣ لم يقف بجانب العثمانيين سوى أئمة اليمن الذين اتفقوا معهم على أن تعترف الدولة بسلطانهم على الهضبة، وتبقى تهامة بيد العثمانيين، ونتيجة العاطفة الدينية، وربما كان لخوف الأئمة من الإدريسي المجاور لهم والذي تدعمه إنكلترا قد أثر في هذا الاتجاه، هذا بالإضافة إلى إمارة آل رشيد الصغيرة الحجم

في حائل وربما كان لوجودها بين إماراتٍ مدعومةٍ من إنكلترا وصراعها معهم أثر في هذا الانحياز أيضاً.

وبدأت بعدئذٍ كل دولةٍ تتطوّر منفصلة عن غيرها، وتعمل وحدها بعد أن قُضي على الخلافة الإسلامية، وأهملت الروابط العقيدية، ودخلت الصليبية مستعمرةً لبعض الأطراف من جزيرة العرب وخاصةً الشرقية والجنوبية منها، إضافة إلى صلتها أو توجيهها أو ارتباطها للجهات البقية، وتمثّلت الصليبية في إنكلترا صاحبة النفوذ الأول في تلك المرحلة من التاريخ.

الفصل الأول

الحجاز

كانت أسرة «قتادة» تحكم الحجاز منذ عام ٥٩٨، وتتسلّم شرافة مكة، وتنتمي هذه الأسرة - حسب زعم أبنائها - إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ويعمل زعماؤها لكل من يخضع الحجاز لسلطانه، إذ عملوا للأيوبيين والمماليك، كما لم يبتعدوا عن بني رسول في اليمن إذ يخضعون لهم عندما يقوى أمرهم، ولكن كانوا في أغلب الأحيان يحكمون باسم الدولة التي تُسيطر على مصر. وإذا كانت هذه الأسرة هي التي تُسيطر على الحجاز كله إلا أنه وجدت أسرة من الأشراف من آل الحسين في المدينة المنورة كان لها دور أيضاً، ولكن كانت المدينة في أكثر أيامها تتبع مكة على أنها جزء من الحجاز.

دالت دولة المماليك في مصر على يد العثمانيين عام ٩٢٣، فأرسل شريف مكة «بركات الثاني» الذي كان يتسلّم شرافة مكة للمرة الثانية ابنه محمد أبو نمي الثاني إلى القاهرة ليقدّم للسلطان سليم العثماني الطاعة، ويسلّمه مفاتيح الحرمين الشريفين إشعاراً بالتبعية، واعترافاً بالخضوع له، كي يحتفظ لنفسه بالشرافة على مكة، ويُؤمّن وضعه بالحجاز، وبهذا امتدّ نفوذ العثمانيين إلى الحجاز منذ أن استلموا مصر، ثم اتسع بعدئذٍ حتى شمل الجزيرة كلها. وهكذا استمرت أسرة بني قتادة في حكم الحجاز، وتوالى رؤساؤها على شرافة مكة، واتصف عهدهم بكثرة الخلافات فيما بينهم، فكان أن تولّى بعضهم الأمر عدة مراتٍ إذ يُعزل عندما يضعف أمره، ثم لا يلبث أن يرجع إلى منصبه إذا عادت إليه قوته، ولم يطل عهد بعضهم أكثر

من يومٍ واحدٍ، على حين زادت أيام شرافة بعضهم على الستين سنةً، وامتاز عهد بعضهم بالقتل وسفك الدماء والإرهاب، واتسم عهد بعضهم الآخر بالصلاح والعدل والخير، وكثيراً ما كان حكام مصر يتدخلون في شؤون الحجاز فيؤيّدون شريفاً ويخلعون آخر، أو يُساعدون واحداً على الثاني.

وكانت مدينة جدة ترتبط بمصر في أكثر أيامها، ويُعيّن واليها من القاهرة، وقد يصطدم حاكم جدة مع شريف مكة ويقع بينهما قتال يُؤدي في النهاية إلى خلع هذا أو عزل ذاك.

ولما كان أمر العثمانيين قد ضعف بعد خضوع الحجاز لهم بقليل، ولبعد الجزيرة عن مركز الحكم، ولكثرة المشكلات التي كانت تتعرض لها الدولة وخاصةً في أوربا، وللحقد الصليبي الذي كان يتربَّص بالمسلمين الدوائر، لذا فقد تُركت هذه الأسرة وشأنها ما دامت تُظهر الطاعة، وتُبدي الخضوع للدولة العثمانية. فكانت الخلافات تحدث في الجزيرة بين الأمراء المتنفذين بعضهم مع بعض، أو بين الأسر الثانية التي كانت تحكم مناطق أخرى سواء في عسير أم في اليمن أم في نجد أم غيرها، وكانت الدولة تترك حل هذه الخلافات إلى أبناء الجزيرة بالذات دون أن تُعير الموضوع اهتماماً كبيراً، أو تحاول إصلاح الوضع السياسي والإداري فيها.

ويمكن أن نلاحظ أن الأشراف في الحجاز كانت سلطتهم تمتد إلى عسير التي يحكمها أمراء محليون يدّعون الانتساب إلى معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ويسمون باليزيديين نسبة إلى ابنه يزيد، وقد يستعلي هؤلاء الأمراء أحياناً على شرافة مكة، أو يختلف الشرفاء وأئمة اليمن على عسير أو على مناطق تهامة في أوقات أخرى، أو عندما يريد كلٌّ مدّ نفوذه على ما جاوره من أرض، وأحياناً تمتدّ سلطة شرفاء مكة على الجهات الشرقية من الحجاز وتصل إلى نجد. وتدين لهم فيها بعض الإمارات، وتقف في وجههم أخرى، وقد يصلون إلى البحرين عن طريق نجد. وكانت حاصلات نجد تباع في الحجاز ولا سيما في موسم الحج لذا كان لا بد من أن تكون هناك علاقة خاصة بين المنطقتين، ولقوة أشراف

مكة المدعومين من قبل الدولة في مصر أو من قبل العثمانيين مباشرة كان لهم أنصار في نجد يُؤيّدونهم، فإذا أراد أمير أن يشقّ عصا الطاعة ساروا إليه مؤدبين حيث كانت لديهم آنذاك القوة اللازمة، وإمارات نجد كثيرة ومتفرقة. ولكن عندما قامت الدولة السعودية، وأصبح في نجد قوّة يُرهب جانبها، وتريد نشر فكرتها فكان لا بد من أن تصطدم شرافة مكة معها، ويقع القتال بين الطرفين وتنتصر الدولة السعودية بصفتها حاملة مبدأ، وتريد حمايته والدفاع عنه بل ونشره، وتأتي المساعدات إلى شرافة مكة لتساعدها ضد نجد، أو تأتي لتقاتل الدولة السعودية مباشرةً خوفاً على نفسها، ويعود كيان الأشراف بعد أن يسقط، وتسيطر نجد على الحجاز، أما الإمارات المجاورة فقد تلتقي مع الحجاز، وتحارب معها نجداً، أو تختلف وتجتمع مع نجد ضدها. وفي كثير من الأحيان يختلف الأشراف في مكة بعضهم مع بعض على الزعامة والرئاسة، ويقع القتال بينهم، وقد يُغادر بعضهم المنطقة إلى جهة ثانيةٍ، وربما يُخلع، ويسكت على جرحه، فإذا واتته الفرصة عاد فانقضّ على خصمه أو على مركز السلطة، وقد ينجح ويستلم الأمر، وقد يفشل، وربما بالأصل يبقى ساكتاً ويكتفي بما ناله من وقت في السلطة طال فيها أم قصر.

عندما بدأ العهد العثماني عام ٩٢٣ أو عندما بدأ عهد الخلافة العثمانية، أو بالأحرى عندما وصل النفوذ العثماني إلى الحجاز كان شريف مكة يومذاك وصاحب النفوذ فيها بركات الثاني بن محمد، ويحكم للمرة الثانية إذ حكم في المرة الأولى بعد أبيه عام ٩٠٣ ولمدّة أربع سنوات حيث نازعه أخوه هزاع بن محمد فتسلم الشرافة عاماً واحداً، ثم رجع بركات الثاني عام ٩٠٨، واستمر حتى عام ٩٣١، وفي عهده انتصر السلطان سليم العثماني على المماليك في الشام ومصر، وقضى على سلطانهم، وبُويع بالخلافة بعد أن تنازل له الخليفة العباسي المقيم في القاهرة، والذي ليس له من الأمر سوى الاسم وكل شيء بيد السلاطين المماليك، وعندها أرسل بركات الثاني ابنه محمد أبا نمي إلى القاهرة فأعلن للسلطان سليم الطاعة،

وقبل الخضوع له، وسلَّم مفاتيح الحرمين الشريفين دلالةً على ذلك الخضوع، فرضي السلطان سليم ذلك منه، وأقر أباه على شرافة مكة أو على ملك الحجاز. وتوفي بركات الثاني عام ٩٣١، فتسلّم مكانه ابنه محمد أبو نمي، وبقي في أمر الشرافة مدة إحدى وستين سنةً حيث توفي عام ٩٩٢هـ، واستمرت أسرته من بعده في شرافة مكة، ولكن لم ينقطع الخلاف بين أبنائها، واستمر ذلك حتى قامت الدولة السعودية، وبدأ يمتد نفوذها، ويتسع سلطانها. فمنع الأشراف دخول ومجيء أهل نجد إلى الحج.

واستلم أحمد بن سعيد شرافة مكة عام ١١٨٣، وكان يكره العثمانيين بسبب واليهم على مصر محمد أبي الذهب الذي عزله وولّى غيره شريفاً على مكة، إلا أن أحمد هذا قد قام ضد خصمه وقتله، وتمسك لنفسه بالشرافة وبهذا فقد التقى مع السعوديين على كراهية العثمانيين، فسمح لذلك لأهل نجد بالحج في موسم عام ١١٨٣، وبعد ثلاثة أعوام ثار الأشراف في مكة على أحمد بن سعيد، وعزلوه، وولّوا مكانه ابن أخيه سرور بن مساعد الذي بقي في إمرته حتى عام ١٢٠٢ أي مدة ستة عشر عاماً، ولم يخاصم سرور السعوديين الأمر الذي جعل الدعوة السلفية تنتشر بين رجال القبائل، أو يُقبل عليها كثير ممن يطمع في أن يكون له دور في المستقبل، أو يُريد أن يحمي نفسه من بطش دعاتها، أو يكون مقرّباً لهم، فإن إشارات كثيرة تدلّ على نجاح الدعوة أو يكون لها دور بارز مع الأيام، والأفكار عادةً لا تُقاوم بالقوة، ولا بوضع الحدود الواهية أمامها، وإنما بأفكار أكثر قبولاً وواقعية.

وتوفي سرور بن مساعد عام ١٢٠٢، وخلفه أخوه عبد المعين بن مساعد غير أنه لم يلبث سوى يومٍ واحدٍ حتى كره الأمر فاعتزله، وتنازل لأخيه غالب بن مساعد الذي خاف على سلطانه وأملاكه من الدولة السعودية، حيث رأى أن الدعوة السلفية التي يحملها السعوديون تنتشر في مناطق نفوذه بسرعة لذا فقد أعلن خلافه للدرعية، وحدثت معارك بين الطرفين دامت أيام شرافته كلها من (١٢٠٢ ـ ١٢٢٨) أي مدة ست وعشرين

سنة، وكانت هذه المعارك من ناحيتين من ناحية نجد حيث الدولة السعودية، ومن ناحية عسير من الجنوب حيث كانت قد عمَّت فيها الدعوة السلفية، وقام أبناؤها يدعون لها، ويحاربون أعداءها. وقد استعان غالب بن مساعد بالعثمانيين ضد السعوديين أو بالأحرى ضد الدعوة السلفية.

وفي هذه الأثناء نزل الفرنسيون عام ١٢١٣ بمصر، وكانوا بقيادة نابليون بونابرت، فتأثر السكان في الحجاز، وأُعلن الجهاد للدفاع عن مصر ضد الفرنسيين، وسار بعض المتطوّعين عن طريق البحر إلى القصير، ثم انتقلوا إلى جرجا، واشتبكوا مع الفرنسيين في بعض المواقع.

وفي عام ١٢١٨ دخل السعوديون مكة المكرمة إثر موسم الحج، وفرّ منها الشريف غالب بن مساعد متجهاً إلى جُدّة، وعيّن السعوديون من قبلهم شريفاً على مكة عبد المعين بن مساعد أخا الشريف غالب، ثم توجّهوا إلى جُدّة، وحاصروها تسعة أيام، وقطعوا عنها الماء، ثم غادروها كما غادروا مكة المكرمة، ورجع الشريف غالب إلى سلطانه.

وفي عام ١٢٢٠ دخلت جيوش الدرعية المدينة المنورة، ولما شعر الشريف غالب بالضعف طلب الصلح من سعود الكبير، وقد تمّ على الشروط التالية[١]:

١ ـ يأذن الشريف غالب للوهابيين في الحج، ثم يتوجهون إلى بلادهم بعد أداء المناسك مباشرةً.

٢ ـ يدخل أهل مكة وكل من هو تحت حكم الشريف في الطاعة.

٣ ـ يكون أمر مكة وأحكامها تحت نظر الشريف. وقد اشترط الشريف غالب أن يُعيدوا إليه (الحسينية) وأثمان ما أخذوه وأتلفوه فيها وحتى ديات القتلى.

وقوي أمر الدولة السعودية، ووصل سلطانها إلى جنوبي العراق، وإلى

---

(١) وستأتي هذه الشروط في الصفحة ٢٥٨ بشكل أوضح.

حوران في بلاد الشام. وخافت الدولة العثمانية من هذا التوسع، ولم يكن بمقدورها أن تفعل شيئاً، فعهدت إلى واليها على مصر محمد علي صاحب الأطماع في أن يتولّى أمر إخضاع الجزيرة، فأرسل محمد علي مندوباً إلى الجزيرة ليدرس الأوضاع الداخلية عن قرب ويتعرف على نوايا الشريف غالب بن مساعد ودوافعه من الصلح مع السعوديين، وقد جاء هذا المندوب باسم العمرة، ورجع إلى مصر، وفي جعبته ما يطمئن محمد علي على نجاح مهمته.

أرسل محمد علي حملةً بقيادة ابنه الثاني أحمد طوسون، وجاءت عن طريق البحر، وتمكّنت من احتلال ينبع، وانحاز الشريف غالب إليها، ووضع إمكاناته تحت تصرفها، واتجهت الحملة نحو المدينة المنورة، فاحتلت بدراً، ولكنها هُزمت عند الصفراء، وجاءها الدعم فعاودت الكرة، وتقدّمت نحو المدينة، واستطاعت أن تحتلها عام ١٢٢٧، ثم توجّهت نحو مكة فدخلتها عام ١٢٢٨، ووقع أمير الطائف عثمان المضايفي[1] أسيراً بيد الحملة، فأُرسل إلى إستانبول حيث لقي حتفه هناك.

وجاء محمد علي بنفسه إلى جُدّة، ومنها توجّه إلى مكة المكرمة، وكلّف الشريف غالب في كل أموره، ثم قبض عليه وأرسله إلى مصر، ومنها نقل إلى سالونيك حيث بقي فيها حتى مات عام ١٢٣١. وهكذا خضعت الحجاز إلى الحملة المصرية. وأراد محمد علي أن يتوجه نحو نجد شرقاً، ونحو عسير جنوباً حيث يُسيطر على المنطقتين أنصار الدعوة السلفية، ففي نجد تقوم الدولة السعودية، وفي عسير يحكم طامي بن شعيب من قادة الدعوة السلفية هناك، غير أن الجيوش المصرية قد هُزمت في الحناكية شرقي المدينة المنورة، كما هُزمت مرتين في (تربة) على بعد ١٢٠ كيلومتراً شرق الطائف، كما هُزمت الحملة التي اتجهت إلى عسير عن طريق القنفذة.

(١) عثمان المضايفي: ختن الشريف غالب، ومن أكبر أنصاره، وقعت بينهما جفوة فانحاز إلى السعوديين، وأصبح من أكبر قادتهم ضد الشريف غالب.

رأى محمد أن ينتهي من عسير ثم يلتفت إلى نجد. فطوّق عسير من الشمال والغرب غير أن جيوشه قد هُزمت على الجبهتين، وفي الوقت نفسه تقدّمت جيوش نجد حتى غدت على مقربة من الطائف، فسار محمد علي حينئذٍ بنفسه نحو الطائف، والتقى بجيوش نجد التي كانت بقيادة فيصل بن سعود، وتمكّن من هزيمتها، واستغلّ هذا النصر الذي حققه، فطارد خصومه، وشنّ حرباً لا هوادة فيها على القرى الأمر الذي جعلها تستسلم مجرد اقترابه منها، وتقدّم في بلاد شهران، وانتصر على عسير، وأخذ زعيمها طامي بن شعيب أسيراً، فحمله معه مكبلاً بالحديد، حتى عاد إلى مصر حيث أرسله إلى إستانبول فقُتل هناك.

وتقدّم طوسون بن محمد علي من المدينة باتجاه الشرق، ووصل إلى بلدة الرس، واستقر في الخبرا، وتمّ بينه وبين السعوديين صلح الرس. وأخلى المصريون نجداً بموجب هذا الصلح، وسافر طوسون إلى مصر تاركاً إمرة الجيش لغيره، وأصبح الحجاز تحت حكم محمد علي يُسيّره باسم الدولة العثمانية. إلا أن محمد علي قد رفض الصلح وسيّر نجدةً بإمرة ابنه الكبير إبراهيم إلى المدينة المنورة، وتقدّم بالجيوش منها، واحتل القصيم، ثم وصل إلى الدرعية، واضطر أميرها عبد الله بن سعود إلى التسليم عام ١٢٣٣، فأمر إبراهيم باشا بنقله إلى مصر، ومن هناك إلى إستانبول حيث لقي حتفه، كما نُقل إلى مصر أكثر أفراد آل سعود وآل الشيخ، وهُدّمت مدينة الدرعية عاصمة الدول السعودية، ورجع إبراهيم باشا إلى مصر عام ١٢٣٥.

كان قد تولّى شرافة مكة عام ١٢٢٨ يحيى بن سرور تحت إشراف محمد علي الذي عزل عمه غالب بن مساعد، واستمر يحيى في شرافته مدة خمسة عشر عاماً، ولم يكن له من ذكر إذ كان الأمر كله لمحمد علي. ثم ثار عليه عام ١٢٤٣، فتمكّن محمد علي من إخماد ثورته فعزله، وولى مكانه عبد المطلب بن غالب.

وبعد هذه المرحلة وقعت الحجاز في صدامٍ مستمرٍ مع عسير، وبقي

ذلك تقريباً حتى الحرب العالمية الأولى، وكانت عسير على اتفاق مع نجد.
وقد ذكرنا أن محمد علي قد تمكن من دخول عسير عام ١٢٣١، وقد ركّز قواته في طبب، وعاد هو إلى الحجاز، ولم يكد يصل إلى هدفه حتى ثار أهل عسير على قواته وعملوا فيها قتلاً، ومن نجا فرّ إلى الحجاز، فأرسل محمد علي قوةً لتأديب عسير فجاءت من كل جهة بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين، واستطاعت هذه القوة من دخول عسير، وتركز محمد بن عبد المعين في أبها، واتفق أهل عسير مع الشريف حمود أمير أبي عريش، وانقضّوا على القوة الحجازية فأزالوها عن مواقعها، وسيطروا على المنطقة، وأرسل محمد علي حملةً كبيرةً عن طريق تهامة فهُزمت، فأرسل جيشين إثر ذلك أحدهما عن طريق تهامة والآخر عن طريق السراة، وأردفهما بقوات أخرى إذ كانت الدرعية قد سقطت بيد ابنه إبراهيم، وتفرّغت القوات للاتجاه نحو عسير، فجاءت هذه القوات عن طريق السراة، ومن الشرق عن طريق بيشة بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين، وثالثة عن طريق تهامة، واستطاعت هذه القوات دخول عسير وحمل محمد بن أحمد المتحمي أمير عسير إلى مصر مع ولده، وما أن غادر القائد العثماني خليل باشا طبب حتى انقض العسيريون على الحامية المصرية وطردوها، وجاءت حملة جديدة بإمرة والي الحجاز أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين، غير أنها هُزمت، وأعاد أحمد باشا حملةً ثانيةً بإمرة الشريف محمد بن عبد المعين تمكّنت من دخول عسير التي بايعته على كره، وجرى الصلح بين الطرفين ترك محمد بن عبد المعين إثره حاميةً في طبب بإمرة أخيه هزاع بن عبد المعين، وسار لقتال القبائل في وادي الدواسر، فقام العسيريون على الحامية وقتلوا أميرها هزاع بن عبد المعين ومن معه، وعاد محمد بن عبد المعين إليهم إلا أنه هُزم، وقُتل أخوه راجح في المعركة التي دارت بين الطرفين، وجاءت حملة جديدة احتلت عسيراً، وأقام والي الحجاز أحمد باشا مدة في أبها، ثم غادرها في أول عام ١٢٣٩ متجهاً إلى الحجاز وقد ترك حامية في أبها، وما أن عاد حتى خرج سعيد بن مسلّط من مخبئه وحاصر الحامية الحجازية في أبها فاضطرت إلى الاستسلام

وسمح لها بالعودة إلى الحجاز وجاءت حملة جديدة بعد وصول الخبر إلى الحجاز، واستطاعت احتلال عسير، وجرى الصلح بين الطرفين الذي لم يستمر إلّا لنهاية عام ١٢٣٩، وجاءت حملة من الحجاز لكنها هُزمت، وسادت مرحلة من الهدوء حتى جاءت حملة عام ١٢٤٩ غير أنها فشلت أيضاً، وتجدّدت عام ١٢٥٠، ووصلت إلى أبها، لكنها لم تلبث طويلاً حتى أُخرجت.

عقد محمد علي اتفاقاً مع اليمن وشريف أبي عريش ضد عسير، وتمكن جيش محمد علي من دخول عسير، لكنه أُخرج أيضاً، وفي هذه الأثناء اختلف والي الحجاز من قبل محمد علي، وهو أحمد باشا، ومقره جدة مع شريف مكة محمد بن عبد المعين الذي تسلّم الشرافة عام ١٢٤٣ بعد خلع الشريف عبد المطلب بن غالب الذي عُيّن لمدة خمسة أشهر فقط وعُزل بعدها. ونتيجة هذا الخلاف فقد عُزل محمد بن عبد المعين عن زعامة مكة والتي بقيت دون شريف، وتولّى أحمد باشا كل شيء من أمر البلاد.

وقوي أمر عسير في هذه المرحلة وضمّت إليها بلاد غامد وزهران من الحجاز، وبقي التنازع على هذه المنطقة بين الجارين وذلك عام ١٢٥٣.

سارت قوة من الحجاز إلى نجد، واحتلتها، وهرب منها فيصل بن تركي، ودخلها خالد بن سعود.

وفي عام ١٢٥٥ خرج محمد علي من الحجاز بل من الجزيرة العربية بعد هزيمته في الشام، وقبوله بمصر له ولأولاده من بعده، ومع انسحاب الجيوش المصرية غادر والي الحجاز أحمد باشا، وعاد إلى شرافة مكة وإمرتها محمد بن عبد المعين، فاتفق مع أمير عسير عائض بن مرعي وتبادلا الأسرى فيما بينهما وذلك عام ١٢٥٦ ، وفي عام ١٢٦٥ تمّ تعيين الحدود بين الإمارتين.

بقي محمد بن عبد المعين في إمارة مكة حتى عُزل عام ١٢٦٧،

وعاد لهذا المنصب للمرة الثانية عبد المطلب بن غالب، واستمر مدة خمس سنوات أي حتى عام ١٢٧١ حيث استطاع محمد بن عبد المعين أن يعود للمرة الثالثة، وبقي ثلاثة أعوام حيث توفي عام ١٢٧٤، وخلفه ابنه عبد الله، واستمر عشرين عاماً (١٢٧٤ ـ ١٢٩٤)، وفي عهده عاد الخلاف مع عسير، فقد سارت حملة عام ١٢٨٠ للهجوم على عسير، ولكنها هُزمت في بيشة، وتكررت بعد عام إلا أنها لقيت المصير نفسه، وسار شريف مكة عبد الله بن محمد بن عبد المعين مع العثمانيين في حملةٍ كبيرةٍ استطاعت السيطرة على عسير، ومع هذه السيطرة إلا أن الوضع لم يهدأ تماماً إذ بقيت الغارات على الحاميات العثمانية، وكان العثمانيون يستعينون بأشراف مكة بصفتهم عمّالاً لهم على منطقة الحجاز، واستمرت هذه الحالة، ترسل الحملات من الحجاز لدعم العثمانيين في عسير.

وتوفي عبد الله بن محمد بن عبد المعين عام ١٢٩٤، وخلفه في إمرة مكة أخوه حسن، وهكذا بقيت الإمرة في أسرة محمد بن عبد المعين، غير أنه بعد ثلاث سنوات من حكم حسن المعروف بالشهيد استطاع عبد المطلب بن غالب أن يعود لحكم مكة للمرة الثالثة، واستقر له الوضع عامين، ثم تمكّنت الأسرة من استرجاع الإمرة لها، وحكم عون بن محمد والمعروف بالرفيق مدة ٢٤ سنة (١٢٩٩ ـ ١٣٢٣)، وخلفه أخوه عبد الإله بن محمد لمدة ثلاث سنوات، ثم تسلّم الأمر منه ابن أخيه حسين بن علي الذي كان في إستانبول في مجلس المبعوثان، وقد حكم من عام ١٣٢٦، وسار في بداية أمره على رأس حملة إلى عسير لإنقاذ الحامية العثمانية المحاصرة في أبها من قبل آل عائض والإدريسي، واستطاع أن يصل إلى أبها عام ١٣٢٨.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣، ووقفت الدولة العثمانية بجانب ألمانيا، على حين انحازت إيطاليا إلى جانب الحلفاء، وهذا ما جعل الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا قائمةً، وكانت إيطاليا تتوسّع يومذاك في البحر الأحمر، فدعمت الإدريسي الذي يُسيطر على تهامة

عسير، ومقرّه مدينة صبيا، وطلبت منه التوسع ومهاجمة الدولة العثمانية في الحجاز، وقد بدأ ذلك، فأرسل شريف مكة الحسين بن علي ابنه فيصلاً على رأس قوة التقت مع قوات الإدريسي قرب ميناء القنفذة، ورغم دعم إيطاليا لقوات الإدريسي وقصف الأسطول الإيطالي جيش الحجاز إلا أن فيصلاً قد تمكّن من النصر على قوات الإدريسي، وهمّ فيصل بدخول عسير لحمايتها من الإدريسي إلا أن رسالةً قد جاءته من والده تدعوه للعودة للعمل ضد العثمانيين في الحجاز، وبوقوف الحسين بجانب الحلفاء توقّف القتال في جبهة عسير إذ كلا الطرفين أصبح بجانب الحلفاء أي الحسين بن علي وإيطاليا ومعها الإدريسي.

كان شريف مكة على خلافٍ مع حكام الدولة العثمانية من رجال الاتحاد والترقي، وهذا ما جعله محط أنظار الإنكليز للتفاهم معه، هذا بالإضافة إلى أطماعه، ومركزه الإسلامي الكبير بصفته شريف مكة. وجرت الاتصالات بين الحسين به علي والإنكليز عن طريق هنري ماكماهون الحاكم الإنكليزي في مصر، وتمّ الاتفاق على قيام الشريف حسين بحركةٍ في الحجاز ضد العثمانيين، وفي حالة النصر سيكون الحسين ملكاً على العرب. وفي الوقت نفسه كان الإنكليز يتقاسمون المنطقة العربية التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية، وهي بلاد العراق وبلاد الشام، ولكنه بشكلٍ سريٍّ لا يعلمه الشريف حسين ولا غيره من المسلمين، ووقف الحسين بجانب العملاء الذين قبض عليهم جمال باشا في الشام، ثم أعدمهم، وأرسل الحسين ابنه فيصلاً ليتوسط لهم، على أنهم أحرار، وكاد فيصل نفسه يقع في قبضة جمال باشا.

أعلن الشريف حسين الثورة ضد الأتراك في صيف عام ١٣٣٥، وألقى الحصار على المدينة المنورة، في الوقت الذي تقدّم ابنه فيصل نحو الشمال على رأس قوةٍ حجازيةٍ كانت تنضمّ إليها قوات من العرب، والذين يفرّون من الجيوش العثمانية، والأسرى العرب الذين وقعوا في قبضة الإنكليز أثناء الصدام مع العثمانيين على الجبهة المصرية وفي فلسطين،

ووصل فيصل إلى معان، واستمر يتقدّم نحو الشمال بشكلٍ موازٍ للجيش الإنكليزي الذي يتقدم في فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي.

وخرج العثمانيون من أرض الحجاز، وانسحبت الحامية التي كانت مُحاصرةً في المدينة، وعطّل العربان في جيش فيصل الخط الحديدي الحجازي، وما يزال حتى الآن مُعطّلاً.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، والتفت الشريف حسين يركّز أوضاعه في الجزيرة، وكان قد انسحب المتصرف العثماني في عسير بناءً على أوامر دولته، وتسلّم آل عائض المنطقة والذخيرة والقلاع من المتصرف، وأصبحت المنطقة مطمعاً لأمراء الجزيرة في اليمن، وتهامة، ونجد، والحجاز ووقف الإدريسي بجانب نجد في بداية الأمر، ووقف الشريف حسين بجانب آل عائض، وتمكّن الملك عبد العزيز آل سعود من دخول عسير فأرسل الشريف حسين قوةً التقت مع القوة السعودية في بلاد بالأسمر في موقع مسفرة فانتصر الحجازيون، وقتل قائد الجيش السعودي سليمان بن سعد بن عفيصان وبعض أمرائه، وتابع قائد الجيش الحجازي الأمير راجح سيره إلى أبها وحاصرها، وبقيت الحامية السعودية عشرين يوماً معتصمةً في قلعة (شدا) حتى جاءت النجدة، وانسحب الجيش الحجازي ليدعم قواته في الطائف التي تواجه القوات السعودية هناك.

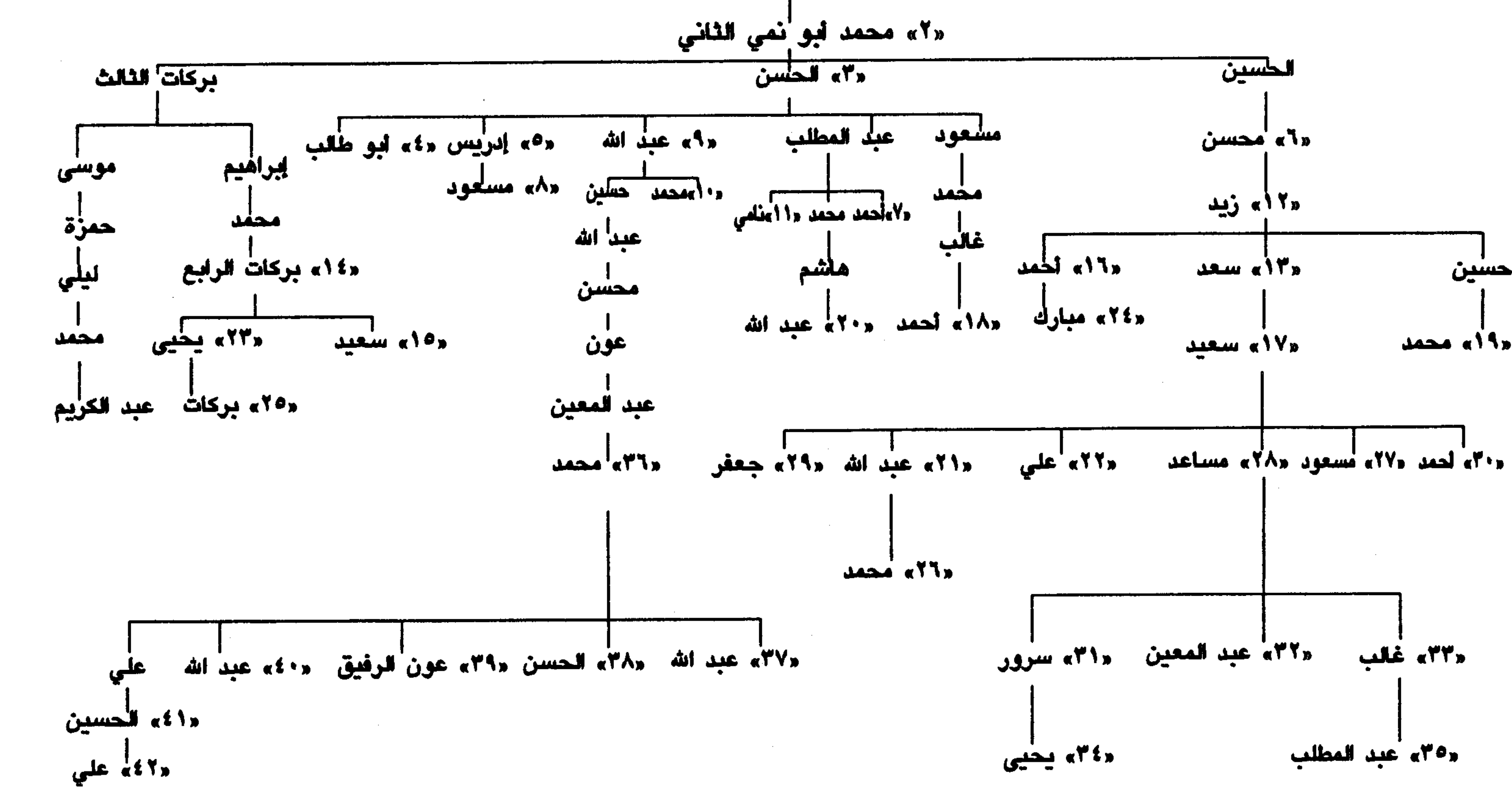
هاجم الشريف حسين عام ١٣٣٧ تربة الموقع الذي يتبع السعوديين غير أنه هُزم هزيمةً منكرةً، وانسحب قائده ابنه عبد الله، ثم هُزم هزيمةً أخرى عام ١٣٤٣، فتنازل لابنه علي الذي انتخب ملكاً على الحجاز، ورحل الحسين من مكة إلى العقبة ومنها إلى قبرص تحت مراقبة الإنكليز، وبعدها انتقل مريضاً إلى عمان حيث وافته منيته عام ١٣٥٠.

دخل السعوديون مكة عام ١٣٤٣ بعد هزيمة الحسين، فانتقل ملك الحجاز علي بن الحسين إلى جُدَّة، وتابعوه إلى جُدّة فحاصروه مدة سنةٍ كاملةٍ، وفي الوقت نفسه كانوا يُحاصرون المدينة فاستسلمت بعد عشرة أشهر، كما استسلمت جُدّة بعد اتفاقٍ انسحب بموجبه علي بن الحسين

منها، واتجه إلى أخيه فيصل بالعراق، وبقي بجانب أخيه حتى توفي، وهكذا تبعت الحجاز الدولة السعودية، وانقضى عهد الأشراف.

وإذا خرج الأشراف من الحجاز إلا أن أطماعهم قد بقيت حيث وجد حزب الأحرار الحجازي الذي كان يدعمه أمير الأردن عبد الله بن الحسين، ويتزعّمه حامد بن سالم بن رفادة، من مشايخ قبيلة بلي مع بعض مشايخ قبيلة الحويطات وعندما قام بحركة عام ١٣٥١ قتل ابن رفادة وقضى على الحزب، وعلى آمال الأشراف الذين أحاطوا بالدولة السعودية من الشمال في العراق والأردن لتهديدها فيما إذا. . .

أشراف مكة في العهد العثماني:



الفصل الثاني

نجـــد

كانت نجد تعيش في حالة من الفوضى والانقسام قبل وصول النفوذ العثماني إليها، وكان حكم البحرين يمتدّ إليها في أوقات ويتراخى في أخرى، وهذا ما أدّى إلى وجود إماراتٍ صغيرةٍ لا تشمل أرض بعضها إلا عدة قرى متجاورة، وقد تستمد قوتها من اتصالها بالدويلات الصغيرة التي نشأت في المنطقة، وقد تقع الحرب بينها بسبب اعتداء بعضها على بعض، كما لا تخلو المنطقة من غارات البدو المستمرة والمتنقلين في تلك الأرجاء، أو قطع الطرق من قبل بعض العصاة أو الخارجين على الحكم أو المضطرين بسبب الحالة السيئة التي كانت تتعرّض لها المنطقة بين المدة والمدة.

ووصل النفوذ العثماني إلى الحجاز عام ٩٢٣ هذا من ناحية الغرب، كما وصل إلى البحرين عام ٩٦٣ بقيادة فاتح باشا الذي قضى على إمارة راشد بن مغامس الذي قام عام ٩٣٢، وقضى على حكم بني عامر بن عقيل، وهذا من جهة الشرق، ومع وصول النفوذ العثماني إلى الحجاز والبحرين فإنه من الطبيعي أن يمتد إلى نجد، ولكن عن طريق ولاته في الغرب أو عماله في الشرق. وقد كان نفوذ شرفاء مكة في نجد في بداية الأمر هو القوي بالنسبة إلى نفوذ البحرين، وعندما كان الشرفاء يشعرون في نفوسهم بالقوة أو يرون محاولة لعصيان إمارات نجد عليهم يُجرّدون الحملات لإقرار نفوذهم أو لإخضاع من يفكر في التمرد وإعلان العصيان، وقد كثرت هذه الغزوات.

غزا الشريف حسن بن محمد أبي نمي بلدة معكال[1] عام ٩٨٦، وبقي فيها مدة. كما عاد بعد ثلاث سنوات فغزا الخرج والعارض، واعترض أثناء عودته جماعة من بني خالد إلا أنه هزمهم.

وغزا أبو طالب بن حسن نجداً عام ١٠١١ باسم أخيه إدريس بن حسن الذي غدا شريف مكة مكانه. وغزا محسن بن حسين بن حسن نجداً عام ١٠٣٥، وقاتل أهل بلدة القصب من نواحي الوشم، ثم عاد مرة أخرى في العام التالي، وتمكّن من الوصول إلى البحرين.

وغزا زيد بن محسن عام ١٠٤٢ نجداً، وتكرّرت غزواته، فوصل عام ١٠٥٦ إلى روضة سدير، وعام ١٠٥٧ إلى العُيينة، وإلى الخرج عام ١٠٥٧ أيضاً، ونزل التويم وجلاجل عام ١٠٦٩.

وضعفت الدولة العثمانية سريعاً في منطقة البحرين، ولم يتعاقب سوى أربعة من ولاتها على المنطقة وهم: فاتح باشا الذي دخل المنطقة، وعلي باشا أبو الوند، ومحمد باشا، وعمر باشا، فطمعت القبائل بالولاة، وظهرت قوة قبيلة بني خالد في المنطقة، واستطاع زعيمهم براك بن غرير من السيطرة على البحرين وإخراج الحامية العثمانية منها عام ١٠٨٠، وامتدّ نفوذ دولته حتى وصل إلى الكويت، كما غزا نجداً عام ١٠٨١، وهكذا وجدت قوتان تحيطان بنجد من الغرب أمراء مكة ومن الشرق أمراء البحرين، وهي منطقة صراع بينهما.

وقد غزا الشريف أحمد بن زيد بن محسن نجداً عام ١٠٩٧، ونزل عنيزة، وسار أخوه سعد بن زيد بن محسن عام ١١٠٧ إلى نجد ووصل إلى منطقة سدير. ويظهر أنّ قوّة بني خالد قد طغت بعدئذٍ على نجد، وزادت على قوة الأشراف.

ونلاحظ أن إمارات نجد كانت صغيرةً ومتفرقةً لا يجمعها رابط، وهي

---

(١) معكال: قرية من ضواحي الرياض، وهي حي من أحيائها اليوم، تقع جنوب دخنة حول شارع الفريان، وكانت قريةً خاصةً منفصلةً عما حولها، وتُعَدّ منفوحة أقرب القرى لها.

في صراعٍ دائمٍ فيما بينها، وتنافسٍ مستمرٍ على السلطة، ومرابطة لا تنقطع، وثأر لا ينتهي، يتحيّن أهل كل قريةٍ الفرصة للانقضاض على القرية الأخرى، بل تطوّر الأمر إلى الصراع داخل القرية الواحدة بل وبين أفراد الأسرة الواحدة، والأمير يأخذ ما يحلو له من ثمار، وقد يأتي شريف مكة فيدخل البلاد، كما قد يسير حاكم الإحساء فيخضع الأمراء لسلطانه، وهم يتبعون له، هذا بالإضافة إلى غارات البدو التي لا تنقطع، وتسلّط القبائل وشيوخها على الحضر، وانتشار اللصوص في كل مكان، ووجود الحرابا في الدروب والطرقات، هذا من ناحية الأمن أما من ناحية الدين فتقديس القبور والمظاهر الخاصة، والتعامل بالربا، وارتكاب الفواحش، والإكراه على تزويج البنات، وانتشار الخرافات والتوسل بغير الله من أضرحة الصالحين والصحابة، والاعتقاد ببعض الأحجار والأشجار بأنها تكون سبب الإنجاب أو إيجاد الزوج، وحفظ الولد، إذ قام عندها الملتجئ ببعض التصرفات، كل هذا كان يُثير النفوس، ويُذكي روح التمرّد على هذه الأوضاع، ويحرّق القلوب التي فُطرت على حب الأمن والطمأنينة والسلام، وما يرى عاقل شيئاً من هذا إلا ويُخيفه ما وصل إليه الأمر، ولا شك فإن أول ما يهتم بهذا ويثير كوامن نفسه هو العالم. وكان لا بدّ من مُنادٍ للإصلاح، وداعيةٍ للخير، وشاء الله أن يكون هذا الداعية هو الشيخ محمد بن عبد الوهّاب التميمي[1]، فخافه بعض الأمراء حرصاً على مصالحهم وشهواتهم، فتواصوا

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ولد في بلدة العيينة إلى الشمال في الرياض بحوالي أربعين كيلومتراً عام ١١١٥، وعاش في بيئةٍ صالحةٍ إذ كان أبوه عالماً، وعمل في القضاء في العُيينة وحريملاء، كما كان جده مفتي نجد، وإماماً في الفقه، وكذا كان عمّه، فنشأ في بيت علمٍ ودينٍ، فكان شغوفاً لتحصيله، واهتمّ بكتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقام برحلاتٍ في طلب العلم إذ سافر إلى الحجاز، والإحساء، والبصرة فالتقى بالعلماء، ورأى أوضاع المسلمين، فكتب الرسائل، ودوّن الكتب. رحل والده إلى حريملاء عام ١١٥٣ لخلافٍ بينه وبين أمير العُيينة الجديد، فرحل ابنه معه، وأراد أن يعمل بالدعوة فمنعه والده فانصرف إلى التأليف، ولكن لم يلبث والده أن توفي في ذلك العام، فأعلن الشيخ عن رأيه، وبدأ يدعو الناس إلى ترك ما هم عليه من بدع، والتمسّك بالإسلام، ووجد أن جوّ حريملاء لا يُناسب الدعوة فقرّر العودة إلى العُيينة =

به، حيث كتب حاكم الأحساء سليمان بن محمد بن غرير إلى أمير العُيينة عثمان بن معمّر أن يترك نصرة الشيخ، وأن يقتله، وابن معمّر يتبع ابن غرير، ويتقاضى منه راتباً شهرياً، فلم يكن منه إلا أن يطلب من الشيخ أن يُغادر إمارته، فانتقل إلى الدرعية عام ١١٥٧ حيث استقبله أميرها محمد بن سعود[1]، ووعده أن يمنعه، وأصبحت الدرعية مركزاً دينياً، ومقراً للنشاط، فقويت الإمارة، وسارت منها الجيوش في الاتجاهات كافةً تعمل على إزالة المنكرات، وترك الخرافات.

توسّعت إمارة الدرعية إذ ضمت إليها العُيينة، وحريملاء، ووقع الصدام بينها وبين الرياض التي حملت هذا الاسم بعد أن كانت تُعرف باسم (حجر اليمامة)، ومع حاكم نجران، وحاكم الإحساء (عريعر بن دجين)، ثم استطاع محمد بن سعود أن يفرض حكمه على بلاد العارض (عدا الرياض) وأكثر منطقة الخرج وحائر، والوشم، والمحمل، وسدير، وتوفي عام ١١٧٩، وتولّى بعده ابنه عبد العزيز بن محمد الذي تمكّن من دخول الرياض عام ١١٨٧، وتوجّه بعدها إلى القصيم فاستمر في قتاله فيها (١١٨٨ ـ ١٢٠٢)، ثم سار إلى الإحساء فدخلها عام ١٢٠٨، وانتقل بعدها إلى الغرب فدخل الطائف عام ١٢١٧، ومكة المكرمة ١٢١٨ بعد حروبٍ طويلةٍ مع شريف مكة غالب بن مساعد.

وغزا عبد العزيز بن محمد جنوبي العراق، ودخل كربلاء، وهدم قبر حسين بن علي، رضي الله عنهما، وأخذ الكنوز التي في الضريح، وهذا ما أثار نقمة الشيعة عليه، فجاء أحدهم إلى الدرعية مُتَنكّراً، وطعنه وهو يُؤدي

= وساعده عثمان بن معمر أميرها في نشر دعوته، وبدأ في التطبيق إذ قطعت الشجرة التي يتبرك بها الناس، وهدمت القبة التي فوق ضريح زيد بن الخطاب، رضي الله عنه، ورجمت الزانية. وتوفي الشيخ عام ١٢٠٦.

(١) محمد بن سعود: ورث إمارة بلدة الدرعية عام ١١٣٩، وكانت أسرته قد أعمرتها منذ عام ٥٨٠ في مكان كان يدعى (الليبيد وغصيبة) حيث نزل فيها مانع بن ربيعة المريدي من بني حنيفة قادماً من منطقة القطيف.

صلاة العصر فكان موته عام ١٢١٨، وتولّى مكانه ابنه سعود بن عبد العزيز الذي لقب بالكبير.

غزا سعود الكبير جنوبي العراق في أواخر عام ١٢١٨، وعجز عن دخول البصرة والزبير، وأعاد الغزو ثانية عام ١٢٢٠، وحاصر النجف، والسماوة، والبصرة، والزبير، وكرّر الغزو عام ١٢٢٣، وكذلك أرسل ابنه عبد الله عام ١٢٢٥. أما من جهة الغرب فقد غزا الحجاز عام ١٢١٩، ودخلت جيوشه المدينة المنورة عام ١٢٢٠، وشعر شريف مكة غالب بن مساعد بالضعف فعقد صلحاً مع الدولة السعودية على الشروط التالية:

١ ـ أن يسمح الشريف غالب للوهابيين بالحج، وبعد أداء المناسك مباشرة يعودون إلى بلادهم.

٢ ـ يدخل أهل مكة، وكل من كان تحت حكم الشريف في الطاعة للدولة السعودية.

٣ ـ يكون أمر مكة وحكمها تحت نظر الشريف.

وقد اشترط الشريف غالب أن تُعيد الدولة السعودية إليه (الحسينية)، وأثمان ما أخذوه وما أتلفوه فيها، وحتى ديات القتلى.

واتجهت جيوش سعود الكبير من جهة الشمال إلى بلاد الشام إذ وصلت عام ١٢٢٥ إلى مزيريب وبصرى في حوران في أواسط بلاد الشام جنوبي سوريا اليوم.

ومن ناحية عُمان خاف حاكم مسقط سلطان بن أحمد على نفسه من الدولة السعودية فاتجه إلى البصرة ليتفق مع والي بغداد مُمثّلاً للسلطان العثماني ضد سعود الكبير، وقد تم ذلك عام ١٢٠٦، واعترف سلطان مسقط بسيادة الدولة العثمانية على ممتلكاته في الجزيرة العربية وشرقي إفريقية لقاء حمايته من أعدائه أي من سعود الكبير، وهذا الاتفاق أثار إنكلترا فعملت على قتل سلطان مسقط وهو عائد إلى بلاده، وسار والي بغداد لمحاربة الدولة السعودية، غير أن السعوديين قد سبقوه بالإغارة على

جنوبي العراق، وتولّى أمر عُمان بعد سلطان بن أحمد أخوه بدر بن أحمد فوالى الدرعية، وطلب حمايتها إلا أنه قُتل، فأخذ مكانه ابن أخيه سالم بن سلطان، ثم أخوه سعيد بن سلطان، وحدث قتال بين العُمانيين والسعوديين انتصر فيه السعوديون، فطلبت عُمان إثر ذلك المبايعة على السمع والطاعة، وأصبحت تحت ولاية السعوديين، واستنجد سعيد بن سلطان بالإنكليز فأرسل سعود الكبير حملةً إلى عُمان عام ١٢٢٥ انتصرت على سعيد بن سلطان الذي استنجد ثانية بالإنكليز فلم ينجدوه، فاتجه إلى الفرس، وعاد القتال إلى أرض عُمان بين السلطان والسعوديين انتصر فيه السعوديون الذين أصبح لهم أنصار في البلاد، ووقع الخلاف بين أنصارهم وخصومهم غير أن سعود الكبير لم يستطع إرسال النجدات لهم لأن جيوش والي مصر محمد علي كانت قد نزلت بأرض الحجاز.

أما الإحساء فكانت قد دخلت في طاعة آل سعود عام ١٢٠٨، غير أن أهلها قد قاموا بعدة حركات منها حركة عام ١٢١٠، وأخضعت بسهولة، فاتصل الزعماء الذين فقدوا سلطتهم بالوالي العثماني في العراق وطلبوا دعمه فأمدهم بجيشٍ هُزم عام ١٢١١، فأردفه بثانٍ عام ١٢١٣ غير أنه لم يجر قتال إذ تمّ الصلح، ولكن لم يلبث أن عاد القتال، وغزا السعوديون جنوبي العراق عام ١٢١٦.

ووصلت الدعوة السلفية في جهات عسير إلى تهامة حيث استولى طامي بن شعيب أمير عسير على تهامة، وقاتل سيد أبي عريش الشريف حمود أبو مسمار، ووصل إلى الحديدة.

وهادن إمام صنعاء المنصور وابنه المتوكل إمام الدرعية سعود الكبير، واستجابا إلى شيء من الدعوة السلفية.

وهكذا دان أكثر الجزيرة العربية إلى سعود الكبير، ولم يبق خارج الدعوة السلفية سوى البحرين، وبعض المراكز للنفوذ الإنكليزي في الأطراف.

الحملة المصرية على الجزيرة:

سبق أن قلت في الباب الأول من هذا الكتاب: إنه قد أصبحت ثلاثة اتجاهات في المنطقة التي تتبع الدولة العثمانية أصلاً، أو لها نفوذ فيها، وهذه الاتجاهات هي:

١ ـ الدولة العثمانية التي تُمثّل الضعف والتوقّف في العمل الإسلامي أو جمود المسلمين، وتحكم باسم الإسلام دون أي عملٍ أو منهجٍ صحيح.

٢ ـ ولاية مصر التي يحكمها محمد علي ويرى السير على خطا أوربا ومنهجها، وله أطماعه وتطلعاته.

٣ ـ الدولة السعودية في الجزيرة وتعمل على إحياء فكرة الجهاد والسير على منهج السلف بعقليةٍ خاصةٍ، وتجاوب المسلمون في الجزيرة معها، واقتنعوا بالفكرة، وقاموا يعملون لها ويُجاهدون.

ولقد خشيت الدولة العثمانية من هذا التوسع الذي تمّ أيام عبد العزيز بن محمد وابنه سعود الكبير، ولم تتمكّن من الوقوف في وجه الدعوة حيث هُزم والي بغداد أمامها، كما هُزم والي الشام. وخشي محمد علي والي مصر على مخططه الذي يعمل له، وعلى أفكاره وأطماعه. وخشيت كذلك الدول النصرانية إذ خافت أن تدبّ الروح في المسلمين ثانية بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، فشجعوا الخليفة للقضاء على هذه الدعوة وشجّعوه بالاستعانة بجيوش محمد علي الفتية، أو رأوا أن التفاهم بين الجمود العثماني والتحرر الباشوي المصري خير من نجاح العمل الجديد للإسلام ووافق الخليفة العثماني بغية ضرب خصميه، الواحد بالآخر، وقبل محمد علي بغية تنفيذ أو تحقيق أطماعه.

أعطى الخليفة ولاية جدة لمحمد علي ليصبح على احتكاكٍ مباشرٍ مع السعوديين، وفي الوقت نفسه أراد الخليفة إشغال الناس بالقتال وأخباره في الجزيرة بعد أن تخلص من الإنكشاريين.

أرسل محمد علي مندوباً له إلى الجزيرة يدرس الأوضاع الداخلية عن

قرب، ويتعرف على نوايا شريف مكة غالب بن مساعد، وقد جاءت النتائج كما يريد محمد علي، فسير الحملة وتخلص من المماليك في الحفل الذي أعدّه لهذا الغرض بمناسبة إرسال ابنه طوسون على رأس الحملة.

سارت الحملة في شهر شعبان من عام ١٢٢٦ وتتألف من ٨٠٠٠ جندي من المشاة انتقلوا بحراً إلى ميناء ينبع، و٢٠٠٠ من الفرسان انتقلوا براً مع القائد العام أحمد طوسون بن محمد علي ولا يزيد عمره على السادسة عشرة والتقوا بينبع وقد سقطت بأيديهم، ومال شريف مكة غالب بن مساعد إلى الحملة التي سارت برأيه نحو المدينة المنورة، واحتلت في طريقها بدر، وعند الصفراء التقت بالجيش السعودي الذي يتألف من خمسة عشر ألف جندي على رأسهم عبد الله بن سعود الكبير، ومعه أمير عسير طامي بن شعيب، وعثمان المضايفي أمير الطائف، وهزمت الحملة المصرية، وأخطأ السعوديون في عدم متابعة المصريين الأمر الذي جعلهم يخلدون إلى الراحة، ويُنظّمون صفوفهم، ويطلبون النجدة.

وجاءت النجدة إلى طوسون فتوسّع وتمكّن من احتلال الصفراء ودخول المدينة المنورة عام ١٢٢٧ بعد حصارها، وسار بعدها إلى مكة بإشراف غالب بن مساعد فدخلها عام ١٢٢٨، وكذلك مدينة جُدّة، وأُسر عثمان المضايفي الذي أُرسل إلى مصر ومنها إلى إستانبول حيث لقي فيها حتفه.

وجاء محمد علي بنفسه إلى جُدّة فمكّة بعد دخولها من قبل جيشه وسخّر الشريف غالب في أموره، ثم قبض عليه وأرسله إلى مصر، ومنها إلى سالونيك إذ بقي فيها حتى مات عام ١٢٣١.

أراد طوسون أن يتوسّع نحو نجد من جهة الطائف إلا أنه هُزم مرتين في موقع تربة. وأُرسلت حملة إلى عسير عن طريق القنفذة لكنها هُزمت أيضاً، وتقدّم المصريّون نحو الشرق من جهة المدينة غير أنهم هُزموا في الحناكية أيضاً.

لم يكن الإنكليز ليسرّهم نصر محمد علي الذي كان أقرب إلى السياسة الفرنسية بل كانوا يخشون وجوده في الجزيرة العربية، وكانت صلتهم بالسعوديين ضعيفة غير أنهم راضون لمقاومة توسعات محمد علي.

وتوفي سعود الكبير عام ١٢٢٩، وخلفه ابنه عبد الله، ولم يكن له إمكانات أبيه، فأطمع هذا محمد علي، وقرّر القضاء على الدعوة، وسار نحو عسير وطوّقها من الشمال والغرب غير أن جيوشه قد هُزمت في الجبهتين. وكان عبد الله بن سعود مشغولاً ببعض الحركات الداخلية، فأعطى أخاه فيصلاً قيادة الجيوش فهُزم هزيمةً منكرةً في (بسل) شرق الطائف بعد أن جاءت الإمدادات بقيادة محمد علي بنفسه إلى القوات المصرية، واستغلّ محمد علي هذا النصر الذي أحرزه، وبدأ يشن حرباً لا هوادة فيها على القرى الآمنة حتى أصبحت تستسلم له مجرد اقترابه منها. فتقدّم في بلاد شهران، وانتصر على عسير، وأسر أميرها طامي بن شعيب، وحمله معه مكبلاً بالحديد، وبقي معه حتى عاد إلى مصر حيث أرسله إلى إستانبول فقتل هناك.

وانتقل أحمد طوسون بن محمد علي إلى المدينة، وتقدّم منها نحو الشرق حتى وصل إلى بلدة الرسّ، واستقرّ في الخبرا، وجاءت جيوش عبد الله بن سعود ولم يحدث قتال بين الطرفين، حيث عقد صلح عُرف باسم (صلح الرسّ) وينص على:

١ ـ أن يتوقف القتال بين الجانبين.

٢ ـ ينسحب المصريون من نجد، ويستقل آل سعود بحكمها.

٣ ـ يبقى الحجاز تحت حكم محمد علي يُسيّره باسم العثمانيين.

٤ ـ لا يعترض سبيل أي حاج من الطرفين.

٥ ـ تأمين النقل بين نجد، والشام، ومصر، والأناضول.

وبموجب هذا الصلح رحل المصريون عن نجد، وسافر طوسون إلى

مصر. ولكن محمد علي رفض هذا الصلح، وسيّر حملةً جديدةً بقيادة ابنه الكبير إبراهيم، والتقى الطرفان في شرق المدينة، وانتصر إبراهيم باشا في المعركة الأولى، ودخل الخبرا، والرسّ، وعنيزة بعد معارك جانبية، وتابع سيره إلى الدرعية، ودافع عنها أهلها دفاع المستميت، واضطر عبد الله بن سعود لتسليم نفسه في ١١ ذي القعدة عام ١٢٣٣ حيث أرسل إلى مصر، ومنها إلى إستانبول حيث أعدم هناك. وأمر إبراهيم باشا أسرتي آل سعود وآل الشيخ بالرحيل إلى مصر إلا من اختفى منهم أو هرب، ثم هدّم الدرعية، وقطع نخيلها، وعاد إلى القاهرة فوصل إليها في صفر عام ١٢٣٥. وهكذا انتهت الدولة السعودية التي عُرفت فيما بعد بالدولة السعودية الأولى.

عادت الإمارات الصغيرة إلى نجد مرة أخرى مثل: الرياض، والخرج، وحريملاء، وبريدة، وعاد إلى الإحساء كيانها، وإلى أشراف مكة استقلالهم. وخاف الإنكليز من قوة محمد علي المخالف لهم فاتجهت أنظارهم نحو منطقة الخليج حيث لم تصل قوة محمد علي بعد، وكذلك نحو الجنوب.

وبعد رحيل إبراهيم باشا عن الدرعية انقضّ عليها قادماً من العُيينة محمد بن مشاري بن معمر، وأخذ البيعة من كثير من البلدان عدا الرياض، وحريملاء، والخرج، وحاربه أمير الإحساء ماجد بن عريعر من بني خالد إلا أن الصلح قد تمّ بينهما، واستمر ابن معمر في الدرعية حتى عام ١٢٣٥ حيث وصل إليها مشاري بن سعود هارباً من قافلة الأسرى المتجهة إلى مصر، وقد اجتمع حوله عدد من أهالي القصيم، والزلفي فتنازل له ابن معمر، وبايعه، وخدعه، ثمّ كاتب العثمانيين، وحاربه، وانتصر عليه، وسلمه إلى العثمانيين فقتلوه، وعاد ابن معمر إلى حكم الدرعية.

كان تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود قد لاذ بالفرار إلى الخرج، واعتصم فيها عندما سقطت الدرعية بيد إبراهيم باشا، ثم حكم الرياض أيام تسلّم ابن عمه مشاري حكم الدرعية. فلما عاد ابن معمر إلى الدرعية سار

تركي إليه وقتله عام ١٢٣٦ إلا أن القوات العثمانية قد جاءت إلى الرياض، وأجبرته على مغادرتها عام ١٢٣٧، وتمكّن بعد مدةٍ أن يعود إليها ثانيةً، وأن يهزم القوات العثمانية، وأن يخرجها منها عام ١٢٤٠، وعندها جاءت إليه وفود نجد تُعلن له الطاعة، وجاءه أهل عُمان أيضاً عام ١٢٤٤، وانتصر على بني خالد، فجاء أهل الإحساء، وبايعوه وهكذا عادت الدولة السعودية من جديد، وعرفت باسم الدولة السعودية الثانية، وأصبحت قاعدتها الرياض بدلاً من الدرعية، كما أن الحكم انتقل من أسرة عبد العزيز بن محمد إلى أسرة عبد الله بن محمد. وعندما وصل الخبر إلى أسرى آل سعود في مصر بإعادة الدولة السعودية تشجّع بعضهم على محاولة الفرار من مكان أسرهم، وقد تمكّن أحدهم وهو مشاري بن عبد الرحمن أن يفرّ من السجن عام ١٢٤٢، ولحقه الثاني وهو فيصل بن تركي، بن عبد الله، وقد وصل إلى نجد عام ١٢٤٣، وأصبح ساعد أبيه في توطيد دعائم الدولة، واستطاع أن يقضي على كثيرٍ من الحركات التي قامت في وجه أبيه، وبينما كان يُحاصر القطيف، وصل إليه خبر مقتل أبيه في ٢٩ ذي الحجة عام ١٢٤٩ على يد ابن أخته مشاري بن عبد الرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود طمعاً في استلام الحكم.

فيصل بن تركي:

فكّ الحصار عن القطيف، وسار إلى الرياض عندما وصل إليه خبر مقتل أبيه، واستطاع استرجاع السلطة إليه بعد أن قام عبد الله بن رشيد بقتل مشاري بن عبد الرحمن في مطلع عام ١٢٥٠، وكان عبد الله بن رشيد مع فيصل بن تركي في حصار القطيف. وأصبح فيصل إمام نجد.

تغيّرت سياسة محمد علي، إذ أصبح يريد تأسيس دولة واسعة له، إلا أن الحركات قد قامت ضده في الجزيرة، إذ ثار ضده شريف مكة يحيى بن سرور عام ١٢٤٣، فأخمد محمد علي تلك الحركة، وعزل يحيى بن سرور، وولّى مكانه محمد بن عبد المعين بن عون، وتحرّك عائض بن

مرعي في عسير، وهزم قوات محمد علي هناك. وقويت دولة فيصل بن تركي في نجد فأراد محمد علي أن يضربها ببعض آل سعود، أو يقسم الأسرة بعضها على بعض ليستفيد هو، فأرسل خالد بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود مع حملة استطاعت احتلال نجد عام ١٢٥٣، ودخل خالد بن سعود الرياض، وخرج منها فيصل بن تركي متجهاً نحو الخرج ومنها إلى الإحساء.

لم تخضع الخرج والحوطة والحريق إلى خالد بن سعود الذي هُزم أمام قواتها عندما اتجه نحوها، وهذا ما جعل فيصل بن تركي يأتي من الإحساء ويُحاصر الرياض، غير أن نجدةً مصريةً قد جاءت إلى خالد بن سعود كانت في طريقها إلى عسير عن طريق وادي الدواسر، وقد أجبرت فيصلاً على ترك حصار الرياض، والتوجه نحو الخرج، وعندما سارت قوات خالد بن سعود إليه هزمته، فاضطر إلى الصلح، ونتيجة ذلك أُخذ، وسيق إلى مصر.

خالد بن سعود:

كان خالد بن سعود صورةً في الحكم، في الوقت الذي كان فيه القائد المصري خورشيد باشا هو الحاكم الفعلي. لذا كان سكان نجد يكرهون خالداً.

عبد الله بن ثنيان:

ثار عبد الله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود على خالد فأيّده أهل نجد، واضطر خالد أن يفرّ إلى الإحساء، ومنها إلى الكويت، ثم إلى مكة حيث بقي هناك حتى مات، وحكم عبد الله بن ثنيان نجداً من الرياض، وكانت الظروف مناسبةً له، لأن محمد علي والي مصر قد هُزم في بلاد الشام، واضطر إلى توقيع معاهدة لندن التي قضت أن ينحصر نفوذه في مصر، وهذا ما أدّى أيضاً إلى سحب جيوشه من جزيرة العرب، ولم

يعد لخالد بن سعود نصير فتمكّن عبد الله بن ثنيان في الحكم، وبقي حتى عام ١٢٥٩.

جاء فيصل بن تركي من سجنه في مصر بعد أن قضى فيه ما يقرب من خمس سنوات، فاتجه إلى حائل، ونزل عند صديقه الأول عبد الله بن رشيد، ثم سار إلى الرياض فحاصرها ثم دخلها، وقبض على عبد الله بن ثنيان وسجنه، ولكن لم يلبث ابن ثنيان أن مات في السجن في العام نفسه ١٢٥٩، وغدا فيصل بن تركي سيّد نجد ثانيةً.

فيصل بن تركي «للمرة الثانية»:

استطاع فيصل بن تركي أن يُخضع الإحساء والقطيف عام ١٢٦٠، وبذا امتد نفوذه كثيراً، كما أن عبد الله بن رشيد كان يحكم حائل باسمه، هذا بالإضافة إلى أن آل عائض في عسير كانوا على صلةٍ طيبةٍ معه وقد امتدّ نفوذهم كثيراً في جهات اليمن وتهامة وحتى جزر دهلك على سواحل اريتريا.

وفي عام ١٢٦٣ وصل إلى نجد شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون، ولما وصل إلى عنيزة صالحه الإمام فيصل بن تركي، وقدّم له هديةً فرجع من حيث أتى.

وكانت عُمان تدفع الزكاة للإمام فيصل رغم النفوذ الإنكليزي فيها، وتتصل بالدولة السعودية، ولم تعترف بتبعيتها للإنكليز.

وحاولت الدولة العثمانية أن تستفيد من فيصل بن تركي للعمل معاً ضد عسير الثائرة على العثمانيين بإمرة آل عائض، ولكن الإمام فيصلاً لم يُقدّم أي مساعداتٍ تُذكر لأنه كان على صلةٍ طيبةٍ مع عسير. وتوفي فيصل عام ١٢٨٢ وترك أربعة أولاد هم: عبد الله، ومحمد، وسعود، وعبد الرحمن.

عبد الله بن فيصل:

تسلّم الولد الأكبر لفيصل وهو عبد الله الحكم بعد أبيه، ولكن ثار

عليه أخوه سعود الذي كان والياً على الخرج غير أنه هُزم، ففرّ إلى عسير، وطلب من محمد بن عائض أمير عسير مساعدته ضد أخيه عبد الله، ولكن لم يحصل إلا على النصح في الصلح مع أخيه، فتركه واتجه إلى نجران ودعمه المكارمة وآل مُرّة، فجمع حشداً واتجه إلى أخيه إلا أنه هُزم وجُرح، فاتجه إلى المنطقة الشرقية، ومنها إلى واحة البريمي فجمع جموعه وسار إلى أخيه، وأحرز النصر، واضطر عبد الله إلى مغادرة الرياض، غير أن سعوداً لم يجرؤ على دخولها لأنه لم يجد في نفسه القوة الكافية بعد لحمايتها، فعاد إليها عبد الله. وحاول سعود أن يستعين بعبد الله بن رشيد أمير حائل، وبوالي بغداد العثماني، ولكنه لم يجد دعماً من هاتين الجهتين، ومع ذلك فقد ظل مُصمّماً على القتال.

سعود بن فيصل:

زحف سعود بن فيصل على قوات أخيه في الرياض عام ١٢٨٨، وتمكّن من دخولها، وخرج منها أخوه عبد الله مُتجهاً إلى قبائل قحطان في الجنوب، وحاول العودة إلى الرياض غير أنه هُزم، وطلب المساعدة من العثمانيين الذين كانوا قد احتلوا الإحساء، واتجه إليهم.

ثار أهل الرياض على سعود بن فيصل، وعزلوه، وولّوا مكانه عمه عبد الله بن تركي.

عبد الله بن فيصل للمرة الثانية:

جاء عبد الله بن فيصل من المنطقة الشرقية إلى الرياض فتنازل له عمه عبد الله بن تركي بعد أن حكم شهرين، وهرب سعود بن فيصل إلى الخرج وذلك عام ١٢٨٩.

سعود بن فيصل للمرة الثانية:

التفّ حول سعود بن فيصل أنصاره في منطقة الخرج فسار بهم إلى

الرياض، وتمكن من دخولها بعد أن انتصر على أخيه عبد الله الذي فرّ إلى الكويت.

حاول سعود بن فيصل استرجاع الإحساء، وطلب مساعدة الإنكليز فلم يقبلوا التدخل في الأمر، وطلب من العثمانيين الانسحاب من الإحساء، فلم يستجيبوا له بل وقفوا بجانب أخيه عبد الله ضدّه.

اتفق عبد الله وسعود ابنا فيصل، وعملا على مهاجمة العثمانيين في الإحساء غير أنهما فشلا في ذلك. وانسحب العثمانيون من الإحساء أو أن قواتهم قد انسحبت عام ١٢٩٠ بسبب الأمراض التي انتشرت، وغدت منطقة الإحساء تحت حكم أمراء محليين يتبعون الوالي العثماني في البصرة. وثار فيها عبد الرحمن بن فيصل، وهو في طريق عودته من بغداد غير أنه لم ينجح.

عبد الرحمن بن فيصل:

توفي سعود بن فيصل عام ١٢٩١ فاختار أهل الرياض حاكماً عليهم أخاه الصغير عبد الرحمن بن فيصل الذي كان يُؤيّد أخاه سعوداً في أواخر حياته.

اختلف عبد الرحمن بن فيصل مع أبناء أخيه سعود الذين أيّدوه في البداية، ثم اختلفوا معه، وعارضوه، واستطاعوا الاستيلاء على الرياض، بعد أن حكم عمهم الرياض مدة سنتين.

عبد الله بن فيصل للمرة الثالثة:

اتفق أبناء فيصل فيما بينهم، وولّوا عليهم أكبرهم عبد الله، واستطاعوا دخول الرياض، وإخراج أبناء أخيهم سعود، واستمر الأمر حتى عام ١٣٠٢.

محمد بن سعود بن فيصل:

استطاع أبناء سعود العودة إلى الرياض، والقبض على عمهم عبد الله،

وإلقائه في السجن، وتولّى كبيرهم محمد بن سعود حكم الرياض عام ١٣٠٢.

هذا الاختلاف بين أبناء فيصل وأبنائهم أيضاً قد أضعف الأسرة، وأضعف الحكم، وسبّب فوضى، فانعدم الأمن، وتضايق السكان، وأطمع الآخرين في حكم نجد وخاصة آل رشيد في حائل.

حكم آل رشيد:

سار محمد بن عبد الله بن رشيد من حائل إلى الرياض لإعادة الحكم إلى صهره عبد الله بن فيصل القابع في سجن ابن أخيه محمد بن سعود، فاستولى على الرياض، وأخرج صهره من السجن، وأخذه معه إلى حائل مع أخيه عبد الرحمن بن فيصل، وغادر الرياض بعد أن ترك فيها حاميةً برئاسة سالم السبهان، وترك الحكم لمحمد بن سعود على أن يكون تحت إشرافه. وبعد مدة سمح لابني فيصل بالعودة إلى الرياض، فوصلا إليها في ٦ ربيع الثاني عام ١٣٠٧، وبعد يومين من وصولهما توفي عبد الله بن فيصل. واختير عبد الرحمن بن فيصل حاكماً للرياض من قبل سكانها، وسحب محمد بن عبد الله بن رشيد حاميته.

عبد الرحمن بن فيصل للمرة الثانية:

عاد ابن رشيد فأرسل حملةً جديدةً إلى الرياض فلما وصلت إلى القصيم، وانتصرت على أهله اضطر عبد الرحمن بن فيصل أن يُغادر الرياض إلى الإحساء فالقطيف فالكويت، ثم رجع إلى قطر فالبحرين، ثم سمح له أمير الكويت بالإقامة عنده، فارتحل إليه عام ١٣٠٩. ودخلت قوات آل رشيد الرياض التي غدت تتبع لهم.

وهكذا زالت الدولة السعودية الثانية.

آل رشيد في نجد:

استمر حكم آل رشيد لنجد من عام ١٣٠٧ حتى عام ١٣١٩ أي ما

يقرب من اثنتي عشرة سنة، كان خلالها عبد الرحمن بن فيصل في الكويت.

واختلف أمراء الكويت على الحكم حيث ثار على الشيخ مبارك أبناء إخوته، ولما فشلوا في حركتهم لجؤوا إلى العراق يطلبون المساعدة من العثمانيين عن طريق ولاتهم ضدّ عمهم الشيخ مبارك الذي تفاهم مع الإنكليز. فأوكل ولاة العثمانيين أمر دعم أبناء إخوة الشيخ مبارك إلى أمير حائل عبد العزيز بن متعب فاستعد لقتال الشيخ مبارك، كما استعد الشيخ مبارك.

اقترح عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل على الشيخ مبارك أن يسير بقوةٍ إلى الرياض ويأخذها من آل رشيد، فتضعف قوتهم، وينتصر عليهم الشيخ مبارك. فلقي هذا الاقتراح القبول، وسار عبد العزيز على رأس قوةٍ وصلت إلى الرياض، وألقت الحصار عليها عام ١٣١٨، ولكنه اضطر إلى الانسحاب إذ هُزم الشيخ مبارك أمام آل رشيد.

لم يثن الفشل الأول عبد العزيز بن عبد الرحمن فعاد إلى الرياض مرةً ثانيةً عام ١٣١٩، واستطاع دخولها، وقتل عجلان بن محمد أمير الرياض من قبل آل رشيد.

عبد العزيز بن عبد الرحمن:

بعد أن استولى عبد العزيز على الرياض بدأ يتوسع فاستولى على الوشم وسدير عام ١٣٢١، وفي العام التالي ضمّ بريدة وعنيزة، وانتهى من ضم القصيم عام ١٣٢٤، بعد مقتل أمير حائل عبد العزيز المتعب، وتنازل ابنه متعب عن القصيم بعد الصلح الذي جرى بينه وبين أمير الرياض عبد العزيز بن عبد الرحمن.

عاد القتال بين أمير حائل الجديد سلطان بن حمود آل عبيد الذي قتل ابن عمه متعب بن عبد العزيز، واستمر القتال بين الرياض وحائل حتى

انتهى بانتصار عبد العزيز بن عبد الرحمن واستسلام آل رشيد وقد فتكت فيهم الخلافات أكثر مما يفتك بهم الخصم، وضُمت حائل إلى إمارة نجد عام ١٣٤٠.

واستولى عبد العزيز بن عبد الرحمن على الإحساء عام ١٣٣١ عندما ضعفت الدولة العثمانية بسبب حروب البلقان وانشغالها بتلك الحروب.

وضمّ إليه عسير عام ١٣٤١، والحجاز عام ١٣٤٤، وتهامة عسير عام ١٣٤٥، وأطلق اسم المملكة العربية السعودية على هذه الأجزاء مجتمعةً، وبذلك قلّل من الإمارات المبعثرة، والمناطق المتنافرة التي لم تهدأ بينها الخلافات إلا قليلاً، وأوجد دولةً مترامية الأطراف متحدةً بين أجزائها.

سعود

مشاري
حسن
عبد الرحمن
مشاري
١٢٤٥ـ ١٢٤٩

محمد ١١٥٧ ـ ١١٧٩

عبد العزيز ١١٧٩ ـ ١٢١٨
سعود ١٢١٨ ـ ١٢٢٩

مشاري
١٢٣٥

عبد الله
١٢٢٩ ـ ١٢٣٣

خالد ١٢٥٣ ـ ١٢٥٧

عبد الله
تركي ١٢٤٠ ـ ١٢٤٩

عبد الله
١٢٨٩ ـ ١٢٨٩

فيصل
١٢٤٩ ـ ١٢٥٣
١٢٥٩ ـ ١٢٨٢

عبد الله
١٢٨٢ ـ ١٢٨٨
١٢٨٩ ـ ١٢٩٠
١٢٩٣ ـ ١٣٠٢

محمّد

سعود
١٢٨٨ ـ ١٢٨٩
١٢٩٠ ـ ١٢٩١
محمّد
١٣٠٢ ـ ١٣٠٢

عبد الرحمن
١٢٩١ ـ ١٢٩٣
١٣٠٧ ـ ١٣٠٧
عبد العزيز
١٣١٩ ـ ١٣٧٣

ثنيان
ابراهيم
ثنيان
عبد الله
١٢٥٧ ـ ١٢٥٩

«المملكة العربية السعودية»

الفصل الثالث

إمارة آل الرشيد بحائل

ينتمي آل الرشيد إلى شمّر التي هي من قبيلة طيء المعروفة. وكانت بطون شمّر تختلف على إمرتها وعلى سيادة المنطقة، وقد آلت السيادة إلى (عبدة) أحد هذه البطون. وعندما قامت الدولة السعودية الأولى أي في منتصف القرن الثاني عشر الهجري كان سيّد شمّر رجل يُعرف باسم (الجربا)، وقد هُزم في إحدى معاركه، فأُجلي وعشيرته إلى العراق، وتسلّم زعامة شمّر آل علي، وهم بطن آخر من القبيلة، ثم لم يلبث أن وقع الخلاف بين أفراد هذا البطن، فترك عبد الله بن علي بن رشيد ابن عمه سيّد المنطقة، واتجه إلى نجد، وهناك رافق الإمام فيصل بن تركي، وسار معه إلى حصار القطيف، وأثناء الحصار وصل إليهما خبر مقتل تركي بن عبد الله والد فيصل، فترك فيصل الحصار وسار إلى الرياض، ومعه عبد الله بن رشيد الذي كان قتل خصم فيصل على يده.

تسلّم فيصل بن تركي حكم نجد فساعد صديقه عبد الله بن رشيد على خصومه من أبناء عمومته، ومكّنه من زعامة حائل في مطلع عام ١٢٥٠، وبذا تكوّنت إمارة آل الرشيد.

بقي عبد الله بن علي بن رشيد في إمارة حائل يعمل باسم فيصل بن تركي، ويُساعده أخوه عبيد بن علي بن رشيد حتى توفي عبد الله عام ١٢٦٥، وخلّف ثلاثة أولاد هم: طلال، ومتعب، ومحمد.

أخذ الإمارة بعد عبد الله ابنه طلال، وبقي حتى انتحر عام ١٢٨٣،

وخلفه أخوه متعب بن عبد الله غير أن أبناء أخيه طلال قد قاموا عليه، وقتلوه عام ١٢٨٥، وتولّى الإمارة منهم بندر بن طلال، إلا أنه لم يلبث أن قُتل بيد عمه محمد عام ١٢٨٨، وقام محمد بن عبد الله هذا بالأمر، وقتل أبناء أخيه طلال كلهم إلا بدراً الذي فرّ إلى البادية فلحق به العبيد وقتلوه. وصفا الجو لمحمد بن عبد الله فاتفق مع آل أبي الخيل من آل مهنا أمراء بريدة، واتجه نحو نجد ودخل بلدانها الواحدة إثر الأخرى حتى وصل إلى الرياض فدخلها، وأخرج عبد الله بن فيصل من سجن ابن أخيه محمد بن سعود وذلك عام ١٣٠٢. ثم اختلف مع أهل القصيم فانتصر عليهم وعلى عبد الرحمن بن فيصل الذي ساعدهم، الأمر الذي جعل عبد الرحمن بن فيصل يأخذ أهله ويتجه إلى المنطقة الشرقية حتى استقر بالكويت. وتوفي محمد بن عبد الله آل رشيد عام ١٣١٥، ولم يعقب.

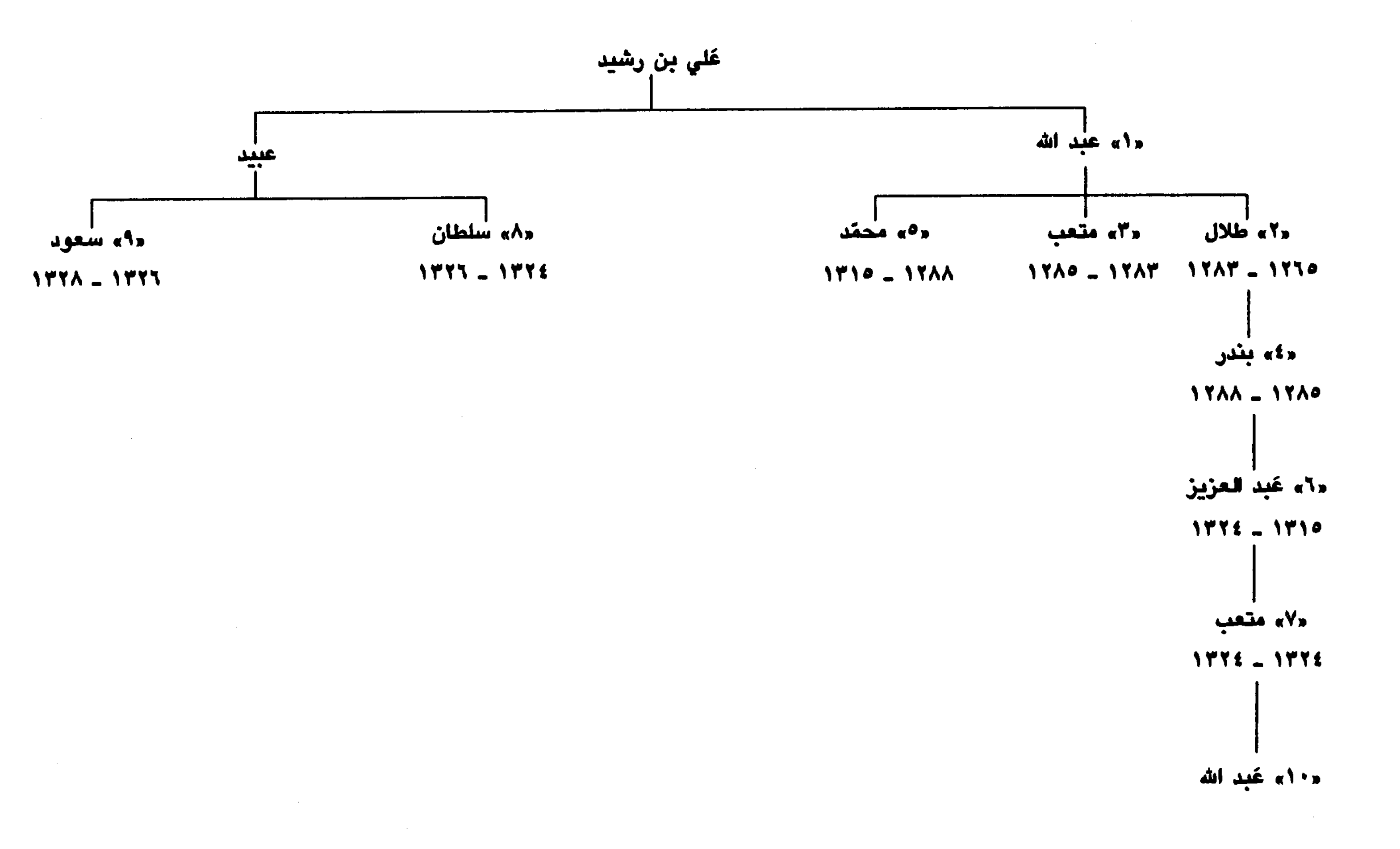
تولّى بعد محمد بن عبد الله ابن أخيه عبد العزيز بن متعب فطمع بالكويت فاصطدم مع الشيخ مبارك الصباح، وهُزم في قتاله مع الشيخ مبارك في بداية الأمر، ثم انتصر في معركة (الصريف) بالقصيم في شهر ذي القعدة من عام ١٣١٨، وعادت نجد لنفوذه، وكان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يُحاصر الرياض فاضطر لفكّ الحصار والرجوع إلى الكويت. وزحف ابن رشيد نحو الكويت، مما حمل صاحبها على الاستنجاد بالحكومة البريطانية وطلب حمايتها، وعندها تراجع أمير شمّر عن هدفه إذ أدرك أنه لا يستطيع دخول الكويت.

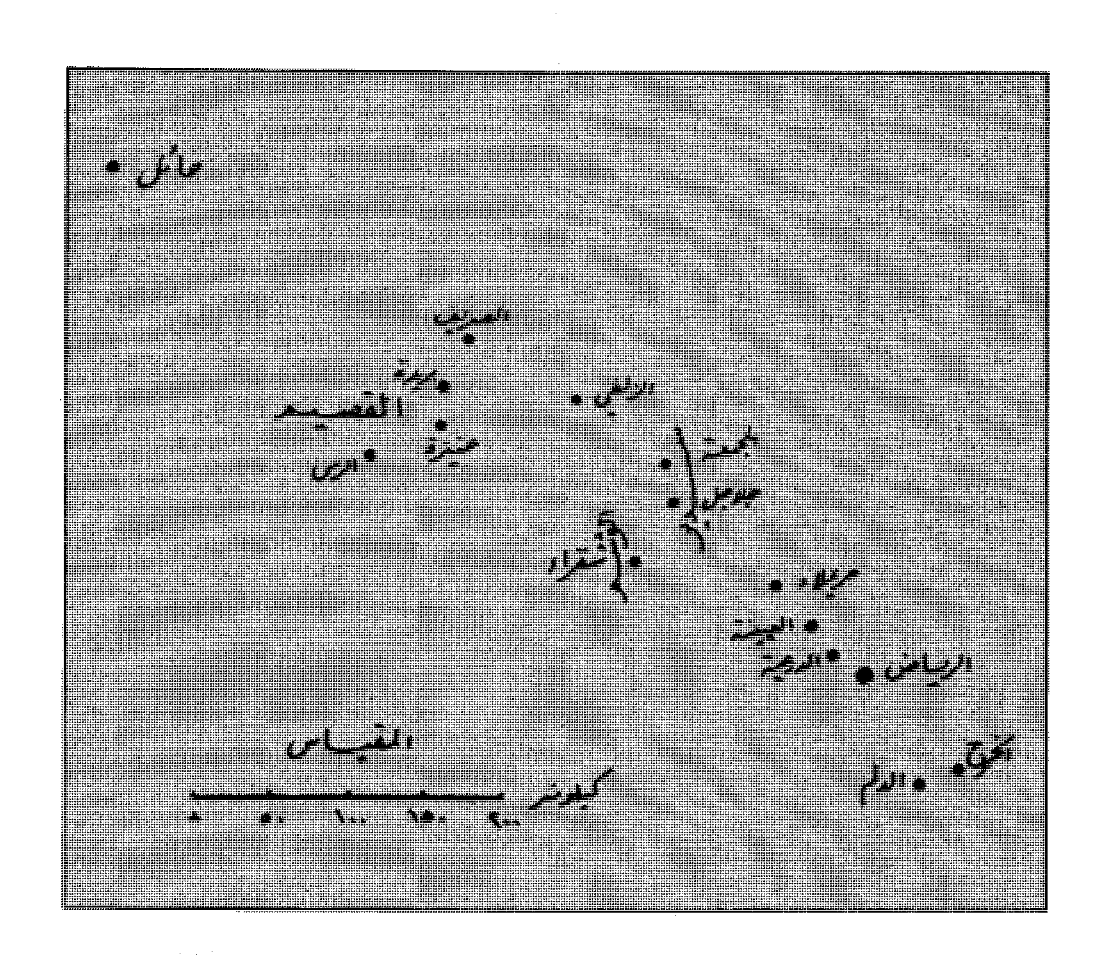
وجاء مرةً ثانيةً عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود إلى الرياض عام ١٣١٩، واستطاع دخولها وإجلاء آل رشيد عنها، وبدأت المعارك بين الطرفين، وانتصر ابن سعود على ابن رشيد، وقُتل الأخير في معركة (روضة مهنا) بالقصيم عام ١٣٢٤هـ. وتولّى بعده ابنه متعب، وكان مُسالماً فصالح عبد العزيز آل سعود، وتخلّى له عن القصيم، واقتصر سلطانه على شمّر وملحقاتها، وقُتل في العام نفسه على يد أبناء عمومته أولاد حمود بن عبيد.

أخذ إمارة حائل سلطان بن حمود بن عبيد، وسار مع قبائل حرب، وشمّر، ومطير للقاء عبد العزيز آل سعود ومعه قبائل عتيبة وقحطان، وجرت بين الطرفين معركة (الطرفية) هُزم فيها ابن رشيد الذي لم يلبث أن قتله أخوه سعود عام ١٣٢٦، وتسلّم الإمرة مكانه إلا أن عبد الله بن طلال قتله غدراً، ثمّ قُتل أيضاً عبد الله بن طلال.

تولّى حكم إمارة آل رشيد عبد الله بن متعب، وكان صغيراً فخاف من ابن عمه محمد بن طلال فترك له الأمر، والتجأ إلى عبد العزيز آل سعود في الرياض.

قام محمد بن طلال بأمور الحكم، واشتغل بالحرب مع السعوديين، وقد هُزم فتحصّن في عاصمته حائل، ولكن الحصار أنهكه فاستسلم بعد أن رأى أنه لا خيار له فيه. ودخل السعوديون حائل وولّوا عليها إبراهيم السبهان الذي ساعدهم في دخول المدينة بعد أن اشتدت وطأتهم عليها عام ١٣٤٠، وبذا زالت إمارة آل رشيد، وقد امتازت هذه الأسرة بالشجاعة والشكيمة إلا أن القتال بين الإخوة والأقرباء قد قضى على عددٍ من وجهائها، كما عُرفت بالعدل والذود عن الحياض. ولم يكن القتال بينهم ليزجّوا به المجتمع وإنما حصروه فيما بينهم.


عَلي بن رشيد
«١» عبد الله
عبيد
«٢» طلال
١٢٦٥ ـ ١٢٨٣
«٣» متعب
١٢٨٣ ـ ١٢٨٥
«٥» محمّد
١٢٨٨ ـ ١٣١٥
«٨» سلطان
١٣٢٤ ـ ١٣٢٦
«٩» سعود
١٣٢٦ ـ ١٣٢٨
«٤» بندر
١٢٨٥ ـ ١٢٨٨
«٦» عَبد العزيز
١٣١٥ ـ ١٣٢٤
«٧» متعب
١٣٢٤ ـ ١٣٢٤
«١٠» عَبد الله


حائل
بريدة
القصيم
عنيزة
الرس
الزلفي
المجمعة
شقراء
حريملاء
العيينة
الدرعية
الرياض
الخرج
الدلم
المقياس
كيلومتر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠

مصور رقم [٢٠]

الفصل الرابع

إمارة عسير

كانت مرتفعات عسير تحكم باسم أشراف مكة من قبل أسرة تدّعي الانتساب إلى الأسرة السفيانية من الأمويين أو بصورة أدق إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وتدعى بالأسرة اليزيدية، وقد نشب الخلاف بين أفراد هذه الأسرة بسبب الزعامة والسيادة على المنطقة فانزوى قسم منهم في الشعف، وبقي الفرع الآخر في منطقة أبها يدير شؤون منطقته باسم أشراف الحجاز، وكان بعض هؤلاء الأمراء ينتفض على الأشراف، ويمد نفوذه، أو يبسط سلطانه على بعض جهات تهامة، وربما وصلت سيطرة أهل اليمن إلى مرتفعاتهم فدانوا لهم، واستمر وضع عسير على هذه الحالة حتى كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد.

وفد إلى الدرعية في بداية عام ١٢١٥ بعض أفراد من عسير ليتلقوا العلم، ومنهم محمد بن عامر، وأخوه عبد الوهاب من آل المتحمي من قبيلة ربيعة رفيدة إحدى قبائل سراة عسير ومعهما لفيف من أبناء المنطقة، وعندما عادا أسند إليهما أمير الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود مهمة نشر الدعوة السلفية في عسير وحمايتها، ولما وصلا إلى عسير أصبحا يتصرفان كأمراء، فوقف في وجههما أمير المنطقة يومذاك محمد بن أحمد بن محمد من آل يزيد، فاستنجدا بالدرعية فأرسلت لهما قوة، استطاعا بها قتال أمير المنطقة والانتصار عليه، بل لقد لقي حتفه في ذلك الصراع فاستلم محمد بن عامر المتحمي إمرة المنطقة عام ١٢١٦، واتخذ قرية طبب مركزاً لحكمه، وقد عُرف باسم (أبو نقطة) إذ كان جده يعرف بذلك لنقطة كانت

على عينه فاشتهر بذلك هو وذريته. وقد عمل على إخضاع قبائل رجال ألمع لنفوذه. ورحل إلى الدرعية عام ١٢١٨، وفي أثناء عودته توفي في الطريق بالجدري الذي أصابه، ودُفن في بلدة بيشة.

عبد الوهاب المتحمي:

خلف عبد الوهاب بن عامر في إمرة عسير أخاه محمداً، ودخل في حروبٍ طويلةٍ مع شريف مكة غالب بن مساعد، واشتبك معه في ثلاث عشرة حرباً انتصر فيها جميعها، كما دخل في قتال مع الأشراف في تهامة حيث كان أمير بلدة أبي عريش علي بن حيدر من آل الخيرات، وعامله على صبيا عمه ناصر بن محمد، ثم تنازل ناصر لابنه منصور، وقد كانت هذه المنطقة تخضع لنفوذ اليمن، واستمر خلاف عبد الوهاب بن عامر مع أمراء تهامة حتى خضعوا، وقبلوا العمل للدعوة، غير أن حمود أبا مسمار قد وجد في نفسه شيئاً من تبعيته لعبد الوهاب فأراد الانفصال عنه أو الاستقلال فعاد الخلاف من جديد، فطلبت الدرعية من عبد الوهاب أن يغزو الشريف في أبي عريش، فسار إليه، وجرت بين الطرفين معركة حامية انتصر فيها جيش عبد الوهاب لكن فقد قائده في المعركة وهو عبد الوهاب بن عامر وذلك عام ١٢٢٤.

طامي بن شعيب:

تولّى إمرة عسير بعد عبد الوهاب بن عامر ابن عمه طامي بن شعيب بناءً على أوامر الدرعية، واستمر في صراعه مع الشريف حمود أبي مسمار أمير أبي عريش الذي أصبح يتلقى الدعم من إمام صنعاء أحمد بن المنصور. وفي ١٢٢٥ جاء أمير الطائف عثمان المضايفي بقوة لمساعدة طامي بن شعيب، والتقيا في ميناء الشقيق، وسارا معاً لقتال الشريف حمود، وانتصرا عليه، واستوليا على جيزان واللحية. وفي موسم الحج تصالح الشريف حمود مع عبد العزيز بن محمد بن سعود، على أن يتنازل

الشريف حمود عن صبيا، وبيش، ودرب بني شعبة لطامي بن شعيب يحكمها باسم الإمام عبد العزيز بن محمد، كما يدفع خراجاً سنوياً عن الموانئ اليمنية، وأن يكفّ السعوديون وأنصارهم عن حربه وذلك في مطلع عام ١٢٢٦. لكن الخلاف عاد لأن الشريف حمود بدأ يكاتب المصريين عندما نزلوا في الحجاز ويُحرّضهم على قتال السعوديين، ويعدهم بالنصر.

سارت القوات المصرية إلى تهامة، واحتلت القنفذة عام ١٢٣٠، ولكن بعد شهرين أغار عليهم أمير عسير طامي بن شعيب، وهزمهم هزيمةً منكرةً، وعادوا إلى جُدة، ومنهم من لاذ بالبحر هارباً بالسفن، وغنم العسيريون المدافع وذخيرة القوات المصرية كلها، وكررت القوات المصرية غزوها وعاد إليها طامي بن شعيب، وانتصر عليها، فغيّر محمد علي الخطة إذ رأى أن طريق عسير هو طريق السراة لا تهامة.

أرسل محمد علي حملةً عن طريق السراة، وانطلقت من الطائف فأسرع طامي بن شعيب لملاقاتها، وتقابل الطرفان في وادي تربة، فانتصر العسيريون ورجعت الحملة إلى الطائف، وجاءت حملة من الدرعية لدعم عسير وكانت بقيادة تركي بن سعود غير أنها هُزمت جنوب الطائف عام ١٢٣١.

الاحتلال المصري:

قاد محمد علي حملةً بنفسه، واحتل تربة، ورانية، واتجه إلى بيشة فدخلها، وسار نحو خميس مشيط واستقر بها، ثم تقدّم نحو عسير عبر بلاد بني مالك، واستطاع أن يحتل (طبب) مركز حكم طامي بن شعيب، ونجا طامي من المعركة، وتحصّن في جبل (تهلل)، وحلّت به الهزيمة ثانيةً، فاتجه نحو تهامة، والتقى وهو في طريقه إلى صبيا بسرية للشريف حمود تفتش عنه فأسرته، وسلمته إلى محمد علي، فحمله محمد علي معه مقيداً حتى عاد إلى مصر، ومن هناك بعثه إلى إستانبول حيث أعدم هناك عام ١٢٣٢.

غادر محمد علي عسير بعد أن ترك فيها حاميةً كبيرةً، وخضعت له المنطقة اسمياً، وسار إلى مكة، ومنها اتجه إلى المدينة، ولم يطل المكوث فيها حيث وصل إليه خبر مفاده اندلاع ثورة ضده في القاهرة، ونبأ فرار نابليون بونابرت من منفاه في جزيرة (إلبا)، فأراد العودة إلى مصر، ولكنه كان يخشى انقضاض أهل البلاد على جنده إثر عودته، ولكن لا بدّ من السفر، فعمل على تمكين الوضع ودعمه، وعاد إلى مكة المكرمة، ومنها رجع إلى عسير، فبلدة محايل عن طريق عقبة شعار، فالقنفذة ومنها إلى مصر، وفي رحلته هذه كلها كان يرافقه أمير عسير السابق طامي بن شعيب مكبلاً بالحديد.

وعندما احتل محمد علي عسيراً اعتصم بعض زعمائها بالجبال، فلما رجع محمد علي من المنطقة انقض هؤلاء الزعماء ومنهم محمد بن أحمد المتحمي، وسعيد بن مسلّط، ومن معهم على الحامية المصرية في (طبب) فقتلوا من استطاعوا عليه، ومن نجا فرّ إلى الحجاز. كما سار محمد بن أحمد المتحمي على رأس قوة لينتقم من أبي عريش غير أنه هُزم عام ١٢٣١، ولم يكد محمد علي ينتهي من أمر عسير حتى وصلت فلول حاميته التي تركها في (طبب) إلى الحجاز فأثار ذلك غضبه، وأمر بإرسال قوةٍ كبيرةٍ عام ١٢٣٢ لتؤدّب قبائل عسير وزعماءها. سارت هذه القوة من الحجاز من عدة اتجاهات وعلى عدة محاور، تحرّك حسني باشا عن طريق بلاد غامد وزهران، وسار الشريف محمد بن عون عن طريق بيشة وبلاد شهران، وتوجّه جمعة باشا عن طريق الساحل، ووصلت أخبار هذه الحملات إلى العسيريين فاستعدوا لها، وجرت بين الطرفين معارك حامية تراجعت إثرها القوات العسيرية بعد أن أثخنت في جيش حسني باشا قتلاً في موقعتي «مسفرة» و«الحضن». لقد دخل الشريف محمد بن عون أبها وتمركز فيها بعد أن احتل بلاد شهران وبلاد بني مالك، وزحف جمعة باشا إلى بلاد ربيعة رفيدة، وسار حسني باشا إلى السُّقا.

عادت القوات الغازية إلى الحجاز بعد أن تركت حاميةً في (طبب)،

ولكن ما أن غادرت بلاد عسير حتى انقض زعماء عسير على الحامية وفتكوا بها. وتعاونوا مع أمير أبي عريش الشريف حمود أبي مسمار الذي أرسل قوة إلى السراة بقيادة وزيره حسن بن خالد الحازمي. ولما وصل الخبر إلى محمد علي وما حلّ بحاميته أمر بإرسال قوة بإمرة جمعة باشا ومعه الأميران منصور بن ناصر آل الخيرات وابن عمه علي بن حيدر المنافسين لعمهما الشريف حمود. وقد تصدّت لقوات جمعة باشا قبائل تهامة ورجال ألمع بقيادة حسن بن خالد الحازمي فهزمتها هزيمة نكراء ورجعت فلولها إلى الحجاز. فأرسل والي الحجاز جيشين جديدين أحدهما عن طريق الساحل بقيادة جمعة باشا والآخر عن طريق السراة بقيادة سنان آغا. تقدّم جمعة باشا إلى (محايل) ومن هناك أرسل حملةً بقيادة علي بن حيدر الخيراتي لاحتلال أبي عريش كي يضطر أميرها إلى الانسحاب من وجه جمعة باشا، ويوقعه في مأزقٍ حرج، وقد أرسل علي بن حيدر عيناً أمامه لاستطلاع الأمور في أبي عريش، ومعرفة الأخبار، وأوضاع القوات، ولم يلبث أن عاد إليه يحمل خبر ارتقاء عمه الشريف حمود السراة، وعدم بقاء سوى قوةٍ قليلةٍ في أبي عريش لذا أسرع واحتل المدينة على حين توجه جمعة باشا إلى السراة. ومن جهةٍ ثانيةٍ واصل سنان آغا زحفه حتى احتل بلدة (طبب) على الرغم من المقاومة الشديدة التي لاقتها قواته إلا أن هذا الاحتلال قد جعل ردّ فعلٍ قوي عند قبائل عسير فتحمّست للقتال والتفت حول زعمائها الشريف حمود، ومحمد بن أحمد المتحمي، وسعيد بن مسلّط، وهجمت على طبب، وأحرزت النصر، وحاول سنان آغا النجاة بنفسه فسار ومعه الشريف منصور بن ناصر وعدد قليل من الجند فلاحقتهم قوة من بالأسمر في وادي (تيّه)، وألقت القبض عليهم جميعاً، وقتلتهم، واضطر جمعة باشا من الانسحاب بعدئذٍ من عسير.

بدأ الخلاف بين الشريف حمود وزعماء السراة، وقد أرسل سعيد بن مسلّط بعض رجاله ففتكوا بالشريف حمود سراً يوم الاثنين ١٤ ربيع الأول ١٢٣٣ في قرية الملاحة إحدى قرى بني مالك من قبائل عسير، وقد دفن

هناك. وكان علي بن حيدر في أبي عريش رغم انسحاب جمعة باشا من عسير، وتولّى أمر قوة أبي عريش أحمد بن الشريف حمود مكان أبيه، وأراد الانسحاب بقواته من السراة إلى تهامة عندما وجد عداوة حلفائه بالأمس إلا أنه فُوجئ بكمينٍ نصبه له ابن عمه علي بن حيدر، فأُلقي القبض عليه، وتفرّق جنده، وحُمل هو إلى أبي عريش حيث شُهّر به، ثم نُفي إلى مصر حيث كان مثواه الأخير، وأما وزيره حسن بن خالد الحازمي فاضطر أن يُداهن زعماء السراة وأن يبقى معهم.

في هذا الوقت كان إبراهيم بن محمد علي قد انتهى من أمر الدولة السعودية ودخل عاصمتها الدرعية في ٨ ذي القعدة من عام ١٢٣٣، وتفرّغت القوات التي معه لدعم الجيوش العاملة في عسير، فسارت قوات كثيفة إلى تلك الجهات. سار خليل باشا عن طريق السراة وتمكّن من الوصول إلى قلعة شعار، واتجه الشريف محمد بن عبد المعين بن عون عن طريق بيشة وبلاد شهران، وانطلق سليمان سنجق إلى بلاد رجال ألمع عن طريق القنفذة، وكانت القبائل تضطر للسير مع الجيوش الغازية وتظهر الطاعة. وقد دحر خليل باشا قوة محمد بن أحمد المتحمي الذي وقف في وجهه، وألقى القبض عليه وعلى بعض أفراد أسرته، واحتل (طبب) ومنها انتقل إلى (السُّقا). واعتصم علي بن مجثلّ في أبها، ثم اضطر إلى الاستسلام بعد أن أُلقي الحصار عليه من قبل قوات خليل باشا وسليمان سنجق، وأما محمد بن عبد المعين فقد هُزم أمام سعيد بن مسلط وحسن بن خالد الحازمي، ثم ضعُفت معنويات العسيريين بعد وصول الأخبار إليهم بدخول الغزاة أبها، وبعد مقتل حسن بن خالد في كمين نُصب له فاندحروا أمام الشريف. وبذا دخلت عسير في طاعة خليل باشا الذي نفى محمد بن أحمد المتحمي إلى مصر، ورحل هو إلى الحجاز، ووزّع قواته بين اليمن والحجاز، وأبقى حاميةً له في طبب وذلك في مطلع عام ١٢٣٥.

بعد شهرين من رحيل خليل باشا خرج سعيد بن مسلط من مخبئه في الأطوار، وهاجم مع من انضم إليه حامية طبب فاستسلمت له، فأخذ ما

معها من الأسلحة، وأمر أفرادها بالمغادرة، ولم يمض عام حتى أصبح سعيد بن مسلط سيد الموقف في عسير كلها.

سارت قوة من الحجاز بإمرة الوالي أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين إلى عسير، ولم تكد تصل إلى عسير حتى قابلها سعيد بن مسلط بجيشٍ من عسير، واضطرت القوة الحجازية إلى العودة إلى بلادها مهزومةً.

وعاد أحمد باشا إلى إرسال جيشٍ كثيفٍ بقيادة الشريف محمد ومعه أخواه هزاع وراجح، وتمكّن الشريف من الانتصار على عسير في المعركة التي جرت في بلاد رجال الحجر، ودخل الشريف (طبب) بعد الانتصار على قائد حاميتها علي بن مجثل. واختبأ سعيد بن مسلط وأخوه لأمه علي بن مجثل بالأطوار، وخضعت عسير للشريف، وجرى الصلح بين الطرفين وعفا الشريف عن رجال عسير.

ترك الشريف حاميةً في طبب بإمرة أخيه هزاع، واستنفر قبائل عسير للسير معه إلى وادي الدواسر، وتأخر وصول سعيد بن مسلط بجنده إليه فوبّخه الشريف، وعند الحركة، رجع سعيد بن مسلط بجنده إلى طبب، فأباد الحامية فيها، ووصل الخبر إلى الشريف فرجع إلى عسير فالتقى في وادي عِتْوَد بجنود عسير بإمرة سعيد بن مسلط فجرت بين الطرفين معركة طاحنة، انتصر فيها العسيريون، وهُزم الشريف فسار راجعاً إلى الحجاز، غير أن قوة من عسير تبعت فلول الجيش الحجازي فأدركت الشريف راجح فقتلته قرب وادي (الجنفور)، وفي الوقت الذي رجع الشريف محمد بن عبد المعين إلى الحجاز سار دوسري بن عبد الوهاب المتحمي إلى نجد.

سعيد بن مسلّط:

أصبح سعيد بن مسلّط أمير السراة، فأرسل قوةً بإمرة أخيه علي بن مجثلّ إلى بلاد سنحان ووادعة فأدخلها في طاعته، وأرسل قوة أخرى بإمرة ابن خاله يحيى بن مرعي إلى بيشة فأخضعها، وسار هو بجيش إلى بلاد

غامد وزهران فضمها إلى سلطانه. وأصبحت عسير مستقلةً عن الدرعية التي سقطت بيد إبراهيم باشا، ثم قام الخلاف في نجد.

جاءت حملة من الحجاز بإمرة الوالي أحمد باشا والشريف محمد بن عبد المعين بن عون عام ١٢٣٩، واستطاعت احتلال عسير بعد هزيمة سعيد بن مسلط عند قلعة شعار، ودخلت القوة أبها، ورجع بعدها أحمد باشا إلى الحجاز بعد أن ترك حاميةً في أبها، وخرج إثرها سعيد بن مسلّط من مخبئه في الأطوار فدحر القوات الحجازية التي اعتصمت بعدها في أبها فحاصرها، واضطرت في النهاية إلى الاستسلام فخلّى سبيلها وسمح لها بالعودة إلى الحجاز، وأثناء رجوعها التقت بحملةٍ قادمةٍ إلى عسير يقودها الشريف محمد بن عبد المعين فعادت معه فزاد جيشه، وانتصر على سعيد بن مسلّط عند شعار فاختبأ سعيد في الأطوار، ودخل الشريف أبها، ثم تم الصلح بين الطرفين في ٢٦ شعبان ١٢٣٩، ولم ينته العام حتى عاد الشريف بقوة إلى عسير غير أنها هُزمت، وتوقفت المعارك بين الحجاز وعسير بعد ذلك. وتوفي سعيد بن مسلط عام ١٢٤٢ وخلفه أخوه لأمه علي بن مجثل.

علي بن مجثلّ:

سمحت الظروف للأمير الجديد بالحركة إذ ثار شريف مكة يحيى بن سرور على محمد علي فعزل بعد هزيمته، وعين محمد بن عون شريفاً على مكة. ثم شُغل محمد علي بحروبه مع الدولة العثمانية، ثم اختلف الوالي المصري أحمد باشا مع شريف مكة، فعُزل شريف مكة وقام مقامه الوالي، كل هذا ساعد عسير على التصرف بشؤونها ومدّ نفوذها.

غزا علي بن مجثلّ وادي بيش عام ١٢٤٢، وأعاد صبيا إلى سلطانه عام ١٢٤٣، وضم قبائل يام إليه، وأخضع قبائل بني مرة في العام نفسه، وأرجع وادعة إلى الطاعة عام ١٢٤٥، وهاجم أبي عريش عام ١٢٤٨، وأصبح أمير أبي عريش يحكم منطقته بالنيابة عن أمير عسير. وضم

الحديدة، ومخا، وزبيد من أرض تهامة، وخضعت له جزر دهلك في البحر الأحمر.

وأرسل محمد علي حملة عام ١٢٤٩ إلى تهامة إلا أنها هزمت.

وتوفي علي بن مجثل في أواخر أيام عام ١٢٤٩، وخلفه عائض بن مرعي.

عائض بن مرعي:

كان أول ما واجه الأمير عائض انتفاض أمير أبي عريش علي بن حيدر، فسار إليه على رأس جيشٍ قوي، ولكنه فشل في دخول أبي عريش رغم وجود حاميةٍ عسيرية في إحدى القلاع فرجع عائض بن مرعي، وانسحبت الحامية العسيرية أيضاً.

وهاجم شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون عام ١٢٥٠ بلاد عسير عن طريق بيشة، والتقى مع عائض بن مرعي في معركةٍ حاميةٍ في وادي عِتْوَدَ من بلاد شهران تمكن الشريف إثرها من دخول بلاد عسير، وعسكر جنوده في أبها وطبب. وعقد محمد علي في العام نفسه اتفاقاً مع شريف أبي عريش وإمام اليمن لقتال عائض بن مرعي بعد أن أخرج جنود الحجاز من عسير. واستطاع الحلف أن يدخل عسيراً غير أن الغارات المتكررة من رجال القبائل قد أجبرهم على إخلاء عسير، كما وقع في الوقت نفسه خلاف بين والي الحجاز أحمد باشا وشريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون... فاستدعاهما محمد علي إلى مصر وعزل الشريف وأعطى صلاحياته للوالي وبعد عام ١٢٥١ خفت الحملات فعاد عائض بن مرعي للتوسع.

غزا بيشة ودرب بني شعبة عام ١٢٥٢. وأدخل بلاد غامد وزهران في طاعته عام ١٢٥٣ ثم استرجعها والي الحجاز، ورجع إليها عائض بن مرعي فهُزم هزيمةً منكرةً.

وانسحبت جيوش محمد علي من الجزيرة عام ١٢٥٥ بعد هزيمته في الشام. فغزا عائض بن مرعي تهامة اليمن بالاتفاق مع حسين بن علي بن حيدر، ثم غزيا مخا، وعاد إلى شرافة مكة محمد بن عبد المعين بن عون فعقد هدنةً بينه وبين أمير عسير.

ضم أمير عسير عام ١٢٦٠ إليه بيشة، وبلاد شمران، وبلاد بلقرن، وبلاد غامد. ثم دخل الطائف عام ١٢٦٢.

واختلف الأئمة في صنعاء فاستغل عائض بن مرعي هذه الفرصة وضمّ إليه أكثر أجزاء اليمن عام ١٢٦٤ عندما استنجد به محمد بن يحيى ضدّ عمه المنصور حيث سارت قوات عسير، ودخلت صنعاء، وأخرجت منها المنصور، وعيّنت محمد بن يحيى ليحكم البلاد باسم أمير عسير غير أنه لم يلبث أن غدر بعسير ولاحق قواتها، واصطدم بالشريف حسين بن علي بن حيدر في تهامة، وانتصر عليه، وأسره قرب زبيد، وجاءت نجدة إلى قوات عسير انتصرت على قوات الإمام، وأخرجته من صنعاء، واستنقذت الشريف حسين بن علي بن حيدر، فاستنجد الإمام بالعثمانيين فجاءوا إلى تهامة وانضمّ إليهم ودخلوا صنعاء بقيادة توفيق باشا، ثم قتلوا محمد بن يحيى، وأخرجوا الإمام المنصور من صنعاء. وبقيت قوات عسير في تهامة اليمن، أو في أجزائها الشمالية.

ضمّ عائض بن مرعي إليه عام ١٢٦٦ وادي الدواسر، ثم أخرجه العثمانيون من الوادي وتابعوا سيرهم نحو عسير إلا أنهم هزموا أمام قبائل يام وقحطان.

وضمّ إليه عام ١٢٦٨ بلاد غامد وزهران. وفي العام نفسه جاءت حملة مصرية أيام والي مصر عباس الأول حفيد محمد علي فهُزمت هزيمةً منكرةً. وعادت الهجمات المصرية عام ١٢٦٩ لكنها هُزمت أيضاً.

وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٧٢ عن طريق القنفذة، ولكنها هزمت. وتوفي عائض بن مرعي عام ١٢٧٣، وتولى مكانه ابنه محمد.

محمد بن عائض:

وتعرّض لغزوات العثمانيين المتتابعة ولكنها لم تتمكن من دخول عسير.

وزاد الخلاف بين الأسرة من الأشراف التي تحكم أبا عريش، وبدأ أميرها الحسن بن محمد يراوغ محمد بن عائض فسار إليه عام ١٢٨٠، فهرب حاكم أبي عريش وضمّ ابن عائض المخلاف السليماني إليه. وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٨١ إلى المخلاف إلا أنها رُدّت، وجاءت حملة من الحجاز بإمرة شريف مكة عبد الله بن محمد بن عبد المعين غير أنها فشلت في ضم بلاد غامد وزهران.

وجاءت حملة عثمانية عام ١٢٨٨ إلى تهامة اليمن التي كانت بيد ابن عائض فسار للقائها، وما أن ابتعد عن مقره حتى جاءت حملة أخرى من الشمال واحتلت بلاد غامد وزهران وبيشة، ونزلت حملة ثالثة في القنفذة بقيادة محمد رديف باشا، وهكذا أحيط بالجيوش من كل جهة، وبدأ يقاتل من موقع إلى آخر حتى حوصر أخيراً في ريدة، واستسلم حيلةً ـ خوفاً من رديف باشا ـ بعقد صلح، وعندما أحيط به قتل وبعض إخوته، ونُفي الآخرون من أسرته ووجهاء المنطقة إلى إستانبول عام ١٢٨٩، وخضعت عسير للعثمانيين.

الحكم العثماني:

أصبحت عسير متصرفيةً خاصةً بعد مقتل ابن عائض إلا أن الوضع لم يستقر بها إذ سادها الاضطراب، وكثرت فيها الانتفاضات، إذ لم يكن أمر المتصرف يمتد لأكثر من المراكز العسكرية، والثكنات، وبعض المدن أحياناً، وما عدا ذلك فكانت السلطة الحقيقية بيد آل عائض ورجال القبائل.

تولّى أحمد مختار باشا أمر عسير، وجعل مدينة أبها مركز المتصرفية، وكلاً من السُّقا وريدة قاعدةً عسكريةً، والقنفذة ميناء للمتصرفية. وتوجه إلى

صنعاء واحتلها. كان ناصر بن عائض مرابطاً في أبها عندما قُتل أخوه محمد في ريدة عام ١٢٨٩، وبقي يقاوم ثمانية أيام ثم انسحب إلى بلاد شهران، غير أنه عاد بعد شهرين فدخل أبها، ثم عاد فانسحب، ودخلها العثمانيون عام ١٢٩٢، واستمر التناوش حتى قُتل ناصر بن عائض عام ١٢٩٥.

وعندما رجع آل عائض ووجهاء المنطقة من إستانبول عام ١٢٩٧ حمل عبد الرحمن بن عائض عبء المقاومة، وتجمّع رجال القبائل حوله، وحاصر أبها عام ١٢٩٩، وكادت تستسلم لولا نجدة جاءتها بقيادة حيدر باشا. وأعقبتها حملة أخرى عام ١٣٠٠، ثم جرى الصلح بين الطرفين، وأصبح عبد الرحمن بن عائض معاوناً لمتصرف عسير، وأخوه سعيد قائمقاماً على بلاد غامد وزهران وبيشة، واستمر ذلك حتى توفي عبد الرحمن بن عائض عام ١٣٠٥.

ورفض علي بن محمد بن عائض الصلح الذي جرى بين العثمانيين وعمه عبد الرحمن ونزل إلى حرملة مغاضباً ثم قام بالثورة عام ١٣١٨، وحاصر أبها ولكنه هُزم، وعاد فحاصر أبها عام ١٣٢٢، فجاءت حملة كنجدة إلى حامية أبها العثمانية بقيادة تحسين باشا، فهزم علي بن محمد، وأسر عدد من أفراد أسرته ووجهاء المنطقة فنقلوا إلى صنعاء، حيث بقوا هناك ثمانية أشهر، ثم أعيدوا، وعُيّن عبد الله بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف عسير، ومحمد بن عبد الرحمن بن عائض محافظاً لمدينة أبها، أما علي بن محمد فكان قد جرح أثناء الحصار، وتوفي إثرها في الحرملة عام ١٣٢٤.

عاد الخلاف مرة ثانية بين آل عائض ومتصرف عسير سليمان باشا، فقام رجال القبائل العسيرية بإمرة آل عائض، وحاصروا مدينة أبها، ودعمهم في ذلك الإدريسي سيد صبيا، وذلك عام ١٣٢٨ واستمر الحصار من ذي القعدة عام ١٣٢٨ حتى شهر رجب ١٣٢٩، ثم جاءت النجدة للحامية العثمانية وكانت بإمرة شريف مكة الحسين بن علي فاستقبله آل عائض، وانقلبوا على الإدريسي خوفاً منه أو عندما عرفوا أطماعه بالسراة ورغبته في

فرض سيطرته. وعاد الصلح بين المتصرف سليمان شفيق الكمالي وآل عائض بوساطة الشريف الحسين بن علي، وعين الحسن بن علي بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف عسير.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ومتصرف عسير محيي الدين باشا ومعاونه الحسن بن علي آل عائض وكان ما حول عسير ضد العثمانيين، وقبل أن تضع الحرب أوزارها جاءت الأوامر إلى المتصرف بالانسحاب من عسير وتسليم القلاع والذخائر إلى آل عائض وذلك في شهر ربيع الأول عام ١٣٣٧.

نهاية إمارة عسير:

استقلت عسير بعد انسحاب العثمانيين، وبدأ الخلاف بين الإمارات في المنطقة، وحدث القتال بين نجد وعسير، واستطاع جيش نجد دخول أبها، واتفق آل عائض مع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في الرياض، ثم عاد الخلاف بينهم وبين أمير آل سعود عام ١٣٣٩، فتحصّن آل عائض في الحرملة، ثم تقدّموا فأخذوا أبها، وتجدد القتال ودخل فيصل بن عبد العزيز أبها، ونقل آل عائض إلى الرياض، وضمت عسير إلى نجد عام ١٣٤١، وأصبحت بعدئذ جزءاً من المملكة العربية السعودية.

الفصل الخامس

إمارة تهامة عسير

خضعت هذه المنطقة لحكم أُسرٍ محليةٍ كانت تُدير شؤون إمارتها باسم الحكومات القوية التي كانت تسيطر على المنطقة سواء التي كانت في مصر أم التي تقوم في بلاد اليمن وأحياناً قليلة كان نفوذ الأشراف في مكة يصل إلى تلك الجهات أو يستنجد أهلها بهم على غيرهم أو بالعكس يستعينون بغيرهم عليهم. ومن هذه الأسر: الحكمي، والسليمانية، والقطبي، والذروات، والخواجيون و... ثم انتقل فرع من أشراف مكة إلى المنطقة لما حدث خلاف بينهم على الحكم، واستطاع أحد رجال هذا الفرع الذين عُرفوا بآل الخيرات أن يُؤسس إمارةً له في تهامة عسير التي سميت باسم المخلاف السليماني، ذلك هو محمد بن أحمد الخيراتي، وتولّى أبناؤه الإمارة من بعده غير أنهم وقعوا في خلافٍ كبيرٍ فيما بينهم فكانوا يستعينون بجنودٍ مرتزقةٍ من قبائل يام في نجران، أو يستنجدون بإمام صنعاء حتى عمّت الفوضى في المنطقة، وساد الاضطراب، وأخيراً تسلّم الإمرة حمود بن محمد الذي عُرف بأبي مسمار.

عندما بدأت الدعوة السلفية تنتشر في المنطقة في مطلع القرن الثالث عشر كان أحد دعاتها أحمد بن حسين الفلقي، وخشي أمير صبيا منصور بن ناصر على نفسه فاستنجد بابن عمه أمير أبي عريش علي بن حيدر الذي سار إليه على رأس قوةٍ إلى منطقة الجعافرة حيث يُقيم أحمد بن حسين الفلقي وانتصر على السلفيين الذين تجمّعوا ووقفوا في وجهه، وهذا ما دعا الدولة السعودية في الدرعية إلى أن ترسل سريةً بقيادة حزام بن عامر

العجماني إلى المنطقة، وعندما وصلت إلى تلك الجهات انضمّ إليها كل من عرار بن شار في بني شعبة، وأحمد بن حسين الفلقي في منطقة الجعافرة، ولكن لم يحدث قتال بين الفريقين وإنما تمّ الصلح على أن يقوم آل الخيرات بالعمل للدعوة السلفية، فعاد حزام بن عامر من حيث أتى، وتنازل علي بن حيدر عن إمارة أبي عريش لعمه حمود بن محمد الذي اشتهر بأبي مسمار، وكان آل الخيرات يرتبطون بإمام صنعاء فوافق على هذا التنازل، ومعنى هذا أن الارتباط قد أصبح بالدرعية، وانقطعت الصلة مع صنعاء.

حدث خلاف بين أحمد بن حسين الفلقي وأتباعه مع أهل المنطقة لجلافة الفلقي وشدته فاستنجد الناس عليه بأمير أبي عريش حمود بن محمد أبي مسمار فأمدهم بسريةٍ رفض أمير صبيا ابن أخيه منصور بن ناصر الاشتراك فيها، وانتصرت السرية على الفلقي غير أن عرار بن شار سار بقوةٍ لدعم الفلقي لكن أمير صبيا منصور بن ناصر توسط بالصلح ولم يقع قتال فعاد عرار بن شار كما عادت سرية الشريف حمود. وجاء عرار إلى صبيا، واتفق مع الأمير منصور بن ناصر الذي كان على خلافٍ مع عمه الشريف حمود للعمل للدعوة السلفية.

زاد غضب الشريف حمود على ابن أخيه منصور بن ناصر، وسار بقوةٍ انتصرت على عرار والفلقي، وسار من طرف آخر حزام بن عامر واتصل بعرار، والفلقي، ومنصور وشكّلوا حلفاً ضد الشريف حمود إلا أنه انتصر عليهم، فاستنجدوا بالدرعية، واتصل الشريف حمود بصنعاء غير أن مساعيه باءت بالفشل.

وجاءت أوامر الدرعية إلى أمير السراة عبد الوهاب بن عامر بالتقدّم إلى أبي عريش على رأس قوة، وأن ينضمّ إليه كل من عرار، والفلقي، وحزام بمن معهم، وسارت الحملة، واستسلم الشريف حمود وتعهد بالعمل للدعوة السلفية، وغدا يغزو اليمن التي رفضت دعمه، وعاد عبد الوهاب، وأصبح له حق الإشراف على المنطقة كاملة.

بدأ الشريف حمود يدعو لانفصاله عن السراة وأميرها عبد الوهاب،

وأرسل إلى الدرعية وفداً يضمّ وزيره حسن بن خالد الحازمي، وابن أخيه أحمد بن حيدر، كما ذهب عن صبيا منصور بن ناصر ابن أخيه الآخر، وفي هذه المرحلة توفي أمير الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود، وتولى مكانه ابنه سعود الكبير فتقرر أن يذهب الوفد لتقديم التعزية، والمبايعة، والتعهد بدفع الخراج، والجهاد في اليمن، والارتباط بالدرعية مباشرةً مع بقاء أمور الجهاد مرتبطة بأمير السراة، وفي الوقت نفسه أخبر الشريف حمود أمير السراة عبد الوهاب بالوفد كي لا تساوره الشكوك، وذهب الوفد، وتمّ للشريف حمود ما يريد. وقد سار لغزو اليمن.

وفي عام ١٢٢٠ صدرت الأوامر من الدرعية إلى منصور بن ناصر أمير صبيا، وعرار بن شار أمير منطقة بني شعبة بالنفير مع عبد الوهاب بن عامر إلى الحجاز لقتال شريف مكة غالب بن مساعد... وانطلق المقاتلون، وتأخّر عرار بن شار، فوقع شيء في نفس عبد الوهاب، فوبّخ قائد حملة بني شعبة عيسى بن شار أخا عرار، وعاقب بني شعبة، فدبّ نتيجة ذلك الخلاف بين عبد الوهاب وعرار.

استنجد عرار بالشريف حمود، واستمال بعض رجالات «رجال ألمع»، وتقدّم نحو بلادهم واحتلّها، وطلب وفداً من الدرعية لفصل النزاع. فتقدم عبد الوهاب إلى بني شعبة واحتلّ بلادهم، ورجع إلى عسير.

وجاء وفد من الدرعية، ونظر في الخلاف، ثم طلب مسير عبد الوهاب، والشريف حمود، ومنصور بن ناصر، وعرار بن شار إلى الدرعية فسار الجميع عدا الشريف حمود فقد تململ ثم أرسل نيابةً عنه ابنه، ووزيره حسن بن خالد الحازمي بحجة الانشغال. وفي الدرعية رجحت كفة عبد الوهاب إذ بيّن أن عراراً يُثير الفتنة، وأن حموداً ومنصوراً يؤيدانه. فأبقى أمير الدرعية سعود الكبير عراراً لديه، وعفى عن الباقين، وطلب أن يكون عمال الخراج في منطقة أبي عريش من قبل الدرعية مباشرةً، وأبقى منصوراً أميراً على صبيا، وأمره أن يكون مرتبطاً بالجهاد بعبد الوهاب، وفي الوقت نفسه يهادن عمه الشريف حمود.

انتصر الشريف حمود في حربه مع إمام صنعاء، فاغتر بقوته، وأظهر جفاءً للسعوديين، وجاء وفد من السراة بإمرة طامي بن شعيب فلم يجد عند الشريف حمود ما يثير الشكوك، لكنه لم يلبث أن أبدى لعمال خراج الدرعية في منطقته بعض النوايا، ووصل ذلك إلى سعود الكبير، فطلب من أمير السراة عبد الوهاب بن عامر غزو الشريف حمود مباشرةً، فسار إليه، والتقى به في وادي بيش وجرت معركة حامية انتصر فيها جيش عبد الوهاب غير أنه فقد قائده عبد الوهاب وذلك عام ١٢٢٤، وتحصّن الشريف حمود في قلعة أبي عريش.

تولّى أمر عسير بعد عبد الوهاب ابن عمه طامي بن شعيب بأمرٍ من الدرعية، فعيّن ابن عمه الثاني محمد بن أحمد المتحمي أميراً على صبيا، وعندما وصل إليها جاءه جيش الشريف حمود وحاصره فيها، وفي مطلع عام ١٢٢٥ جاء طامي بن شعيب بقوةٍ تمكنت من فك الحصار عن المتحمي في صبيا، ونظم أمر الحامية وعاد إلى السراة في الوقت الذي عاد الشريف حمود إلى أبي عريش، واعتصم فيها.

جاءت نجدة من الإمام أحمد بن المنصور إلى الشريف حمود إذ كان على صلةٍ طيبةٍ حيث ساعد الشريف حمود الإمام أحمد على أبيه المنصور فتسلّم الأمر دونه، وربما كان ذلك لأن السعوديين كاتبوا الإمام المنصور وحرضوه على قتال الشريف حمود مقابل ألا يهاجموه، وقد قام المنصور بحرب الشريف وانتصر عليه، لذا عمل الشريف حمود على دعم الإمام أحمد على أبيه.

صدر أمر من الدرعية بنزول عثمان المضايفي من الطائف، وطامي بن شعيب من سراة عسير لقتال الشريف حمود أمير أبي عريش، وقد التقى القائدان في ميناء الشقيق، وهما في طريقهما إلى أبي عريش، وذلك عام ١٢٢٥، فانتصرا عليه، واستوليا على مينائي جيزان، واللحية، وعاد كل إلى مقره، ورجع طامي بن شعيب بعد ثلاثة أشهر، ودخل اللحية مرةً ثانيةً.

ولما ضعف مركز الشريف حمود أرسل أربعةً من بني عمه ببعض

الهدايا إلى أمير الدرعية سعود الكبير، وكان يومذاك حاجاً في مكة المكرمة، فأظهروا له الطاعة، فعفا عنهم، وتمّ الصلح بوساطة أمير صعدة محمد بن علي الحسني، ونتيجة الصلح تنازل الشريف حمود عن صبيا، ودرب بني شعبة، وبيش للإمام سعود الكبير، وعلى أن يدفع خراجاً سنوياً عن الموانئ اليمنية، مقابل أن يكفّ السعوديون عن حربه وذلك عام ١٢٢٦، وبذلك هدأت الأحوال في المنطقة وأصبح الوضع السياسي في تهامة كما يأتي:

١ ـ من صبيا وإلى الشمال يتبع الإمام سعود الكبير، وينوب عنه أمير السراة طامي بن شعيب.

٢ ـ من ضمد وإلى الجنوب بما في ذلك جيزان يتبع الشريف حمود.

وقعت الحرب بين إمام نجد سعود بن عبد العزيز وإمام صنعاء أحمد بن المنصور فاستغل الشريف حمود الفرصة واحتل الحديدة وبيت الفقيه وزبيد من أملاك إمام صنعاء، فطلب سعود بن عبد العزيز من الشريف حمود أن يقبل العمال الذين سترسلهم الدرعية لجمع ما يأتي من الموانئ، فبدأت الشكوك تساور نفس حمود بأن سعوداً يريد التدخل في شؤونه، فلما وصلت حملة محمد علي إلى الحجاز بدأ الشريف حمود يكاتبها، ويُحرّضها على حرب الدرعية، ويعدها بالطاعة والنصر، فوصل الخبر إلى الدرعية، فأرسلت إليه تهدده، فضرب الشريف حمود رؤوس الرسل الذين جاءوا إليه، وعزل العلماء السعوديين في بلاده، وصرّح لهم بالعداوة، ولم يزل يحاربهم حتى مات عام ١٢٣٣، ولعل جرأته هذه جاءت من اعتقاده أن الدولة السعودية لن تقوم لها قائمة بعد وصول جيوش محمد علي إلى المنطقة.

وعندما هُزم طامي بن شعيب أمير عسير عام ١٢٣١ أمام جيوش محمد علي، وفرّ طامي بن شعيب نحو تهامة يريد الاتصال بالشريف حمود أسرع وزير الشريف حمود فاحتل صبيا، وطرد الحامية العسيرية منها، وأرسل سرية تفتش عن طامي بن شعيب فالتقت به في طريقه إلى صبيا،

فأسرته، وسلّمه الوزير حسن بن خالد الحازمي إلى محمد علي تقرّباً وزلفى، حُمل إلى مصر مع محمد علي مُقيداً بالحديد، ثم أُرسل إلى إستانبول حيث قُتل هناك عام ١٢٣٢.

سار محمد بن أحمد المتحمي إلى أبي عريش لينتقم لابن عمه طامي بن شعيب فالتقى في درب بني شعبة بقوات الشريف حمود بقيادة وزيره حسن بن خالد الحازمي فهزمته في ١٧ رجب عام ١٢٣١ فرجع إلى السراة.

تداول زعماء عسير الرأي في الوسيلة التي يتمكّنون فيها من طرد العثمانيين وإخراجهم من بلادهم فقرروا استنفار القبائل جميعها والاستعانة بالشريف حمود خوفاً من أن ينضم إلى العثمانيين ويكون حرباً على عسير مُستغّلاً الظروف وراكباً طريق المصلحة، خائفاً من أن يصل إليه هجوم العثمانيين بعد أن أصبحوا في السراة، وعلى حدود منطقته، وعندما عُرض الأمر على الشريف حمود وافق، وأرسل وزيره حسن بن خالد الحازمي على رأس قوة.

وجاءت حملة عثمانية على رأسها جمعة باشا ومعه الأميران علي بن حيدر ومنصور بن ناصر ولدا أخويّ الشريف حمود والمنافسين له. غير أن هذه الحملة قد صدّها الوزير حسن بن خالد الحازمي في بلاد رجال ألمع. فجاءت حملة جديدة مؤلفة من جيشين أحدهما جاء عن طريق الساحل بقيادة جمعة باشا والآخر عن طريق السراة بقيادة سنان آغا. غير أن نوايا السراة وتهامة لم تكن طيبة فخاف حسن بن خالد فأرسل إلى الشريف حمود يستحثه بالقدوم على رأس حملة قوية فلبّى وجاء.

تقدم جمعة باشا إلى محايل، ومن هناك أرسل حملة بقيادة علي بن حيدر الخيراتي لاحتلال أبي عريش، فاحتلها إذ كان عمه في السراة يقف في وجه سنان آغا إذ انتصر عليه وفرّ سنان آغا ومعه منصور بن ناصر مع بعض الجند فلاحقتهم سرية من بالأسمر وقتلتهم جميعاً. إذ بدا الاختلاف بين الشريف حمود وزعماء السراة، فأرسل سعيد بن مسلط من قتل الشريف حمود في الملاحة عام ١٢٣٣.

تولى إمرة قوات أبي عريش في السراة أحمد بن الشريف حمود الذي انسحب بمن معه نحو تهامة فلما وصل إلى مشارف المنطقة اعترضه كمين نصبه له ابن عمه علي بن حيدر، فألقي القبض عليه، وتفرّق جنده، ورجع أكثرهم إلى عسير، أما هو فقد حُمل إلى أبي عريش، ومنها أرسل إلى مصر حيث توفي هناك. وأما حسن بن خالد فبقي على مضض مع زعماء السراة يُظهر لهم الإخلاص والطاعة حتى قتل عام ١٢٣٤ في معركة ضد العثمانيين. وتفرّد علي بن حيدر بسيادة تهامة، واستطاع عام ١٢٤٣ أن يضم مدينة صبيا إليه، وأن يطرد الحامية العسيرية منها إلا أن علي بن مجثل قد جاء بقوة إليه، واستعاد صبيا، وحاصر مدينة أبي عريش، ثم وقع الصلح بين الطرفين، ثم عاد فتجدد القتال عام ١٢٤٨ إذ قاتل حامية عسير في وادي مور، وقد جاءته مساعدات عثمانية غير أن علي بن مجثل لم يلبث أن حاربه وحاصره، ثم وقع الصلح بين الطرفين، وأصبح بعدها علي بن حيدر يحكم منطقة أبي عريش بالنيابة عن أمير السراة، ورحلت بعد ذلك الحامية العثمانية في أبي عريش إلى الحجاز.

انتفض علي بن حيدر على أمير السراة بعد وفاة علي بن مجثل ومبايعة عائض بن مرعي عام ١٢٤٩، واستطاع أن يصمد أمام حملته إليه، ورحلت الحملة العسيرية من أبي عريش وقد كانت ترابط فيها، ولم تستطع مساعدة عائض بن مرعي في دخول المدينة.

توفي علي بن حيدر وخلفه ابنه حسين فاتفق مع أمير السراة، وغزا معه تهامة اليمن، ووصل إلى المخا. كما غزا معه اليمن، وأُسر على أبواب زبيد، لكن نجدةً جاءت من السراة وخلصته من الأسر عام ١٢٦٤.

توفي الحسين بن علي بن حيدر، وقام بالأمر بعده ابنه الحسن إلا أن الخلافات قد بدأت بين أفراد الأسرة الواحدة أو تجددت، فقام الحسن بن محمد، واستلم الأمر، وفرّ الحسن بن الحسين، ثم اغتيل، ونتيجة هذه الخلافات فقد دخل أمير السراة محمد بن عائض مدينة أبي عريش عام ١٢٨٠، وعزل حسن بن محمد، وضمّ المخلاف السليماني كله إلى أبها.

تبع المخلاف السليماني الدولة العثمانية بعد أن قُتل محمد بن عائض عام ١٢٨٩، وأصبحت عسير متصرفيةً خاصةً ويتبعها المخلاف، واستمر الوضع كذلك حتى جاء الإدريسي عام ١٣٢٢.

الإدريسي:

حل بمدينة صبيا عام ١٢٤٦ رجل من المغرب يدعى أحمد بن إدريس[1]، وعندما توفي خلفه ابنه محمد، وتزوج بامرأةٍ من السودان فولدت له غلاماً سمّاه علياً، وتزوج علي بامرأةٍ هنديةٍ فأنجبت له ولداً أسماه محمداً[2]، وعندما شبّ جوّب في مكة، والقاهرة، وليبيا، والسودان، ولما رجع بدأ يعظ الناس، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فكثر أنصاره، وأظهر رضاه عن السياسة العثمانية فعينته قائمقاماً على مدينتي صبيا وأبي عريش، وأرادت الدولة العثمانية إظهار قوته ليكون لها عوناً في المستقبل فطلبت من متصرف عسير سليمان شفيق الكمالي أن يزوره ففعل فارتفع شأنه، وزاد أتباعه، وضعفت قوة المتصرف أمام قوته، لذا طلب المتصرف قوةً تكون في جيزان ليرهب الإدريسي إن حدثته نفسه بشيء فجاءت القوة ونزلت في القنفذة، فقال الإدريسي: لا حاجة لها فعادت.

اتفق الإدريسي مع المتصرف على أن تُحلّ خلافات القبائل في صبيا،

---

(١) أحمد بن إدريس: ولد عام ١١٧٢ في ميسور إحدى قرى فاس، ويعود في نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وعندما شب جاء إلى مكة المكرمة، وبقي فيها ثلاثين عاماً، ثم انتقل إلى تهامة عسير، ونزل بصبيا، وطاب له المقام فيها. وتوفي فيها عام ١٢٥٣.

(٢) محمد بن علي الإدريسي، ولد عام ١٢٩٣ في صبيا، ومنها انتقل إلى مكة المكرمة ولم يتجاوز العشرين من العمر. ثم سافر إلى القاهرة، ودرس في الأزهر مدة ست سنوات (١٣١٤ ـ ١٣٢٠)، ثم سافر إلى واحة الكفرة في ليبيا، وهي مركز الدعوة السنوسية، ثم انتقل إلى السودان إلى بلدة «أرجو» إحدى قرى دنقلة، وتزوج من هناك، ورجع بعدها إلى مسقط رأسه في صبيا، وهناك لمع اسمه ولعب دوراً خطيراً فيها.

الإدريسي يريد النفوذ، والمتصرف يريد الأمن. ورأى المتصرف أن تكون الشقيق ميناء أبها لقربها منها بدلاً من القنفذة البعيدة، ورفض ذلك الإدريسي لمصلحته فرُفض اقتراح المتصرف.

بدأ الإدريسي بعد زيادة نفوذه هذه يتصل بإيطاليا التي تسيطر على اريتريا في الطرف الثاني من البحر الأحمر، وكان ذلك الاتصال عن طريق ابن عمه الموجود في القاهرة، كما بدأ بشراء الأسلحة، وتسليح أعوانه.

أعلن خلافه للدولة العثمانية، وأقام له حكومة خاصة في صبيا، وأيدته القبائل لدعوته لتطبيق الشرع، وذلك عام ١٣٢٦، وحاول متصرف عسير إيقافه عند حدّه فأرسل له حملةً ففشلت، بل تعرّضت للإبادة من رجال القبائل. وكتب المتصرف إلى إستانبول يُعلم المسؤولين خطر الإدريسي، وصلته بإيطاليا فدعته إلى إستانبول فرفض الحضور، فطلبت الدولة العثمانية من قائد قواتها في اليمن عزت باشا ومن معاونه عصمت إينونو إرسال حملة بحرية للقبض على الإدريسي، وإرساله إلى إستانبول، ونزلت الحملة في جيزان ولكنها هزمت هزيمة منكرة في أول لقاء، ويزيد عدد أفرادها على أربعة آلاف جندي، وقد دعمت إيطاليا الإدريسي في القتال، وانسحب العثمانيون من جيزان، ودخلها الإدريسي، وبقيت جزر فرسان بيد العثمانيين وقد انتقلت الحملة إلى هذه الجزر فشددت إيطاليا الضغط عليهم، فتركوها متجهين إلى القنفذة، فلاحقتهم إيطاليا وضربت الميناء من جهة البحر على حين كان الإدريسي يحاصر المدينة من البر، ودمرت السفن العثمانية الراسية في الميناء، غير أن الحامية لم تستسلم، وبقيت القنفذة بيد العثمانيين.

اختلف آل عائض في السراة مع المتصرف الجديد سليمان شفيق الكمالي، فاتفقوا مع الإدريسي لقتال المتصرف وإخراج العثمانيين من البلاد، وانطلقت قوات الطرفين نحو مدينة أبها، وألقت الحصار عليها، ولما اشتد الحصار على الحامية العثمانية في أبها، طلبت الدولة من شريف مكة الحسين بن علي السير إلى أبها لإنقاذ الحامية فيها. فسار على رأس

قوة إليها عام ١٣٢٧، وكان آل عائض قد عرفوا أطماع الإدريسي في السراة، لكنهم خشوه، فما أن ظهر الشريف الحسين بن علي حتى انضموا إليه، وانقلبوا ضد الإدريسي، فانسحب الإدريسي من السراة، وعُيّن الحسن بن علي آل عائض نائباً للمتصرف، كما عُيّن محمد بن عبد الرحمن آل عائض محافظاً لأبها، وضعُف مركز الإدريسي وبدأ المتصرف يُغير على مناطق نفوذه.

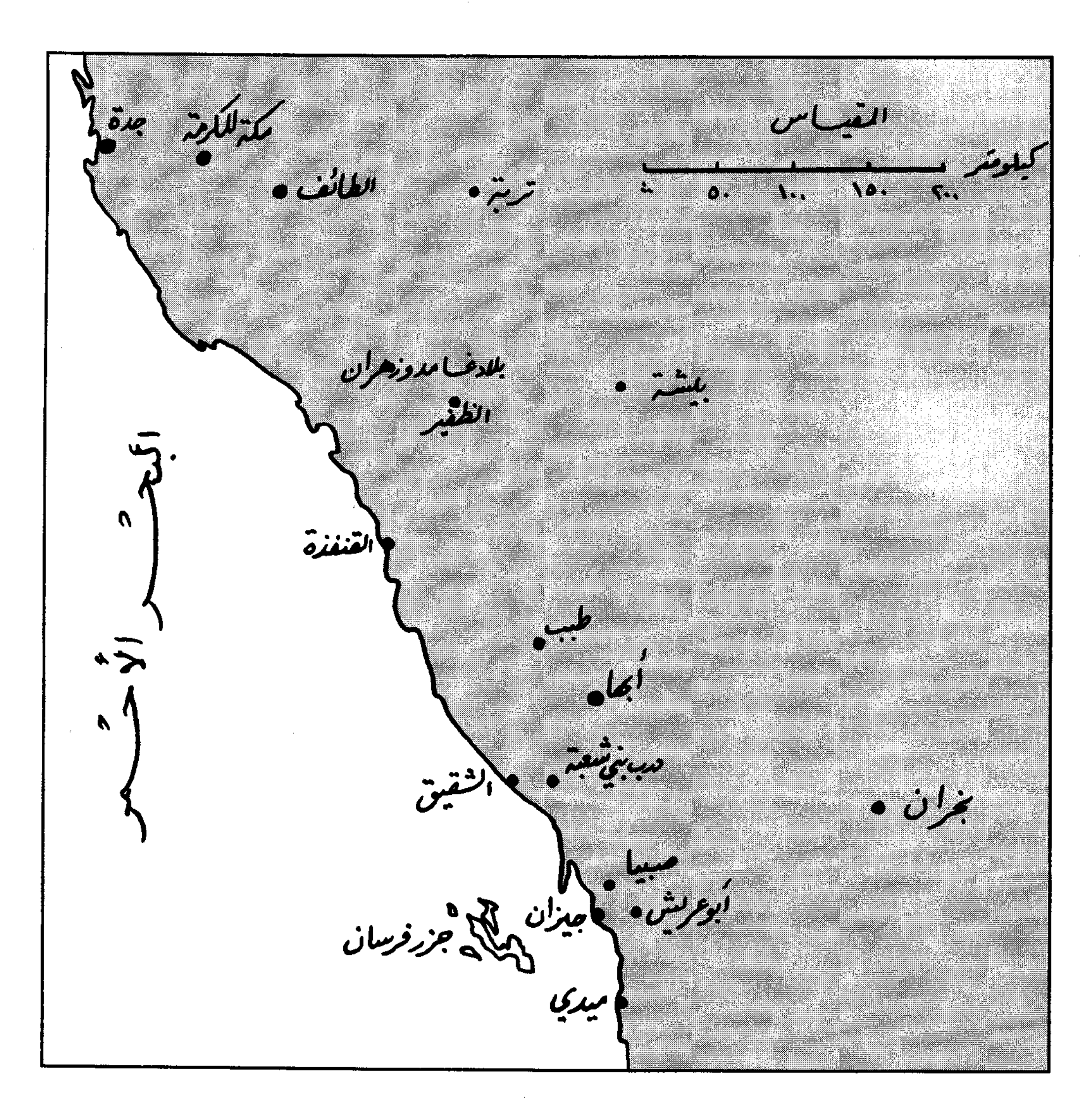
نزلت إيطاليا في ليبيا، ثم أعلنت الحرب على الدولة العثمانية، وبدأت تُغير على الموانئ العثمانية ومنها الواقعة على البحر الأحمر، فقويت شوكة الإدريسي ثانيةً لدعمه من قبل إيطاليا، وعاد له نفوذه في ميناء القنفذة وشمالي عسير فاصطدم مع شريف مكة الذي يمتدّ نفوذه إلى هذه الجهات، وأرسل شريف مكة ابنه فيصلاً على رأس حملة إلى تلك الجهات التقت مع قوات الإدريسي قرب القنفذة، وانتصرت عليها، رغم قصف الأسطول الإيطالي لجيش الحجاز، ودعم قوات الإدريسي بالأسلحة والمؤن، وهمّ فيصل بالتقدم غير أن رسالةً جاءته من أبيه تدعوه للعودة إلى مكة للعمل ضد العثمانيين، حيث أعلن شريف مكة الثورة عليهم في الحرب العالمية الأولى، فأصبح شريف مكة والطليان في حلفٍ أو مع الحلفاء ضد العثمانيين الذين وقفوا بجانب الألمان، غير أن الخلاف الشخصي بين الحسين بن علي والإدريسي لم يتغيّر وإن كان كلاهما يعمل ضد العثمانيين.

رأى الإدريسي أن نفوذ إنكلترا أصبح هو القوي فعقد معاهدةً معها عام ١٣٣٤، اعترفت له بموجبها بالسيطرة التامة على تهامة من القنفذة شمالاً حتى اللحية جنوباً، ثم جددت المعاهدة ١٣٣٦.

رأى الإدريسي أن كل ما حوله يخالفه، الشريف حسين، آل عائض، إمام صنعاء لذا فقد راسل سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، غير أن الإدريسي لم يلبث أن توفي عام ١٣٤١، فخلفه ابنه علي. فاستولى الإمام يحيى حميد الدين على القسم الجنوبي من تهامة، وضم إليه الحديدة والقسم الجنوبي من تهامة حتى بلدة (ميدي). ثم ثار أهل تهامة

ضد علي بن الإدريسي، وبايعوا عمه الحسن، والتجأ علي إلى الرياض، وأقام فيها.

أعطى حسن الإدريسي لإنكلترا حق التنقيب عن النفط في جزر فرسان. وفاوض إمام اليمن، وآل سعود، وإيطاليا ونجحت المفاوضات مع آل سعود، فأبرم ابن عمه ميرغني معاهدةً في مكة بينه وبين الملك عبد العزيز آل سعود، وضعت بموجبها تهامة تحت الإدارة السعودية وذلك عام ١٣٤٥، وأصبحت جزءاً من المملكة العربية السعودية فيما بعد.



جدة
مكة المكرمة
الطائف
تربة
المقياس
كيلومتر
٢٠٠
١٥٠
١٠٠
٥٠
بلاد غامد وزهران
الظفير
بيشة
القنفذة
طبب
أبها
درب بني شعبة
الشقيق
نجران
صبيا
أبو عريش
جيزان
جزر فرسان
ميدي
البحر الأحمر

مصور رقم [٢١]

الفصل السادس

المنطقة الشرقيّة

كان اسم البحرين يُطلق على الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية والمشرفة على الخليج العربي، إذ لا تقع عُمان من ضمنها، أو ما يشمل اليوم قطر، والبحرين، والكويت والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية. وكان يحكم المنطقة بنو عقيل منذ عام ٦٤٢، وتوالت ثلاث أسر منهم في حكم المنطقة ثم ضعف أمرهم، وتفرّقت كلمتهم، وجاء البرتغاليون فسيطروا عليهم. استولى البرتغاليون على جزيرة هرمز عام ٩١٢، واتخذوها قاعدةً لهم، ثم بسطوا نفوذهم على البحرين عام ٩٢١، وقتلوا حاكم البحرين مقرن بن أجود بن زامل عام ٩٢٧، وتولّى حكم المنطقة تحت إشرافهم علي بن أجود حوالي الشهر، وناصر بن محمد بن أجود ما يقرب من ثلاث سنوات، وقطن بن علي مدة سنة، وابنه عدة أشهر وتنازل بعدها لـ(غصيب بن زامل)، ووقع الخلاف بين آل جبر، فاستنجد بعضهم بوالي البصرة راشد بن مغامس فجاء إلى البحرين واحتلها.

تمكّن العثمانيون من فتح بغداد عام ٩٤١، وحكموا العراق، وعندها تقدم حاكم البصرة راشد بن مغامس إلى السلطان العثماني سليمان القانوني، وأعلن له الولاء، وأصبحت مناطق نفوذه تحت سيطرة العثمانيين، ثم اختلف راشد بن مغامس مع الولاة العثمانيين، فاحتلوا البصرة، ففر راشد إلى نجد عام ٩٥١، ولانشغال الدولة العثمانية بالحروب البعيدة، وللحرب الصليبية التي تشنها أوروبا عليها، ولبعد منطقة البحرين فقد ضعف الحكم العثماني في البحرين، واستغل البرتغاليون الفرصة ورجعوا إلى البحرين

ثانية، واستولوا على القطيف والإحساء، وبدؤوا في تشييد القلاع في جزيرة (أوال) و(تاروت) و(سيهات) وغيرها.

غير أن العثمانيين لم يتركوا الأمر، فقد دخلوا مسقط، وحاصروا هرمز قاعدة البرتغاليين، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها، فتركوها واتجهوا إلى البحرين، فانسحب البرتغاليون من جزيرة أوال، ومن القطيف، ودخلها العثمانيون، ووقف السكان مع إخوانهم العثمانيين فكانوا يخلصون البرتغاليين القلاع، ويسلّمونها للعثمانيين وذلك عام ٩٥٧، وأصبحت منطقة البحرين ضمن الدولة العثمانية، وضُمّت إلى ولاية البصرة، واستمر القتال بين العثمانيين والبرتغاليين فانهزمت فيه البرتغال.

بدأ النفوذ الإنكليزي يظهر في المنطقة حيث استمالت إنكلترا إليها الشاه عباس الصفوي شاه إيران ليقف معها ضد العثمانيين والبرتغاليين، وقد منح الشاه إنكلترا امتيازات واسعة في التجارة، وساعدته هي على مدّ نفوذه في الخليج إذ احتل جزيرة (أوال) عام ١٠١١، وجزيرة هرمز عام ١٠٣٥، وزال في ذلك العام الاستعمار البرتغالي نهائياً من منطقة الخليج العربي. ومن هذه المدة انفصلت جزيرة أوال (البحرين) عن باقي المنطقة، إذ غدت جزيرة البحرين تحت حكم الصفويين على حين كانت المنطقة تحت حكم العثمانيين حتى عام ١٠٨١، ثم تحت سيطرة بني خالد بعد ذلك.

لم يطل حكم العثمانيين على البحرين إذ جاؤوا عام ٩٥٧، وانسحبوا منها عام ١٠٨١ إذ لم يزد حكمهم على مائة وأربعة وعشرين سنة، كما لم يتولّ أمر المنطقة أكثر من أربعة ولاة، إذ دخلها فاتح باشا عام ٩٥٧، وأعقبه علي باشا المعروف بأبي الوند، وتلاه محمد باشا، ثم عمر باشا الذي ثار عليه بنو خالد فانسحب من المنطقة عام ١٠٨١.

ثار برّاك بن غرير رئيس آل حميد من بني خالد، وهجم على الحامية العثمانية في الإحساء فاضطرت إلى الاستسلام، وسلّمت حصونها وقلاعها وخرجت من البلاد عام ١٠٨١، إذ كانت الدولة العثمانية قد ضعفت، وهدّت الحروب الصليبية قواها. وأعلن برّاك نفسه ملكاً على المنطقة،

ووقع الحسد لدى آل مغامس من عرب البادية لهذا النجاح الذي أحرزه برّاك، وهذا ما دفعهم لقتاله غير أنهم هُزموا أمامه، ففر قسم منهم إلى العراق.

أقام برّاك في بلدة المبرز وجعلها قاعدةً له، وبدأ يوسع ملكه، وتوفي عام ١١٠٣، وخلفه ابنه سعدون الذي توفي عام ١١٣٥. واختلف بنو خالد إثر وفاة سعدون، فقسم منهم كان بجانب ابنه (دجين) والقسم الآخر مع أخيه سليمان، وانتصر سليمان على ابن أخيه (دجين)، وتوفي سليمان عام ١١٦٦، وبويع بعده عريعر، وفي عهده بدأت غارات السعوديين على المنطقة، وهجمات بني خالد على القصيم وسدير.

في هذا الوقت انقسمت المنطقة لضعف دولة بني خالد، وغدت الإحساء وحدها، وكذا البحرين، وقطر، والكويت، ويمكن دراسة تاريخ كل قسم وحده.

أ - الإحساء:

كانت تحت حكم بني خالد - كما مر معنا - وتوفي عريعر عام ١١٨٨ فخلفه ابنه (بطين)، ولم يلبث أن اختلف مع إخوته (دجين) الذي استلم الحكم بعده، و(سعدون) الذي تولّى بعد (دجين)، وقد هاجم المجمعة عام ١١٩٣، وأنجد عنيزة عام ١١٩٦. وفي عام ١٢٠٠ خرج (دويحس) على أخيه سعدون الذي فرّ إلى الدرعية قاعدة ملك آل سعود، وقد ساعد (دويحس) خاله عبد المحسن بن سرداح.

هاجم السعوديون الإحساء عام ١٢٠٢ فهرب منها (دويحس) وخاله عبد المحسن، وكان في الجيش السعودي زيد بن عريعر الذي غدا أمير المنطقة، وقد استقدم عبد المحسن بالحيلة من العراق، وقتله غدراً، فثار بنو خالد على هذا الغدر فعزلوا زيداً، وولّوا مكانه برّاك بن عبد المحسن، وتألم السعوديون من تصرف بني خالد فدخلوا المنطقة عام ١٢٠٧، فبايع السكان الإمام سعود الكبير، غير أنهم عادوا فنقضوا العهد فسار إليهم سعود

الكبير وحاصر الإحساء حتى استسلمت عام ١٢٠٨، فنفي أولاد عريعر إلى العراق، وانتهت دولة بني خالد.

أرسل والي العراق العثماني سليمان باشا عام ١٢١١ حملة بحرية وأخرى برية لاحتلال القطيف والإحساء غير أنها فشلت في تحقيق هدفها، وجدّدت حملة ثانية بقيادة علي كيخيا، ولكنها فشلت كسابقتها حيث وصلت الإمدادات إلى أهل الإحساء من نجد، ثم عقد صلح بين الطرفين عام ١٢١٣. ولما سقطت الدرعية بيد إبراهيم باشا طلب أولاد عريعر من بني خالد وهم: محمد، وماجد، وسعدون من الجيش المصري متابعة السير إلى الإحساء فتابع، وهرب منها واليها السابق من قبل السعوديين وهو فهد بن سليمان بن عفيصان، وأساء أفراد الجيش الغازي إلى السكان فخاف الذين دعوه وهم أولاد عريعر فهربوا إلى العراق، فلمّا انسحب المصريون رجع أولاد عريعر فأقام محمد وماجد في الإحساء، وأقام سعدون في القطيف، وكان كفيفاً.

وعندما استولى محمد بن مشاري بن معمر على بعض مناطق نجد، كتب بعض السكان إلى ماجد بن عريعر ليقاتل ابن معمر قبل أن يستفحل أمره، فسار ابن عريعر إلى نجد، ولكن ابن معمر أظهر له أنه أمير من أمرائه فعاد ابن عريعر من حيث أتى.

وفي عام ١٢٤٥ سار أبناء عريعر لقتال تركي بن عبد الله في الرياض، غير أن ماجداً قد مات في الطريق إثر مرض نزل به، وهُزم بنو خالد، ورجعوا إلى الإحساء، فتبعهم تركي بن عبد الله حتى وصل إلى الإحساء فبايعه أهلها، فقبض على محمد بن عريعر ونفاه إلى العراق، وجعل عمر بن عفيصان أميراً على الإحساء، وعاد هو إلى الرياض.

وهاجم آل خليفة في البحرين منطقة الإحساء، ودخلوا جزيرة (تاروت)، ووقف في وجههم الحاكم السعودي للقطيف عبد الله الغانم، لكنه هُزم، وسار الأمير فيصل بن تركي من الرياض لنجدة الإحساء واشتبك مع أهل البحرين في معركة عام ١٢٤٩ اضطر إلى تركها لمقتل أبيه في

الرياض. ثم عُيّن على القطيف علي بن عبد الله بن غانم غير أنه اختلف مع مساعده مداوي الذي قتل علي بن عبد الله، ثم قتل أيضاً خليفته علي بن صالح، وأوكل أمر القطيف بعدها إلى مهدي بن نصر، واستمر ذلك حتى عام ١٢٥٣ حيث دخل العثمانيون المنطقة.

بعد أن دخل خالد بن سعود الرياض بدعم من العثمانيين والمصريين عام ١٢٥٢، خرج منها فيصل بن تركي إلى الإحساء، ولما هُزم خصمه أمام أهل الحوطة رجع وحاصر الرياض فجاء خورشيد باشا بنجدة وصلت إلى نجد ودخلت العاصمة فرجع فيصل بن تركي وعسكر في الدلم وجاءه عمر بن عفيصان بدعم من الإحساء غير أنهما هزما، واضطر فيصل إلى الصلح، ونفي إلى مصر، ورجع ابن عفيصان إلى الإحساء غير أن أهل بلده قد أعلنوا الطاعة لخورشيد باشا فسار ابن عفيصان إلى الكويت. وولّى خورشيد باشا على الإحساء أحمد بن محمد السديري حتى عام ١٢٥٥، ثم عزله وأقام مكانه حمد بن مبارك عام ١٢٥٦، ثم موسى الحملي عام ١٢٥٧.

هُزم خالد بن سعود أمام عبد الله بن ثنيان، فغادر خالد الرياض، واتجه إلى الإحساء، ومنها إلى الكويت، ثم إلى مكة المكرمة، وضعف أمر العثمانيين في الإحساء بل لم يمكثوا فيها سوى خمس سنوات (١٢٥٣ - ١٢٥٨) فأرسل عبد الله بن ثنيان أميراً من قبله على الإحساء هو عبد الله بن بتال ثم استبدله بعمر بن عفيصان الذي أخذ البيعة من أهل المنطقة.

ورجع فيصل من مصر، وعاد إلى الحكم عام ١٢٥٩، فولّى على الإحساء عبد الله بن بتال ثم استبدله بأحمد بن محمد السديري عام ١٢٦٠، وبقي حتى ولّى عبد الله بن فيصل عام ١٢٨٤ ناصر بن جبر الخالدي الذي وقف في وجه سعود بن فيصل الثائر على أخيه غير أنه انهزم أمامه عام ١٢٨٧، وأصبحت الإحساء تتبع سعود بن فيصل وتجدد القتال بين الإخوة، فانتصر سعود، وأسر أخاه محمداً قائد جيش أخيه عبد الله، وسجنه في القطيف، وسار إلى الرياض ودخلها، فطلب أخوه عبد الله من والي بغداد العثماني مساعدته.

جاءت القوات العثمانية عن طريق البحر من البصرة إلى القطيف، كما جاءت القوات الكويتية، وفرّ والي سعود بن فيصل منها وهو فرحان بن خير الله، وأصبحت الإحساء ضمن أجزاء الدولة العثمانية من عام ١٢٨٨. وجاء عبد الله بن تركي الذي حكم الرياض بعد سعود بحملةٍ إلى الإحساء ولكنه هُزم، كما فشل في أخذ الإحساء عبد الرحمن بن فيصل وقد جاء من بغداد عام ١٢٩١.

وبقيت الإحساء بيد العثمانيين حتى ساءت الأوضاع، وعمّت الفوضى حيث قتل الوالي محمود باشا في سوق الهفوف عام ١٣٢٧، فكتب السكان إلى الأمير عبد الرحمن بن فيصل بالقدوم إليهم، وخرج العثمانيون من الإحساء عام ١٣٣١، وقد شغلتهم حروب البلقان، وأحداث الطليان في ليبيا، وأصبحت الإحساء جزءاً من المملكة العربية السعودية.

ب ـ البحرين:

خضعت جزيرة أوال للبرتغاليين عام ٩٢٢ غير أنهم خرجوا منها عام ٩٣٢ عندما سيطر على المنطقة راشد بن مغامس، وغدت بعدها جزءاً من الدولة العثمانية عام ٩٤٥ عندما أعلن راشد بن مغامس الولاء للعثمانيين غير أنه لم يلبث أن اختلف معهم فهرب إلى نجد وضعف الحكم فاستغل البرتغاليون الفرصة ورجعوا إلى البحرين حوالي عام ٩٥٢، ولكن العثمانيين دخلوها ثانية عام ٩٥٧ وأخرجوا البرتغاليين منها.

احتل شاه إيران عباس الصفوي جزيرة أوال عام ١٠١١ بمساعدة الإنكليز، فانفصلت بعدها عن المنطقة، وغدا تاريخها منفصلاً أيضاً. ورجع العثمانيون إلى الجزيرة عام ١٠٩٢، ثم احتلها الصفويون عام ١١٢٣، وحاول إمام عُمان سلطان بن سيف إنزال قواته فيها عام ١١٣٠ ولكنه هُزم أمام مقاومة أبنائها. ثم أخضعها نادر شاه ملك فارس عام ١١٥٠هـ.

كان يسكن جزيرة أوال آنذاك مجموعة من البطون والقبائل تنتمي إلى قبيلة (الهولة) التي تعود إلى المطاريش ذي الأصل العماني، وقد جاء عرب

من المطاريش أيضاً والذين يقيمون في ميناء أبو شهر فاحتلوا جزيرة أوال عام ١١٦٦.

واختلف آل خليفة مع أبناء عمومتهم آل الصباح في الكويت فغادروها عام ١١٧٩ وأرادوا النزول في جزيرة أوال فلم يسمح لهم حكام الجزيرة من بني مذكور من قبيلة الهولة، فتابعوا سيرهم ونزلوا في الزبارة شمال غربي شبه جزيرة قطر، وكانوا بإمرة شيخهم محمد بن خليفة، وكانت الزبارة يومذاك من ديار بني مسلم. وبدأ آل خليفة، بتحصين مدينة الزبارة. ورفضوا دفع الزكاة لآل مسلم بعد سنتين من نزولهم، وحصلوا على شيء من الاستقلال.

كانت دولة بني خالد قد مالت إلى الضعف واستقل عنها كثير من أتباعها مثل آل مسلم في قطر، وآل الصباح في الكويت، وحذا حذوهم آل خليفة في الزبارة والذين توسعوا حتى سيطروا على جزيرة أوال تماماً عام ١١٩٦، وذلك رداً على غزو إيران لهم في الزبارة إذ كانت جزيرة أوال تخضع لإيران، ثم انتقلوا إلى المنامة أو عدد منهم عام ١١٩٨.

بدأ الصدام بين آل خليفة والسعوديين عام ١٢١٠، وعندما اشتد حصار السعوديين على الزبارة ارتحل عنها أهلها جميعاً، وانتقلوا إلى جزيرة أوال حيث أقاموا في قرية (الجو) الواقعة على أحد المرتفعات جنوبي جزيرة أوال والتي بدأت تُعرف باسم البحرين، ونقل زعماء من آل خليفة في الزبارة رهائن عند إبراهيم بن عفيصان حاكم الإحساء من قبل السعوديين، وفي الوقت نفسه سيطرت الدولة السعودية على البحرين، وعُيّن إبراهيم بن عفيصان عليهم حاكماً من قبله، واستمر ذلك حتى عام ١٢١٤.

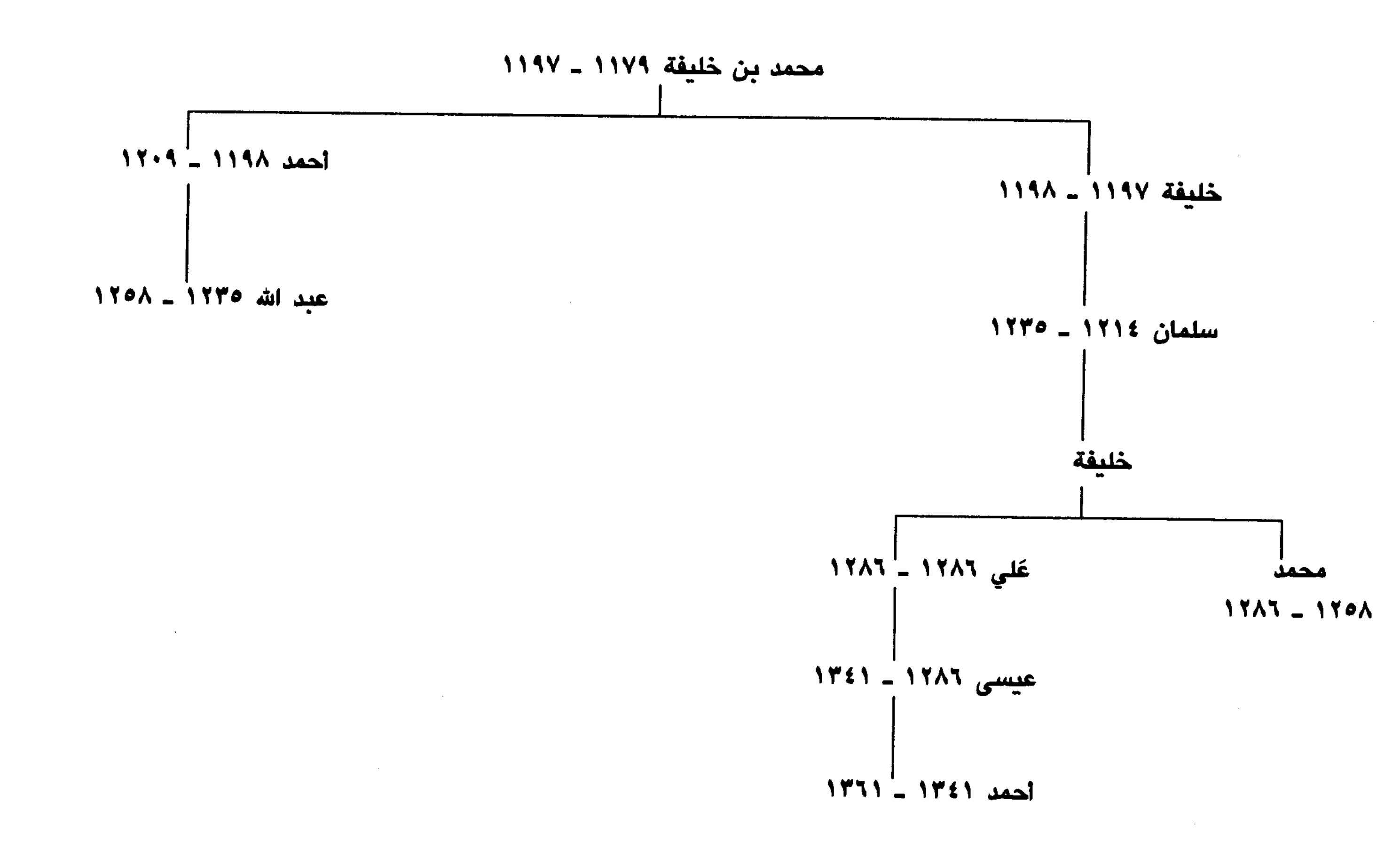
رجع سلمان بن خليفة حاكماً على البحرين عام ١٢١٤، ولكنه لم ينج من الهجمات الثانية حيث تعرض عام ١٢١٥ إلى هجوم من قبل سلطان مسقط بحجة أن سفن البحرين ترفض دفع ضريبة عند مرورها من مضيق هرمز. وفشل سلطان عُمان في دخول المنامة، ولكنه نجح في العام التالي، وأخذ عدداً من الرهائن معه إلى مسقط على حين هرب بعضهم إلى الزبارة، واستطاع أهل البحرين استعادة جزيرتهم عام ١٢١٨ إذ استعانوا

بالسعوديين ضد العُمانيين، وتوطدت العلاقة بين السعوديين وأهل البحرين، وخاصة عندما عاد سلمان بن خليفة إلى حكمه بمساعدة الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد عام ١٢٢٤ بعد أن أجبر على تركه بسبب هجوم سلطان عُمان، واستطاع الجيش السعودي طرد العُمانيين، وأخذ بعض آل خليفة إلى نجد حيث احتجزهم سعود الكبير عنده.

عاد آل خليفة فاستنجدوا بعدوهم السابق سلطان مسقط ضد السعوديين الذين خرجوا من الجزيرة، وقاد أهل البحرين يومذاك عبد الله بن أحمد، ولكن ثار عليه بعد مدةٍ أحد أبناء عمومته وهو محمد بن خليفة بن سلمان ولكنه هُزم في معركة الناصفة فالتجأ إلى عبد الله بن ثنيان من آل سعود الذي كان في الإحساء ورغب في الاستيلاء على البحرين مستغلاً خلافات أسرة آل خليفة، ولكن لم يوفق إذ انتهت أيام حكمه.

ذهب محمد بن خليفة إلى قطر يطلب المساعدة فأيدته قبائل آل علي وشيخها عيسى بن طريف، وقبائل آل النعيم، وقبائل بوكوارة، وقبائل الجلاهمة فتمكّن من الانتصار على ابن عمه عبد الله بن أحمد وتسلّم الحكم عام ١٢٥٨، والتجأ عبد الله إلى إيران وطلب دعمها غير أن إنكلترا حالت دون ذلك على الرغم من وجود معاهدة معه منذ عام ١٣٢٦. وفي الوقت نفسه أخذ فيصل بن تركي الدمام وكانت تتبع البحرين، وأراد بسط نفوذه على البحرين أيضاً، وتوفي عبد الله عام ١٢٦٥. فصفا الجو لمحمد بن خليفة الذي استمر في الحكم حتى توفي عام ١٢٨٦، وكان قد جدّد المعاهدة مع إنكلترا عام ١٢٧٩. وتسلّم الحكم بعده أخوه علي بن خليفة، ولكنه لم يلبث سوى عدة أشهر حيث قتله أخوه الآخر، إلا أن ابنه عيسى بن علي قد قبض على زمام الحكم حتى عام ١٣٤١، وعقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٢٩٨، ثم جُدّدت عام ١٣١٠، وبموجب هذه المعاهدة لا يحقّ لأمير البحرين أن يتنازل عن أي جزء من أراضيه إلى أية جهة سوى إنكلترا، ولا يعقد أية علاقة مع أية دولة دون علم إنكلترا، وأن يُقيم مستشاراً بريطانياً في المنامة بجانب الأمير.

وتوفي عيسى بن علي عام ١٣٤١ فخلفه ابنه أحمد.


محمد بن خليفة ١١٧٩ ـ ١١٩٧
خليفة ١١٩٧ ـ ١١٩٨
أحمد ١١٩٨ ـ ١٢٠٩
سلمان ١٢١٤ ـ ١٢٣٥
عبد الله ١٢٣٥ ـ ١٢٥٨
خليفة
محمد
١٢٥٨ ـ ١٢٨٦
عَلي ١٢٨٦ ـ ١٢٨٦
عيسى ١٢٨٦ ـ ١٣٤١
أحمد ١٣٤١ ـ ١٣٦١

جـ - قطر:

كانت قطر حتى عام ١١٨٠ جزءاً من المنطقة الشرقية، وتخضع لبني خالد الذين كانت سلطتهم تمتد على شرقي الجزيرة العربية كلها، ويتصل بهم آل مسلم الذين يمتون بصلة النسب إليهم، ويساعدونهم في توطيد حكمهم في قطر، وكان المعاضيد من آل علي يُقيمون في (الفويرط) في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة، وهناك بعض السودانيين الذين يُقيمون في الدوحة التي كانت تُعرف باسم (البدع). وفي عام ١١٧٩ نزل آل خليفة وهم من العتوب في الزبارة قادمين من الكويت، وبعد مدة تبعهم أقرباؤهم الجلاهمة، ولم يلبث أن وقع الخلاف بين الطرفين، وانتقل الجلاهمة إلى قرية (الرويس) حيث عملوا في القرصنة، ولكنهم أُبيدوا على يد آل خليفة، ومن بقي منهم انتقل إلى (خورحسان).

احتلت إيران البصرة عام ١١٩٠ فهاجر عدد من تجار البصرة هاربين إلى الزبارة التي توسعت ونمت تجارتها. وحاولت إيران إخضاع الزبارة ولكنها فشلت، وغزت الزبارة البحرين، وكررت إيران غزو الزبارة عام ١١٩٧ غير أنها باءت بالفشل أيضاً، وقام آل خليفة برد فعل عام ١١٩٨ بالهجوم على البحرين التي كانت تخضع لإيران فاضطرت الحامية الإيرانية هناك إلى الاستسلام، وانتقل آل خليفة من الزبارة إلى المنامة وذلك بمساعدة العتوب الذين يقيمون بالكويت، وكان الشيخ أحمد بن خليفة أول شيخ من عرب العتوب يحكم البحرين، واشترك الجلاهمة في غزو البحرين مع إخوانهم العتوب خصومهم بالأمس، وعادوا بعد الغزو إلى خور حسان وقد قوي مركزهم، وتسلّم زعامتهم رحمة بن جابر الذي وطد علاقته مع السعوديين.

توسعت الدولة السعودية في المنطقة الشرقية، وضمت إليها قطر والبحرين وذلك عام ١٢٢٤، ولكنهم خرجوا من قطر عام ١٢٢٦ بمساعدة سلطان مسقط الذي هاجم (الزبارة) و(خورحسان) وأحرقهما ودمرهما، وانقلب جابر بن رحمة ضد السعوديين، ودمرت كذلك شركة الهند الشرقية

مدينة البدع (الدوحة) عام ١٢٣٧، ثم خضعت قطر للبحرين عام ١٢٣٩ أيام عبد الله بن أحمد، ولما دخلت البحرين في معاهدة مع شركة الهند الشرقية عام ١٢٥١ كانت هذه المعاهدة تشمل قطرا أيضاً بصفتها جزءاً من البحرين.

وحدث خلاف في أسرة آل خليفة في البحرين إذ نافس محمد بن خليفة ابن عمه عبد الله بن أحمد لكنه هُزم أمامه فالتجأ إلى السعوديين في الإحساء ثم انتقل إلى قطر يطلب الدعم والمساعدة، فوجد ضالته إذ أيّده عيسى بن طريف من آل علي، وكان قد انتقل من جزيرة قيس إلى الدوحة، كما أيّدته قبائل النعيم، والجلاهمة، والبوكوارة فرجع إلى قطر بعد أن انتصر على ابن عمه، وتسلّم حكم البحرين عام ١٢٥٨.

فرض فيصل بن تركي آل سعود نفوذه على قطر، بينما لم يفرض على البحرين وبذا عادت قطر فانفصلت عن البحرين. ولكن بعد وفاة فيصل بن تركي عام ١٢٨٢ واختلاف أبنائه من بعده قامت البحرين عام ١٢٨٤ بالاشتراك مع أبي ظبي في غزو قطر، وأزيلت الدوحة والوكرة، ثم قامت قطر برد فعل بهجوم معاكس.

وفي عام ١٢٨٥ اتفقت بريطانية مع الشيخ محمد آل ثاني بالعودة إلى الدوحة، وتعد قبيلته أكثر القبائل رجالاً ونفوذاً، وهي فرع من المعاضيد الذين هم بطن من آل علي، واستمر نفوذه حتى عام ١٢٨٨ حيث خلفه ابنه قاسم الذي تعرّض لهجوم عثماني بقيادة أمير الكويت، واضطر قاسم بن محمد إلى رفع العلم العثماني عام ١٢٨٨، وبعد عام أمر مدحت باشا الوالي العثماني على المنطقة باحتلال الدوحة.

وحدث تمرّد على القوات العثمانية التي هُزمت جنوب الدوحة، واضطر قاسم بن محمد أن يتنازل عن الإمارة إلى شقيقه أحمد بن محمد كمصالحة مع العثمانيين. واغتيل أحمد بن محمد عام ١٣٢٣ بيد أحد خدامه من بني هاجر، وتولى الأمر بعده عبد الله بن قاسم، وفي عهده بدأت المفاوضات بين العثمانيين والإنكليز وذلك عام ١٣٢٩ من أجل حلّ

المشكلات بينهما في الخليج العربي، ومنها قطر، وكان الإنكليز يهدفون إلى طرد العثمانيين من المنطقة، كما لا يُقرّون بسيادة البحرين على قطر. وتمّ توقيع المعاهدة في لندن تخلّت نتيجتها الدولة العثمانية عن حقوقها في قطر، واعترفت بخط يفصل بين نجد وقطر، وتضمّنت الاتفاقية التوقيع عليها في مدة ثلاثة أشهر إلا أن المدة قد جددت عدة مرات حتى نشبت الحرب العالمية الأولى، وانسحبت الدولة العثمانية من قطر نهائياً عام ١٣٣٤.

وقعت معاهدة جديدة بين الشيخ عبد الله بن قاسم وإنكلترا عام ١٣٣٥، وقد كفلت هذه المعاهدة لإنكلترا إدارة الشؤون الخارجية والتشريعات، والشؤون القضائية للأجانب. ثم منح الشيخ عبد الله عام ١٣٥٤ شركة قطر للنفط حق التنقيب في بلاده، وتوفي عام ١٣٦٨، وخلفه ابنه الثاني علي.

د ـ الكويت:

كانت الكويت جزءاً من المنطقة الشرقية، وقد تبعت الدولة العيونية (٤٦٧ ـ ٦٤٢)، ثم خضعت لبني عقيل (٦٤٢ ـ ٩٣٣) الذين حكموا الإحساء.

وصل البرتغاليون إلى الكويت، وكانت تسمى (القرين)، واحتلوا جزيرة (فيلكا)، وأقاموا فيها حصناً وذلك في الوقت الذي دخلوا البحرين، غير أن البرتغاليين خرجوا عام ٩٣٢، ثم استغلوا خلاف راشد بن مغامس مع العثمانيين فرجعوا إليها عام ٩٥٢، وفي النهاية طردوا منها عام ٩٥٧ على يد العثمانيين، وأصبحت الكويت جزءاً من أملاك الدولة العثمانية، ولكن لم تلبث أن ضعفت الدولة فاستغل بنو خالد هذا الضعف، واستقلوا في الإحساء، ثم سيطروا على المنطقة كلها عام ١٠٨١، وفي أيامهم أخذت الكويت اسمها، وذلك نسبةً إلى حصن صغير كان موجوداً فيها، قيل بناه (برّاك بن غرير) زعيم بني خالد.

وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري انتقلت فصيلة من قبيلة عنزة كانت تقيم في منطقة الهدّار بالأفلاج في جنوب نجد إلى قطر نتيجة خلافاتٍ قامت، وسنواتٍ عجاف مرت على المنطقة، أقامت هذه المجموعة في قطر، وقد عُرفت باسم العتوب نسبةً إلى بني عتيبة، ومن هؤلاء العتوب آل الصباح وآل خليفة. وبعد مدةٍ حدث خلاف بين آل مسلم أصحاب النفوذ في قطر وبين العتوب، فارتحل العتوب باتجاه الكويت فلحقهم آل مسلم فنزلوا إلى البر عند رأس تنورة، وجرى هناك قتال بين الطرفين انتصر فيه العتوب، ورجع آل مسلم إلى بلدهم، ومع ذلك فقد تابع العتوب حركتهم نحو الشمال حتى وصلوا إلى أرض شمال الخليج العربي فتنقّلوا هناك ثم استقر بهم المقام في الكويت، وكانت تحت سيطرة بني خالد.

ضعفت سلطة بني خالد، وقوي مركز العتوب فوقفوا في وجه سادتهم، وبايعوا كبيرهم صباح بن جابر أميراً عليهم عام ١١٦٢، ولما توفي عام ١١٧٢ بويع ابنه عبد الله غير أن هذه البيعة قد جعلت آل خليفة ينقمون على آل الصباح نتيجة البيعة التي تمت للأمير الجديد، فغادر آل خليفة الكويت، ورجعوا إلى قطر حوالي عام ١١٧٩، وأقاموا في الزبارة.

وعندما استولى الفرس على البصرة عام ١١٩٠ غادرها عدد من تجارها، واتجهوا إلى الكويت التي بدأت تنمو، وتتحول التجارة إليها، وهذا ما أطمع قبيلة كعب فيها فغزتها فقاتلها الأمير عبد الله وتغلّب عليها.

وحاصر عبد العزيز بن محمد بن سعود الكويت في إحدى غزواته لجنوبي العراق، ولكنه فشل في الحصار. ثم غزاها إبراهيم بن عفيصان أمير الإحساء عام ١٢٠٨، ثم غزاها أبو رجلين عام ١٢١١. وقام أهل الكويت بغزو القبائل التابعة للدولة السعودية كرد فعل على الغزوتين السابقتين، ثم شغل آل سعود بجيوش محمد علي واتجهوا نحو الغرب. وتوفي عبد الله الأول عام ١٢٢٩، وخلفه ابنه جابر الأول، واستمر حكمه حتى عام ١٢٧٦ حيث خلفه صباح الثاني، وبقي أمر البلاد بيده حتى عام ١٢٨٣ فتسلم الأمر بعده عبد الله الثاني.

وعندما توفي فيصل بن تركي عام ١٢٨٢ تنازع أبناؤه من بعده، وكانت الإحساء والقطيف بيد عبد الله بن فيصل إلا أن أخاه سعوداً قد احتل المنطقة عنوةً، وهذا ما جعل عبد الله يستنجد بالدولة العثمانية، وقال: إن أخاه سعوداً يستظهر بإنكلترا، فأنجدت الدولة العثمانية عبد الله، ودعمته بـ(عبد الله الثاني آل الصباح)، واستعادت المنطقة عام ١٢٨٨، وبعد عام قبل عبد الله لقب قائمقام بحيث يكون تابعاً لوالي البصرة العثماني.

غزا سعود بن فيصل آل سعود الكويت عام ١٢٩٠، ولكنه عاد دون حرب، كما أن أمير حائل محمد بن عبد الله آل رشيد قد غزاها عام ١٢٩٥.

وفي عام ١٣٠٩ توفي عبد الله الثاني آل الصباح فخلفه ابنه محمد الذي حكم حتى عام ١٣١٣ حيث قام عليه أخوه مبارك، وقتله مع أخيه الثالث الجراح، واستأثر بالحكم، وهذا ما جعل أبناء أخويه يغادرون الكويت إلى البصرة. وفي أيام مبارك بن عبد الله الثاني ضعف حكم جواره السعوديين وسيطر آل رشيد على نجد، على حين كانت الإحساء بيد العثمانيين، ووقعت العداوة بين مبارك آل الصباح وآل رشيد، فكان مبارك يستعين بالدولة العثمانية سواء أكان عن طريق متصرف البصرة أم عن طريق متصرف الإحساء، وذلك كلما حزبه أمر، وعندما اختلف مبارك مع آل ثاني في قطر وقفت الدولة العثمانية بجانبه وهددت آل ثاني فلم يقع الصدام. وكان يوسف آل إبراهيم ينافس الشيخ مبارك، ويستعين عليه بحكام قطر وحكام حائل، وقد سافر إلى حائل والتقى بأميرها محمد بن عبد الله آل رشيد، واتفق معه على حرب الشيخ مبارك ولكن الأمر لم يتم لأن ابن رشيد قد توفي عام ١٣١٥، وهو يستعد للسير إلى الكويت. وكردّ فعل لذلك فقد جهز الشيخ مبارك حملةً للتوجه إلى حائل واستنهض معه قبائل المنتفق العراقية، والظفير، وحصل على بعض الأرباح في هذه الحملة، ثم سار ثانيةً إلى الوجهة نفسها واستنهض معه قبائل مطير، والعجمان، ومُرّة، والعوازم، والمنتفق، وبعض بطون الظفير، وسار معه هذه المرة

عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ومعه ابنه عبد العزيز، وسار الجمع نحو حائل، والتقى الجمعان في (الصريف) قرب القصيم فدارت الدائرة على الشيخ مبارك ومن معه، وانتصر ابن رشيد.

وفي عام ١٣١٧ قبل الشيخ مبارك الحماية البريطانية، وألا يقيم علاقات مع أية دولةٍ دون موافقة بريطانيا، فقام ابن رشيد برد فعل فأغار عام ١٣١٩ على (الصبيحة) ونهب أطراف الكويت. وحاولت الدولة العثمانية مهاجمة الكويت ليكفّ الشيخ مبارك عن غاراته وكرد فعلٍ لانقلابه عليها غير أن إنكلترا وقفت بجانبه فعدّل العثمانيون خطتهم. وفي هذا الوقت استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود أن يدخل الرياض، وأن ينتزع حكمها من ابن رشيد، وهذا ما أضعف إمارة حائل، فخفّ ضغطها عن الكويت.

اتفق الشيخ مبارك مع ابن سعود ضد إمارة حائل فهزماها عام ١٣٢١، ولكنهما هزما أمام الشيخ سعدون شيخ قبائل المنتفق وذلك عام ١٣٢٨، ثم جرى الصلح بين الشيخين مبارك وسعدون، غير أنه في هذه الأثناء قد هجر بعض تجار اللؤلؤ الكويت، واتجهوا إلى البحرين. وعينت إنكلترا مندوباً سياسياً لها في الكويت عام ١٣٢٢.

ورغم موقف الشيخ مبارك من الدولة العثمانية واتجاهه نحو إنكلترا إلا أنه دفع مبلغ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية ذهبية للعثمانيين دعماً منه لهم في حروبهم مع الطليان الذين نزلوا بليبيا، غير أنه بعد ذلك قد اتجه بكليته نحو إنكلترا، وابتعد عن الدولة العثمانية، ودعم كل من يقف في وجهها، وزار الحاكم الإنكليزي للهند الكويت عام ١٣٣٠. وحدثت نقمة على الشيخ مبارك من قبل رعاياه لعدائه الشديد للعثمانيين وخاصةً بعد أن احتلت إنكلترا البصرة في بداية الحرب العالمية الأولى، وتوفي الشيخ مبارك عام ١٣٣٤.

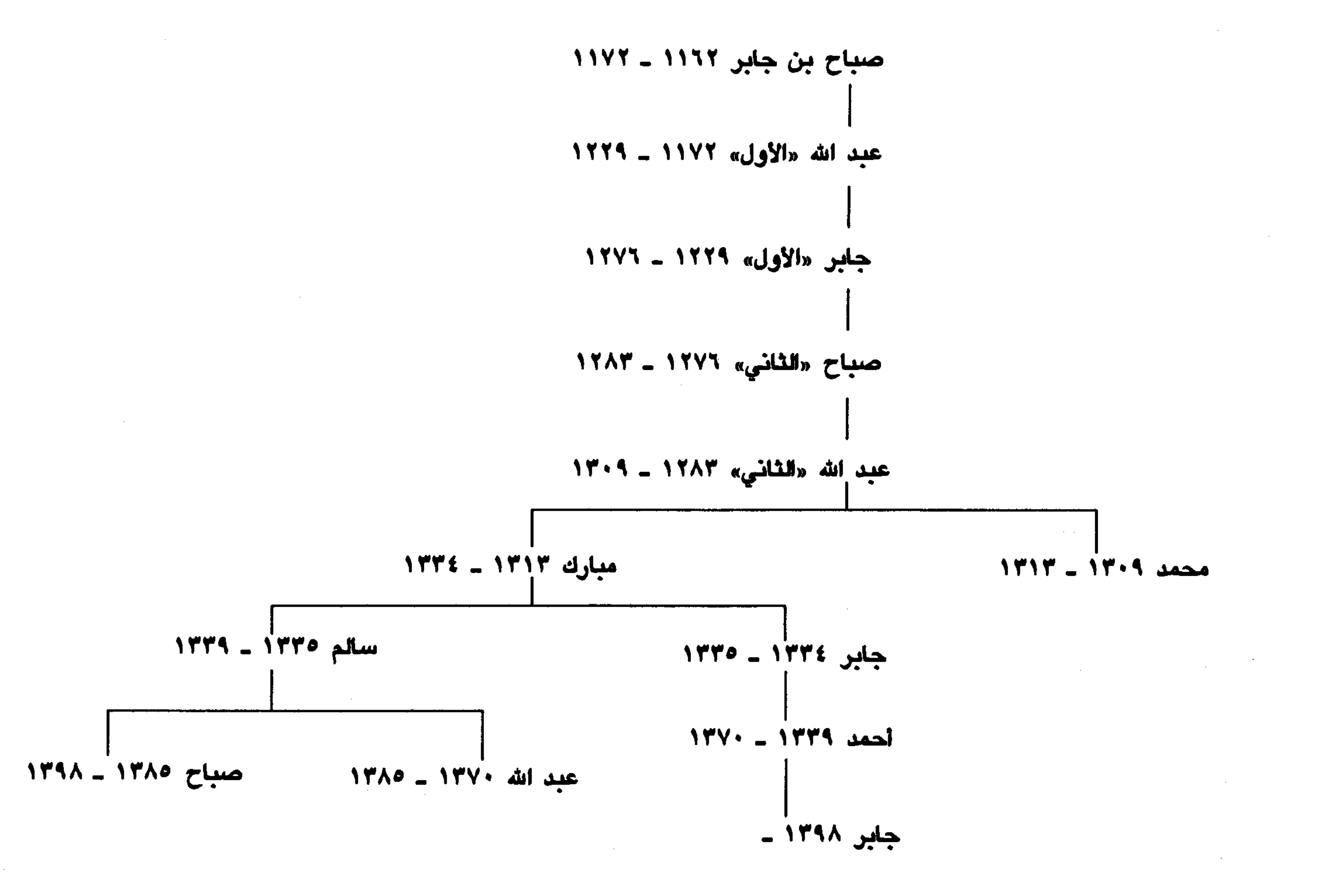
تولّى حكم الكويت جابر بن مبارك الذي لم يلبث في الحكم سوى عام واحد توفي بعده وخلفه أخوه سالم، وقد زار المنطقة (برسي كوكس) الإنكليزي وجرى التعاون مع ابن سعود والشيخ خزعل في منطقة الأهواز وذلك عام ١٣٣٥.

حاول عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ضمّ قبائل (العوازم) إليه، وجمع الزكاة منهم، فاشتكى الشيخ سالم إلى (هملتن) المعتمد البريطاني في الكويت الذي سافر إلى الرياض، وانتهت المشكلة لمصلحة الكويت.

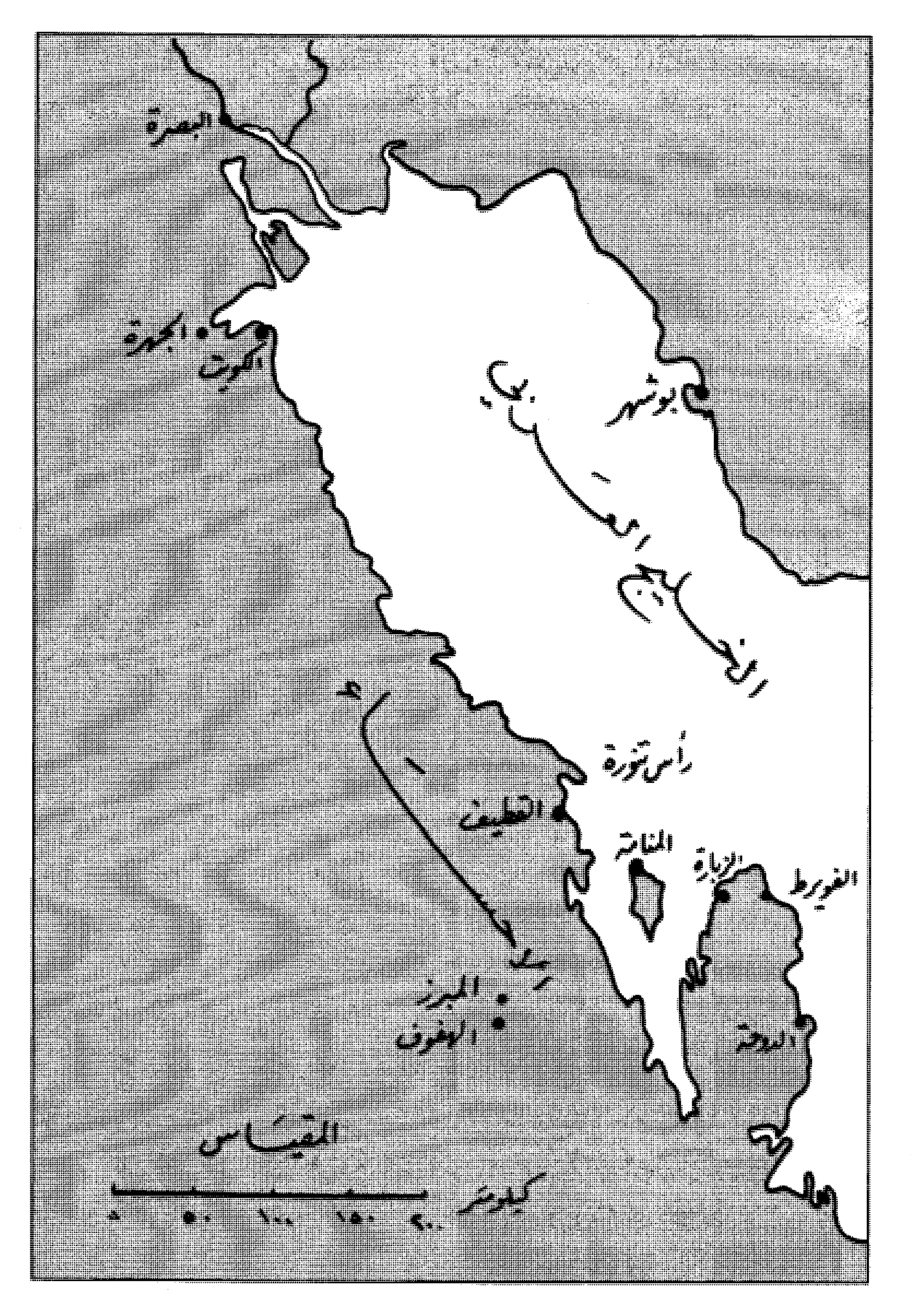
وزار (بل) الكويت عام ١٣٣٦، وطلب من الشيخ سالم أن يكون لإنكلترا موظفون في الكويت لمراقبة البضائع فرفض، ولكنه عاد فوافق بعد تدخل المعتمد البريطاني (برسي كوكس)، وكان الشيخ سالم قد أظهر مساندة العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى مما دفع البريطانيين لمحاصرة الكويت.

عاد الخلاف بين السعوديين والشيخ سالم، وجرت بين الطرفين معركة (حمض) التي انتصر فيها السعوديون، وبنى الشيخ سالم سوراً على مدينته عام ١٣٢٨، ثم وضعت الحدود بين الكويت والسعودية برأي إنكلترا. والتقى عبد العزيز آل سعود مع (برسي كوكس) في ميناء (العقير)، هاجم السعوديون (الجهراء) إثر ذلك اللقاء، ولكن القائد السعودي فيصل بن الدويش لم يوفق، فعاد مرةً ثانيةً وأغار على الكويت.

توفي الشيخ سالم عام ١٣٣٩ وخلفه ابن أخيه أحمد الجابر الذي أمد ابن رشيد عام ١٣٤٠ بالمال والأرز عندما نفدت مؤنه من جراء حصار ابن سعود له، وهذا ما دعا ابن سعود إلى أن يهاجم أطراف الكويت عام ١٣٤٢، وتوفي أحمد الجابر عام ١٣٧٠، وخلفه ابن عمه عبد الله السالم، وفي عهده استقلت الكويت عام ١٣٨١، وتوفي عام ١٣٨٥ فتولّى الأمر مكانه أخوه صباح السالم حتى توفي عام ١٣٩٨ فقام محلّه ابن عمه جابر الأحمد الجابر.



صباح بن جابر ١١٦٢ ـ ١١٧٢
عبد الله «الأول» ١١٧٢ ـ ١٢٢٩
جابر «الأول» ١٢٢٩ ـ ١٢٧٦
صباح «الثاني» ١٢٧٦ ـ ١٢٨٣
عبد الله «الثاني» ١٢٨٣ ـ ١٣٠٩
محمد ١٣٠٩ ـ ١٣١٣
مبارك ١٣١٣ ـ ١٣٣٤
جابر ١٣٣٤ ـ ١٣٣٥
سالم ١٣٣٥ ـ ١٣٣٩
أحمد ١٣٣٩ ـ ١٣٧٠
عبد الله ١٣٧٠ ـ ١٣٨٥
صباح ١٣٨٥ ـ ١٣٩٨
جابر ١٣٩٨ ـ


البصرة
الجهرة
الكويت
بوشهر
رأس تنورة
القطيف
المنامة
الزبارة
الفويرط
المبرز
الهفوف
الدوحة
المقياس
كيلومتر
٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠

مصور رقم [٢٢]

الفصل السابع

اليمن

في مطلع القرن العاشر خضعت اليمن كلها للدولة الطاهرية التي كان سلطانها عامر بن عبد الوهاب الذي كان حكمه من ٨٩٤ إلى ٩٢٣. أما شمالي اليمن فكان تحت سلطان الأئمة الزيود منذ السنوات الأخيرة من القرن الثالث حتى هذه المرحلة، وكان يمتد ويتسع أحياناً حتى يشمل أجزاء واسعةً من اليمن، وأحياناً أخرى يضعف وينكمش حتى لا يتجاوز منطقة صعدة وقد يزول نهائياً. وكان في هذه المرحلة الإمام المتوكل يحيى شرف الدين الذي قام ٩١٢، واستمر حتى ٩٦٥.

المماليك الجراكسة:

وجاء البرتغاليون إلى المنطقة، وبدؤوا يعيثون الفساد على سواحل البحر الأحمر، وتطغى عليهم الروح الصليبية، وقد تمكّنوا من احتلال جزر قمران وقتل عاملها، وهذا ما أثار سلطان المماليك في مصر قانصوه الغوري (٩٠٤ ـ ٩٢٢) فأرسل عدة كتائب من الجند الذي أطلق عليهم مؤرخو اليمن اسم «الغز» وذلك لمطاردة البرتغاليين، وكان حسين الكردي أحد قادة تلك الكتائب الذين اهتموا بقتال البرتغاليين.

وسار حسين الكردي على رأس حملةٍ بحرية لدعم المسلمين في الهند ضد البرتغاليين من الصليبيين، ولكنه هزم في معركة ديو المشهورة عام ٩١٥ مع حلفائه بعض حكام الولايات الهندية. وبعد هذا الفشل لم يرغب

حسين الكردي بالعودة إلى مصر، وإنما سار إلى جُدّة، وبدأ يعمل على تحصينها.

وسار القائد البرتغالي (البوكرك) إلى عدن، ولكنه فشل في اقتحامها عام ٩١٩، وهذا ما شجع سلطان المماليك إلى إرسال حملةٍ جديدة إلى جنوب البحر الأحمر، بعد أن أصابه الخوف الشديد بسبب هزيمة ديو البحرية. فجهّز قوة بإمرة الريس سليمان، وانطلقت إلى جُدّة، فانضمّ إليها حسين الكردي، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى الجنوب فاستولت على مدينة زيلع في الصومال، ثم استقرت في جزر قمران بعد أن جلا عنها البرتغاليون عام ٩٢١.

بدأ حسين الكردي يتوغل في داخل اليمن حيث أن الإمام المتوكل يحيى شريف الدين قد طلب الولوج إلى الداخل، واستصرخه لقتال عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي تغلّب على الإمام، وسيطر على اليمن كلها، وقد وعده بالدعم والمساعدة. وكانت قد جاءت سفن محملة بالمؤن إلى الجنود المصريين في جزر قمران فاحتجزها عامل عامر بن عبد الوهاب على الحديدة، وهو محمد بن نوح، ورفض إطلاقها إلى الجند الجياع، فغضب لذلك حسين الكردي، كما كان قد طلب من السلطان عامر مساعدته لقتال البرتغاليين وإخراجهم من أطراف الجزيرة العربية فلم يستمع إلى ذلك وهذا ما أثار الكردي أيضاً فاتجه لمحاربة الطاهريين، وتوغّل في داخل اليمن فالتقى مع الجيش الطاهري خارج مدينة زبيد فجرت بين الطرفين معركة «الرحب» التي فرّ فيها قائدا السلطان وهما: أخوه عبد الملك وابن أخيه عبد الوهاب بن عامر، ودخل إثرها حسين الكردي زبيد عام ٩٢٢. ولكن الكردي لم يستطع دخول مدينة عدن لمقاومة مرجان عامل السلطان عامر عليها وذلك عام ٩٢٢.

وسار السلطان عامر بنفسه على رأس جيش، والتقى مع قوات المماليك، ولكن هُزم أمامهم فانسحب إلى (تعز) فلاحقته القوات المملوكية فانتقل إلى المقرانة حيث حمل ما عنده إلى صنعاء، وبقيت المطاردة تتابعه

من مكان إلى آخر فتصدّى لها قرب صنعاء، فجرت معركة «الصافية» بين الطرفين على أبواب صنعاء قُتل فيها أخوه عبد الملك، ونجا هو بنفسه، فسار يريد الاعتصام ببعض حصونه فوقع أسيراً بيد أحد الأهالي فسلّمه إلى الأعداء فقتل في ٢٣ ربيع الأول عام ٩٢٣، وسيطر المماليك على اليمن كلها لما يتفوّقون به من أسلحة نارية يملكونها ولم يعرفها بعد أهل اليمن. ورجع حسين الكردي والريس سليمان إلى جدة، وتُركت قواتهم في اليمن تحت إمرة (برسباي) و(الإسكندر بن محمد الجركسي) و(رمضان الجركسي). أما الدولة الطاهرية فقد احتفظت لها ببعض المواقع في الجنوب.

وعندما سقطت دولة المماليك في مصر بيد العثمانيين عام ٩٢٣. انسحب القائد الإسكندر بن محمد بقواته إلى زبيد رغم ما لقيه من مشقة وجهد بسبب الحرب التي شنتها عليه رجال القبائل، والقوات الطاهرية التي بقيت متمركزةً في الجنوب حتى مجيء العثمانيين إلى اليمن عام ٩٤٥.

العثمانيون:

عاد الخليفة العثماني بعد حروبه في أوربا ليتمم المهمة الملقاة على عاتقه والتي من أجلها اتجه والده نحو الشرق، وهي المحافظة على ديار الإسلام وقتال البرتغاليين الذين وصلوا إليها من الجنوب، وخاصةً أن المسلمين في الهند قد استنجدوا به فأمر عامله على مصر سليمان باشا الأرناؤوطي أن يُجهّز حملةً وأن يسير لحرب البرتغاليين ونجدة مسلمي الهند.

انطلقت الحملة عام ٩٤٥، ونزلت باليمن عام ٩٤٥، وطلب حاكم عدن السلطان عامر بن داوود آخر ملوك الطاهريين مساعدته ضد الإمام يحيى شرف الدين الذي تغلّب عليه وسيطر على أكثر أجزاء اليمن فردّ عليه بالموافقة ودعاه لزيارته في السفينة العثمانية، فوافق بعد تردّدٍ وسار إليه، إلا أنه قبض عليه، وأعدمه، واحتل عدن، وتابع مسيره إلى الهند حيث دعم المسلمين هناك.

رجع سليمان باشا من الهند عام ٩٥٤ ونزل بأرض اليمن، وزحف بقواته نحو صنعاء، فاصطدم مع قوات الإمام يحيى شرف الدين، فأحرز النصر، وتمكن من دخول صنعاء، ولكن المطهر ولد الإمام يحيى شرف الدين قد أجبر العثمانيين على الجلاء عن أكثر أرض اليمن بعد هزيمتهم عام ٩٧٥، وبعد الانتصارات المتكررة التي أحرزها عليهم، ودانت أكثر أرض اليمن للمطهر باستثناء زبيد، وكان الإمام يحيى شرف الدين قد توفي عام ٩٦٥ بعد أن كفّ بصره.

عاد العثمانيون بحملةٍ جديدةٍ بقيادة سنان باشا الذي تمكّن من دخول صنعاء عام ٩٧٧، ودحر قوات المطهر إلى الجهة الشمالية، وتحصّن المطهر في (ثلا) يستعد لاستئناف القتال، وقبض سنان باشا على بعض علماء الزيدية وزعمائهم ونفاهم إلى إستانبول، وتوفي المطهر عام ٩٨٠، وقوي مركز العثمانيين، وبسطوا نفوذهم على اليمن، وانحصرت زعامة الأئمة في بعض المواقع من الجهة الشمالية. وقام بعد المطهر الإمام الحسن بن علي بن داوود، واستمر يقاتل العثمانيين مدة سبع سنوات، ثم قبض عليه، ونفي إلى إستانبول حيث مات فيها.

قام الإمام المنصور القاسم بن محمد بن علي عام ١٠٠٦، وبدأ يحشد القبائل لمحاربة العثمانيين، وبدأت المعارك بين الطرفين عام ١٠٢٢ حيث انتصرت قوات الإمام، وانسحب العثمانيون إلى صنعاء، واضطر قائدهم جعفر باشا إلى عقد صلح مع الإمام القاسم استمر عاماً واحداً، ثم تجدّد القتال واستطاع القاسم أن يسيطر على شمالي اليمن، وتوفي عام ١٠٢٩، وخلفه ابنه المؤيد الذي استطاع أن يصل إلى أبواب صنعاء عام ١٠٤٥، ثم دخلها بعد حصار، وبعد معركة (الصافية) التي جرت بين الفريقين عندما أمر القائد العثماني بفتح أبواب المدينة، وبدأ العثمانيون بالتراجع والانسحاب، وكان هذا الانسحاب الثاني لهم، ودخل المؤيد زبيد، وجزر قمران، جزر فرسان.

استمرت أسرة القاسم بن محمد بن علي تحكم اليمن، وتسيطر على

أجزائها حتى عام ١٢٦٩، وبدأ نفوذهم ينتشر في جنوبي اليمن وتهامة منذ أوائل القرن الحادي عشر، ووصل إلى حضرموت في النصف الثاني في هذا القرن في أيام المتوكل (١٠٥٤ ـ ١٠٨٧)، ولكن بعد مدة بدأت المنازعات تقوم بين أسرة آل القاسم، وهذا ما أضعف أمرها فقامت الثورات ضدها، وانفصلت عدن عنها عام ١١٤٥ عندما قام السكان بثورة ضد عامل الإمام المنصور الحسين بن القاسم (١١٣٩ ـ ١١٦١). كما أن الإنكليز كانوا قد احتلوا عدن أيام الناصر عبد الله بن الحسن (١٢٥٢ ـ ١٢٥٤).

وفي عام ١٢٦٥ أمر الخليفة العثماني عبد المجيد عامله على جُدّة توفيق باشا بالتوجه إلى اليمن ومعه شريف مكة محمد بن عبد المعين بن عون، وسارت الحملة من جدة إلى الحديدة حيث نزلت بها، وانطلقت منها إلى صنعاء فدخلتها دون مقاومة وذلك لأن الإمام المتوكل محمد بن يحيى بن المنصور قد اتفق مع القائد العثماني، وسار معه إلى صنعاء، غير أن السكان لم يلبثوا أن ثاروا على إمامهم المتوكل، وقبضوا عليه، وأودعوه السجن، وولوا مكانه غيره عام ١٢٦٥، وأجبروا العثمانيين على الانسحاب إلى تهامة، وبدأت الخلافات تظهر بين الأئمة في صنعاء وفي صعدة وكلٌّ يدّعى أحقيته بالإمامة، واستمرت الخلافات ما يقرب من ربع قرن (١٢٦٥ ـ ١٢٨٩)، وانتهز العثمانيون الذين كانوا في عسير، والذين تمكنوا من القضاء على آل عائض، وقتل أميرهم محمد بن عائض، والقبض على عددٍ منهم، وحملهم إلى إستانبول، انتهز العثمانيون فرصة الخلافات بين الأئمة فسار والي عسير أحمد مختار باشا عن طريق الساحل، ووصل إلى صنعاء، ولكنه لم يتمكّن من بسط نفوذه على الجهات الشمالية التي بقيت تحت حكم المتوكل الحسن بن أحمد (١٢٧١ ـ ١٢٩٥) حتى توفي عام ١٢٩٥، وخلفه الهادي شرف الدين بن محمد.

وفي عام ١٢٩٠ عيّن العثمانيون مصطفى باشا خلفاً لأحمد مختار باشا فاستعمل العنف والقسوة مع السكان، وقبض على عدد من العلماء، وأودعهم سجن الحديدة، وتوفي الهادي شرف الدين بن محمد عام ١٣٠٧

فبويع الإمام محمد بن يحيى حميد الدين، وكان قد فرّ من سجن الحديدة، وهو من أسرة القاسم بن محمد بن علي، وبذا تكون الزعامة أو الإمامة قد عادت إلى هذه الأسرة بعد أن زالت عنها عام ١٢٦٩ عندما أخذها المنصور محمد بن عبد الله الوزير الذي استمرت إمامته (١٢٦٩ ـ ١٣٠٧) مع منازعة آخرين له.

بدأ الإمام محمد بن يحيى حميد الدين بمحاربة العثمانيين فاصطدم مع الوالي أحمد فيضي باشا عام ١٣٠٩، ثم بالولاة الذين جاؤوا بعده: حسين حلمي باشا، وعبد الله باشا، واضطر العثمانيون إلى إعادة أحمد فيضي باشا ثانيةً إلى اليمن، وجاء بقواتٍ كبيرةٍ معه فاستطاع دخول صنعاء، وغادرها المنصور محمد بن يحيى حميد الدين إلى حاشد، ولم يفلح أحمد فيضي باشا بالسيطرة على شمالي اليمن، وتوفي المنصور عام ١٣٢٢، وبويع بعده ابنه يحيى ولقب بالمتوكل، وتمكّن من دخول صنعاء عام ١٣٢٣، وانسحب القائد العثماني إلى زبيد، فأرسل العثمانيون مرة ثالثةً أحمد فيضي باشا فنزل في الحديدة، واحتلها، وتقدّم منها إلى صنعاء واستطاع احتلالها، وانطلق منها إلى (شهارة) التي اعتصم بها الإمام يحيى، ولكن رجال القبائل قد طوقت القائد العثماني أحمد فيضي باشا فانسحب بجيشه.

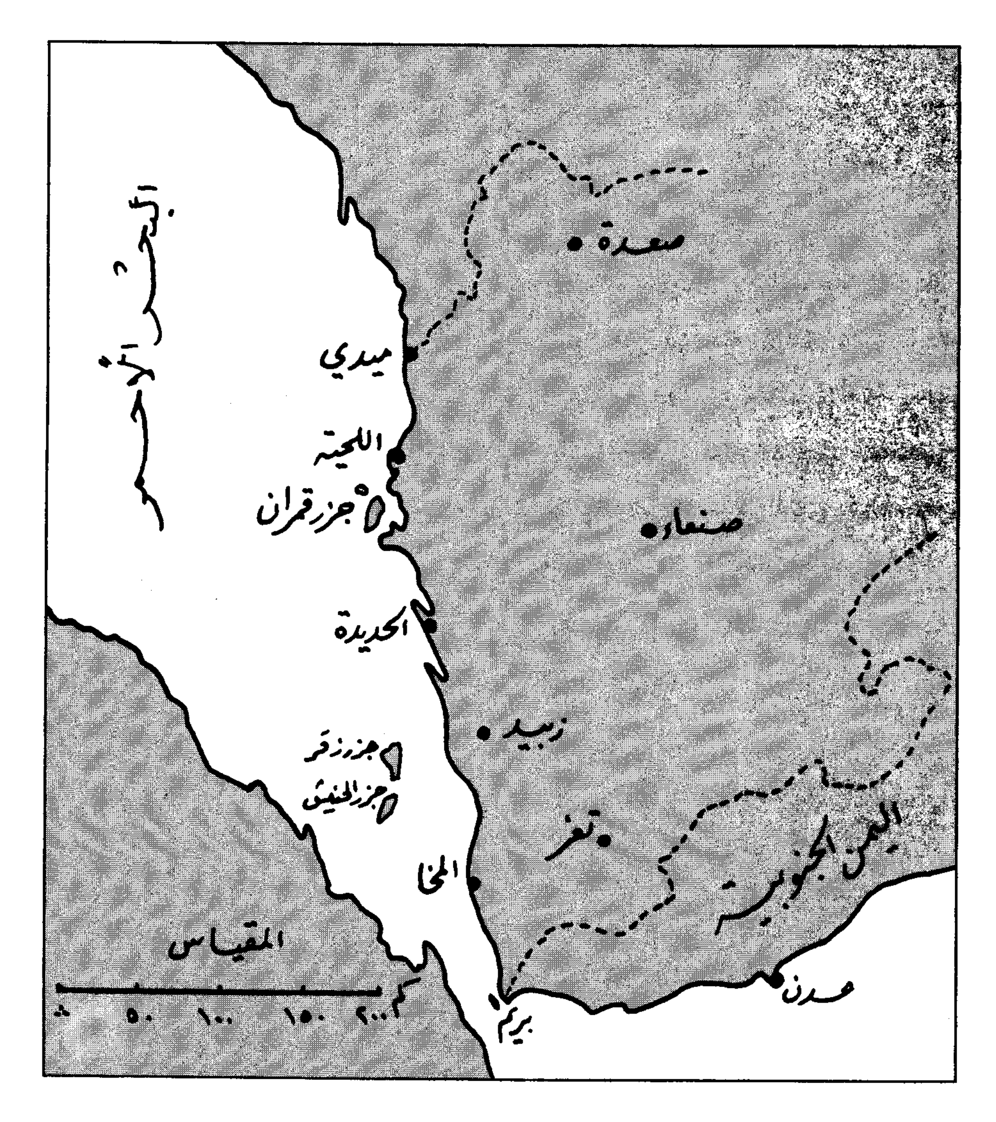
أرسلت حكومة الاتحاديين إثر هزيمة أحمد فيضي باشا مندوبها أحمد عزت باشا الألباني لعقد صلح مع الإمام يحيى، والتقيا بـ (دعان)، وانتهى اللقاء باتفاقية تتضمن قيام الإمام بالإشراف على شؤون القضاء والأوقاف، وتعيين المرشدين، وتشكيل هيئة شرعية في البلاد، وأن تكون الجباية على الطريقة الشرعية.

اندلعت نار الحرب العالمية الأولى، وحافظ الإمام يحيى على اتفاقه مع الدولة العثمانية فوقف بجانبها، وقد أرسلت الكثير من الأسلحة والذخائر والمؤن إلى اليمن، وأبلغت واليها في صنعاء محمود نديم بالسير لاحتلال عدن وأخذها من الإنكليز، غير أن إنكلترا قد سبقت فاحتلت ميناء الحديدة، وضربت الموانئ اليمنية: المخا، واللحية، والصليف، ومولت

الإدريسي، وأشارت عليه باحتلال تلك الموانئ فسار إليها وتسلمها، وقامت حركة في الحديدة ضد الإنكليز فسلموها، للإدريسي أيضاً.

وكان الإنكليز قد احتلوا عدن منذ عام ١٢٥٣ ـ كما ذكرنا ـ واستغلّوا القتال الدائر بين الأئمة والعثمانيين فوسّعوا نفوذهم وخاصة نحو الشرق، وما جاءت الحرب العالمية الأولى إلا وعدن، والمقاطعات الغربية التي تشمل أجزاء جنوبي اليمن، والمقاطعات الشرقية وتشمل حضرموت والمهرة كلها تحت النفوذ الإنكليزي.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، وانهزم العثمانيون وحلفاؤهم الألمان، ووقعت المعاهدة، وانسحب الوالي العثماني في صنعاء محمود نديم مع القوات العثمانية المرابطة في اليمن عن طريق عدن. وتسلّم الإمام يحيى الحكم كاملاً منذ ذلك الوقت ١٣٣٧، إلا أن اليمن قد أصبحت قسمين: الأول تحت حكم الإمام يحيى حميد الدين، وهو القسم الذي كان تحت السيادة العثمانية، والثاني وهو الذي بقي تحت سيطرة الإنكليز.


البحر الأحمر
صعدة
ميدي
اللحية
جزر قمران
صنعاء
الحديدة
زبيد
جزر زقر
جزر الحنيش
تعز
اليمن الجنوبية
المخا
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
بريم
عدن

مصور رقم [٢٣]

الفصل الثامن

عُمان

تبدأ هذه المرحلة في عُمان بالغزو البرتغالي. وقد كانت البلاد من قبل تُحكم من قِبَل الأسرة النبهانية التي بدأت بالحكم منذ عام ٥٤٩، وتعرّضت لهجمات الفرس وبسط نفوذهم عليها عام ٦٦٤، كما امتد النفوذ اليمني إليها عام ٦٧٧. ثم غزاها حاكم البحرين أجود بن زامل الجبري، وقضى على حكم الأسرة النبهانية عام ٨٢٩، وولّى عليها عمر بن الخطاب الأباضي، واستمر حكم الأباضية حتى جاء البرتغاليون عام ٩١٣، وكان يحكمها يومذاك محمد بن إسماعيل الخروصي الذي دام حكمه من ٩٠٦ - ٩٤٢، وليس الأباضيون بأسرة، وإنما فرقة من الخوارج، ويختارون إمامهم باجتماع سري، لذا فالحكام قد تباينوا على المنطقة.

كانت عمان مدناً على شكل إمارات تشتهر الساحلية منها مثل: قلهات، ومسقط، وصحار، ومطرح... وتدفع كلها أتاوةً لحاكم جزيرة هرمز، ولم يكن لحاكم عُمان عليها سوى الاسم.

وصل البرتغاليون إلى سواحل الهند عام ٩٠٤، وزار البوكرك الهند أول مرةٍ عام ٩٠٩، ووضع خطة الاستيلاء على منافذ البحر الأحمر والخليج العربي لاستمرار السيطرة البرتغالية وتأمين التجارة، وعندما رجع إلى البرتغال وعاد إلى الهند حمل معه أمراً، هو: تعيينه نائباً للملك في الهند وذلك عام ٩١٢.

هاجم البوكرك سوقطرى، واستولى عليها عام ٩١٣، وانطلق إلى عدن

ولكنه فشل في دخولها، فاتجه إلى ساحل عُمان فمرّ على جزيرة المصيرة، ورأس الحدّ، وصور، وقد أرهب السكان بأعماله الوحشية وأفعاله التي يندى لها الجبين، ووصل إلى قلهات، وطلب من حاكمها التسليم فوافق خوفاً على مدينته من التدمير، وإلحاق الشرّ بالسكان، وعقد معه صلحاً ومع ذلك فلم تسلم المدينة من الخراب، وانتقل إلى قرياط، ووجد عند أهلها فكرة المقاومة، فلم يُرسل لهم وفداً كما فعل في قلهات، وإنما بدأ بالقصف، فقاوم الأهالي، ثم استسلموا فجدع الأنوف، وقطع الآذان، وارتكب أسوأ أنواع الاعتداءات والمنكرات، وسار بعدها إلى مسقط، وكان أهلها قد حصنوها، فأرسل لهم وفداً للمفاوضة، فأبدوا استعدادهم للسلم على ألاّ تصاب مدينتهم بأذى، وجاءت نجدة إلى المدينة من هرمز، فظهر على حاكم مسقط أنه يتكلم من مركز القوة، ومع ذلك فقد قبل كل شيء من البرتغاليين لكنه أبى الخضوع لملك البرتغال، ولذا فقد بدأ الهجوم البرتغالي، واستمر كعادته حتى كانت له الغلبة، وفعل المهاجمون بأهل مسقط ما تشمئزّ منه الإنسانية، ثم انتقل إلى صحار فوافق أهلها على الاستسلام والخضوع لملك البرتغال، ومع أنها لم تسلم من شرّ المتوحشين إلا أن طريقة معاملتهم كانت أقل سوءاً وبشاعةً واتجه بعدها إلى خورفكان فلم تستسلم، وقاوم أهلها مقاومةً عنيفةً، وانتقلوا إلى القلعة يُدافعون عن أنفسهم بعد أن أخلوا المدينة التي نُهبت ودُمّرت، ثم سار إلى هرمز وكان ملكها سيف الدين صغيراً فرفض الوصي عليه خوجة العطار الاستسلام فصبّ البرتغاليون جام غضبهم على المدينة، وتمكّنوا من إحراز النصر بسبب تفوّق الأسلحة فنال المدينة ما نال غيرها، وثار عليه قواده في هرمز فاضطر إلى العودة إلى جزيرة سوقطرى.

ورجع البوكرك عام ٩١٤ من سوقطرى إلى قلهات للانتقام منها لأنها قدّمت مساعداتٍ إلى هرمز أثناء حصارها، فنهب المدينة، وأراد الغدر بحاكمها شريف الدين الذي دعاه لزيارته في السفينة البرتغالية فاعتذر له بلباقةٍ أنجته مما خطط له المجرم البوكرك، ثم سار إلى هرمز، وألقى

الحصار عليها ولكن جاءته الأوامر بالقدوم من نائب ملك البرتغال المقيم في الهند، فترك الحصار، واتجه إلى الهند حيث تسلّم هناك نائباً للملك عام ٩١٥.

وفي عام ٩١٥ قُضي على قوة المماليك البحرية بعد معركة (ديو) فخلا الجو للبرتغاليين، وعاد البرتغاليون إلى عدن عام ٩١٩، ولكنهم فشلوا في دخولها نتيجة مقاومة عاملها مرجان العامري، فاتجهوا إلى المخا، والحديدة فوجدوا مقاومةً عنيفةً من قبل السكان فتركوهما، واستقروا في جزيرة قمران، ورجعوا إلى عدن ثانيةً فعجزوا عن اقتحامها للمرة الثالثة، فاتجهوا نحو زيلع وبربرة فدخلوهما، وارتكبوا أبشع الجرائم، ورحلوا بعدها إلى الهند.

ورجع البوكرك إلى الخليج عام ٩٢١ فمرّ على رأس الحدّ، وقرياط، ومسقط، وهرمز فحاصر الأخيرة، وقتل حاكمها فاستسلمت فوضع ابن أخيه حاكماً على قلعة هرمز ونائباً عنه في المنطقة ورجع إلى الهند، فمات في الطريق عام ٩٢٢، أما ابن أخيه فقد سار إلى البحرين واحتلّ مدنها.

هذه الأعمال الوحشية التي قام بها البرتغاليون والروح الصليبية الحاقدة التي كانت تدفعهم لارتكاب أعمالهم، والقرصنة التي لجؤوا إليها في الخليج، وبحر العرب، والمحيط الهندي قد أثارت مشاعر السكان، فكانوا يتحيّنون الفرصة للثورة على هؤلاء الغزاة، فقد ثار بنوظبية بزعامة الشيخ حسين بن سعيد على الوكيل التجاري البرتغالي في البحرين عام ٩٢٧، وبعد عام انتفض أهل الخليج جميعاً من قلهات حتى البحرين، وكانت الحركة بقِيادة شيخ هرمز شاه بندر الذي يخضع للبرتغاليين، وذلك نتيجة أعمال القرصنة التي يقوم بها البرتغاليون، وقد أمر شاه بندر بإحراق المراكب البرتغالية، وقتل الحامية، وعمّت هذه الحركة المراكز كلها عدا مسقط التي كان حاكمها الشيخ راشد على خلاف مع حاكم هرمز. وجاءت نجدة إلى البرتغاليين من الهند، فعزّزت القوات البرتغالية بالمنطقة بالتخطيط مع حاكم مسقط، ثم جاءت نجدة ثانية عام ٩٢٩، واضطر حاكم مسقط راشد أن يهرب من مدينته، وأن يترك الأمر للوالي دلامير شاه، وقد تمكّن

القائد البرتغالي من إخضاع مسقط، ثم توجّه إلى صحار فدمّرها، ومنها انتقل إلى هرمز، ولم يستطع البرتغاليون حمل أسراهم ولا إطعامهم فأمر القائد البرتغالي بجدع الأنوف، وقطع الآذان و.... ثم أمر بإطلاق سراحهم بعد تشويههم و....

وقامت انتفاضة أخرى عام ٩٣٢، وجاءت نجدة من الهند للبرتغاليين فأخضعت قلهات، ثم مسقط ثم هرمز. وقامت أخرى بعد عام، وتبعتها انتفاضة في البحرين أيضاً عام ٩٣٥، لكن البرتغاليين كانوا يردّون بمنتهى القسوة بل الوحشية، وقد دمّروا صحار عام ٩٥٣، وأقاموا قلعةً جديدةً فيها عام ٩٥٥.

وأما موقف الدول المسلمة المجاورة فلم تكن هناك سوى دولتين إحداهما الدولة الصفوية القريبة من مسرح الأحداث، والدولة العثمانية التي امتد نفوذها في هذه الآونة إلى جزيرة العرب، ثم إلى العراق، أما الأولى وهي الدولة الصفوية فقد حرص إسماعيل الصفوي على عقد حلفٍ مع البرتغاليين ضد العثمانيين الذين انتصروا عليه في معركة جالديران عام ٩٢٠ غير أن موت البوكرك قد حال دون إتمام هذا الحلف. وأما الدولة العثمانية فقد قدّمت جهدها، وإن كان قليلاً لبعد الشقة، ولتكالب أوربا الصليبية على العثمانيين، وقد أرسل الخليفة سليمان القانوني حملةً بحريةً بقيادة بيري محيي الدين ريس فاستردت عدن عام ٩٥٨، ثم سارت إلى الشحر، وأخيراً رست سفنها في مسقط، وألقت الحصار عليها، وألزمت القائد البرتغالي على الاستسلام، ثم سارت إلى هرمز، ولم تستطع دخولها، فانطلقت إلى جزيرة قشم فاحتلتها، ومنها انطلقت إلى البصرة، ثم رجعت إلى البحرين عندما علمت بمجيء نجدةٍ من الهند إلى البرتغاليين، ثم عادت إلى السويس حيث استدعي قائدها بيري محيي الدين ريس إلى إستانبول وأعدم لفشل حملته إذ ظهر أنه كان سبباً في ذلك الفشل حيث بدأ يعمل في التجارة، أو كان اهتمامه بشؤون الحملة ضعيفاً. وجاءت حملة من السويس لإنقاذ مسقط فاستطاعت دخولها عام ٩٥٩، ثم غادرتها.

رجع البرتغاليون إلى الخليج عام ٩٦٠ فأرسل الخليفة سليمان القانوني حملةً بحريةً أيضاً من البصرة بإمرة مراد بك فالتقى بالأسطول البرتغالي عند رأس مسندم فهُزم مراد بك، وقُتل عدد من قادته، واضطر إلى العودة إلى البصرة.

وعاد السلطان العثماني سليمان القانوني فأرسل حملةً من البصرة أيضاً بإمرة سيد علي ريس حسين عام ٩٦٢، فتقابل مع الأسطول البرتغالي عند خليج (ليمة) قرب رأس مسندم فانتصر المسلمون رغم أن الأسطول البرتغالي كان ثلاثة أضعاف الأسطول العثماني في عدد سفنه، وتتبع قائد الحملة المسلمة الأعداء، ودارت هناك معركة ثانية قرب مسقط انتصر فيها المسلمون أيضاً غير أن عاصفة بحريةً قد هبّت على الأسطول العثماني قذفت به إلى ساحل مكران فتزوّد من هناك، وعاد باتجاه الغرب، ولما وصل إلى ساحل ظفار جاءت عاصفة شديدة أخرى قذفت به إلى ساحل كوجرات في الهند، فأطلق قائد الأسطول سراح جنده وعاد براً إلى إستانبول.

وفي عام ٩٨٨ أرسل والي اليمن سنان باشا أيام الخليفة مراد الثالث حملةً بحريةً انطلقت من اليمن بقيادة الريس أمير علي بك، فحاصر مسقط، وجاءت للبرتغاليين فيها نجدة من هرمز، ومع ذلك فقد انتصر القائد العثماني نصراً مؤزراً ودخل مسقط، ثم سار فهاجم المراكز البرتغالية في شرقي إفريقية مثل ممباسا، ومالندي، فأسره البرتغاليون هناك حيث أرسل إلى لشبونة عام ٩٩٨، ومات بالتعذيب.

بدأ النفوذ البرتغالي يضعف في منطقة الشرق ومنها عُمان، إذ احتلت إسبانيا البرتغال عام ٩٨٨، ومنع الإسبان البرتغاليين من التجارة مع هولندا التي انفصلت عن إسبانيا آنذاك، فبدأت هولندا تزاحم إسبانيا التي آلت إليها أملاك البرتغاليين وتقوّي الإنكليز وحلفاءهم الفرس ضد الإسبان أو البرتغاليين. وقد تفاهم الشاه عباس الأول الصفوي مع الإنكليز عام ٩٩٦، وتأسست شركة الهند الشرقية الهولندية في أمستردام عام ١٠٠٣، وأعقبتها

شركة الهند الشرقية الإنكليزية عام ١٠٠٨، وبدأت التجارة مع الشاه الصفوي عباس عام ١٠٢٤، غير أن البرتغاليين قد هاجموا صحار فتحوّلت إلى رماد وذلك عام ١٠٢٥ بمساعدة عمر بن حميد زعيم إحدى القبائل.

وعاد الفرس إلى صحار عام ١٠٣٣، ثم أخرجهم البرتغاليون منها، واستولى الفرس على هرمز من البرتغاليين بمساعدة الإنكليز عام ١٠٤٠، وأخيراً قوي أمر أهل عُمان بعد حكم اليعاربة، وفتحت مسقط عام ١٠٥٨، وبقي فيها ثمانية عشر نصرانياً أعلنوا إسلامهم بعد عام، ومنذ عام ١٠٦١ بدأ العمانيون يُغيرون على زنجبار ومستوطنات البرتغاليين في شرقي إفريقية.

اليعاربة:

في هذه الأثناء برزت أسرة اليعاربة التي تعود إلى أصل قحطاني كالأزد، وإن كان قدوم أصولها إلى عُمان سابق لمجيء الأزد، وكان ظهور هذه الأسرة جديداً على يد ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي الذي استطاع أن يطرد البرتغاليين من كل أنحاء عُمان باستثناء بعض المناطق المحصّنة مثل مسقط، ومطرح، وصحار.

وتوفي ناصر بن مرشد عام ١٠٥٠، وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي، وهو الذي استطاع أن يُنقذ مسقط من أيدي البرتغاليين، كما أخذ قائده سعيد بن خليفة قلعة الميزاني المشهورة في مسقط. وتوفي سلطان حوالي عام ١٠٩٠، وقام بالأمر من بعده ابنه بلعرب لكن لم يلبث أن اختلف مع أخيه سيف، وبدأت المنازعات بينهما حتى توفي بلعرب عام ١١٠٤ فصفا لسيف الجو، وقد عُرف بقيد الأرض، واستطاع أن يُنقذ ممباسا من يد البرتغاليين عام ١١١٢، كما نقل مقر الحكم من نزوى التي بقيت حتى هذا العام ١١١٢ قاعدة للسلطان إلى مسقط. وتوفي عام ١١٢٣، وخلفه ابنه سلطان الذي عُرف باسم سلطان الثاني، وتمكّن أن يستولي على البحرين من أيدي الفرس، وتوفي عام ١١٣١، وقام مكانه ابنه سيف الثاني أيضاً، غير أن عدي بن سليمان الذهلي قد بايع

مهنا أخا سيف عام ١١٣٤، وبينما كان مهنا في واحة البريمي إذ بابن عمه يعرب بن بلعرب يستولي على السلطة ولكن لا يستمر أكثر من عام إذ يعود الأمر لسيف الثاني عام ١١٣٥، وبعد أن قضى عامين في السلطة يقوم محمد بن ناصر ويستولي على مسقط، ويحكم ثلاثة أعوام ثم يتوفى فيعود سيف للمرة الثالثة عام ١١٤٠، ويبقى يقاوم الفرس بعد أن استدعاهم لدعمه ضد تمردٍ عليه. إذ دخلوا مسقط ولم تسقط قلاعها بأيديهم، وأرسل القائد الفارسي جزءاً من جنده لحصار صحار، ولكنهم اضطروا لترك الحصار والتخلّي عن مسقط وذلك عام ١١٥٢. إلا أن نادر شاه عاد فأرسل حملة أخرى عام ١١٥٤، استطاعت أن تدخل المدن العمانية كلها عدا صحار. وربما هذا كان سبباً في ظهور أحمد بن سعيد وتأسيس الأسرة البوسعيدية التي حكمت بعد انتهاء حكم اليعاربة عام ١١٥٤.

البوسعيديون:

وتنتمي هذه الأسرة إلى أحمد بن سعيد الذي بدأ حياته بالتجارة، واستطاع بحنكته أن يصبح حاكماً لمدينة صحار، وقد دافع عنها عند حصار الفرس لها، وكان معه في الحصار سلطان بن مرشد ابن عم الإمام سيف بن سلطان، وكان سلطان هذا مرشحاً للإمامة غير أنه قُتل في المعركة التي جرت أثناء الحصار الثاني لصحار عام ١١٥٦، واضطر أحمد بن سعيد أن يتصالح مع الفرس على أن يدفع لهم أتاوةً سنويةً، وعندما رحلوا عنه رفض الدفع، وتمكّن من إجلاء الفرس عن البلاد، وأعلن نفسه إماماً.

استقل في ممباسا محمد بن عثمان المزروعي عندما انتقل الحكم من اليعاربة إلى البوسعيديين فأرسل إليه أحمد بن سعيد خمسةً من أنصاره أظهروا خلاف إمام عُمان فأكرمهم المزروعي، ثم غدروا به، واستلم حكم ممباسا أحدهم، وهو سيف بن خليفة، وهرب علي بن عثمان المزروعي أخو الحاكم السابق من السجن الذي أُودع به، والتجأ إلى سفينةٍ بريطانيةٍ كانت في ميناء (مالندي)، وقوّى نفسه، واستطاع أن يعود إلى ممباسا، وأن

يقتل سيف بن خليفة، وبذا استقلت ممباسا عن عُمان عام ١١٦٠.

وحارب أحمد بن سعيد الفرس، وانتصر عليهم عام ١١٦٩ فمنحه الخليفة العثماني مصطفى الثالث إعانة شكرٍ سنوية على هذا الانتصار.

وانتقلت الإمامة إلى ولده الثاني سعيد عام ١١٩١ لأن ولده الأكبر هلالاً كان كفيفاً، أما أحمد بن سعيد فقد توفي عام ١١٩٥. وفي عام ١١٩٣ بدّل سعيد لقب إمام إلى سيد، ولم تطل أيام سعيد حيث توفي عام ١١٩٤، وخلفه ابنه حمد، وقد نازعه أعمامه. إذ اتجه عمه سيف إلى شرقي إفريقية، وحاصر ممباسا عام ١١٩٥ فطلب حاكمها نجدةً من ابن أخي سيف فجاءته، فاضطر سيف إلى ترك الحصار، واتجه إلى مدينة (لامو) حيث توفي هناك تاركاً ولداً اسمه بدر، وحكم حمد بن سعيد زنجبار في عام ١١٩٩.

أما عمه الصغير سلطان فقد ألزمه ابن أخيه حمد على مغادرة بلاد عُمان عام ١١٩٩ فالتجأ إلى مكران فأعطاه ناصر خان الأول ميناء «جواذر» غرب كراتشي الآن، فاستطاع أن يُقوّي نفسه، وأن يغزو ساحل عُمان عام ١٢٠٧، وأن يُسيطر عليه بمساعدة الغافريين، ويُعلن نفسه سلطاناً. أما ابن أخيه حمد فقد بقي إماماً في نزوى، ولم يقبل النفوذ الإنكليزي، على حين دعم الإنكليز سلطان مسقط (سلطان بن أحمد)، وبذا انقسمت البلاد بين إمام في نزوى، وسلطان في مسقط، وفاوض سلطان الإنكليز عن طريق ميرزا مهدي علي خان الفارسي عام ١٢٠٧، وأبعد نتيجة ذلك الفرنسيين والهولنديين من أراضيه.

وعندما وصل نابليون بونابرت إلى مصر واحتلها عام ١٢١٣ كتب إلى سلطان تيبو سلطان ميسور في الهند رسالة يدعوه فيها إلى التفاهم لتخليصه من الاستعمار الإنكليزي إلا أن هذه الرسالة وقعت في يد صموئيل ويلسون بالمخا في اليمن فكتب بذلك إلى الحاكم الإنكليزي في بوشهر، فكتب إلى بدر بن سيف بن أحمد نائب سلطان بن أحمد الذي كان في حرب مع القواسمة، ويُساعده الفرنسيون في ذلك، ومع ذلك فقد قبل مقيماً بريطانياً في مسقط، ورفض وجود مقيم فرنسي.

وتوفي سلطان بن أحمد عام ١٢١٩، وخلفه ابنه سالم غير أن ابن عمه بدر بن سيف بن أحمد الذي كان وصياً على سالم قد تمكّن من عزله، واستلام الأمر دونه، ولم يكن بدر محبوباً، واستمر في السلطة حتى عام ١٢٢٢ حتى استطاع ابن عمه سعيد انتزاع الأمر منه، ونفيه إلى لامو حيث توفي هناك، وقد شارك سالم أخاه سعيداً في السلطة ولكنه توفي بالفالج عام ١٢٣٦، وبقي سعيد وحده في السلطة حتى عام ١٢٧٣.

اشترك سعيد بن سلطان مع الإنكليز ضد القواسمة، ثم انضمّ إليهم سلطان بن صقر شيخ القواسمة الذي عزله السعوديون وولّوا مكانه ابن عمه حسين بن علي، كما أمكن الاستيلاء على رأس الخيمة حيث كان جابر بن رحمة زعيم القراصنة فيها، ثم قام بالهجوم على البحرين عام ١٢٤٤، ويُعدّ سعيد هو أول من أضاف لقب سلطان إلى لقب سيد.

وعندما أراد سعيد أن يزور زنجبار عام ١٢٤٤ ولّى مكانه ابن أخيه سالم، وفي الوقت نفسه دعا ابن عمه (هلال) لزيارته غير أنه غدر به واعتقله، فقامت ابنة عمه هلال بثورة لاعتقال أخيها، وعندما رجع سعيد من زيارته لزنجبار أطلق سراح ابن عمه.

ونازع سعيد ابن عمه الآخر حمود بن عزان بن قيس، وقد هاجم صحار، واستولى عليها، ثم استولى على كثير من ساحل عُمان، وفي عام ١٢٥٢ تنازل حمود لابنه سيف عن صحار، ولكنه ندم على ذلك ـ على ما يبدو ـ فحرّض خادم ابنه لقتل سيّده، ورجع حمود إلى حكم صحار عام ١٢٦٥.

توفي سعيد بن سلطان عام ١٢٧٣، وترك عدداً من الأولاد أما أكبرهم وهو هلال فقد توفي في حياة أبيه، أما الآخرون فكان الكبار منهم ثويني وماجد، وهما شقيقان، وقد اختلفا على التركة، فحلّ الخلاف بينهما نائب الملك في الهند اللورد كاننغ حيث أخذ ثويني عُمان، وأخذ ماجد أملاك عُمان في شرقي إفريقية.

حكم ثويني عُمان، وقد ثار عليه الإمام عزّان بن قيس الذي أراد أن يُعيد السلطنة إلى الإمامة، وهو إضافةً إلى أنه من أسرة بو سعيد فهو ابن عم السلطان وزوج ابنته أيضاً.

وفي عام ١٢٧٥ أرسل ثويني أسطوله للاستيلاء على أملاك أخيه ماجد في شرقي إفريقية لضمها إلى سلطانه، وإعادة توحيد الدولة غير أن حاكم بومباي قد أرسل سفينةً حالت دون سير أسطول ثويني، وأوقفته عند رأس الحدّ.

أما تركي بن سعيد فقد كان والياً على مدينة صحار، وتصالح مع أخيه ثويني وابنه سالم، واتجه ثويني وابنه سالم إلى زيارة صحار، وبينما كان تركي وأخوه ثويني معاً، توجّه عبد العزيز بن ثويني إلى عمه تركي، وأعلمه أن السلطان قد أصدر أمراً باعتقال تركي وإيداعه في السجن مباشرةً، وقيّده عبد العزيز بالحديد، وحمله إلى السجن، أما سالم الابن الأكبر لثويني فقد انطلق إلى غرفة أبيه وكان قد وصل إليه وقتله، وتسلّم السلطنة مكانه عام ١٢٨٣، واعترفت حكومة الهند بسالم سلطاناً على مسقط، ولم تقبل بتركي بن سعيد.

ولم يكن سالم محبوباً، فتمرّدت عليه القبائل في الداخل، وانتخبت عزّان بن قيس الذي استطاع أن يأخذ الحكم، ويدخل مسقط، ويضطر سالم إلى أن يُغادر البلاد إلى بندر عباس عام ١٢٨٥، وتوحّدت السلطنة والإمامة ولكن لمدة قصيرةٍ.

أما تركي فقد هرب من سجن ابن أخيه سالم بمساعدة حارس السجن، واستولى على مطرح، وهاجم أسوار مسقط، ولكن لم ينجح إذ أن التهديد الإنكليزي بعدم الاعتراف به قد أوقفه عند حدّه، إذ أن الإنكليز كانوا قد اعترفوا بسالم سلطاناً على مسقط خلفاً لأبيه ثويني، ثم تمّ الاتفاق على أن يحصل تركي على راتبٍ سنوي، قدره ٧٢٠٠ دولار من سالم سلطان مسقط، يؤخذ من معونة زنجبار لعُمان على أن يتخلّى عن الحكم، وركب البحر ومعه ابنه فيصل إلى جواذر، وقد عزل الوالي الذي عيّنه

عزّان بن قيس سلطان مسقط الجديد أو إمام عُمان. وبقي هناك حتى عام ١٢٨٩ حيث قوّى نفسه بما حصل عليه من أموال من زنجبار، وبمساعدة بعض رجال القبائل، وفي الوقت نفسه فقد دعمته بريطانيا فانتقل إلى عُمان، وهزم عزّان بن قيس، واستولى على الحكم عام ١٢٨٩، وبعد مقتل عزّان بن قيس لم يُنتخب إماماً حتى عام ١٣٣٢ عندما تمرّدت بعض القبائل في الداخل، واختارت سالم بن راشد الخروصي إماماً، وقد أحرز عدة انتصارات إذ استولى على نزوى، وبعض الجهات الثانية.

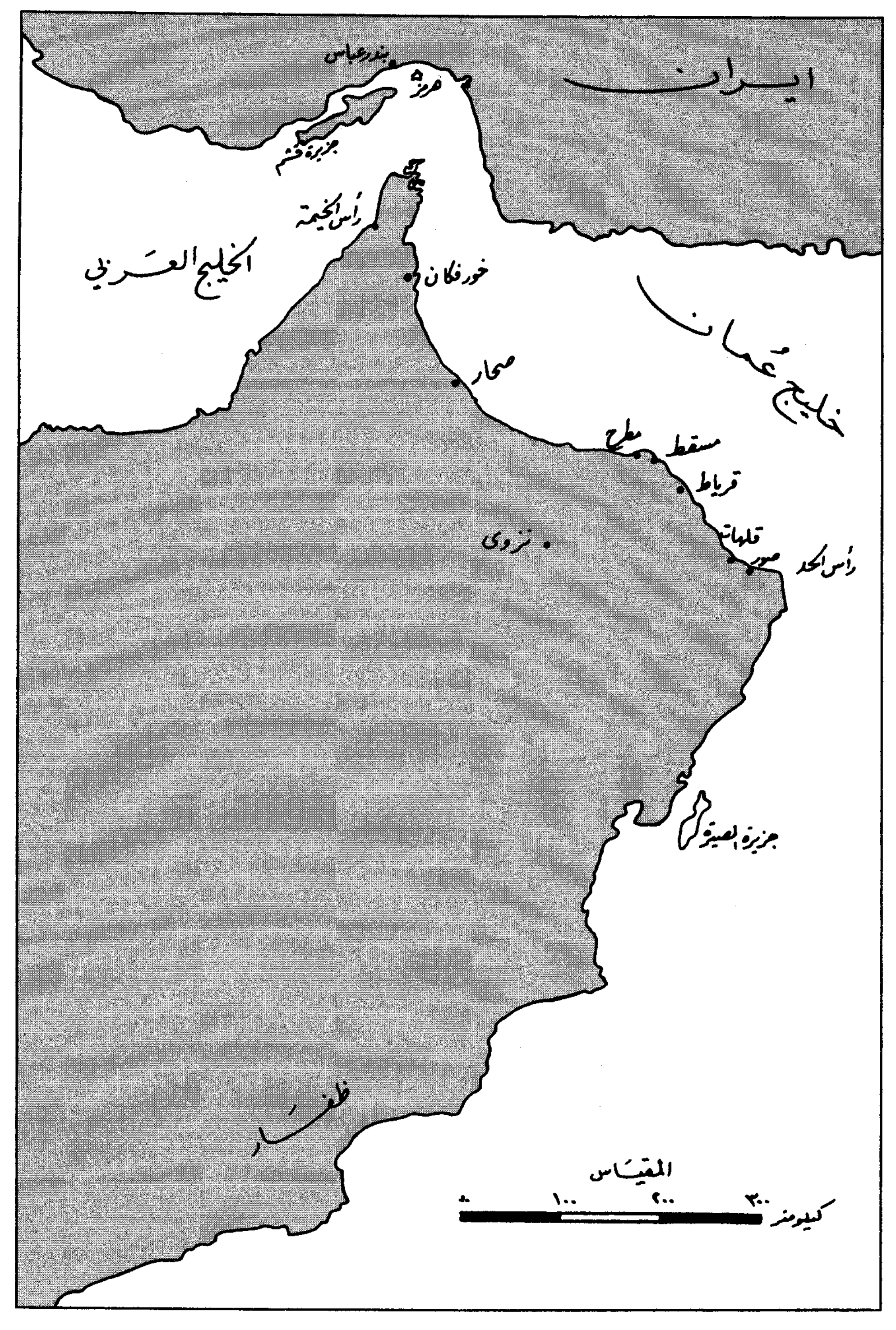
وفي عام ١٢٩٤ وصل إلى ظفار سيد فضل قادماً من مليبار في الهند، وتوصّل إلى بسط نفوذه بمساعدة قبيلة القراء التي دعاه رجالها عندما التقوا به في موسم الحج إلى بلادهم، فانفصلت ظفار عن عُمان، ولكن سيد فضل لم يلبث أن طُرد من البلاد، حيث استطاع سلمان بن سويلم قائد سلطان مسقط أن يُعيد ظفار لعُمان، واتجه سيد فضل إلى استانبول وكان مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، ولكن رجع ابنه محمد بن سيد فضل عام ١٣٠٤ على ظهر سفينةٍ بريطانيةٍ مع مائة رجلٍ من أتباعه إلى عدن، وحدثت اضطرابات في ظفار فطلب سليمان بن سويلم الدعم فأنجده السلطان بحملةٍ بقيادة ابنه فيصل، الذي رجع مع ثلاثين رجلاً من الكثيرين، وعندما أصبح فيصل سلطاناً أطلق سراح رهائنه.

وتوفي تركي عام ١٣٠٥ وخلفه نجله الثاني فيصل وأبعد ابنه الأكبر محمداً، بموافقة أهل العلم الذين أعجبتهم سيرة فيصل عندما كان حاكماً على نزوى، وفي أيامه زاد التدخل الأجنبي في البلاد.

وكان سلطان زنجبار برغش عمّ فيصل يسعى لإعادة الوحدة بين عُمان وزنجبار، وكان يمدّ عبد الله بن صالح بن علي بالمال والسلاح، وقامت محاولة لاغتيال فيصل عام ١٣١٣ على يد عبد الله بن صالح، واستطاع فيصل أن ينتقل إلى القلعة «الجلالي» كما وصل أخوه محمد إلى قلعة «الميزاني» وطلب المساعدة الإنكليزية ولكن لم يُلب طلبه، مما جعل العلاقة تفتر بين الطرفين بعد ذلك، ثم جاء أنصار السلطان، وتغلب على خصومه.

وأما في ظفار فقد ثار الكثيريون وقتلوا مسعداً نائب الوالي وابن أخيه مع أتباعه، فأرسل إليهم فيصل قوةً بحريةً بإمرة أحمد بن ناصر فأخمد نار الفتنة، وعاد سليمان بن سويلم من إجازته، وتوفي عام ١٣٢٥، وخلفه في إمرة ظفار بخيت، ثم عبد الله بن سلمان، ثم سعود بن علي من سلالة الإمام أحمد بن سعيد وذلك عام ١٣٤١هـ.

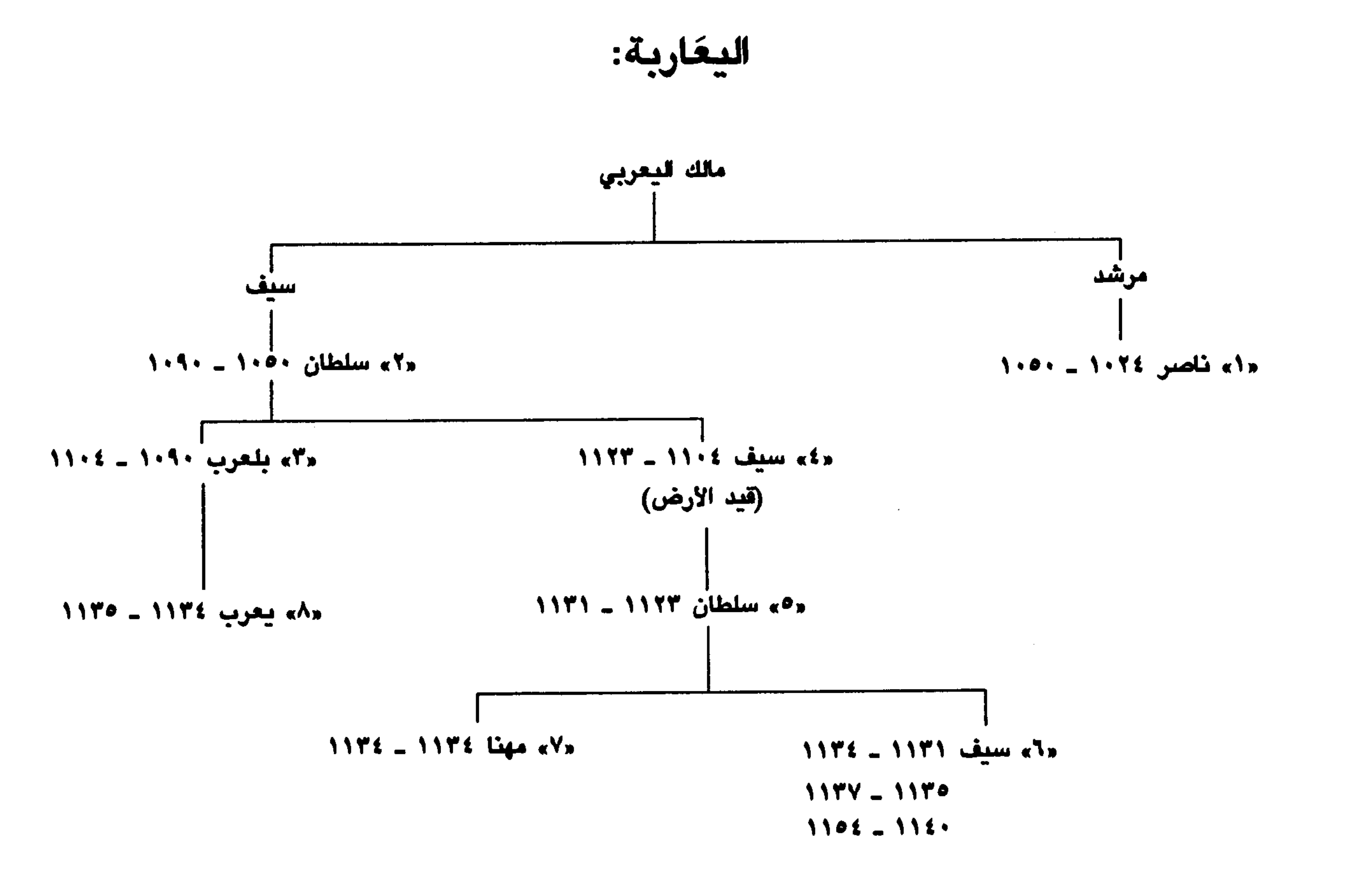
وتوفي فيصل عام ١٣٣٢ وخلفه ابنه تيمور، وقام الإمام سالم بن راشد الخروصي بشن غاراتٍ ضد تيمور، وكانت قوات الإمام بقيادة حِمْيَر بن ناصر. وجاء الإمام الجديد محمد بن عبد الله الخليلي، ولم يكن محبوباً من قبل السلطان تيمور أيضاً. وتوفي تيمور عام ١٣٥١، وخلفه ابنه سعيد وفي عهده سقطت الإمامة عام ١٣٩٠، ونُفي الإمام غالب بن علي الذي شكّل حكومة في المنفى، ولكن بقيت حتى حين.



ايران
بندرعباس
هرمز
جزيرة قشم
رأس الخيمة
الخليج العربي
خورفكان
خليج عمان
صحار
مسقط
مطرح
قرياط
قلهات
صور
رأس الحد
نزوى
جزيرة المصيرة
ظفار
المقياس
كيلومتر

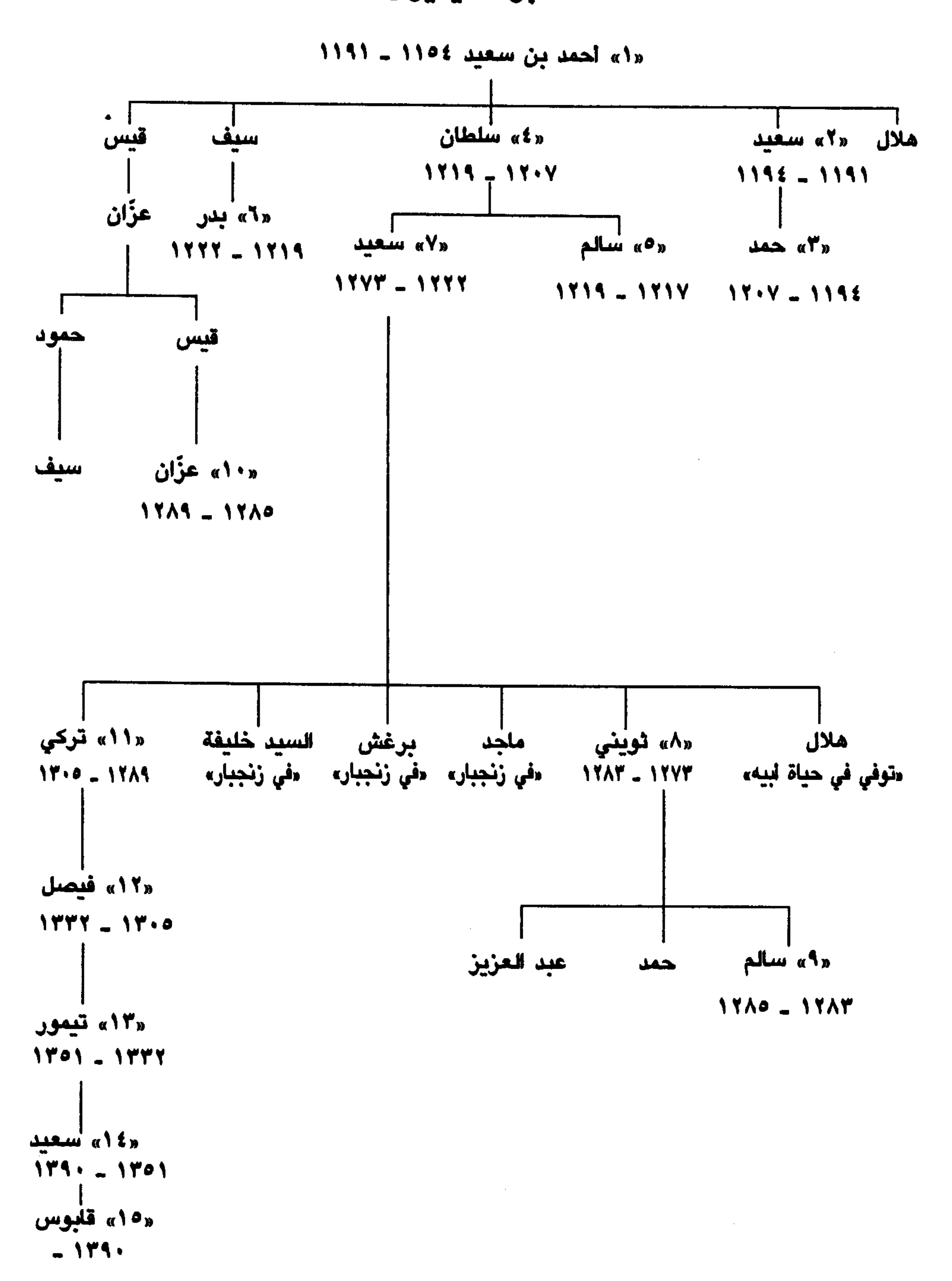
مصور رقم [٢٤]

اليعَاربة:

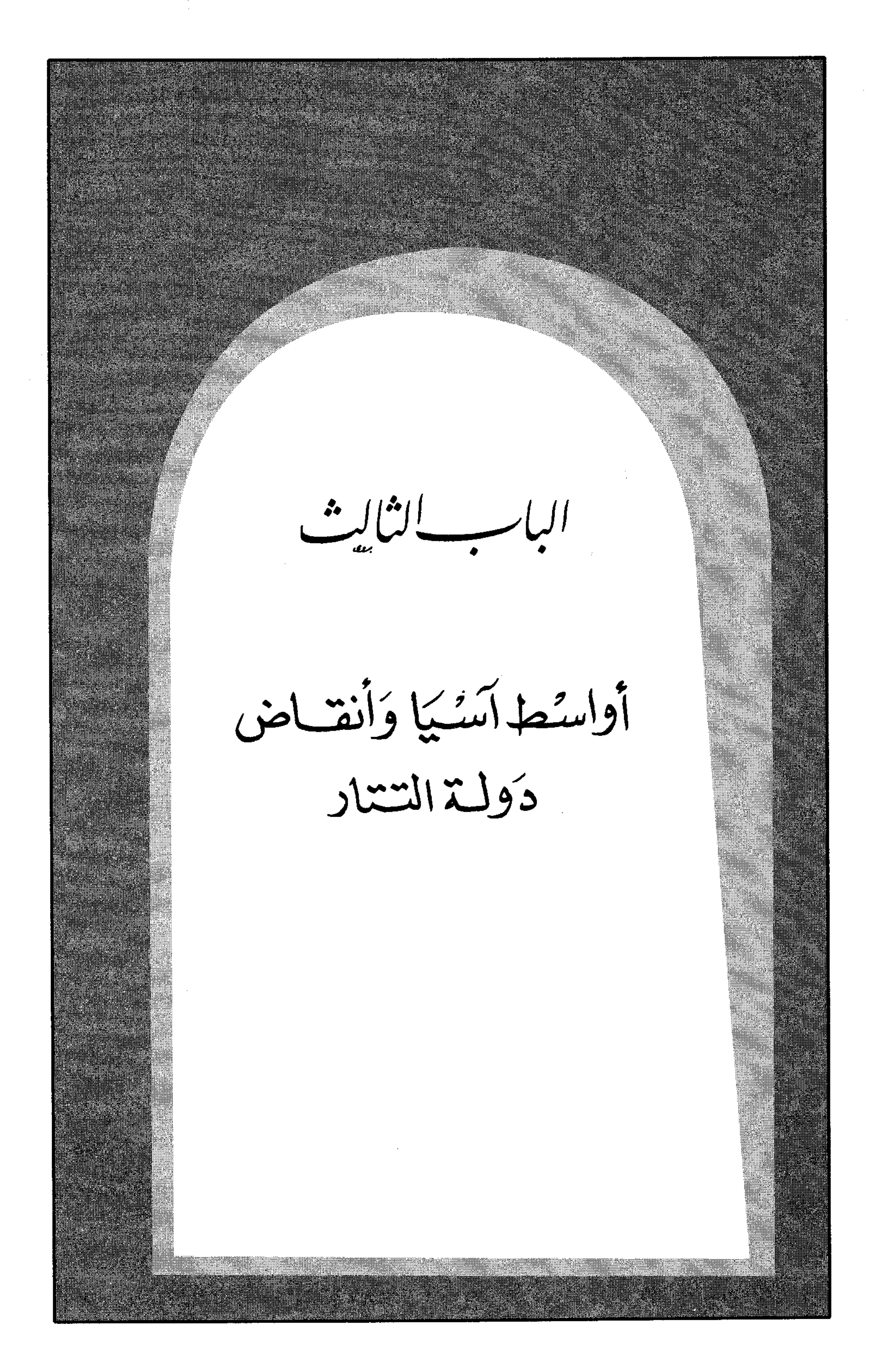


مالك اليعربي
مرشد
سيف
«١» ناصر ١٠٢٤ ـ ١٠٥٠
«٢» سلطان ١٠٥٠ ـ ١٠٩٠
«٤» سيف ١١٠٤ ـ ١١٢٣
(قيد الأرض)
«٣» بلعرب ١٠٩٠ ـ ١١٠٤
«٥» سلطان ١١٢٣ ـ ١١٣١
«٨» يعرب ١١٣٤ ـ ١١٣٥
«٦» سيف ١١٣١ ـ ١١٣٤
١١٣٥ ـ ١١٣٧
١١٤٠ ـ ١١٥٤
«٧» مهنا ١١٣٤ ـ ١١٣٤
«٩» محمد بن ناصر ١١٣٧ ـ ١١٤٠

البوسعيديون







الباب الثالث

أواسط آسيا وأنقاض دولة التتار



تمتد هذه المنطقة على مساحاتٍ واسعةٍ تقترب في اتساعها من قارة أوربا، وتقع في قارتي آسيا وأوربا. وكان تيمورلنك قد بسط سلطانه على معظمها، وإذا كانت هناك بقاع أخرى قد سيطر عليها تقع خارج هذه المناطق إلاّ أن هناك جهاتٍ ضمن هذه الأجزاء لم تخضع له، ولكن اتفق مع حكامها أو اعترفوا بحمايته لهم.

إن الدول التي نشأت في هذه المناطق لم تكن في حدودٍ ثابتةٍ معينةٍ وإنما كانت تتبدل باستمرار، فتتوسع الدولة أحياناً على حساب غيرها ثم تعود فتنكمش أو تضمر حتى تكاد تزول غير أنها لا تلبث أن تعود إلى التوسع، وهذا ما يجعل دراستها معقدةً لتداخلها بعضها مع بعض، وكذلك فإن الدول الحديثة التي قامت على أنقاضها لم تقم في رقعة ثابتة المعالم.

لقد قامت في هذه البقاع دولتان حديثتان هما: إيران وأفغانستان، أما بقية المناطق فقد سيطرت عليها روسيا وضمتها إلى امبراطوريتها الواسعة، وأنشأت فيها جمهورياتٍ اتحاديةٍ، وأخرى ذات استقلال ذاتي، وثالثة سمتها مقاطعات ذات استقلال ذاتي، ورابعةً ابتلعتها وعدّتها أجزاء من جمهورية روسيا الاتحادية بالذات، ومع هذه التقسيمات الغريبة القائمة في الامبراطورية الروسية إلا أننا نستطيع أن نرى ثلاثة أجزاء واضحة المعالم أحدها يقع في أوربا في القسم الشرقي منها، وإن نشأت فيه عدة دول، والآخر يقع بين أوربا وآسيا، وهو بلاد القفقاس، والثالث يشمل أواسط آسيا أو ما كان قديماً يُعرف باسم ما وراء النهر، وقامت فيه عدة دول أيضاً. هذا بالإضافة إلى أجزاء في الشرق ضمت إلى الصين الأمر الذي يزيد الموضوع تعقيداً.

وإذا كانت المناطق التي قامت فيها دول حديثة وهي أفغانستان وإيران يغلب عليها العنصر الفارسي، واللغة الفارسية، ولغة البشتو فإن الجهات التي يُسيطر عليها الروس والتي تقع في آسيا وفي أوربا يغلب عليها العنصر التركي أو التتاري أو التركي في آسيا والتتاري في أوربا وإن كان كلاهما يرجع إلى أصل واحد، أما منطقة القفقاس فتتعدد فيها الأجناس واللغات لدرجةٍ كبيرةٍ حتى لا يتجاوز عدد أفراد الجنس الواحد مئات الألوف أحياناً، ويشغل مساحة صغيرةً من الأرض أيضاً، وقد تكون لغته خاصةً به لا يعرفها أحد غيره من العالمين.

واستغلّ الروس هذه الاختلافات البشرية أو اللغوية فقسّموا المنطقة على أساسها، وفرّقوا بين أبنائها، وحالوا دون ارتباطهم بالعقيدة التي تجمعهم. وعملوا على تجزئتهم بكل إمكاناتهم، وأسكنوا الروس بينهم لمراقبتهم، واستثمار أرضهم، وأخذها لإبقائهم فقراء، ونهب خيرات بلادهم، وإضعاف نسبتهم أيضاً، وإفسادهم، ونقل المعلومات عنهم، وفي الوقت نفسه عملوا على التشكيك في الإسلام، وسلخ السكان من تاريخهم وحضارتهم مع المحافظة على كنيسة الروس الأرثوذكسية والارتباط بالتراث والتاريخ الروسي رغم حداثته. ومع التغيّر الاجتماعي جذرياً، والتطورات التي طرأت على المجتمع الروسي بعد تطبيق الشيوعية فإن السياسة واحدة لم تتغيّر ولم تتبدّل. والعمل ضدّ الإسلام لم يتحوّل وإن كان قديماً باسم الخلاف بين الدول فإنه الآن باسم الشيوعية التي تحارب الأديان ولكن يبدو أنها تحارب الإسلام فقط، ولم تصل الحرب إلى اليهودية والنصرانية بالدرجة التي وصلت إلى الإسلام حيث نجد اليهودية ذات نفوذٍ وجذور، والنصرانية يرغب الحكام أن يتحوّل الشعب كله إليها بل إلى المذهب الأرثوذكسي الذي تُعدّ موسكو مركزه الرئيسي، وذلك لتتمّ الوحدة الوطنية - حسب زعمهم -.

الفصل الأول

شرقي أوربا وسيبيريا الغربية

احتل المغول شرقي أوربا في أيام جنكيزخان، واستقلت أسرة جوجي بن جنكيزخان في حكم هذه المنطقة، وقد عرفت باسم القبيلة الذهبية أو مغول الشمال، ولم يلبث أبناؤها أن اعتنقوا الإسلام، وكانت حاضرتها مدينة سراي على نهر الفولغا، ثم انفصلت عنها القرم، وقازان، واستراخان. وبعد غزو تيمورلنك للمنطقة انفصلت سيبريا أيضاً.

زالت دولة سراي عام ٩٠٧ على يد خان القرم مكلي كراي، وأصبح يطلق على خانات أطراف الأورال (أوفا، وأورنبرغ) وعلى خانات بلاد ما وراء النهر أيضاً اسم «نوغاي». وأصبح لكل خان من خانات هذه المنطقة إمارة مستقلة، لها تاريخها المستقل، ويعيش كل خان في قصره لمصالحه الخاصة وشهواته التي لا حدود لها، وهذا ـ مع الأسف ـ ما عرفه الأوربيون أو الأجانب عامةً عن حياة المسلمين من حياة سلاطينهم أو خاناتهم هؤلاء فامتلأت نفوسهم كرهاً للإسلام إضافةً إلى حقدهم الصليبي الذي تفوح رائحته في كل تصرّفٍ من تصرفاتهم. ولم يكن من رابطٍ يجمع بين هؤلاء الخانات رغم أنهم من عقيدةٍ واحدةٍ، لأن أهدافهم المصلحية والشهوانية مختلفة، ولا يذكرون رابطة الإسلام إلا عندما تنزل بهم الضائقة، أما عدا ذلك فقد يلتقي بعضهم مع العدو اللدود لهم جميعاً وهم الروس ضد بعضهم الآخر ما دامت المصلحة الذاتية تتطلب ذلك، وكانت إمارة الروس قد بدأت تظهر حوالي عام ٨٨٦، وبدأت تقوى وتضرب بعضهم ببعض، وتسيطر على جزء بعد آخر، وهم يتقرّبون منها ويتنافرون فيما بينهم حتى ابتلعتهم جميعاً، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأقسام معاً.

أ - قازان:

كان يحكم قازان في بدء هذه المرحلة عبد اللطيف خان، وكان على وفاقٍ مع الروس، وقد توفي عام ٩٢٤، وخلفه أخوه محمد أمين خان، وطلب حاكم القرم محمد كراي أن يُعيّن أخوه صاحب كراي ولياً لعهد محمد أمين خان بصفته أخوه لأمه، ووافقت روسيا على ذلك بشرط أن يكون حاكم القرم خصماً لبولونيا، وأن تحارب روسيا خانية استراخان، وتمّ تنصيب صاحب كراي ولياً لعهد قازان على حساب مسلمي استراخان الذي ضحّى بهم صاحب القرم لمصلحته. وفي عام ٩٢٥ توفي محمد أمين خان نتيجة مرضٍ أصابه، ولم يعقب، فانقطع حكم أسرة ألوغ محمد خان عن حكم قازان بعد أن استمر أمرها بيدها مدة خمس وثمانين سنة، وبدأت خانية قازان تحتضر إذ لم يعد خاناتها يهتمون بها، واستمرت بعد ذلك أربع وثلاثون سنة ثم قُضي عليها. ولكن نقضت روسيا اتفاقها مع محمد كراي وعيّنت على قازان شيخ علي خان، وأبعد صاحب كراي.

أغارت القرم على بولونيا، وأحرزت النصر، وحصلت على كثيرٍ من الغنائم، وطلبت روسيا من الخليفة العثماني أن يحول دون هجوم محمد كراي أو إغارته عليها، فطلب الخليفة منه الاتجار مع روسيا وعدم التعدي عليها، وبإمكانه أن يُغير على بولونيا وليتوانيا للحصول على الغنائم. فلما توفي السلطان سليم عام ٩٢٦ أغار محمد كراي على روسيا، وجاس خلال أراضيها، ونال من الغنائم الشيء الكثير، فتوسلت روسيا من الخليفة سليمان القانوني الذي خلف أباه عن طريق وفدها الذي سافر إلى إستانبول لتهنئة الخليفة الجديد بالحكم، فطلب الخليفة من محمد كراي أن يمتنع عن الإغارة على روسيا، فردّ محمد كراي بأن روسيا عدوة للإسلام، وأنها تُحوّل المساجد إلى كنائس، وأنها تمدّ العجم بالمال والسلاح فلم يأبه الخليفة لهذا الكلام، وأصرّ على حاكم القرم بأن يُوقف هجماته واعتداءاته على الروس.

وفي عام ٩٢٨ تقدّم صاحب كراي بقوةٍ إلى قازان بعد اتصالات مع

رجالها، وتسلّم المدينة عنوةً، وقبض على شيخ علي خان، وأودعه السجن، كما قبض على الروس الذين كانوا في قازان، وعلى تُجّارهم، وأخذ أموالهم، ولم يقتل شيخ علي خان، وإنما عفا عنه، وأطلق سراحه، وسمح له بالانتقال إلى المكان الذي يريده بصفته من أسرة توقتاميش، فانتقل شيخ علي خان إلى موسكو وبذا أصبح يحكم القرم وقازان أخوان، وقد سارا لحرب الروس ومعهم جماعات من تتار النوغاي، كما تفاهموا مع بولونيا، وأحرز التتار النصر، ووقع الخوف في نفوس الروس، وفرّوا مذعورين إلى موسكو، فطلبت روسيا الصلح والعودة إلى دفع الجزية فوافق التتار ورجعوا إلى بلادهم.

أرسلت روسيا قوةً لحرب قازان، وجعلت إمرتها لشيخ علي خان، فوصلت إلى أطراف قازان، ولكن لم تتمكن من دخولها وذلك عام ٩٣٠، ولما تأكد صاحب كراي من ضعفه أرسل إلى الخليفة العثماني سليمان القانوني يطلب منه أن تكون خانية قازان تابعةً للدولة العثمانية فوافق الخليفة، ولكن لم يرسل له قوةً تحميه من تعديات الروس، وإنما أخبر روسيا عن طريق سفيره في موسكو بتبعية قازان له بناءً على طلب خانها فأجابت روسيا أن خانية قازان تتبعها منذ مدة ولا يحق لصاحب كراي أن يتصرّف إلا بما تحت يده، وأرسلت قوةً عظيمةً ضمّت ليتوانيين ونمساويين بجانب الروس لتضمّ قازان إليها، وتطرد صاحب كراي منها لتؤكد ما ادعته، ولتسبق العثمانيين إليها، وأحسّ صاحب كراي بذلك فغادر مدينته بحجة الذهاب إلى السلطان العثماني والمجيء بمددٍ من عنده، وولّى مكانه ابن أخيه صفا كراي بن محمود كراي، وهو صغير، فحشد أهل قازان طاقتهم، وجمعوا إمكاناتهم، واستعدّوا للروس الذين وصلوا إلى مقربةٍ من قازان، وأقاموا معسكرهم هناك، فعمل أهل قازان على إحراق المؤن والمواد في أطراف مدينتهم كي لا يستفيد منها الروس، وبعد أشهر رجع الروس إلى بلادهم دون الحصول على نتيجة، ولكن من شدة الخوف الذي أصاب أهل قازان ولم يكن يعلم به الروس فقد أرسلوا وفداً إلى موسكو

لعرض التبعية الاسمية لها وهم لا يعلمون أيضاً ما أصاب الروس من ذعر أثناء إقامتهم قرب قازان، فوافقت موسكو على قبول تبعية قازان لها، وأخذوا رهائن من وفدها.

وفي عام ٩٣٦ أرسلت موسكو وفداً إلى قازان لتجديد عهد الصداقة فتمّ ذلك، ثم أرسلت مندوباً لها ليقيم في قازان بصورةٍ دائمةٍ ليراقب تحركات التتار بها، غير أن هذا المندوب قد أساء التصرف في المهمة التي سار من أجلها لهدفٍ أو قصدٍ يريده إذ أخبر دولته أن خان قازان صفا كراي يكره الروس غير أنه مضطر للسكوت أمام رعاياه الذين يُفضّلون السلامة، ولكنه استطاع في الآونة الأخيرة أن يستميل السكان إلى جهته، وأن يستعّد للقتال، وقد احتقر المندوب عندما وصل إليه، ونال من دولته ، لهذا يرى المندوب نفسه مضطراً للعودة فاستعدت روسيا للقتال بعدما سمعت هذا من مندوبها، ووصل الخبر إلى خانية قازان فاستعدت أيضاً للحرب، وجاءها ثلاثون ألف مقاتل من النوغاي بقيادة مماي خان صهر صفا كراي، وجاء الهجوم الروسي مفاجئاً وتمكّن الغزاة أن يقتلوا ستين ألفاً من القازانيين، واستأسد أهل البلاد للدفاع عن مدينتهم وانتصروا على الروس الذين طلبوا الصلح، ورجعوا إلى بلادهم، ووبّخ الروس قائدهم وعدّوا انسحابه خيانةً، واتهموه بأخذ المال من أهل قازان مقابل انسحابه، وانطلق وفد من قازان إلى موسكو لعقد الصلح الذي تمّ فاتفق مع موسكو على أن يُعاد أسرى الروس وما غنمه أهل قازان منهم، وأن يُعطي أهل قازان العهد، ولكنه اختلف على تسليم موسكو ما أخذه جنودها، وإطلاق سراح ما لديها من أسرى إذ عدّت موسكو أن هذا لم يُبحث في الاتفاق، وإنما الذي تمّ من جانبٍ واحدٍ لذا رفضت الاتفاق وقبضت على أعضاء الوفد القازاني وهم من كبار الأمراء، وعدتهم رهائن لديها، ولما ضغطت عليهم عادت فاتفقت معهم من جديد على إقصاء صفا كراي عن حكم خانية قازان وتسييره إلى المكان الذي يريد، وتسليم جان علي خان أخي شيخ علي خان إمرة خانية قازان، وبناءً على هذا

الاتفاق رجع صفا كراي إلى القرم، وأصبح يُحرّض عمه على حرب روسيا والإغارة عليها.

عاد أهل قازان فخلعوا خانهم جان علي خان وقتلوه، ودعوا صفا كراي ليعود إلى منصبه خاناً عليهم فرجع إليهم وزوّجوه أرملة الخان السابق جان علي خان ابنة الميرزا يوسف أحد زعماء النوغاي وذلك عام ٩٤٢، فأرسل الروس قوة إلى قازان لتؤدّب أهلها على ما فعلوه ـ على زعمهم ـ إلا أن هذه القوة قد هزمت وتعقّبها التتار يقتلون منها ويأسرون، ثم عاد الروس فأرسلوا قوّة أخرى أكبر من سابقتها فتمكّنت من إحراز النصر على التتار، وأسرت الكثير منهم، وحملتهم إلى موسكو حيث قُتلوا هناك.

وسار أهل قازان عام ٩٤٧ من جهتهم وأهل القرم من جهتهم لغزو الروس غير أنهم لقوا مقاومةً عنيفةً فاضطروا إلى العودة. وطلب صفا كراي بعقد الصلح مع الروس فرفضوا ذلك.

وسارت روسيا إلى قازان عام ٩٥٣، ووصلت جيوشها إلى أطراف قازان فأحرقت، ودمّرت بعض الأبنية فيها، وأخذت الأسرى، وعاثت في الأرض فساداً دون أية مقاومة، فرجعت بعدئذ الجيوش الروسية ولم يُصب أحد منهم بكلم، فعدّ صفا كراي هذا خيانةً من أمرائه فقتل بعضهم، ونفى بعضهم الآخر، فمالت النفوس عن الخان، وكاتب الأمراء الروس، وطلبوا منهم الدعم لإخراج صفا كراي وأمرائه من القرم من خانية قازان، فأمرتهم روسيا بالقبض على صفا كراي أو إخراجه أولاً ثم تكون المساعدة، فهمّ الأمراء بالقبض على صفا كراي إلا أنه أحسّ بالمؤامرة فخرج من قازان، وأقام عند النوغاي ليكون على مقربة من مسرح الأحداث. ووقعت أحداث دامية في قازان بين أمراء قازان وأمراء القرم وذهب ضحية ذلك أعداد كبيرة. وطلب بعض أمراء قازان من روسيا تعيين شيخ علي خان أميراً على قازان، فوافقوا وجاء الأمير الجديد غير أنه لم يكن محبوباً من قبل الشعب بل ولا من قبل الأمراء، وإنما طلبوه ليكون صورةً ويكون لهم الأمر من دونه وبالفعل فقد حجروا عليه، وسجنوا أنصاره، وأصبحت الإمارة مهزلةً

فرغب الشعب بإعادة صفا كراي كي يتخلّصوا مما هم فيه، وأحسّ شيخ علي خان بما يُدبّر فهرب إلى موسكو، ورجع صفا كراي إلى قازان خاناً، ولكنه لم يعد يثق بأهل قازان، ووقعت الجفوة بين الحاكم والمحكوم، ومتى تمّ هذا بدأت البلاد تسير نحو الهاوية، إذ لا يمكن إحراز النصر، ولا الإخلاص في العمل، وفرّت أعداد إلى موسكو، وسار الجرامشة إلى روسيا يطلبون صداقتها والعمل معاً على حرب قازان، وسار ايڤان الرهيب أمير موسكو لحرب قازان في أواخر عام ٩٥٣ لكنه رجع خائباً.

توفي صفا كراي عام ٩٥٦، وبقيت قازان دون خان، فأقام الأمراء مكانه ابنه الطفل أوده ميش خان، وطلبوا من عمّ أبيه صاحب كراي خان القرم إرسال خان قوي لهم ولعله يكون ابنه بولك كراي، وفي الوقت نفسه طلبوا من ايڤان الرهيب الصلح فلم يستمع إلى طلبهم بل سار إليهم عام ٩٥٧، ولكنه رجع عنهم دون أن يدخل مدينتهم رغم أنه كان بإمكانه ذلك بعدما أحرزه عليهم من انتصارات ولعله شعر بنفسه أنه لا يستطيع البقاء فيها أو أن الحرب في داخلها ستكون عليه وخيمة النتائج.

وكتب الخليفة العثماني سليمان القانوني إلى أمراء نوغاي يُشجّعهم على إنقاذ قازان من براثن الروس غير أن عدداً من أمراء التتار كانوا يقيمون في موسكو ويأتمرون بأمر الروس إضافة إلى تنازع أمراء التتار في دويلاتهم المتعددة يجعل عدداً منهم مع الروس. وجاء من النوغاي إلى قازان محمد خان ياذكار فنصبوه خاناً عليهم. وتقدم أهل القرم دعماً لقازان ثم رجعوا.

جرى التفاهم بين أمراء قازان وأمير موسكو ايڤان الرهيب، ويخرج بمقتضى هذا التفاهم الخان الصغير اوده ميش كراي مع أمه ليقيم في موسكو، ويُغادر أمراء القرم قازان، ويرجع شيخ علي خان حاكماً لقازان، وتمّ ذلك ومع مسير أمراء القرم إليها خارجين من قازان تعرّضت لهم القوات الروسية وأخذتهم أسرى إلى موسكو حيث قُتلوا هناك. ورغم هذا الاتفاق الذي نُفّذت بنوده من قبل أمراء قازان فإن ايڤان الرهيب قرر أن ينتهي من مشكلة قازان، وأن يضمّها إلى روسيا نهائياً ويبتلعها، فسار إليها

عام ٩٥٩ ودخلها دون قتال، ولكن عظم ذلك على أهل قازان عندما رأوا تصرّفات الروس فقاموا يُقاتلون الغُزاة وجرت حروب ضارية ولكن لم ينفع ذلك شجاعة، فالخان من أنصار الروس، والروس كلهم من الجند مسلحين ومستعدين وأصبحوا في داخل البلد، على حين أن أكثر سكان المدينة كانوا على غير تفاهم بالنسبة للقتال لأنهم لم يتوقّعوا ذلك، وبعضهم عُزّل، وهم من النساء والأطفال والمسنين، وضمّت بعدها خانية قازان إلى روسيا. . . وبعدها تصرف الروس التصرف القذر، الذي يرى الإنسان محاكم التفتيش في الأندلس أمام هذا التصرف بسيطة فارتكاب المنكرات، وتحويل المساجد إلى كنائس، والاعتداء على الأملاك، وإهانة المقدسات، والعمل على تنصير السكان. . . وصبر مع ذلك التتار وتحمّلوا الكثير، وظلّوا على عقيدتهم.

ب ـ استراخان:

وتسمى حاج طرخان، وعرفت قديماً باسم «آتل»، و«بلنجر»، وقد انفصلت عن مملكة تتار الشمال أو القبيلة الذهبية، وكانت في هذه المرحلة على خلاف مع خانات القرم، كما أنها تعدّ من ألد أعداء الروس. وكان مكلي كراي خان القرم يحرّض الروس عام ٩١٣ لإرسال جيوش إلى استراخان وتدميرها. ومع بدء هذه المرحلة كان خان استراخان حسين خان بن أومير شاه جان بك خان، ولا يرغب أبداً التفاهم مع الروس ولكنه لا يستطيع أن يحمي نفسه من محمد كراي بن مكلي كراي خان القرم.

قام محمد كراي عام ٩٢٨ بالتفاهم مع مماي خان نوغاي بالهجوم على استراخان والاستيلاء عليها، وطرد حسين خان منها، غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت إذ قتل محمد كراي عام ٩٢٩ على يد أبنائه، وتسلّم أحدهما مكانه، وبعد ستة أشهر تسلّم سعادت كراي أخو محمد كراي خانية القرم حيث عينه عليها الخليفة العثماني سليمان القانوني، فكتب سعادت كراي إلى الروس يُهدّدهم بأن التتار يحيطون بهم، وهم على وفاق

فاستراخان عليها حسين خان، وهو صديق له، وصاحب كراي يحكم قازان، وهو أخي و...

وقام الشراكسة بالهجوم على استراخان عام ٩٣٨ وقتلوا قاسم خان، ونصّبوا مكانه آقو بك خان، وبقي حتى تسلّم أمر الخانية عبد الرحمن خان عام ٩٤١، وقد وافق على التعاون مع روسيا بناءً على طلبها خوفاً من خانات القرم ونوغاي، ومع هذا فلم يسلم من خصومه إذ هاجم النوغاي استراخان وتمكّنوا من الاستيلاء عليها فهرب منها عبد الرحمٰن خان، فأجلسوا مكانه درويش علي خان، ولكن لم يلبث أن حلّ مكانه حيدر خان ابن الشيخ أحمد خان الذي خلع أيضاً عام ٩٤٨، وعُيّن آق كباك خان بن مرتضى خان بن أحمد خان الذي لم يلبث سوى عاماً أيضاً حتى قتله يمغورجي خان بن بردي بك بن سلطان بن مرتضى خان.

استولى صاحب كراي على استراخان عام ٩٥٨، وخرج منها يمغورجي، فتولّى أمرها درويش علي خان للمرة الثانية، وما أن انسحب صاحب كراي من استراخان حتى رجع يمغورجي إليها، وخلع درويش علي خان. واستطاع يمغورجي أن يتفق مع خان القرم الجديد دولت كراي وأمير النوغاي مرزا يوسف، واستغل ايڤان الرهيب هذا الاتفاق للقيام بهجوم كاسحٍ على استراخان وقد شجعه على هذا الهجوم أيضاً زعيم النوغايَ الآخرَ مرزا يوسف، فطلب ايڤان أن يخرج من استراخان يمغورجي وأن يعود إليها درويش علي خان الذي خلعه يمغورجي وما هذا الطلب إلا لإيجاد حجة للهجوم على استراخان، ولما رفض هذا الطلب أرسل ايڤان عام ٩٦٢ جنوده نحو استراخان بقيادة مرزا إسماعيل، فاستولى عليها، وفرّ يمغورجي مع عشرين من أتباعه إلى مدينة آزاق (آزوف)، وقُبض على أهله من بعده وحُملوا إلى الخان الجديد درويش علي خان، فأقسموا على طاعة ملك الروس ايڤان.

وقع درويش اتفاقيةً مع الرّوس تنصّ على ألا يقيم الروس خاناً مكانه بعد موته، أي تصبح خانية استراخان تابعةً لروسيا بعد موت درويش خان،

وإذا حدث ونصّبوا خاناً فإنما يكون تابعاً لموسكو، ويحق للروس صيد السمك في نهر الفولغا كالتتار، ولكن لم يبق درويش خان على عهده مع الروس بل اتفق مع دولت كراي خان القرم بأن جعل أحد أبنائه ولياً لعهد استراخان، فأرسلت روسيا جيشاً عام ٩٦٥ استولى على استراخان، وهرب منها درويش خان إلى آزاق، وضمّ الروس استراخان إليها نهائياً، وأسكنوا فيها أعداداً من أبناء جنسهم، وحوّلوا أكثر مساجدها إلى كنائس. وفي منتصف القرن الحادي عشر الهجري طرد الروس من استراخان زعماءها من التتار، فاتجه بعضهم إلى بخارى.

جـ ـ سيبريا:

أعطى باتو بن جوجي بن جنكيرخان أخاه شيبان شرقي الأورال فتأسست إمارة لشيبان وأبنائه في شرقي الأورال عام ٦٤٠، وكان مقرها قلعة سيبير، وتوالى عليها أبناء شيبان حتى القرن العاشر.

وفي عهد قوتشم خان ٩٧٧ ـ ٩٧٨ استولى على إمارتهم يرمق بن تيما في عام ١٠٠٣، وكان ضعيفاً فباعها إلى روسيا، وأما قوتشم خان فقد انتقل إلى بلاد الباشغرد الذين مقرهم أوفا، وعاش هناك، ومات بين الباشغرد، وقام ابنه علي خان عام ١٠١٧ يعمل على استرجاع بلاده فلم يفلح، وكذلك كان نصيب أخيه ايشم خان من بعده.

وعندما قضى الروس على قازان عام ٩٥٩، وعلى استراخان عام ٩٦٥ بدؤوا يتقدمون نحو الشرق فقضوا على النوغاي المنتشرين في أطراف الأورال وغربي سيبيريا، ومن مراكزهم أورنبرغ وأوفا، كما قضوا على خانات من فرع شيبان في سيبيريا والذين عرفوا باسم قياصرة تيومين. وبذا انتهى الروس من شرقي أوربا وسيبيريا الغربية، ولم يكتفوا بذلك بل تابعوا زحفهم.

د ـ القرم:

منذ أن طرد السلطان محمد الفاتح الجنويين من سواحل القرم عام

٨٨٠ حيث كانت لهم بعض القلاع الحصينة دخل خانات القرم تحت الحماية العثمانية، فكانت القرم تعدّ موقعاً متقدماً للعثمانيين، كما أن خانات القرم كانوا يُقدّمون الجند للمشاركة في الحملات العثمانية.

كان يحكم القرم في مطلع هذا العهد محمد كراي الأول الذي ورث الحكم عام ٩٢١ عن أبيه مكلي كراي، وكان ذا قوةٍ وشكيمةٍ يُغير على روسيا وينقضّ على بولونيا، وفي عام ٩٢٢ دخل بلدة تولا جنوب موسكو وعلى بعد مائةٍ وخمسين كيلومتراً منها، وانتشر التتار في ولاية رزان حول تولا. ونصّب أخوه ولياً لعهد قازان، ولما حالت روسيا بين هذا المنصب وبين أخيه صاحب كراي زادت غاراته على روسيا حتى اضطرت روسيا أن تتوسل إلى الخليفة العثماني بمنع هذه الغارات فمنعه السلطان سليم الأول، فلما توفي السلطان سليم رجع إلى غاراته فعادت روسيا ترجو الخليفة الجديد فحال بينه وبين غاراته على الرغم من تبرير محمد كراي لهذه الغارات بأن روسيا تعمل على حرب الإسلام والمسلمين وتُهدّم المساجد، إضافة إلى مدّها للعجم بالمال والسلاح، وبهذا فقد انقطعت هذه الغارات عن روسيا ولكنها استمرت على بولونيا، ويمكن أن نقول: إن حياة سكان القرم الأولى إنما كانت على الغنائم من هذه الغارات.

وفي ٩٢٨ أرسل أخاه صاحب كراي بقوةٍ إلى قازان فاحتلها، وبذا أحاط روسيا من الشرق والجنوب، كما أكمل التطويق بضمّ استراخان إليه عام ٩٢٩، كما كان يرغب في ضمّ النوغاي، وسيبيريا بل وخوارزم كي يتمكن من مواجهة الروس بشكل قويٍ غير أنه قُتل في ذلك العام بيد ولديه (غازي) و(بابا)، واستلم غازي أمر الخانية، وكان أخوه بابا وزيراً عنده ومستشاراً له، ولكن السلطان العثماني لم يرض عن هذا الانقلاب الذي حدث، لذا فقد عيّن خاناً من عنده على القرم، وهو سعادت كراي أخو محمد كراي، وقد كان يُقيم في إستانبول، ووصل سعادت كراي إلى القرم، واستلم أمرها، ولما مشت الأمور بشكلٍ طبيعيٍّ، وأمن أولاد محمد كراي عمهم، قبض سعادت كراي على غازي وبابا وقتلهما بعد ستة أشهرٍ من استلامه الأمر.

وفي عام ٩٣٨ أخذ الإمارة عنوةً إسلام بن كراي، وفرّ عمّه من البلاد، وهذا ما أزعج الخليفة العثماني لذا فقد ضمّ القرم إلى الدولة العثمانية مباشرةً، وإن أبقى إسلام كراي فيها كوالٍ عليها. ولكن صاحب كراي بعد مدةٍ قام على ابن أخيه إسلام كراي وقتله، وقام بالأمر مكانه، ويبدو أن هذا كان برأي العثمانيين، وعاد الصراع مع روسيا وخاصةً أن حاكم قازان هو صفا كراي بن محمود كراي بن مكلي كراي أي ابن أخي صاحب كراي بل هو الذي وضعه في ذلك المنصب قبل أن يُغادر هو قازان، كما استولى صاحب كراي على استراخان عام ٩٥٨، وكل هذه المرحلة كانت الأوضاع مستقرةً في القرم، وحرب روسيا تقع بين المدة والمدة، فقد هاجمت القرم بقيادة صفا كراي وعمه قالغاي إسلام كراي ولاية رزان الروسية عام ٩٤٠، كما قام صاحب كراي على روسيا عام ٩٤٧، ولكنه وجد مقاومةً عنيفة فرجع، وقاد في العام الثاني ١٥٠ ألفاً من التتار والعثمانيين والنوغاي ولكنه هزم، وغنم الروس المدافع العثمانية بعد أن عبر صاحب كراي نهر الدون إلى أعدائه.

وفي ٩٥٨ تولّى أمر القرم دولت كراي فتفاهم مع خان استراخان الذي رجع إليها منذ أن غادرها صاحب كراي ومع أمير النوغاي المرزا يوسف. وكان دولت كراي في إستانبول فأرسله الخليفة العثماني، وطلب منه قتل صاحب كراي الذي شُغل عن قازان باحتلاله استراخان، كما طلب منه العمل لتخليص قازان من روسيا، ولكنه لم يستطع أن يقوم إلا بالمهمة الأولى، وهي قتل صاحب كراي. وبقي دولت كراي بن مبارك كراي في منصبه حتى عام ٩٨٥.

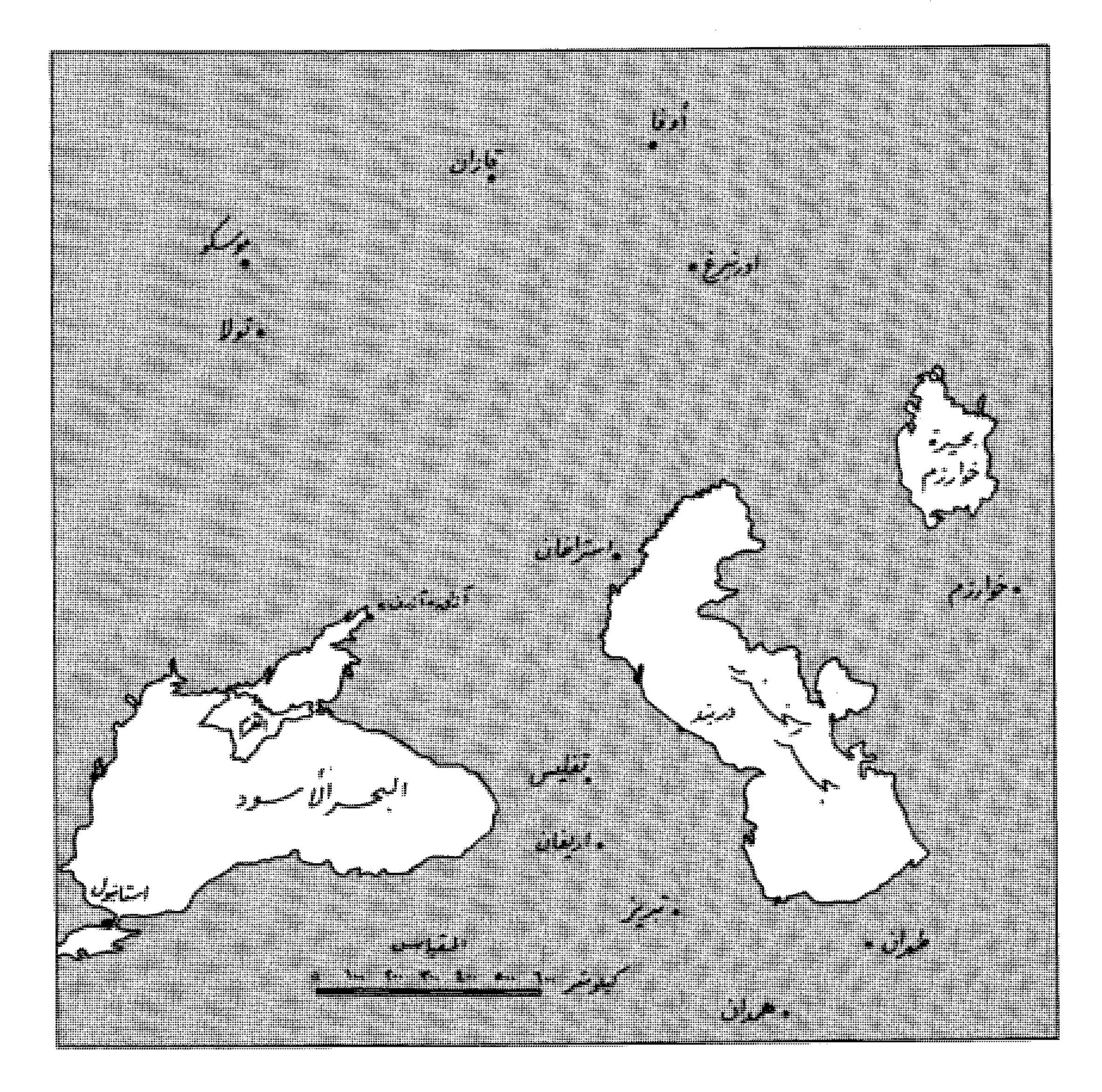
تسلّم خانية القرم عام ٩٨٥ محمد كراي الثاني، وقتله إسلام كراي الثاني عام ٩٩٢ إذ أن عثمان باشا قائد الجيش العثماني قد وعده بحكم الخانية إن ساعده، ففعل، وقتل سلفه، واستلم الأمر، وأصبح خانات القرم بعدئذٍ ولاةً عثمانيين يُولّون من إستانبول ويُعزلون منها. وإن كانوا من أسرةٍ واحدةٍ لا يتعدونها.

وفي عام ١٠٨٢ أعلن القوزاق في أوكرانيا تبعيتهم للدولة العثمانية،

وعندما أغارت عليهم بولونيا أمدّهم السلطان العثماني محمد الرابع، فانتصروا، ووُقّعت معاهدة مع بولونيا اعترفت فيها أن أوكرانيا للقوزاق، وأن إقليم بودوليا في غربي أوكرانيا هو للدولة العثمانية وذلك في عام ١٠٨٣. وتوفي الصدر الأعظم أحمد كوبريلي عام ١٠٨٧، وخلفه في الصدارة صهره قره مصطفى فلم يُحسن التصرّف فأثار القوزاق فثاروا ضد العثمانيين، وبدأت روسيا تمدّهم وتساعدهم، وعندما جرت الحرب بين العثمانيين والروس كان القوزاق أميل للروس منهم إلى العثمانيين وذلك عام ١٠٨٨، وعندما عقدت معاهدة الصلح بين الطرفين مال القوزاق إلى الروس لسوء تصرّف الصدر الأعظم قره مصطفى.

وعندما هُزمت الدولة العثمانية أمام النمسا، وعقدت معاهدة كارلوفتس فقدت فيها الدولة العثمانية آزاق (آزوف) لروسيا، كما تخلت عن أوكرانيا وبودوليا لبولونيا.

وفي عام ١١٢٥ بعد معاهدة أدرنة تخلّت روسيا عما كانت تدفعه من جزيةٍ لخانات القرم، وفي الوقت نفسه تخلّت أيضاً عن كل ما أخذته من سواحل البحر الأسود. ولكنها لم تلبث أن عادت واحتلت آزوف، واستطاعت تعيين شاهين كراي خاناً على القرم عام١١٨٦، غير أن دولت كراي الثالث قد تمكّن من العودة إلى الخانية مرةً ثانيةً عام ١١٨٩، وفرّ شاهين كراي إلى روسيا. وأرغم العثمانيون في معاهدة كوجوك قينارجة على استقلال القرم وحيادها. وعاد شاهين كراي إلى حكم الخانية عام ١١٩١، وبقي حتى عام ١١٩٧ حيث أعلنت روسيا ضمّ القرم إليها نهائياً. وعيّنت الدولة العثمانية خانين من العائلة القرمية وهما: شاهبار كراي عام ١٢٠١، وبختكراي عام ١٢٠٣ وقاما بحرب ضد روسيا، ولكن دون فائدة إذ غدت القرم مقاطعةً روسيةً.


أوفا
قازان
موسكو
أورنبرغ
تولا
بحيرة خوارزم
استراخان
خوارزم
تفليس
البحر الأسود
استانبول
تبريز
طهران
المقياس
كيلومتر

مصور رقم [٢٥]

الفصل الثاني

بلاد القفقاس

هي البلاد المحصورة بين بحر الخزر في الشرق والبحر الأسود في الغرب، وتُعدّ جبال القفقاس أو القوقاز عمودها الفقري، وهي تمتد من الشمال الغربي من المضيق الذي يفصل بحر آزوف عن البحر الأسود، بل تُعد مرتفعات القرم امتداداً لها، إلى الجنوب الشرقي حيث تمتد شبه جزيرة «ابشيرون» في بحر الخزر عند باكو، ويصل ارتفاع هذه الجبال إلى ٥٦٢٩م في الوسط في قمة «البروز»، وتُعد جبال القوقاز الحد الفاصل بين قارتي آسيا وأوربا. وتسمى السهوب التي تقع إلى الشمال منها بـ«دشت القفجاق» وتعني صحراء القفجاق، أما الأجزاء الجنوبية فهي تتمة لهضبة أرمينيا ومرتفعات أذربيجان.

أطلق العرب على هذه المنطقة اسم «القبج» و«القبجاق» والقفجاق، ويعيش في هذه المنطقة شعوب كثيرة أو مجموعات صغيرة مختلفة في أصولها متباينة في لغاتها، وهذا ما يشكل عقبةً في وحدتها، ولما كانت المناطق الوسطى منها والجنوبية وعرة لذلك كان سكانها مقاتلون أشداء وتساعدهم مواطنهم على التحصن بها. ففي الجهات الشرقية نلاحظ من الجنوب إلى الشمال الأكراد في أذربيجان، ثم شروان، والداغستان، والقوموق، وفي المناطق الوسطى الأرمن، فالكرج الذين جاءوا فيما بعد، واللان، واللزكي، وفي السفوح الشمالية الشاشان فالأنغوس، وفي الجهات الغربية الآجار والقبائل الشركسية حيث يُقيم الأوستين والقبرطاي في المرتفعات والأبخاز في الغرب والأديغة بقبائلهم المتعددة من أبزاخ،

وشابسيغ، وبزادوغ حتى بحر آزوف. ثم جاءت مجموعات من التتار واستقرت في المنطقة أثناء غزوهم لها، كما أقامت مجموعات أخرى من الأتراك مثل البلكار الذين يُقيمون شمال بلاد القبرطاي.

فتح المسلمون عام ٢٢هـ أذربيجان أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان قائد الفتح سراقة بن عمرو، وعلى مقدمته عبد الرحمٰن بن ربيعة الذي دخل باب الأبواب (دربند)، ودخل بالإسلام أهل أذربيجان، وشروان، والداغستان، والقوموق، وفي أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فتح المسلمون بلاد الأرمن، وبلاد اللان، ودخلوا تفليس، وكان سراقة بن عمرو يوجّه الفصائل إلى المواقع في تلك الجهات فتدخلها، ثم توسع الفتح على السواحل الغربية لبحر الخزر، ووصل المسلمون إلى بلنجر، وأصيب عبد الرحمٰن بن ربيعة وجاءت إمدادات بقيادة أخيه سليمان الذي أصبح والياً على المنطقة، وارتد الأرمن فبعث إليهم أمير الشام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، بأمر الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، حبيب بن مسلمة فوصل إلى تفليس ودخلها.

ومع توقف الفتح انتفض أمراء الأرمن، وطمع أمراء الخزر فهاجموا المنطقة، فدخل جيش المسلمين بلاد الخزر بإمرة ثبيت النهرواني، فانهزم المسلمون، فعزل يزيد بن عبد الملك ثبيت، وولّى مكانه الجراح الحكمي، وأمده بجيش كثيف، وطلب منه أن يغزو بلاد الخزر، ففعل وتمكّن من دخول باب الأبواب، وصالح الترك، واستمر الصراع مع الخزر مدة الحكم الأموي الذي استقر له الأمر في أرمينيا وأذربيجان.

واستمر الوضع أيام قوة العباسيين فلما ضعف أمرهم، تجزأت المنطقة فقامت حكومة في تفليس، وأخرى في منطقة الأبخاز، ثم غزا الخزر المنطقة عام ٤١٧، ودخلوا مدينة تفليس، ولكن السلاجقة عندما سيطروا على الدولة العباسية دانت لهم بلاد القفقاس عام ٤٦٥، ولكن ليست كل المنطقة التي تسمى اليوم بهذا الاسم وإنما الأجزاء الجنوبية منها، والشرقية، فالشرقية كانت مسلمة والجنوبية خليط من النصارى في بلاد الأرمن مع

المسلمين، وكذا شأن المرتفعات، وجاءت موجة أخرى من الخزر أو من الشمال، وكانت نصرانية، واستطاعت أن تسيطر على تفليس وكانت على النصرانية، وعرفت تلك الجهات منذ ذلك اليوم ببلاد الكرج، ويقصد بها بالفارسية بلاد القوة، وكانت حاضرتهم تفليس، وذلك في الوقت الذي ضعف فيه السلاجقة أو بالأحرى في نهاية القرن الخامس الهجري.

وجاء المغول، ودانت المنطقة لهم، ولما مات جنكيزخان كان دشت القفجاق وبلاد داغستان ضمن أملاك حفيده باتو أو مغول الشمال أو ما عرف باسم القبيلة الذهبية، على حين كانت الأجزاء الجنوبية تتبع أملاك ابنه الآخر تولوي الذي أسس ابنه هولاكو الدولة الإيلخانية، أو أن جبال القفقاس كانت الحد الفاصل بين أملاك الأسرتين المغوليتين، وكان الصراع بينهما، وهذا الصراع كثيراً ما كان على المنطقة الجنوبية التي هي أذربيجان، ومع ضعف المغول قامت إمارات في المنطقة وكانت صغيرة تتناسب والجماعات التي تنتمي إليها، وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تغير على أملاك خانية القرم، أو استراخان، أو مملكة سراي من قبل وكان دشت القفجاق هو ميدان الغزو.

وتمكّنت الدولة العثمانية أن تمد نفوذها إلى هذه المناطق ما دامت المناطق التي تقع إلى الشمال منها تحت سيطرة التتار المسلمين وهي القرم، واستراخان، وقازان و.... وهي إما تبعت العثمانيين مثل القرم أو أن الخوف من الروس الذين بدأ أمرهم يقوى بسرعة يهدد هؤلاء المسلمين الأمر الذي جعلهم يتجهون إلى العثمانيين خوفاً من الروس كرؤساء ومحبة للعثمانيين لإسلامهم كشعوب، وكان نفوذ العثمانيين قد شمل المنطقة بدءاً من عام ٩٨٢ أيام الخليفة مراد الثالث حتى عام ١٠٤٩ في أواخر أيام الخليفة مراد الرابع، وشمل بلاد أذربيجان، وداغستان، والقوموق، وأرمينيا، والآجار، والأبخاز، والأديغة، والكرج، والأوستين، والقبرطاي، والبلكار، ثم امتد إلى بلاد الشاشان والأنغوش، ومع وصول العثمانيين إلى تلك الجهات بدأ الإسلام ينتشر في المناطق التي لم يدخلها بعد مثل مناطق

الشراكسة (الأوستين، والقبرطاي، والأديغة، والأبخاز) ثم بلاد الشاشان والأنغوش.

كان خضوع هذه المناطق للعثمانيين اسمياً، وكان انتشار الإسلام عن طريق الدعوة من قبل بعض الرجالات، كما لا ننسى أن السكان وجدوا ضالتهم فيه حيث أنه دين الفطرة. ولما كان الصراع قائماً بين العثمانيين والفرس فقد دخل الصراع هذه المنطقة ومدّ الفرس نفوذهم أيام قوتهم على الأجزاء الشرقية مثل شروان، وأذربيجان، وداغستان، وبلاد الكرج، وإن كان سكان هذه المناطق أميل إلى العثمانيين بطبيعة أنهم من أهل السنة على حين كان الفرس على مذهب الشيعة الذي لم ينتشر إلا في أذربيجان وبعد خضوعها للفرس. واشتهر من مواقع العثمانيين في هذه الأجزاء ما كان على ساحل البحر الأسود آزاق (آزوف)، وأنابا، وباطوم.

وعظُمت قوة الروس، وبدؤوا يمتدون نحو الشرق، والجنوب الشرقي في بلاد التتار، وبعد أن دخلوا استراخان عام ٩٦٥ امتد نفوذهم حتى وصل إلى أطراف هذه الأجزاء أي ضموا إليهم ما يعرف باسم دشت القفجاق، وصاروا على حدود بلاد القوموق والأنغوش، والبلكار، والأديغة. وعندما جاء إلى حكم الروس بطرس الأكبر وضع نصب عينيه السيطرة على بلاد القفقاس، فلما ضعف الصفويون وتنازل الشاه حسين لمير محمد الأفغاني، أسرع الروس واحتلوا عام ١١٣٥ بلاد داغستان، وسواحل بحر الخزر الغربية، وإنقاذاً لجزء من هذه البلاد تقدم العثمانيون، ودخلوا أيضاً أرمينيا وبلاد الكرج، غير أن حاكم رشت الفارسي قد استنجد ببطرس الأكبر فأسرع لنجدته وتنازل طهماسب الثاني آخر شاهات الصفويين للروس عن الأجزاء القفقاسية داغستان وشروان بل عن أجزاء فارسية في الشمال وهي جيلان، ومازندران. غير أن شروان قد استنجدت بالعثمانيين، فتنازل الفرس للعثمانيين عام ١١٤٤ عن بلاد الأرمن وشروان بل وعن همدان، ولورستان.

آزوف
بحر آزوف
صحراء القفجاق
استراخان
نهر الفولغا
نهر كوبان
أنابا
الأواديغه
البلكار
أنغوش
قوموق
غروزني
القبرطاي
شاشان
مجع قلعه
الأوستين
الأبخاز
داغستان
البحر الأسود
دربند «باب الأبواب»
بحر الخزر
الكرج
المقياس
تفليس
شروان
الآجار
كيلومتر ١٢٠ ٨٠ ٤٠ صفر
باكو
أرمينيا
أذربيجان

مصور رقم [٢٦]

ونتيجة معاهدة بلغراد بين العثمانيين والصليبيين عام ١١٥٢ استقلت بلاد القبرطاي عن الدولة العثمانية، فبدأ الضعف يتسرب إلى هذه المنطقة بسبب وجود دولة صغيرة، هذا بالإضافة إلى النصارى في بلاد الكرج وبلاد الأرمن الذين تتجه أنظارهم إلى الروس وخاصة أنهم يدينون بمذهب الأرثوذكس الذي تأخذ به روسيا.

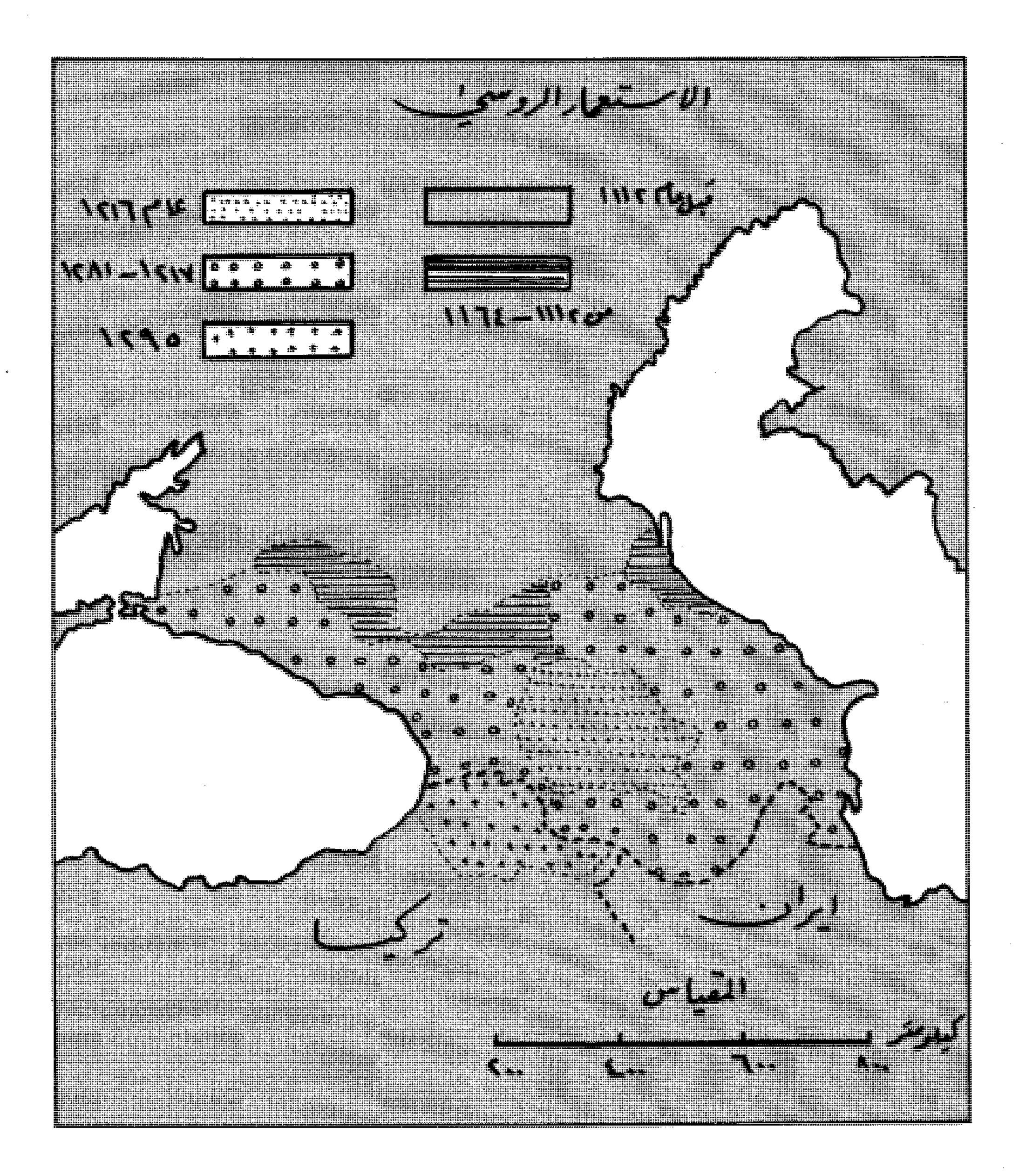
سيطر الروس حتى عام ١١٦٤ على الأطراف الشمالية لبلاد القفقاس، وفي أواخر أيام كاترين الثانية أُخرج الإيرانيون من بلاد الكرج على يد الروس... وفي أيام بول الذي خلف كاترين الثانية خرج الروس من بلاد الكرج إذ رأى هذا القيصر عدم ضرورة مساعدة الكرج لكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وهاجم المنطقة وضمها إليه، وهذا ما أجبر القائد الداغستاني عمر خان أن يهاجم الروس في بلاد الكرج عام ١٢١٥ لكنه فشل فابتلع الروس ما احتلوه.

ثم تقدّم الروس في بلاد شروان وأذربيجان عام ١٢٢٨ بل كان كل انتصار يحققه الروس على الفرس أو على العثمانيين يضمون إثره جزءاً من بلاد القفقاس، أو عندما تتهيأ لهم الفرصة ويرون الضعف من المسلمين ينقضون على منطقة فيبتلعونها.

ووجد المسلمون أنفسهم في هذه المناطق وحيدين، وأن الروس يتقدمون يوماً بعد يوم، والعثمانيين والفرس يتراجعون شيئاً فشيئاً لذا لابدّ من الاعتماد على النفس، وتقوية الروح المعنوية، فاستلهموا العقيدة فتحركت قوة الإسلام الكامنة ورغبتهم في الجهاد، ودفعتهم للموت في سبيل الله، ومن طلب الموت وهبت له الحياة، واسترخصوا الدنيا، فقوي أمرهم وألفوا حكومة في بلاد الداغستان كان على رأسها العلماء، وذلك عام ١٢٤١، وبرز الشيخ شامل فأرسل الشيخ محمد أمين إلى بلاد الشراكسة، كما أرسل العلماء إلى بقية المناطق لاستنهاض همم المسلمين... وبدأ القتال بين الشيخ شامل والروس، وفي ١٢٥٦ بدأ الشيخ شامل بخطة الهجوم التي استمرت عشرة أعوام ضعفت روسيا خلالها

وخاصةً أنها شغلت في حرب القرم عام ١٢٦٩ فانسحبت من عدد من المناطق، ولكن انتهت حرب القرم عام ١٢٧٥ فحشدت روسيا عندها جيشاً يزيد عدده على ثلاثمائة ألف جندي وبدؤوا بالهجوم على بلاد الشراكسة، وفي النهاية تمكنوا عام ١٢٨١ من أسر الشيخ شامل، وأصبحت أفواج الشراكسة، والشاشان، والداغستان تهجر أراضيها نتيجة الاضطهاد الروسي، وقد نقلت الدولة العثمانية أعداداً منهم إلى أوربا ووضعتهم على الجبهات الروسية والنمساوية... وعاد القتال بين العثمانيين والصليبيين على الجبهة الأوربية، وهُزم العثمانيون، وعقد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥، وكان من نتائجه أن أجبر الصليبيون العثمانيين على نقل القفقاسيين من الجبهات القتالية لما أبدوه من شجاعة إلى جهات أخرى فحملوهم إلى بلاد الشام والعراق... فأقاموا في رأس العين في الجزيرة الفراتية، وخناصر في جهات حلب، ومنطقة حمص، والجولان، وجرش في الأردن، وعمروا عمان، وفي الزرقاء، وصويلح، وناعور، والرصيفة، ووادي سير، والأزرق، وبعض جهات شمالي فلسطين. كما توزّعوا في المدن. أما الذين بقوا في موطنهم فكان العذاب يحيق بهم من كل جهة، وكلما حاولوا أن يتذرعوا بالصبر وجدوا أنفسهم إلى الهجرة أحوج، فعندما تسنح الفرصة لفريق منهم يفرّ من وطنه هائماً على وجهه.

وقامت الثورة الشيوعية في مطلع عام ١٣٣٦، وأعلنت إعطاء الحرية الدينية وإنصاف المسلمين الذين تحمّلوا الأذى، فلما قويت جذورها داهمت بلاد القفقاس الذين أعلنوا عن رغبتهم في الاستقلال، وأعملت كل أنواع البطش والدمار، وأظهرت كل أصناف الحقد على المسلمين، وكان النصارى في منأى عن الاضطهاد، وقسمت بلادهم إلى أجزاء صغيرة متذرعة بالأجناس المتعددة واللغات المتباينة، وضمت أكثر هذه الأجزاء الصغيرة إلى موسكو بالذات.


الاستعمار الروسي
قبل عام ١١١٢
من ١١١٢-١١٦٤
عام ١٢١٦
١٢١٧-١٢٨١
١٢٩٥
تركيا
إيران
القياس
كيلومتر

مصور رقم [٢٧]

الفصل الثالث

وسط آسيا

حكم تيمورلنك مناطق واسعةً امتدت من الهند إلى أوربا، فلما مات عام ٨٠٧ تجزأت دولته إذ حكم أبناؤه وأحفاده بعض هذه الأجزاء، وحكم غيرهم بعضها الآخر.

عاد أحمد بن أويس الجلائري إلى بغداد عام ٨٠٧، وعاد قره يوسف القره قيونلي إلى إمارته في أرمينيا وأذربيجان، كما حكم جلال الدين ميران شاه بن تيمور جزءاً من أذربيجان وتوفي عام ٨١٠، وخلفه ابنه أبو بكر غير أن قره يوسف قد انتزع منه إمارته، وأصبحت أذربيجان كلها تحت حكم قره يوسف، كما قتل عام ٨١٣ أحمد بن أويس، واستولى على دولته، وبذا ضمت العراق كلها وأذربيجان، وكانت الحرب بين شاه رخ بن تيمورلنك وقره يوسف قائمةً حتى مات قره يوسف عام ٨٢٣، وامتدت سلطة التيموريين حتى الخليج العربي إذ حكمها مرزا إبراهيم بن شاه رخ حتى عام ٨٣٩. وانتهت الأسرة القره قيونلية عام ٨٧٣ على يد خصومهم أسرة الآق قيونيلية الذين بقوا في الحكم حتى قضى عليهم الصفويون.

أما شاه رخ بن تيمورلنك فقد أضاع خراسان، ومازندران، وسجستان، وضمّ إليه أصفهان، وشيراز من أبناء أخيه عمر عام ٨١٧، واستمر حتى توفي عام ٨٥٠، وبقي فيها أولاده وأحفاده حتى مطلع القرن العاشر.

أما بلاد ما وراء النهر فقد حكمها حفيد تيمورلنك خليل سلطان بن

جلال الدين ميران شاه حتى عام ٨١٤ حيث توفي، وقام أبناء أخيه محمد يحكمون المنطقة ومنطقة فرغانه، وبلاد الأفغان حتى جاء محمد الشيباني في مطلع القرن العاشر، بل وأسس ظهير الدين بابر شاه دولته في الهند.

الشيبانيون:

ينتمي محمد الشيباني إلى شيبان بن جوجي بن جنكيزخان، فهو أخو باتو، وأصغر إخوته، وكان أخوه باتو قد أعطاه أطراف دولته في غربي سيبيريا، وفي مطلع القرن العاشر رأى محمد الشيباني ما آل إليه وضع دول التتار وإمارتهم من الانقسام والقتال فرأى أن يوحّد ما يستطيع توحيده، فاتجه نحو بلاد ما وراء النهر، وسارت جموع من قبيلته معه، وبقي أصل هذه الشعبة في سيبيريا تحت اسم قياصرة تيومين.

وجد محمد الشيباني في بلاد ما وراء النهر أولاد السلطان محمود آخر سلاطين التيموريين يتصارعون على الحكم، فقضى عليهم، وأسس دولته عام ٩٠٦، وعندما سار إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية التي تحتضر استنجد خانها بظهير الدين محمد بابر حاكم الهند، فأسرع إليها، وأنقذها من يد الشيباني الذي لم يقطع الأمل في النصر، فأعاد الهجوم على المدينة، وتمكّن من إحراز النصر على جيوش محمد بابر رغم المقاومة العنيفة التي وجدها، ودخل سمرقند، واتخذها عاصمةً لدولته، ثم دخل هراة، واستولى على خراسان، وساعد إسماعيل الصفوي شاه إيران حليفه محمد بابر ـ بصفة كلاهما عدو للأوزبك ـ في استعادة سمرقند، غير أن الأوزبك أخرجوه منها ثانيةً بالقوة، ثم ترك محمد بابر تحالفه مع الصفويين لما رأى من تعصبهم المذهبي.

ووقع محمد الشيباني قتيلاً في أثناء صراعاته عام ٩١٦، وخلفه عمه كوجكنجي الذي حكم عشرين عاماً، وخلفه ابنه أبو سعيد الذي حكم أربع سنوات (٩٣٦ ـ ٩٤٠) فورثه أحد أبناء عمومته، وهو عبيدِ اللّه فكان صراعه قوياً مع الصفويين ثم رجع إلى الحكم عبد الله أخو أبي سعيد بعد

ست سنوات وقد عرف بعبد الله الأول، ولم يزد حكمه على العام الواحد (٩٤٦ ـ ٩٤٧) رغم أنه قاد جيوش الأوزبك أيام سلفه، وأحرز انتصارات كبيرة، ثم حكم أخوه الآخر عبد اللطيف لمدة اثنتي عشرة سنة (٩٤٧ ـ ٩٥٩)، وخلفه ابن عمه نوروز أحمد، وتتابع أفراد الأسرة في حكم بلاد ما وراء النهر حتى عام ١٠٠٧، أي أن حكم الأوزبك قد استمر قرناً من الزمن (٩٠٦ ـ ١٠٠٧). وكانت خانية بخارى ذات نفوذ بل يُعدّ أحياناً خان بخارى هو الحاكم الفعلي لدولة الأوزبك (الشيبانية)، وهم بالأصل فرع من الأسرة الشيبانية.

وعندما آل الأمر إلى عبد الله الثاني عام ٩٩١ بعد وفاة اسكندر ثار على عبد الله ابنه عبد المؤمن، كما انضم إلى الشاه عباس الصفوي أمراء خوارزم فهزم عبد الله الثاني أمام الصفويين، وخسر الكثير من أرضه، ومات عام ١٠٠٦، فقام ابنه الذي ثار عليه بالأمر إلا أنه لم يلبث أن قتل عام ١٠٠٧ بيد أحد الطامعين بالسلطة، وتولّى پير محمد الثاني الحكم، ولكن هيبة الشيبانيين قد زالت فتولى الجانيون شأن الدولة بعدهم.

الأسرة الشيبانية

محمد الشيباني	٩٠٦ ـ ٩١٦	نوروز أحمد	٩٥٩ ـ ٩٦٣
كوجنكجي	٩١٦ ـ ٩٣٦	پير محمد الأول	٩٦٣ ـ ٩٦٨
أبو سعيد	٩٣٦ ـ ٩٤٠	اسكندر	٩٦٨ ـ ٩٩١
عبيد الله	٩٤٠ ـ ٩٤٦	عبد الله الثاني	٩٩١ ـ ١٠٠٦
عبد الله الأول	٩٤٦ ـ ٩٤٧	عبد المؤمن	١٠٠٦ ـ ١٠٠٧
عبد اللطيف	٩٤٧ ـ ٩٥٩	پير محمد الثاني	١٠٠٧

الجانيون:

حلّ محل الشيبانيين في حكم البلاد نفسها أنسباؤهم الذين عُرفوا باسم الجانيين أو أسرة استراخان لأن أصلهم من استراخان حيث فرّ بعض الرؤساء المطرودين من مدينة استراخان إلى مدينة بخارى عندما استولى الروس على استراخان في منتصف القرن العاشر، ثم ورثوا الأوزبك، وقد حكموا سمرقند، وبخارى، وفرغانة، وبادخشان، وبلخ، وتشكلت في خوقند عام ١١١٢ خانية خاصة، ثم طُرد الجانيون من هناك عام ١٢٠٠ كما أن بلخ وكل أملاكهم على الضفة اليمنى لنهر جيحون قد ضمت إلى بلاد الأفغان عام ١١٦٥، ثم انتهت هذه الأسرة عام ١٢٠٠هـ.

خانية بخارى:

ورث الجانيين أسرة تسمى المنغيت وهي من الترك أيضاً وقد تولّى أحد أفراد هذه الأسرة، واسمه عبد الرحيم الوزارة لولاة بخارى، ثم توصل إلى الولاية، وتزوّج أحد أبناء هذه الأسرة، وهو مير معصوم شاه مراد من الجانيين إذ أخذ ابنة أبي الغازي آخر خانات الجانيين، وتسلّم الحكم مكانه، وحارب الأفغانيين ليسترد ما فقده أنسباؤه من أملاك ولكن لم يقو على ذلك، وقد بدأ حكمه من عام ١٢٠٠، وتوالى أبناؤه وأحفاده على الحكم، وبدأت تضعف الدولة مع مطلع القرن الرابع عشر الهجري، بل انهارت قبل الهجوم الروسي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٩. وبدأ الروس يقطعون الجزء بعد الجزء منذ عام ١٣٢٨، وفي ذلك العام تولى أمر دولتهم سيد مير عليم، وعندما قامت الثورة الشيوعية، وانسحبت روسيا من الحرب، وحدثت الفوضى استرد استقلال خانيته، ولكن لم تلبث أن قويت الثورة الشيوعية، ورجعت تنفذ سياسة القياصرة الاستعمارية من قبل فسقطت خانية بخارى في يدها عام ١٣٣٨ وفر سيد مير عليم إلى أفغانستان.

خانية خوارزم:

أما خانية خيوة أو خوارزم فقد كانت تتبع خانات القبيلة الذهبية أو مغول الشمال في سراي حتى أيام تيمورلنك، وبعد انحلال الدولة التيمورية احتل الأوزبك أو الشيبانيون خيوة، وأقاموا بها خانيةً خاصةً عام ٩٢١ تعرف باسم خانية خوارزم أو خيوة، وقد اصطدم خاناتها مع خانات بخارى أبناء عمومتهم فكانت حروب متعددة تارةً تكون لصالح هذه، وتارة لصالح تلك. وفي عام ١١٥٣ استطاع نادر شاه أن يبسط نفوذه على خوارزم لمدة سنةٍ واحدةٍ، وولّى عليها والياً من قبله هو طاهر شاه.

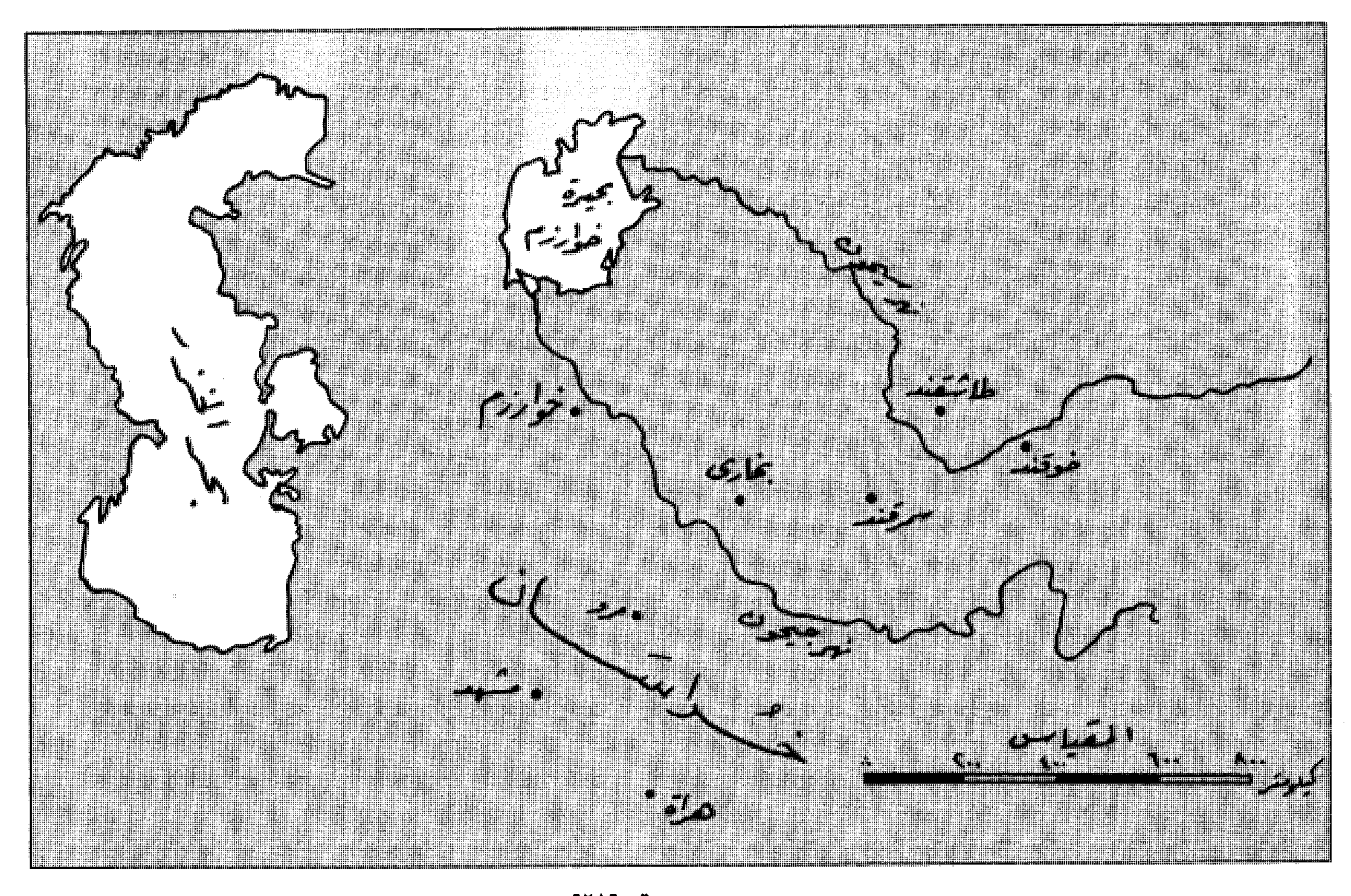
ينتمي حكام خوارزم إلى شيبان من شعبة عربشاه، وقد استمر تعاقبهم على الخانية حتى عام ١٢١٩ باستثناء السنة الواحدة التي حكمها نادر شاه، ولكن في عام ١٢١٩ تسلّم وزراؤهم من القونغرات الحكم مستفيدين من ضعف خانات الأوزبك، حيث كان أبو الغازي الثالث ضعيفاً وقد انتهى حكمه في هذه السنة، واستمر بالحكم حتى عام ١٢٨٩ حيث ألحقت بروسيا إذ دخل محمد سيد رحيم في طاعة الروس عام ١٢٩٠، ومع ذلك بقي حكامها من هذه الأسرة ويعدون أنفسهم مستقلين، وخاصة عندما قامت الثورة الشيوعية عام ١٣٣٦، وبدأت الفوضى في البلاد، ولكن ما لبث أن رجع الروس إليها في رمضان من عام ١٣٣٧، وسقط حكم آخر خان، وأقاموا فيها دولة باسم جمهورية خراسان السوفيتية.

خانية خوقند أو فرغانة:

استقلت خوقند عام ١١١٢، وشكلت خانيةً خاصةً بإمرة شاه رخ، وهو من أحفاد محمد بابر ظهير الدين بن شيخ عمر الذي سار إلى الهند، وأسس هناك دولة المغول الكبرى. وقد استطاع عالم خان أن يستولي على طاشقند عام ١٢١٥، وهو أول من تلقب في خوقند باسم خان. ولكن استطاع خان بخارى نصر الله خان أن يهاجم فرغانة عاصمة خانية خوقند عدة مرات بين (١٢٥٥ ـ ١٢٥٦)، واستطاع في المرة الأخيرة أن يستولي

عليها، وأن يقتل محمد علي خان، ولكن لم يلبث خانات خوقند أن يستعيدوا سلطانهم، وأن يبقوا في الحكم حتى عام ١٢٩٣ حيث جاء الروس واحتلوا بلادهم، وكان آخر خاناتهم ناصر الدين حيث حكم عاماً واحداً (١٢٩٢ ـ ١٢٩٣).

كما قامت بعض الإمارات المستقلة في طاشقند.


بحيرة خوارزم
خوارزم
بخارى
سمرقند
طاشقند
خوقند
مرو
مشهد
هراة
نهر جيحون
المقياس
٠ ٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠
كيلومتر

مصور رقم [٢٨]

قبل عام ١٢٧٠
١٢٧٠ _ ١٢٨٦
١٢٨٦ _ ١٣٠٠
١٣٠٠ _ ١٣١١

مصور رقم [٢٩]

الفصل الرابع

شرقي تركستان

وصل المسلمون إلى كاشغر بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٩٦، وتمّ فتحها، وتوقّفت الفتوحات بعد ذلك، وأصبحت المنطقة مسلمةً، وحاول الصينيون دخولها عام ١٣٤، إذ ظنّوا أن أمر المسلمين قد ضعف أمرهم بزوال دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، إلّا أن المسلمين تمكّنوا من دفعهم عنها، وأحسّ أهل الصين بقوة المسلمين حتى أن ملك الصين قد استنجد بأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني ضدّ ثورةٍ قامت عليه فأنجده وثبّت حكمه.

وفي أيام المغول بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل التي تُقيم في تلك المنطقة، وقد أسلم الأويغور سكان منطقة كانسو التي تقع شرق تركستان، وأسلم معهم جميع سكان الشمال والغرب من مملكة جغطاي المغولية التي كان نفوذها يشمل تلك الجهات، وأصبح المغول يعملون لنشر الإسلام، ودانت لهم الصين التي كانت مقسمةً إلى تسعة أجزاء يحكم كل جزءٍ خان نيابة عن ملك المغول.

وفي عام ٧٤٨ انتصر الأمراء الأتراك على بلاد ما وراء النهر، فنصّب أمراء المغول في القسم الشرقي توقلق تيمور خاناً عليهم، وظل المغول يحكمون تلك الأجزاء حتى القرن الحادي عشر، وهم من المسلمين، وإن كانوا قد انقسموا إلى خانات يحكم كل منهم منطقةً خاصة، وأشهرهم خانات كاشغر، وخانات أقصو، وطرفان، أما حكام الصين من المغول فقد

طردوا منها عام ٧٧١ في عهد الخان المغولي الحادي عشر طوغان تيمور، واقتصرت دولتهم على منطقة قراقورم (أولان باتور) منطقة منغوليا اليوم.

وفي عام ١٠٤٣ حكمت أسرة مانغو الصين، وأصبح المغول من أسرة قبلاي رعايا لها في الوقت الذي بدأ يضعف فيه أيضاً خانات تركستان في كاشغر وأقصو، وهم من أسرة جغطاي، ويدينون بالولاء لأسرة مانغو أيضاً. ولكن لم تلبث أن حكمت الأسرة المانشورية الصين عام ١٠٥٤، واستمر حكمها حتى عام ١٣٢٩، وبدأت باضطهاد المسلمين، وإن الاضطهاد لا بدّ من ثورات تعقبه، فالنفوس يمكن أن تتحمل الأذى، ولكن لمدة، ثم ينفذ الصبر.

كانت ثورات المسلمين في المناطق التي يكثر فيها المسلمون وخاصةً في تركستان الشرقية ومنطقة كانسو، ولم تكن الجهود موحدة ـ مع الأسف ـ وإنما تقوم في منطقة حركة في الوقت الذي تكون الثورة قد هدأت في المنطقة الثانية، كما أن المسلمين الموزعين في بقية أرجاء الصين لم يشاركوا أحياناً في هذه الحركات، وإنما اقتصرت الثورات على الأجزاء الغربية التي يكثر فيها المسلمون.

قامت ثورة جنقغ في تركستان عام ١٢٤١، واستمرت عامين إذ أخمدت أو هدأت عام ١٢٤٣.

وقامت ثورة يعقوب بك في تركستان أيضاً عام ١٢٧١، وتمكّنت من السيطرة على المنطقة وأعلنت استقلال تركستان، وقيام يعقوب بك بأمر الحكم، واستمر الاستقلال ثلاث عشرة سنة، وظنّوا أن الوضع قد استقر، إلا أن العقوبة لا بدّ من أن تنزل بهم إذ لم يساعدوا إخوانهم المسلمين في كانسو، وشنسي، وبالواقع فما أن انتهى الصينيون من إخماد ثورة كانسو عام ١٢٨٩ حتى اتجهوا نحو تركستان عام ١٢٩١، فهُزم يعقوب بك وقُتل، وسيطر الصينيون على المنطقة، ووضعوا والياً عليها من قبلهم، ولم تكن هذه الثورات فقط، وإنما هذه أهمها إذ استمرت الثورات أكثر من مائة عام (١١٦٩ ـ ١٢٩١)، وآخر انتفاضة كانت عام ١٣٤٩، واستمرت خمس

سنوات، وتمكّن الصينيون بدعم الروس القضاء عليها. وانسحب الروس من تركستان عام ١٣٦٢، وعندما تسلم الشيوعيون الحكم في الصين عام ١٣٦٩، واستقلت تركستان ذاتياً، وعُيّن سيف الدين رئيساً للدولة عام ١٣٧٣، وعرفت البلاد منذ تلك المدة باسم «سينكيانغ» أي المقاطعة الجديدة.

أما كانسو وهي المقاطعة التي تقع شرق تركستان فقد قامت فيها عدة ثورات أيضاً أهمها:

١ ـ ثورة سوسيان عام ١١٦٩.

٢ ـ ثورة مانسين عام ١١٧٩.

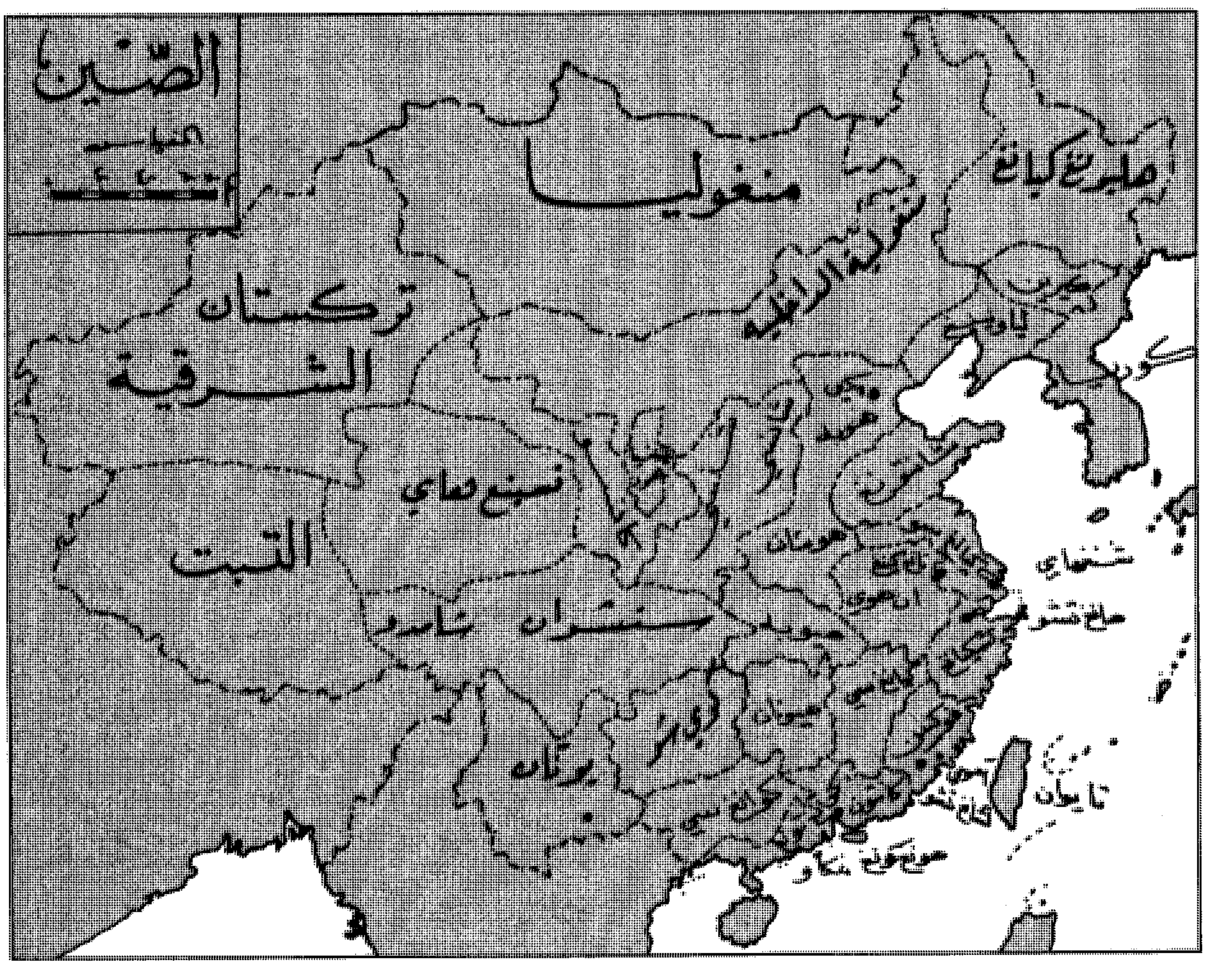
٣ ـ ثورة عام ١٢٨٠ التي هي جزء من ثورة يعقوب بك التي شملت تركستان، وكانسو، وشنسي.

٤ ـ ثورة عام ١٣١٣.

وقد جُزّئت كانسو إلى عدة مقاطعات، وضُمّت أقسام منها إلى مقاطعات أخرى لتفتيت قوة المسلمين فيها.

ومع استلام الشيوعيين للحكم فقد غُيّرت أسماء كثير من المدن لفصلها عن تاريخها، وربطها بالفكر الشيوعي الحديث، وحتى أن الدول الإسلامية تصبح جاهلة هذه الأسماء، وأرى من الضروري ذكر أسماء بعضها.

أورمجي	أصبح	تيهوا
كاشغر	أصبح	شوفو
يارقند	أصبح	سوجي
خوتان	أصبح	هوتين
أقصو	أصبح	ونسوه
حامي	أصبح	كومول


الصين
منغوليا
تركستان الشرقية
التبت
تسينغهاي
يونان
شنغهاي
تايوان

مصور رقم [٣٠]

الفصل الخامس

الصَفويُون وَالدَولة الايرانيَّة

ينتسب الصفويون إلى صفي الدين الأردبيلي المتوفى عام ٧٢٩، وقد طُرد حفيده الجنيد من دياره أيام جهان شاه من أسرة الآق قيونلي فلجأ إلى أوزون حسن (حسن الطويل) من الأسرة نفسها في ديار بكر، فاستفاد منه، وقرّبه إليه، وزوّجه أخته، وقُتل الجنيد في إحدى المعارك ضدّ أمير شروان (شمالي أذربيجان)، وقام حيدر بن الجنيد يسير على خطة أبيه، وبقي مع أوزون حسن، وقد تزوج ابنته، وقوّى بلدته أردبيل حتى أصبحت منيعةً، وجمع حوله أنصاراً من التركمان، ثم قتل عام ٨٩٤ في إحدى المعارك ضد أمير شروان أيضاً، ولكن في هذه المرة كان يعقوب بن أوزون حسن ضده، وقد ساعد أمير شروان، حيث اختلف يعقوب مع حيدر، واستولى يعقوب على بلدة أردبيل، ونقل أولاد حيدر إلى فارس، ولكنهم رجعوا إلى مقرهم في عهد رستم أحد أمراء أسرة الآق قيلوني والذي حكم (٨٩٧ - ٩٠٢)، وكان الابن الثالث لحيدر هو إسماعيل الذي جمع حوله بعض الأعوان، واعتمد على الناحية العشائرية إذ كانت عدة قبائل تركمانية في تلك الجهات، وشن هجوماً على باكو واستطاع أن يدخلها، وأن يستولي على شروان وبذا تكونت عنده الأرض القاعدة التي يمكن أن ينطلق منها، واصطدم بأمراء أسرة الآق قيلوني فانتصر على الأمير ألوند في معركة شرور على نهر أراكس عام ٩٠٧، ثم قضى على بقية أمراء هذه الأسرة في العراق إذ انتصر على مراد بن يعقوب، وفي إمارة البستان على علاء الدولة وبذا انتهت الإمارة الآق قيلونية، وقامت الدولة الصفوية، وانتقل إسماعيل

الصفوي إلى تبريز وجعلها قاعدةً له، وأخضع ولاة التيموريين هناك، واتخذ المذهب الشيعي منطلقاً لفكرته، وأفاد من حماسة الأقلية الشيعية وسط المجتمع السني والدول المجاورة لمنطقته التي انطلق منها، ووصل بسرعة بدولته إلى هراة ونهر جيحون وسواحل الخليج العربي. ولكنه هُزم أمام السلطان سليم في معركة جالديران عام ٩٢٠ فضم العثمانيون إليهم ديار بكر ودخلوا تبريز، وأعلن والي بغداد خضوعه للخليفة العثماني غير أن اتجاه العثمانيين نحو المماليك ودخول بلاد الشام ومصر، والالتفات إلى قتال البرتغاليين الذين يهددون الأماكن المقدسة وبلاد المسلمين قد أعاد للشاه إسماعيل قوته، وعمل على التفاهم مع البرتغاليين ضد العثمانيين إذ أن حقده كان عظيماً على دولة آل عثمان. وكذلك كان الصراع قوياً على حدود دولة الشاه إسماعيل الصفوي من جهة الشمال الشرقي إذ كان زعيم الأوزبك محمد الشيباني يهدد الشاه إسماعيل ويدعوه إلى العودة إلى الإسلام بصورة صحيحة ويهدده بقتاله داخل معاقله في فارس، وجرت الحروب بين الطرفين، وانتصر إسماعيل الصفوي في بداية الأمر، ثم هزم واستعاد الأوزبك مواقعهم التي فقدوها في المرحلة الأولى. أما بالنسبة إلى الهند فقد كان ظهير الدين محمد بابر على تفاهم مع إسماعيل الصفوي.

وتوفي الشاه إسماعيل الصفوي عام ٩٣٠، وخلفه ابنه طهماسب، وكان صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره، فتولّى زعماء (القزلباش) زعماء الشيعة الاثنى عشرية إدارة الأمور مدة، ثم بدأ طهماسب ينفرد بالسلطة.

سار طهماسب إلى الشرق وانتصر على خان الأوزبك عبيد الله، ولكنه لم يتقدم في بلاد الأوزبك، ثم اتجه غرباً، واستولى على بغداد، وقضى على ذي الفقار الكردي شاه بغداد الذي أعلن خضوعه للعثمانيين، غير أن السلطان سليمان لم يلبث أن طرد جيوش طهماسب من العراق، وأخذ بغداد عام ٩٤١، وفي الوقت الذي اتجه فيه طهماسب نحو الغرب أي عام استيلائه على بغداد عام ٩٣٦ تقدّم الأوزبك من الشرق، وبدؤوا يجوسون خلال ديار طهماسب الشرقية وحتى مدينة مشهد، وبعدئذ عقد طهماسب

صلحاً مع الخليفة العثماني، وساد الهدوء تقريباً على الجبهة بين الدولتين بعد صلح ٩٦١. وتوفي طهماسب عام ٩٨٤ بعد أن حكم ما يزيد على نصف قرن.

تولّى بعده ابنه إسماعيل الذي عرف بإسماعيل الثاني، وقد كان أبوه يكرهه حتى وضعه في السجن ما يزيد على ربع قرن، كان متغطرساً لا يثق بأحد حتى من أقرب المقربين إليه، ووقع الخلاف بين أولاد طهماسب حيدر، وإسماعيل، ومحمد، وعباس. وقد لقي إسماعيل مصرعه بعد عام (٩٨٥)، وحكم محمد باسم محمد خدانبك حتى عام ٩٩٥، ثم تولى عباس باسم الشاه عباس الكبير. وأثناء هذه الصراعات الداخلية احتل العثمانيون تبريز، وتفليس، وبلاد داغستان، ورغم مقاومة القادة الصفويين إلا أنها لم تفدهم، كما أن العثمانيين قد خسروا الكثير ولكنهم احتفظوا بتبريز. ووجد عباس نفسه بين العثمانيين في الغرب والأوزبك وغاراتهم في الشرق، لذا عقد معاهدة مع العثمانيين عام ٩٩٨ تنازل فيها عن تبريز ولورستان، والكرج، وداغستان، وشروان، وعلى أن يبقى حيدر مرزا ابن أخي الشاه رهينةً في إستانبول.

اتجه عباس إلى الشرق وانتصر على الأوزبك انتصاراً أضعف دولتهم، وأجبرها على ترك جزء من أراضيها للشاه الصفوي الذي استعان بحربه ضد الأوزبك بأمراء خوارزم أبناء عمومة الأوزبك، كما ساعده على هذا النصر حركة عبد المؤمن بن عبد الله ضد أبيه خان الأوزبك.

عاد الشاه عباس إلى قتال العثمانيين بعد هدوء على الجبهة دام ما يقرب من خمس عشرة سنة، إذ درب جنده أحد الضباط الإنكليز، واستغلّ فرصة انشغال العثمانيين بالحركات في الأناضول فهاجم عام ١٠١٢ القلاع العثمانية، واسترد تبريز عام ١٠١٢، ثم اريفان عاصمة أرمينيا، وشروان، وقارص.

وحدثت فتنة في بغداد عام ١٠٣١ إذ تمرّد أحد قادة الإنكشارية بكر صوباشي، فأرسل العثمانيون جيشاً لإخضاعه، وشعر بكر بضعفه فأعلن

خضوعه للشاه عباس الذي أسرع وأرسل له جيشاً كبيراً، وشعر مرةً أخرى بكر بما فعل وأنه سيكون ألعوبةً بيد الشاه لذا عاد فتفاهم مع القائد العثماني على أن يكون حاكم بغداد تحت السيطرة العثمانية. ولكن الشاه لم يعترف بذلك وأصر على أن العراق يتبع دولته، وشنّ عدة هجمات على بغداد باءت كلها بالفشل فاتخذ أسلوب الحيلة والخداع فاستمال من استطاع عليه من بعض القادة، وكانت مؤامرة قُتل فيها بكر صوباشي، ودخل جيش الشاه بغداد، واتجه بعدها بأنظاره إلى البصرة غير أنه لم يفلح.

واتفق الشاه عباس مع الإنكليز، وقاتلا معاً البرتغاليين، وأخرجوهم من هرمز عام ١٠٣١، وكانت رغبته التحالف مع أوربا ضد الدولة العثمانية إذ كان حقده شديداً وتعصبه عنيفاً. وكان فظاً قتل ولده الكبير، وسمل عيون اثنين آخرين من أبنائه، وتوفي عام ١٠٣٧ بعد أن حكم اثنتين وأربعين سنة، ونقل العاصمة إلى أصفهان.

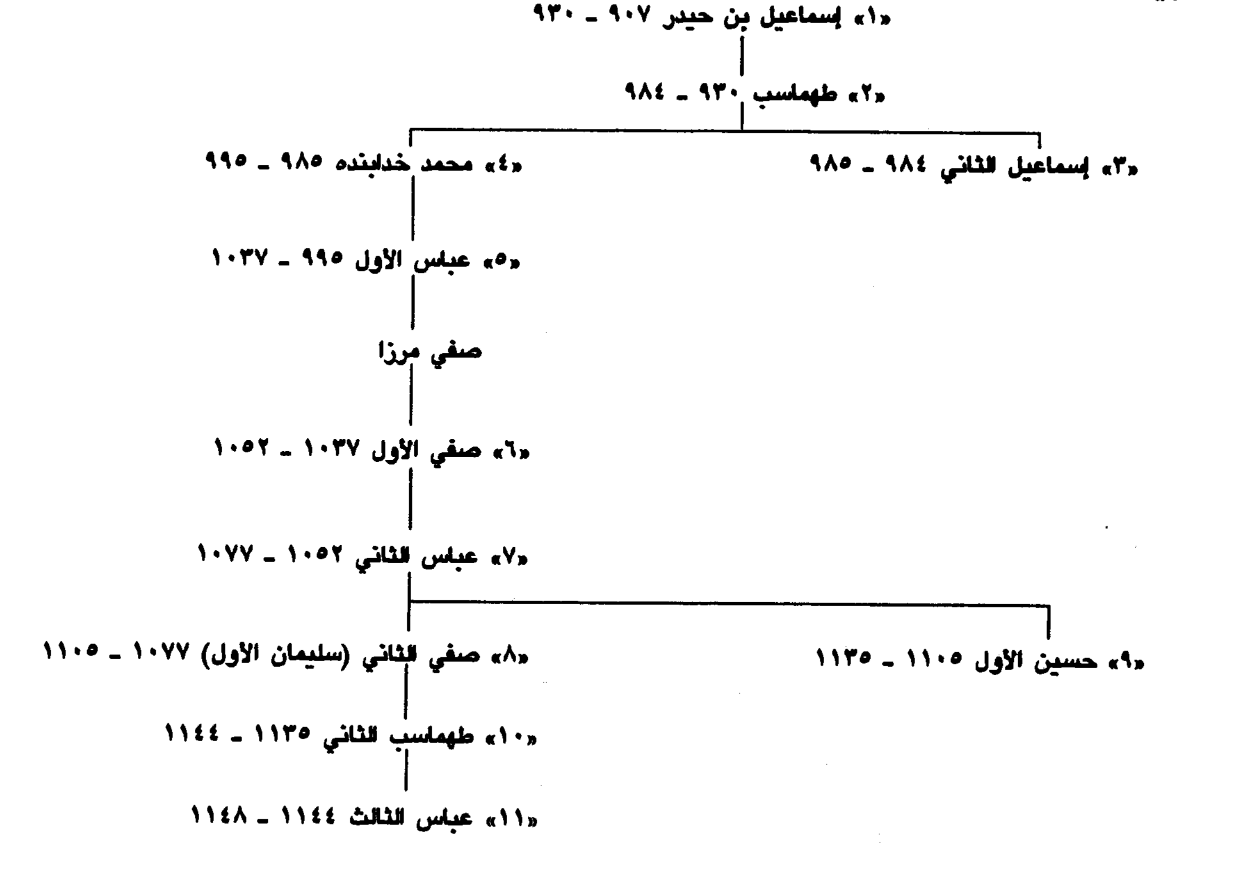
خلف عباس حفيده صفي، وقد بدأت منذ أيامه تسير الدولة نحو الضعف، وقد شن الخليفة العثماني مراد الرابع حرباً على الصفويين عام ١٠٤٨ واستردّ منهم العراق، وعقدت معاهدة بين الطرفين حددت الحدود بين العراق ودولة الصفويين عام ١٠٤٩، وانتهى حكمه عام ١٠٥٢.

وخلفه عباس الثاني الذي لم يلتفت إلى مصالح الدولة أبداً، ثم تولّى بعده سليمان أو صفي الثاني عام١٠٧٧ فاستولى الهولنديون على جزيرة قشم، وأغار اليعاربة على بندر عباس، والأوزبك على خراسان ولم يُبد أية حركة، واستمر، في حكمه حتى عام ١١٠٥، ثم تلاه حسين الأول الذي فرّ اثنان من أولاده إلى الدولة العثمانية. وفي عام ١١٣٥ تولى طهماسب الثاني، فعباس الثالث حيث انهارت الدولة الصفوية وقضى عليها الأفغان.

الأفغان:

استطاع محمود بن أويس أن يُعلن التمرد على الصفويين، وأن يستولي على هراة، ومشهد عام ١١٣٥، ثم اتجه إلى أصفهان عاصمة الصفويين،

الصفويون:



«١» إسماعيل بن حيدر ٩٠٧ ـ ٩٣٠
«٢» طهماسب ٩٣٠ ـ ٩٨٤
«٣» إسماعيل الثاني ٩٨٤ ـ ٩٨٥
«٤» محمد خدابنده ٩٨٥ ـ ٩٩٥
«٥» عباس الأول ٩٩٥ ـ ١٠٣٧
صفي مرزا
«٦» صفي الأول ١٠٣٧ ـ ١٠٥٢
«٧» عباس الثاني ١٠٥٢ ـ ١٠٧٧
«٨» صفي الثاني (سليمان الأول) ١٠٧٧ ـ ١١٠٥
«٩» حسين الأول ١١٠٥ ـ ١١٣٥
«١٠» طهماسب الثاني ١١٣٥ ـ ١١٤٤
«١١» عباس الثالث ١١٤٤ ـ ١١٤٨

وألقى الحصار عليها، فاستسلمت له بعد حصار دام سبعة أشهر، وانحصر سلطان الصفويين في الشمال، فاتجه مير محمود إلى تلك الجهات، إلا أن بعض المدن بدأت تثور عليه، ولكنه استطاع أن يجذب الأكراد إليه نتيجة الاتفاق في المذهب، فأخضع ثورات المدن.

كانت رغبة قيصر روسيا بطرس الأكبر التوسع في إيران، لذا لم يعترف بحكم مير محمود، وأبدى تأييده للسلطان حسين، وأرسل إليه وفداً ليتعرف على رأيه واتجاهه. ثم زحف على رأس جيشٍ مؤلفٍ من اثنين وعشرين ألف مقاتل بحجة إنقاذ فارس من طغيان مير محمود، واحتل باب الأبواب (دربند)، واتجه نحو (شماكا) فوجد أن العثمانيين قد احتلوها، وهددوه بأن أي تقدّم على حساب الفرس يعني الحرب مع الدولة العثمانية فتوقّف. ثم إن الأفغانيين كانوا يشددون الضغط على مدينة (رشت) فاستنجد حاكمها بالروس فأنجدوه واحتلوها، وعقد ولي العهد طهماسب الثاني معاهدة مع الروس تنازل لهم بمقتضاها عن (شروان، وجيلان، وداغستان، ومازندران)، فاستنجد أهل شروان بالدولة العثمانية لا بصفتهم من أهل السنة وإنما من طغيان الكفر الروسي، فاتفق الروس والعثمانيون على تقسيم فارس، وكانت المعاهدة بين الطرفين على النحو التالي:

١ ـ تأخذ روسيا سواحل بحر قزوين وجيلان ومازندران إلى شمال المجرى الجنوبي لنهر أراس، أو بالذي تنازل فيه طهماسب للروس.

٢ ـ تأخذ الدولة العثمانية الولايات الغربية.

٣ ـ إذا وافق طهماسب على هذه الاتفاقية اعترف به شاهاً على فارس.

٤ ـ يتحالف العثمانيون والروس ضد أية محاولة يقوم بها طهماسب لاسترداد ما أخذه الطرفان.

احتل الروس ما أعطتهم الاتفاقية، وتقدم العثمانيون أيضاً ووصلوا إلى همدان، واحتلوا تبريز بعد مقاومة. وبدأ مير محمود بالمذابح التي استمرت

أسبوعين أنهى خلالهما على الأسرة الصفوية باستثناء الشاه حسين، ومن لم تطله يده، وشعر الأفغان ما وصل إليه مير محمود لذا استدعوا الأمير أشرف من أفغانستان ونصبوه ولياً للعهد، ثم خلعوا مير محمود وسلّموا الأمر لأشرف عام ١١٣٧.

جاء أشرف ابن عم محمود إلى السلطة، وكانت الأمور حرجة، وولي العهد الفارسي السابق طهماسب الثاني يُقيم في مازندران، ويعدّ نفسه الشاه الشرعي للبلاد، وقاتل أشرف العثمانيين فانتصر على والي بغداد أحمد باشا انتصاراً كبيراً وفرّت فلول الجيش العثماني، ولكنه لم يتعقبه بل ردّ إليه الغنائم فكان هذا مجالاً للتفاهم بين الطرفين إذ اعترف أشرف بأن السلطان العثماني خليفة للمسلمين، وأبقى للعثمانيين الذي كان في أيديهم، واعترف العثمانيون بأشرف شاهاً على فارس. وربما كان سبب هذه الاتفاقية قوة طهماسب الثاني الذي أيّده نادرخان، وكان ذلك كله عام ١١٤٠.

وكان نادر خان طموحاً، ومن قطاع الطرق، ومع الفوضى برز اسمه، وجمع حوله عدداً من الرجال، وعمل باسم طهماسب، وسيطر على هراة ومشهد، واستطاع أن ينتصر على جند أشرف عندما داهموه عام١١٤١، ولاحقهم فاعتصم أشرف بمدينة أصفهان، فألقى نادر خان الحصار عليها، ولم يثبت أشرف أمامه بل فرّ وفلول جيشه نحو شيراز، ولكن قبل أن ينسحب قتل الشاه حسين الذي كان بيده، ودخل طهماسب أصفهان، وتابع نادر خان الأفغانيين حتى أخرجهم، وسقط أشرف قتيلاً عام ١١٤٢، وبهذا خرج الأفغانيون بعد سبع سنوات من دخولهم عام ١١٣٥.

طهماسب الثاني:

انتصر نادر خان على العثمانيين، وهزمهم عند همدان، وسيطر على أذربيجان، وحاصر أريفان عاصمة أرمينيا إلا أنه اضطر أن يترك الحصار وأن يتجه نحو خراسان حيث حدث تمرّد هناك.

أراد طهماسب الثاني أن يُظهر مكانته، وألا يكون في زاويةٍ ميتةٍ أمام

قائده نادر خان فانقضّ على الجيش العثماني عام ١١٤٤ ظناً منه أن هذا الجيش لن يقوى على القتال لهزيمته منذ مدةٍ قصيرةٍ لكن أمله قد خاب، وهُزم أمام العثمانيين هزيمةً منكرةً، واضطر لعقد معاهدة معهم يتنازل فيها، عن جزءٍ من أراضيه، وليجعل العثمانيين يكتفون بما حصلوا عليه فيسكتون عنه، وقد تنازل في هذه المعاهدة عن شروان، وتفليس، وأريفان، وهمدان، ولورستان. ولم تشر هذه المعاهدة إلى الأسرى الفرس.

نادر خان والأفشار:

وجد نادر خان الفرصة ليعلن سيطرته فانتقد هذه المعاهدة، وحذّر الخليفة العثماني، وطلب منه إعادة الولايات إلى أصحابها، وسار إلى أصفهان، وقبض على الشاه طهماسب، ووضع ابنه الطفل عباس الثالث في السلطة، وأعلن نفسه وصياً عليه عام ١١٤٥، ثم حاصر الموصل وبغداد، ولكنه هُزم، ثم ما لبث أن كرر الهجوم فأحرز النصر، وقتل القائد العثماني عثمان باشا، وفشل في التفاهم مع شركة الهند الشرقية البريطانية لدعمه لاحتلال البصرة، وأراد أن يُتابع القتال ضد العثمانيين، ولكن تمرداً قام ضده في فارس جعله يعقد معاهدة مع أحمد باشا والي بغداد العثماني بحيث تعود الولايات التي أخذها العثمانيون عام ١١٤٤ إلى الفرس، أي أن يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل التوسع العثماني، ولكن الخليفة العثماني لم يوافق على هذه المعاهدة، وكان نادر خان قد أنهى وضعه في فارس، فسار إلى الجبهة العثمانية واستدرج الجيش العثماني الذي كان بقيادة عبد الله كوبريللي، فانتصر عليه، ودخل تفليس، وأريفان، واضطر الخليفة العثماني عندها على الموافقة على الاتفاقية التي عقدت بين نادر خان ووالي بغداد أحمد باشا. ثم استردّ نادر خان مازندران، وجيلان بمعاهدة رشت التي عقدها مع الروس ١١٤٥، إذ وافقت الإمبراطورة آن على ذلك، ولم تكن عندها مقدرة سلفها بطرس الأكبر، ثم استرد باكو، ودربند (باب الأبواب) مهدداً بالتحالف مع العثمانيين ضد الروس.

وتوفي الشاه الطفل عباس الثالث عام ١١٤٨، وأصبح نادر خان هو سيد البلاد، واتجه إلى بلاد الأفغان، واحتل قندهار بعد حصارٍ دام عاماً، كما استولى على بلخ، وهزم جيشاً للأوزبك. ثم اتجه إلى الشرق فدخل كابل، وبيشاور، وانتصر على جيش محمد شاه، ودخل دهلي ١١٥١، ولم يعلن نفسه سلطاناً على الهند، وإنما أبقى محمد شاه سلطاناً هناك، وإن أخذ نادر شاه مقاطعات شمالي السند. كما اجتاح عمان عام ١١٥٠.

عاد نادر خان إلى فارس، وسار عام ١١٥٢ فاحتلّ بخارى، وخوارزم، وعندما رجع من الهند وجد أن قبائل اللزكي في جبال القفقاس قد اعتدت على داغستان فأراد أن يُؤدّبها لكنه هُزم هزيمة منكرة أثّرت على نفسيته، وبدأت الحركات تقوم عليه، فقامت حركة في شروان وأخرى في فارس، وثالثة في استراباد، ثم شن حرباً على العثمانيين، وحاصر الموصل، وقارص، ورغم معاناته الكثيرة من الهجمات العثمانية إلا أنه انتصر في النهاية، وعقد معهم معاهدة عام ١١٥٩.

فشل نادر خان في إنشاء أسطول فارسي، وفشل في إعادة المذهب السني إلى فارس، حيث عمل على جعل مذهب الإمام جعفر الصادق مذهباً خامساً بين المسلمين، ولكن العثمانيين لم يقبلوا هذا ووافق الفرس على كره.

ثار عليه عمه في سيستانَ على حدود أفغانستان اليوم، وأعلن نفسه شاهاً، وثار عليه الأكراد فسار لتأديبهم فقُتل وهو في طريقه إليهم عام ١١٦٠.

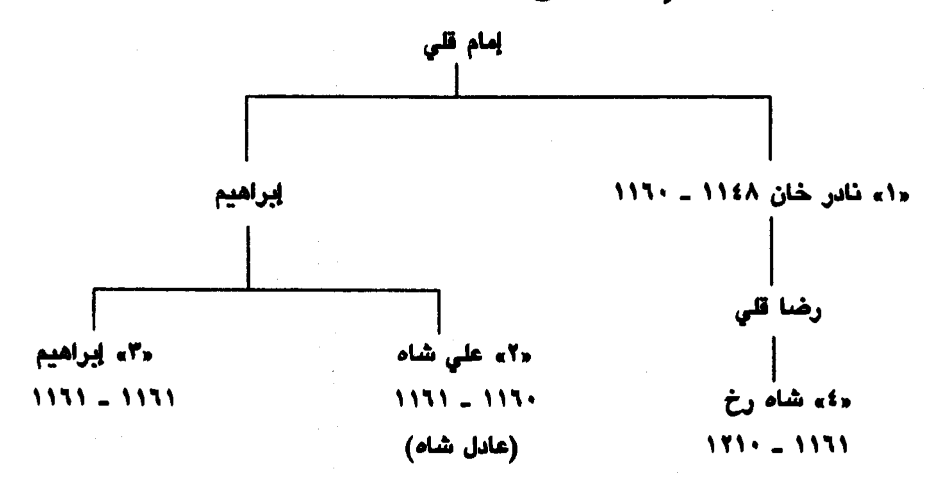
الأفشار بعد نادر خان:

سُرّ قادة نادر خان لمصرعه بسبب كثرة ساحات القتال التي كانوا ينتقلون إليها، ولكن اختلف معهم أحدهم، وهو أحمد خان الدوراني الذي كان يقود الأفغان والأوزبك، واصطدم مع بقية القادة، ودار قتال بين الطرفين، هُزم فيه أحمد خان، فانسحب إلى قندهار فأسس فيها مملكةً، ثم استولى على هراة، ومشهد، وغزا الهند فاستولى على كشمير، والسند، وجزءٍ من البنجاب، وسيطر على دهلي مدةً قصيرةً.

أما سلطان الفرس فقد أسند إلى علي قولي ابن أخي نادر خان الذي عُرف باسم (عادل شاه) فقضى على أسرة عمه كلها سوى حفيده شاه رخ مرزا بن رضا قولي بن نادر خان، ولكن ثار على عادل شاه أخوه إبراهيم وخلعه، ولكن إبراهيم لم يلبث أن قُتل، ثم قُتل أخوه عادل شاه أيضاً

وتولّى الحكم شاه رخ مرزا حفيد نادر خان وكانت أمه بنت الشاه حسين، ولكن نافسه مرزا سيد محمد الذي أعلن للناس أن شاه رخ يسير على سياسة جده في القضاء على المذهب الشيعي، وقاتله، وانتصر عليه، وقبض عليه، وأعلن نفسه شاهاً باسم الشاه سليمان، وقام يوسف علي قائد جيش شاه رخ فقبض على الشاه سليمان وقتله وأولاده، وأعاد شاه رخ إلى الحكم، وأصبح هو وصياً عليه بصفته أعمى وصغير.

ظهر قائدان آخران هما: علم خان الذي يقود قواتٍ عربيةٍ، وجعفر خان الذي يقود قواتٍ كرديةٍ، فقبضا على يوسف علي وقتلاه، وأعيد شاه رخ إلى السجن، ثم اختلف القائدان، واصطدموا، وكانت نتيجة الصدام أن انتصر علم خان الذي هُزم أمام أحمد خان الدوراني شاه قندهار فقتل، وخسر هراة ومشهد عام ١١٦٤ ـ كما ذكرنا ـ. وبقيت خراسان عامة ولاية فارسية تخضع لحكم أحمد خان، وتتبع اسمياً لشاه رخ الذي بقي حتى عام ١٢١٠ في السجن. فانتهى إذن حكم الأفشار، وإن كان لشاه رخ إمرة اسمية على جزءٍ صغيرٍ لا يخضع له.



الزنديون وكريم خان:

ظهر كريم خان الزندي الكردي الذي كان في جيش نادر خان، وقد تحالف مع علي مردان زعيم البختيار، ثم اختلف معه وقتله، وأصبح سيّد الجزء الجنوبي.

اختلف كريم خان مع محمد حسين خان، ومع أسد خان الأفغاني، وانتصر كريم خان على القاجار، وهاجم أسد خان الذي اعتصم في قزوين وأخذ يتقوّى حتى انتصر على كريم خان، وألجأه إلى التراجع إلى بوشهر، ولكن عادت إليه قوته فأحرز النصر على خصمه ورجع إلى شيراز، وانتصر على منافسيه وحكم مدة ثلاثين سنة أو أكثر (١١٦٣ ـ ١١٩٣) فنعمت البلاد في عهده بالرخاء والاستقرار، وعادت التجارة الأوربية. وتعاون مع الإنكليز، واستفاد من أسطولهم لإخضاع مير مهنا المتمركز في(بندر رق). واستطاع أن يدخل البصرة، وأن يعطي أمرها لأخيه صادق خان عام ١١٨٩، وبقوا فيها حتى توفي كريم خان.

الزنديون بعد كريم خان:

انقضّ على الحكم بعد وفاة كريم خان أخوه لأمه زكي خان، ولكن المنافسة قامت ضدّه إذ قام في شيراز أبو الفتح بن كريم خان وأعلن نفسه شاهاً، غير أن زكي خان لجأ إلى الحيلة فأعلن أنه جندي من جنود ابن أخيه، فاستطاع بذلك أن يأمن قادة أبي الفتح وأن يُنسّق الخطة، ولمّا تمكّن أعمل السيف في منافسيه، ودعمه في شيراز ابن أخته مراد خان.

وقام في وجه زكي خان أيضاً صادق خان أخو كريم خان الذي عهد إليه أخوه وهو على فراش الموت بالوصاية على أبنائه. ولكنه هدد زكي خان بإبادة أسرة كل من يتعاون مع صادق خان.

وقام القاجار في وجه زكي خان بقيادة آغا محمد. وبعث زكي خان جيشاً إلى أصفهان بقيادة علي مراد خان الذي لم يلبث أن انقلب ضده، واغتيل زكي خان عام ١١٩٥.

أصبح أبو الفتح بن كريم خان صاحب السلطة فسجن أكبر خان بن زكي خان، كما سجن أخاه محمد علي خان المتزوج من ابنة زكي خان، ولكنه ظهر صادق خان، وفرض نفسه على ابن أخيه، وبعد شهرين أقصاه، وتفرّد بالسلطة. وقام علي مراد خان ينافسه حيث رغب في الزواج من ابنة كريم خان، وحال صادق خان دون ذلك، وتمكّن علي مراد خان أن يستولي عام ١١٩٦ على أصفهان، على حين استولى صادق خان على شيراز، ثم استطاع علي مراد خان من دخول شيراز، واستسلم له صادق خان فقضى على أسرته جميعها باستثناء جعفر خان.

زحف علي مراد خان على مازندران حيث يرابط القاجار، فاستغلّ جعفر خان الفرصة وقام بثورة في زنجان، فعاد علي مراد خان مسرعاً، ولكنه توفي في الطريق، وخلا الجو لآغا محمد قاجار الذي انتصر على جعفر خان، ودخل أصفهان، ولكنه هُزم أمام زعيم البختيار فاستغلّ جعفر خان الفرصة، ودخل أصفهان، لكنه ثار عليه ابن عمه إسماعيل خان في همدان، وحاول جعفر خان أن يفرض سلطته على لورستان، وكرمان ولكنه مات مسموماً عام ١٢٠٣، فلما وصل خبر وفاته إلى ابنه لطف الله خان هرب إلى ميناء بوشهر، ولكنه لم يصمد أمام القاجاريين، وبدأ ينتقل من مكان إلى آخر، ثم تراجع إلى كرمان، وحاول التفاهم مع تيمور شاه الأمير الدوراني في قندهار، ولكنه توفي تيمور شاه. وأخيراً استسلم لطف الله خان إلى آغا محمد قاجار فقتله عام ١٢٠٩، وأباد أسرة الزند، وأصبح سيد البلاد آغا محمد.

القاجاريون:

مؤسس الأسرة القاجارية هو آغا محمد قاجار، ولد عام ١١٥٥، ووقع بيد عادل شاه، وأصبح خصياً عام ١١٦٠، وتزوّج كريم خان الزند أخته فأكرمه، وعندما توفي كريم خان عام ١١٩٣، انسحب آغا محمد إلى الشمال، وأعلن نفسه شاهاً، واتخذ من طهران قاعدةً له ومقراً لحكومته،

وكانت البلاد مقسمة فبدأ في الصراع حتى انتهى من أسرة الزند عام ١٢٠٩، ولكنه لم يلبث أن قتل عام ١٢١١.

تولى بعد آغا محمد أو الشاه محمد ابن أخيه فتح علي شاه، ولكن الجيش قد انقسم على نفسه، وبرزت الزعامات من جديد مجرد أن مات الشاه محمد، فقد ثار صادق خان شكاكي وتمكّن فتح علي شاه أن يهزمه، وقام محمد خان بن زكي خان الزندي واحتل أصفهان، فاستطاع فتح علي شاه أن يُخلّصها منه، وأن يقضي عليه، واختلف فتح علي شاه مع أخيه حسين قولي خان فاستغلّ سليمان خان قاجار هذا الخلاف، وأعلن العصيان، واتفق الأخوان، وفرّ سليمان خان، غير أن فتح علي خان قد عفا عنه، وولاّه أذربيجان، وقام نادر مرزا واستولى على مشهد قادماً من أفغانستان التي فرّ إليها من وجه آغا محمد قاجار، وسار إليه الشاه، فاستسلم له، فعفا عنه، واستمر حكم فتح علي شاه حتى توفي عام ١٢٥٠، أي أن حكمه قد استمر تسعاً وثلاثين سنة، وربما كانت هذه المدة من أخطر المراحل التي مرت فيها البلاد، إذ ما استلم الحكم عام ١٢١١ حتى نزل نابليون بونابرت في مصر عام ١٢١٣، وذعرت إنكلترا لذلك أشد الذعر، ودخلت المنطقة كلها في حلبة الصراع الدولي، أو هكذا عملت إنكلترا لتأمين الخطر الفرنسي الذي صوّرته أكثر من واقعه فنشرت الدعايات، وأخافت الحكام حتى لا يستطيع المرء أن يُصدّق ما نُشر يومذاك، وليس له من ثقة بوثائق تلك المرحلة، ولعلّ من جملة تلك الدعايات أن نابليون يريد أن يؤسس إمبراطورية في الشرق، وخاصة في فارس ويجعل أخاه إمبراطوراً عليها.

كانت إنكلترا تريد أن تتفق مع فارس لتكون سدّاً في وجه الفرنسيين من جهة، وفي وجه الروس الذين يتفقون أحياناً مع الفرنسيين، ورداءً للهند فيما إذا تعرّضت لغزو أفغاني، وطريقاً للتجارة الإنكليزية في الخليج العربي، وفي سبيل هذه الأهداف كانت البعثات الإنكليزية تتوالى على طهران سواء أكانت من إنكلترا مباشرةً أم عن طريق حكومة الهند، وقد

تتضارب الأهداف فتفتر العلاقات مع إنكلترا، ويزيد الضغط الفرنسي، لكن لا تلبث أن تعود إلى سابق عهدها بسبب السياسة الفرنسية التي قد تتفق مع السياسة الروسية أحياناً. ولم تترك إنكلترا منطقة الأفغان خارج دائرة اللعبة الدولية إذ كانت تحرص أن تكون ضمن دائرة نفوذها لتتجنب غزو الهند من جهتها، ولتأمين أي اتفاقٍ بين الروس والفرس أو الفرنسيين والفرس.

وكان شاه فارس يطمع في ضمّ بلاد الأفغان إليه، أو ضمّ كل جزء خضع للنفوذ الصفوي سابقاً. وكان أخان لزمان شاه حاكم منطقة الأفغان عند فتح علي شاه وهما: فيروز ومحمود يناوئان أخاهما، فأرسلهما شاه فارس على رأس قوةٍ إلى أفغانستان ولكن لم ينجحا، فسار بنفسه وقضى على ثورة اندلعت ضده في خراسان، ثم اتجه إلى أفغانستان، فانسحب نظام شاه من لاهور وبيشاور واتجه للدفاع عن أفغانستان من فتح علي شاه، وسقط نظام شاه عام ١٢١٦.

ووقَّعت إنكلترا معاهدةً مع فارس عام ١٢١٦ تنصّ على استمرار مقاومة الإنكليز والفرس لأيّ غزو أفغاني للهند، ولا يتمّ الصلح مع الأفغان حتى ينسحب الأفغانيون تماماً من بلاد الهند، وتمدّ إنكلترا فارس بالسلاح فيما إذا تعرّضت لغزوٍ فرنسي أو أفغاني. . . ولكن المعاهدة لم توقَّع لأن إنكلترا كانت تتهرب من دعم فارس ضد روسيا خوفاً من زيادة العلاقة بين روسيا وفرنسا، وخوفاً من قوة فارس المسلمة ضد روسيا النصرانية، فالعداء للإسلام في نفسية كل نصراني، وقبل كل شيء. وأبدت فرنسا رغبة دعم فارس لذا حدث تقارب فارسي فرنسي ووقعت معاهدة بين الطرفين عام ١٢٢٢، ولكن بعد شهرين وقعت معاهدة تليست بين روسيا وفرنسا، ترك الفرنسيون فيها يد الروس بالتوسع على حساب الدولة الفارسية أو العثمانية، وللتسوية السياسية أرسل نابليون بعثةً إلى طهران، استقبلت بحفاوةٍ، وتنازل الشاه عن جزيرة (خرج) للفرنسيين، ولكن هاجمت روسيا أريفان عاصمة أرمينيا التابعة للفرس عام ١٢٢٣ فانكشفت السياسة الصليبية الفرنسية أمام الفرس.

أرسلت إنكلترا وفداً إلى فارس عام ١٢٢٣، وقد نجح الوفد في مهمته لأن الشاه كان قد نفض يده من الفرنسيين نهائياً، وعقد الوفد معاهدةً مع الشاه موجهةً ضد فرنسا. وفي الوقت الذي سبق بقليل أرسلت إنكلترا وفداً إلى أفغانستان للتفاهم مع شجاع شاه لعقد معاهدة ضد غزو فرنسي فارسي، وتعهدت إنكلترا بمدّ شجاع شاه بالأسلحة.

هُزمت فارس أمام روسيا فأسرعت إنكلترا لعقد معاهدة مع الفرس لتحصل على ما حصل عليه الروس إثر انتصارهم، وكانت معاهدة ١٢٣٠. ثم هُزمت فارس ثانيةً أمام الروس في الحرب التي دارت بين الطرفين (١٢٤٢ ـ ١٢٤٤)، وقد تخلّت إنكلترا عن دعم فارس بحجة أنها هي التي أعلنت الحرب، فالنصارى بعضهم أولياء بعض.

العلاقات مع روسيا:

كان حاكم جورجيا هرقل قدانتهز مصرع نادر شاه عام ١١٦٠، وضمّ إليه بعض الأجزاء التي كانت تخضع لفارس، وبدأت قيصرة روسيا كاترين الثانية تُحرّض جورجيا على تهديد فارس مجرد أن وصل إلى الحكم آغا محمد قاجار عام ١١٩٣، ثم عقدت كاترين الثانية معاهدة مع جورجيا عام ١١٩٨ وتعهدت لها بحمايتها غير أن آغا محمد قاجار قد سار على رأس قوةٍ عام ١٢١٠ واحتل تفليس بعد جهد، ثم احتل أريفان، ولكن أخاه مرتضى قد فرّ إلى روسيا مغاضباً له، ومقابل الحماية الروسية لجورجيا فقد سار جيش روسي عام ١٢١١، واستولى على دربند، وباكو ثم عسكر في وادي موغان، ولكن توفيت القيصرة كاترين الثانية، وخلفها القيصر بول، وكان مسالماً فانسحب من الأراضي الفارسية. وغدا آغا محمد فغزا جورجيا عام ١٢١١، ونجح في غزوته تلك، ولكنه صرع عام ١٢١١،

وفي عام ١٢١٥ فتح حاكم جورجيا غورجين أبواب بلاده أمام الروس الذين تقدّموا في أراضي فارس التي اضطرت إلى عقد معاهدة معهم عام ١٢٢٨ هي معاهدة كلستان تنازل فيها فتح علي شاه عن دربند، وباكو،

وشيروان، وقره باغ، وجزءٍ من تاليش، وعن جورجيا، وداغستان، ووافق على ألا يكون لفارس أسطول في بحر الخزر.

شنّ الفرس حرباً على العثمانيين عام ١٢٣٥ استهدفت العراق، واستمرت الحرب عدة سنوات، واستعاد الفرس بعض ما كانوا فقدوه، ولم يكن بإمكانية الدولة العثمانية دعم واليها في بغداد داود باشا لذا فقد استنجدت بواليها على مصر محمد علي باشا الذي تخلّص من هذه المهمة بالحيلة حيث كان موقفه سلبياً، ولكن الكوليرا أصابت الجيش الفارسي، واضطر قائده محمد علي مرزا إلى عقد معاهدة أرضروم ١٢٣٨. وما أن هدأت الحرب مع العثمانيين، حتى شن الروس الحرب على الفرس عام ١٢٤١ واحتلوا تبريز، ووقع الطرفان بينهما معاهدة تركمان جاي عام ١٢٤٣ غير أن الشاه توانى في توقيع المعاهدة فهدد الروس بالزحف على طهران وحث وزير بريطانيا لدى الفرس الشاه على توقيع المعاهدة فوقعها. ولم تكن جهود المسلمين موحدة، واستغل الصليبيون هذه الناحية فنلاحظ أن روسيا قد انتصرت على الفرس، وعقدت معهم معاهدة تركمان جاي عام ١٢٤٣ وأذلتهم، ثم التفتت إلى العثمانيين وانتصرت عليهم، وعقدت معهم معاهدة أدرنة عام ١٢٤٤. وفي الوقت نفسه فإن الصليبيين بصفتهم أعداءً يحرصون الحرص كله كي لا يتفق المسلمون، ولا تكون لديهم أية قوة، فإنكلترا مثلاً بعد أن سيطرت على منطقة الخليج العربي لا تريد أن تكون البصرة والأهواز بيد دولةٍ مسلمةٍ واحدة سواء أكانت الدولة العثمانية أم الفارسية لأن ذلك يشكل خطراً عليها إذ يصبح من الصعب مقاومتها، لذا كانت تقف بجانب الفرس للحصول على الأهواز. وقد انتصر الفرس على عشائر بختيار، واستولوا على عربستان، وفرّ إلى العراق تامر شيخ قبائل كلب، ثم تابع الفرس زحفهم، وفرت قبيلة بني لام من سفوح جبال لورستان الغربية.

محمد شاه:

توفي فتح علي شاه عام ١٢٥٠، وخلفه حفيده محمد شاه بن عباس

مرزا، وفي أيامه كانت أفغانستان مسرحاً للمناورات الروسية والإنكليزية، ونازع محمد شاه عمه الذي كان حاكم فارس. كما ثار عليه بعض الأمراء القاجاريين ولكنه انتصر عليهم، وثار في عهده آغا خان زعيم الإسماعيلية، وكانت ثورته في إقليمي كرمان، ولورستان، ولكنه فشل في ثورته ففرّ إلى الهند، واستمرت غارات الإسماعيليين على البلاد من الهند لإنهاكها، وظهر أن الإنكليز كانوا الدعم الرئيسي لهذه الحركة. وظهرت في أيامه أيضاً حركة البابيين، وبدأت تنمو بتأييدٍ ودعمٍ من الروس.

وتوغل دوست محمد أمير الأفغان في منطقة سيستان فتحرّك الشاه إلى هراة.

واحتل الإنكليز جزيرة خرج عام ١٢٥٨، وبدؤوا يهددون ميناء بوشهر والساحل الإيراني.

ناصر الدين شاه:

توفي محمد شاه عام ١٢٦٤، فتولّى مكانه ناصر الدين شاه، وفي أيامه قام البابيون بثورتهم عام ١٢٦٤، ولكنها فشلت وأعدم الباب ميرزا علي محمد رضا الشيرازي، وقرة العين فاطمة بنت صالح القزويني تلك المرأة العاهرة التي كانت داعية البابيين، ونفي حسين بن علي المازندراني «بهاء الله» الذي أسس البهائية، وارتبط مع الإنكليز وأخوه يحيى «صبح الأزل».

ساعدت إنكلترا عام ١٢٧٢ أمير كابل دوست محمد، وفتحت على فارس جبهة في جهة الأفغان، وفي الوقت نفسه فتحت عليها جبهةً أخرى من الغرب على الساحل الإيراني إذ استولت على ميناء بوشهر ثم على المحمرة عام ١٢٧٣، ثم جرى الصلح، وانسحبت القوات الفارسية من هراة، ومن كل الأراضي التي عُرفت باسم أفغانستان.

وبدأت القروض الروسية تتدفق على إيران الأمر الذي جعل لروسيا حق الإشراف على إيران.

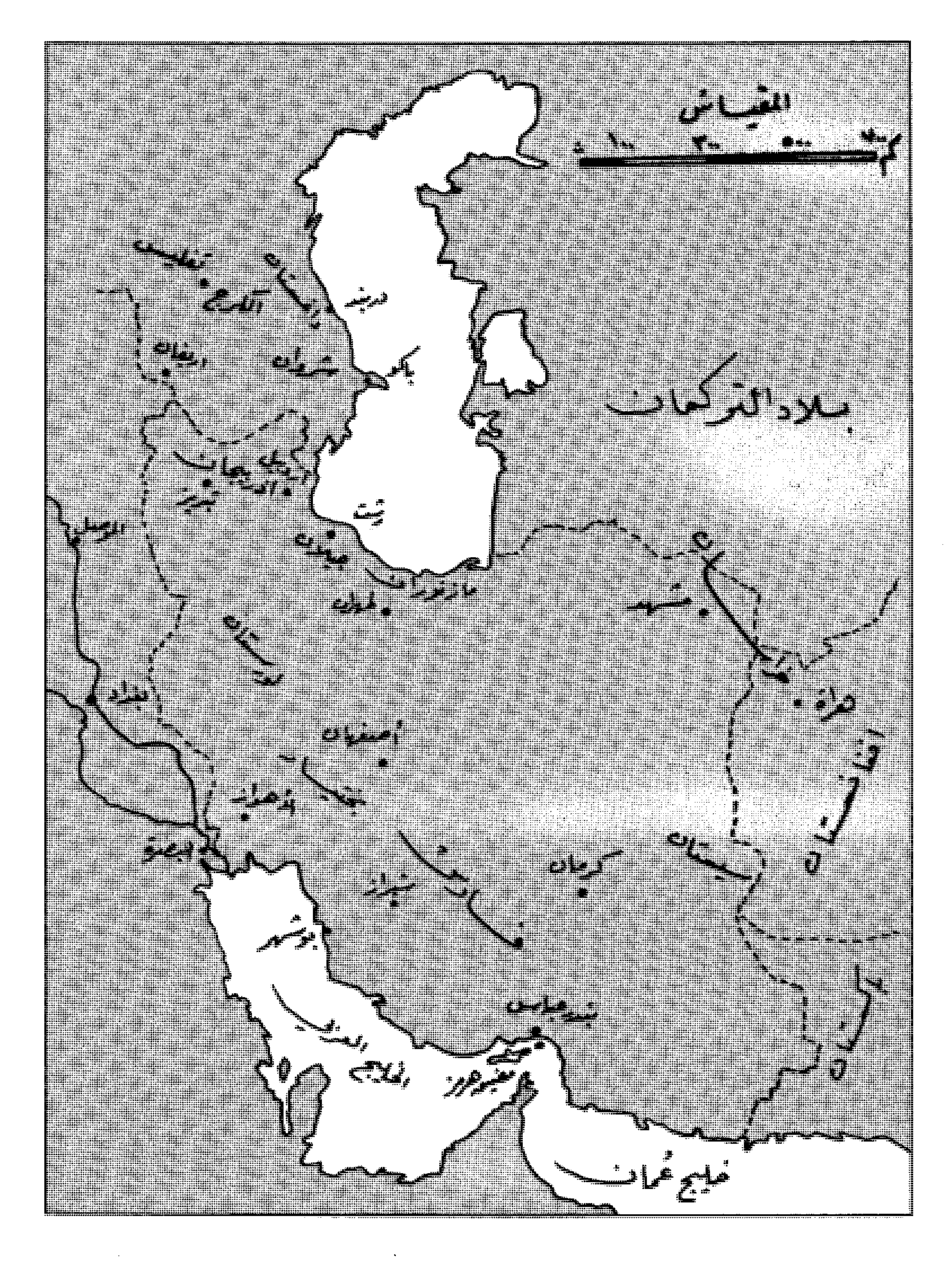
نهاية القاجاريين:

صرع ناصر الدين شاه عام ١٣١٣، وقام بالأمر مكانه مظفر الدين شاه، وفي أيامه زادت المطالبة بالدستور، وبالمجلس النيابي، وفي أواخر حياته وجد المجلس التشريعي وتوفي عام ١٣٢٤.

خلفه محمد علي شاه الذي حكم سنتين (١٣٢٤ ـ ١٣٢٦)، وفي أيامه جرى الاتفاق بين روسيا وإنكلترا على تقسيم فارس إلى منطقتي نفوذ لهما عام ١٣٢٥، وزادت الحركات في وجهه ففرّ إلى قزوين عام ١٣٢٦.

وقام أحمد باشا بن محمد علي شاه، وكان منصرفاً عن أمور الدولة إلى حياته الخاصة، فكانت النقمة عليه كبيرة، وزحف رضا بهلوي قائد فرق القوزاق عام ١٣٣٩ على طهران وسيطر عليها، وأجبر الشاه على تشكيل حكومةٍ برئاسة ضياء الدين طباطبائي، وتولّى رضا بهلوي فيها وزارة الحربية، ولكن تجزّأت البلاد إذ تشكّلت حكومة كردية في أذربيجان، ووجد تمرّد أيضاً في منطقة جيلان، ولكن رضا بهلوي استطاع أن يسيطر على المنطقتين، وتخلّى الإنكليز عن دعم الشيخ خزعل في عربستان، وساعدوا رضا بهلوي على مد نفوذه إليها عام ١٣٤٣.

سافر الشاه إلى أوربا، ولم يعد، إذ لم يوافق الشعب على عودته، وأعلن رضا بهلوي نفسه شاهاً.


المقياس
بلاد التركمان
خليج عُمان
بغداد
أصفهان
مشهد
هراة
كرمان
شيراز
بندر عباس
بوشهر
البصرة
تفليس
شروان
باكو
دربند

مصور رقم [٣١]

الفصل السّادس

بلاد الأفغان

خضعت بلاد الأفغان لحكم التيموريين، ولما ضعفت دولتهم انقسمت إلى إمارات، فكانت هراة تحت حكم خراسان التي يسيطر عليها حسين بيغرا التيموري، بينما تمكّن محمد بابر شاه ظهير الدين أن يُخضع كابل وغزنه بعد تركه بلاد ما وراء النهر لمحمد الشيباني زعيم الأوزبك عام ٩١١، وبقي في كابل ما يقرب من عشرين عاماً، ثم استدعاه أمراء اللوديين إلى الهند لخلافهم مع ملكهم إبراهيم بن إسكندر بن بهلول اللودي فاستطاع أن يدخل الهند عام ٩٣٢ بعد انتصاره على إبراهيم الذي قُتل في معركة (ياني يت) التي دارت بين الطرفين، وقُتل خمسة آلاف من جنوده، وأقام بـ(أغره)، وبقيت كابل وغزنه تتبعه، وتوفي عام ٩٣٧.

خلفه ابنه نصير الدين همايون شاه، فخرج عليه شيرشاه، واستطاع أن يهزمه، وفرّ همايون شاه إلى الصفويين حيث أقام مدةً ضيفاً على طهماسب شاه عام ٩٤٧، ثم عاد فاتحه إلى الهند، ودخل قُندُهار، وكابُل عام ٩٥٢، ثم إن الشاه عباس الأول استولى على قندهار، غير أن الصفويين لم يلبثوا أن ضعفوا من بعده، فسيطر الأوزبك على قندهار، ثم استطاع ملك الهند المغولي شاه جهان أن يطرد الأوزبك من قندهار عام ١٠٢١، وأن يُسلمها إلى الشاه عباس الثاني عام ١٠٣٨، ثم حاول أورنكزيب دخول قندهار لكنه عجز مع أن ملكه قد امتد إلى بخارى وخُوارزم، وبعد أورنكزيب فقد تبعت كابل وقندهار وغزنة إيران، أما هراة فكانت أغلب المدة السابقة تتبع إيران، وهكذا فإن بلاد الأفغان المعروفة باسم أفغانستان اليوم كانت تتعاقب عليها

ملوك الهند، وملوك فارس أو أن هراة تتبع فارس في أغلب الأحيان وكابل، وغزنه، وقندهار تتبع الهند وأحياناً يأخذها ملوك فارس.

بعد أن تبعت قندهار إيران بعد وفاة أورنكزيب عين الفرس عليها حاكماً نصرانياً من جورجيا، فتصرّف تصرّف المستبد، وأساء إلى الأهالي، فتمكّنوا بإمرة مير أويس أن يبعدوه وأن يحلّ مير أويس مكانه عام ١١٢٠، وسكت الفرس عن هذا لأن إمكاناتهم كانت ضعيفة، فلما قوي مير أويس بدأ يهاجم الفرس، فعندما أرسلوا إليه قوة انتصر عليها، كما انتصر على جيش أرسل إليه من جورجيا بقيادة خسرو ابن أخي حاكم قندهار السابق، فسقط خسرو صريعاً في المعركة عام ١١٢٣. ثم عاد الفرس فأرسلوا حملةً قويةً لإعادة قندهار إلى نفوذهم فعجزوا، وفرّ قائد الحملة محمد رستم. وتوفي مير أويس عام ١١٢٧، وقد أوصى لابنه محمود بالحكم من بعده إذ أصبحت قندهار إمارة مستقلة، لكن محموداً كان صغيراً لم يتجاوز الثانية عشرة فاستبد عمه عبد الله بالأمر، وعمل على التفاهم مع الفرس ليتمكن من استلام الحكم، وقد كان التفاهم على إلغاء ما كانت تدفعه قندهار إلى فارس، وعدم محاولة الفرس لإخضاع قندهار بالقوة، وتأسيس أسرة تحكم قندهار بالوراثة هي أسرة عبد الله. غير أن السكان قد غضبوا لفعل عبد الله هذا إذ أضاع انتصاراتهم، وقام محمود بن مير أويس، وقتل عمه عبد الله، وتسلّم حكم الإمارة. وهذا ما شجّع قبائل الدورانية (العبدلية) في هراة بقيادة زعيمهم أسد الله على محاربة الفرس، والاتفاق مع الأوزبك، فقد أحرزوا الانتصار، وأسسوا أيضاً إمارةً في هراة كانت على صلات حسنة مع إمارة قندهار ما دامتا معاً ضد الفرس.

وبدأ القتال بين مير محمود والفرس وتمكن زعيم قندهار من إحراز النصر، وتابع تقدمه نحو أصفهان، وجرت معارك جانبية في جهات مختلفة، وسقطت أصفهان عاصمة الصفويين أخيراً بيد مير محمود عام ١١٣٥، ولم يبق للصفويين إلا رقعة صغيرة في الشمال حيث يقيم طهماسب الثاني في إقليم مازندران، وبدأت قوة مير محمود تتراجع بسرعة

والروس تقدّموا من الشمال، وطلب الفرس منهم الدعم، إلا أن العثمانيين قد هددوا الروس فتوقفوا، ثم اتفق العثمانيون والروس على أخذ كل من الجانبين جزءاً من فارس، وضعف مير محمود عقلياً، فاستدعى الأفغان ابن عمه أشرف بن عبد العزيز، ونصبوه حاكماً بدل ابن عمه، فحارب العثمانيين واحتج عليهم باتفاقهم مع الروس النصارى ضد المسلمين، ثم اتفق مع الدولة العثمانية، ولكن قامت الحركات ضده في كثيرٍ من الجهات.

ظهر نادر خان ووقف بجانب طهماسب، وخاض المعارك، فدخل مشهد وهراة اللتين كانتا بيد الأفغان، وتقدم طهماسب نحو أصفهان فغادرها أشرف بعد مقاومةٍ بسيطة، وبعد أن قتل الشاه حسين الذي أبقاه من بين أفراد الأسرة الصفوية، وبذا أصبح طهماسب هو الشاه بعد أن كان ولياً للعهد، وقتل أشرف عام ١١٤٢، وهو يتجه نحو قندهار، وقد تفكّك جيشه، وتشتت جموعه وهي تسير نحو بلادها.

تابع نادر خان زحفه على قندهار وكانت تحت إمرة حسين أخي مير محمود فدخلها، كما أرسل جيشاً دخل بلخ لأن حاكمها وعد مير حسين حاكم قندهار بالدعم، ثم احتل كابل وغزنه وكانتا تحت حكم ملوك الهند المغول، إذ اختلف معهم، ودخل الهند، وهكذا أصبحت بلاد الأفغان ثانيةً تحت سيطرة الفرس، وعندما قُتل نادر خان عام ١١٦٠ في بلاد شروان أسرعت الفرقة الأفغانية التي كانت معه عائدةً إلى بلادها، واستقرت في قندهار، ونادت بقائدها أحمد خان عام ١١٦٣ أميراً على قندهار باسم أحمد شاه الإبدالي، وهو من الأسرة الدورانية، وعرفت إمارته باسم الدولة الأفغانية، وسمّى عاصمته قندهار أحمد شاهي.

بدأ أحمد شاه يوسع دولته فقد ضمّ ولايات كشمير، ولاهور، والملتان، وقاتل السيخ، والهندوك الذين تعاونوا على القضاء على الدولة الإسلامية، واضطر أخيراً أن يعود إلى بلاده بسبب المرض الذي أصاب جيشه، وبسبب الإرهاق الذي أصابه نتيجة الحروب مع السيخ والهنود، وتوفي عام ١١٨٧، وخلفه ابنه تيمور شاه الذي كان مؤهلاً لذلك إذ تسلّم

في حياة أبيه إمرة لاهور والملتان، ويوم توفي والده كان في هراة فنافسه أخوه سليمان في قندهار، غير أنه قد تمكّن من قتل أخيه، ودخول قندهار، ثم نقل العاصمة إلى كابل. استولى السيخ على الملتان عام ١١٩٦، ثم استردها منهم في العام نفسه، وقام أمراء السند بحركات ضده امتدت من (١١٩٧ ـ ١٢٠١)، وقد استقلوا فيها وإن كانوا يتبعونه اسمياً، واعتدى أمير بخارى معصوم على مرو فحاربه تيمور شاه فخضع له اسمياً، وقامت فتنة في كشمير ولكنها أخمدت، وتوفي تيمور شاه عام ١٢٠٧ بعد حكم دام عشرين سنة، وخلفه ابنه زمان شاه فحكم ثمان سنوات، ثم خلفه أخوه محمود شاه عام ١٢١٥.

كان الخلاف قد وقع بين زمان شاه وأخويه محمود شاه وشجاع الملك، وكان حريصاً أن يدافع عن الإسلام والمسلمين، وخاصة في الهند ضد السيخ والهندوك لذا فقد اصطدم معهم إلا أن اصطدامه ذلك كان في الواقع اصطداماً مع الإنكليز الذين بدأ نفوذهم في الهند وخاصة في الشمال إذ سيطروا على تلك الأجزاء فحرّك الإنكليز بوسيلةٍ أو بأخرى الأطراف المتعددة ضده، فهاجم القاجاريون في فارس بلاد الأفغان فاضطر أن يوقف حملاته ضد السيخ، وهدده أمير بخارى مراد، وتوعده أمراء السند، وخان كلات من البالوخ، وفي النتيجة فقد تغلّب أخوه محمود عليه، واعتقله، وسمل عينيه على عادة الفرس التي انتشرت في تلك المرحلة، وفقد الأفغانيون أيام زمان شاه ما كان لهم من ولايات في بلاد الهند.

نهض محمود شاه بالأمر عام ١٢١٥، غير أن أخاه شجاع الملك قد نازعه، وأعلن نفسه ملكاً في بيشاور، واستطاع عام ١٢١٨ أن يستولي على كابل ويخلع أخاه محموداً، ويسجنه، وأخرج شقيقه زمان شاه من السجن، وهو كفيف، بعد أن سمل أخوه محمود عينيه، وبقيت قندهار بيد قمران بن محمود، ويؤيده عمه فتح خان، ثم تصالح محمود خان مع أخيه شجاع الملك، ولكن لم يلبث أن عاد واختلف معه، وأيّد قيصر بن زمان شاه، ثم أيّد محموداً، وكان شجاع الملك يرسل الحملات إلى كشمير وبلاد السند

ويبذل قوته في هذا الجانب، على حين فتح خان يُدبّر الحيل، وتمكّن أن يهزم شجاع الملك في النهاية، وفرّ شجاع الملك إلى بلاد الهند عام ١٢٢٤، وعاد محمود إلى السلطة ثانيةً.

أصبح محمود يعتمد اعتماداً كلياً على أخيه فتح خان الذي أعاده إلى سدة الحكم، وفتح خان يعتمد على أخيه الآخر دوست محمد الذي قوي نفوذه، وحارب أخاه محموداً وهزمه عام ١٢٣٥، ثم إن محموداً قد قتل أخاه فتح خان، وأصبح دوست محمد يريد أن يثأر إلى شقيقه فتح خان، واستولى دوست محمد على كابل، ولقب نفسه أمير كابل، ولكن استولى السيخ على المقاطعات الهندية، واستولى الفرس على هراة من يد قمران بن محمود عام ١٢٥٨.

استنجد شجاع الملك بالإنكليز الذين وطدوا نفوذهم بالهند فلبى الإنكليز الطلب، وأرسلوا جيشاً دخل كابل، ونصّب شجاع الملك حاكماً عليها على حين فرّ دوست محمد إلى بخارى عام ١٢٥٥، وقد حاول أن يهاجم بلاد الأفغان من جهة الشمال، غير أن هجماته قد فشلت، فجاء إلى الأفغان وسلّم نفسه للإنكليز الذين نقلوه إلى كلكتا في البنغال.

انسحب الجيش البريطاني من كابل عام ١٢٥٧، وهاجمه أثناء الانسحاب أكبر خان بن دوست محمد، وكاد أن يبيده ويقضي عليه، وفي أثناء القتال بين الإنكليز وحليفهم شجاع الملك من جهة وأكبر خان من جهة ثانية قُتل شجاع الملك، ومنيت إنكلترا بخسائر كبيرة اضطرت بنتيجتها أن تُعيد دوست محمد إلى بلاد الأفغان، وأن تعترف بحكمه، وعقدت معه معاهدة صداقة، كما صالح روسيا التي بسطت نفوذها بالقوة على وسط آسيا، ثم ضمّتها إليها، وفي الوقت نفسه كان نفوذها قد قوي في بلاد الفرس، وأعاد إخوته وأبناءه إلى الإمارات غير أن الصراع بينهم لم ينته.

لم تقبل إنكلترا بموقف دوست محمد فهو لم يدعمها ضد الثورة الهندية عام ١٢٧٤، لذا فقد أطلقت الشائعات ضده بأنه يعمل لصالح روسيا، ولما كانت المنافسة قائمةً بينها وبين روسيا لذا فقد زحف الجيش

الإنكليزي إلى أفغانستان ولكنه لم يستطع التقدم بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها الأفغانيون، والصمود الذي أصروا عليه، وما كان من إنكلترا إلّا أن اعترفت بالحكم الأفغاني.

توفي دوست محمد عام ١٢٨٠ بعد أن استعاد هراة من الفرس، وخلفه ابنه شير علي، وحاول الإنكليز ثانية التدخل في شؤون بلاد الأفغان لحماية حدود الهند من غارات القبائل الأفغانية، أو للوقوف في وجه روسيا التي كانت قد ابتلعت الولايات الإسلامية في وسط آسيا، وأخذت جزءاً من خراسان عام ١٢٩٠، ولكثرة محاولة التدخل الإنكليزي في شؤون الأفغان فقد اضطر شيرعلي إلى الاستعانة بروسيا، ورحب بالبعثة الروسية، ورفض قبول الوفد الإنكليزي، فخافت إنكلترا على مصالحها، وأسرعت لاحتلال بلاد الأفغان، وقد تمّ ذلك عام ١٢٩٥، وإن كانت إنكلترا قد تكبّدت خسائر فادحة، وتوفي شير علي عام ١٢٩٦، وخلفه ابنه يعقوب.

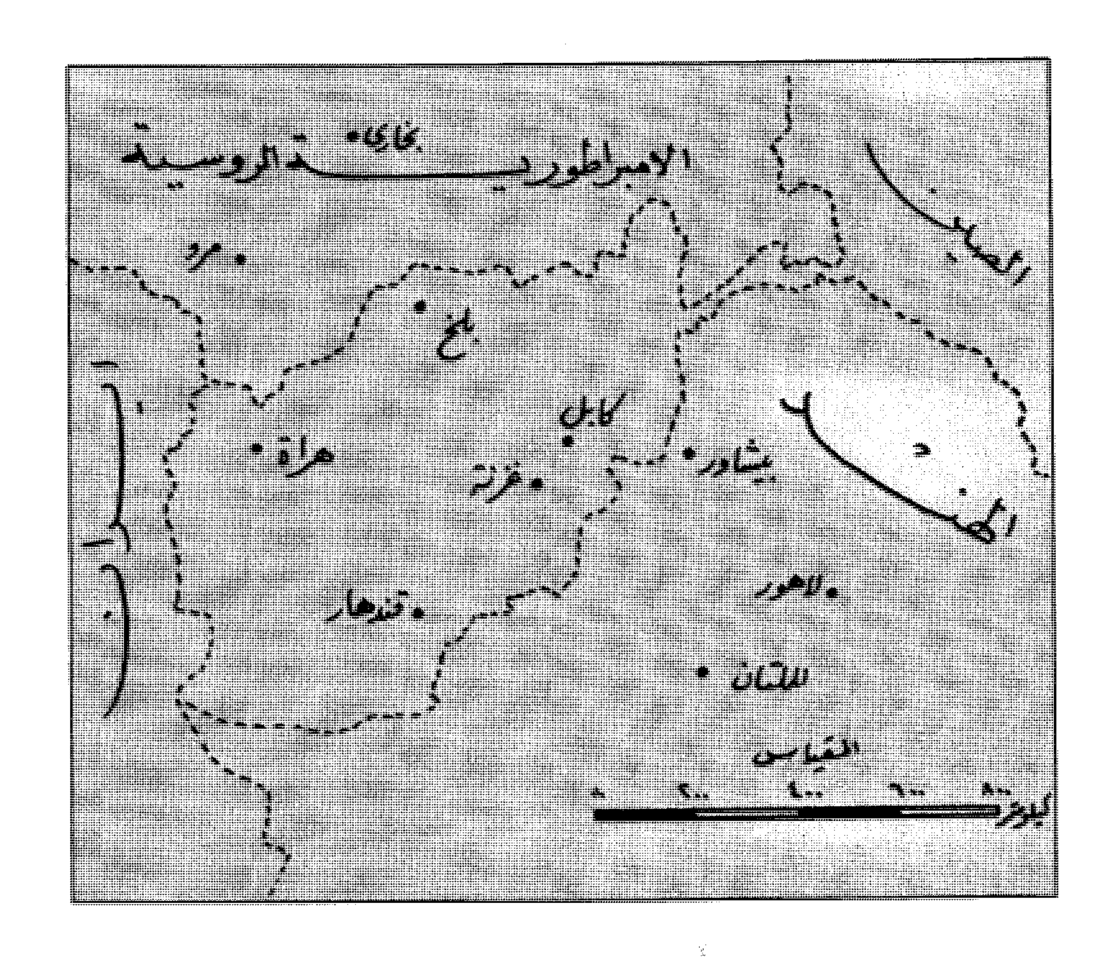
رفض الأفغانيون حكم يعقوب بن شير علي لأن ميوله كانت مع إنكلترا، وبدأت الحركات ضد المحتلين حتى اضطروا إلى الانسحاب، وعقدت معاهدة بين الطرفين اعترفت إنكلترا فيها باستقلال بلاد الأفغان الذاتي، وتبعيتها لإنكلترا في الشؤون الخارجية، وتسلّم الحكم عبد الرحمٰن حفيد دوست محمد، فهو ابن أفضل بن دوست محمد أي ابن عم يعقوب.

هاجمت روسيا هراة عام ١٣٠٢، وأسرعت إنكلترا لحماية هراة خوفاً على مصالحها الخاصة، وعُقدت معاهدة بين إنكلترا وروسيا عام ١٣٠٥ في بطرسبرغ، اكتفى الروس فيها بما أخذوه من خراسان وهو قسم بلاد التركمان التي كانت قاعدتها مرو، لكن روسيا عادت مرةً أخرى إلى التحرش ببلاد الأفغان، وغدت منطقة شمال شرقي أفغانستان، وهي باداخشان مثاراً للنزاع، ولكن عقدت معاهدة أخرى عام ١٣١٣ بين روسيا وإنكلترا أقرّت فيها روسيا بأن باداخشان جزء من بلاد الأفغان، ورسمت الحدود بين المناطق التي سيطر عليها الروس في وسط آسيا وبين أفغانستان، ثم عقدت معاهدة بين روسيا وإنكلترا للمرة الثالثة عام ١٣٢٥ اعترفت كلاهما فيها باستقلال الأفغان.

كان عبد الرحمن بن أفضل قد توفي عام ١٣١٩، وخلفه ابنه الكبير حبيب الله خان، وقد ازداد في عهده النفوذ الإنكليزي، وحاول العثمانيون جرّه لصفهم بجانب الألمان في الحرب العالمية الأولى، وإعلان الجهاد ضد الإنكليز، ولكنه رفض ذلك، وتضايق الأفغانيون من النفوذ الإنكليزي في بلادهم فاغتالوا أميرهم حبيب الله عام ١٣٣٨.

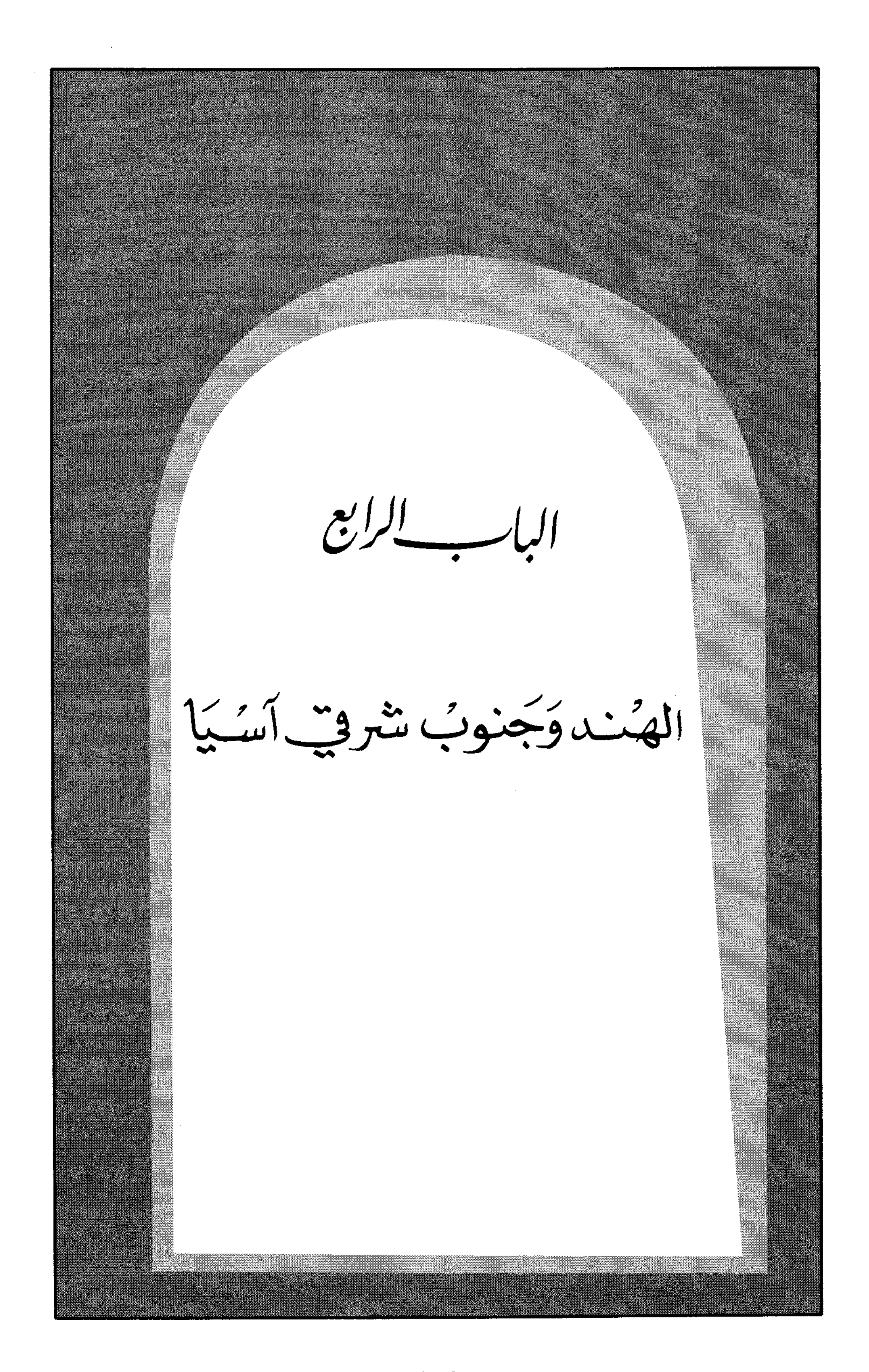
تولى بعد حبيب الله خان ابنه الثالث أمان الله خان، وتسمّى باسم ملك، وحاول التخلّص من النفوذ الإنكليزي في بلاده فساءت العلاقات مع إنكلترا، وكانت الحرب بين الطرفين عام ١٣٣٨، وتمكّن الأفغانيون بقيادة محمد نادر شاه الانتصار على الإنكليز في عددٍ من المعارك المتلاحقة، وقد استرد المناطق الأفغانية التي يسيطر عليها الإنكليز، وأجبر إنكلترا على الاعتراف باستقلال بلاد الأفغان التام، ووطد الملك أمان الله خان صلاته مع روسيا، وإيران، وتركيا.

انصرف أمان الله خان بعدها إلى حياة اللهو والاستهتار، والانتقال الدائم إلى أوربا في وقت كانت فيه تئن خزينة البلاد من العجز، وأبعد القائد محمد نادر شاه عن البلاد. وفي آخر مرة قام أمان الله خان بزيارة عدد من دول العالم عام ١٣٤٧ وأنفق الكثير، وعندما رجع قامت الثورة ضده فانتقل إلى قندهار، واضطر أن يتنازل عن الملك لأخيه عناية الله عام ١٣٤٨، لكن استغل ابن السقا هذه الاضطرابات وسيطر على كابل، وأعلن نفسه ملكاً باسم حبيب الله غازي، ولكن لم يستمر سوى تسعة أشهر حيث عاد محمد نادر شاه إلى البلاد، وقضى على ابن السقا، وأعدمه، واستلم السلطة.



بخارى
الامبراطورية الروسية
مرو
بلخ
كابل
هراة
غزنة
بيشاور
قندهار
لاهور
الملتان
القياس
كيلومتر

مصور رقم [٣٢]



الباب الرابع

الهند وجنوب شرقي آسيا



لا يقصد بالهند دولة الهند القائمة اليوم، وإنما يقصد بها شبه القارة الهندية التي تضمّ عدة دولٍ اليوم منها: الهند، وباكستان، وبنغالديش، ونيبال، وبوتان، وسيريلانكا، وكانت في هذه المرحلة التي نتكلم عنها تحت حكم المسلمين، وقد انتشر فيها الإسلام بالأجزاء الشمالية منها نتيجة الفتح منذ عهد بني أمية في الشمال الغربي منها، وأيام الغزنويين، ثم أيام الغوريين الذين وصلوا إلى البنغال، ثم ضمّ الخلجيون منطقة الدكن إليهم، فالإسلام قد انتشر في الهند بالفتح وخاصةً في الأجزاء الشمالية منها، وعن طريق التجارة في السواحل، أما المناطق الداخلية فقد انتشر فيها الإسلام بالدعوة وأثناء الحكم الإسلامي.

وتمتاز هذه المرحلة التي ندرسها بأن الهند قد خضعت لحكم المغول من ناحيةٍ وفي الوقت نفسه فقد وصل إليها عن طريق البحر الصليبيون المستعمرون بدءاً بالبرتغاليين ثم بالهولنديين فالإنكليز والفرنسيين من ناحيةٍ ثانيةٍ.

أما جنوب شرقي آسيا وهي ماليزيا، وأندونيسيا، وجنوبي الفيليبين فقد انتشر فيها الإسلام عن طريق التجارة والدعوة ولم تصل إليها أقدام الفاتحين أبداً، واستمر انتشار الإسلام في تلك الجهات تدريجياً حتى عمّ، وحينذاك بدأت طلائع المستعمرين الصليبيين تظهر وتصل إلى تلك المناطق، وكان المسلمون قد حكموا هاتيك الأرجاء فكان حقد الصليبيين عظيماً الأمر الذي جعلهم يُخضعون السكان، ويرتكبون أبشع المجازر، ويُسيطرون على الأرض، ويأخذون خيراتها.

وفي الهند وجنوب شرقي آسيا على حد سواء نلاحظ بقاء الوثنيات على اختلافها من هندوكية، وبوذية، وكونفوشية وغيرها إلى جانب الإسلام، ولو كان المسلمون هم الأكثرية والذين يحكمون البلاد وذلك لأن الإسلام قد انتشر في الهند في وقت الضعف فسمح ببقاء الوثنيات لكثرتها وانتشارها بين مجموعات كبيرة من البشر بل إن بعض الحكام من المسلمين كانوا يحاولون التقرّب من أصحاب هذه الوثنيات في سبيل الحصول على تأييدها لدوام ملكهم، اللهم باستثناء الأجزاء الشمالية الغربية التي فتحت أيام بني أمية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي أو في الأيام التي كان الإسلام فيها لا يزال ذا قوةٍ ومنعة، وتُطبق شرائعه بشكل جيد نسبياً، أما في جنوب شرقي آسيا فقد نما الإسلام إلى جانب تلك الوثنيات ولم يكن ليستطيع قهرها أو إلزام أتباعها على اعتناق إحدى الديانات السماوية فقط، وما أن تمكّن وتعمّقت جذوره حتى جاء الاستعمار بصليبيته وحقده، بل نستطيع كذلك أن نقول: إن قوة الإسلام في جنوب شرقي آسيا قد تكاملت في وقتٍ ضعُف فيه المسلمون في ديارهم، ولم يعد فيهم ذلك النسغ الذي يروي عروقهم بالشكل الجيد، ولم يُطبقوا الإسلام بالصورة الصحيحة. والأصل بالإسلام ألا يسمح إلا باعتناق إحدى الديانات السماوية وتلحق بها المجوسية التي كانت منتشرة في فارس قبل الإسلام، فعن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لم يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. (روى ذلك البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد)، وفي رواية: أن عمر ذكر المجوس، فقال: ما أدري، كيف أصنع في أمرهم؟ فقال له عبد الرحمٰن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب»[1].

(١) المنتقى من أخبار المصطفى ﷺ لمجد الدين أبي البركات عبد السلام بن تيمية الحراني - المجلد الثاني ص٨٣٦، تحقيق محمد حامد الفقي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

ففي دار الإسلام أي المناطق التي يُطبّق فيه شرع الله لا يصح أن يعيش فيها إلا أهل الإسلام وأهل الكتاب والمجوس، ولا يصح أبداً أن يقطنها عبدة الأبقار، والأصنام، وعبدة البشر وأصناف أهل الشرك والإلحاد. وإذ اختلف بعض أهل العلم في ذلك، وقالوا هذا ينطبق فقط على العرب، فإن الإسلام لا يعرف العصبية المنتنة، ثم واقع البلاد التي فتحها المسلمون، وطبّقوا فيها شرع الله يشهد لذلك، فهي لا تزال خاليةً من أبناء الوثنيات حتى الآن رغم أنها كانت قبل الفتح تعجّ بهم، وإن سبي أبي بكر، رضي الله عنه، لبني حنيفة عندما ارتدوا وهم من العرب ليشهد أن الإسلام لا يعرف العصبيات.

والهند وجنوب شرقي آسيا على حدٍ سواء لم تخضع للدولة أو للخلافة الإسلامية في عواصمها التي حكمت منها أكثر أجزاء ديار الإسلام أو كانت تُشكّل الخلافة أو أعظم دولةٍ إسلاميةٍ في تلك المرحلة وهي: المدينة المنورة، ودمشق، وبغداد، والقاهرة، وإستانبول، وباستثناء شمال غربي الهند وهو منطقة السند التي دانت لدمشق، ولكن المسلمين في تلك الجهات كانوا يتفاعلون مع مركز الخلافة ويعدّون الخليفة مرجعهم الرئيسي، ويرتبطون به معنوياً لا سياسياً أو تنظيمياً إذ يفرض عليهم حكامهم الارتباط بهم أو الخضوع لهم.

لقد استغلّ المستعمرون هذه المناطق بعد أن سيطروا عليها استغلوها سكاناً فكانت لكثرة سكانها تُشكّل قوام جيوشهم يضربون بها خصومهم فالقوة الهندية في الجيوش الإنكليزية معروفة بل كانوا يرمون بها إلى التهلكة، ويحاولون المحافظة على أبناء جنسهم، ويتبادر إلى الذهن أثناء الحديث في هذا الموضوع على ما فعله الإنكليز بالقوة الهندية أثناء معركة العلمين المشهورة في المنطقة الواقعة بين مصر وليبيا إذ كان عليهم أن يفجّروا حقل ألغام، ولم يكن لديهم الحيوانات التي يسوقونها عادةً لتفجير مثل تلك الحقول، فدفعوا بالقوة الهندية مضحّين بها، وأبادوا من كان من تلك القوة التي كُلّفت بتلك المهمة، واستغلّوا السكان في استثمار المواد

التي يريدون إنتاجها، واستغلّوها في حقدهم الصليبي ضدّ الإسلام، فعملوا ضدّ الإسلام مما أثار المسلمين أيضاً وكان أن انقسمت الهند إلى عددٍ من الدول على أساس العقائد بعضها مسلمة، وبعضها هندوكية وبعضها بوذية، استغلّوا المسلمين فبعد أن أضعفوهم، ونهبوا خيراتهم، ومنعوهم من الوظائف أخذوهم جنوداً، وحاولوا أن يُنصّروهم، ولكنهم فشلوا في ذلك، استغلّوا الهندوس وحرّضوهم على المسلمين، وقوّوهم عليهم، وشجّعوهم بالمناصب. استغلّوا المنبوذين ودعوهم إلى النصرانية فحصلوا منهم على بعض النتائج. أثاروا الفتن، قسّموا الجماعة الواحدة، أوجدوا القاديانية كعقيدةٍ شاذةٍ ليضربوا بها المسلمين، ويفتّوا من عضدهم، وليلبسوا عليهم دينهم، ولا تزال هذه المجموعة بأيديهم، وتجد العون في البلدان التي كان الإنكليز يستعمرونها، وكذلك كان شأن الإنكليز في الملايو، والهولنديين في أندونيسيا، وإسبانيا، والولايات المتحدة مع مسلمي الفيليبين.

أخذ المستعمرون خيرات البلاد الزراعية والمعدنية، وأسسوا مزارع المطاط، والشاي، والنخيل الزيتي وغيرها، واستثمروا المعادن ومن أهمها القصدير، واستخرجوا النفط من مكامنه... وعاش الناس في حالةٍ من الفقر والبؤس أورثتهم الذلّ...

الفصل الأول

الهند

منذ أن بدأت غزوة تيمورلنك للهند بدأ الضعف يظهر على السلطة، وفي عام ٨١٧ استطاع أحد القادة التيموريين أن يدخل العاصمة دهلي، وأن يتولّى نائبهم خضر خان أمرها، وأن يؤسس أسرة حكمت البلاد حتى عام ٨٥٥ هي أسرة السادات أو الخضرخانية، ثم ورثهم اللودهيون الأفغان، فحكم بهلول اللودي (٨٥٥ ـ ٨٩٤) وورثه ابنه إسكندر الثاني (٨٩٤ ـ ٩٢٣) ثم إبراهيم الثاني بن إسكندر (٩٢٣ ـ ٩٣٢) ونكون في عهد إبراهيم هذا قد دخلنا في هذه المرحلة التي ندرسها.

إلى جانب الحكومة في دهلي كانت توجد عدة إمارات في بلاد الهند بعضها مسلمة، وأشهرها إمارة كوجرات ذات الأهمية التجارية، والتي كانت قد استقلت منذ عام ٨٤٠، ثم ضمّت إليها بعض الإمارات الثانية، ثم إمارة (مالوه) التي ضمتها عام ٩٣٧، وخانديس التي استقلت عن الهند، ثم ضُمّت إلى كوجرات. وبعض تلك الإمارات كان هندوكياً مثل: إمارة (فيايانكر) في أقصى جنوب بلاد الهند، وكانت تُقاتل الإمارات الإسلامية، وقد وجد فيها البرتغاليون حليفاً أسياسياً.

١ ـ محمد بابر شاه:

كانت الأسرة اللودية التي تحكم الهند على خلافٍ بعضها مع بعض، وقد تمكّن إبراهيم الثاني آخر حكامها أن ينتصر على بقية منافسيه من

الأمراء فأظهروا له الطاعة، وأضمروا الشر، فاتصلوا بظهير الدين محمد بابر شاه[1] حاكم غزنة وطلبوا منه المسير إلى الهند. فسار إليها، واستولى على مدينة لاهور عام ٩٣٠، وخاض بعدها معركة عنيفة هي معركة (باني بت) ضد إبراهيم الثاني اللودي الذي قتل، وانتهى بقتله حكم الأسرة اللودية، ودخل ظهير الدين محمد بابر شاه الهند، وجعل مقر حكمه مدينة «أَغرة»، وذلك عام ٩٣٢، ووحّد شمالي الهند تحت سلطانه.

وقف في وجه محمد بابر الراجبوت الذين كانوا يُشكلون أكبر قوة في وسط الهند، واستغلّوا أمراء اللوديين الذين كانوا يطمعون بحكم الهند فأثاروهم ضدّ من استنجدوا به، فأعلن أحدهم وهو محمود خان نفسه سلطاناً على البلاد ودعموه، وهو أخو إبراهيم الثاني اللودي، وشكلوا معه حلفاً ضد محمد بابر شاه الذي أثار العاطفة الدينية عند المسلمين، وأعلن الجهاد ضد الراجبوت والكفرة الهندوك ومن يتعاون معهم، وبدأ بنفسه فأعلن التوبة وابتعد عن المعاصي فأطاعه الناس، وقلّده قادته، وخاض أكبر معركة ضد خصومه عام ٩٣٣، وهي معركة (خانوه) التي انتصر فيها انتصاراً حاسماً، ولم يبق أمامه سوى من اعتصم ببعض القلاع سواء أكان من الراجبوت أم من أمراء اللوديين ولكن دون أن تكون أية قوة لأحدهم. وبعد هذا النصر أعلن عن التسامح الديني كي يتمكّن من السيطرة، وتنتهي حزازات النفوس.

---

(١) ولد ظهير الدين محمد بابر شاه عام ٨٨٨، وتوفي أبوه وهو لا يزال صغيراً، وورث عنه حكم فرغانة، ونازعه أعمامه ثم توفّوا، وصفا له الجو، وتمكّن أن يحتل مدينة سمرقند إلا أنه اصطدم مع محمد الشيباني خان الأوزبك، وهُزم أمامه، واضطر أن يترك سمرقند مختفياً في الأرض، ثم جمع حوله القبائل الهاربة من أمام الأوزبك، وشكّل قوةً تمكّن من دخول كابل وغزنه، فثبّت أقدامه فيها وجعلها قاعدة انطلاقٍ له، ثم اتجه إلى الهجوم على الهند إذ عدّها من أملاك أجداده التيموريين، فهو محمد بابر بن عمر شيخ بن أبي سعيد بن محمد بن ميران شاه بن تيمورلنك. وتمكّن أن يحتل بعض أجزاء في الهند عام ٩٢٥.

٢ ـ همايون:

وتوفي محمد بابر شاه عام ٩٣٧، وخلفه ابنه همايون غير أن أخويه قمران وعسكر قد نازعاه الحكم، كما أن الأمراء اللوديين قد نصّبوا أحد إخوة محمود خان حاكماً على (كالنغر)، مع أن محمود خان كان لا يزال موجوداً إلا أنه ما دام قد هُزم أمام محمد بابر شاه فلا يمكن أن يعود إلى السلطة فقام أخوه ٩٤٠، كما أن محمود خان قد هُزم أيضاً أمام همايون وصالحه بعد أن حاصره في قلعة (كالنغر) لذا فقد ترك الأمر لأخيه.

كما قام فريد شير شاه[1] الأفغاني ضدّه أيضاً، إذ انتصر عليه عام ٩٤٦ ففقد بذلك همايون بيهار والبنغال، وتسلّم السلطة فيهما فريد شير شاه من سادته اللوديين هناك أو النوحانيين كما يسمّون، وهم فرع من اللوديين. ثم فقد البنجاب، وبعدها أفغانستان، وبقي شريداً في إقليم السند، وقد وقع ابنه الطفل جلال الدين محمود أسيراً بيد عمه عسكر، وبذا تمزّقت الدولة المغولية الفتية.

هذا ما كان يجري في الداخل أما ما كان يجري على الساحل فالأمر أشدّ خطورةً إذ كان الصليبيون البرتغاليون قد وصلوا إلى الساحل، وانتصروا على أمراء الهند المسلمين وحلفائهم المماليك الذين أرسلوا لهم أسطولاً من مصر عام ٩١٤، وأقام البرتغاليون بعض المراكز على السواحل، ووجدوا في إمارات الهنادك في جنوبي الهند حلفاء طبيعيين لهم ضد المسلمين. وكان المماليك بعد مدةٍ قد سقطت دولتهم، وقامت الدولة العثمانية مكانهم وبدأت تُنازل البرتغاليين فاستنجد حاكم كوجرات بهادور شاه بالعثمانيين، فأرسل الخليفة العثماني سليمان القانوني عام ٩٣٨ قوةً لدعم المسلمين في

---

(١) فريد شيرشاه: كان يعمل في خدمة حكام بيهار وهم فرع من اللوديين، إذ خدم دولت خان، ثم بهادور خان الذي لقبه شيرخان لشجاعته (يلقبه الأفغان شيرشاه) وتمكن أن يضم البنغال إليه عام ٩٤٢، ولما توفي بهادور خان عام ٩٤٥ وهو الملقب بالسلطان محمد خلفه ابنه جلال خان بهادور، فوجه قائده فريد شيرشاه ضد همايون فانتصر عليه عام ٩٤٦، وتمكن بعد هذا الانتصار أن يتسلم السلطة في بيهار والبنغال.

الهند، وكانت القوة بقيادة مصطفى الرومي الذي انطلق من المخا في اليمن متجهاً إلى (ديو) في كوجرات، فلما وصل إليها استقبله بهادور شاه وأكرم وفادته، ولقّبه رومي خان، وقد تعرّض مصطفى الرومي لكثيرٍ من غارات البرتغاليين، ولكنه انتصر عليهم، وأنزل بهم الهزائم المتكررة، وفي عام ٩٤١ دخل بهادور شاه سلطان كوجرات في حربٍ مع همايون بن بابر شاه سلطان الدولة المغولية فاستنجد بهادور شاه بالبرتغاليين ضد همايون، وعقد مع نائب ملك البرتغال معاهدةً، وسمح له ببناء قلعةٍ في (ديو)، وقد تمّ بناء هذه القلعة عام (٩٤٢ ـ ٩٤٣)، ثم نقض المعاهدة معهم بعد الصلح مع همايون شاه، ودخل في حربٍ جديدةٍ مع البرتغاليين، فهُزم وقُتل، واستولى البرتغاليون على (ديو) عام ٩٤٣، فأرسل السلطان العثماني سليمان القانوني لما علم بذلك واليه على مصر سليمان باشا لمنازلة البرتغاليين في الهند مع ١٢٠ سفينة، فوصل إلى هناك، وحاصر (ديو)، ثم وقع الخلاف بين ملك كوجرات الجديدة محمود شاه الذي ظنّ بسليمان باشا الطمع بالسيطرة على كوجرات وبين سليمان باشا، فقطع ملك كوجرات المؤن عن العثمانيين فاضطر سليمان باشا إلى مغادرة الهند، وعاد إلى اليمن، ومنها إلى السويس.

٣ ـ أكبر شاه:

ولنعد إلى الدولة المغولية فنجد همايون شاه قد استطاع أن يدخل كابل عام ٩٦٢ بعد طول عناء، وليجعل منها قاعدةً ينطلق منها ثانيةً، ولكنه توفي عام ٩٦٣ بعد أن استردّ دهلي، وخلفه ابنه محمود جلال الدين ولا يزال في الرابعة عشرة، وقد ساعده مربيه بيرم التركماني.

تمكّن بيرم التركماني أن ينتصر على الأسرة التي أسسها فريد شير شاه عام٩٦٣ في معركة (باني بت) الثانية، ولم يزد حكمها على ست عشرة سنة توالى خلالها خمسة ملوك، وضمّ بيرم منطقة البنجاب إلى دولة محمود جلال الدين الذي عُرف باسم أكبر شاه، ولم يلبث أكبر شاه أن عزل بيرم

التركماني خوفاً منه، وقبض بنفسه على ناصية الأمر فحرّك هذا التصرف بيرم فقام بحركةٍ غير أنه ألقى السلاح، وغادر البلاد ليقضي بقية حياته في مكة المكرمة.

ثار على أكبر شاه أخوه ميرزا حكيم، ولكنه هُزم أمام أخيه أكبر، فندم على ما فعل، وعفا عنه أخوه، واستطاع أكبر شاه أن يضمّ إليه بيهار عام ٩٨٢، ومنطقة برار في الدكن عام ٩٨٣، والبنغال عام ٩٨٤، وكوجرات عام ٩٨٠ بما فيها (مالوه) و(خانديس) المقاطعتان اللتان سبق لمملكة كوجرات أن ضمتهما إليها، وإن كان ضمّ أكبر لخانديس كان عام ١٠٠٨، كما ضمّ دولة نظام شاه في أحمد نكر في منطقة الدكن عام ١٠٠٨، كما ضم كشمير عام ٩٩٥، وبذلك أصبحت دولة أكبر شاه واسعةً جداً إذ تشمل أيضاً منطقة الأفغان.

وفي عام ٩٨٦ حاول أكبر شاه أن يوجد ديناً ـ على زعمه ـ يوحّد فيه المسلمين مع البراهميين، والجينيين، والبوذيين، والزرادشتيين و. . . ليسهل حكم الهند فمنع ذبح البقرة، واقتصر على النبات، وسمح بالزواج من البراهميات والعكس. . . ورأى أن يكون الدين كاللغة التي انتشرت أيام المغول وهي لغة الأوردو وهي مزيج من التركية لغة المغول والفارسية لغة الأدب إضافة إلى ما دخلها من كلماتٍ عربيةٍ وأجنبيةٍ، وظنّ النصارى البرتغاليون أنهم بإمكانهم تحويله إلى النصرانية وخاصةً أنه قد وضع معلماً نصرانياً برتغالياً لابنه سليم، وعندما خاب ظنّهم أساؤوا في الكتابة عنه، وجعل عاصمته الجديدة فتح بور مركزاً لهذه العقيدة الجديدة.

وفي عام ١٠٠٩ ثار عليه ابنه سليم وتمكّن من الانتصار على قائد أبيه أبي الفضل بالغدر، ثم هُزم أمام أبيه ولكنه بقي على تمرّده، وأرسل له أبوه المراسل حتى أقنعه بالطاعة ما دام سيكون ولي عهده. . .

هذا في الداخل حيث كانت القوة لا تزال للقوات البرية الأثر الكبير في القوة، أما على الساحل فقد سيطر البرتغاليون على المحيط تماماً، وأصبحت التجارة بيدهم، ولهم مراكز قوية على الساحل. وقد خشيهم أكبر

شاه وخاصةً عام ٩٨٣ عندما أرادت إحدى الأميرات (جلباذان) وهي عمته أداء فريضة الحج، فطلب منهم عدم التعرّض لها، وقدّم لهم مقابل ذلك موقع دامان الساحلي، وعندما رجعت بسلام عاد إلى خلافهم، وانقضّ جنود الدولة على مراكز البرتغاليين: ديو، وسورت، ودامان فاحتجّ نائب ملك البرتغال فادّعى أكبر شاه أن هذا التصرّف من عمال الدولة ولا علم له بذلك. وتوفي أكبر شاه عام ١٠١٤.

٤ ـ نور الدين جهانكير سليم شاه:

تولّى بعد أكبر شاه ابنه سليم شاه ولقب نفسه نور الدين محمد جهانكير، تزوج عام ١٠٢٠ بنور جهان، كان يحبها غير أنها كانت متزوجةً، فخطبها بعد قتل زوجها فأبت، ثم رضيت، وألقى بيدها زمام السلطة، وكانت ذات عقلٍ وجمالٍ، وكان قد استقلّ بالملك عام ١٠٢٢، واستمر في الحكم حتى عام ١٠٣٧.

٥ ـ شهاب الدين محمد شاه جهان:

عملت نور جهان على تعيين شهريار بن جهانكير في الحكم، وعمل الوزير آصف على حكم خرم بن جهانكير، ووقع الخلاف بين الطرفين، وأعمل الوزير الحيلة لإحراز النصر، إذ دعا لحكم دوار بخش بن خسرو بن جهانكير، فوقع الحرب بين الطرفين فاستغلّ خرم الفرصة، ودخل أكبر أباد، واستلم السلطة، وقتل إخوته، وفرض الإقامة على نور جهان، ولقّب نفسه شهاب الدين محمد شاه جهان، من مآثره أنه منع السجود تحيةً للسلطان، وهو ما ابتدعه جده أكبر شاه، واشتهرت أيامه بالعمران.

كان لشاه جهان أربعة أبناء وهم: دارا شكوه وهو الكبير، وولي العهد وقد أقامه أبوه عنده، ومحمد شجاع وكان في البنغال، وأورنكزيب، ومراد بخش في كوجرات.

مرض شاه جهان عام١٠٥٧ فكتم دارا شكوه عن إخوته خبر مرض

أبيهم، فقام كل في مكانه يريد الحكم، فانتصر ثالثهم وهو أورنكزيب عليهم، ودخل العاصمة فأجلس أباه في قصر الإمارة، وقد بقي عشر سنوات حتى توفي عام ١٠٦٨، وقتل أورنكزيب أخاه دارا شكوه، ولما توفي أبوه تمكّن من أخيه مراد بخش عام ١٠٦٨، ومن أخيه محمد شجاع عام ١٠٧٠.

٦ ـ محيي الدين محمد أورنكزيب عالمكير:

تسلّم السلطة كاملة عام ١٠٦٩، وعمل على تدوين الفقه، وأبطل ما ابتدعه أكبر شاه، ووسع ملكه فقد وصل من جهة الشمال حتى بخارى وخوارزم، وضم بيجابور عام ١٠٩٨، وكانت هذه الإمارة قد ضمّت إليها عام ١٠٩٧ دولة بريد شاه في بيدر. ودام حكمه خمسين سنة إذ توفي على فراشه عام ١١١٨، وله من العمر تسعون عاماً.

٧ ـ قطب الدين محمد معظم بهادور شاه:

عهد أورنكزيب من بعده إلى ابنه محمد معظم الذي لقّب نفسه شاه عالم بهادور شاه فتمرّد عليه إخوته، ووقعت الحرب بينهم فقُتل أخواه محمد أعظم، وكام بخش في المعركة، وتفرّد هو بالسلطة أو صفا له الجو.

اتخذ الشيعة مذهباً له، وضعف أمره، وعظمت قوة السيخ والمهراتا، واضطر بهادور شاه إلى إعطاء المهراتا ربع الخراج في بلاد الدكن... وهذا بدء الانقسام والضعف في دولة المغول في الهند. وتوفي بهادور شاه عام ١١٢٤.

٨ ـ معز الدين جهاندار شاه:

تولى بعد أبيه بهادور شاه، واختلف مع إخوته، عظيم الشأن، ورفيع القدر، وجهان شاه فانتصر عليهم، وقتلهم، ثم خرج عليه ابن أخيه عظيم

الشأن، وهو فرخ سير الذي أعانه الأمراء فانتصر على عمه، وتولى الملك، ولم ينعم معز الدين جهاندار شاه في السلطة بأكثر من شهر.

٩ ـ فرخ سير بن عظيم الشان:

اختلف مع الأمراء الذين أعانوه وخاصةً عبد الله خان، وحسين علي خان فخلعاه عام ١١٣١، وولّوا مكانه ابن عمه رفيع الدرجات بن رفيع القدر الذي أخرجوه من السجن، وكان مُصاباً بمرض السل، فلم يلبث أن توفي بعد أربعة أشهر.

١٠ ـ رفيع الدرجات بن رفيع القدر:

لم يكن بيده من الأمر شيء بل كان مريضاً، والأمر بيد عبد الله خان، وحسين علي خان، وهو ألعوبة بيديهما.

١١ ـ رفيع الدولة بن رفيع القدر:

لما مات رفيع الدرجات نصّب الأمراء أخاه رفيع الدولة، وقد لقّب نفسه شاه جهان الثاني، وكان مريضاً نتيجة السجن، فلم يلبث أن توفي في العام نفسه (١١٣١)

١٢ ـ محمد شاه:

عندما توفي رفيع الدولة اتفق الأمراء على تنصيب ابن عمه محمد شاه بن جهان شاه، غير أنه اختلف مع الأمراء الذين ولّوه، ووقعت الحرب بينه وبينهم فانتصر عليهم، وقُتل كبيراهم في المعركة، واستقل محمد شاه بالأمر، ودام حكمه ما يزيد على تسعٍ وعشرين سنة، وقد انصرف في أكثر أيامه إلى اللهو، وبسبب هذا الضعف فقد غزا نادر شاه البلاد عام ١١٥١، وأسرع إليه محمد شاه فالتقى الفريقان في سهل (باني بت)، وترك بعض قادة محمد شاه جيشه وانتقلوا إلى صف نادر شاه فضعف أمر محمد شاه،

ثم جرى الصلح بين الطرفين على أن يدخل نادر شاه دهلي، ويبقى محمد شاه ملك بلاد الهند. غير أن سكان دهلي بدؤوا يتفرّدون بجنود نادر شاه ويقتلونهم فبلغ ذلك أميرهم فأعمل السيف في السكان ثلاثة أيام، ثم ارتحل، وبقي محمد شاه في الملك نائباً عن نادر شاه.

١٣ ـ أحمد شاه:

تولّى الحكم بعد أبيه محمد شاه، وتسلّط عليه الوزراء، وكان يسير برأيهم، وليس له سوى الاسم.

كان أحمد الدوراني يغزو الهند قادماً من بلاد الأفغان، وغلب السيخ على بلاد البنجاب، وأسس مذهبهم رجل يُدعى «كرونانك»، وغلب المهراتا على كوجرات، واستقلّ وزيره نظام الملك في بلاد الدكن، وكانت البنغال قد استقلّ فيها واليها منذ عام ١١١٦، وهو نواب جعفر خان الذي لقبه أورنكزيب مرشد قلي خان، فأنشأ مدينة سمّاها مرشد أباد، وبقي حتى عام ١١٣٨، وخلفه في الولاية ختنه شجاع الدولة حتى عام ١١٥٢، ثم ولده علاء الدولة الذي خلعه وزيره بعد شهرين وتولّى الأمر مكانه، ثم ولي الأمر سبط سراج الدولة عام ١١٦٩، وهو الذي اصطدم مع الإنكليز. كذلك استقلّت «أوده» التي تقع بين بيهار وقنوج وقد استقل فيها منصور علي خان عام ١١٥٠، واستمر حكمه حتى عام ١١٦٧، وخلفه ولده شجاع الدولة الذي حارب الإنكليز وهُزم أمامهم، واستمر حتى عام ١١٨٨، حيث خلفه ابنه الذي انتقل من فيض أباد إلى لكنو، وبذا تجزّأت الدولة فضعفت الحكومة، وخُلع أحمد شاه عام ١١٦٧.

١٤ ـ عزيز الدين عالمكير بن جهاندار شاه:

لما خلع أحمد شاه نُصّب عزيز الدين بن معز الدين جهاندار شاه، فلُقّب باسم عالمكير الثاني، وفي أيامه أصبحت الأمور كلها بيد عماد الملك. وفي أيامه أيضاً غزا الإنكليز والي البنغال وقتلوه، وهو سراج الدولة. وفي ١١٧٢ قتل عماد الملك عزيز الدين.

١٥ ـ محي الدين بن كام بخش:

لما قتل عماد الملك عزيز الدين أخرج محي السنة من السجن، ونصّبه ملكاً ولقبه شاه جهان الثاني، ولم تمض سوى عدة أيام حتى غزا الهند أحمد شاه الدوراني ملك أفغانستان فقاتل المهراتا، وفرّ عماد الملك، فخلع أحمد شاه محيي السنة، وولّى مكانه جوان بخت بن عالي كوهر بن عزيز الدين. وكان أبوه عالي كوهر في مدينة عظيم أباد.

١٦ ـ شاه عالم بن عزيز الدين:

لما سمع عالي كوهر بتولية ابنه جاء إلى دهلي بمساعدة والي (أوده) نواب شجاع الدولة، وعزل ابنه، واستولى على السلطة. وساعد هو ونواب شجاع الدولة حاكم البنغالِ قاسم علي خان في حربه ضد الإنكليز، فانتصر الإنكليز عليهم عام ١١٧٤. وتلقّب عالي كوهر باسم شاه عالم.

بعد الهزيمة أمام الإنكليز بقي نواب شجاع الدولة في أوده، وشاه عالم في الله أباد ثم انتقل إلى دهلي، ثم قبض عليه الإنكليز، وعيّنوا له راتباً، وبقي في قلعة المعلاة بدهلي، وتوفي عام ١٢٢١هـ.

١٧ ـ أكبر شاه بن شاه عالم:

لما مات شاه عالم ولّى الإنكليز ابنه أكبر شاه، وجعلوا له راتباً، وبقي صورةً حتى توفي عام ١٢٥٤.

١٨ ـ بهادور شاه بن أكبر شاه:

خلف أباه، ويُكنى أبا ظفر، وفي عهده حدثت الثورة عام ١٢٧٣، وانطلق الجند نحو دهلي، وبايعوا أبا ظفر قائداً للثورة، وتمكّن الإنكليز من القضاء على هذه الثورة، وقبضوا على بهادور شاه، ونفوه إلى رانغون عاصمة بورما حيث بقي فيها حتى توفي عام ١١٧٨، وسيطر الإنكليز على البلاد، وألغوا الدولة المغولية، وسيّروا زمام الأمر بأنفسهم.

نتيجة الضعف الذي أصاب الدولة المغولية بعد أورنكزيب، وعدم الاتجاه نحو البحر حتى في أيام قوة الدولة جعل الدول البحرية الأوربية الصليبية يقوى نفوذها على الساحل، ثم يمتدّ إلى الداخل بسبب تجزؤ الدولة أيضاً إلى دويلاتٍ ضعيفةٍ ومتناحرةٍ تهتمّ بشؤونها الخاصة ومنافسة غيرها بل منازعتها لأسبابٍ منها زيادة السيطرة وامتداد النفوذ.

وصل الصليبيون البرتغاليون إلى الهند بإمرة فاسكو دي غاما عام ٩٠٤، ورأوا في البلاد أكثر مما يوصف لهم ويسمعون فعاد فاسكو دي غاما وأخبر دولته، فبعث ملك البرتغال أسطولاً بحرياً لاحتلال الهند، ودافع السكان عن بلادهم، ولكن تغلّب البرتغاليون على السواحل لما يملكون من أسلحةٍ حديثةٍ لا يعرفها الهنود، وسفنٍ كبيرةٍ لا يضاهيها ما عند السكان، ولكن لم يستطع البرتغاليون التقدّم إلى الداخل لقلة عددهم أمام سكان الهند، وضعفهم برياً أمام قوة المسلمين في الداخل، فاقتصروا على السواحل، وأسسوا مراكز لهم عملت بالتجارة، واحتكرت ذلك واستمروا ما يزيد على القرن من (٩٠٦ حتى ١٠٠٩)، غير أنهم لم يستطيعوا المحافظة على ذلك بسبب حقدهم الصليبي على المسلمين، وسلوكهم الشرس وأعمالهم التي في منتهى الوحشية إضافة إلى أن الدول الأوربية الصليبية الأخرى التي كانت تساعدهم ضد المسلمين في الأندلس، ودعمتهم في ملاحقتهم، وغرمت وقت الشدة، ولكنها لم تغنم وقت الرخاء، ولم تجد حتى التسهيلات في المعاملات أو رخص في أسعار البضائع، وهذا ما حملها على منافسة البرتغاليين، ونتيجة المنافسة فقد حمل الغزو المعنى الاقتصادي أو الاستعمار، وأخفى حقيقته الصليبية. واتخذت المنافسة شكل القوة فرضخت البرتغال، وتنازلت عن الاحتكار، وجاء المنافسون وكان أولهم الهولنديون ثم الفرنسيون والإنكليز.

رفع الهولنديون أسعار التوابل وهذا ما حدا بالإنكليز أن يدخلوا باب المنافسة والعمل على التجارة مع المشرق مباشرةً، إذ التقى التجار الإنكليز في لندن بمحافظ المدينة عام ١٠٠٨، وقرروا تأسيس شركةٍ تجاريةٍ تتعامل

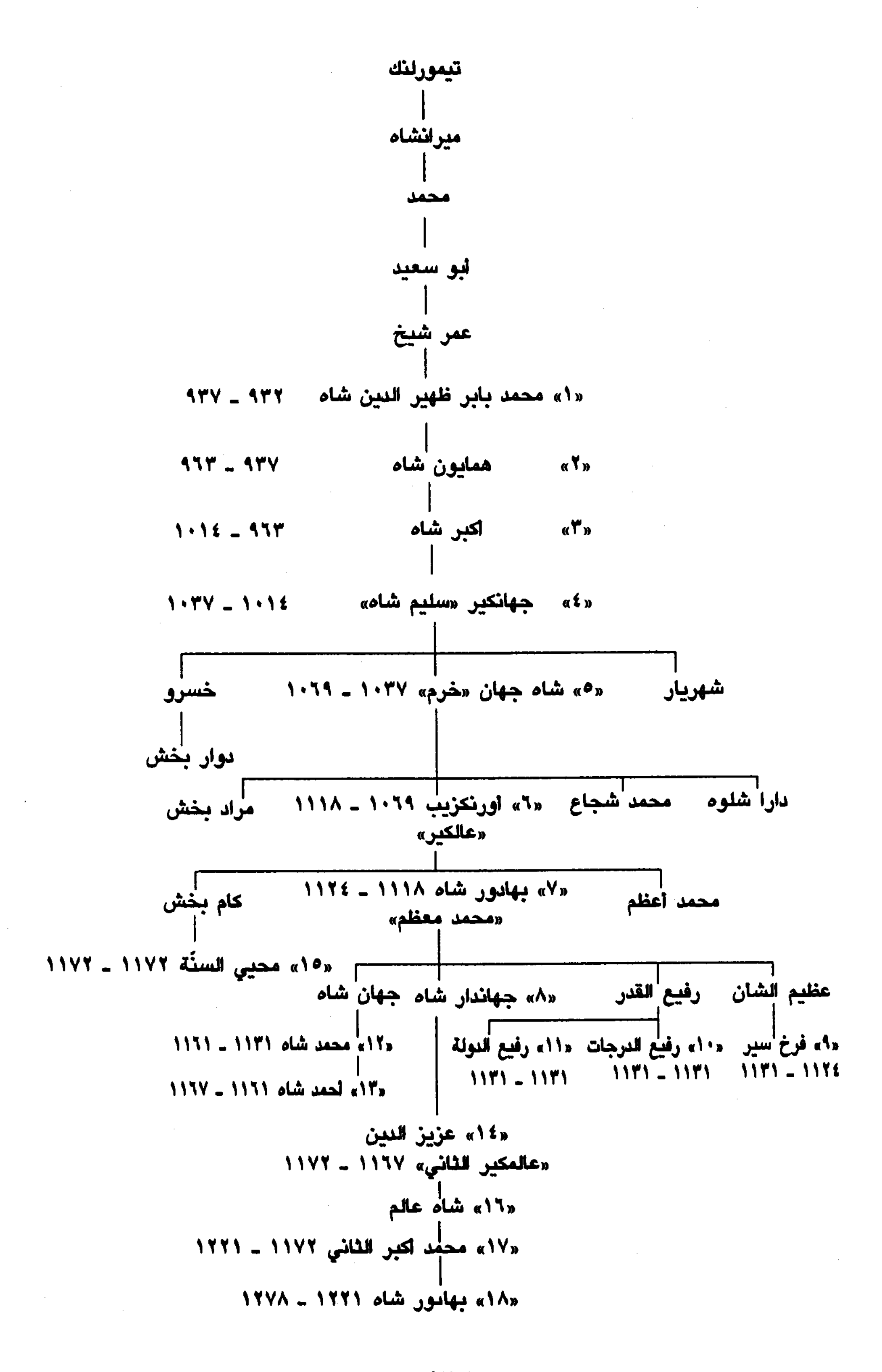
مع الهند مباشرةً، ورفعوا قرارهم إلى ملكتهم، فأوفدت إلى سلطان الهند تستأذن لتلك الشركة في المتاجرة ببلاده، فأذن لها، فأصدرت الملكة أمراً بإنشائها عام ١٠٠٩، وكان اسمها يومئذ «شركة تجار لندن وحاكمهم إلى الهند الشرقية»، ثم تألفت شركات أخرى لمثل هذا الغرض، وقامت المنافسة بين هذه الشركات لمدة أكثر من قرن حتى اتحدت عام ١١٢١هـ في شركةٍ واحدةٍ سُمّيت «شركة تجار الإنكليز المتحدة للتجار في الهند الشرقية»، ثم عُرفت «شركة الهند الشرقية» فأخذ الإنكليز يُتاجرون مع جزائر الهند «أندونيسيا»، ولم يدخلوا الهند لأن البرتغاليين والهولنديين كانوا يمنعونهم بقوة السلاح، وجرت الحروب، وتمكّن الإنكليز من النزول في البر، وكان أول بلدٍ نزلوه مدينة مدراس، ثم أخذوا يتقدّمون من بلد إلى آخر باسم التجارة، ويتغلّبون على الهولنديين. وكان السكان المسلمون ينظرون إلى الإنكليز وغيرهم من الصليبيين نظرة الريبة، ويتجرؤون عليهم الأمر الذي جعل الشركة تشتري أراضي، وتبني الحصون فيها لتتقي شرّ السكان، وأخذت الشركات الصليبية الأخرى تُقلّدها، وقام النزاع بين هذه الشركات ودولها، وكل دولةٍ تعمل للاستثمار بتلك البلاد واستعمارها لنفسها وكانت الغلبة للشركة الإنكليزية.

وعندما سيطر الإنكليز على الهند بقي للهنادك مملكتان مستقلتان في الشمال في سفوح جبال هيمالايا، هما: نيبال، وبوتان.

وبقي ثلاثة مراكز للبرتغاليين على الساحل الغربي هي: دامان شمال بومباي، وتموا، وجزيرة ديو، ومساحتها كلها ١٨٠٠ ميل مربع.

وبقي للفرنسيين أربعة مراكز هي: بونديشيري، وغندرنكر قرب كلكتا، ونياون، وكاريكال قرب الرأس الجنوبي.

أما بقية أجزاء الهند فقد أصبحت تحت سيطرة الإنكليز، وفيها ممالك مسلمة وأخرى براهمية.



تيمورلنك
ميرانشاه
محمد
ابو سعيد
عمر شيخ
«١» محمد بابر ظهير الدين شاه ٩٣٢ ـ ٩٣٧
«٢» همايون شاه ٩٣٧ ـ ٩٦٣
«٣» اكبر شاه ٩٦٣ ـ ١٠١٤
«٤» جهانكير «سليم شاه» ١٠١٤ ـ ١٠٣٧
شهريار
«٥» شاه جهان «خرم» ١٠٣٧ ـ ١٠٦٩
خسرو
دوار بخش
دارا شلوه
محمد شجاع
«٦» اورنكزيب ١٠٦٩ ـ ١١١٨
«عالكير»
مراد بخش
محمد أعظم
«٧» بهادور شاه ١١١٨ ـ ١١٢٤
«محمد معظم»
كام بخش
«١٥» محيي السنّة ١١٧٢ ـ ١١٧٢
عظيم الشان
رفيع القدر
«٨» جهاندار شاه
جهان شاه
«٩» فرخ سير
١١٢٤ ـ ١١٣١
«١٠» رفيع الدرجات
١١٣١ ـ ١١٣١
«١١» رفيع الدولة
١١٣١ ـ ١١٣١
«١٢» محمد شاه ١١٣١ ـ ١١٦١
«١٣» احمد شاه ١١٦١ ـ ١١٦٧
«١٤» عزيز الدين
«عالمكير الثاني» ١١٦٧ ـ ١١٧٢
«١٦» شاه عالم
«١٧» محمد اكبر الثاني ١١٧٢ ـ ١٢٢١
«١٨» بهادور شاه ١٢٢١ ـ ١٢٧٨

التسلّط الإنكليزي:

كانت شركة الهند الإنكليزية الشرقية تنقل في بداية أمرها البضائع من الهند إلى أوربا، أما بعد الانقلاب الصناعي فقد أصبحت تنقل المصنوعات من أوربا إلى الهند، وكانت بحاجة إلى نقل الإنتاج الكبير الذي تنتجه المعامل الإنكليزية إلى المناطق المكتظة بالسكان لتصريفه، وتُعدّ الهند من أكبر هذه المناطق، ولذا فإن وكالات الشركة في الهند قد أصبحت بحاجة إلى فتح أسواقٍ جديدةٍ لها في الداخل، ولهذا انتقلت مهمتها من تجارة إلى استعمار، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد كانت هذه الوكالات على السواحل تحصل على التجارة مقابل أموالٍ معينةٍ تدفعها إلى الحكومات المحلية في الهند، لذا لم تكن دولة المغول تشعر بخطر هذه الوكالات الصغيرة ذات الأفراد المحدودين، والسفن التجارية القليلة التي تمونها، ولكن الآن وقد أصبح وراء كل وكالةٍ شركة بحرية قوية ذات أسطولٍ كبير يُمكنه فرض الحصار على السواحل الهندية في الوقت الذي لا تملك الهند أسطولاً بحرياً، كما أن وراء هذه الوكالات دولاً ذات جيوشٍ مُنظّمةٍ ومدرّبةٍ تملك أسلحةً حديثةً وتعمل بالتخطيط، فقد تغيّرت لذلك الحال، وتغيّرت نظرة حكام الهند المسلمين إلى هذه الوكالات، ولكن متى؟ عندما ضعفت الدولة المغولية وتجزّأت، وغدت غير قادرةٍ على المقاومة الفعالة.

بدأت الوكالات الإنكليزية تتعامل مع الهنود البراهميين الذين أثْروا نتيجة هذه المعاملة فارتبطت مصالحهم مع الإنكليز، إضافةً إلى أنهم كانوا يحقدون على المسلمين دينياً، كما يحقدون عليهم بصفتهم حكاماً، وهذا أيضاً ربط مصالحهم مع الإنكليز وزاد التعامل معهم، وكانوا يدخلون على الحكام المسلمين في مراكز حكمهم باسم التجارة، وجلب البضائع إلى القصور، فيُشيعون الشائعات، ويُثيرون الفتن، ويُلقون البغضْاء بين الحكام المحليين الأمر الذي أضعف السلطة أو زاد في ضعفها، وزاد من الشحناء بين الحكام، وفي الوقت نفسه أصبح للإنكليز عملاء من الهنود البراهميين.

شعر المسلمون بالخطر، وأراد حاكم البنغال سراج الدولة أن يُسيطر

على مراكز الإنكليز على الساحل، وهاجم حصن «فورت وليم» الإنكليزي واستولى عليه، وانتصر على القوات الإنكليزية ـ الهندية المشتركة وذلك في شوال من عام ١١٦٩، وهذا ما أخاف إنكلترا فأعدت العدة للقتال، ودعم الفرنسيون سراج الدولة، وقد كانوا في حربٍ مع الإنكليز حتى امتدت هذه الحرب إلى مراكز الطرفين في الهند، وانتصر الإنكليز، وصغر حجم المراكز الفرنسية، ولجأ الإنكليز إلى الحيلة والخديعة، وتمكّنوا من شراء مير جعفر علي خان أكبر قادة سراج الدولة وأكثر أعوانه إخلاصاً له إضافة إلى أنه ختنه، ووقعت الحرب بين الطرفين في موقعة «بلاسي» عام ١١٧٠، ويبدو أن المعركة كانت تتأرجح بين الجيشين فانفصل مير جعفر علي خان عن أمته، وانضمّ إلى خصمها، وحقق الإنكليز النصر، ووقع سراج الدولة أسيراً في أيديهم فأعدموه، وأخذ مير جعفر حكم البنغال. عاد الإنكليز فخلعوا مير جعفر علي خان بعد مدةٍ يسيرةٍ، وولّوا مكانه قاسم علي خان، ثم رجعوا فعزلوه، وأعادوا مير جعفر علي خان، لأن قاسم علي خان قد عزّ عليه أن يسير طوع الإنكليز ولو أنهم هم الذين أعطوه الولاية، فلما عُزل استنجد بملك الهند المغولي عالم شاه، ووالي منطقة (أوده) شجاع الدولة، وسار جميعهم لحرب الإنكليز الذين جاءتهم النجدات. فهُزم المسلمون هزيمةً منكرةً في «بكسر» وقبضوا على الملك المغولي عالم شاه، وقبل شروطهم للخلاص من الأسر، وخضعت البنغال، وأوريسا، وبيهار للإنكليز الذين تفرّدوا بالسيطرة على هذه المناطق باسم شركة الهند الشرقية الذي أصبح المسؤول عنها الحاكم العسكري في الهند، وبدأ الإنكليز يقبضون على أجزاء الهند جزءاً بعد آخر عنوةً أو صلحاً.

ومن أشهر حروب الإنكليز للمسلمين في الهند حرب مقاطعة ميسور التي كانت المرازبة الهندوك تحت سيطرة المسلمين، فلما ضعفت الدولة المسلمة المركزية استبدّ المرازبة بما تحت أيديهم، وكان حيدر علي خان بن فتح علي خان أحد قادتهم، فخافه وزراؤهم، وأرادوا البطش به، فلما أحسّ بما يُدبّر له تسلّم السلطة بالقوة، ووسّع ملكه إذ استولى على أكثر

بلاد المهراتا وبلاد مدراس فخاف منه الإنكليز، وحاربوه وضمّوا إليهم المهراتا أعداءه الألداء الذين استولى على جزءٍ من أراضيهم، ونظام الملك حيدر أباد الذي يُريد أن يوسّع أملاكه على حساب مقاطعة ميسور، ولكنه صمد أمامهم، وتفوّق عليهم، إلاّ أنه في الوقت نفسه قدّر أن الصمود أمام الإنكليز والانتصار عليهم لا يكون باتباع الطريقة التقليدية في تنظيم الجيوش، واستعمال الأسلحة القديمة، ولا بدّ من استعمال الأساليب الحديثة والأسلحة المتطوّرة، واستخدم الفرنسيين لتحقيق هدفه، وقد كانوا في حرب مع الإنكليز، ولكن الصليبية هي الصليبية فعندما انتهت حرب الاستقلال الأمريكية تخلّت فرنسا عن حيدر فانتصر عليه الإنكليز، ثم توفي عام ١١٩٦، وخلفه ولده فتح علي المعروف باسم «تيبو» الذي تابع القتال، وهُزم أمام الإنكليز وحلفائهم، فأُجبر على توقيع معاهدة (سرنغا باتام) التي خسر فيها الكثير من أملاكه، ودفع غرامةً حربيةً وذلك عام ١٢٠٧.

عاد تيبو إلى إعداد جيوشه، وهو يفكر في وجود الحليف في الإمارات المسلمة في الهند، ولكن أين هي؟ لقد سقط معظمها، وبعضها مشغول في حرب بعض، أو هي ضده من الأساس. وكانت فرنسا تفكر في التعاون مع تيبو، وغيره من أمراء الهند للعمل ضد الإنكليز فأرسلت لهم الرسائل، إلا أن رسالتها إلى تيبو قد وقعت بيد الإنكليز فأثار ذلك حفيظتهم وشدّدوا الضغط عليه والحملات ضده، ولكنه انتصر عليهم، ولم تقدّم فرنسا ونابليون بونابرت شيئاً له. وعند هزيمة الإنكليز أمام تيبو لجؤوا إلى الغدر والحيلة، واستقدموا النجدات، وأطمعوا المهراتا فانتصروا عليه، وحاصروه في قلعته، وأغروا أحد قادته وهو مير صادق الذي لان لهم، لأنه توقّع الهزيمة ففتح أبواب القلعة للإنكليز الذين دخلوا إليها، وتلقّاهم السلطان تيبو بالقتال حتى سقط صريعاً عام ١٢١٤.

وأخذ الإنكليز كرناتك (كروماندل) بالإغراء وذلك عام ١٢٣٤ بالشكل التالي، كانت هذه المنطقة تتبع دهلي، ودخل الإنكليز إلى مدراس تجاراً عام ١٠٤٩، فلما تولّى آصف جاه ولاية بلاد الدكن كان معه أنور الدين بن

أنور بن نعمة الله فولاّه على كرناتك عام ١١٥٧ فاستقلّ بها، وقُتل عام ١١٦٢، فخلفه ولده محمد علي خان الذي اتخذ بعد مدةٍ مدراس قاعدةً لحكمه، واستخدم العساكر الإنكليز كرهاً بالفرنسيين، وقد توفي عام ١٢١٠، وخلفه ولده عمدة الأمراء الذي توفي عام ١٢١٦، فتولّى مكانه تاج الأمراء حسين علي خان وكانت الديون قد كثرت على الإمارة، فطلب الإنكليز من تاج الأمراء أن يُفوّضهم بحكم الإمارة لقاء دفع ما عليه من الديون فرفض، فراجعوا أحد الأمراء وهو عظيم الدولة فوافق وقد أغروه بالمال إذ رتّبوا له ولأقاربه مبلغاً ضخماً كل عام، واستولوا على المنطقة عام ١١٣٤هـ، وأبقوا أميرها صورةً، وتنتقل الإمرة في أسرته.

سيطر الإنكليز على الهند جزءاً بعد آخر بوسيلةٍ من الوسائل، واستولوا على أوقاف المسلمين التي كانت مصدر تمويل الكتاتيب الوحيدة، فتعطّلت الكتاتيب، وزاد الجهل، وفي الوقت نفسه سعوا في تعليم الهندوس ليسدّوا بهم بعض المراكز، وليتقوّوا بهم على المسلمين أو ليضربوا المسلمين بهم، وأخذوا أحسن أراضي المسلمين الذين عاشوا بعد ذلك بذلٍ وفقرٍ وجهلٍ، على حين نشط التعليم بين الهندوس إذ اعتقد الإنكليز أنه من المستحيل تنصير مسلمٍ واحدٍ على حين يمكن تنصير أعدادٍ من الهندوس، ويكون هؤلاء النصارى في المستقبل أنصاراً لهم وأعواناً، أو يحكمون الهند باسمهم أو يكون نفوذهم قوياً بواسطتهم، وانتشرت بذلك الإرساليات التبشيرية النصرانية، والتي سيطرت على التعليم الحكومي، وامتنع المسلمون من التعليم على يد النصارى الصليبيين، وأقبل الهندوس عليه، كل هذا جعل التفاوت كبيراً في ناحية التعليم بين المسلمين والهندوس، ومن ناحية اقتصادية فقد ضعف وضع البلاد بسبب السياسة الإنكليزية التي غمرت أسواق الهند ببضائعها، وكانت التجارة بأيدي المستعمرين، ولم تلقَ الزراعة أي تشجيعٍ، إضافة إلى أوضاع الفوضى التي جعلت الناس يهملون الزراعة..

ونتيجة الفقر الذي وقع في البلاد فقد انخرطت أعداد من السكان في

الجيش، وكان ضباطهم الإنكليز يسخرون منهم، ويستخفّون بهم، ويُحاولون ازدراء دينهم مما أدّى إلى حدوث الكراهية، ومحاولة النقمة كردّ فعلٍ، وحدث أن أدخل الإنكليز البنادق إلى الجيش، وطلب الضباط من الجند أن يمسحوا بنادقهم بالشحم، وسرت شائعة أن هذا الشحم من شحم الخنزير والبقر لإهانة سكان الهند سواء أكانوا مسلمين أو هندوساً فهاج الجند، وغضبوا لذلك أشد الغضب حتى اضطرت حكومة الهند الإنكليزية إلى إصدار منشوراتٍ تُكذّب هذه الشائعات ولكن لم يلتفت أحد إلى هذه المنشورات ولم يُصدقوها، وكتحدٍ من قِبَل الإنكليز فإن سرية الفرسان في بلدة ميرته على بعد ٤٠ ميلاً من دهلي قد وزعت الشحم على الجنود، وطلبت منهم استخدامه فأخذوه مكرهين إلا ٨٥ جندياً فقد رفضوا ذلك، فحُكم عليهم بالسجن عشر سنوات، وقرئ القرار على الجنود الإنكليز والهنود، وكُبّل الرافضون بالقيود، وسيقوا إلى السجن مشاةً مسافة ميلين، فأظهر بعضهم العجز عن المسير بتلك القيود، وتألّم الجند الوطنيون، وصعب عليهم، واتفقوا على إنقاذ إخوانهم هؤلاء رغم أنف الإنكليز الذين حاولوا منعهم، فهجموا على الإنكليز وقتلوا ضابطاً منهم، وعدداً من جنودهم... فصوب الإنكليز المدافع والبنادق على الجنود الهنود الذين فرّوا متجهين إلى دهلي حيث انطلقوا إلى دار الملك المغولي سراج الدين أبو ظفر بهادور شاه، وكان قد جاوز التسعين من العمر، وعدّوه ملك البلاد بل لا يعرفون غيره... وانتقلت هذه الحركة المحلية إلى ثورةٍ عارمةٍ شملت معظم أجزاء البلاد. وطلب الإنكليز في الهند النجدات فجاءتهم، وكانت إنكلترا قد انتهت من حروبها في القرم ضد الروس، وفي بلاد فارس، والجنود عندها مهيئة للحركة فاتجهت إلى الهند، وسارت إلى دهلي وحاصرتها عدة أشهر، ثم دخلتها، وقبضت على بهادور شاه وأسرته، وحكمت عليه بالنفي، وقتلت أبناءه في موكبهم أمامه، وعملت له وجبات من لحومهم، ونفته إلى عاصمة بورما «رانغون».

وسمعت بقية المدن بدخول دهلي فتأزمت الحالة وقامت الثورات،

وتأتي الجيوش الإنكليزية لتحاصر المدن، وتدخلها بعد مدة، وتنتقم من أهلها.

وبعد انتهاء الثورة عام ١٢٧٤ أعلنت إنكلترا انتهاء حكم شركة الهند الشرقية، وعدّت بلاد الهند من أملاك التاج البريطاني، يتصرف بها كيف يشاء. وعدّ الإنكليز المسلمين سبب الثورة لذا فقد صبّ المستعمرون جام غضبهم على المسلمين فصودرت أملاكم، وهُدّمت مساجدهم أو أصبحت ثكنات للجيوش، وشُرّد الناس، ورحب الهندوس بهذه الأعمال فأعانوا الإنكليز على قتل المسلمين، وادعوا أنه قد آن الأوان لهم للثأر والانتقام، واستلموا الوظائف، وحصلوا على الثروة، واشتروا الأرض حتى لم يبق للمسلمين سوى ٥٪ من الأراضي التي كانوا يملكونها من قبل، وكانت سياسة الإنكليز تقضي بتقريب الهندوس واضطهاد المسلمين، وقد صرح اللورد ألنبرو بهذا إذ قال: «ليس في وسعي أن أغمض عيني بأن هذا العنصر الإسلامي عدو أصيل العداوة لنا، وأن سياستنا الحقة أن نتجه إلى تقريب الهنود».

ومع أن الهند قد أصبحت تحت سلطة الإنكليز إلا أنه قد بقيت بعض الإمارات الصغيرة أو الكبيرة، منها ما هو بيد المسلمين، ومنها ما هو بيد الهندوس، وهذه الإمارات تحت سلطة الإنكليز الخارجية إلا أن الأمير مفوض بإدارة الأمور الداخلية، وقد بقي بعض هذه الإمارات حتى استقلت البلاد وتقسّمت، ومن هذه الإمارات حيدر أباد في الدكن، ومساحتها ٨٣ ألف ميل مربع، وتسمى بالدولة الآصفية نسبة إلى نظام الملك آصف الذي أسسها، والذي توفي عام ١١٦١، وبقيت حتى دخلتها الجيوش الهندية عام ١٣٦٧.

وإمارة بهوبال في الدكن، وقد أسسها ابن دوست محمد الأفغاني، وهو (يار محمد)، إذ ولّاه آصف جاه بهوبال فاستقل بها عام ١١٦٧، وبقيت حتى أُلغيت عام ١٣٦٦، وكانت مساحتها ٦٧٦٤ ميل مربع.

وإمارة جوناكدا في كوجرات، ومساحتها ٣٢٨٣ ميل مربع، تأسست

١١٧١، واستمرت حتى ألغيت عام ١٣٦٦. وغير هذه الإمارات كثير.

قام بعض المسلمين يريدون سدّ الثغرة التي حصلت، وأدّت إلى تأخر المسلمين فدعوا إلى التعليم، وحاول بعضهم تقليد الغرب مثل أحمد خان الذي رغب في التقرب من الإنكليز لينال الحظوة عندهم، فأنشأ كلية عليكرة، وأسس جريدة تهذيب الأخلاق، وبعضهم يرى العمل بمقتضى الإسلام، وقد تأسست ندوة العلماء، ودار العلوم التابعة لها عام ١٣١١ في مدينة لكنو.

وخاف الإنكليز عندما قوي التيار الإسلامي فعملوا على نشر الفكرة القومية ليضيع المسلمون بين الهنود، وتأسس حزب المؤتمر الهندي عام ١٣٠٣، ودخله الهنود، كما دخل فيه المسلمون بل إن بعض الهيئات الإسلامية قد اندمجت فيه مثل جمعية العلماء، ومؤتمر المؤمنين الهنود، ومؤتمر الشيعة، وكان هذا الحزب في البداية يُظهر احترام شعور المسلمين، ولكنه أظهر فيما بعد عكس ذلك فنادى بإخراج الغرباء من الهند، ويَعدّ المسلمين غرباء كالإنكليز، وبدأ التطرف من الهنود أو ظهرت بينهم جماعة من الغلاة الذين نادوا بقتل كل من يظهر ميلاً نحو المسلمين أو يحاول مسايرتهم. وكان لا بد أن يظهر تجمع خاص من المسلمين مقابل ذلك فوجدت الرابطة الإسلامية عام ١٣٢٤ بعد اجتماع في دكا في البنغال برئاسة النواب فخار الملك. وبدأ الخلاف واضحاً بين حزب المؤتمر والرابطة. وظهرت دعوة المتطرفين الهنود، ولا شك أن أكثر الهنود في حزب المؤتمر كانوا يؤيدونهم. وهذه الدعوة تتلخص في أربع نقاط:

١ ـ سانكاثان: أي الوحدة.

٢ ـ الراجا: أي الإله الهندي «رام راجا» أي وحدة العقيدة، وإجبار السكان جميعهم عليها.

٣ ـ شوذي: أي إرجاع المسلمين إلى الهندوكية.

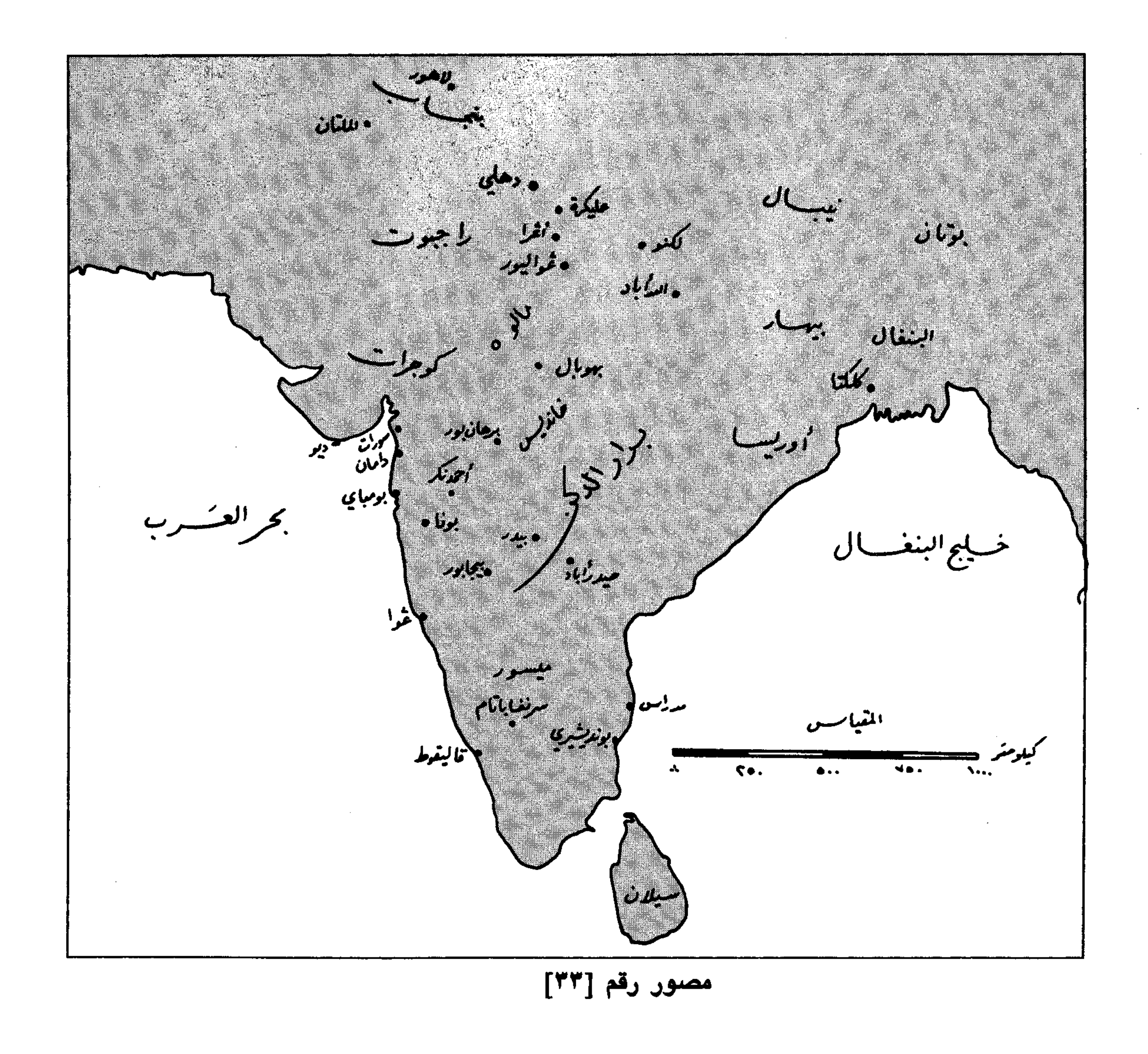
٤ ـ فتح أفغانستان ومناطق الحدود، وردّ أهلها عن الإسلام.

ويعدون سلامة الجنس الهندي ومستقبله متوقفة على تحقيق هذه النقاط الأربع.

ومعنى هذا لا يمكن اللقاء بين الطرفين إلا أن بعض المسلمين بقوا يرون أن بقاء وحدة الهند مهم جداً، ويرى بعضهم أن هذا مفيد للدعوة الإسلامية بين الهنود... لذا بقي بعضهم في حزب المؤتمر مدةً، ثم انسحب مثل محمد علي جناح الذي انضم إلى الرابطة عام ١٣٣٣، وعرض عليه الهنود أن يبقى، ويصبح رئيساً لحزب المؤتمر لكنه رفض... ومنهم من بقي أمثال أبو الكلام أزاد الذي أصبح وزيراً للمعارف في الهند بعد استقلالها مباشرةً.

وعندما أُلغيت الخلافة العثمانية بتأثير الإنكليز حدثت ثورة عامة شملت معظم أرجاء الهند، وعرفت باسم حركة الخلافة احتجاجاً على الإنكليز ودورهم في ذلك ونقضهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم للعرب.

ونتيجة تطرف الهنود وردّ فعل المسلمين والخلاف العقيدي بين الطرفين كان لا بدّ من الانقسام، وهو ما تم في النهاية.



لاهور
بنجاب
الملتان
دهلي
عليكرة
نيبال
بوتان
راجبوت
أغرا
لكنو
غواليور
الله آباد
مالوه
بهار
البنغال
كوجرات
بهوبال
كلكتا
ديو
سورات
دامان
برهانبور
خاندس
أوريسا
أحمدنكر
بومباي
بحر العرب
بونا
بيدر
بيجابور
حيدرآباد
خليج البنغال
غوا
ميسور
مدراس
سرنغاباتام
المقياس
بونديشيري
كيلومتر
٠
٢٥٠
٥٠٠
٧٥٠
١٠٠٠
قاليقوط
سيلان

مصور رقم [٣٣]

الفصل الثاني

المالديف

المالديف مجموعة من الجزر تقع في المحيط الهندي إلى الجنوب الغربي من الهند وسيلان، وعلى مسافة ٤٨٠ كيلومتراً من الطرف الجنوبي لشبه القارة الهندية، وعلى مسافة ٦٧٢ كيلومتراً من جزيرة سيلان. تمتد على شكل مجموعات من الشمال إلى الجنوب مكونةً تسع عشرة مجموعة جزيرية، يزيد عدد جزرها على ألفي جزيرة، إلا أن بعضها يغمره الماء أثناء المد، ويبقى ١٠٨٧ جزيرة ظاهرة بشكل دائم فوق الماء، ولا يوجد غير ٢٢٠ جزيرة مأهولة بالسكان، تبلغ مساحتها ٥١,٧٨٠كم٢ بما في ذلك المستنقعات، أما مساحة اليابس الدائم فهو ٢٩٨ كيلومتراً مربعاً. ولا يزيد عدد سكانها على ١٥٠,٠٠٠ ساكن.

وصل التجار المسلمون إلى جزر المالديف عام ٨٥ في خلافة عبد الملك بن مروان، وبدأ بعض الناس يدينون بالإسلام، ولكن ظهر أثر المسلمين واضحاً عام ٥٤٥ بعد أن وصل الدعاة إلى تلك الجزر، ومنهم أبو البركات البربري فاستطاع ـ بإذن الله ـ أن يأخذ بأيدي السكان نحو الإسلام، وأسلم الناس جميعاً حتى لم يبق في الجزيرة غير مسلم، وأسلم الملك وتسمّى محمد بن عبد الله. وقد زار الرحالة ابن بطوطة الجزر عام ٧٤٤، وأطلق عليها اسم ذيبة المهل، ولم يجد فيها غير مسلمين، وعمل قاضياً فيها مدةً.

وصل البرتغاليون إلى هذه الجزر عام ٩١٣ في محاولتهم لتطويق العالم الإسلامي، وقد تمكّنت القوة البرتغالية من احتلال الجزر، وفرضت سيطرتها على السكان، وحاولت التأثير على عقيدتهم ولكنها فشلت فشلاً

ذريعاً في ذلك مع أنها ارتكبت أبشع الجرائم لإرهاب السكان، وبقي البرتغاليون ما يقرب من القرن في هذه الجزر.

وفي مطلع القرن الحادي عشر كان الهولنديون قد وضعوا أقدامهم في جزيرة سيلان، وكان نجم البرتغاليين يغرب أمام المنافسين لهم من هولنديين، وإنكليز، وفرنسيين، وعقد الهولنديون معاهدة مع سلطان المالديف وضعت الجزر تحت حمايتهم، وحاولوا أيضاً كما حاول أسلافهم من الصليبيين تغيير عقيدة السكان غير أنهم لم يحصلوا على أية نتيجة بل وجدوا مقاومةً صلبةً من السكان، وفيها تحدٍّ واضح. وكانت جزر المالديف آنذاك تدار من قِبَل حكومة سيلان الهولندية.

وجاء الإنكليز إلى جزر المالديف عام ١٢١١ بعد المنافسات الصليبية، والمساومات، والاتفاقات، وتقسيم مناطق النفوذ فيما بينهم، أي أن الهولنديين بقوا أصحاب النفوذ في جزر المالديف ما يقرب من مائتي سنة. وفي عام ١٣٠٥ حدثت بعض الحركات في البلاد، فعقد الإنكليز مع السلطان معاهدة جديدة أعلن فيها وضع البلاد تحت الحماية الإنكليزية، ولم يبق للسلطان إلا الاسم.

وفي عام ١٣٥٠ تراخت قبضة الإنكليز قليلاً حسب سياستهم الجديدة التي اتبعوها بعد الحرب العالمية الأولى، فأعلن السلطان شمس الدين إسكندر الدستور. ولكن عندما استقلت سيلان عام ١٣٦٧ وضعت جزر المالديف تحت حماية التاج البريطاني مباشرةً، غير أن الاستعمار بشكل عام والإنكليزي بشكل خاص قد بدأ بعد ذلك يغير من أسلوبه، فلم يعد يناسبه الاستعمار العسكري ـ باستثناء الاستعمار الروسي ـ واتخاذ الجند وفرض الهيمنة، وإنما أصبح يُفضّل النفوذ والسيطرة الاقتصادية، أما الحكم فيُسلّمه لأنصاره وأعوانه، ومن هذا المنطلق فقد أعلنت الجمهورية المالديفية عام ١٣٧٣، وعُيّن محمد أمين ديدي سلطاناً على البلاد، وهو ابن عم رئيس الجمهورية السابق، وأصبح إبراهيم ناصر رئيساً للوزارة. وعقدت إنكلترا مع المالديف معاهدةً عام ١٣٧٦.

تعهدت إنكلترا عام ١٣٨٠ بدعم جزر المالديف مادياً، وبعد خمسة أعوام (١٣٨٥) اتفقت مع إنكلترا بمعاهدة جديدة تأكيداً لاتفاقية عام ١٣٧٦ ، واحتفظت إنكلترا بموجبها بقاعدةٍ جويةٍ في جزيرة (جان) بمقاطعة (أصول)، ونالت بعدها البلاد الاستقلال، وإن جرى جدل عنيف حول هذه المعاهدة التي وُقعت في مدينة كولومبو عاصمة سيريلانكا، كما قُبلت المالديف عضواً في الأمم المتحدة. وفي عام ١٣٨٨ انتخب إبراهيم ناصر رئيساً للجمهورية.

الفصل الثالث

ماليزيا

تشمل ماليزيا شبه جزيرة الملايو وشمالي جزيرة بورنيو، وتتألف من ثلاث عشرة ولاية، إحدى عشر منها في شبه جزيرة الملايو وهي: كيلانتان، وجوهور، وباهانغ، وسيلانغور، وبيرق، وقدح، ومالاقا، وبينانغ، ونيغري سميلان، وترينغانو، وبيرليز. واثنتين في شمال بورنيو وهي ساراواك، وصباح.

انتشر الإسلام في شبه جزيرة الملايو عن طريق التجارة، وفي عام ٦٧٥ أسلم ملك مالاقا أكبر دول الملايو آنذاك، وتسمّى باسم محمد شاه، وتبعه رعاياه، وخلفه بالحكم ابنه مظفر شاه، ومن مالاقا انتشر الإسلام إلى باقي الجهات.

وصل البرتغاليون إلى المنطقة عام ٩١٧، واستطاعوا بعد جهود كبيرة احتلال مالاقا في ذلك العام، وبعد حصار استمر عدة أشهر، وعندما سقطت بأيديهم قرعت أجراس الكنائس في روما ابتهاجاً بذلك النصر على المسلمين، وعمل البرتغاليون أبشع الأعمال الوحشية في المدينة، ففرت أعداد من المسلمين، وانطلقوا إلى أعالي نهر جوهور حيث أقاموا دولةً أخرى هناك في جنوبي شبه جزيرة الملايو.

وجاء الهولنديون إلى المنطقة عام ١٠١١، واستولوا على مالاقا عام ١٠٤٤، وزالت دولة البرتغاليين، وظنّ بعض سكان مالاقا أن الاضطهاد قد خفّ عنهم بمجيء الهولنديين محل البرتغاليين، لكنهم وجدوا أن الأمر نفسه

فالصليبية واحدة، والحقد على الإسلام واحد، وتابع الهولنديون سياسة البرتغاليين نفسها تجاه المسلمين.

وجاء دور الإنكليز فوصلوا إلى المنطقة، واحتلوا جزيرة بينانغ عام ١٢٠٢ من سلطان قدح بعد أن استأجرتها شركة الهند الشرقية الإنكليزية من سلطان قدح، ثم استولوا على مالاقا عام ١٢٠٧، ومع دخول الاستعمار الإنكليزي إلى المنطقة اتجهت سيول من الصينيين والهنود نحو الملايو للعمل، إذ فتحت لهم إنكلترا الطريق، وسهّلت لهم القدوم على شرط أن يكونوا غير مسلمين وذلك لتخفيف نسبة المسلمين في شبه الجزيرة.

أعاد الإنكليز لهولندا مالاقا عام ١٢٣٣، ثم عقدوا معاهدة مع الهولنديين عام ١٢٣٩، استردوا بتلك المعاهدة مالاقا، واعترف الهولنديون بالنفود الإنكليزي في شبه الجزيرة كلها، وكان الإنكليز قد اتجهوا عام ١٢٣٥ نحو سنغافورة، وسيطرت شركة الهند الشرقية الإنكليزية على سنغافورة عام ١٢٤٠، وحكمت إنكلترا شبه جزيرة الملايو من الهند، ثم من عدن، ولم تتدخل في بداية الأمر في شؤون السلطنات الداخلية، فبقيت شبه الجزيرة كيانات مستقلة تحت الإدارة البريطانية، ولكل كيان دستور محلي خاص.

رأت إنكلترا أن تلغي تلك الكيانات المنفصلة بعضها عن بعض، ففاوضت عام ١٢٩١ سلطان قدح، وعرضت عليه أن يقيم في بلاده بريطاني يُقدّم له النصائح والتوجيهات من غير أن يتدخل بالأمور التي تتصل بالدين الإسلامي أو بالعادات الملايوية فوافق أو أكره على الموافقة، ووافق بعدها سلطان (سيلانغور) بأن يستقبل عنده مقيماً إنكليزياً، وكذلك وافق كل من سلطان (باهانغ) و(نغري سميلان). وتلا ذلك أن دخلت هذه الولايات الأربع في اتحاد يديره كله مقيم بريطاني عام ١٣٠٣، كما قبل في العام نفسه سلطان (جوهور) حماية بريطانية له دون أن يحصل على بعض المنافع.

واتفقت تايلاند التي غزت شمالي شبه جزيرة الملايو مع بريطانيا أن

تكون ولايات (كيلانتان) و(ترينغانو) و(بيرليز) والتي قبلت كل منها أن تستقبل مقيماً بريطانياً عاماً عندها، ولكنها في الوقت نفسه رفضت أن تنضم إلى الاتحاد، أو إلى الممتلكات البريطانية، اتفقت تايلاند وبريطانيا أن تكون هذه الولايات مع ولاية قدح تحت النفوذ البريطاني وتشكل اتحاد الملايو، وقد ظلت السيادة بأيدي سلاطينها.

أما شمالي بورنيو فقد كان يتبع سلطان بروني. وفي عام ١٣٠٠ تأسست الشركة البريطانية لشمالي بورنيو، ولم يلبث أن امتد النفوذ الإنكليزي إلى مقاطعات صباح، وبروني، وساراواك وغدت محميات إنكليزية.

واستمر الوضع حتى نهاية هذه المرحلة (١٣٤٢)، وإن تطورت اقتصاديات البلاد بسبب زراعة المطاط ووجود معدن القصدير وهذا بالتالي ما أدى إلى اندفاع سيولٍ من الصينيين والهنود للعمل بل والاستيطان في المنطقة، وهذا ما أضعف نسبة المسلمين أولاً وسبب لهم مشكلات في المستقبل ثانياً.

فطاني:

فطاني ولاية ملايوية، خضعت كباقي أجزاء شبه الجزيرة إلى الممالك التي قامت في أندونيسيا، ولما حلّ الضعف بتلك الممالك استقلت عدة إمارات في شبه جزيرة الملايو، ومنها إمارة مالاقا، وقد تبعت فطاني هذه الإمارة عام ٨٦٥. وعندما احتلّ البرتغاليون مالاقا عام ٩١٧ تقدّم التايلانديون من الشمال، واحتلوا المقاطعات الفطانية إضافةً إلى إمارة (قدح)، ولكن هذا الاحتلال كان ضعيفاً الأمر الذي مكّن سلطان فطاني من الاحتفاظ باستقلاله الإداري، ووطد علاقاته التجارية مع الدول البحرية سواء المحلية مثل اليابان التي وطدت علاقتها معها عام ١٠٠٩ أم الصليبية المستعمرة القادمة مثل البرتغاليين، والهولنديين، والإنكليز وقد كان لكل هؤلاء مراكز تجارية في مدينة فطاني.

كانت إمارة فطاني تشمل الأراضي الممتدة من برزخ (كرا) في الشمال حتى حدود ماليزيا الحالية، وتحكم من قبل الفطانيين غير أن تايلاند تمكنت عام ١١١٢ في الأجزاء الشمالية من إمارة فطاني، واستمرت هجماتهم على بقية الأجزاء وأهم هذه الهجمات ما كان عام ١٠٤٢ و١٠٤٣ ولكنها فشلت في المرتين، وأخيراً تمكّنت تايلاند من احتلال فطاني عام ١٢٠١، وقسّمتها مباشرة إلى سبع مقاطعات لإضعاف روح المقاومة وتجزئتها، غير أن الفطانيين لم يلقوا السلاح فقد قاموا بثورةٍ عام ١٢٠٢ بقيادة (تنكولميدين)، وأعلن سلطان فطاني الاستقلال عن تايلاند، ولكن فشلت الثورة إذ استشهد تنكولميدين أثناء القتال، وأسر سلطان فطاني فنُقل إلى بانقوك عاصمة تايلاند.

عيّن ملك سيام حاكماً جديداً لفطاني هو (داتوفنكلان) الذي كان وزيراً للبحرية الفطانية سابقاً لكن هذا الحاكم الجديد ثار عام ١٢٢٣ على تايلاند، وأعلن استقلاله، ولكن الحركة فشلت أيضاً فاتخذ التايلانديون سياسة جديدة في زيادة التجزئة ووضع سياميين في الإدارة الفطانية.

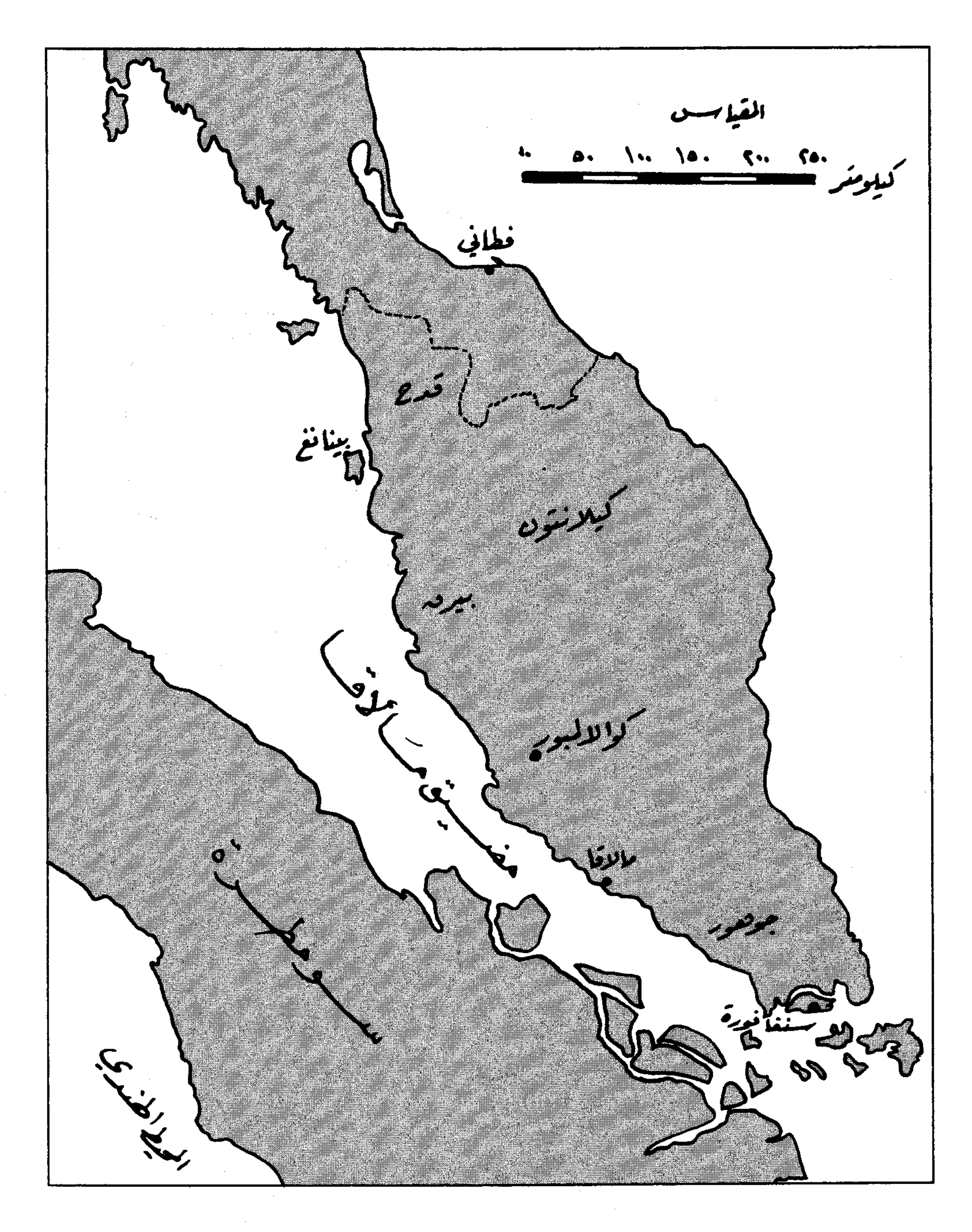
عاد الفطانيون إلى الحركة عام ١٢٤٧ إذ انضموا إلى الأمير (تنكودين) ولي عهد إمارة قدح في ثورته على تايلاند، ولكنهم هُزموا أيضاً، ودخلت جيوش تايلاند الأرض الفطانية وإمارة قدح فنُهبت الأموال وهدّمت الديار، وقتلت الرجال، وهتكت الأعراض، وعاثت جند سيام الفساد، وأخذت معها أربعين ألف أسير إلى بانقوك حيث زجّتهم هناك في السجون، ثم اتخذتهم عبيداً للعمل في أراضي الدولة، وهذا ما أرهب السكان فأجبرهم إلى اتخاذ الهدوء كي يعودوا للاستعداد.

وفي عام ١٣٢٠ اغتصب التايلانديون سلطات الأمراء الفطانيين أو ما تبقى لأولئك الأمراء من سلطنةٍ، وجعلوا مندوباً تايلاندياً يحكم المنطقة ويرتبط مباشرة ببانقوك، وهذا ما حمل الأمير تنكو عبد القادر قمر الدين للقيام بحركة مقاومةٍ مطالباً باستقلال بلاده، ولكنه هُزم وحُمل أسيراً إلى بانقوك، ثم نُفي إلى شبه جزيرة الملايو ليعيش هناك في مقاطعة (كيلانتن)،

وعيّن أميراً على فطاني محيي الدين عبد القادر، وأرسل إلى لندن للدراسة ليعيش بعيداً عن بلاده.

وفي ١٣٢٧ اتفقت تايلاند وإنكلترا على تسوية الحدود بينهما في شبه جزيرة الملايو فأخذت إنكلترا إمارة قدح، وأخذت تايلاند فطاني، وقبل هذا كان الفطانيون يرون في إنكلترا النصرانية أقل سوءاً من تايلاند البوذية، ويطلبون المساعدة منها، ويرغبون في الاتفاق معها، ولكنهم رأوا بعد ذلك في النصارى حقداً صليبياً لا يختلف عن الحقد البوذي بل إن إنكلترا سبب ما يحدث في المنطقة.

وفي عام ١٣٤٢ قام الفطانيون بحركة مقاومةٍ جديدة بدأت برفض دفع الضرائب، ثم عمت للمطالبة بالاستقلال غير أنها أُخمدت، وأُلقي القبض على عددٍ كبيرٍ من قادة الفطانيين ومن الشعب ونقلوا إلى بانقوك، وقتلت أعداد أخرى، ووقع التعذيب على مجموعات كثيرة، وشُرّد آخرون.



المقياس
كيلومتر
٢٥٠ ٢٠٠ ١٥٠ ١٠٠ ٥٠ ٠
فطاني
قدح
بينانغ
كيلانتون
بيرق
كوالالمبور
مالاقا
جوهور
سنغافورة
مضيق ملاقا
سومطرة
المحيط الهندي

مصور رقم [٣٤]

الفصل الرابع

أندونيسيا

انتشر الإسلام عن طريق التجارة والدعوة في الجزر الأندونيسية بشكلٍ هادئ، وقامت عدة ممالك إسلاميةٍ في جهات متفرقةٍ من تلك الجزر المتباعدة، إذ كلما زاد عدد المسلمين في بقعة من الأرض عملوا على تأسيس دولة لهم، وانفصلوا عن الحكومة المركزية كي لا يخضعوا بأحكامهم لغير المسلمين، فلما كان القرن العاشر الهجري كانت هناك ممالك إسلامية متعددة، ولكنها ضعيفة لتفرقها، ولوجود أعدادٍ من غير المسلمين بين رعاياها حيث كان انتشار الإسلام تدريجياً ولم يكن عن طريق الفتح والقوة وإخضاع الناس لحكم الإسلام مباشرةً.

في هذا الوقت تمكّن البرتغاليون من احتلال ميناء مالاقا في شبه جزيرة الملايو بعد حصار عدة أشهر وذلك عام ٩١٧، ثم اتخذ البرتغاليون مالاقا قاعدة لشنّ الغارات على الممالك الإسلامية في الجزر الأندونيسية، ونشبت معارك عنيفة بين المسلمين والبرتغاليين اتسمت بالحقد الصليبي، وخاصة أن البرتغاليين كان هدفهم الرئيسي في وصولهم إلى تلك الجهات ضرب اقتصاديات المسلمين والسيطرة على تجارتهم لإضعافهم والسيطرة بعد ذلك على بلادهم وإخضاعهم لحكمهم، وإرغامهم على ترك إسلامهم ولو بعد مدة، لذا فإن مقاومة المسلمين كانت عنيفة.

ولم تنج المناطق الأخرى من غارات البرتغاليين ولو كانت لغير المسلمين وذلك في سبيل السيطرة التجارية عليها والقضاء على التجارة

الإسلامية في تلك المناطق حيث كان التجار المسلمون هم أصحاب النفوذ والحركة في معظم تلك الجهات، لذا فقد تعرّضت سيام، والصين، وجزر المولوك أو البهارات لحملات الغزاة الصليبيين بهدف الاستيلاء على البهارات (التوابل) وبقية المواد واحتكارها لصالحهم وحدهم، وضرب تجارة المسلمين، وهذا الجانب الاقتصادي في الاستعمار هو الذي غطّى على الهدف الرئيسي ألا وهو الجانب الصليبي، إذ سارت الإرساليات التبشيرية النصرانية مع الاستعمار أو مع الحملات الصليبية الجديدة التي اتخذت من التجارة أو السيطرة التجارية أو الجانب الاقتصادي قناعاً تتستر به وتخفي حقيقتها، واستطاعت هذه الإرساليات أن تجذب إليها بعض الأفراد الأندونيسيين وتدخلهم في عداد أبناء عقيدتها، واتخذتهم أو اتخذهم أصحاب السلطة من المستعمرين أتباعاً لهم ومؤيدين لسياستهم الاستعمارية الصليبية.

لقد كثر التجار النصارى المستعمرون، وكثرت أسفارهم إلى الجزر الأندونيسية، والتعامل مع أبناء البلاد مباشرة دون وساطة التجار المسلمين ليحققوا بذلك أكبر ربح لهم، وهذا أمر طبيعي، وليضعفوا خصومهم التجار المسلمين، وهذا أمر طبيعي أيضاً، إلا أن تعدياتهم قد كثرت، وحمتهم قوة السلطة الاستعمارية، ووقفت بجانبهم ودعمتهم بل شجعتهم على المضي في استعلائهم وهذا ما ولّد النقمة لدى السكان وورّث الكراهية عندهم. ومع تفرقة الأندونيسيين، وتعدد ممالكهم، وضعفهم أمام المستعمرين الصليبيين فقد قاموا بعدة ثورات ضد البرتغاليين، وقاموا بعدة حركات ضد الصليبية وخاصة بعد أن قتل أحد ملوك دول أندونيسيا غدراً عام ٩٧٨ وهو هارون سلطان «ترنات» الذي كانت تمتد سلطته حتى جزر الفيلبين.

بقيت البرتغال في سياستها التعسفية الوحشية، واحتكارها للتجارة حتى عام ٩٨٨ إذ استولت إسبانيا على البرتغال، وأصبحت هي صاحبة السيادة على أراضي البرتغال وممتلكاتها، ولم يتغير شيء بالنسبة إلى المسلمين الأندونيسيين إذ ذهبت إدارة صليبية وأتت إدارة صليبية أخرى، غير أن إسبانيا ضعف أمرها سريعاً حيث هُزمت أمام إنكلترا وتحطم أسطولها في

معركة الأرمادا البحرية عام ٩٩٨، وهذا ما جعل الدول الأُخرى تغتنم فرصة هذا الضعف الإسباني وهذه الهزيمة الإسبانية، وضياع جزء كبير من القوة البحرية الإسبانية، وتتقدم نحو الجزر الأندونيسية، وكانت هولندا أكثر هذه الدول سبقاً، خاصةً أنها كانت في حرب مع إسبانيا وتخلَّصت إثر هذه الحرب من الحكم الإسباني وحصلت على استقلالها، وقامت تنافس سادتها السابقين أو حسب رأي الهولنديين يومذاك قاموا ليحصلوا على نصيبهم أو حقهم من إرث إسبانيا، ولم يخشوا أسطولها إذ سبق أن تحطم، وأصبحت السفن الهولندية تنتقل في بحار تلك الجهات دون خوف من القوة الإسبانية المنهارة.

وصل الهولنديون إلى جزيرة سومطرة عام ١٠٠٥، وكان همهم التجارة في بداية الأمر غير أن السكان عرفوا التبديل من قبل، وشعروا أن الصليبية واحدة لذا فقد قاوموا الهولنديين مقاومةً عنيفة، غير أن الهولنديين تمكّنوا من خديعة بعض السكان، إذ أظهروا وداعة الحمل، وأخفوا أنياب الذئب، وحاولوا إزالة الصورة البشعة التي تركها الصليبيون البرتغاليون، وكانت العلاقات ودية وأبدوا أنهم جاءوا منقذين من البرتغاليين، لذا فقد تمّ عقد معاهدة بين الطرفين عام ١٠٠٩ في جزيرة (أمبوينا) الواقعة بين إيريان الغربية وجزيرة سلبيس، وتقضي هذه المعاهدة بمنح حق للهولنديين في إقامة القلاع للدفاع عن الجزيرة مقابل احتكار تجارة التوابل... واتخذت هولندا طريق عقد المعاهدات بين السلاطين والملوك لتمكين نفوذها وبالتالي السيطرة على الجزر كافةً.

وقام عدد من الشركات الهولندية لاستثمار الخيرات في البلاد، وهي كثيرة، والأرض لا تزال بكراً، وإثر كل معاهدة كانت تتشكل شركة جديدة، وبمقتضى الحال فإن هذه الشركات بدأ ينافس بعضها بعضاً، وهذا ما أضرّ بمصلحة هولندا العامة الأمر الذي جعل الحكومة الهولندية توحّد هذه الشركات في شركة واحدة عام ١٠١١، هي شركة الهند الشرقية الهولندية التي اتخذت باتافيا (جاكرتا) مقراً لها. وأصبحت صاحبة النفوذ في البلاد.

بدأت المنافسة بين إنكلترا وهولندا عام ١٠٢٨، ووقف الأهالي على الحياد، وإن كانوا يميلون إلى إنكلترا، إذ لم يعرفوها بعد على حين عرفوا الهولنديين، أو أن حب التغيير وهو الطبيعة في النفس البشرية قد جعلهم يقفون بجانب الإنكليز، وقدموا لهم بعض الدعم والمساعدات والتأييد، وفرّ حاكم شركة الهند الشرقية الهولندية إلى جزر المولوك، ولم يستطع الإنكليز اقتحام حصون باتافيا، ولما شعر الهولنديون أن السكان ليسوا بجانبهم لذا فقد بدؤوا بحرب ضد السلاطين والملوك الواحد بعد الآخر حتى بسطوا نفوذهم على الجزر كافةً، وكانت الحرب قد انتهت بين إنكلترا وهولندا وأُرغمت فيها هولندا عن التخلي عن الاحتكار التجاري في الهند وأندونيسيا، وصحيح أنها تخلت عن الاحتكار، وتوقف القتال، ولكن المنافسة التجارية لم تزل قائمةً بين الدولتين. وكانت إنكلترا أقدر على المنافسة مما جعل أرباحها تزداد على حين تفقد الشركة الهولندية الكثير من أرباحها بل تعرّضت للخسارة وكانت النتيجة تصفية الحكومة الهولندية للشركة عام ١٢١٤، وحلّت محلّها في حكم الجزر الأندونيسية، أو أن الاستعمار الهولندي قد بدأ في هذا العام.

اتخذت هولندا أسلوب الاستعمار غير المباشر إذ كانت تنصّب الزعماء المحليين، وتستعملهم أداة للضغط على السكان واضطهادهم، وهذا ما جعل أبناء البلاد يسخط بعضهم على بعض، ويحقد على هؤلاء الزعماء الذين اصطنعتهم هولندا في الوقت الذي يصطنع هؤلاء الزعماء أعواناً وخواصاً.

استولت فرنسا أيام نابليون بونابرت على هولندا وحاولت أن تسيطر على ممتلكاتها في أندونيسيا عام ١٢٢٦ غير أن إنكلترا سبقتها إلى ذلك فسيطرت على جاوه، وتيمور، وجنوبي سومطرة، وماكاسار في سبيليس، غير أن فرنسا لم تلبث أن هزمت، وعادت هولندا مستقلة فاتفقت مع إنكلترا عام ١٢٢٩ على إعادة المناطق الأندونيسية إليها مقابل تنازلها عن سيلان، والكاب في جنوبي إفريقية، وبعض جزر الهند الشرقية وبعض جزر

الهند الغربية، واستولت إنكلترا على جزيرة سنغافورة، وشبه جزيرة الملايو، فاحتجت هولندا، وعاد الخلاف بين الدولتين، ولكن رجعتا إلى الاتفاق عام ١٢٤٠، وتنازلت إنكلترا لهولندا عن الأراضي التي كانت تبسط نفوذها عليها في غربي جزيرة سومطرة.

بدأت هولندا تفرض الضرائب الكثيرة على سكان أندونيسيا كمشاركة لها - حسب زعمها - بالخسائر التي تكبدتها في الحروب التي خاضتها في القارة الأوربية فبدأ الشعب بالثورة على المستعمرين، وهذا ما جعل هولندا تحكم أندونيسيا عن طريق وزير المستعمرات.

بدأت الحروب بين هولندا التي تسيطر على أندونيسيا وبين مملكة آتشيه في شمالي جزيرة سومطرة، وكانت حرباً مقدسة إذ أعلن سكان مملكة آتشيه الجهاد ضد الصليبيين المستعمرين، وما أن انطلقت الحرب العالمية الأولى حتى كانت هولندا قد أخضعت معظم ملوك أندونيسيا لسيطرتها إما عن طريق الحرب، وإما عن طريق الخداع، وإما عن طريق الاقتصاد، وحرصت أن تُبقي أولئك الملوك في مراكزهم وتحكم البلاد عن طريقهم، وتحتفظ لهم بما كانوا عليه من أبهة وسلطان.

وجاءت الحربة العالمية الأولى ومنَّت هولندا الأندونيسيين بالوعود بعد الحرب، وانتهت الحرب، وخابت آمال السكان إذ عادت هولندا إلى سياستها الاستعمارية، ولم تُعر عصبة الأمم ولا مؤتمر الصلح أي اهتمام بشؤون الشعوب الضعيفة، وإنما كانت الدول القوية هي المتحكمة بشؤون الناس المغلوب على أمرهم، وعادت أندونيسيا إلى المقاومة من جديد، ومن المفيد أن نذكر أهم حركات المقاومة ضد هولندا منذ دخولها البلاد حتى نهاية هذه المرحلة التي نتحدث عنها عام (١٣٤٢).

منذ مطلع القرن الحادي عشر قاد السلطان عبد الفتاح سلطان مملكة بنتام حركة المقاومة، وأنشأ قوةً فدائيةً، وبنى أسطولاً، واتصل بالدولة العثمانية، وإنكلترا لمقاومة هولندا، غير أن الدولة العثمانية قد بدأت في الضعف وبعد الشقة بعد الحليفين جعل إمكانية المساعدة قليلة الأثر، أما

إنكلترا فكانت تتفق مع هولندا حسب مصالحها إضافة إلى الروح الصليبية التي تجمع بينهما، فهُزم السلطان عبد الفتاح وانتهت حركته، ودخلت هولندا بلاده.

وقام الأمير سرياتي في جزيرة جاوه بحركة مقاومة استمرت عدة سنوات، وانتهت بقتله ونفي أنصاره وقادته من البلاد.

وفي عام ١٢٤٠ قام الأمير ديبونيجورو أحد علماء جزيرة جاوه بحركة أخذت شكل الحرب بين الجيوش ودامت خمس سنوات، وعجزت هولندا عن إحراز النصر على هذه القوة، فحاولت التفاهم مع قائد الحركة، فخُدع ووافق، فقبضت عليه أثناء المفاوضات، ونفته إلى جزيرة (سيلبيس) حيث بقي في منفاه حتى توفي عام ١٢٧٢.

ومنذ عام ١٢٣٧ قامت جماعة بدري بحرب استمرت خمسة عشر عاماً، ومن أشهر زعمائهم الشيخ مصطفى سحاب، وانتهت هذه الحرب عام ١٢٥٣.

ولما انتهت هولندا من هذه الحروب اتجهت إلى الممالك الأندونيسية تقضي على الواحدة تلو الأخرى، وكان يساعد هولندا في القتال تفوّق سلاحها، وقتالها للأندونيسيين وهم متفرقون فكلما انتهت من مملكة اتجهت إلى أخرى، وكلما قضت على جماعة شنت الحرب على غيرها، واعتمادها على مرتزقة بسبب قلة سكانها بالنسبة إلى أندونيسيا هذا إضافة إلى اتخاذ المكر، والحيلة، والخديعة، وإغراء بعض ضعاف النفوس.

ومن هذه الحروب القتال مع مملكة آتشيه في شمالي جزيرة سومطرة، وقد دامت من عام ١٢٩٠ ـ ١٣٢٢ أي أكثر من ثلاثين سنة، فأعلن سلطان المملكة إبراهيم منصور شاه الجهاد المقدس، ومن أبرز أبطال تلك الحرب تنكو عمر. . . وإذا كانت هذه الحرب قد انتهت عام ١٣٢٢ إلا أن المقاومة قد استمرت حتى الحرب العالمية الأولى.

ولجأ الأندونيسيون إلى توحيد صفوفهم عن طريق تأسيس الجمعيات والأحزاب السياسية ومن أشهرها:

١ ـ الجمعية الخيرية التي تأسست في جاكرتا عام ١٣١٩.

٢ ـ جمعية مكارم الأخلاق الخيرية في سورابايا في شرقي جزيرة جاوه.

٣ ـ شركة إسلام وقد أسسها في مدينة صولو عام ١٣٢٣ الحاج سمنهودي، والحاج عمر سعيد شكرو، وانقلبت عام ١٣٢٩ إلى حزب سياسي كبير لعب دوراً أساسياً في الحياة السياسية فيما بعد.

٤ ـ الجمعية المحمدية التي أسسها الحاج محمد دحلان عام ١٣٣٠، وتعد أكبر جمعية تعليمية في العالم إذ تشرف على ١٥٠٠ مدرسة و٧٠٠ مستشفى و٣٠٠ دار للأيتام.

٥ ـ جمعية الإرشاد في سورابايا وأسسها أحمد السكرتي عام ١٣٣٠.

٦ ـ جمعية نهضة العلماء، وأسسها هاشم أشعري عام ١٣٤٤، وانقلبت إلى حزب سياسي كان له دوره في الحياة السياسية.

٧ ـ الجمعية العائشية، وهي خاصة بالنساء، وتأسست عام ١٣٣٥، ومركزها مدينة (ميدان) وسط جزيرة سومطرة. واستمر تأسيس الجمعيات بعد انتهاء هذه المرحلة التي نتكلم عنها.

وأما أشهر الأحزاب التي وجدت في هذه المرحلة.

١ ـ **حزب القمصان الخضراء**: وكان يرى التعاون مع السلطات الهولندية للوصول تدريجياً إلى الاستقلال، وكان يدعمه حزب شركة إسلام. واستمعت هولندا إلى مطالبه وهي تأسيس مجلس نيابي يساعد هولندا، ويشاركها في حكم البلاد، وأنشأت بالفعل مجلس الرعية الذي يتألف من ستين عضواً نصفهم من الأندونيسيين وخمسة وعشرون عضواً من الهولنديين وخمسة آخرون يمثلون الأجانب الذين يقيمون في أندونيسيا، وتنتخب السلطات الهولندية رئيس هذا المجلس، وهذا يعني أن أكثرية المجلس إنما تمثل رأي المستعمرين، والمجلس أداة بيد هولندا لذا رفض الشعب هذا التعاون، وانسحب حزب شركة إسلام من تأييد حزب القمصان الخضراء،

كما انسحب أعضاؤه من المجلس النيابي عام ١٣٤٢.

٢ ـ **حزب القمصان الحمراء**: ولا يرى التعاون مع السلطات الهولندية كما لا يرى طريق المفاوضة طريقاً موصلاً إلى الاستقلال، وإنما المقاومة هي الطريق الوحيد للحصول على ما يريده الأندونيسيون. وبدأت الأفكار الشيوعية تتسرب إلى هذا الحزب، لذا ألف مجموعة جديدة من أنصاره وأصحاب الأفكار الشيوعية وعرف هذا الحزب الجديد باسم (شركت رعيت) أي حزب الجماهير.

وفي عام ١٣٣٦ أسس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الهولندي بأندونيسيا، وهو فرع من الحزب الاشتراكي بهولندا، وعندما انكشف أمر هذا الحزب عُدّ مستقلاً عام ١٣٣٨، وتحرك باتجاه حزب الجماهير، وتأسس الحزب الشيوعي عام ١٣٣٩، من هذين الحزبين، وارتبط بالمنظمة الشيوعية العالمية، وكان هذا الحزب رغم أفكاره الشيوعية المخالفة لأفكار الهولنديين يلقى كل تأييد من السلطات الاستعمارية ما دام يُضعف الفكر الإسلامي ويبعد المسلمين عن عقيدتهم، وقوي أمر هذا الحزب لهذا السبب: تأييد استعماري وتأييد شيوعي في وقتٍ واحدٍ. واتجه حزب شركة إسلام نحوه أيضاً كي لا ينفرد الشيوعيون بتوجيه أبناء البلاد على زعم أعضاء حزب شركة إسلام يومذاك فزاد الحزب قوةً إلى قوة عام ١٣٤٣.

الفصل الخامس

الفيليبين

بدأ انتشار الإسلام في الفيليبين حوالي عام ٢٧٠ للهجرة عن طريق الدعوة والتجارة، وما أن جاء القرن العاشر إلا وكانت مجموعة من الإمارات الإسلامية في تلك الجزر أكبرها إمارة راجا سليمان التي كان مقرها مكان مدينة مانيلا الحالية، وكان لها نفوذ على أكثر الإمارات والسلطنات الأخرى الموزعة في الجزر. وفي عام ٩٢٧ وصل الصليبي ماجلان قادماً من جهات أميركا، واتفق مع حاكم جزيرة سيبو (هومابون) على أن يدخل حاكم الجزيرة في الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي مقابل أن يكون ملكاً على الجزر كلها تحت التاج الإسباني، ومن جزيرة سيبو انتقل ماجلان ومن معه من الإسبان إلى جزيرة (ماكتان) للتمكين للنصراني الجديد (هومابون)، وكان على جزيرة (ماكتان) حاكم مسلم يدعى (لابو لابو)، ولما علم الإسبان بهذه الحقيقة ثار في نفوسهم الحقد الصليبي الذي حملوه معهم من إسبانيا بل من أوربا كلها، فبدؤوا بارتكاب الأعمال الوحشية إذ طاردوا النساء، وسطوا على طعام السكان فقاومهم الأهالي، فأضرموا النار في أكواخ السكان الآمنين وفرّوا هاربين.

رفض (لابو لابو) الخضوع لماجلان لما رأى فيه من الحقد والتعالي والغطرسة الصليبية، وربما لان له لو رأى فيه شيئاً من الحكمة، وحرّض (لابو لابو) السكان المسلمين في الجزر الأخرى على ماجلان، فاستنفرت النفوس واستعلى الإيمان، إلا أن ماجلان قد غرّته قوته وأسلحته الحديثة، وأراد أن يضرب خصمه ضربةً قويةً يرهب بها بقية الأمراء والسلاطين فذهب

مع فرقة من جنده مزوّدةً بالأسلحة الحديثة لقتال (لابو لابو) وتأديبه ـ على حد زعمه ـ. ولما التقى به طلب منه التسليم قائلاً: «إنني باسم المسيح أطلب منك التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد». فأجابه لابو لابو: «إن الدين لله، وإن الإله الذي أعبده هو إله البشر جميعاً على اختلاف ألوانهم». ثم هجم على ماجلان وقتله بيده، وشتت شمل فرقته، ورفض تسليم جثته لأتباعه الذين غادروا البلاد عائدين إلى ديارهم عن طريق جنوب آسيا، فوصلوا إلى إسبانيا في شوال عام ٩٢٨.

بعثت إسبانيا أربع حملات متتابعة نزلت على سواحل جزيرة ميندناو الجزيرة الكبرى في الجنوب وحيث يكثر المسلمون فقُتل أفراد هذه الحملات كلهم، وأُطلق على هذه الجزر اسم الفيليبين عام ٩٤٩ باسم أمير النمسا فيليب الذي أصبح فيما بعد ملكاً على إسبانيا. وبعد أن أُبيدت هذه الحملات بدأ الغزو الإسباني الحقيقي للجزر عام ٩٧٣، إذ جاءت حملة كبيرة بقيادة «ميغل لوبيز»، ونزلت في جزيرة سيبو حيث بنت فيها قلعة حصينة، ومن هذه الجزيرة انطلق الإسبان لغزو بقية الجزر، وقد استطاعوا السيطرة على مملكة (راجا سليمان) بعد قتال مرير، وبنوا مدينة مانيلا على أنقاض عاصمة راجا سليمان. كما تمكنوا من إخضاع الجزر الشمالية، وأطلقوا على سكانها المسلمين اسم «المورو»، غير أن الإسبان عجزوا عن إخضاع الجزر الجنوبية، إذ صمد سكانها المسلمون في وجههم صموداً قوياً جعلهم ييأسون من دخول تلك الجزر. وانصرفوا لذلك إلى توطيد سلطانهم في الجزر الشمالية، والتبشير بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي فوافقتهم جماعة وتنصرت، واعتزلت جماعة بعقائدها الوثنية في المناطق النائية، وعاش المسلمون بينهم يخضعون لأربع سلطنات يعمل سكانها في التجارة وصيد البحر.

وحاول الإسبان أن يقوموا بأبشع الجرائم لإرهاب المسلمين، لكن ذلك لم يفت في عضد المسلمين، واستمروا في مقاومتهم، وبقيت

سلطناتهم مستقلةً في الجنوب، وأطلق الإسبان ومن سايرهم على هذه المقاومة اسم قرصنة وقطع الطرق، وفرضت إسبانيا على المناطق التي سيطرت عليها اللغة الإسبانية والديانة النصرانية الكاثوليكية، وهذا ما قوّى الروابط بين المسلمين في الجنوب ودعا إلى الثورة ضد الإسبان في الشمال، وقد اندلعت هذه الثورة عام ١٢٩٠، ثم خبت نيرانها قليلاً إلى أن عادت فتأججت عام ١٣١٤، واضطر الحاكم العام الإسباني إلى أن ينسحب من البلاد إلى هونغ كونغ ريثما يتمكّن من إخماد الثورة، وقد استطاع الإسبان فعلاً إخماد الثورة ولكن بقيت منظمة تعمل في الخفاء وتدير المقاومة وتحركها ضد المستعمرين.

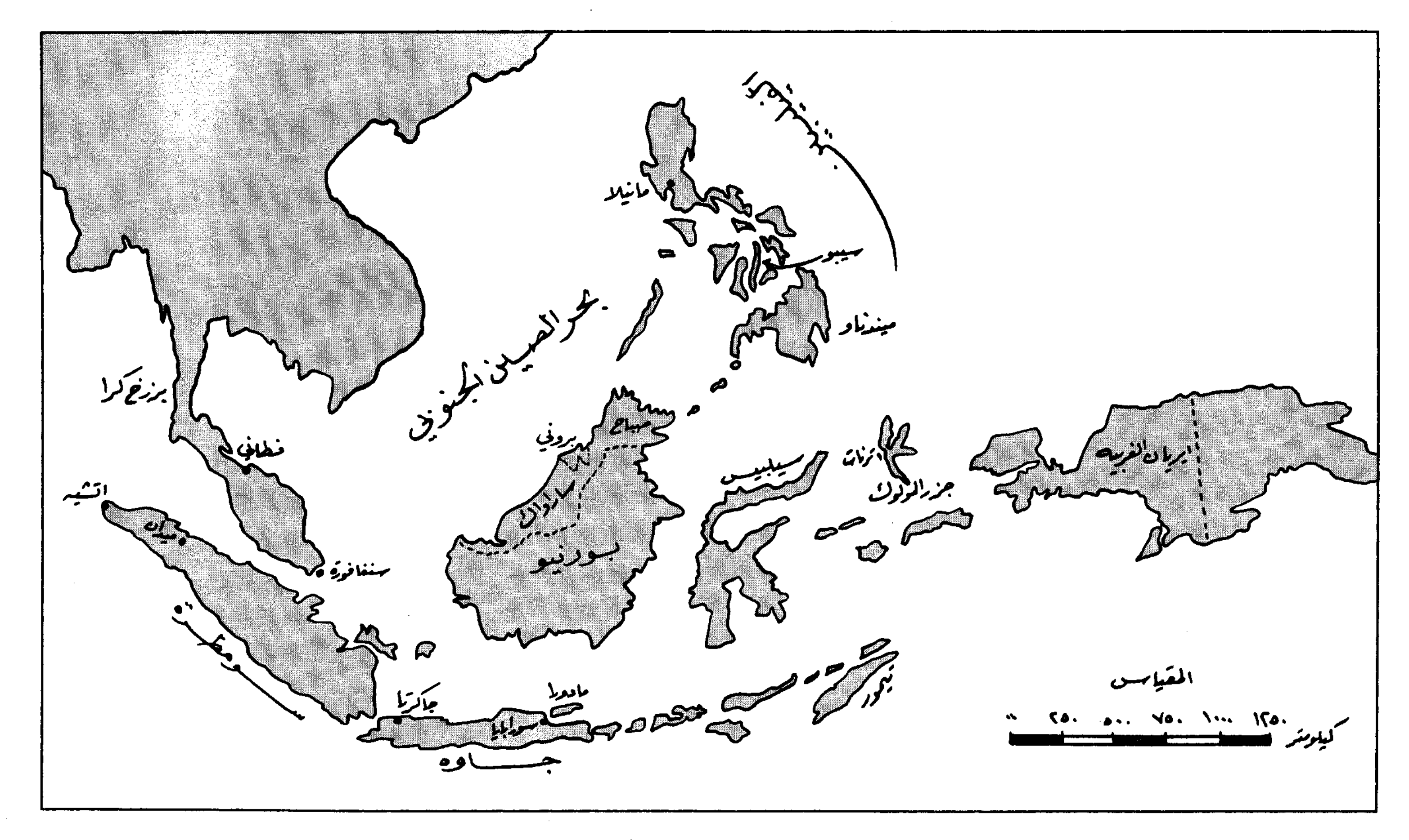
اتصلت الولايات المتحدة مع المنظمة السرية لمساعدتها في طرد الإسبان من البلاد، ولم تكن مساعدة الولايات المتحدة شريفةً وإنما ترغب في أن تحلّ محلّ إسبانيا في استعمارها لتلك الجزر، ولم يدر قادة المنظمة عما يدور في خلد أميركا، وبدأ العمل المشترك عام ١٣١٦، ودُمّر الأسطول الإسباني داخل خليج مانيلا. واتفقت إسبانيا وأميركا سراً على أن تنسحب إسبانيا من الجزر مقابل خمسة ملايين دولار، وانسحبت فعلاً بعد معارك تمثيلية. وعاد الحاكم العام الإسباني من هونغ كونغ وهو الجنرال (غوينالدو) فأعلن استقلال البلاد ورحيل إسبانيا عنها.

كانت أميركا وإسبانيا قد وقعتا معاهدةً في باريس بينهما تخلّت بموجبها إسبانيا عن الفيليبين، وكوبا، وبورتوريكو للولايات المتحدة، وهكذا أصبحت الفيليبين تتبع الولايات المتحدة، وانسحبت إسبانيا من الساحة بعدما تكبّدت خسائر كثيرة.

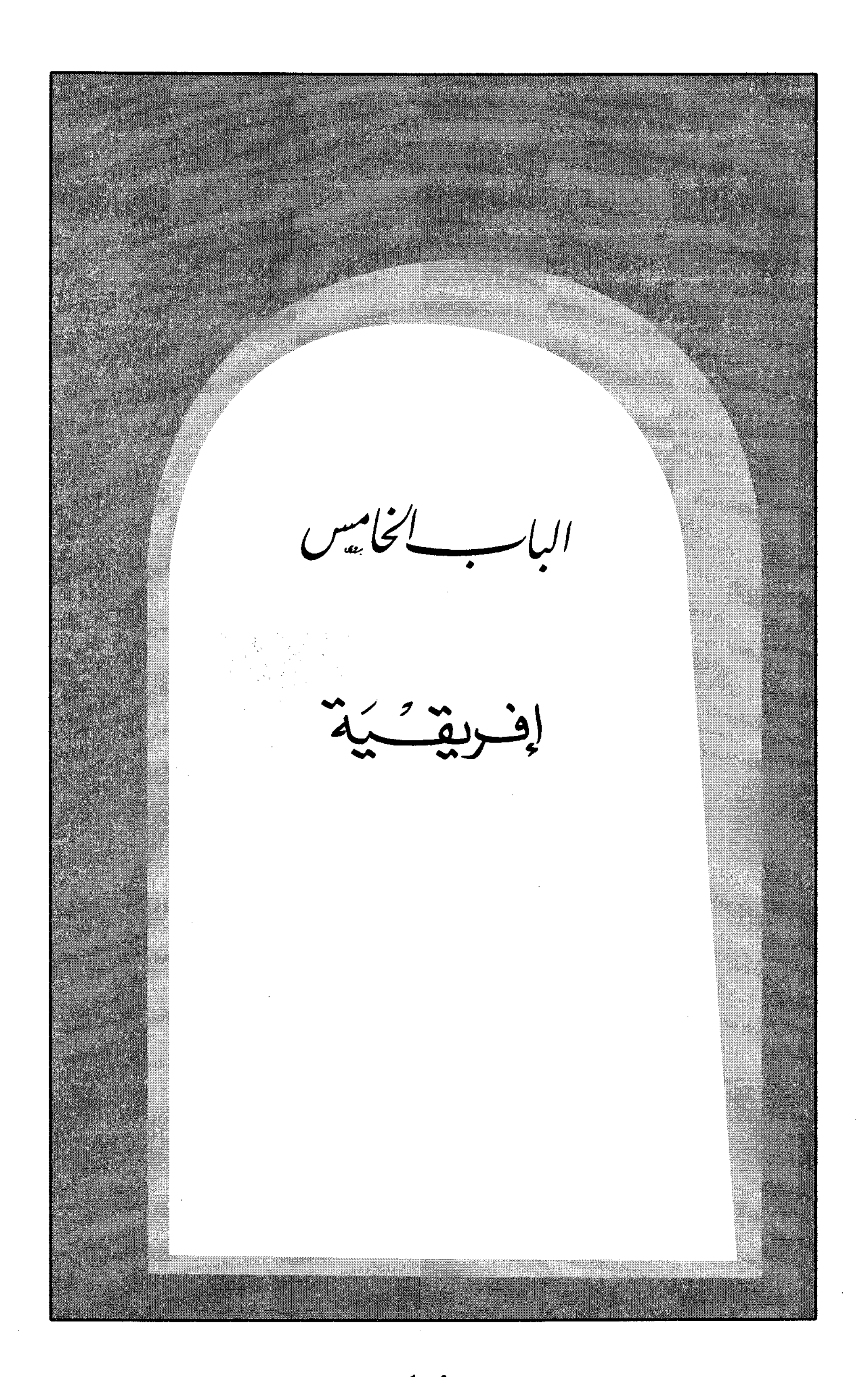
لم يعترف السكان على معاهدة باريس التي وُقّعت بين إسبانيا والولايات المتحدة، ورفضوا حكم الولايات المتحدة، وقاموا بحركة مقاومةٍ عنيفةٍ ضدها، لكنها تمكنت من القضاء على هذه الحركة عام ١٣١٩، وبسطت نفوذها على الأجزاء الشمالية التي كانت إسبانيا تسيطر عليها، وعدت البلاد إحدى ولاياتها، وإن كانت قد عزلت المناطق الجنوبية عزلاً

تاماً، وأهملتها الأمر الذي أدى إلى زيادة تأخر المسلمين بالنسبة إلى النصارى الذين دعمهم الاستعمار الصليبي سواء أكان في أيام الإسبان أم في عهد الولايات المتحدة. كما أن التعليم كان بإشراف الإرساليات التبشيرية النصرانية، وقد رفضه المسلمون وتبناه النصارى، فتقهقرت الثقافة الإسلامية، وانتشر الجهل بين المسلمين على حين تقدم النصارى.

واستمرت مقاومة المسلمين مدة عشرين سنة (١٣١٩ ـ ١٣٣٩) استسلموا بعدها وقد أصابهم الوهن، وحل بهم الضعف نتيجة الحالة التي حلّت بهم أو وصلوا إليها بسبب الجهل، والفقر، والمرض الذي ينتابهم، وعدم تطور أسلحتهم وإمكاناتهم، وعدم دعمهم من قِبَل المسلمين الذين كانوا في حالةٍ ليست أفضل بكثير من حالة المسلمين في الفيليبين، ونُسي المسلمون في تلك الجزر البعيدة، وانقطعوا عن إخوانهم وخاصةً أن الخلافة قد أُلغيت عام ١٣٤٣، وتفكك المسلمون في أمصارهم، وانصرفوا في كل جهة يئنون تحت وطأة ما حلّ بهم، ويلهثون وراء قضاياهم الخاصة.


بحر الصين الجنوبي
الفيليبين
مانيلا
سيبو
ميندناو
برزخ كرا
فطاني
اتشيه
ميدان
سنغافورة
جاكرتا
مادورا
سورابايا
جاوه
بورنيو
صباح
بروني
ساراواك
سيلبيس
ترنات
جزر الملوك
إيريان الغربية
تيمور
المقياس
٠ ٢٥٠ ٥٠٠ ٧٥٠ ١٠٠٠ ١٢٥٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٥]



الباب الخامس

إفريقيـة



لم تكن جهات إفريقية المسلمة كلها على درجةٍ واحدةٍ من الأهمية في هذه المرحلة التاريخية. ومن الطبيعي أن تكون المناطق القريبة من مركز العالم الإسلامي أكثر اهتماماً وتتبعاً لأحداثها من قِبَل المسلمين من المناطق الواقعة على الأطراف ما دامت لا توجد ثغور فيها، ولا يقوم أبناؤها بالجهاد ومنازلة أعداء الله.

لقد كانت مصر أكثر بلاد إفريقية أهمية فهي إضافةً إلى كونها قريبة من مركز العالم الإسلامي كانت الطريق الطبيعية إلى باقي جهات إفريقية، وتتجه أنظار المسلمين إليها بصفتها المركز الذي تولّى قتال الصليبيين البرتغاليين سواء أكان أواخر أيام المماليك أم بداية عصر العثمانيين، ولم تقل نظرة الصليبيين إليها لكونها حاملة لواء المواجهة وبصفتها تشرف على الطريق الطبيعية إلى بلاد المشرق حيث ترنو أنظار الأوروبيين لذا حطت على أرضها الحملة الفرنسية عام ١٢١٣ التي كانت بداية الهزيمة النفسية الكبيرة لدى المسلمين، والشعور بالضعف أمام التقدم الأوربي، إضافةً إلى بقية الآثار السيئة التي خلفتها تلك الحملة. ويجب ألا ننسى دور الأزهر في التعليم، وإقبال الإفريقيين بل والآسيويين نحوه، وما قدّم من جهد لرفع راية الجهاد، وما بذل من تضحيات في سبيل بقاء شعلة الإيمان متوهّجةً في تلك المرحلة التاريخية.

أما بلاد المغرب فقد ضعف شأنها عما كانت عليه سابقاً أيام المرابطين والموحدين، وكلاهما نازل الصليبيين في الأندلس، وكانت في وسط العالم الإسلامي يوم كانت الأندلس على أطرافه، فلما ضاعت

الأندلس، غدت بلاد المغرب متطرفة تشرف على المحيط وليس هناك من ثغور، وإذا كان الصليبيون قد بدؤوا ينازلون موانئ بلاد المغرب على سواحل البحر المتوسط التي أضحت ثغوراً وذلك في سبيل ملاحقة المسلمين بعد طردهم من الأندلس إلا أنها كانت قليلة لاتساع مدى الصوت نتيجة الضعف الذي حلّ بالمسلمين، وانقطاع أخبار بعضهم عن بعض لما لحقهم من هزائم أمام الصليبيين، وإذا كان اتجاه جيوش المغرب نحو وسط إفريقية وغربيها إلا أنها كانت خافتة الصوت لأنها في بقاع مجهولة أو في مجاهل إفريقية، وغدت آذان المسلمين ضعيفة السمع قليلة التأثّر بما يقع لإخوانهم.

وإذا كان الإسلام ينتشر في غربي إفريقية في هذه المرحلة إلا أنه بين قبائل كانت مجهولةً من قبل يوم كان الاهتمام أكثر اتساعاً في وسط دائرته فكيف بنا وقد ضاقت تلك الدائرة حتى لم تعد تزد على البقعة التي يعيش فيها الفرد، هذا بالإضافة إلى الناحية الهامشية التي تقع فيها تلك المنطقة بل نستطيع أن نقول: إننا لا نزال نعد تلك المنطقة مجهولة في هذا العصر الذي اتسعت فيه دائرة الإعلام، وتوسّعت فيه المعارف، وزاد نطاق الاهتمام، وظهرت الصحوة الإسلامية نسبياً. ويجب ألا ننسى أن الاستعمار الصليبي كان في هذه المرحلة يتقدّم في غربي إفريقية ويحاول أن يقطع ارتباط غربي إفريقية بإخوانهم المسلمين في بقية الجهات كي لا يتلقّوا أية مساعدات، كما يحرص أن يُبقي سكان المناطق الذين يبسط نفوذه عليهم وعلى بلادهم أن يقبعوا تحت وطأة الفقر، والجهل، والضعف ليركعوا أمامهم... وليستعبدوهم ويستذلّوهم.

وأما شرقي إفريقية فقد تمكّن الصليبيون في بداية هذه المرحلة من قهر المسلمين، والسيطرة على بلادهم، ووضعهم ضمن مناطق نفوذهم، لكن لم يلبث أن عادت للمسلمين بعض القوة، وطردوا الصليبيين البرتغاليين من بعض الجهات، وثبّتوا أقدامهم فيها، فكان لأهل عُمان أجزاء واسعة من شرقي إفريقية بل تقدّموا في داخل القارة، واقتربوا من جهاتها الغربية، غير

أن المسلمين عاد إليهم الضعف، وتجزأت دولة عُمان بين عُمان وشرقي إفريقية واشتد ساعد الصليبيين، واتفقوا فيما بينهم على اقتسام البلدان الإفريقية، وكانت السيطرة الصليبية بصورة عامة.

وفي وسط إفريقية كان التقدم الإسلامي بطيئاً جنوبي الصحراء عن طريق القبائل والإمارات، وما لبث أن اصطدم بالتقدم الصليبي القادم من الجنوب بل ومن الغرب ومن الشرق فحُصر المسلمون، وتوقّف خط مدهم، وسيطر الصليبيون على بلادهم، وعملوا على خنقهم.

وما انتهت هذه المرحلة التاريخية حتى كان المسلمون قد وصلوا إلى حالةٍ من الضعف خطيرةٍ أو استسلموا لأعدائهم الذين تمكّنوا منهم، وبدؤوا يُنفّذون مخططاتهم كما يحلو لهم دون مقاومة، وإذا استطاعت بعض أصوات العلماء أن ترتفع وتُؤيّدها جموع المسلمين إلا أنها لا تلبث أن تُخنق على أيدي الصليبيين أو بأدواتهم التي كانت في كثيرٍ من الأحيان رجالات من المسلمين الذين تبعوا الصليبية فكرياً أو سياسياً أو مصلحة.

الفصل الأول

وادي النيل

كانت منطقة وادي النيل عامةً ومصر خاصةً أهم مناطق العالم الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية لموقعها الجغرافي الذي وُجّهت جهود الصليبيين ضدّه، ولوقوف أبنائها على ثغرة من ثغور الإسلام، ولأطماع بعض الحكام الذين توالوا عليها، ثم ظهور أهمية قناة السويس أو زيادة أثر الموقع بافتتاح قناة السويس عام ١٢٨٧، الأمر الذي زاد تعلّق الصليبيين بالسيطرة عليها.

١ ـ مصر:

كانت مصر مقر الخلافة العباسية الصورية في العهد السابق ـ العهد المملوكي ـ وكانت من الدول الإسلامية القوية نسبياً آنذاك، إن لم نعدّها أقوى تلك الدول، وقد وقع على عاتقها الوقوف في وجه الصليبيين البرتغاليين الذين جاءوا من الجنوب، وحاولوا اقتحام البحر الأحمر، وبسط النفوذ الصليبي على جنوبي جزيرة العرب وأطرافها مع الخليج العربي، وجاءت طلبات النجدة من المماليك لتلك الجهات، وإلى المسلمين في الهند، وقد أرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري حملةً بقيادة حسين الكردي وصلت إلى سواحل الهند، واشتبكت في معارك مع البرتغاليين، وأحرزت النصر في البداية، ثم هُزمت في معركة ديو عام ٩١٥، ورجع حسين الكردي إلى مصر، ثم لم تلبث أطراف الجزيرة العربية أن استغاثت بالمماليك، فسار حسين الكردي ثانيةً إلى المنطقة، وقضى على الدولة

الطاهرية، ودخل اليمن، وترك ولاةً من المماليك عليها ورجع إلى مصر، في هذه الأثناء جاء العثمانيون ودخلوا مصر عام ٩٢٣.

وجدت دولة المماليك نفسها بين عدة دولٍ مسلمةٍ آخذةٍ في النمو والتوسع منها: الدولة العثمانية في الأناضول ودولة الصفويين في فارس ومنطقة الجبال، كما وجد المماليك أنفسهم أمام التحدي الصليبي البرتغالي القادم من الجنوب، لذا رأوا أن عليهم الوقوف في وجه هذا التحدي كواجب إسلامي، وهذا ما يمنعهم في الوقت نفسه من عدم الدخول في نزاعات مع الدول الإسلامية الأخرى، غير أن الظروف قد تفرض عليهم ما لم يرغبوه بل ما لم يتوقعوه.

لقد دخل الصفويون في نزاع مع العثمانيين، ولربما كان للعقيدة أثر في هذا النزاع، وهذا ما ألزم العثمانيين على ترك ساحات القتال في أوروبا في الغرب والتوجه إلى جهات الشرق لمنازلة الصفويين، وقد تمكّنوا من الانتصار عليهم ودخول عاصمتهم تبريز عام ٩٢٠، فاتجه الصفويون يفتشون عن حلفاء لهم ضد العثمانيين، فاتصلوا مع المماليك الذين كانت سياستهم تفرض عليهم عدم الدخول في نزاعات ولذا فلم يُبدوا التأييد لهم وموافقتهم، وفي الوقت نفسه لم يُظهروا الرفض بل الردع وخاصةً أنهم يلتقون مع العثمانيين في أنهم من أهل السنة والجماعة على حين يختلفون مع الصفويين الذين يظهرون التطرّف في التشيّع، وهذا ما أغضب العثمانيين. كما اتجه الصفويون نحو البرتغاليين أعداء الإسلام ليؤلّفوا معهم جبهةً ضد العثمانيين، وهذا ما أقضّ مضاجع العثمانيين، وقرّروا ضرب البرتغاليين قبل أن يشتد ساعدهم ويجدوا الدعم من الصفويين.

أما الدولة العثمانية فقد كانت تحارب في أوربا وتتقدّم في أراضيها وترغب في تخفيف الضغط النصراني عن مسلمي الأندلس ما دامت لا تستطيع مساعدتهم بحراً لعدم إمكاناتها يومذاك أو لضعف إمكاناتها البحرية في تلك المرحلة فلما سقطت الأندلس بيد النصارى الذين أرادوا متابعة المسلمين في المغرب وشمالي إفريقية عامةً بل محاولة تطويقهم من كل

جهة، وهم في سبيل هذا الهدف قد تمكّنوا من الالتفاف حول إفريقية والخروج على المسلمين من جهة الجنوب لذا رأت الدولة العثمانية أن من واجباتها الإسلامية التصدي لهذا الغزو الصليبي وخاصةً أن دولة المماليك لم تتمكن من التصدي لهذا الغزو بل هزمت في معركة ديو عام ٩١٤، فلما طلبت من المماليك السماح لها باجتياز أراضيها للوقوف في وجه البرتغاليين رفض المماليك ذلك، خوفاً من احتلال أراضيهم حيث كان المماليك يرون في الدولة العثمانية رغبةً في التوسع، أو هكذا أوهمهم الصفويون هذا بالإضافة إلى الخلافات التي كانت قائمة بين العثمانيين والمماليك حول إمارة ذي القادر الواقعة بين الدولتين. لذا فما كان من العثمانيين إلا أن دخلوا بلاد المماليك، وانتصروا عليهم في حلب عام ٩٢٢، ثم في مصر عام ٩٢٣، وقضوا على دولتهم في ذلك العام.

قضى العثمانيون على الخلافة العباسية في مصر، وأصبحت عاصمتهم إستانبول مركز الخلافة الجديد، كما أصبح سلطانهم خليفة المسلمين، ولكنهم مع هذا أبقوا ولاية مصر للمماليك، وفي الوقت نفسه أبقوا مصر قاعدة للتصدي ضد الغزو الصليبي البرتغالي، واستمروا في إرسال الحملات من السويس في مصر لقتال البرتغاليين، وقد سار والي مصر سليمان باشا إلى سواحل بلاد الهند، وقاتل البرتغاليين، وانتصر عليهم، ثم اختلف مع حاكم كوجرات فاضطر إلى العودة إلى مصر، وبقيت مصر تقوم بهذا الدور مدة أيام السلطان العثماني سليمان القانوني، واستمرت الدولة العثمانية بعد ذلك تساعد وتساند اليعاربة حكام عُمان الذين حملوا لواء قتال البرتغاليين، وفي أحيان كثيرة تحالف الدول النصرانية المنافسة للبرتغاليين في سبيل القضاء على البرتغاليين أو للتخلّص من المستعمرين الصليبيين الواحد بعد الآخر بمساعدة منافسيه، أو تستفيد من خلافاتهم لتحقق ما تريد، وكان اليعاربة يشتركون أيضاً في هذه الأحلاف ضد البرتغاليين.

ومنذ مطلع القرن الحادي عشر بدأ الإنكليز يصلون إلى الهند للتجارة، وكان وصولهم إلى الهند عن طريق مصر بشكل طبيعي، ولكن لم

يتعد الممر في مصر أمر التجارة أبداً حيث كانت هيبة الدولة العثمانية لا تزال قائمة نسبياً هذا بالإضافة إلى الاتفاقات الجانبية لقتال البرتغاليين وهذا كله كان يُسهّل للإنكليز أمر مرورهم من مصر. وتتمنّى إنكلترا أن تسنح لها الفرصة ببسط نفوذها على مصر، أو تحرص أشد الحرص على ذلك لكن تخشى قوة العثمانيين التي كانت لا تزال قائمة، وإن بدأ خطها البياني بالنزول تدريجياً وهبوطه من مستواه الذي كان عليه أيام قوة الدولة وازدهارها.

أما المماليك الذين كانوا حكام مصر من قبل، ومديرين لمقاطعاتها من قبل ولاة الخلفاء العثمانيين فيما بعد فقد ساسوا البلاد بشكل طبيعي، ولم يطمعوا بأكثر مما أعطوا، وشعب مصر شعب مسالم يخضع لأي حاكم، ويقبل أي سلطان، ويُمجّد كل من يتولّى أمره مهما كانت صفته وعلى أية حالٍ كان وضعه لذا فالأمور هادئة، واستمرت الأحوال على هذه الصورة مدة قوة الدولة العثمانية وفرض هيبتها على البلاد.

حركة علي بك الكبير:

فلما ضعفت الدولة العثمانية زادت سلطة المماليك، وأصبحوا هم الولاة بعد أن كانوا مديرين للمقاطعات، وتولّى ولاية مصر يومذاك علي بك الكبير في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، وقد حدثته نفسه الطماعة بالاستقلال، وقد رأى ضعف الدولة وانشغالها بالحروب ضد الصليبيين الذين يريدون اقتسام أراضيها وإماتة عقيدتها، وقد وجد هذا الوالي التشجيع والدعم من قبل روسيا التي كانت بحربٍ مع الدولة العثمانية فأعلن استقلاله عام ١١٨٢، وتقدّم نحو الشمال ليحارب جنود الدولة فتضطر إلى تخفيف الضغط على الروس، وبسط نفوذه على الحجاز، واتصل بثائرٍ مثله كان والده جابياً للضرائب في ولاية عكا، وعمل هو مع قطاع الطرق، ثم أعلن تمرده ذلك هو ضاهر العمر صاحب عكا، واتفقا معاً على محاربة العثمانيين لإحراجهم في ساعة شدتهم مع الروس، والتقى

جيشا المتمردين وبدؤوا بحرب العثمانيين، غير أن محمد أبي الذهب قائد علي بك الكبير ومملوكه قد شعر بخطر ما يقومون به من ناحية إسلامية فاتصل بسيده ونبّهه على سوء ما يفعلون فجاءته الأوامر بضرورة متابعة القتال، فلما رأى ذلك، وهو مقتنع بإثم ما يفعلون، قرر أن يعود إلى مصر بمن معه من الجند، وأن يقتل سيده، وأن يدير شؤون مصر بنفسه، فقدّر العثمانيون عمله، وأعطوه ولاية مصر عام ١١٨٧، ولم تجد أساطيل روسيا التي وصلت إلى البحر المتوسط بالقضاء على علي بك الكبير ضعف أمر ضاهر العمر، إذ حوصر في عكا، وقضي عليه عام ١١٨٩. وأصبح المماليك ولاة لمصر منذ أيام علي بك الكبير حتى مجيء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣.

هذه الحركة، حركة علي بك الكبير أظهرت ضعف الدولة العثمانية وأبدت عوراتها الداخلية أكثر مما سبقها من حركات تمرّد، وأطمعت الدول الأجنبية في مصر، وخاصةً إنكلترا وفرنسا المتنافستين على مناطق النفوذ، والمتحاربتين في سبيل السيطرة والاستعمار، وإن كانت تجمع بينهما الروح الصليبية، ولكن ليس هناك من مسلمين يقاومونهما أو يقفون في وجهيهما لذا كان تنافسهما حاداً، ولو وجد من المسلمين من هو عدو لهما لاتفقتا حتى تزيلاه. أما إنكلترا فكانت طريق مصر إلى الهند ميسرة لها، ولا تحتاج أكثر من ذلك، إذ لو فكرت ببسط سيطرتها عليها لوجدت العراقيل وربما سدت هذه الطريق في وجهها نتيجة حدوث بعض المضاعفات لذا فهي راضية بما تجنيه من الهند عن طريق مصر، أما فرنسا فقد رأت أن تقطع طريق الهند عن إنكلترا بالسيطرة على مصر، وإذا تمكّنت من ذلك أجبرت إنكلترا على الرضوخ لمطالب فرنسا، وإعادة بعض ما فقدته فرنسا في حروبها مع إنكلترا، بل وأجزاء أخرى فوقها، هذا إضافةً إلى أن فرنسا قد انتصرت على الدول الأوروبية التي تحالفت ضدها باستثناء إنكلترا وليس هناك من مجال لإجبارها على الصلح إلا بقطع طريق الهند عنها، هذا ويجب ألا ننسى أن حكومة الثورة في فرنسا تريد أن تحصل على بعض

الدعاية لها في داخل البلاد بعد الأحداث الدامية التي مرت بها نتيجة الثورة والفوضى الإدارية التي أعقبتها، وتسلّط الأراذل من الناس باسم الثورة والتحرر، ولا تكون الدعاية إلا ببعض تحقيق النصر الخارجي وتوجيه الناس إلى ذلك النصر، ومتابعة تحركات الجيش، وربما قيل إن حكومة الثورة رغبت في إبعاد نابليون بونابرت عن أحداث البلاد الداخلية بعد أن لمع نجمه بالانتصارات التي حققها على إيطاليا وغيرها، أو قرنت هذه الانتصارات باسمه، فأصبحت تخشاه، كما لم تستطع أن تقف أمام تصرفاته الشاذة وتعدياته أحياناً، فالطريقة المثلى تكليفه بحملة إلى مصر تحقق سياسة البلاد العامة وأهدافها، وسياسة الحكومة في الداخل.

الحملة الفرنسية على مصر:

انطلقت الحملة الفرنسية من طولون عام ١٢١٢ في شهر ذي القعدة، وتتألف من أربعين ألف جندي، وسارت في طريق ملتوية كي لا تصطدم بالأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط والتي لا تستطيع مقاومته، ووصلت بعد شهرين من انطلاقها إلى مدينة الإسكندرية إذ مرت على جزيرة مالطة واحتلتها، ومنها إلى كريت فمصر، فرست سفنها في خليج أبي قير، وتمكّنت من احتلال مدينة الإسكندرية، وتابعت سيرها نحو القاهرة، فاستولت على دمنهور، والرحمانية، ورشيد ثم توجهت إلى القاهرة، وجرت معركة فاصلة بين المماليك بقيادة مراد بك وبين الفرنسيين بالقرب من الأهرام، وعُرفت باسم معركة (أمبابة)، وتقهقر المماليك بعدها نحو الصعيد، ودخل الفرنسيون القاهرة، وغادر الوالي العثماني البلاد، ولم يستطع نابليون إقناعه بالبقاء، ووزع نابليون منشوراً باللغة العربية على السكان، كله تزلف فأظهر أنه جاء بأمر السلطان، لإنقاذ السكان من ظلم المماليك، وأنه مسلم يحترم القرآن الكريم، وكذلك يحترمه الفرنسيون، ولكن ذلك لم يفده شيئاً، وبدأ يلاحق المماليك في الصعيد كلما سمع خبراً باجتماعهم أو استعدادهم للهجوم على القاهرة، أو تحريض السكان على ذلك.

اتخذ نابليون في بداية أمره سياسة التقرب من السكان في محاولة لكسب ودّهم، فشارك في الاحتفالات، وادعى أنه سيعمل لنشر الإسلام بين الفرنسيين، وقرّب إليه العلماء، وكلفهم باختيار أعضاء الديوان الذي سيعمل على مساعدة الحاكم العسكري، والمشاركة في الحكم، وقد تمّ تأليف هذا الديوان بالاتفاق مع العلماء، وشاركوا فيه، لكنهم لم يلبثوا أن اختلفوا معه بشأن الضرائب، وفتح حانات الخمر، والمجاهرة بالمعاصي، وقطع رواتب الأوقاف للفقراء، ومصادرة الدور والمنازل، فالفرنسيون يريدون زيادة الضرائب لإمكانية الاعتماد على موارد مصر إذ أن الأسطول الإنكليزي بقيادة نلسون قد دمّر الأسطول الفرنسي في أبي قير، ثم حاصر السواحل المصرية، فأصبح الفرنسيون محاصرين سياسياً لا يمكنهم الاتصال بفرنسا، ومحاصرين اقتصادياً فيجب الاعتماد على ما تقدّمه مصر من خيرات ومن الضرورة جمع الضرائب لدفع رواتب الجند، فتضايق السكان من شدة وطأة الضرائب، ومما ارتكبه الفرنسيون من مخالفات للإسلام، فكان أن قامت ثورة القاهرة الأولى منطلقةً من الأزهر، ثم عمّت المدينة، وقام السكان على مراكز الفرنسيين، وقتلوا من فيها، ولم يتمكن بونابرت من إخماد الثورة إلا بعد قصفها بالمدفعية، واستعمال أشد أنواع القسوة، وبعد دخول المدينة غيّر نابليون سياسته فاتخذ سياسة العنف، وألغى الديوان الذي أنشأه من العلماء، وألّف ديواناً ضم النصارى، والجاليات النصرانية المقيمة بمصر.

ولم يتمكّن نابليون من إقناع الدولة العثمانية بأن مجيئه إنما كان للتخلّص من المماليك فقط الذين كانوا يتعاونون مع الإنكليز فيسهّلون لهم الطريق إلى الهند، وعندما تحطّم الأسطول الفرنسي، وأيقنت الدولة العثمانية بانقطاع الحملة عن فرنسا تشجّعت للقتال، واتفقت مع إنكلترا، وراسلت المماليك، وأرسلت حملةً بريةً، وأخرى بحرية تنتقل على سفن إنكليزية، ثم انضمّت روسيا إلى هذا الاتفاق ضد فرنسا. وأخذ نابليون يستعدّ لملاقاة الحملة العثمانية.

الحملة الفرنسية على الشام:

رأى نابليون أن يلتقي مع الحملة العثمانية البرية خارج حدود مصر كي لا ينضم الشعب المصري إلى الحملة فيما إذا وصلت إلى مصر، أو يؤيّدها ويقوم بالثورة، كما أنه فيما إذا سار إلى بلاد الشام وضمها إلى نفوذه فإنما يحصل على زيادة في الموارد، وفي الوقت نفسه يمنع السفن الإنكليزية من التزوّد من الموانئ الشامية، ويجب ألا ننسى الحقد الصليبي، وذكريات الحروب الصليبية التي جرت من أجل الحصول على بيت المقدس، وها هي القدس قد أصبحت على مقربة منه فإن احتلها لقي تأييداً ودعماً من القوى الصليبية ومن عامة النصارى لذا فقد انطلق بحملة إلى بلاد الشام، فاحتل العريش، وغزة، ثم تقدّم إلى يافا فحاصرها واضطرت حاميتها إلى الاستسلام فلما أصبحت في قبضته أعدم رجالها الأربعة آلاف بحجة أنه لا يستطيع أن يطعمهم، والواقع أن تلك المجزرة الوحشية لم تكن إلا بدافع صليبي، ثم اتجه شمالاً حتى وصل إلى عكا فحاصرها، وكان واليها أحمد باشا الجزار قد حصّنها، واستمات سكانها في الدفاع عنها، وأمدهم قائد الأسطول الإنكليزي سدني سميث وهو الذي خلف نلسون في قيادة الأسطول. وجاء والي دمشق على رأس حملةٍ مؤلفةٍ من خمسة وعشرين ألف جندي لدعم عكا، وأسرع نابليون للقائه فاصطدم به عند جبل طابور قرب الناصرة فهزمه فعاد والي دمشق القهقهرى، ورجع نابليون يتابع حصار عكا.

كان نابليون بونابرت يتوقع أنه ينضمّ إليه بشير الشهابي حاكم جبل لبنان لأنه يخالف الدولة العثمانية في العقيدة حيث كان درزياً، غير أن الشهابي تلكأ في هذا الانضمام إذ كان يتريث حتى يرى رجحان كفة بونابرت، وعندها ينضم إليه، أما وهو لا يزال يحاصر عكا فلا يمكنه أن يغامر ويقف إلى جانبه، لهذا قرر نابليون الانسحاب من بلاد الشام وفك الحصار عن عكا، وخاصة أن الطاعون قد بدأ يتفشّى في جنده، ولكنه كان يحسب ألف حساب لعودته إلى مصر ذليلاً لم يحقق شيئاً مما كان يرنو إليه ببصره، لذا فقد أصدر تعليماته إلى نائبه في القاهرة لإشاعة الدعايات بأن

بونابرت قد دخل عكا، وهدّم أسوارها، وأن الجزار قد استسلم له لذا فقد تركه والياً من قبله على ما كان عليه. كما طلب منه أن يقيم الاحتفالات وأقواس النصر ابتهاجاً بما حققه الفرنسيون من انتصارات في بلاد الشام، كل ذلك في سبيل إخفاء الهزيمة التي مُنِيَ بها عند أسوار عكا.

وصل نابليون إلى مصر واستقبل بالأفراح والاحتفالات من قبل الفرنسيين الذين بقوا لحماية البلاد، ولكنه في هذه الأثناء قد وصلت إلى الساحل المصري الشمالي الحملة العثمانية البحرية المنقولة على سفن إنكليزية، ونزلت في أبي قير فأسرع نابليون لمباغتتها كعادته، وجرى القتال أسبوعاً كاملاً بين الطرفين انتهى بانتصار الفرنسيين وهزيمة العثمانيين الذين وقع قائدهم مصطفى باشا أسيراً بيد الفرنسيين.

وصلت إلى نابليون أنباء مفادها أن حكومة الثورة الفرنسية في وضعٍ حرجٍ داخلياً ووضعٍ صعبٍ خارجياً إذ تشكل حلف أوربي ضدها، فتحرّكت أطماعه، وأصبح يُفسّر كل شيء من خلال تلك الأطماع، حيث رأى أن الحملة لم تعد لها من جدوى ولم تستطع أن تحقق أي شيء من أهدافها، وأن وجوده في مصر ليس بذي فائدة، وأن فرنسا بحاجةٍ إليه في هذه الظروف الراهنة، والواقع أنه كان يحلم بحكم فرنسا، وقد وجد أن الفرصة مناسبة له لذا قرر مغادرة مصر والتوجّه بسرعةٍ إلى فرنسا، فسلّم قيادة الحملة إلى كليبر، وتحرّك إلى فرنسا، تحت نظر الإنكليز، متجاهلين له، وهو يدري أو لا يدري المهم عنده تحقيق أطماعه التي تطغى على كل شيء.

وجد كليبر أنه لا فائدة من بقاء الحملة، فصاحب الرأي فيها والمتحمس لها قد تركها، وحكومته لا تستطيع إرسال نجدات لها، والعثمانيون على أبواب مصر يستعدّون لدخولها، لذا فقد استأذن حكومته للمفاوضة مع الدولة العثمانية فسمحت له بذلك، وأجرى اتفاقاً في مدينة العريش عام ١٢١٥ يقضي بأن يتجمّع الفرنسيون على الساحل، ثم ينسحبون من مصر إلى فرنسا على سفنٍ إنكليزيةٍ، وبدأ كل طرف يعمل من جانبه لتنفيذ اتفاقية العريش، غير أن قائد الأسطول الإنكليزي أخبر كليبر أن إنكلترا لا توافق على اتفاقية

العريش إلا بشرط أن يُعدّ الفرنسيون في مصر أسرى حرب يسلمون سلاحهم، ويتركون معداتهم في مصر للدولة العثمانية وحلفائها، وبذا فقد نُقضت اتفاقية العريش، وجدّدت أعمال القتال فأسرع كليبر لملاقاة جيش الصدر الأعظم الذي كان قد اقترب من القاهرة فهزمه، وطارده إلى ما وراء الحدود.

انتهز سكان القاهرة خروج كليبر من مدينتهم لقتال العثمانيين، وقاموا بثورتهم الثانية، وكان قد دخل العاصمة المصرية ستة آلاف من العثمانيين والمماليك، وتزعم هذه الثورة نقيب الأشراف عمر مكرم، وعاد كليبر من قتاله فقصف القاهرة بالمدفعية، وأجبر أهلها على طلب المفاوضة، فسار إليه بعض العلماء، واتفقوا معه على وقف القصف مقابل إخراج الذين دخلوا القاهرة من العثمانيين والمماليك، ودفع ضريبة باهظة.... وعاد كليبر إلى التفكير بالبقاء على مصر إذ ليس له من طريق أخرى يسلكها فبدأ يُنظّم الأمور، وبينما هو كذلك إذ طعنه سليمان الحلبي طعنة أردته قتيلاً، وتسلّم قيادة الحملة عبد الله مينو بصفته أقدم ضباط الحملة، ولكنه كان يختلف عنهم فهو ضابط إدارة أولاً، ويرغب في البقاء في مصر على حين أن غيره لا يكادون يُصدّقون وقت الرحيل لانقطاعهم عن ذويهم ما يزيد على ثلاثة أعوام، وعلمهم بانقطاع الصلة مع فرنسا فكأنهم قد أصبحوا في سجن، وفوق كل هذا فقد أصبح يخالفهم في العقيدة إذ أسلم وتزوج بامرأةٍ مصريةٍ مسلمةٍ وطاب له الجو في مصر وأحبّ الاستقرار والإقامة فيه، هذا الاختلاف بين القائد وباقي أفراد الحملة زاده اتساعاً اقتراب الجيوش العثمانية من مصر لطرد الحملة، ودعم الإنكليز لهم بل أعدت إنكلترا قوة بحرية لمهاجمة مصر عن طريق البحر الأحمر والبحر المتوسط...

جلاء الفرنسيين عن مصر:

نزلت القوة البحرية الإنكليزية في أبي قير، واتجهت نحو القاهرة، ونزلت قوة عثمانية بحرية في رشيد، وسلكت طريق نهر النيل، والتقت مع القوة الإنكليزية في بلدة الرحمانية، وبذا أصبح عبد الله مينو الذي ذهب إلى

الإسكندرية للدفاع عنها منقطعاً عن قواعده في القاهرة. واقترب الصدر الأعظم القادم على رأس جيش بري عثماني من القاهرة فاضطر نائب مينو على القاهرة في طلب الصلح، واستسلمت القاهرة بشرط أن ينقل الجنود الفرنسيون فيها إلى فرنسا على سفنٍ إنكليزية. ثم وصلت قوة من الهند كدعم للقوة الإنكليزية في مصر فألقت الحصار عندها على مينو في الإسكندرية وأُجبر على توقيع المعاهدة بالشروط نفسها التي وقعها نائبه في القاهرة وذلك عام ١٢١٦، وجلت الحملة عن مصر، ونقل أفرادها إلى فرنسا.

لقد كان لهذه الحملة الفرنسية أسوأ الأثر على مصر خاصة وعلى البلدان المحيطة بها عامة، ونستطيع أن نعدّ هذه الحملة بدءاً للهزيمة النفسية المسلمة في مصر، وبدءاً لمرحلة معرفة أوربا لضعف الدولة العثمانية وهذا ما شجّع الصليبية على دفع عجلة الهجوم النصراني على العالم الإسلامي. لقد شعر المسلمون في مصر أنهم متخلّفون جداً عن ركب الحضارة المتطور بعد أن لاحظوا التقدم الفرنسي من الناحية العلمية والتنظيمية فهزموا أمامه عسكرياً، وهزموا معه نفسياً.

لقد بدأت المفاسد تستشري في جسم الأمة نتيجة التصرّفات التي قام بها الفرنسيون من مفاسد خلقية واجتماعية ومعاقرة للخمرة جهاراً، وهم أصحاب الحضارة وهذا ما شجّع بعض السابقين في الهزيمة النفسية إلى الدعوة لتقليدهم والسير على خطاهم... وحدث تغيّر في العادات والأفكار.

لقد دخلت الطباعة والآلة إلى مصر، ودرست المنطقة، وقرئت اللغة الهروغليفية على حجر في مدينة رشيد بمقارنتها مع اللغة اليونانية. ونبهت الحملة هذه إنكلترا إلى أهمية مصر بالنسبة لها، ولموقعها بالنسبة إلى العالم كله.

الخلاف على حكم مصر بعد الحملة الفرنسية:

مصر جزء من الدولة العثمانية التي بذلت جهدها في طرد الفرنسيين من أراضيها، وهي صاحبة الحق في تعيين من تراه والياً على هذه الرقعة

من بلادها، وقد عينت رجلاً يُدعى خسرو باشا. غير أن المماليك يرون غير هذا إذ يعتقدون أحقيتهم في تسلّم أمر الولاية، وإن لم ينازعوا الدولة العثمانية على سلطانها، لكن من واجب الدولة تسليمهم منصب الولاة لما بذلوه من جهد في مقاومة الحملة عند قدومها، وعند وجودها على أرض مصر، لذا كانوا غير راضين على تعيين خسرو باشا. ويرى العلماء أن من واجب الدولة أخذ رأيهم في تعيين الوالي، وقد قادوا المظاهرات ضد الفرنسيين، وتزعّموا المقاومة، والتفّ حولهم الشعب، ولذا لم يكونوا راضين أيضاً على تعيين خسرو باشا ما دام قد تمّ دون رأيهم.

أما إنكلترا فكانت تريد البقاء في المنطقة التي دخلتها قرب الإسكندرية لحماية طريقها للهند، وللحفاظ على مصر من تهديدات الدول الأخرى وخاصةً فرنسا المنافسة الأوربية لها، فتهديد مصر ثانيةً إضاعة للهند إلى الأبد، وإذا سلم الطريق في هذه المرة فقد لا يسلم في مرة أخرى، وحاول الإنكليز أن يجدوا لهم سنداً، فتقربوا من المماليك الناقمين على تعيين خسرو باشا، وشجعوهم على المطالبة بحكم الولاية.

تضايق العثمانيون من التقارب الإنكليزي المملوكي إذ أن الإنكليز صليبيون قبل كل شيء وإذا كانوا قد دعموا العثمانيين في طرد الفرنسيين إلا أن ذلك قد كان لمصلحتهم لا لمصلحة العثمانيين، ولا حرصاً على أرض مصر. لذا فقد أعطوا أوامرهم للوالي الجديد خسرو باشا بالضغط على المماليك، ولكنهم لم يدعموه مادياً فتأخر في دفع الرواتب، وثار عليه الجند وخاصةً الفرقة الألبانية التي يقودها طاهر باشا، واضطر خسرو باشا إلى مغادرة مصر عن طريق دمياط. واتفق العلماء على تعيين طاهر باشا والياً مؤقتاً على مصر ريثما تأتي موافقة السلطان العثماني. وفي الوقت نفسه فقد سعى العلماء للمصالحة بين المماليك المتمركزين في الصعيد وبين طاهر باشا حتى تستقر الأوضاع، وتتحسّن الأحوال المعاشية بعودة الناس إلى أعمالها، وبذا أصبح العلماء سادة البلاد فعلاً يرضى بهم الوالي، والمماليك، إضافة إلى الشعب الذي يسير وراءهم.

تضايقت الفرقة الإنكشارية إذ وجدت نفسها ضائعة وسط المجتمع الذي بدا عليه التكاتف، وتأثّرت من الألبان الذين ثاروا على الوالي، ولعب الطيش دوره إذ قام بعض الضباط الشباب أصحاب الأطماع، وقتلوا قائد الفرقة الألبانية طاهر باشا الذي يتسلّم الولاية، وعيّنوا مكانه أحمد باشا والي المدينة الذي كان يومذاك عرضاً في القاهرة.

أراد أحمد باشا أن يتقرب من العلماء أصحاب النفوذ في أوساط الشعب غير أن العلماء قد ساءهم تصرّف الإنكشاريين، ورغبوا في تعيين وكيله في الفرقة الألبانية وهو محمد علي باشا الذي دعمه العلماء، واتفق مع المماليك، وطرد الفرقة الإنكشارية، والوالي أحمد باشا من مصر عام ١٢١٨.

محمد علي باشا:

أصبح محمد علي قائد الجند في مصر أو الحامية العثمانية على حين أوكل للمماليك جباية الضرائب وتنظيم أمور البلاد الداخلية، ودعم العلماء هذا التفاهم، غير أن البلاد كانت قد خرجت من ظروف عصيبة جداً، والأوضاع الداخلية والاقتصادية متدهورة وتحتاج إلى أموال، وليس من مكان تأتيه منه الأموال إلا الشعب، ففرض المسؤولون عن الجباية وهم المماليك الضرائب، ولم يكن الشعب يتحمل ذلك للظروف التي مرت به فثار على المماليك، واتجهت المظاهرات إلى الأزهر، ليعمل العلماء على إزالة الضرائب عن كاهله. وهنا انقلب محمد علي على المماليك، وأنزل قواته إلى الشوارع مؤيدةً الشعب ففر المماليك إلى الصعيد، وأصبح محمد علي زعيماً من قبل الشعب إذ أعلن أنه ضد الظلم، وضد الاستبداد الذي يريد أن يفرضه المماليك، وبدأ يخطط لاستلام ولاية مصر.

كان محمد علي ذكياً ذا إمكاناتٍ كبيرة، وقد نجح في كل عمل تسلّمه، عمل في تجارة الدخان فربح، واشتغل بجمع المال من الفلاحين فحمد له عمله، وعُيّن ضابطاً في الحملة العثمانية التي جاءت إلى مصر

لإخراج الفرنسيين منها فأظهر قدرةً حربيةً. وكان ذا أطماع طويلة واسعة يخطط لكل مشروع قبل أن يبدأ به وغالباً ما يحالفه النجاح، يعرف ضرب الفرقاء بعضهم ببعض، والانحياز إلى جانب الفريق الأقوى، واستغلال الأشخاص والرمي بهم بعد تحقيق ما يريد، واتهامهم للتخلص منهم، وقد وجدنا كيف سلّم الجباية للمماليك فأوقعهم في الفخ، واتفق معهم حتى إذا تمّ له ما يريد ورأى نقمة الشعب عليهم انقلب ضدهم و... وهذه طريقته نراها في كل تصرّفاته...

كان محمد علي يرى السير بخطى واسعة لتقليد أوربا والمشي على خطاها ومنهجها في الحياة ضارباً عرض الحائط بالفكر الإسلامي، والأعراف الإسلامية، والمُحرّمات وكل شيء يمت إلى تراثه، لذا كانت أوربا راضيةً عن سلوكه وتصرفاته وصامتةً عن تحركاته وتوسعه بل كانت تشجعه أحياناً لينشر رأيه، وذلك كي يتقبل الناس الحياة الأوربية على ما فيها، ويبتعدون بذلك عن عقيدتهم.

وكان محمد علي من الناحية السياسية يميل إلى السياسة الفرنسية فيعمل بخطٍ موازٍ لها، وتدعمه ما دامت تجد في ذلك مصلحةً لها، فإن رأت مصلحتها تتعرّض لشيء أظهرت الحياد، ووقفت لا تُبدي رأياً، ولا ترى الدول النصرانية عامةً خطراً في سياسة محمد علي ما دام لا يقف عائقاً ضد الصليبية أو يرفع راية المقاومة ضدها، بل تعدّه ممهداً السبيل لها بدعوته السير على النهج الأوربي وعدم التمسك بالفكر الإسلامي فإن ذلك يبعد المسلمين عن عقيدتهم وهذا ما تسعى له الدول النصرانية، ولكن عندما خشيته في أن يدبّ الروح في جسم دولةٍ جديدةٍ تقوم مقام الدولة العثمانية أو تخلفها وقفت ضده، وحدّت من أطماعه، وأعادته إلى حجمه الأول الذي بدأ به.

ولاية محمد علي على مصر:

عيّنت الدولة العثمانية خورشيد باشا حاكم الإسكندرية والياً على مصر، بعد أن رأت شغب الفرقة الألبانية، وتبيّنت أطماع محمد علي،

وعمل خورشيد باشا كامل جهده ليتخلص من محمد علي وجنده، وصدر أمر السلطان بإخراج الفرقة الألبانية من مصر، غير أن الشعب قد احتجّ على ذلك، واضطرت الدولة أن تسكت عن تنفيذ أوامرها إلا أن الشقة قد بعدت بين الوالي ومن معه من الحامية من جهة وبين الشعب ومن يمثّله من العلماء من جهة أخرى، وتكفي حادثة بسيطة لإشعال النار بين الطرفين، ورأى السكان أن مطالبة الوالي لهم بدفع الضرائب المترتبة عليهم أمراً عظيماً فثاروا على تلك المطالبة، وحدثت الفتن، واضطر الوالي خورشيد باشا إلى مغادرة البلاد، ولم يُبدِ محمد علي في هذه الأحداث أي تصرّف خوفاً من السلطان، وكي يصل إلى ما يطمع دون إثارة زوبعة قد تبعده عما يصبو إليه، وبذا بقيت مصر دون والٍ، ورأى العلماء أن الدولة تتجاهلهم في كثير من الأحيان لذا قرروا المبادرة بعد أن رأوا في محمد علي الكفاءة في تسلّم أمر الولاية فساروا إليه وألبسه عمر مكرم نقيب الأشراف وعبد الله الشرقاوي لباس الولاية، وأخذوا عليه عهداً بألا يفعل شيئاً دون الرجوع إليهم. وأصدر السلطان أمراً بتعيين محمد علي باشا والياً على مصر عام ١٢٢٠، وأصبحت ولاية محمد علي قويةً تعتمد على ركائز متينة هي العلماء الذين يلتفّ الشعب حولهم، فكان يستشيرهم حتى تترسخ أقدامه في السلطة.

أما إنكلترا فقد اضطرت إلى الجلاء عن مصر عام ١٢١٧ بعد صلح أميان الذي وقعته مع فرنسا، لكنها كانت تتوقع الخلاف مع محمد علي الذي تسلّم الولاية، لأن لها مصالح في مصر، ومحمد علي صاحب أطماع ولا يمكنه التسليم بهذه المصالح بسهولة لطباعه الخاصة في حب الظهور بقوته لدى الشعب ولدى الدولة، لذا فالمصالح ستتصادم وسيلجأ محمد علي إلى فرنسا المنافسة الرئيسية لإنكلترا وخاصة في مصر للتحكم في طريق الهند على الأقل، وهنا تكمن المشكلة لذا بدأت تتوسط لدى السلطان لعزل محمد علي عن الولاية إلا أن السلطان ملزم بإبقائه لقوة قواعده، ولتأييد العلماء له. . . . وعندها فكرت إنكلترا بإعادة صلتها مع المماليك، واحتلال مصر بالقوة، وخاصة أن السياسة الفرنسية قد رجحت لدى الدولة العثمانية على السياسة الإنكليزية.

أرسلت إنكلترا حملةً بقيادة فريزر عام ١٢٢٢ مؤلفةً من سبعة آلاف جندي نزلت بالإسكندرية، واحتلتها، واتجهت نحو رشيد فقاومها السكان من منازلهم، واضطرت إلى الانسحاب، وجاء محمد علي ليقف في وجه الحملة الإنكليزية، وقد صالح المماليك بعد أن كان في حرب معهم في الصعيد. ولم تحصل إنكلترا على مساعدة المماليك كما توقعت، إذ لا يمكنهم دعم كافرٍ دخيل. كما أن الظروف الدولية لم تكن مناسبةً لإنكلترا إذ تصالحت فرنسا وروسيا وتحالفتا، ورأت إنكلترا أن تقرّبها من الدولة العثمانية أفضل لها لهذا كله اضطرت أن تسحب حملتها من مصر، وظهر محمد علي بصورة المنقذ للبلاد، وأحبه العلماء والسلطان، ومنحه حكم السواحل المصرية بعد أن كانت على عهدة الدولة العثمانية.

سياسة محمد علي:

بدأ محمد علي يزيل القوى التي يمكن أن تقف في وجهه، وقد بدأ بالعلماء إذ رأى فيهم القوة الكبيرة التي تقف أمامه، إذ لهم فضل عليه بتعيينه، ولهم عليه عهد بالرجوع إليهم، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً دونهم ما دام الشعب كله وراءهم لذا يبدأ من الواحد تلو الآخر بأية وسيلة من الوسائل سواء أكانت طريقة شريفة أم غير ذلك بالإغراء، بالقتل، بالفتن، وأخيراً نقل أو نفى نقيب الأشراف عمر مكرم إلى دمياط عام ١٢٢٤، ثم التفت إلى المماليك فقضى عليهم بمذبحة القلعة بعد أن أظهر الرضا منهم، وذلك عام ١٢٢٦ عندما أراد تسيير ابنه طوسون إلى الجزيرة العربية لقتال السعوديين، واقتنع بعدها أن الجو قد صفا له فبدأ يُطبّق سياسته التي يريدها.

سياسة محمد علي الداخلية:

رغب محمد علي في تقوية ولايته كي يتمكّن من الوقوف أمام أطماع الآخرين بها، ورأى أن الطريق لذلك هو تقليد الغرب بكل معاني التقليد، فعمل على تدريب جنده وخاصةً فرقته الأصلية الألبانية، وإن حال دون

التدريب الكامل ما قام به من حروب، واستفاد من أحد ضباط الحملة الفرنسية الذين بقوا في مصر، وهو الجنرال سيف الذي اعتنق الإسلام، وتسمى باسم سليمان الفرنساوي، فقد أنشأ مدرسةً حربيةً في أسوان عام ١٢٣٥، وعهد إليه بالإشراف عليها، وعلى تدريب المماليك الذين اشتراهم محمد علي لنفسه، واعتمد في بداية الأمر في تشكيل جيشه على السودانيين، ثم بدأ يُجنّد الفلاحين المصريين، وأسس عدداً من المدارس الحربية مثل مدرسة المشاة، ومدرسة الفرسان، والمدفعية، وأركان الحرب، وأرسل البعثات من أجل ذلك إلى أوربا وخاصةً فرنسا، وأدخل في جيشه النصارى إلى جانب المسلمين فظهر على الجيش الضعف بعدة مدةٍ عندما وصل بعض النصارى إلى رتبٍ عاليةٍ حيث كانت ميولهم مع إخوانهم النصارى الأوربيين تفوق صلتهم بالمسلمين الذين يشتركون وإياهم في جيش البلد الواحد لأن العقيدة هي الرابط القوي بين النفوس وخاصةً أن الأقباط يشعرون أن المسلمين قد انتزعوا منهم حكم مصر بالقوة.

وأسس أسطولاً كانت نواته الأولى في بولاق على نهر النيل في القاهرة، كما اشترى عدداً من السفن الحربية من أوروبا، وتحطم هذا الأسطول في معركة نافارين عام ١٢٤٢، فأعاد تأسيسه من جديد، فأنشأ داراً لصناعة السفن في الإسكندرية، ومدرسة بحرية، واستخدم بعض الخبراء الإنكليز، ولكنه ضعف بعد عام ١٢٥٦ عندما انسحب وجيشه من بلاد الشام.

واهتم محمد علي بالتعليم، فأنشأ المدارس الابتدائية، والثانوية، والمتخصصة مثل الطب والهندسة، وأسس المدارس العالية أيضاً، واهتم بتعليم اللغات الأجنبية، وعمل على إنشاء المدارس المهنية والفنية، وصدرت في عهده صحيفة الوقائع الرسمية.

أما من ناحية الزراعية فقد مسح الأراضي، ووزع المساحات الزراعية على الفلاحين، ولكنه عدّ الأرض ملكاً له، وكل من يعمل بها زرّاعاً عنده، وحدّد عليهم الضرائب، وشق الترع وأشهرها الترعة المحمودية التي تصل

الإسكندرية بنهر النيل فرع رشيد، وبنى القناطر الخيرية لرفع مستوى مياه نهر النيل، وأدخل زراعات جديدة، أشهرها القطن الذي توسّعت زراعته، والزيتون، والتوت اللذين لم تتوسّع زراعتهما، كما عمل على زيادة تربية الحيوانات.

وكانت الصناعة اليدوية هي المعروفة فقط في مصر، فاستجلب الآلة التي بدأت تعمل في مصانع الغزل والنسيج، والسكر، والحبال، والطرابيش، كما بدأ بصناعة الأسلحة من مدافع وذخيرة.

كما نظّم المواصلات، وأجهز على قطاع الطرق، فنشطت التجارة، وخاصةً بين أوربا والهند، ولكنه إحتكر التجارة الداخلية إذ كان يشتري حاصلات الفلاح بالأسعار التي يراها، ويقوم ببيعها للتجار الأجانب، وتدخل الأرباح إلى الدولة، وهو الدولة.

ونظّم الإدارة حيث أوجد مجلس الشورى الذي يضم العلماء وكبار الموظفين، وعهد إلى ابنه إبراهيم برئاسة المجلس المخصوص، وكان الديوان العالي الذي ينظر في مشروعات الدولة قبل تنفيذها. وكان لكل إدارة ديوان خاص بها، وقد ربط كل شيء به كشأن كل عسكري أو صاحب أطماع واسعة.

حروب محمد علي:

كان محمد علي في بداية الأمر يريد كسب رضا الخليفة العثماني ليسكت عن توسّعه، وليبقى الوالي على مصر، ولذا فقد قبل تكليفه بمهمة القضاء على الدولة السعودية إذ في ذلك رضا السلطان، وإبقاؤه في منصبه، وامتداد أملاكه، والقضاء على الدولة السعودية التي تأخذ في العمل للإسلام بشكل لا يتفق ونهجه كما لا ينسجم مع خط الدولة العثمانية. كما أن الدول النصرانية ترضى على هذا التصرف كي لا تدب الروح الإسلامية من جديد في جسم الأمة المسلمة حيث يمكن للدعوة السلفية أن تنطلق بسرعة في بقية الأمصار الإسلامية، وتعود فكرة الجهاد من جديد، وعندها يكون

الخطر على الصليبية شديداً. ولكن في الوقت نفسه فإن هذه الدول النصرانية لن تسمح لمحمد علي أن يمدّ نفوذه أكثر من اللازم أو إلى مناطق واسعة فإن ذلك قد يعيد الحياة من جديد إلى الأمة المسلمة وإن كان بصورةٍ أخرى قد تكون أخفّ من الصورة الأولى بكثير ولكن تصبح ذات قوة وربما نتيجة هذه القوة قد تعود فكرة الجهاد بعد موت محمد علي على يد من يخلفه أو من يتولّى أمر الدعوة إلى الجهاد، ولهذا فقد حالت دون وصوله إلى مياه الخليج العربي، فقد اكتفى بتهديم الدرعية، وفعل ما فعله بأهلها، كما منعت إنكلترا اتفاقه مع سلطان مسقط سعيد بن سلطان على حين كانت إنكلترا تستفيد من هذا إذ تحاول التنسيق معه وإبعاد ميوله عن السياسة الفرنسية التي تعاديها إنكلترا، ولكن الصليبية تجمع بينهما قبل التنافس أو الحرص على المصالح الجزئية أو الجانبية. وعلى كل فقد امتدّ نفوذ محمد علي على الحجاز ووسط الجزيرة وعلى عسير بعض الوقت، كما كسب في الوقت نفسه رضا السلطان، وجرّب صلاحية قوته.

في السودان:

واندفع محمد علي نحو السودان إذ أرسل حملةً بقيادة ابنه إسماعيل دخلت بربر، وشندي، وسنّار على النيل الأزرق وذلك عام ١٢٣٥، وكان ذلك في سبيل مدّ نفوذه والحصول على الثروة من زراعية وغابية إضافة إلى العاج وما أشيع عن وجود الذهب والفضة هناك بكميات كبيرة، ولكن كان الأهم من ذلك كله وهو ما يؤكد عليه في مراسلاته لابنه جلب العبيد لتشكيل جيشٍ قويٍ منهم، وقد احتج باختلافه مع المماليك الذين تجمعوا في منطقة شمالي السودان اليوم فأرسل حملته تلك، وبعد دخول السودان تفشى المرض في الجيش المصري فطلب إسماعيل من أبيه النجدة فأرسل له ابنه الآخر إبراهيم، وكان قد رجع من الجزيرة العربية، ولحق المرض بإسماعيل فعاد إلى مصر، ولما وصل إلى بلدة شندي انتقم منه حاكمها نمر بأن أحرقه وحاشيته غدراً، فأرسل محمد علي جيشاً آخر إلى السودان فأحرق بلدة شندي، ونكّل بأهلها، وبنيت الخرطوم عام ١٢٣٨ لتكون قاعدة

لهذا الجزء الجديد في ولاية محمد علي، وهكذا توسّعت ولاية محمد علي كثيراً، وكان الخليفة العثماني راضياً عن هذا التوسع لأنه باسمه ما دامت مصر ولايةً تتبع الدولة العثمانية، أما الدول النصرانية فقد كانت خائفة من هذا التوسع أو أن يكون آخره القضاء على دولة الحبشة النصرانية والتي تعدها قاعدةً لها إذ أنها جزيرة وسط بحر إسلامي، ولم يُخف السفير الإنكليزي في القاهرة والمقرّب من محمد علي وهو (هنري سولت) قلقه، فأجابه محمد علي: بأنه ينسحب من المنطقة إن رغبت إنكلترا في ذلك فإن صداقة إنكلترا أفضل عنده من ضم تلك الأجزاء، ومع أن محمد علي كان يميل إلى السياسة الفرنسية إلا أنه لم يترك صداقة إنكلترا خوفاً من أن تؤدي المنافسة بين الدول النصرانية إلى الإطاحة بمركزه، وبقيت المنافسة بين الدولتين على طرق المواصلات المصرية.

في اليونان:

وما أن انتهى محمد علي من مدّ نفوذه وسلطانه إلى السودان حتى طلب من الخليفة العثماني مساعدته في حربه ضد اليونانيين الذين تمرّدوا على الدولة، وكانوا يلقون تأييداً كبيراً من الشعوب الأوربية النصرانية، بل انطلقت أصوات الشعراء والمفكرين تؤيدهم، وانخرط بعضهم في صفوف الثورة، وكانت روسيا تعطف على الثورة، ولكنها في الوقت نفسه تخشى من انتقال عدواها إلى بلادهم، ومترنيخ رئيس وزراء النمسا ضد هذه الثورة وأية ثورة في أية جهة كانت. وأما إنكلترا فكانت تخشى تأييد روسيا لهذه الثورة ومدّ نفوذها إلى اليونان فيما إذا نجحت الثورة، لذا لا تريد لها النجاح ولا تريد دعم روسيا لها، فنصحت لذلك روسيا، وأقنعتها بترك التأييد خوفاً من اندلاع ثورات تجتاح أوربا، فأحجمت روسيا في بداية الأمر عن تأييدها للتمرد. أما محمد علي فقد كان يتعاطف مع حركة اليونانيين فقد سمح لليونانيين الذين يقيمون في مصر بالسفر إلى اليونان والانضمام إلى الثورة، كما حرر مماليكه الذين من أصلٍ يوناني، وأرسلهم إلى اليونان للغرض نفسه، وكان يحب أن يظهر لدى الأوربيين أنه متعاطف مع

النصارى، لا يبالي بجانب العقيدة، ومن المعلوم أن الأقباط والنصارى في عهده حصلوا على أكبر عطف منه، وقد كان (بوغص بك) أحد كبار مستشاريه بل بمثابة رئيس الوزراء، وهو نصراني أرمني. تغيّر الموقف الأوربي وبالتالي تغيّر موقف محمد علي، لقد عادت روسيا تؤيّد الثورة اليونانية بكل طاقتها فوقفت الدول الأوربية ضد الثورة خوفاً من نجاح وصول روسيا إلى مياه البحر المتوسط، فدعمت الخليفة العثماني، واستجاب الآن محمد علي لطلب الخليفة بمساعدته للقضاء على تلك الثورة، أو أن الدول الأوربية رضيت أن يقضي عليها محمد علي لأنها هي لا تستطيع أن تتدخل خوفاً من شعوبها المؤيدة للثورة بدافع صليبي، وصدر مرسوم من الخليفة بتعيين محمد علي قائداً عاماً للقوات العثمانية في بلاد اليونان.

انطلقت الحملة المصرية من الإسكندرية بقيادة إبراهيم باشا، وتتألف من ٥١ سفينة حربية، و١٤٦ سفينة نقل على ظهرها سبعة عشر ألف جندي، وأربع سرايا مدفعية، وثلاثمائة فارس، ونزلت الحملة في جزيرة كريت واستولت عليها، ثم انطلقت إلى شبه جزيرة الموره في جنوب بلاد اليونان واحتلتها، وجاءتها نجدات فبلغ مجموع جنود الحملة اثنين وأربعين ألفاً، واستطاعت مع القوات العثمانية أن تدخل مدينة نفارين عام ١٢٤١، وكادت أن تقضي على الثورة، ثم عادت فتغيّرت المواقف الأوربية فتغيّرت معها الحرب، وذلك أنه مات في هذه الأثناء قيصر روسيا الإسكندر الأول، وخلفه نيقولا الأول المعروف بنزعته إلى الحرب فخافت الدول الأوربية وخاصةً إنكلترا أن يؤدي تعاطف روسيا مع ثورة اليونان إلى حرب بين الدولة العثمانية وروسيا ولا تستطيع الدول الأوربية الوقوف أمام روسيا لأن شعوب أوربا كلها تتعاطف مع الثورة اليونانية بدافع صليبي، وعندها تحقق روسيا بعض أطماعها، وتصل إلى مياه المتوسط، وتقتطع من الدولة العثمانية ما فيه مصلحتها دون مصالح بقية الدول الأوربية الأخرى، فأرسلت إنكلترا مندوباً من قبلها إلى عاصمة روسيا بطرسبرغ هو (الدوق ولنغتون) للمفاوضة مع روسيا بشأن الثورة اليونانية وذلك عام ١٢٤٢،

ونتيجة هذا الاتفاق الذي تمّ، فقد طلبت إنكلترا من الخليفة العثماني أن يتفاهم مع القيصر الروسي، غير أن الخليفة لم يصغ لنصح إنكلترا، فالتقت إنكلترا، وفرنسا، وروسيا في اتفاقية في لندن عام ١٢٤٣ تقضي بفرض هدنة بين العثمانيين واليونانيين بالقوة إن دعت الحاجة. وبدأت إنكلترا تفاوض محمد علي للانسحاب من اليونان إذ أن جيشه هو القوة الرئيسية لدى العثمانيين وكانت المفاوضة عن طريق سفيرها في القاهرة (هنري سولت)، وعن طريق الفرنسيين، ولكن محمد علي كان يرى أنه سيحصل على مكافأة من السلطان إذا قضى على الثورة اليونانية على حين أنه إذا انسحب فإنه لا يحصل على شيء حتى إنكلترا لا يمكنها أن تؤيده في استقلاله بمصر عن الدولة العثمانية، ولكن المندوب الإنكليزي أشار إشارة عابرة بإمكانية ذلك، وعندها وافق على حصار جيشه من قبل أساطيل الدول الثلاث كتهديدٍ له ليبرر انسحابه، في الوقت الذي أشار عليه مندوب مترنيخ رئيس وزراء النمسا بضرورة الإجهاز على الثورة اليونانية في سبيل خدمة بلده مصر، ولكن محمد علي اختار الرأي الإنكليزي، متفقاً معهم ضد الدولة العثمانية.

حاصرت أساطيل الحلفاء (إنكلترا - فرنسا - روسيا) الأسطول المصري، واتخذت أو اصطنعت حادثة بسيطة، وشنت هجوماً على الجيش المصري كادت تبيده إذ فقد في تلك الهجمة أكثر من خمسة وعشرين ألف جندي، ولما لم يكن إبراهيم باشا وحاشيته ساعتذاك مع الجيش فقد عُدّ ذلك اتفاقاً ضد المصريين المسلمين حيث ذُبح أكثرهم بدعوى في سبيل انسحابهم، وتحقيق مصلحة محمد علي لاستقلاله في مصر، واعتراف الدول الأوربية بذلك الاستقلال، وتمّ انسحاب ما بقي من الجيش المصري على سفنٍ إنكليزية. غير أن الخليفة العثماني قد رفض مبدأ تدخل الدول الأوربية في اليونان لأنها مسألة داخلية خاصة بدولته، وطالب الدول المشاركة في الحملة ضد العثمانيين بالتعويض عن الخسائر التي لحقت بالجيش العثماني والأسطول، وللسبب نفسه فقد رفض تنفيذ الاتفاقية التي

وقعها مع روسيا عام ١٢٤٢، والتي تقضي بمنح مولدافيا والأفلاق والصرب الاستقلال الذاتي، وهذا ما أثار غضب روسيا ولكنها كانت في حربٍ مع إيران، فلما انتهت من تلك الحرب اتجهت إلى الدولة العثمانية عام ١٢٤٥، وسارت الجيوش الروسية نحو إستانبول، ودخلت مدينة أدرنة وبعد شهر توقفت الحرب وعقدت معاهدة أدرنة التي حصلت فيها روسيا على الإمارات البلقانية والقسم الشرقي من الأناضول وحق المرور في المضائق العثمانية. غير أن إنكلترا قد رأت أن روسيا قد حصلت على مكاسب أكثر مما تريده، لذا فقد وقفت أمام هذه المكاسب، وأصبحت وكأنها تظهر بجانب الخليفة العثماني، وكذلك كانت النمسا، أما فرنسا وبروسيا فكانتا بجانب روسيا، ويريد هذا الجانب الحصول على أكبر أجزاء من الدولة العثمانية التي توقعت الدوائر الغربية قرب نهايتها.

كانت سياسة محمد علي تميل إلى السياسة الفرنسية غير أن عقله يعمل بتوجيه إنكليزي، وبعد هزيمته باليونان رغبت فرنسا أن تجرّه نحوها نهائياً، وتحقق مصالحها بمنافسة إنكلترا فعرضت عليه أن يقوم بدخول الجزائر وتونس وليبيا طبعاً على حسابها حيث تؤمن له الحماية البحرية، وتقدم له أربع سفن حربية كبيرة، وتدفع له مبلغاً من المال على أن يقيم حكومة في هذه المناطق تشبه حكومته في مصر ويكون لفرنسا فيها النفوذ الاقتصادي، فوافق على المشروع، ولكنه عرضه على إنكلترا فهددته بإغراق أسطوله قبل أن يتحرّك، وبزوال سلطانه من مصر فعدل عن المشروع خوفاً ومسايرةً لإنكلترا، لا بُعداً عن التبعية لفرنسا أو للدول الأوربية إذ كان مطيةً لها تتسابق فرنسا وإنكلترا لوقوفه بجانبها، إذ تُحرّكه إنكلترا، ويرسل البعثات إلى فرنسا، ويطلب منها الخبراء والمستشارين. واقترحت عليه إنكلترا التوجه نحو الشام.

في الشام:

اتجهت جيوش محمد علي إلى بلاد الشام، وهو يرغب بضمّها إليه منذ مدة، فقد طالب بها عندما حارب في الجزيرة العربية بناءً على أوامر الخليفة ليستعين بأهلها في حروبها غير أن الخليفة رفض ذلك، ولما امتثل

لرغبات الخليفة وسار لقتال اليونان طلبها كذلك ولكن لم يوافق الخليفة أيضاً، فلمّا أشارت إليه إنكلترا بذلك وجد ذريعةً بالتجاء بعض المصريين الهاربين من الجندية أو من الضرائب إلى والي عكا عبد الله باشا، كما ساعد ذلك الوالي تهريب البضائع إلى مصر عن طريق سيناء، ولم يرسل الأخشاب من بلاد الشام لمساعدة محمد علي لإعادة بناء أسطوله الذي تحطّم في اليونان، ولم يسدد عبد الله باشا ما عليه من ديون لخزينة مصر، اتخذ ذلك ذريعة لتحقيق أطماعه، وربما اخترع بعض هذه الأسباب أو تعلل بها، مع العلم أنها لم تكن من قبل، بل كان يتقرّب من ذلك الوالي، ومن بشير الشهابي ليكونا بجانبه فيما إذا أقدم على مشروعه الذي تراوده نفسه عليه منذ مدة، ولا يكاد يترك ذهنه.

أرسل محمد علي قواته البرية والبحرية بقيادة ابنه إبراهيم عام ١٢٤٧ فاستولى على غزة، ويافا، وحاصر عكا، وفتح القدس، وطرابلس، وبيروت، ثم استسلمت عكا له بعد أن استمر حصاره لها مدة ستة أشهر، ودخل دمشق دون مقاومة، وهزم جيشاً عثمانياً عند بحيرة قطينة قرب حمص، واستولى على حمص، وحماه، وحلب، وهزم جيشاً عثمانياً آخر عند ممر بيلان عام ١٢٤٨، وكان الخليفة قد أصدر مرسوماً بعزل محمد علي عن ولاية مصر منذ اتجه إلى دمشق لتخفّ هيبته، غير أن بشير الشهابي الدرزي العقيدة قد وقف إلى جانبه لمصلحته الخاصة حيث أصبح الرجل القوي في المنطقة، ولم ينضمّ إليه حتى وصل إلى طرابلس. ولما دخل إبراهيم باشا الأناضول عرض محمد علي على الخليفة إعطاءه ولاية الشام إذ أصبح يتكلّم من مركز القوة لكن السلطان رفض ذلك، فأمر محمد علي ابنه بمتابعة القتال فسار إبراهيم باشا فدخل أضنه، واتجه نحو قونية في قلب الأناضول، وانتصر على جيشٍ عثمانيٍ كبير، فأصبح طريق إستانبول مفتوحاً أمامه.

خشيت الدول الأوربية من تقدم جيوش محمد علي السريع، وظهرت قوة جنده وتنظيماتها، وخافت أن تدبّ الروح من جديد في المنطقة

الإسلامية لذلك أسرعت تنصحه بتوقف القتال عدا فرنسا التي وقفت بجانبه وشجعته فلم يأبه بالنصح الأمر الذي جعل الخليفة يقبل مساعدة الروس بل يطلبها، ويوافق على نزول قوات روسية في إستانبول، وهذا ما أخاف الدول فغيّرت فرنسا موقفها وأجبرت هي وإنكلترا محمد علي على عقد الصلح الذي تمّ بعد مفاوضات في كوتاهية عام ١٢٤٩، وألزم السلطان إعطاء محمد علي ولاية الشام، وتعيين ابنه إبراهيم والياً على أضنه كحام للشام، ولكن السلطان وافق على هذا مؤقتاً على ما يبدو، وحتى تعود إليه قوته، وينظم جيوشه من جديد.

أما روسيا فقد عقدت مع الدولة العثمانية بعد اتفاقية كوتاهية معاهدة (خنكياراسكله سي) تعهدت فيها روسيا بحماية الدولة العثمانية من أي اعتداء، وتعهدت الدولة مقابل ذلك بإغلاق المضائق في وجه أية قوةٍ معادية لروسيا، واتفقت الدولتان أن تكون مدة المعاهدة ثمان سنوات، ولقد أرهبت هذه المعاهدة الدول الأوربية الأخرى المنافسة لروسيا فغيّرت موقفها.

في هذا الوقت قدّم محمد علي مذكرة إلى قناصل إنكلترا، وفرنسا، والنمسا يشعرهم برغبته في الانفصال عن الدولة العثمانية، غير أن الدول لم تكن راضيةً عن هذا الرأي، وحتى روسيا لم تقبل به، ووقفت في وجهه، وإن لم يستشرها، وعرف محمد علي أن يعمل وحده وأن ما حققه سابقاً من انتصارات إنما بسبب موافقة مصلحته لمصالح إنكلترا وفرنسا خاصةً فلما اختلفت المصالح ظهر ضعفه، لذا عاد فلجأ إلى الخليفة وطلب منه أن يعترف له بحكم مصر والشام بصورةٍ وراثيةٍ مقابل تقديم ٦٠٠ ألف كيس لخزينة الدولة العثمانية، غير أن الخليفة قد رفض ذلك، وإذا كانت الدول الأوربية وخاصةً روسيا وإنكلترا ترغبان ببقاء محمد علي بالشام إلا أنهما تريدان بقاءه بشكل موقت لا بشكل دائم إذ أن بقاءه بصورة مؤقتة يستدعي تنفيذ معاهدة (خنكياراسكله سي) بين روسيا والدولة العثمانية أو أن روسيا تبقى حامية الدولة ما دام التهديد لها قائماً من قبل واليها، وتبقى إنكلترا في

الوقت نفسه تهدد به لتحقيق مصالحها، أما بقاؤه بشكل دائم فتخشيان وجود دولة قوية قد ترث الدولة العثمانية، وتحلّ محلّها، وتحيي شيئاً من قوة الماضي.

وبدأ التذمّر في بلاد الشام يظهر ضد محمد علي وجيوشه فقد سام السكان خسفاً، وأنهكهم بأعمال السخرة، وأتعبهم بالرشوة، وكرههم الحياة من الفوضى وعدم الأمن والتنكيل بهم من السلطة، وأصعب من هذا وذاك فقد أظهر عطفه على النصارى خاصةً والطوائف الأخرى عامة، ومنها الدروز الذين يمثلّهم الأمير بشير الشهابي والنصيرية فأدخلهم بالجيش وظنّ بذلك أنه عدل بينهم فساوى بينهم وبين المسلمين، وسُرّوا في أول الأمر، إلاّ أنّهم لم يلبثوا أن كرهوا الجندية لما أصابهم من جرائها ونتائجها فأظهروا تذمّرهم وبدأت الفوضى، وتبعها جمع السلاح والمطالبة بالضرائب بل وزيادتها فبدأت الحركات والثورات، أما بشير الشهابي فلم يكن باستطاعته مفارقته فإن فعل نُكّل به، وإن بقي نقم عليه الدروز، وإن غادر قتله العثمانيون، ففضّل البقاء بجانب الوالي، وإن أعلن عن اعتناقه النصرانية على المذهب الماروني ليكسب رضا النصارى والدروز معاً حسب رأيه وهما الطائفتان المتصارعتان في منطقته. وأما النصيرية فقد حاول إبراهيم باشا أن يُقيم لها المساجد في مناطقهم، وأن يُقرّبهم إلى الإسلام على رأيه، غير أنهم لا يريدون هذا لذا فقد نقموا عليه، وعندما خرج من الشام خرّبوا ما أقام، وهدّموا ما بنى من مساجد بل جعلوها لحيواناتهم حظائر. وأما المسلمون فكانوا أيضاً على درجةٍ من الاستياء من محمد علي إذ نظروا إليه نظرة الغريب حيث أدخل على الإسلام ما ليس فيه إذ بدأ يسوق أبناء الطوائف إلى الجندية معهم، لا رغبةً في الجندية ولا حباً لها من قبلهم، بل كانوا على كره لها، ويتمنون الخلاص منها، وإنما لما أحدثه في الإسلام لذا ظهر التململ في القتال، وبدأ الضعف يظهر في المعارك. وأصبحت الجندية أصعب شيء على السكان حتى الطوائف التي ظنّ محمد علي أنه قد خدمهم بإدخالهم فيها، وساواهم مع المسلمين صارت النقمة

عليهم، وغدت سبب التذمّر منهم ومن المسلمين. ورغم أن السكان كانوا يشكون من الحكم العثماني لكثرة الحروب، والفوضى، وعدم الأمن صاروا يتمنون عودته ويرون في حكم محمد علي ما هو أكثر بكثير من سابقه، ولا شك أن إنكلترا قد عملت أيضاً على زيادة ما حدث ولكن أثرها كان ضئيلاً مهما بولغ فيه لرفع اللوم عن حكم محمد علي وابنه.

وقعت معاهدة تجارية بين الدولة العثمانية وإنكلترا عام ١٢٥٤، وأصبح بموجب هذه المعاهدة لإنكلترا حق التجارة في جميع أنحاء الدولة بما فيها مصر والشام، وحق التملك أيضاً، وحُرّم الاحتكار، وكأن هذه المعاهدة كانت ضد روسيا، التي وجدت نفسها أنها ليست حاميةً للدولة العثمانية كما كانت تتوقع ذلك، وضدّ محمد علي أيضاً الذي كان يحتكر التجارة في ولايته والمناطق التي يسيطر عليها. وتجاهلت إنكلترا محمد علي، وجمّدت الوضع، فأراد محمد علي أن يحرّكه، ويحرّك إنكلترا فتعود لمفاوضته، فأحب أن يرسل قوات إلى الخليج العربي وإلى جنوبي اليمن، فتجاهلته إنكلترا متعمدةً، وطلبت من الخليفة العثماني أن يمنعه ويُحذّره، فوافق وفعل إذ لم تكن الدولة العثمانية تستطيع يومذاك أن تجاهد أو تحالف الدول الأوربية كلها، وإنما تحاول أن تستفيد مما بينها من خلاف، وتساير هذه أو تعاهد تلك، وكانت تقتضي مصلحتها آنذاك تجنب الصدام مع إنكلترا.

لقد كانت دعاية محمد علي واسعةً وكبيرةً لدى الشعوب الأوربية حيث يُعرف أنه يعطف على النصارى في ولايته ومناطق نفوذه ويرعى شؤونهم، ويعمل على عدم تحريك الروح الإسلامية في المناطق التي تخضع له مما حدا بالشعوب النصرانية أن تحبه وهذا ما جعل الحكومات تتجنب إظهار الصدام معه خوفاً من إثارة شعوبها ضدها فلما رأت إنكلترا أن من مصلحتها الخلاف معه إذ انتهى دوره معها، أو استهلكته، لذا بدأت قبل الاختلاف معه تنشر الدعاية ضده في الأوساط الأوربية بأنه يتاجر بالرقيق، وأن جيوشه تقوم بجمع العبيد من وسط إفريقية، وأنه متسلّط يضطهد شعبه ويُذيقه مرّ العذاب و.....

شعر الخليفة العثماني محمود الثاني أن وضع واليه قد أصبح حرجاً، وأن وضع الدولة قد أصبح بصورة أفضل دولياً لذا لا بدّ من استعادة ما فقده فجهّز جيشاً وانطلق نحو الشام إلا أنه هزم في معركة (نزب) هزيمةً منكرةً، كما فقدت الدولة أسطولها وتسلّمه محمد علي من أمير البحر فوزي باشا، وتوفي الخليفة ولم يدر بنتائج المعركة، غير أن محمد علي لم يستفد من هذا النصر الذي حققه إذ طلبت منه فرنسا وإنكلترا الانسحاب مباشرةً من الأناضول.

وتغيّر الموقف الدولي إذ أن روسيا تعاني ضائقةً عسكريةً حيث أنها مشغولة بقتال العلماء في بلاد القفقاس، وتُقاتل الدولة الفارسية، ولا تستطيع دعم الدولة العثمانية فيما إذا طلبت منها ذلك بناءً على معاهدة (خنكياراسكله سي) المعقودة بينهما لذا بدأت روسيا تتقرب من إنكلترا، ورفعت الدول الكبرى الخمس مذكرة إلى الخليفة العثماني تطلب منه عدم المفاوضة مع واليه محمد علي دون علمها وهذه الدول هي: إنكلترا ـ روسيا ـ فرنسا ـ النمسا ـ بروسيا.

انعزل محمد علي سياسياً، وزاد الوضع الداخلي حرجاً إذ زادت الثورات ضده في الشام عامة، وفي لبنان منها خاصة، ولم يجد بداً من أن يعود للدولة العثمانية فيدخل معها في مفاوضات مباشرة فأرسل إلى الخليفة وفداً محملاً بالهدايا ومبلغاً ضخماً من المال، وعرض عليه ما يريده الوالي وهو حكم مصر والشام فقط، وأن يأخذ راتباً، ثم يحدد الخليفة ما يريده من خراج على مصر، ولكن الخليفة لم يقبل، وسوّت الدول الأوربية الأمر فيما بينها إذ وقّعت إنكلترا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا اتفاقية لندن عام ١٢٥٦ ومعهم الدولة العثمانية، وتنصّ على منح محمد علي ولاية مصر بصورةٍ وراثيةٍ، وولاية عكا مدى الحياة فإن قبل كانت له، وإن لم يُعط الجواب خلال عشرة أيام سُلخت منه ولاية عكا، وإن انقضت عشرة أيام أخرى ولم يُبد رأيه أُخذت منه ولاية مصر، أو نُظر في أمره، وانقضى عشرون يوماً ولم يُعط الجواب، ولذا فقد صدرت الأوامر من قبل إنكلترا لأسطولها في البحر المتوسط لضرب الموانئ الشامية، وحصار محمد علي

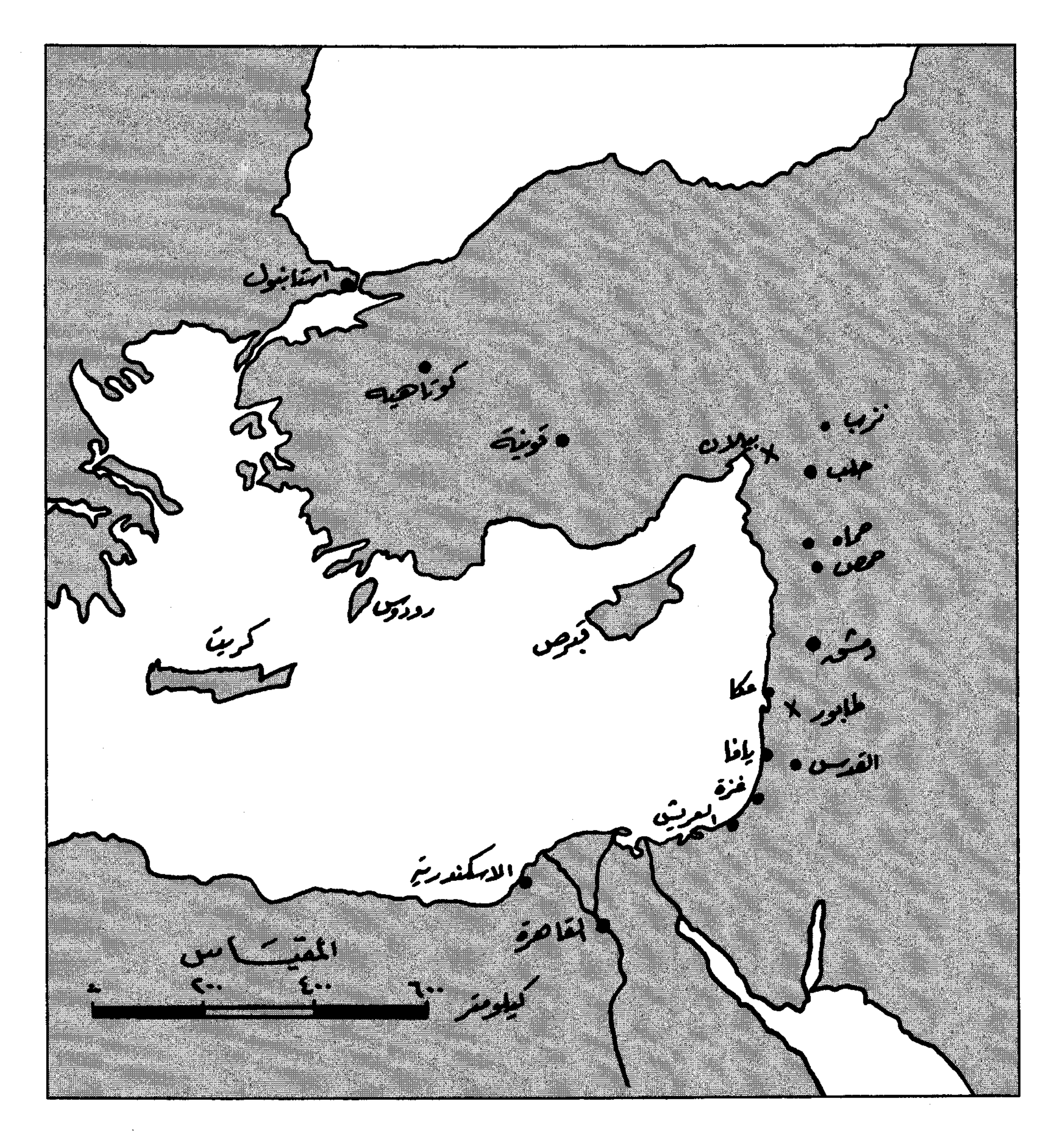
في بلاد الشام، وأخيراً وافق محمد علي على حكم مصر وراثياً، وانسحب من الشام، ووقّع الاتفاقية على ذلك وزير خارجية محمد علي (بوغص بك) الأرمني النصراني والقائد الإنكليزي (نابير).

حاولت فرنسا الوقوف بجانب محمد علي، وهي التي شجعته على رفض اتفاقية لندن غير أن ملك فرنسا لويس فيليب خشي مغبة ذلك، وعزل فرنسا عن أوربا، وإغضاب الدول الأوربية الأخرى لذا فقد عزل رئيس وزرائه (تيير) المتحمس لدعم محمد علي حتى النهاية واستبدله بـ(غيزو) الذي يرى مسايرة دول أوربا، وهكذا بقي محمد علي وحده. فاضطر إلى الانسحاب، كما ذكرنا.

كان الخليفة قد أصدر مرسوماً بعزل محمد علي عن ولاية مصر عندما لم يُعط الجواب، ولكن إنكلترا لم تكن تريد ذلك، لهذا قدّمت إنكلترا، وروسيا، والنمسا، وبروسيا مذكرةً إلى الخليفة تطلب منه العدول عن قراره، فصدر مرسوم ثانٍ بإقامة محمد علي حاكماً بصورةٍ وراثيةٍ على مصر، كما وقّعت الدول الأوربية اتفاقيةً فيما بينها تخصّ المضائق، وبذا فقد ذهبت معاهدتا (أدرنة) و(خنكياراسكله سي)، وما حققته روسيا فيهما من نصر. وأصبح محمد علي وخلفاؤه يخضعون للخلفاء العثمانيين، كما أن المعاهدة قد حددت القوات البرية والبحرية لولاية مصر.

قناة السويس:

توفي إبراهيم باشا في حياة والده عام ١٢٦٤، ثم توفي محمد علي عام ١٢٦٥، وخلفه في ولاية مصر حفيده عباس بن طوسون الذي انصرف إلى اللهو، وأهمل الحكم، وكان يتحرك برأي القنصل الإنكليزي، غير أنه لم يلبث أن قُتل في قصره في بنها عام ١٢٧٠، وخلفه عمه محمد سعيد بن محمد علي إذ أن حق حكم ولاية مصر في أكبر أفراد أسرة محمد علي سناً، وما أن تولّى محمد سعيد حتى عرض عليه صديقه المهندس الفرنسي فرديناند دولسبس مشروع قناة السويس فأعطاه امتياز ذلك، ودولسبس ابن قنصل فرنسا في الإسكندرية وصديق محمد سعيد منذ الطفولة، غير أن هذا


استانبول
كوتاهيه
قونية
بيلان
نزب
حلب
حماه
حمص
دمشق
رودوس
قبرص
كريت
عكا
طابور
يافا
القدس
غزة
العريش
الاسكندرية
القاهرة
المقياس
٠
٢٠٠
٤٠٠
٦٠٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٦]

المشروع قد لقي معارضةً واسعةً من قبل الدولة العثمانية على اعتبار أن مصر ولاية منها، وشجع على ذلك الرفض الإنكليز الذين يخشون من النفوذ الفرنسي في مصر، على حين تريد فرنسا بحصولها على هذا الامتياز أن يزداد نفوذها وتصبح المشرفة على طريق الهند، لذا فإن نابليون الثالث إمبراطور فرنسا قد أيّد هذا المشروع بصورةٍ تامةٍ، ومشى وراءه بكل إمكاناته، وحصل في النهاية على موافقة الخليفة.

وتأسست شركة قناة السويس من أربعمائة ألف سهم، أخذت فرنسا نصفها، ومصر ١٧٧,٦٤٢ سهماً، وتحددت مدة امتيازها بتسع وتسعين سنة تبدأ من افتتاح القناة. وقد بدأ العمل فيها عام ١٢٧٥، وقدّمت مصر أرض القناة مجاناً، والأراضي التي حفرت فيها قناة الماء العذب للشرب من نهر النيل، والعمال، ونفقات الدراسة العلمية والهندسية، وتقديم المساعدات بين المدة والأخرى. وتوفي محمد سعيد عام ١٢٧٩، وخلفه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم حيث زاد التبذير والإنفاق في الدعاية له بالصحف الأوربية، وحصوله على لقب خديوي (نائب السلطان)، وحصر حكم مصر في أكبر أولاد أسرته بدلاً من أكبر فرد في أسرة محمد علي، وإقامته حفل افتتاح القناة الذي تمّ عام ١٢٨٥، ودعوته ملوك وملكات أوربا، وإنشاء الحدائق والقصور لاستقبالهم، ومحاولة إظهار مصر بمظهر المتطور، وإنشاء دار التمثيل (الأوبرا) لبيان عدم الالتزام بما تقتضيه المبادئ الدينية، والعمل على دخول وسط إفريقية في مديرية أعالي النيل (أوغندا)، ولهذا كله بدأ بالديون بفوائد ربويةٍ فاحشةٍ زيادةً في الاستهتار بالأمور الدينية، واضطر إلى بيع أسهم مصر من القناة عام ١٢٨٩ فاشترتها إنكلترا وأصبح لها النفوذ القوي في مصر، ولكن لم تُغن شيئاً لكثرة الديون، وبدأت دول أوربا تطالب مصر بديونها وفوائد تلك الديون، واستغلّت فرنسا وإنكلترا عجز الخديوي عن التسديد ففرضتا على الخزينة المصرية لجنة ثنائية لمراقبتها واستيفاء الديون وذلك عام ١٢٩٣، وغدت هذه اللجنة تراقب مالية مصر، ثم ازداد نفوذها، فأصبحت تتدخل في عزل الوزراء وتعيينهم، وفرض

موظفين أجانب برواتب ضخمة، وفصل ضباط الجيش الكبار الذين لا ترتضيهم إذا ظهرت عليهم مسحة من التدين ورغبة في التخلص من هذا الضغط النصراني بحجة الضغط في النفقات وشكل «نوبار» النصراني الأرمني وزارة مختلطة فيها: وزير إنكليزي للمالية، ووزير فرنسي للأشغال العامة، وعندما أحالت ٢٥٠ ضابطاً على التقاعد قاموا في وجهها فاضطر نوبار إلى الاستقالة، وشكّل توفيق بن الخديوي إسماعيل الوزارة وبقي فيها الوزيران الأجنبيان في حقيبتيهما الوزارية، ثم حدثت النقمة عليها فشكل شريف باشا وزارة جديدة ليس فيها أجانب، غير أن هذه التصرّفات جعلت الشعب جميعه والجيش يعمل على مقاومة هذه اللجنة ونفوذها، وأحسّ إسماعيل بما يجري، فبدأ يعمل على الحدّ من سلطة هذه اللجنة، ويقاومها، ويُضيّق من صلاحياتها، ولما أحسّت إنكلترا وفرنسا بموقفه الإيجابي ضغطتا على السلطان لعزل الخديوي فصدر المرسوم بذلك عام ١٢٩٧، وغادر البلاد على ظهر السفينة (المحروسة)، وعُيّن مكانه ابنه توفيق، وهو أكبر أبناء إسماعيل. واستقالت وزارة شريف باشا لكن الخديوي طلب منه إعادة تشكيلها ثانيةً فرفض، وشكّل رياض باشا الوزارة.

علم توفيق أن بقاءه مرهون برضا الأجانب عنه فاستسلم لهم، فقامت في البلاد عدة مؤسسات مالية اقتصادية أوربية، وهذا ما أثار نقمة الجيش إضافةً إلى ما يُعاني من التأخر في دفع المرتبات، وبقاء أفراده من الضباط المسلمين في رتبٍ معينةٍ. فقدّم أحمد عرابي ولفيف من الضباط مذكرةً إلى الخديوي توفيق طلبوا فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقي باشا، وإصلاح نظام الترفيع في ضباط الجيش، وعمد رئيس الوزراء إلى اعتقالهم ومحاكمتهم غير أن الجيش دخل مقر المحكمة وأخرج ضباطه، وساروا جميعاً بمظاهرة إلى قصر عابدين، فأعادوا الطلب من الخديوي بعزل وزير الحربية، فلم يُمكنه إلا تلبية الطلب، فعُزل عثمان رفقي باشا، واختير مكانه محمود سامي البارودي، لكنه لم يلبث أن اختلف مع رئيس الوزراء رياض باشا، فقدّم استقالته.

نظم ضباط الجيش مظاهرةً أيّدها الشعب، وسارت إلى الخديوي توفيق في قصر عابدين، وطالب أحمد عرابي الخديوي بإقالة وزارة رياض باشا، وانتخاب مجلس للنواب، وتقوية الجيش، وإعادة الحياة الدستورية، فردّ الخديوي بقسوة، فقرر المتظاهرون عدم مغادرة المكان حتى تلبى مطالب الشعب، فأذعن الخديوي، وأصدر أمراً بإقالة رياض باشا، وتكليف شريف باشا بتشكيل حكومة جديدة، وقدّم رئيس الوزراء الجديد دستوراً، وأجرى الانتخابات، واجتمع المجلس النيابي في أواخر عام ١٢٩٨، غير أن المجلس قد اختلف مع رئيس الوزراء بشأن مناقشة الميزانية لأن شريف باشا لا يريد في الوقت الراهن الصدام مع لجنة المراقبة، وأصرّ المجلس على هذه المناقشة فاستقال شريف باشا، وشكل محمود سامي البارودي وزارةً جديدةً تسلّم فيها أحمد عرابي وزارة الحربية، واقترحت هذه الوزارة مناقشة المجلس للميزانية باستثناء القسم المخصص بتسديد الديون للحيلولة دون التدخل الأجنبي، فوافق المجلس، واعتمد الخديوي الدستور عام ١٢٩٩.

عارضت إنكلترا وفرنسا ذلك، وعملتا على إثارة الفتن لإمكانية التدخل، وكان أحمد عرابي قد سرح عدداً من الضباط، وأحال بعضهم إلى المحاكمة، فوجدت إنكلترا فرصةً لزرع بذور الشقاق، وحرّضت الخديوي على رفض تصرّف الوزارة فانصاع، وعاد الخلاف بين الخديوي والوزارة، وبدأت المناورات الأجنبية، وجاء الأسطولان الفرنسي والإنكليزي إلى المياه المصرية قرب الإسكندرية، وأرسلت فرنسا وإنكلترا مذكرةً إلى الخديوي تشجّعانه فيها على ضرب المتمردين، وتلوحان بدعمه، فأمر الخديوي بإبعاد أحمد عرابي، ونفي من معه إلى الريف، وانتقل هو إلى الإسكندرية ليكون على مقربة من الحماية الأجنبية، وهنا تحققت لإنكلترا وفرنسا ما تريدان، ولم يعد الاحتلال بعيداً، ويحتاج فقط إلى من يحرّك أحمد عرابي ليتصرّف بغير حكمة أو يبدأ هو بالإثارة، وحرّكت إنكلترا أعوانها من النصارى فحدثت فتنة دينية في الإسكندرية، فقصفت المدفعية الإنكليزية المدينة، ولم تقبل فرنسا الاشتراك معها بالقصف إذ ظهرت أطماع إنكلترا لاحتلال مصر،

وأعلن أحمد عرابي الثورة على الخديوي، وقاوم الشعب المصري مقاومة مجيدة، وأسرع أحمد عرابي نحو الإسكندرية للدفاع عنها، وتمكّن الإنكليز من احتلالها، فانسحب عرابي بجيشه إلى كفر الدوار حيث أقام التحصينات هناك، وفكر بردم قناة السويس كي لا يستعملها الإنكليز، ويهاجموه من الشرق غير أن الإنكليز قد وعدوا بعدم استعمال القناة حرصاً على حيادها، فصدّق ما وعدوا، وانتقل الأسطول الإنكليزي إلى القناة، وأنزل قواته في الإسماعيلية وتقدّم من الشرق، وأسرع أحمد عرابي لملاقاتهم، والتقى الطرفان عند التل الكبير في رمضان عام ١٢٩٩، وهزم أحمد عرابي، واحتل الإنكليز مصر، وحاكموا أحمد عرابي ورفاقه، وحكموا عليهم بالإعدام، ثم استبدلوا ذلك بالنفي المؤبّد، وحلّوا الجيش، وشكّلوا جيشاً صغيراً من جديد قوامه تسعة آلاف جندي، كما حلّوا المجلس النيابي، وجعلوا بجانب كل وزير مستشاراً إنكليزياً إضافةً إلى مفتش عام يُشرف على أمور الوزارة، وعيّنوا رجالاً من الإنكليز في المناصب والوظائف العليا، وعملوا على نشر المفاسد وانحلال الأخلاق في سبيل تدمير العقيدة، غير أنه قد ظهرت عاطفة إسلامية في أوساط الشعب، وكان في هذه المرحلة جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده ورشيد رضا وغيرهم، وتمكّن الإنكليز استمالة بعض العناصر إليهم، وإن أخذت تظهر بالمظهر الوطني أو الإسلامي أحياناً، لذا لم تخضع في هذه المرحلة للضغط الذي مارسه الإنكليز في مصر كلها، وتوفي الخديوي توفيق عام ١٣١٠، وتولى مكانه ابنه عباس حلمي.

كان عباس حلمي يتعاطف مع الاتجاه الوطني، ويخفي كرهه للإنكليز، وأقال عام ١٣١١ وزارة مصطفى فهمي، وكلّف حسين فخري بالوزارة فاختلف لذلك مع الإنكليز، وتمسّك كل من الطرفين برأيه، ثم خضع الخديوي قليلاً ووعد بالعمل بنصائح إنكلترا. لكنه عاد فاختلف معهم لانتقادهم، حتى هدّد كتشنر قائد الجيش العام بالاستقالة وهو إنكليزي، ثم اضطر الخديوي إلى الاستجابة للشروط التي وضعوها، وأصدر بياناً أثنى فيه

على الجيش، والضباط الإنكليز كأنه اعتراف منه بالأخطاء التي كان يوجّهها لهم.

وفي هذه المرحلة أسس مصطفى كامل الحزب الوطني ١٣٢٥ والذي عُرف بنزعته الوطنية واتجاهه الأقرب إلى الإسلام، وقد ألهب مصطفى كامل الحماسة مستفيداً من حادثة دانشوي التي وقعت عام ١٣٢٤، والتي تدل على مدى استهتار المستعمرين بالشعوب المستعمرة، وملخصها أن خمسة من الضباط الإنكليز خرجوا للصيد، فلم يفلحوا في مسعاهم، فأطلقوا النار على حمام البلدة، فأصابوا امرأة، واشتعلت النيران بأكوام القمح في البيدر فأسرع أهل البلدة، وقاتلوا الضباط، فقتل أحد الأهالي مما جعل الأمر يحتدم، وفرّ الضباط فمات أحدهم بضربة شمس، فامتلأ الإنكليز غيظاً، وشكلوا محكمة حكمت على أربعة من أهل البلدة بالإعدام، ونفذ فيهم مباشرة، وبقيت جثثهم معلقة على المشانق مدة، وسُجن آخرون، وجُلد عدد أمام أقاربهم، وظن الإنكليز في هذا ردعاً للسكان فكانت هذه الحادثة إثارة للنفوس. وعمل مصطفى كامل على تقوية العلاقات بين مصر والدولة العثمانية، ثم توفي عام ١٣٢٦، وخلفه في زعامة الحزب محمد فريد الذي دعا إلى الاستقلال، فاضطهد، وسجن، واضطر أخيراً إلى مغادرة البلاد، وتوفي مشرداً في أوربا عام ١٣٣٨.

وفي هذه الأثناء سلّمت إنكلترا الوزارة بعض الأشخاص الذين استمالتهم إليها، والذين تريد أن تظهرهم، أو تعدّهم للمستقبل فقد تسلّم وزارة العدل (الحقانية) سعد زغلول عام ١٣٢٦، وبعد مدة أضيفت له وزارة المعارف، وهي وزارة مهمة، كما أوكلت إليه مهمة نيابة رئيس المجلس الذي انتخب عام ١٣٣١، وقد كان سعد يتحرك بإشارتها أو إشارة معتمدها كرومر الذي يُعدّ صديقاً وفياً له.

اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣، ووقفت فيها الدولة العثمانية بجانب ألمانيا أي ضد الحلفاء الذين هم إنكلترا، وفرنسا، وروسيا، وإيطاليا، واليابان و.... ولما كانت مصر لا تزال اسماً تتبع

الدولة العثمانية، وفيها من يدعو إلى توطيد الصلة مع العثمانيين على أنهم يمثّلون الحكام المسلمين، أو أن العاطفة الإسلامية تقتضي ذلك، والحزب الوطني يحثّ على تلك الصلات لذا فقد أعلنت إنكلترا الأحكام العرفية في مصر، وأعلنت الحماية البريطانية عليها، وفصلها عن الدولة العثمانية، وخلعت الخديوي عباس حلمي، وعيّنت مكانه عمه حسين كامل، وأطلقت عليه لقب سلطان نكايةً بالخليفة العثماني ومضاهاةً له، ومنعت الاجتماعات، وراقبت الصحافة، وسخّرت اقتصاد البلاد لمصلحة الجيش الإنكليزي، وفرضت على أبناء الشعب أعمال السخرة في تعبيد الطرق، وحفر الآبار، ومدّ أنابيب المياه. وتوفي حسين كامل قبل انتهاء الحرب عام ١٣٣٦.

انتهت الحرب العالمية الأولى في مطلع عام ١٣٣٧، وتوقعت إنكلترا أن بدء المطالبة باستقلال مصر سيكون قريباً، لذا أحبت أن يتولى هذه المطالبة، ويظفر بها أحد أنصارها ليبقى نفوذها ولو خرجت من البلاد، وقد رأت ضالتها في سعد زغلول، فتحرّك ودعا إلى اجتماع في ٦ صفر عام ١٣٣٧ تمخض عنه المطالبة بالاستقلال، وتشكيل وفد للسفر إلى باريس لعرض قضية بلادهم على مؤتمر الصلح، وتشكّل هذا الوفد من سعد زغلول، وعلي شعراوي، وعبد العزيز فهمي، وقابل الوفد المعتمد البريطاني للسماح لهم بالسفر، وأخذ الإذن، إلا أن إنكلترا أرادت أن تلمّعهم بشكل أفضل، ليكونوا زعماء فعلاً، لذا فقد رفضت الحكومة الإنكليزية على لسان معتمدها في مصر بالسماح لهم بالسفر، ومنعتهم من ذلك، فأبرق سعد زغلول إلى الرئيس الأمريكي محتجاً على التصرّف الإنكليزي، ومطالباً بإلغاء الحماية، ولكنه لم يتلق جواباً، وبدأت الاجتماعات، وكُتبت العرائض، وأخذت التوقيعات تحت سمع ونظر الحكومة الإنكليزية، ثم رأت بعد هذه الحركة الشعبية التي أبرزت من تريد، أن تعطيهم صفة العداء للإنكليز كي يحظوا بالتأييد الوطني، فاعتقلت أربعة منهم هم: سعد زغلول، وإسماعيل صدقي، ومحمد محمود، وحمد الباسل ونفتهم إلى جزيرة مالطة، وهذا ما أغضب الشعب، وأبرز هؤلاء المنفيين، وانطلقت الثورة عام ١٣٣٨،

وبتخطيطٍ اضطرت إنكلترا إلى الإفراج عن المعتقلين، فعادوا زعماء البلاد وسادته بلا منازع، وسمحت للوفد بالسفر إلى باريس، لكن خاب أملهم، إذ اعترف الجميع بالحماية البريطانية على مصر... ورجع الوفد من باريس، ورجعت معه الثورة، فأرسلت إنكلترا لجنة «ملنر» وزير المستعمرات الإنكليزية لدراسة مطالب المصريين غير أن السكان قد قاطعوها، وقامت الاحتجاجات تأكيداً على أنهم لا يقبلون إلا الاستقلال، فقدّم «ملنر» مشروعه الذي يتضمّن الاعتراف بالحماية الإنكليزية على مصر مع تنظيم هذه الحماية، وذهب وفد للمفاوضة برئاسة رئيس الوزراء عدلي يكن، ونتيجة المفاوضات مع اللورد «كرزون» والتي منيت بالفشل انقسم رجال الوفد، أو الذين أصبحوا يُمثلون الشعب، أو الذين حملوا اسم «الوطنيون»، واستقالت وزارة عدلي يكن.

رجعت إنكلترا إلى سياسة الإظهار للتركيز على بعض العناصر التي يجب أن يكون من بينها نصارى لتضمن سلامة نفوذها فنفت سعد زغلول، ومصطفى النحاس، وفتح الله بركات، وعاطف بركات، ومكرم عبيد، وسينوت حنا إلى عدن، ثم نقلتهم إلى جزيرة سيشل، وهُيء هؤلاء لاستلام الحكم والمسؤولية على حين بقي الآخرون كجوادٍ للرهان وقت الحاجة، وبعد مدة نقلت إنكلترا سعد زغلول وحده من جزيرة سيشل إلى جبل طارق، واستدعى ذلك استمرار الاضطرابات فأدى ذلك إلى قيام مفاوضات بين عبد الخالق ثروت واللورد اللنبي، وأعلنت إنكلترا إثرها إلغاء الحماية عن مصر، وإعطاء الاستقلال، وتهيئة البلاد للحكم الدستوري وذلك في منتصف عام ١٣٤٠ وعلقت هذا الاستقلال بأربع نقاط:

١" ـ تأمين مواصلات الإمبراطورية الإنكليزية في مصر.

٢" ـ الدفاع عن مصر ضد أي هجوم أجنبي.

٣" ـ حماية الأقليات والمصالح الأجنبية.

٤" ـ قضية السودان.

احتج الزعماء على هذه التحفظات، وإن كانت الحكومة قد مضت في التنفيذ، وألّف عبد الخالق ثروت الوزارة، وتشكّلت لجنة برئاسة حسين رشدي لوضع الدستور، ونودي بالسلطان فؤاد ملكاً على مصر، وكان قد خلف السلطان حسين كامل، وأعلن الدستور عام ١٣٤١، وعُدّل بعد عام، وجرت الانتخابات، وفاز حزب سعد زغلول فشكلّ الوزارة، وأصبح زعيم البلاد، وهكذا خرجت إنكلترا من مصر، وبقي نفوذها، إذ سلّمت أنصارها السلطة، فحكموا، ودوّنوا التاريخ بالشكل الذي يرتضونه بحيث كانوا يُمثّلون قمة الوطنية والإخلاص، وقبلت الأجيال التالية هذا، رغم بقاء النفوذ الإنكليزي، وغدا من كان ضدّ الإنكليز على ما يظهر متعاوناً معهم.

٢ ـ السودان:

انتشر الإسلام في السودان بشكل هادئ، وتشكّلت على أرضه ممالك وإمارات، وفي هذه المرحلة التي نحن بصدد دراستها كانت توجد في السودان ثلاث ممالك هي:

١" ـ مملكة الفونج: (٩١٠ ـ ١٢٣٦)، وعاصمتها سنّار.

٢" ـ مملكة دارفور: (٨٥٠ ـ ١٢٩٣)، وعاصمتها الفاشر.

٣" ـ مملكة شمالي السودان: (٩١١ ـ ١٢٣٦)، في بربر.

هذا بالإضافة إلى مملكة تقلي في بلاد النوبة.

١" ـ مملكة الفونج:

بدأ الإسلام ينتشر في مملكة «علوة» التي تسيطر على أرض الجزيرة، والتي كانت عاصمتها مدينة «سوبا» واستطاع الفونج، وهم من أحفاد الأمويين ـ على زعمهم ـ أن يصلوا في أوائل القرن العاشر إلى الحبشة وأطراف السودان، وقد أغار كبيرهم، ويُدعى «عمارة دنقس» مع زميله عبد الله جماع من قبيلة القواسمة العربية على مدينة «سوبا»، وكانت مملكة

«علوة» يومذاك تعاني انشقاقاً داخلياً بين رجالها، واستطاعا من دخول المدينة، والاستيلاء عليها، واتخذ عمارة دنقس مدينة سنار الواقعة على النيل الأزرق عاصمةً لمملكته الجديدة التي شملت كل الأراضي الواقعة ما بين النيلين الأبيض والأزرق وإلى أقدام هضبة الحبشة شرقاً، كما ضمّت منطقة البجاة في شمال شرقي السودان، أما عبد الله جماع فكان وكيلاً لعمارة في حكم السودان الشمالي حتى حدود مصر، وأسس كل من هذين الرجلين أسرة بقيت تحكم المنطقة التي تحت سلطتها حتى جاءت جيوش محمد علي من الشمال عام ١٢٣٦.

وعندما دخل العثمانيون مصر عام ٩٢٣ أي بعد قيام دولة الفونج باثنتي عشرة سنة، ووصلت جيوشهم إلى ميناء سواكن، وسمع الفونج بالتقدم العثماني، فظنوا أنه سينالهم، فاجتمع عمارة دنقس ملك الفونج مع وكيله على السودان الشمالي عبد الله جماع، وأرسلا رسالةً إلى الخليفة العثماني سليم الأول هذا نصها «بسم الله الرحمٰن الرحيم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي، فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فإني أنا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله، وإن كان لغرض مادي فاعلم أن أكثر أهل مملكتي عرب بادية، وقد هاجروا إلى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم، وتجمع منهم جزية سنوية»، وقد أرسل مع الرسالة كتاباً جمع فيه أنساب قبائل العرب الذين كانوا في المملكة، ولما وصلت الرسالة والكتاب إلى الخليفة العثماني أعجب بهما، وعدل عن فتح السودان، وقد انتشرت الثقافة في عهد الفونج، وكثر المعلمون، ودخلت الطرق الصوفية، فالشاذلية دخلت من قبل على يد محمد أبو دنانة، والقادرية أدخلها تاج الدين البهاري، والختمية أدخلها محمد عثمان الميرغني، والسمانية أدخلها أحمد الطيب بن البشير العباسي، وكان ملوك الفونج بمثابة أمراء للمؤمنين في السودان إذ يتبعهم عدد من المماليك منهم ملوك أسرة عبد الله في بربر، ومنهم ملوك الجعليين في شندي، ومنهم ملوك تقلي في دنقلة و. . . .

أرسل محمد علي والي مصر عام ١٢٣٦ جيشاً إلى السودان بقيادة ابنه إسماعيل فاستولى على «دنقلة» و«بربر» و«شندي» فعزل ملوكهم، وقضى على ممالكهم، وكان آخر ملوك أسرة عبد الله جماع هو ناصر ود عجيب، ووصل إلى «سنّار» فقضى على مملكة الفونج، وأنهى حكم آخر ملوكها وهو بادي السادس، غير أن إسماعيل أصيب بمرض فرجع إلى مصر، وفي طريق عودته أحرقه ملك شندي من الجعليين، وهو أكمل نمر، فأرسل محمد علي فرقةً انتقمت من أهل شندي حيث أحرقت المدينة، وقتلت بعض سكانها، وهاجر قسم آخر منها فانضم إلى جيش أكمل نمر الذي لاذ بالفرار إلى أرض الحبشة. وأنشأ محمد علي مدينة الخرطوم لتكون عاصمة المنطقة بدلاً من سنّار، ولم تستطع جيوش محمد علي فتح مملكة دارفور في غربي السودان فبقيت بيد ملوكها المحليين.

بقيت هذه المناطق تتبع محمد علي وأسرته من بعده، وإن كان إشراف محمد علي قد ضعف بعد عام ١٢٥٦ إثر انسحابه من بلاد الشام، ووصل إلى حكم مصر عام ١٢٧٩ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي، وكان يرغب في الشهرة والدعاية لنفسه أكثر من غيره، وكانت تصبو نفسه إلى السياسة التوسعية فسار في طريقها، وكانت الدولة العثمانية آنذاك على درجةٍ من الضعف تحول دول إمكانية فرض هيبتها على المناطق البعيدة عن مركزها والتابعة لها، فتنازلت له عن سواحل البحر الأحمر الغربية وسواحل خليج عدن، ورأى هو أن يضمّ إليه الأراضي الواقعة إلى الجنوب من حدود دولته حيث المجرى الأعلى لنهر النيل، فعهد إلى ضابط إنكليزي يهودي يُدعى «صموئيل بيكر» لتنفيذ أغراضه، وأعطاه رتبة فريق في الجيش المصري، وعهد إليه بمهمة فتح الجنوب بما في ذلك أوغندا أو ما عرفت آنذاك باسم «مديرية خط الاستواء»، وكلّفه بالعمل على تنشيط التجارة المشروعة، والوقوف في وجه تجارة الرقيق التي كانت تعمل إنكلترا ضدها لا بدافع الإنسانية بل للدعاية لنفسها، ومن أجل المحافظة على سياستها الاقتصادية وخاصةً الصناعة التي كانت تخشى من منافسة البضائع الأمريكية

لها، حيث كان الرقيق ينقل إلى أمريكا ويعمل هناك فتكون المواد الأولية رخيصة والتكاليف قليلة لرخص اليد الزنجية التي تعمل بالمجان بإنتاج المواد الأولية والصناعة معاً، ونسي أن بيكر لا يمكن أن يكون فيه خير لمصلحة الإسلام، حيث أرسل إسماعيل الدعاة مع الجيش بناءً على طلب ملك بوغندة. ولما انتهت مدة عقد بيكر الذي لم يؤدِّ المهمة التي أنيطت به، وإنما أدى المهمة الملقاة على عاتقه من قبل إنكلترا، فاختار إسماعيل ضابطاً بريطانيا آخر هو «غوردن» الذي جاء إلى مديرية خط الاستواء ليخدم المصالح الإنكليزية كسابقه، وقد منع غوردن وصول السلطات المصرية إلى مياه بحيرة فيكتوريا خوفاً من وصول المسلمين إلى تلك الجهات واحتكاكها بأبناء البلاد والتأثير عليهم بل تركها ميداناً للتوسع الإنكليزي، وأرسل بعثةً إلى ملك بوغندة «موتيسا» تحول دون دخوله في الإسلام إذ كان قد عزم على ذلك، وتدعوه إلى اعتناق النصرانية، وبعد انتهاء مدة عقده كحاكم لمديرية خط الاستواء، عيّنه الخديوي إسماعيل حاكماً عاماً للسودان ـ مكافأةً له ـ بما في ذلك مديرية خط الاستواء، وأريتريا، والصومال ومنطقة هرر، فعمد غوردن إلى بثّ الفوضى، وإثارة الاضطرابات، والإساءة إلى زعماء القبائل في المنطقة كي يشعر أهل البلاد بفساد الحكم المصري، ويطلبوا الانضواء تحت ظل السيطرة الإنكليزية، وفرّق بين المصريين والسودانيين من جهةٍ، وبين شمالي السودان وجنوبيه من جهة أخرى، فكان يشيع بأن المسلمين هم الذين يتاجرون بالرقيق، وكل ذلك في سبيل إيجاد التوازن بين فرنسا وإنكلترا ـ على زعمه ـ إذ أن فرنسا قد زاد نفوذها بسبب قناة السويس، كما يريد أن تمدّه إنكلترا بالقروض ليسدد ما عليه من ديون، وإنكلترا تخطط لأخذ أسهم قناة السويس، وقد تمكنت من ذلك، وللسيطرة على مصر، واستطاعت فيما بعد.

هذا بالنسبة إلى السودان الأوسط والشرقي أما المنطقة الشمالية الغربية فقد كانت تتبع المملكة الإسلامية التي قامت منذ أوائل القرن السادس الهجري.

أما المنطقة الغربية فقد بدأ الإسلام ينتشر فيها تدريجياً، وتصل إليها

القبائل العربية الهاربة من الأندلس، وبعض القادمة من المشرق، إضافةً إلى هجرات قبائل أخرى كانت تقيم في منطقة أسوان، وقد اختلطت هذه القبائل كلها بالسكان، وتزوجت منهم، وعن طريقها بدأ ينتشر الإسلام، وأقاموا فيها عدة إمارات، ومن أهم هذه الإمارات تلك التي أسّسها أحفاد العباسيين الذين فروا نحو إفريقية بعد سقوط دولتهم في بغداد عام ٦٥٦ على يد المغول، وتروي كتب التاريخ أنه قد وصل إلى تونس شقيقان من أحفاد العباسيين عام ٨٢٤، ويسمى أكبرهما علياً والآخر أحمد، ثم تجولا في تلك الجهات، واستقر المقام بأصغرهما في جبل مرّة من أعالي دارفور الذي يخضع لحكم ملك وثني يدعى (شاو دورشيت)، وقد التقى بأحمد فأعجب بعقله وأدبه، فأكرمه، وطلب منه المساعدة في تسيير شؤون الحكم، فنجح أحمد بكل ما أوكل إليه من مهمة مما زاد حب الملك له فزوجه ابنته الوحيدة فولدت له ولداً أسماه «سليمان» وعرف باسم «سولونغ» أي العربي، فورث الملك عن جده عام ٨٥٠، فأسس أسرة استمرت في حكم دارفور حتى عام ١٢٩٣ حيث قضى الزبير باشا على آخر ملوكها وهو إبراهيم، وضمّ مملكته إليه، ثم أعلن تبعيتها للدولة العثمانية، وبقيت كذلك حتى سلمها حاكمها سلاطين باشا إلى جيوش المهديين عام ١٣٠٢، وكثيراً ما كان الخلاف يقع بين مملكة دارفور ومملكة الفونج على منطقة كردفان الواقعة بين المملكتين، وبعد هزيمة المهديين عام ١٣١٦ انتقل إلى دارفور الأمير علي دينار من أسرة سولونغ السابقة الذكر، وأعلن نفسه سلطاناً على المنطقة، وظل بها مستقلاً استقلالاً ذاتياً لقاء ضريبةٍ معلومة كان يدفعها للحكومة في الخرطوم حتى الحرب العالمية الأولى حيث اتهمه الإنكليز بالتآمر ضدهم مع جيوش ألمانيا فجهّزت له الحكومة السودانية جيشاً دخل دارفور وقتل علي دينار عام ١٣٣٤، وهو آخر ملوك الفور.

أما في الجنوب فكانت الغارات والصدامات دائمة بين السلاطين المحليين والقبائل الوثنية في الجنوب، وفي عام ١٢٧٤ اشتهر أمر أحد التجار الذي يُدعى الزبير، واصطدم مع قبائل نيام نيام، ودخل الزبير أراضي سلطان قولو في بحر الغزال فظن السلطان أن الزبير قد جاء إليه ليثأر لأخيه

منصور الذي قتله سلطان قولو فدخل في حربٍ معه، خرج الزبير إثرها منتصراً فأعلن نفسه ملكاً على بحر الغزال، واتخذ من بلدة (باية) عاصمة قولو مقراً لمملكته، وقد عرفت هذه البلدة فيما بعد باسم (دويم الزبير)، اصطدم الزبير بالتبشير النصراني الذي بدأ يغزو المنطقة، ويدعمه الإنكليز حكام السودان والذين لهم نفوذ كبير في المنطقة. دخل الزبير بلاد الرزيقات، ثم دارفور، وأعلن عن ضمّ المناطق التي تحت نفوذه كلها إلى الحكم المصري الذي يتبع الدولة العثمانية ولو اسماً، فمنحه الخديوي لقب باشا. وتضايق المستعمرون وأتباعهم من أصحاب الإرساليات التنصيرية من الزبير لإسلامه فأوغروا صدور الحكام المصريين عليه فوقع الخلاف بينه وبين إسماعيل أيوب حاكم السودان، فاستدعي الزبير إلى مصر فسيّره الخديوي إلى جبهة القتال الدائر بين العثمانيين والروس وذلك عام ١٢٩٤، وعاد بعد الحرب إلى مصر، وأقام فيها حتى قامت الثورة المهدية فاتهم عام ١٣٠٣ بالتآمر مع المهدي، فاعتقل ونفي إلى جبل طارق، ثم عاد إلى مصر بعد قضاء عامين ونصف في المنفى، ثم رجع إلى السودان ومات فيها عام ١٣٣٣، ودفن بقرية (الجبلي)، وهي مكان ولادته بمحافظة الخرطوم، على الضفة الشرقية لنهر النيل. أما دارفور فقد حكمها بعد أن غادرها الزبير ابنه سليمان الذي تعرّض أيضاً لمكائد النصارى إذ طلب منه الإنكليز الاستسلام بعد إعطائه الأمان ونُصح أبيه له من مصر بذلك، فاستسلم عام ١٢٩٧ للقائد (جس) الإيطالي الذي غدر به، وقتله رمياً بالرصاص مع سبعمائة رجل من أتباعه. وبقي من قادة الدولة الأمير رابح الذي هرب مع ألف فارس من رجاله نحو تشاد حيث أقام فيها إمارة إسلامية بقيت حتى قضى عليها المستعمرون الفرنسيون عام ١٣١٨.

فالسودان الشمالي بلد مسلم كان يتبع مصر ويحكمه غوردن الإنكليزي، وجس الإيطالي، ويحقدان على الإسلام، ويعتمدان على الإرساليات التنصيرية، ويريدان إيجاد قواعد للمستعمرين عامة من الذين يدخلون في النصرانية من أبناء البلاد الذين لا يزال بعضهم على الوثنية وخاصةً في منطقة الجنوب، ويتخذان كل الوسائل التي تنفر من الإسلام

ومن المسلمين عامة، بل ومن المصريين، وأمام هذه الأحداث قامت حركة كرد فعلٍ لذلك هي الحركة المهدية، هذا إضافةً إلى ردّ الفعل على الأوضاع التي كانت قائمة في السودان، وعلى الحالة المتردية التي وصل إليها المسلمون من ضعفٍ، وتأخرٍ، وجهلٍ، وخنوعٍ، وتحكّم الأعداء بهم، وكردّ فعلٍ على الأعمال الصليبية التي استفحل أمرها، وأيّد الشعب لذلك الحركة المهدية رغم ما لها وما عليها، وقد أعلن محمد أحمد بن عبد الله[1] عام ١٢٩٩ في جزيرة (أبا) في النيل الأبيض أنه المهدي المنتظر لبعث هذه الأمة من جديد، وإحياء مجدها، وتطبيق نظامها الإلهي، وأطلق صيحته الأولى «لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد»، فتجاوب معه الكثيرون، وهاجر هو وصاحبه عبد الله التعايشي إلى غربي السودان لجمع الأنصار وتبيان الهدف، فالتفّ حولهما الرجال، وحاولت قوات مصرية القبض عليه فتمكّن من هزيمتها، وجاءت حملة جديدة إليه ففتك بها، وعظم أمره في كردفان، واستسلمت له عاصمتها الأُبيّض، ووقع في يده ستة آلاف جندي أسرى، واستولى بعدها على دارفور بعد أن استسلم له حاكمها سلاطين باشا النمساوي الذي تولى أمرها بعد مقتل سليمان بن الزبير، ومغادرة الأمير رابح المنطقة، وقد أعلن سلاطين باشا إسلامه، ثم دخل المهدي منطقة بلاد النوبا، وأباد حملة هيكس باشا أعظم قواد الإمبراطورية الإنكليزية وذلك في موقعة (شيكان) المشهورة، وبعدها بشهر ونصف أباد حملة (بيكر) عام ١٣٠٢، وتحرك جيش المهدي نحو الخرطوم.

أشارت إنكلترا على مصر بالانسحاب من السودان إلا أن شريف باشا رئيس الوزارة قد رفض ذلك، واستقال، ورفض رياض باشا تشكيل الوزارة، فشكل الوزارة النصراني الأرمني نوبار لينفذ رغبة الإنكليز وكانت مهمة هذه الحكومة الرئيسية الانسحاب من السودان، وعهد نوبار إلى غوردن بمنصب الحاكم العام للسودان ليشرف على الانسحاب، ولكنه فشل

---

(١) ولد المهدي محمد أحمد بن عبد الله في قرية قرب دنقلة في ٢٧ رجب من عام ١٢٦٠، وكان أبوه يعمل في صناعة القوارب.

في مهمته، وقُتل، ودخل المهدي الخرطوم عام ١٣٠٣، وبموجب هذا الانسحاب أخليت المناطق التي تتبع السودان وهي الصومال، ومنطقة هرر، وأريتريا فأسرعت الدول الأوربية وتقاسمتها، وكان هذا هو الهدف من الانسحاب من السودان. وتوفي المهدي في أواخر عام ١٣٠٣، وخلفه عبد الله التعايشي، وكان أضعف من صاحبه، وقد ساءت الأوضاع الاقتصادية في السودان إذ جاءت سنوات عجاف.

وفي عام ١٣١٤ تشكّل جيش مصري بقيادة إنكليزية لإعادة الدخول إلى السودان، وقد تمكن من دخول أم درمان عاصمة المهديين عام ١٣١٦ بعد معركة «كرري»، وفرّ التعايشي، ولكنه قتل في معركة «أم دبيكرات» عام ١٣١٧.

كان الفرنسيون يتوسعون من جهة الغرب، ووصلوا إلى «فاشودا» بقيادة الجنرال «مارشان» والتقوا بالقائد الإنكليزي المتجه من الشمال، وكاد الصدام يقع بين المستعمرين لولا انسحاب الفرنسيين. وأخذ السودان حدوده الحالية تقريباً، وطبق عليه الحكم الثنائي (المصري ـ الإنكليزي).

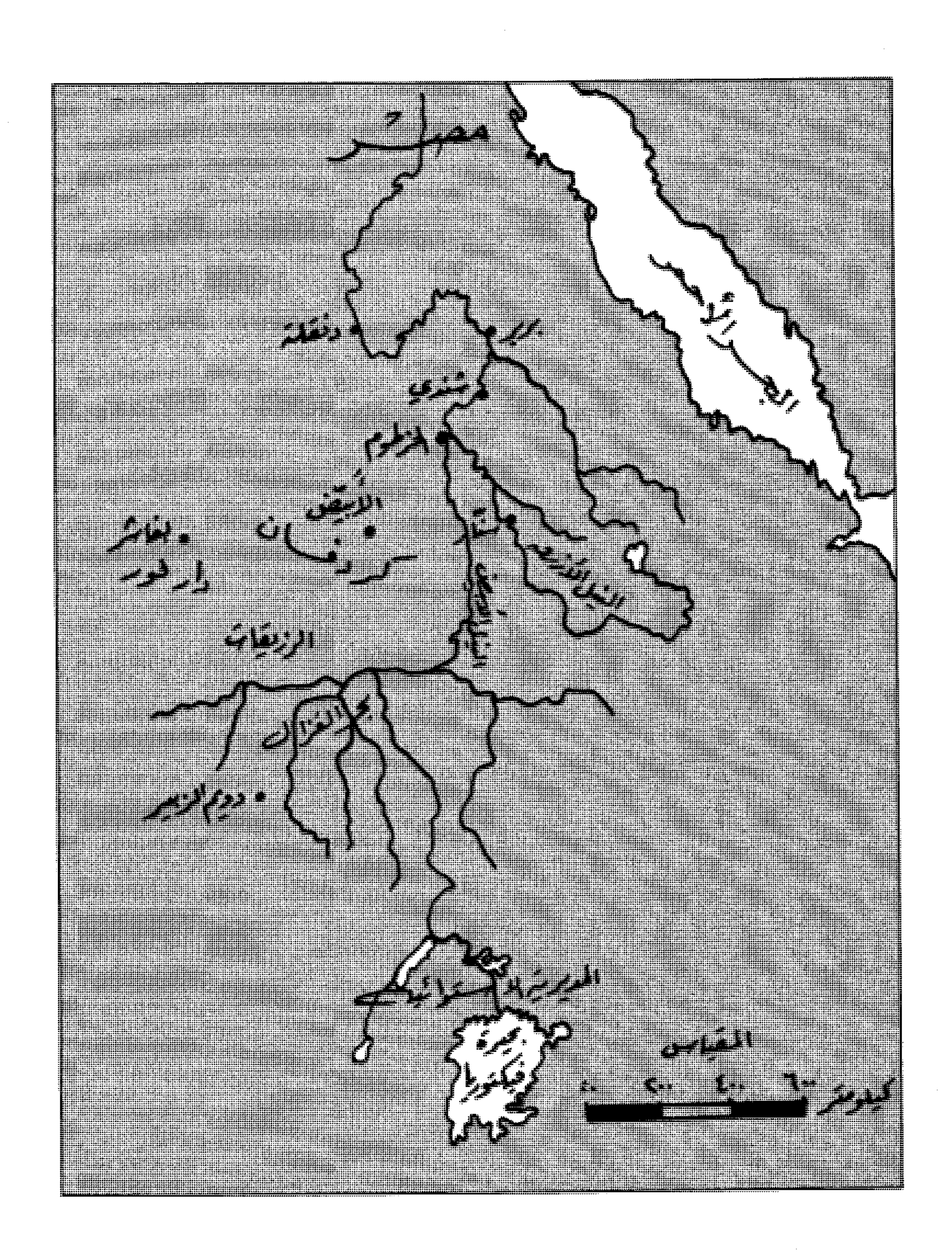
وحاول علي دينار بن زكريا من أسرة سولونغ أن يثور ضد الاحتلال، وكان قد عاد إلى دارفور بعد هزيمة المهديين، ولكنه قتل عام ١٣٣٣.

عملت إنكلترا على فصل جنوبي السودان عن شماليه، وأعطت المنصّرين حرية العمل الكاملة ودعمتهم، بل قسمت مناطق الجنوب إلى مناطق نفوذ للإرساليات التنصيرية المختلفة من كاثوليك وبروتستانت، وحاولت عزل الجنوب عن الشمال، وطردت الشماليين والفلاتة[١] والبندلة[٢]. كما عملت على محو اللغة العربية، وحاولت أن تضم جنوبي السودان إلى أوغندا وشرقي إفريقية. وعملت على إهمال المنطقة كلياً، واستمر ذلك حتى الاستقلال عام ١٣٧٦.

---

(١) الفلاتة: اسم يطلق في السودان على كل القادمين إلى السودان من غربي إفريقية، والأصل مشتق من قبيلة الفولاني.

(٢) البندلة: الجماعات الذين يعودون في أصولهم إلى آباء من الشمال وأمهات من الجنوب.


مصر
البحر الأحمر
دنقلة
بربر
شندي
الخرطوم
الأبيض
الفاشر
دارفور
سنار
النيل الأزرق
الرزيقات
بحر الغزال
ديم الزبير
بحيرة فيكتوريا
المقياس
كيلومتر
٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠٠

مصور رقم [٣٧]

الفصل الثاني

بلاد المغرب

قامت في بلاد المغرب على أنقاض دولة الموحدين عدة دول وهي دولة الحفصيين في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، ودولة بني مرين في المغرب وأعقبتها دولة بني وطاس، وأخذت هذه الدول في الضعف التدريجي بسبب الحروب والخلافات فيما بينها وفيما بين أمرائها بعضهم مع بعض، وأهم من هذا وذاك عدم التزامها بأمر عقيدتها الذي كان يجب أن يجمعها بدلاً من أن تتفرّق، ويرفع من معنوياتها بدلاً من أن تتخاذل. وهذا الضعف قد أطمع النصارى في الأندلس فبدؤوا ينزلون على سواحل المغرب سواء أكانت الشمالية أم الغربية فاحتلّوا عدداً من الموانئ، وتمركزوا في بعض المواقع، هذا بالإضافة إلى بقية النصارى الذين اتجهوا إلى سواحل شمالي المغرب مثل فرسان مالطة الذين كانوا قد سيطروا على منطقة ليبيا، ثم جاء العثمانيون فاستطاعوا أن ينقذوا ما أمكنهم إنقاذه حتى إذا ضعف أمرهم أيضاً مع مرور الزمن عاد الصليبيون فاحتلوا بلاد المغرب ثانيةً، وتقاسموا أرضه وخيراته.

١ ـ ليبيا:

بعد الضعف الذي أصاب دول المغرب احتل فرسان مالطة (فرسان القديس يوحنا الأورشليمي) منطقة برقة، كما احتل الإسبان طرابلس عام ٩١٦، وقد بقوا فيها حتى تمكن (طرغول) القائد البحري العثماني من دخولها عام ٩٥٨، وقد حاولت إسبانيا احتلالها دون جدوى.

ومع الزمن وضعف الدولة العثمانية برزت الأسرة القرمانية التي فرضت سيطرتها على منطقة ليبيا، وإن كانت تخضع للدولة العثمانية إلا أنها كانت تتصرف تصرّف المستقل منذ عام ١١٢٣. ولما رأت الدولة العثمانية ضياع الجزائر التي احتلتها فرنسا، وتمرّد محمد علي في مصر واحتلاله بلاد الشام خشيت على منطقة ليبيا فأنهت حكم الأسرة القرمانية عام ١٢٥١، وأصبح الولاة العثمانيون أصحاب الكلمة والحكم، وعملت على ربط السكان بالعثمانيين بإثارة العاطفة الإسلامية، وإعلان الرابطة الدينية، وتبيان الأطماع النصرانية في بلاد المسلمين، وما يعانيه الجزائريون وبقية المسلمين الذين وقعوا في الفخ الصليبي، وعملت أيضاً على تحسين الأوضاع الاقتصادية وتخفيف الضرائب عن السكان، ومع ذلك فلم تسلم المنطقة من محاولات تدخل الدول الأوربية بحجة حماية الأقلية النصرانية التي وجدت في البلاد أثناء سيطرة فرسان مالطة على المنطقة.

ولقلة السكان في ليبيا فقد حاولت الدولة العثمانية نقل بعض الجماعات إليها، إذ حاولت نقل بعض العائلات الكردية بناء على اقتراح الوالي أحمد راسم باشا الذي تسلم الولاية من ١٢٩٩ حتى عام ١٣١٤، وقد أُسكنت هذه العائلات في منطقة سرته، وقُدّمت لها المساعدات لتقوم بالزراعة، ولكنها لم تتعود من قبل على هذه الأعمال ففشل المشروع، كما فشلت فكرة إدخال بعض العناصر منهم في القوات العثمانية المرابطة في المنطقة.

وكذلك فكرت الدولة العثمانية بإسكان بعض العناصر المسلمة التي تعرّضت لأبشع الأعمال الوحشية بل والإبادة من قبل النصارى في جزيرة كريت، وكذلك بعد أن انسحبت الدولة العثمانية من جزيرة كريت عام ١٣١٦، واضطر بعضهم إلى اللجوء إلى برقة وإلى الإسكندرية. وربما أقام في برقة ما يقرب من ألف أسرة من جزيرة كريت، وانصهروا مع السكان بصفتهم من المسلمين.

ووجدت محاولة لإسكان اليهود في ليبيا أيضاً، وكانت الدولة العثمانية

قد تساهلت مع اليهود، وسمحت لهم بالإقامة في المناطق التي تتبعها بعد طردهم من الأندلس، فأساءوا كثيراً، وقد زادت أطماعهم، وظهر جشعهم في السيطرة على بعض المناطق، فلم يسمح لهم السلطان عبد الحميد بالتوسع في فلسطين، وتساهل في شأن ليبيا بناءً على اقتراح من واليها رجب باشا الذي تسلم ولايتها من عام ١٣٢٢ حتى ١٣٢٧، كان اليهود قد ظهر نفوذهم في منطقة ليبيا في القديم أيام حكم البطالسة في مصر، ثم خضعوا لضغط الرومان فقل وزنهم... ولما خرج المسلمون من الأندلس خرج اليهود معهم أيضاً، فانتقلوا إلى الشمال الإفريقي وبقية أرجاء الدولة العثمانية، وأقام منهم في ليبيا أكثر من ثمانمائة أسرة، وبدأ مركزهم يزيد نتيجة التجارة سواء البحرية أم البرية، وتساهل رجب باشا مع اليهود وكان يرغب بإعطاء الأراضي لهم خوفاً من التوسع الإيطالي، ولهذا حرصت إيطاليا على طلب نقله من ليبيا ليلة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني الخليفة العثماني، وقد عيّنه رجال الانقلاب من جماعة الاتحاد والترقي وزيراً للحربية لكنه توفي يوم تعيينه، وفقد اليهود نصيرهم فهو من جماعة الاتحاد والترقي وإن كان يعمل في السر، وكان لليهود دور في هذه الفئة التي أطاحت بالخليفة العثماني ثم بالخلافة، وربما كانوا المحركين الرئيسيين فيها، وكان مشروع رجب باشا إسكان اليهود في منطقة الجبل الأخضر، وقد قامت دراسات كافية في هذا الشأن، ورغم الخلاف بين ما كان يخطط له رجب باشا وبين الطليان فإن اليهود قد دعموا الاحتلال الإيطالي لليبيا، وساعدوا على ارتكاب الأعمال الوحشية الإيطالية هناك.

كانت إيطاليا تعد تونس وليبيا مناطق نفوذ لها بعد احتلال فرنسا للجزائر، فقد هاجر عدد من الطليان إلى هذه المناطق، وأنشؤوا هناك شركات تجارية، وأقرضوا الأموال للسكان، وبنوا المدارس النصرانية لجاليتهم، وفتحوا المستشفيات لهم، وحرصوا على كسب الدعاية لهم لدى السكان، إلا أن فرنسا عملت على احتلال تونس وساعدتها الظروف السياسية على ذلك فبقيت منطقة ليبيا فوجهت إيطاليا اهتمامها إليها وخاصةً

بعد أن هُزمت في الحبشة عام ١٣١٣ في معركة (عدوة) عندما أرادت أن تتوسّع في شرقي إفريقية وتعوّض عما خسرته في تونس. وحرصت إيطاليا أيضاً أن تسلك مسلكاً سياسياً فاعترفت لفرنسا بالحماية على تونس، ووقفت بجانبها في بعض المواقف الدولية وخاصةً في مؤتمر الجزيرة عام ١٣٢٤ فوافقت فرنسا لها بإطلاق يدها في ليبيا مقابل أن تطلق يدها هي في المغرب، وكذلك كانت قد اتفقت مع إنكلترا عام ١٣٠٥ على أن تطلق يدها في ليبيا مقابل الاعتراف الإيطالي باحتلال إنكلترا لمصر، وهكذا أصبحت صاحبة اليد الطولى في منطقة ليبيا إذ لا تخشى معارضةً نصرانيةً، وانتظرت لتجد الفرصة المناسبة للعدوان على ليبيا. وفتحت إيطاليا (بنك دي روما) في ليبيا، وبدأت تقدم المساعدات للمزارعين عن طريق هذا البنك، وعندما يتعذر على الفلاحين دفع ديونهم كان البنك يستولي على أراضيهم، وأرسلت البعثات التنصيرية الكاثوليكية و.... وخافت الدولة العثمانية من هذا النفوذ الذي غدا لإيطاليا في ليبيا، وعرفت ما تضمره إيطاليا، فأرسلت المزيد من القوات والأسلحة إلى ليبيا، فاحتجّت إيطاليا، وأرسلت إنذاراً إلى الدولة العثمانية تطلب فيه أن تتخلّى الدولة العثمانية عن ليبيا لإيطاليا خلال أربع وعشرين ساعة، وقد ساعد إيطاليا على إرسال ذلك الإنذار الضعف الذي حلّ بالدولة العثمانية إثر الانقلاب الذي أطاح بالخليفة العثماني عبد الحميد الثاني، ومجيء جماعة الاتحاد والترقي إلى الحكم، وقد لمست إيطاليا هذا الضعف تماماً، والمخطط الذي يسير فيه رجالات الاتحاد والترقي سواء الذين كانوا يعرفون ما يخطط لهم أم الذين لا يعرفون وإنما يسيرون كالأعمى رغم أن بعض هؤلاء العميان كانوا على درجةٍ من القوة بحيث يصبح الآخرون في شك مما يثار حول جماعة الاتحاد والترقي.

حاولت الدولة العثمانية أن توسط الدول الأوروبية النصرانية لكنها أظهرت أنها تقف على الحياد أو بالأحرى بجانب القوي، ومع انتهاء مدة الإنذار، وهي أربع وعشرون ساعة، أرسلت إيطاليا أسطولها فضرب مدينة

طرابلس، ثم احتلها، واحتل أيضاً مدينة بنغازي في برقة، كما دخلت مدينة طبرق، وأرسلت الدولة العثمانية جيشاً ليساعد السكان على المقاومة. غير أن إيطاليا قد وسّعت نطاق الحرب كي تجبر الدولة العثمانية على الاعتراف رسمياً باحتلال إيطاليا لليبيا، وتسحب جيوشها منها، فاحتلت الجُزر القريبة من سواحل الأناضول، ورودوس، وأرسلت أسطولاً ضرب بيروت عام ١٣٣٠، وهددت مضائق البوسفور والدردنيل، وحرّضت سكان البلقان على القيام بحركة ضد العثمانيين، وهذا ما أجبر الدولة العثمانية على عقد معاهدة (أوشي) مع إيطاليا قرب لوزان، تنازلت فيها عن ليبيا لإيطاليا غير أن بعض المجاهدين قد بقوا في ليبيا ومنهم بعض القادة، وتولّى السنوسيون المقاومة برئاسة أحمد شريف السنوسي، ومع أن الإيطاليين لم يتمكّنوا من السيطرة إلا على المناطق الساحلية غير أن نفوذهم بدأ يمتد مع الزمن، وسيطروا في النهاية على البلاد.

٢ ـ تونس:

بقيت الدولة الحفصية حتى بداية هذه المرحلة إلا أن الضعف قد بدأ ينتابها من كل ناحيةٍ، وتولّى أمرها آنذاك الحسن الحفصي الذي كان يميل إلى ملك النمسا شارلكان، الأمر الذي جعل السكان ينقمون عليه، ويستنجدون بالعثمانيين الذين كان نجمهم في تألّقٍ وقوتهم في ازدياد. فاستدعى الخليفة العثماني سليمان القانوني أمير البحر خير الدين باشا بربروس إلى إستانبول عام ٩٤٠ ليتفق معه على اتخاذ ما يجب عمله لصدّ هجمات أمير البحر (أندري دوريا) الجنوي، فسافر إليه مع بعض السفن، وما أن وصل إلى إستانبول حتى كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد اتجه إلى محاربة الصفويين، واستقبل الخليفة سليمان أمير بحره خير الدين وكلّفه بإنشاء السفن الكافية والاستعداد لفتح تونس، فامتثل خير الدين وعمل طيلة فصل الشتاء ببناء السفن اللازمة، وفي صيف عام ٩٤١ سافر الخليفة متجهاً إلى الشرق ناحية تبريز، وسافر خير الدين نحو الجنوب عبر مضيق الدردنيل متجهاً نحو مالطة وجنوبي إيطاليا لمنازلة أساطيل الدول النصرانية المتمركزة

هناك، وفي الواقع ليعمّي عن هدفه في تونس، ثم قصد تونس عام ٩٤٢، وأعلن للسكان أنه قادم لعزل السلطان مولاي الحسن الحفصي لصلته بالدول النصرانية وعلاقته بشارلكان، فاستقبله السكان، ورحبوا به، فاستولى بسهولة على تونس، وتسلّم قلعة حلق الواد باسم الخليفة العثماني سليمان القانوني.

استنجد السلطان مولاي الحسن الحفصي بالنصارى، فاتفق شارلكان مع البابا، وأمراء إيطاليا، ورهبنة القديس حنا الأورشليمي في مالطة، وجهّز شارلكان أسطولاً كبيراً، وانطلق بنفسه من برشلونة مع بعض الأمراء الإسبان، واستطاع أن يستولي على تونس، وأن يُعيد السلطان الحفصي إلى حكمه، فسلّمه الحفصي قلعة حلق الواد، وأصبح خاضعاً له، وعندما دخل شارلكان تونس بعد حصار دام أكثر من شهر سمح لجنده أن يتصرّفوا كما شاءوا فنهبوا، وسلبوا، وفتكوا، وارتكبوا أبشع الأعمال الوحشية والمحرمات ثم منعهم بعد ثمانية أيام من ارتكاب هذه الأعمال التي لم تسلم المساجد والكتب منها، وبعد مدة كتب معاهدةً مع الحفصي كلها خزي، إذ تنازل له فيها عن حلق الواد، وبنزرت وعنابة، وضريبة سنوية، وغرامة حربية، والسماح للنصارى بالإقامة في تونس، وهذا ما جعل السكان يكرهون سلطانهم بصورة أشد من كرههم له في السابق بل إلى حقدهم عليه، وما أن غادر شارلكان تونس حتى عادت الفوضى السياسية إلى ذلك الجزء، ولم يكن ما تركه شارلكان من جند في تونس كافيةً لدعم سلطان الحفصيين إذ ترك ألف جندي إسباني وبعض السفن في حلق الواد.

تمكن الوالي العثماني (طرغول) في طرابلس أن يحتل قفصة عام ٩٦٣، ثم القيروان ٩٦٥، وأرسلت إسبانيا عام ٩٦٨ أسطولاً للحدّ من نشاطه لكنه تحطّم، واستولى العثمانيون على مالطة عام ٩٧٣، واستطاع والي الجزائر علوش باشا دخول تونس، ثم خرج منها، وأخيراً دخل سنان باشا تونس عام ٩٨١، وبقي فيها العثمانيون بعد ذلك.

وعندما غادر سنان باشا تونس ترك فيها والياً ممثلاً للخليفة اشتهر بلقب باي (بيلرباي)، ويساعده ديوان استشاري مؤلف من عسكريين يُمثّلون

الفرق العسكرية هناك، ويلقب كل منهم بـ(الداي) إضافةً إلى موظف الشؤون المالية، غير أن الدايات قد سيطروا على الباي منذ عام ٩٩٩، وتفرّدوا بالسلطة حتى عام ١٠٥٠ مع وجود الباي، وكان الدايات ينتخبون من بينهم الداي الذي يسند إليه الحكم.

وتمكّن الباي بالاستعانة مع رؤساء القطاعات العسكرية على فرض السيطرة على الداي عام ١٠٤٧، وتمكّن إبراهيم عام ١٠٥٠ من الحصول على لقب باي من الخليفة العثماني بعد سيطرة من معه من الدايات عليه، وأسس أسرة حكمت البلاد إذ نقل الحكم إلى ابنه وهو لا يزال على قيد الحياة، وبقيت هذه الأسرة حتى عام ١١١٤ حيث انتزع الحكم منها إبراهيم الشريف بانقلاب عسكريٍ، وحصل من الديوان على لقب (داي) على حين منحه الخليفة لقب (باي) وهكذا حصل على السلطتين العسكرية والمدنية، وتوفي عام ١١١٧، وخلفه حسين بن علي التركي الذي حصل على لقب (باي) من الخليفة، وتنازل عن لقب داي، وأسس أسرةً هي التي عُرفت باسم الأسرة الحسينية التي بقيت تحكم البلاد بشكل شبه مستقل حتى عام ١٣٧٧، وبناء على قرار المجلس المحلي عام ١١٢٢ تنتقل السلطة إلى أكبر الأولاد سناً في أسرة حسين بن علي التركي. واستطاعت هذه الأسرة أن تقضي على تسلّط (الدايات) أو زعماء الإنكشاريين إذ أنهت دورهم، وسلّمت الوظائف الإدارية إلى المماليك الذين هيأتهم لهذا، ومع اختلاف أفراد العائلة بعضهم مع بعض إلا أن حكمهم قد استمر، ووقف في وجه دايات الجزائر الذين أرادوا التدخل في شؤونهم الداخلية.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر عام ١٢٤٥ احتجت الدولة العثمانية على ذلك، وأرادت أن تستعيد ولاية الجزائر بالمفاوضات السياسية غير أنها قد عجزت فلجأت إلى الطريقة العسكرية، فتخلصت من الأسرة القرمانية في ليبيا عام ١٢٥١، وأرادت أن تقضي على الأسرة الحسينية في تونس لتكون على مقربة من الجزائر غير أن فرنسا قد هددت بذلك، وكلما اتجه الأسطول العثماني من ليبيا نحو تونس تحرّك الأسطول الفرنسي من الجزائر

نحو الشرق... وكانت فرنسا تعامل بايات تونس كحكام مستقلين، وكان هذا يثير احتجاج الدولة العثمانية، والواقع أن النفوذ الفرنسي كان واسعاً في تونس منذ دخول العثمانيين إليها، إذ كانت فرنسا يومذاك على صلةٍ حسنةٍ مع العثمانيين وخاصةً في مواجهة شارلكان ملك النمسا، لذا فقد حظي القنصل الفرنسي والنصارى عامة بامتيازات واسعة.

حاول الباي في تونس النهوض بالبلاد، ولكنه اعتمد في ذلك على الديون الأجنبية، إذ كانت فرنسا تمده بالقروض، وهي تعلم أنه سيعجز عن سدها، وهذا ما يفسح لها المجال للتدخل في شؤونه، وبالفعل فلم يستطع السداد فأرسلت لجنةً ماليةً لمراقبة المالية التونسية. وبعد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦ اعترفت فرنسا لإنكلترا بقبرص مقابل الاعتراف لها بتونس، كما أن بسمارك الوزير الألماني قد شجع فرنسا على العمل بتونس لتتوجه قواتها خارج القارة الأوروبية، ولا تتمكّن من الثأر مما لحقها من هزيمةٍ أمام ألمانيا، وتخليها لها عن الألزاس واللورين.

جرت اعتداءات على الحدود أو ادعت فرنسا أن قبيلة تونسية قد اعتدت على بعض المواقع الفرنسية عام ١٢٩٨ فجهزت حملةً اجتازت الحدود، واتجهت إلى تونس فحاصرتها، ثم استولت عليها، وأجبرت الباي محمد الصادق على توقيع معاهدة باردو عام ١٢٩٨ يعترف فيها لفرنسا باحتلال المواقع المهمة على الحدود والسواحل، وإقامة مستشار فرنسي للباي في تونس، وعدم عقد أية معاهدة دون موافقة فرنسا، غير أن المقاومة قد بدأت، وقامت ثورة في القيروان عام ١٣٠٠ قمعتها فرنسا بالوحشية، وأجبرت الباي على توقيع معاهدة جديدة في باردو أيضاً يعترف فيها بالحماية الفرنسية على تونس، وأبقت فرنسا الباي لتتصرف باسمه كما تشاء فتخفف النقمة ما دام الباي مسلماً، وفي الواقع لم يكن سوى صورة.

تشكل حزب تونس الفتاة عام ١٣٢٦ الذي أخذ يدعو إلى الاستقلال، فقاومته فرنسا فاضطهدت أعضاءه ونفت رئيسه إلى خارج البلاد، ثم أقدمت على حل الحزب نهائياً، ثم تشكل الحزب الحر الدستوري، وذهب وفد

عام ١٣٣٧ إلى باريس برئاسة عبد العزيز الثعالبي للمطالبة بحق تقرير المصير، ولكنه خُذل كغيره، واستمر الحكم الفرنسي يضطهد السكان، والمقاومة تشتعل في النفوس ولم تستطع الظهور وفعل شيء، وإن تجرأت وقامت نكّل بها الفرنسيون أشد تنكيل.

٣ ـ الجزائر:

كانت تعرف بالمغرب الأوسط، وقد حكم هذا الجزء بعد تفكك دولة الموحدين بنو عبد الواد أو بنو زيان، وكان مقرهم في مدينة تلمسان، وقد ضعف أمرهم بعد عام ٧٩٦، فكان يسيطر على منطقتهم بنو حفص في تونس، أو بنو مرين في المغرب الأقصى أو يقوى أمر بني زيان فيحكمون مستقلين لمدة من الزمن، واستمر هذا الأمر حتى عام ٩٤٠، وكان الإسبان في الأندلس قد قوي أمرهم فبدؤوا بالاستيلاء على موانئ البحر المتوسط الإفريقية، وزاد أملهم بحكم شمالي إفريقية وأخذها من يد المسلمين بعد الاستيلاء على غرناطة، وطرد المسلمين من الأندلس نهائياً عام ٨٩٨، وكانوا قد احتلوا موانئ وهران، والجزائر، والمرسى الكبير، وبجاية، وقامت سفن قراصنتهم تلاحق المسلمين الأندلسيين الذين فرّوا إلى شمالي إفريقية، وقد وجد عند مسلمي شمالي إفريقية ومن جاءهم من الأندلس محاولة ردّ الفعل ضد الحقد الصليبي، وبدؤوا يغيرون على سواحل الأندلس فنشأت في ذلك البحر حروب بين المسلمين والنصارى أطلق النصارى على عمليات المسلمين منها اسم القرصنة، وجاء العثمانيون بحراً إلى المنطقة، ورحب المسلمون في شمالي إفريقية بهذا المجيء ترحيباً كبيراً ما دام القتال مستعراً بين المسلمين والنصارى، والعثمانيون مسلمون، وعلى صراع مع نصارى أوروبا عامةً.

وبدأ المغامرون يمتلكون سفناً خاصةً يغيرون بها على خصومهم، ومن هؤلاء الأخوان عروج وخير الدين اللذين كانا من النصارى، ثم اعتنقا الإسلام، وعملا ضد الإسبان خاصةً، وضد النصارى عامةً. وتقرّب عروج

من السلطان الحفصي فدعمه وقدم له موانئه يتخذها قواعد له، وتمكّن عروج أن ينتصر على الإسبان في عددٍ من المعارك البحرية، ودعمه الأهالي، وشجعوه وخاصةً الذين يقيمون في الداخل، واستطاع أن يسترجع ميناء بجاية من الإسبان، وهذا ما رفع من شأنه فنقل مقره من تونس إلى ميناءٍ صغيرٍ يقع إلى الشرق من مدينة الجزائر، وطلب منه حاكم مدينة الجزائر (سالم السالمي) أن يساعده ضد الغزو النصراني الإسباني، فاستجاب لطلبه وصدّ هجوماً نصرانياً على الجزائر عام ٩٢٢، ثم رأى أن تفرّق الأمراء في المغرب الأوسط، وصغر إماراتهم، وخلاف بعضهم مع بعض، الأمر الذي يجعل بعضهم يستنجد بالنصارى ضد بعضهم الآخر لذا قرّر أن يتخلّص من هؤلاء الأمراء المحليين، ويُشكل حكماً واسعاً يمكنه الوقوف أمام النصارى وحقدهم الصليبي الشرس، فبدأ بحاكم مدينة الجزائر فأنهى حكمه وتسلّم مكانه، وأصبحت مدينة الجزائر قاعدته البحرية، ومركز حكمه، وذلك عام ٩٢٣، ثم اتجه نحو الداخل ليستولي على الإمارات القائمة هناك، وكان أكبرها إمارة بني زيان في تلمسان، وأميرها (أبو حمو)، ورعيته يكرهونه لأنه يمدّ يده إلى النصارى الإسبان، وقد أصبحت جماعة من رعيته يجاهرونه العداء فاتصلوا بعروج فسار إليهم ودخل مدينة تلمسان، غير أن (أبو حمو) قد اتصل بالإسبان بعد أن فرَّ إليهم فجاءوا بقوة إلى تلمسان وتمكّنوا من دخولها بعد حصار، وفتكوا بالحامية التي فيها، واستطاع عروج أن يفرّ غير أن الإسبان قد لاحقوه وقتلوه.

وكان عروج وأخوه خير الدين قد قدّموا للخليفة العثماني سليم الأول سفينة من التي غنموها إشارة إلى خضوعهم له فقبلها، وعدّهم ولاةً له على المغرب الأوسط ومدّهم بقوةٍ صغيرةٍ من القوات العثمانية، وبعد قتل عروج كان خير الدين في الجزائر فطلب عام ٩٢٤ دعماً من الخليفة فأمده بألفين من الجند، وأصدر أمراً بالسماح للمسلمين بالتطوّع في قوات خير الدين، وشجعهم على ذلك، فانخرطت أعداد معه لقتال الصليبيين، وعدوا ذلك جهاداً، وإن كانت أعداد أخرى من السودانيين قد تطوّعت معه أملاً

بالغنائم، ووقفت في وجه خير الدين الإمارات، وأصحاب النفوذ، ومنهم بنو زيان الذين عاد نفوذهم، والحفصيون الذين استعانوا بالنصارى، والإمارات الصغيرة، وزعماء البربر، وكان عليه أن يحاربهم جميعاً، وكاد أن يقع أسيراً بأيدي الحفصيين، كما كان عليه أن يحارب الدول الصليبية التي خافته، وقد أرهب أساطيلها، كما عليه أن يسترجع الموانئ التي بقيت بأيدي الإسبان وخاصةً وهران التي ظلّت بأيدي الإسبان حتى القرن الثاني عشر الهجري، وفي عام ٩٣٦ أصبحت منطقة المغرب الأوسط نيابةً عثمانيةً بعد أن استطاع خير الدين أن يفتح حصناً للإسبان مقابل مدينة الجزائر، وأصبح اسم الجزائر منذ تلك المرحلة يطلق على المغرب الأوسط، وأصبح خير الدين يعمل لضم تونس إلى الجزائر غير أن الإسبان قد احتلوا تونس بالتعاون مع الحسن الحفصي، وكان الصليبيون يخشون توحيد بلاد المغرب لذا فقد بذلوا جهودهم مجتمعة للحيلولة دون ذلك، وعيّن الخليفة العثماني خير الدين قائداً عاماً للأسطول العثماني مكافأةً لما قام به من جهود في الوقوف ضد الصليبيين وخدمة الدولة العثمانية.

كانت جهود خير الدين مقتصرة على الأجزاء الشمالية من الجزائر إلا أن الذين خلفوه قد توسعوا نحو الجنوب، ووضعوا حاميات عثمانية في المدن الداخلية حتى مدينة بسكرة التي كانت تقيم بها حامية عثمانية، كان حاكم الجزائر يُعرف باسم (بيلر بك) أي رئيس البكوات فهي ليست بمنزلة الولايات الرئيسية لأن هذه يحكمها والٍ برتبة باشا، ولكن عندما انفصلت تونس عام ٩٩٩، وأصبح يحكمها داي مرتبط مباشرةً باستانبول، استبدلت الدولة العثمانية حكمها في الجزائر، وأصبح يحكمها باشا لمدة ثلاث سنوات، واستمر ذلك حتى عام ١٠٧٠، إذ أصبح الوالي ضعيفاً أمام رؤساء الجند (الدايات) حتى تمكّن مجلس الدايات أن يُعيّن أحد أعضائه حاكماً على الولاية، إلا أن هؤلاء الدايات قد تنازعوا على السلطة فلم يستمروا كثيراً إذ غلب عليهم رؤساء البحرية، وهم من غير الانكشارية، وإن حملوا لقب (دايات) أيضاً، وإن كان هو اللقب الرئيسي لزعماء البحرية، ومع

سيطرة الدايات إلا أن الخليفة العثماني استمر في إرسال الولاة (الباشوات) كل ثلاث سنوات، ولكن طرده الداي عام ١١٢٢، وهكذا لم يبق ولاة عثمانيون، وإنما الداي أصبح هو المتصرف الوحيد بالولاية، واستمر ذلك حتى جاء الفرنسيون عام ١٢٤٦، وإن كان الدايات قد حملوا لقب باشا رفعاً لمنزلتهم.

كانت ولاية الجزائر قويةً وخاصة من الناحية البحرية إذ كان أسطولها يفوق أي أسطول في البحر المتوسط، لذا فقد أجبرت الدول النصرانية على دفع جزية للجزائر، وكانت تتسابق للصداقة معها. ثم ثارت الصليبية لهذا الوضع، وعملت على التحالف ضد الجزائر، فتحالفت إنكلترا وهولندا، وعملتا على مهاجمة الأسطول الجزائري عام ١٢٣٠، ثم هاجم الأسطول الإنكليزي وحده الجزائر عام ١٢٤٠، ثم اتفق الأسطولان الإنكليزي والفرنسي، وغدرا بالأسطول الجزائري عام ١٢٤٢، وغدت الجزائر دون أسطول يحمي سواحلها، وهذا ما أطمع الدول النصرانية وخاصةً فرنسا التي فقدت مستعمراتها أثناء حروب نابليون والمنافسة الاستعمارية، فأرادت أن تعوّض عن بعضها باحتلال الجزائر، وتوجيه الشعب نحو الخارج بسبب إخفاق الحكومة في سياستها الداخلية، هذا التوجه الفرنسي نحو الجزائر وجد تشجيعاً من قبل دول أوروبا النصرانية.

كانت فرنسا أثناء أزمتها أيام الثورة الفرنسية وبعدها قد اشترت القمح من الجزائر بديون مؤجلة، ولكن مرت الأيام، ولم تف فرنسا ديونها، ولم تستمع إلى المطالبة، وفي عام ١٢٤٢ جاء القنصل الفرنسي لقصر الداي للتهنئة بمناسبة عيد الفطر، فسأله الداي عن عدم ردّ ملك فرنسا على رسالة الداي فأجابه بأنه ملك، ويجب مخاطبته عن طريق الخليفة، فغضب الداي، وطلب منه الخروج من القصر، فكتب القنصل إلى فرنسا بأنه أُهين في حضرة الداي، فاتخذت فرنسا هذه الحادثة ذريعةً واتجهت بقواتها نحو الجزائر، وحاصرت السواحل، ولم تجد الوسائل السياسية في حل هذه الأزمة لأن فرنسا مصممة على احتلال الجزائر، وأكملت الإعداد اللازم عام

١٢٤٦، فأرسلت ١٠٢ سفينة بحرية، و٤٠٠ سفينة نقل تحمل ٤٠ ألف جندي، ونزلت هذه القوة على البر، واحتلت (سيدي فرج)، وهُزمت القوات الجزائرية رغم المقاومة العنيفة التي أبدتها، واضطر الداي إلى الاستسلام وترك مدينة الجزائر متجهاً إلى الإسكندرية. وبعدئذٍ اتجه الفرنسيون إلى بقية الولايات، فدخلوا وهران بعد أن انتصروا على واليها العثماني حسن بك عام ١٢٤٩، وقسنطينة عام ١٢٥٣ بعد مقاومة واليها أحمد بك حتى هذه المدة كلها، وانتهى الفرنسيون من احتلال الجزائر كافةً عام ١٢٥٥، أي لم يتمكن الفرنسيون من القضاء على المقاومة حتى بعد مرور تسع سنوات كاملات.

حاولت فرنسا إسكان الكثير من الفرنسيين في الجزائر لدعمهم لها، وليكونوا عيوناً لها، وأعطتهم أفضل الأراضي وأكثرها خصوبةً ليشعروا بأهمية ما قُدّم لهم فيكونوا مخلصين لحكومتهم، ولإفقار الجزائريين فيصيبهم الذلّ فيخضعون، ولنشر المفاسد، وقد حاولوا إفساد المرأة المسلمة وخلعها من مجتمعها الإسلامي.

وقفت القبائل في الجزائر بوجه الاستعمار الصليبي الفرنسي، وقادها الشيخ محيي الدين الحسني أحد رجال الأشراف واستمرت قيادته مدة عامين (١٢٤٦ ـ ١٢٤٨)، ثم تنازل لابنه عبد القادر الذي أعلن الجهاد، إذ بيّن أن هذه الحرب دينية، فدعمه السكان لذا لم تتمكّن فرنسا من الولوج إلى الداخل، وإنما انحصر استعمارها في الساحل.

لجأت فرنسا إلى سياسة المفاوضات فعقدت معاهدة مع الأمير عبد القادر عام ١٢٥٠ أعلنت فيها عن انسحابها من ولاية وهران باستثناء المدينة نفسها، لكنها عادت فنقضت العهد عام ١٢٥١ لخلاف جرى في معسكر عبد القادر لكنها هُزمت، وجددت المعاهدة عام ١٢٥٣، ثم استأنفت القتال بعد وصول النجدات لها، وإحراق الأرض لإرهاب السكان فاضطر عبد القادر إلى الهرب إلى المغرب، فحارب الفرنسيون سلطان المغرب، وهزموه، وأجبروه على طرد الأمير عبد القادر من البلاد، فاضطر

إلى ذلك عام ١٢٦٠، رجع الأمير عبد القادر إلى الجزائر، وانقض على الفرنسيين عام ١٢٦٢، ولكنه اضطر إلى الاستسلام عام ١٢٦٣، فحُمل إلى فرنسا فبقي فيها حتى عام ١٢٧٠، حيث نفي إلى بلاد الشام، وبقي فيها حتى توفي عام ١٣٠١، وتتضارب الأقوال حول وجوده بالشام، هل كان نفياً أم كانت له مهمة يؤديها للفرنسيين بعد أن أثروا عليه وغيّروا فكره في باريس؟ وقد حمى النصارى في الشام عام ١٢٧٦.

أعلنت فرنسا أن الجزائر جزءاً منها، ولكن رفض هذا الجزائريون وبقوا في مقاومتهم، إذ كانت القبائل هي التي تتولّى القتال، ولكن - مع الأسف - بصورة متفرقة فلم يكن هناك تخطيط، ولا محرك، ثار بنو سناسن عام ١٢٧٦، وأولاد سيدي الشيخ جنوب وهران عام ١٢٨١، ومحمد المقراني عام ١٢٨٨، وأولاد أبي عمامة عام ١٢٩٩، وبنو زيد عام ١٣٣٤ وقادهم الحاج سعيد بن عبد اللطيف، وكانت كل هذه الحركات إسلاميةً، وبعد الحرب العالمية الأولى شكّل خالد بن الهاشمي بن عبد القادر الجزائري وفداً إلى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة بالاستقلال ولكنه خذل كغيره، واضطر لمغادرة البلاد إلى دمشق، وبقي حتى توفي فيها عام ١٣٥٤.

واستمر العمل ضد الفرنسيين إلى نهاية المرحلة ويأخذ أحياناً جانباً سياسياً للمطالبة بتعليم اللغة العربية، والاهتمام بشؤون المسلمين، واستقلال البلاد، وإزالة أعمال العدوان، ومنع الظلم غير أن الاضطهاد كان غالباً ما ينال أولئك الذين ينادون بمثل هذه الأفكار أو يدعون لها.

٤ - المغرب:

بعد تجزؤ دولة الموحدين حكم بنو مرين في المغرب الأقصى، وإن كان نفوذهم يمتدّ أحياناً كثيرةً إلى المشرق، ثم خلفهم عام ٨٢٣ بنو وطاس، واستمرّ أمرهم حتى عام ٩١٦، وفي أيامهم احتلّ البرتغاليون شواطئ المغرب، فتضايق المسلمون من هذا التوسّع الصليبي، وخاصةً أن

النصارى من إسبان وبرتغال قد طردوا المسلمين من الأندلس، ونكّلوا بهم أشدّ تنكيل، وانطلقت جموع من المسلمين شاردةً هائمةً على وجهها نحو المغرب، فتأثّر المسلمون لما حلّ بإخوانهم، وخافوا على أنفسهم أن يُصيبهم ما أصاب الناس في الأندلس، فسقطت أسهم بني وطاس، وبدأ التفكير الدائم فيمن يقود الناس للوقوف أمام هذا المدّ الصليبي الزاحف، واتجهت الأنظار نحو شيخ السعديين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله الذي كان يُقيم في وادي درعة جنوب بلاد السوس قريباً من حدود المغرب اليوم مع الصحراء المغربية، وقد كان يُفكر في إنقاذ المغرب، ويحلم بذلك، ويُعلن عن حلمه للملأ، ويدّعي أنه يعود في نسبه إلى محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي ثار على العباسيين في المدينة عام ١٤٥، وهُزم، فتفرّقت أسرته ووصل بعضها إلى المغرب، ومنها الأدارسة الذين أسّسوا دولتهم هناك عام ١٧٢[١]، ومع عرضه لنفسه وتفتيش الناس عن مُنقذٍ، اتجهوا إليه وبايعوه عام ٩١٦، فأعلن الجهاد ودعا الناس إلى القتال فالتفّوا حوله، فأنهى حكم بني وطاس، وقاتل البرتغاليين، وانتصر عليهم، وأجلاهم عن المراكز التي بقوا في بعضها اثنتين وسبعين سنة، وساعده ولداه أحمد المعروف بالأعرج، ومحمد المهدي المعروف بالشيخ، وبعد وفاة أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله خلفه ابنه أحمد الأعرج.

كان العثمانيون يدعمون السعديين، ويحثّونهم على قتال الصليبيين، ويُقدّمون لهم المساعدات، ويُشجّعونهم على العمل معاً لاستعادة الأندلس، وبتلك المساعدات تمكّن السعديون من دخول فاس عام ٩٥٥، غير أن النصارى عندما علموا بذلك التفكير لدى المسلمين عملوا على الإيقاع بين الطرفين، فنقلوا معلومات عن طريقٍ يظهر أنه لا علاقة لهم به يتحدثون رجماً عن نية العثمانيين في احتلال المغرب، فوقعت الشكوك عند سلطان

---

(١) هناك من ينسب السعديين إلى قوم حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ، ومنهم من يجعل نسبهم يتصل بسعد بن عبادة سيد الأنصار، رضي الله عنه - والله أعلم -.

السعديين أحمد، وكان حسن بن خير الدين بربروس قد احتلّ تلمسان عام ٩٥٢، وبدأ يتوسع نحو الجنوب، فأصبح الشك عند السلطان يقيناً، فقرّر انتزاع تلمسان من العثمانيين، وشجّعه النصارى على ذلك، ودعموه بكل إمكاناتهم، فسار إلى (وجدة) واحتلّها، ثم انطلق نحو تلمسان، وأخذها من أيدي العثمانيين عام ٩٥٥ بعد أربعة أشهر فقط من دخولهم فاس بمساعدة العثمانيين، وهذا ما أوغر صدر العثمانيين، إذ رأوا أن السعديين حلفاؤهم، أصبحوا حلفاء للصليبيين الذين فعلوا بالأندلس ما فعلوه، لذا يجب مراجعة الحساب، فبدأ الخليفة العثماني سليمان القانوني يستعدّ للعمل في المغرب من جديد على نهجٍ آخر.

١ ـ عزل والي الجزائر حسن بن خير الدين باشا، وولى مكانه صالح باشا.

٢ ـ بدأت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والمغرب جزء صغير أمام الدولة العثمانية الواسعة الأرجاء.

٣ ـ عمل على الاتصال بأمراء بني وطاس الذين زال ملكهم ولا بدّ من أن تكون لهم أطماع في استعادة ذلك الملك.

٤ ـ عزّز القوات العثمانية بالجزائر بقواتٍ بريةٍ وأسطولٍ قوي.

وبعد خمس سنوات من الاستعداد تقدّم العثمانيون من الشرق، وأعلنوا ضمّ المغرب الأقصى إلى الدولة العثمانية، ووصلوا إلى فاس، وخُطب للخليفة العثماني على المنابر مرةً واحدة وذلك عام ٩٦١، وكان قد اغتيل السلطان السعدي أحمد وقام مكانه أخوه محمد باسم المتوكل على الله، فوطّد علاقته مع الإسبان والبرتغاليين، ووقّع معاهدةً مع البرتغال تنصّ على إرسال جيشٍ مغربي ـ برتغالي لإخراج العثمانيين من الجزائر، وتعمل البرتغال على تسليح الجيش المغربي، واتهم الصليبيون العثمانيين بأنهم كانوا وراء اغتيال السلطان السعدي، وأسرع العثمانيون فأرسلوا وفداً للمفاوضة غير أن السلطان السعدي الجديد لم يحسن اللقاء للوفد، بل

وهدّد العثمانيين بإخراجهم من إفريقية كلها، وكان العثمانيون قد خرجوا من المغرب أمام مقاومة السكان الذين شُحنوا بكراهية العثمانيين نتيجة الدعاية الصليبية التي بدأت تصل إلى المغرب بصفة البرتغاليين والإسبان على صلة بالحكم السعدي ونتيجة الأراجيف التي بثّها أولئك النصارى.

بدأ العثمانيون يستعدّون لجولةٍ ثانيةٍ حيث خافوا أن تقع المغرب بأيدي الصليبيين بعد أن كانوا يُفكّرون في استعادة الأندلس، فاتصلوا بأمراء بني وطاس، والفرقة التركية التي تعمل في جيش السعديين، ووزّعوا السلاح، وقد التجأ إليهم ولدا السلطان السعدي السابق إذ عدّا عمهما قد اغتصب الملك منهما، وهما عبد الملك، وأحمد المنصور الذهبي، واستمرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية كي تخفّف من أراجيف النصارى وشائعاتهم.

أثار العثمانيون الفرقة التركية فأعلنت التمرّد، ونزلوا في جزيرة باديس على شواطئ المغرب الشمالية، وتوغّلوا في داخل المغرب حتى أصبحوا على مقربةٍ من مشارف مدينة فاس، فاتجه السلطان السعدي إلى النصارى، وسلّم الفرنسيين مدينة القصر الصغير الواقعة بين سبتة وطنجة عام ٩٦٦، وأعلن عن تقديم جزيرة باديس التي نزل فيها العثمانيون للفرنسيين ليقع الصدام بين الطرفين، وتعرّض السلطان المغربي للاغتيال، وعاد العثمانيون للانسحاب.

وعندما هُزم العثمانيون عام ٩٧٨، وتحطّم أسطولهم تماماً أمام أسطول إسبانيا والبندقية لم يعودوا يُفكّرون في دخول المغرب، وإن عدّوها منطقة مواجهةٍ مع الدول النصرانية، وإن تحسب عليهم مرة واحدة لم يكن لهم دخل بها، وهي عندما فكّر الأتراك في المغرب مع المسلمين الفارين من الأندلس قلب الحكم وتأسيس دولةٍ برئاسة الأمير السعدي داود بن عبد المؤمن غير أن السلطان المنصور السعدي قد سحق ذلك التنظيم في وادي درعه.

وعندما التجأ الأميران السعديان عبد الملك (المعتصم) وأحمد

(المنصور) إلى الخليفة العثماني يطلبان مساعدتهما في استعادة الملك من عمهما المتعاون مع الصليبيين أمدّهما بجيشٍ قوامه خمسة آلاف جندي، وتمكّنت هذه القوة من دخول فاس عام ٩٨٢، وتنصيب عبد الملك (المعتصم) سلطاناً على المغرب، وقد انسحبت هذه القوة منذ استقرّ الأمر للسلطان عبد الملك.

وعندما انقطع التفكير العثماني في ضمّ المغرب، واتجه إلى مساعدتها ضد الصليبيين، وتخليصها من نفوذهم، عاد التفكير النصراني إلى أخذ المغرب وطرد المسلمين منها، وتوطيد أمر النصارى فيها، وقد بدؤوا بالعمل لذلك.

التجأ الملك السعدي المعزول إلى ملك البرتغال لإعادته إلى السلطة، وبدأت الجيوش النصرانية تفد لدعم هذا اللاجئ ظاهراً، ولتحقيق نواياها في المغرب فجاءت جيوش من إسبانيا، وفرنسا، وألمانيا، وجاءت فرسان البابا، وانضمّت كلها إلى جيش البرتغال، وقادها ملك البرتغال، ومعه اللاجئ الملك السعدي السابق محمد المتوكل، وبلغ عدد ذلك الجيش مائةً وخمسةً وعشرين ألف جندي، وبالمقابل فقد أمدّت الدولة العثمانية المغرب بقوةٍ تضمّ ستة آلافٍ من الرماة، وثمانمائة فارس، ومعهم اثنا عشر مدفعاً إضافة إلى ألفٍ من المشاة، والتقت القوتان في وادي المخازن شمال العرائش عام ٩٨٦، وانتهت هذه المعركة بهزيمة الصليبيين، ومقتل ملك البرتغال، ومحمد المتوكل السعدي الذي معه، وكذلك استشهد السلطان السعدي عبد الملك حتى سُمّيت هذه المعركة بمعركة الملوك الثلاثة، وبعد هذه المعركة ارتفع شأن المغرب، واعتمد العثمانيون على إمكانية وقوفها في وجه الصليبيين، فصرفوا النظر عن ضمّها إلى دولتهم، وفي الوقت نفسه ضعف شأن البرتغال، وضمّت إسبانيا أرضها إليها بعد سنتين عام ٩٨٨، واستمرت في ضمّها مدة ستين سنة، وقام أحمد المنصور بأمور الملك بعد استشهاد أخيه عبد الملك في تلك المعركة، ووجد حماسةً كبيرةً في جيشه لملاحقة البرتغاليين، واجتياز المضيق واستعادة الأندلس، وهدّأ جنده

بأسلوبٍ حكيم، ولاحق في الوقت نفسه زعماء الأندلس إذ كان هدفهم إقامة دولةٍ أندلسيةٍ ـ عثمانيةٍ.

تقدّمت إسبانيا بمعاهدةٍ مستفيدةً من نقمة المعارضة على السلطان، ووقوفه في وجههم ثم ثورتهم وسحقها إذ لا زالت تراودهم فكرة الانضمام إلى العثمانيين، وتشمل هذه المعاهدة التحالف ضد العثمانيين، وتنازل المغرب عن ميناء العرائش ليكون قاعدةً للأسطول الإسباني، فداء أسرى وادي المخازن، ربط التجارة المغربية والإسبانية، والوقوف في وجه التجار الإنكليز من الوصول إلى موانئ المغرب، وقد وقعت تلك المعاهدة عام ٩٨٩، ولكن لم ينتج عنها شيء.

عمل المنصور على دعم الأمير البرتغالي المطالب بالعرش، ونقله إلى بلاده من إنكلترا التي كان فيها، وكثرت اتصالاته مع إنكلترا، وحشد جنوده في الشمال، فخافت إسبانيا التي كانت على خلافٍ مع إنكلترا، فتنازلت عن ميناء أصيلا الذي كانت تستعمره في أرض المغرب مقابل الحياد بينها وبين إنكلترا، والكفّ عن دعم الأمير البرتغالي، ولكن إسبانيا لم تلبث أن هُزمت أمام إنكلترا وتحطّم أسطولها في معركة الأرمادا عام ٩٩٧، وهذا ما أعطى الفرصة للمنصور لأن يُتابع سياسته في السودان.

أعلن المنصور أنه خليفة المسلمين عامةً، وأنه الجدير بذلك بل المستحق لأنه من قريش، وينتمي إلى رسول الله ﷺ، وفي هذا حرب للعثمانيين ما مثلها من حرب، وقد بايعته مملكة كانم[١] ـ بورنو[٢] عام ٩٩٠، وقام بإرسال حملةٍ إلى مملكة صنغاي عام ٩٩٢، لنشر الإسلام في بلاد السودان، ولأخذ البيعة من ملوك صنغاي، وتوسعة ملكه، وللحصول على الملح والذهب، ولأخذ العبيد للخدمة في جيشه، ولمنازلة المراكز البرتغالية على شواطئ المحيط الأطلسي، إذ كان دائم الحديث وخاصةً في

---

(١) كانم: شمال شرقي بحيرة تشاد في دولة تشاد اليوم.

(٢) بورنو: جنوب غربي بحيرة تشاد في دولة نيجيريا اليوم.

مراسلاته عن الجهاد، وقتال الصليبيين، وحتى استعادة الأندلس، وقد كان وجود النصارى الإسبان والبرتغال على سواحل المغرب وشطآن المحيط الأطلسي، ووجود الفارين من الأندلس في بلاد المغرب كل ذلك يُخيف المسلمين، ويدفعهم إلى الجهاد والدعوة، والسلطان يتبنّى هذا تحقيقاً لرغبة الشعب، وربما كان ذلك في نيته أيضاً.

كانت وجهة المنصور نحو بلاد السودان، ولم تكن هذه الوجهة حديثةً، فقد اتجه بنو وطاس نحو بلاد السودان، وأرسلوا سفيراً للتحالف مع مملكة مالي ضد البرتغاليين الذين كثرت مراكزهم على سواحل المحيط الأطلسي.

لقد تمكّن المنصور عام ٩٩٠ من ضمّ شمال بلاد النيجر اليوم، وذلك إثر حملةٍ قامت عام ٩٨٩، إلا أن الحملة الثانية عام ٩٩١ قد ابتلعتها رمال الصحراء عام ٩٩٢.

وفي الوقت نفسه كان يحرص على مواجهة البرتغاليين، وطردهم من المراكز الساحلية التي تمكّنوا فيها، فقام بحملةٍ وصلت إلى نهر غامبيا عام ٩٩٠، وبايعه أمراء من الفولاني وغيرهم في بلاد السنغال، غير أن حملته التي أعقبتها عام ٩٩٣ قد فشلت، وحاول مهاجمة جزر كناريا التي كانت مركز المستعمرين للانطلاق نحو السواحل الجنوبية، واستمرت محاولات هجومه هذه طيلة أيام حكمه، وعندما ضعف البرتغاليون وعمل على الهجوم على مستعمرتهم (أرغين) مقابل الرأس الأخضر وجد أن الإسبان قد حلّوا محل البرتغاليين عام ٩٩٧ إذ احتلّوا بلادهم يومذاك، وحموا مستعمراتهم، وحاول الاتفاق مع الإنكليز لمساعدة أسطولهم باحتلال تلك المستعمرة البرتغالية سابقاً والإسبانية حالياً، ولكن لم يُوفّق.

وساعده في التوجه إلى أواسط بلاد السودان مبايعة دولة كانم - بورنو له، واختلاف أبناء ملك صنغاي أسكيا داود الذي توفي عام ٩٩٠، وقد بدأت الصدامات في عهد ابنه الأسكيا الحاج محمد الثاني، ولقد فرّ بعض إخوته إلى السلطان السعدي المنصور، ورغم المخالفة التي لقيها المنصور

في دولته من الهجوم على بلاد المسلمين إلا أنه استطاع إقناع المعارضين أو إسكاتهم، وأرسل حملةً واسعةً في مطلع عام ٩٩٨ بإمرة جؤذر باشا استطاعت دخول عاصمة الصنغاي مدينة (غاو) عام ٩٩٩، والمفاوضة مع ملك الصنغاي إسكيا إسحاق الذي فرّ من الهزيمة حيث اعترف للسلطان السعدي بالسيطرة والنفوذ على منطقة السودان وبايعه، إلا أن الأمير محمد كاغ بن داود رفض ذلك، واستمر في المقاومة، وفي الوقت نفسه لم يعترف المنصور بنتيجة المفاوضات بل أرسل أمراً بعزل جؤذر باشا عن قيادة الجيش، وبعث حملةً ثانيةً بقيادة محمود باشا انتصرت على الصنغاي، وقُتل الأسكيا محمد كاغ، وأصبح ملوك صنغاي تحت إمرة سلطان المغرب، وانتقلت العاصمة الصنغانية من (غاو) إلى تمبوكتو. أما المقاومة فقد تولاّها أسكيا نوح حتى توفي عام ١٠٠٤، أما أسكيا سليمان فكان بإمرة المغرب ويُقاتل تحت قيادة الباشا الوالي من قبل المغرب حتى توفي عام ١٠٠٤ أيضاً، واستمر خلفاؤه من بعده تبعاً لسياسته.

توفي أحمد المنصور عام ١٠١٢، واختلف أبناؤه من بعده، وكان زيدان الكبير هو المرشح للحكم غير أن أخويه أبي الفوارس والمأمون قد اتفقا ضده، فحكم المأمون، وولّى أخاه أبا الفوارس منطقة مراكش ولكن لم يلبث أن تنكّر له، وهذا ما سهّل عملية الانتقام إذ استطاع زيدان أن يجمع حوله أتباعه، وأن يسيطر على منطقة فاس، وضعف أمر المأمون فاتجه إلى خصومه الإسبان فعرض عليهم مساعدته مقابل تسليم ميناء العرائش، وكان الأندلسيون في المغرب يسعون لغزو الأندلس بمساعدة الجزائريين، وفضح المأمون هذا العمل الأمر الذي جعل الإسبان يقضون عام ١٠١٩ على ما بقي من المسلمين في الأندلس، وسقطت هيبة المأمون في نفوس المسلمين، وقتل في تطوان عام ١٠٢٢، وورث هذا الخزي ابنه عبد الله فلم يتمكن من المطالبة بالسلطان، وهذا ما زاد من قوة زيدان غير أنه لم يستطع من بسط نفوذه على كل الأقاليم، وبالتالي ضعف أمر السعديين كثيراً، وأصبح المسلمون يفكرون في قيادةٍ جديدةٍ، وظهر بعض

القادة أمثال محمد العياشي الذي أخذ يُقاتل البرتغاليين في أزمور، والإسبانيين في العرائش والمهدية.

وظهرت قوة الأشراف العلويين الذين أصبح نفوذهم قوياً في سجلماسة ومنطقة تافيللت كلها التي وصلوا إليها في القرن الثامن، ثم امتدّ نفوذهم إلى منطقة السوس ووادي درعة عندما ضعف السعديون، وعندما وجدت قوة شيخ هذه العائلة محمد بن علي بويع للنهوض بالبلاد، وحمل مسؤولية الدفاع عن الإسلام ضد الهجوم الصليبي، فنهض بالأمر عام ١٠٤١، ولكن أخاه الرشيد قد انتزع الحكم منه، وبدأ بمقارعة السعديين حتى تمكّن من دخول فاس عام ١٠٧٧، وقضى على حكم الدولة السعدية، وقُتل عام ١٠٨٣، وترك الحكم من بعده لأخيه إسماعيل الذي استمر حكمه من ١٠٨٣ حتى ١١٤٠ أي أكثر من سبع وخمسين سنة.

اتجهت الأسرة العلوية إلى مقاتلة ولاية الجزائر بدلاً من أن تتخذ سبيلاً لقتال الصليبيين بناءً على البيعة التي أعطاها لهم المسلمون، كما اتجهت إلى التحالف مع فرنسا لتحقيق أغراضها، ولهذا استاء المسلمون من أفراد هذه الأسرة منذ بداية حكمهم، وأصبحت المقارنة بينهم وبين السعديين الذين قاموا على محاربة الصليبيين لذا قامت المحاولات للفتك بإسماعيل، وحدثت الفوضى في كل مكان، في فاس، في الريف، في تازه، وجاء الخضر غيلان من الجزائر إلى تطوان، فالتفّ حوله أهلها، وبايعته أصيلا، والقصر، وكان ينادي بالوحدة الإسلامية للوقوف في وجه النصارى، ولكنه قُتل عندما هاجمه إسماعيل بقواتٍ كثيفة على حين كان معه القليل من الجند، ويضطر إسماعيل بعدها لمقاتلة الصليبيين، وينجح في استرداد مدينة المهدية عام ١٠٩٩، والعرائش عام ١١١١، وأصيلا عام ١١١٣، كما استردّ طنجة من الإنكليز عام ١٠٩٦، وكانوا قد أخذوها من البرتغاليين عام ١٠٧٢ مهراً لملكتهم من ملك البرتغال، وكان قد دخلها البرتغاليون عام ٨١٨.

وتوفي إسماعيل عام ١١٤٠، وحدثت بعده حرب أهلية بين أبنائه

محمد، وعبد الملك، وعبد الله استمرت حتى عام ١١٧٠، استطاع في النهاية عبد الله أن يحصل على الحكم، ولكن لم يستقر الحكم إلا في عهد ابنه محمد الذي استمر عهده مدة عشرين سنة أو إلى عام ١٢٠٧، وتمكّن من استرداد مزاغا ـ من أيدي البرتغاليين، وهاجم سبتة ومليلة المدينتين اللتين في أيدي الإسبان، ولكنه عجز عن اقتحامها، وتحسّنت علاقات محمد مع الدولة العثمانية، على حين كان جده إسماعيل يصرّ على خلافته، ويُقدّم نفسه على العثمانيين بصفته أنه ينتسب إلى رسول الله ﷺ.

أما سليمان الذي خلف محمداً فقد أعلن وقف عمليات الجهاد حتى باع سفنه إلى تونس، بل لم يُطالب بسبتة ومليلة عندما دخل نابليون بونابرت إسبانيا، وكانت الفرصة مناسبةً له تماماً، وحاول ابنه عبد الرحمٰن الذي تولّى عام ١٢٣٧ أن يُعيد بناء الأسطول، ولكن لم يحالفه النجاح كثيراً، واختلف مع فرنسا التي احتلت الجزائر حتى ولاية تلمسان.

توفي عبد الرحمن عام ١١٧٧ وخلفه ابنه محمد الذي عقد معاهدةً مع إسبانيا عام ١٢٧٩، وازداد النفوذ الأجنبي في عهد هذا السلطان كثيراً، وأصبح مجلس صحي لمدينة طنجة من الأجانب تتناوب فرنسا وإسبانيا رئاسته، كما أصبحت محاكم قنصلية للأجانب في المغرب.

وتوفي محمد عام ١٢٩١ فخلفه ابنه الحسن الذي لجأ إلى إنكلترا لتحميه من فرنسا التي احتلت تونس، واشرأبت بعنقها نحو المغرب، كما حاول الاستعانة بألمانيا التي عقدت معه معاهدة عام ١٣٠٨.

وتوفي الحسن عام ١٣١٢ وخلفه ابنه عبد العزيز فاتفقت فرنسا وإسبانيا على اقتسام الأجزاء الجنوبية من المغرب عام ١٣١٨، حيث أخذت فرنسا موريتانيا، وأخذت إسبانيا الصحراء المغربية، كما سبق أن أخذت إسبانيا إفني عام ١٣١٦، واضطر السلطان عام ١٣٢١ على تشكيل مجلس لإدارة مدينة طنجة يتألف من ستةٍ وعشرين عضواً، يُعيّن القناصل الأجانب عشرة منه، وينتخب الأجانب فيها اثني عشر منهم، ويُعيّن حاخام اليهود واحداً، ويُعيّن السلطان واحداً أيضاً، أما الحاكم المحلي فيُعيّن اثنين من

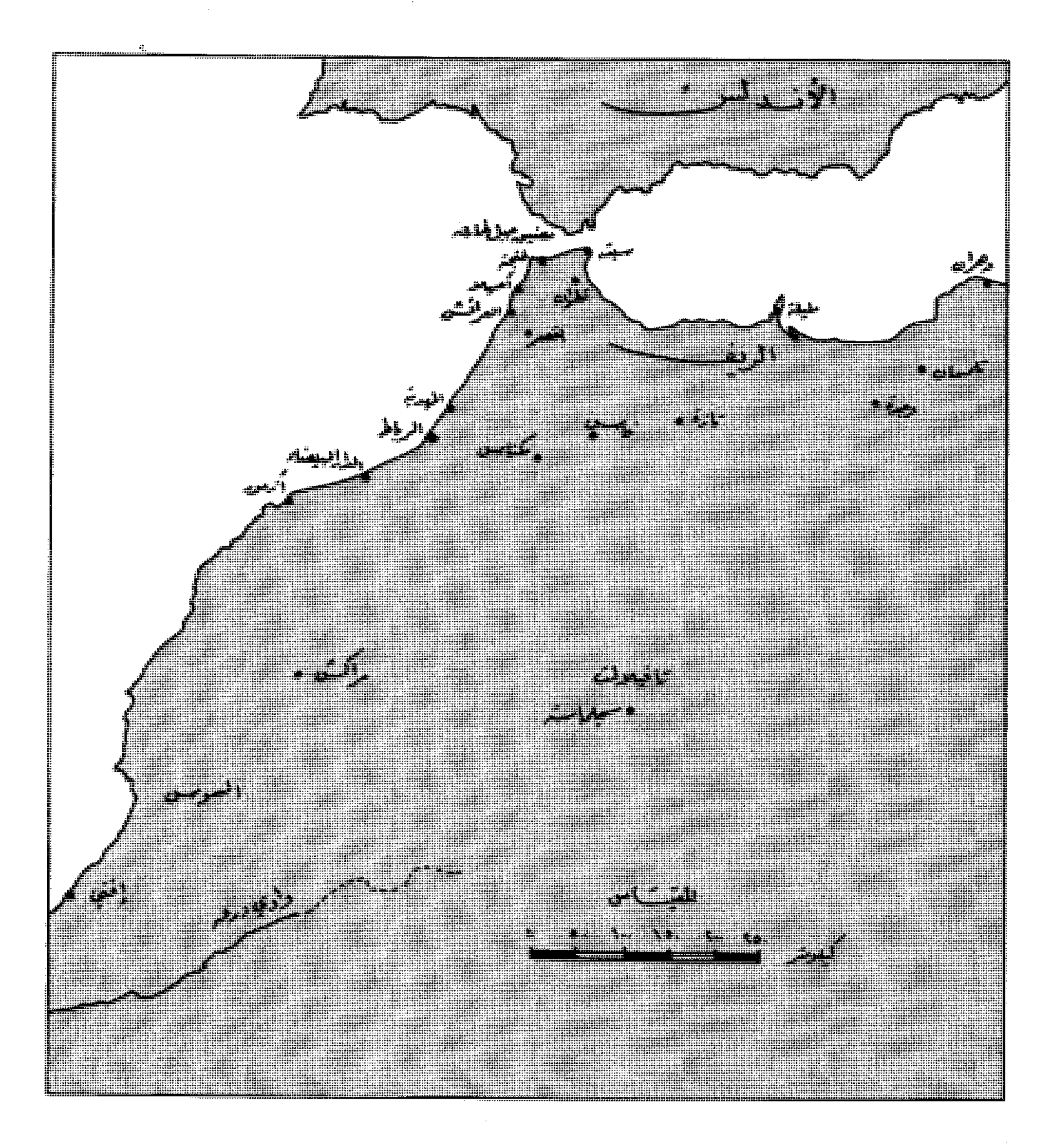
المسلمين، وهذا ما أثار النقمة على السلطان، وقامت ثورة ضده، وأُعطي لقب (عبد الأجانب)، ووجدت فرنسا هذه الثورة فرصةً للتدخل في شؤون المغرب غير أن إنكلترا وألمانيا كانتا تقفان في وجهها، ولكن وقّعت فرنسا وإنكلترا معاهدة الاتفاق الودي بينهما بحيث تركت إنكلترا لفرنسا حرية العمل في المغرب مقابل اعتراف فرنسا بوضعها في مصر، وتركت منطقة الريف لإسبانيا، وجاء الإمبراطور الألماني إلى طنجة ملوحاً بالتهديد، فاعترفت فرنسا بحرية السلطان في أراضيه في مؤتمر الجزيرة، ثم تقدّمت فرنسا واحتلت وجدة والدار البيضاء، واحتلت إسبانيا منطقة الريف، وثار المسلمون على سلطانهم وخلعوه عام ١٣٢٥، ونصّبوا مكانه أخاه عبد الحفيظ الذي استطاع أن يقضي على الثورة التي اندلعت ضدّه، ويقودها (أبو حماده)، ولكن هذا السلطان قد عقد قروضاً لتسديد نفقات حملاته العسكرية، وأرهق الشعب، فنقموا عليه، وحاصروه في مدينة فاس، فجاءت حملة فرنسية لإنجاده عام ١٣٢٩، ودخلت فاس، ومكناس، والرباط، فثارت ثائرة إمبراطور ألمانيا فأرسل قطعةً حربيةً إلى المياه المغربية فأرضته فرنسا بجزءٍ من أراضي الكاميرون، واستمرت نقمة السكان المسلمين على السلطان، وأبادوا الحامية الفرنسية في فاس غير أن فرنسا عادت فدخلت فاس بعد أسبوعين، وندم السلطان على عمله، وتنازل لأخيه يوسف عن الحكم عام ١٣٣١، ولجأ هو إلى طنجة حيث يُقيم أخوه عبد العزيز أيضاً.

وتوسّع الفرنسيون فاحتلوا بقية أجزاء المغرب أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي الوقت نفسه قامت إسبانيا بضمّ منطقة الريف إليها، وقام أهل الريف أيضاً بثورةٍ ضد المحتلين، وهزموهم عام ١٣٢٧، وظهر أحد الأشراف وهو أحمد بن محمد بن عبد الله الحسني من قبيلة بني عروة، واشتهر بأحمد الرسولي فثار على السلطان، واختطف القنصل الأمريكي وعائلته في طنجة، وجاء الأسطول المغربي، وأخذ غرامةً حربيةً، وتولّى أحمد الرسولي أمر طنجة، لكن السلطان عزله تحت ضغط قناصل الدول الأجنبية، واصطدم الرسولي مع الإسبان في الجبال، ونودي به سلطاناً على

الجبال، ثم عقد معاهدةً مع الإسبان الذين أعادوا للرسولي أملاكه، وخفّفوا الضغط عن القبائل حسب المعاهدة، وثار المسلمون عليه، وقامت حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، واصطدمت مع الرسولي الذي أُسر، وبقي في الأسر حتى توفي عام ١٣٤٣.

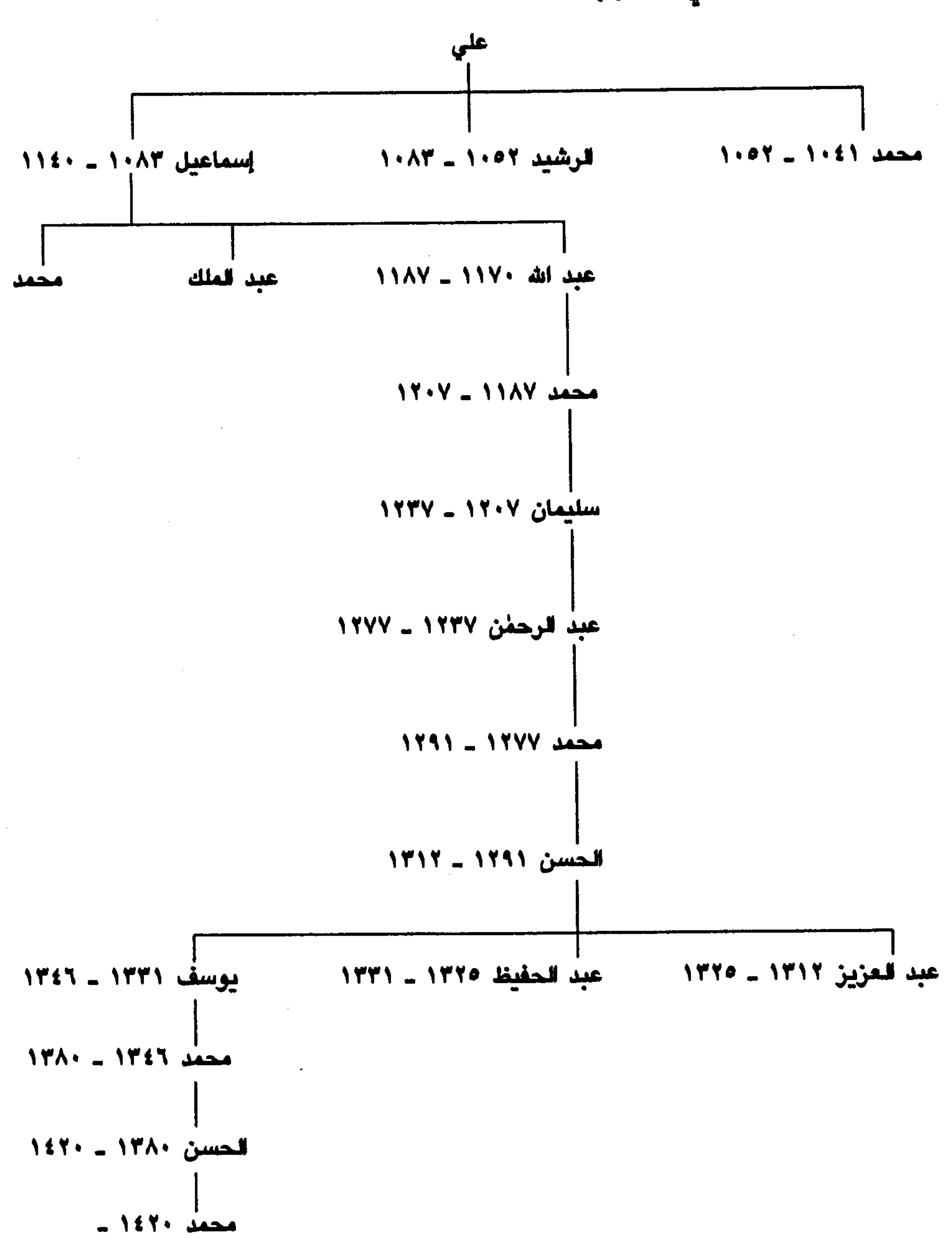
وقام الأمير عبد الكريم الخطابي في منطقة الريف الشرقية بحركةٍ، وقد عرف باسم (زعيم بني ورغال)، ولما توفي عام ١٣٣٨ خلفه ابنه الأكبر القاضي محمد في قيادة الحركة فأعلن الجهاد، وتمكّن عام ١٣٣٩ من القضاء على جيش سلفستر، ولم يبق للإسبان إلا حصن مليلة، وقد اعترفوا بخسارة خمسة عشر ألف جندي، وخمسمائةٍ وسبعين أسيراً إضافة إلى العتاد والذخيرة منها ثلاثين ألف بندقية، وأربعمائة مدفع رشاش ومائة وتسعة وعشرين مدفع ميدان، ولم ينتبه محمد بن عبد الكريم الخطابي على ما أدركه من نصر إذ لو تابع لدخل حصن مليلة، وألقى بالإسبان في البحر، ولكن توقّف فتهيأت الفرصة للإسبان لزجّ ستين ألف جندي في المعركة الجديدة، وقاموا بهجوم معاكس عام ١٣٣٩ فاستعادوا ما فقدوه، وبلغت قوتهم في عام ١٣٤٠ في منطقة الريف أكثر من مائة وخمسين ألف جندي.

حدث انقلاب عسكري في إسبانيا، وتغيّرت الخطة، وانسحب الإسبان من المناطق الداخلية، وتحصّنوا في السواحل، وشكّل الأمير محمد بن عبد الكريم حكومةً في الريف، ثم بدأ الهجوم الإسباني والفرنسي على حكومة الخطابي حتى استسلم الخطابي عام ١٣٤٤، ونفي إلى جزيرة رينونيون.


الأندلس
سبتة
وهران
مليلة
الريف
تلمسان
الرباط
مراكش
سجلماسة
السوس
المقياس
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ ٢٥٠
كيلومتر

مصور رقم [٣٨]

الأشراف
من الأسرة العلوية في المغرب



الفصل الثالث

غربي إفريقية

هذا الجزء من العالم الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية يختلف فيه الوضع بين منطقتين: منطقة الساحل حيث بدأ ينزل فيه النصارى المستعمرون، ويتقدّمون منه نحو الداخل عندما يقوى أمرهم سواء على الساحل الغربي حيث يكثر المسلمون أم على الساحل الجنوبي حيث لا يزال السكان على وثنيتهم، ويعمل النصارى المستعمرون في هذه المناطق في نشر النصرانية ليُهيّؤوا لهم قواعد بشرية يستندون عليها في توطيد حكمهم، وتسليمها السلطة في المستقبل، ومنطقة الداخل حيث يحكم المسلمون وقد انفرط عقدهم، وأصبحوا على شكل إماراتٍ متنازعةٍ في أغلب الأحيان، أو على الأقل لا يهتمّ بعضهم بقضايا بعضهم الآخر.

الساحل:

في الوقت الذي كان الصراع قائماً بين المسلمين والنصارى في الأندلس، وتأخر اقتحام النصارى للبلاد رغم أن أوربا كانت من ورائهم تدعمهم، ورغم ضعف المسلمين الذي كان واضحاً لذا فكر النصارى من الإسبان والبرتغال في الإبحار على سواحل القارة الغربية لمعرفة قوة المسلمين في تلك القارة إذ كانت الرديف لمسلمي الأندلس تدعمهم وقت الشدة، كما حدث أيام المرابطين والموحدين وبعدهم، وإذا كان بإمكانهم النزول على السواحل، وتأسيس مراكز لهم يُمكنهم تطويق المسلمين قاموا به، قبل أن يقوى أمر المسلمين في بلاد المغرب ويمدّوا إخوانهم في

الأندلس، وإذا لم يكن ذلك امتهنوا التجارة إن استطاعوا مع السكان حتى يقوى أمرهم ويروا رأيهم.

وصل بعض البحارة النصارى عام ٧٤٧ إلى مصب نهر السنغال، وزاروا الرأس الأخضر، ولم يُقيموا فيه، وفي عام ٨٤٨ احتل البرتغاليون جزيرة (أرغن) الصغيرة القريبة، كما احتل الهولنديون جزيرة (غوريه) مقابل الرأس الأخضر، واستمر ذلك حتى نهاية القرن التاسع الهجري أي وقت سقوط الأندلس بيد النصارى، وبعد أن حصل الإسبان والبرتغاليون على كثير من المغانم، واستأثروا بها دون الذين دعموهم بالأمس قام النصارى الآخرون ينافسونهم، فقد استطاع الفرنسيون تأسيس مستعمرة عند مصب نهر السنغال عام ١٠٣٦، وأسّسوا حصن (سان لويس) عام ١٠٧٠، غير أن البرتغاليين كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في الاستعمار حيث وصلوا عام ٨٥٠ إلى شواطئ غينيا، وإلى سواحل سيراليون عام ٨٦٧، وإلى شواطئ نيجيريا عام ٨٩٢، وإلى سواحل الكاميرون مع نهاية القرن التاسع ٨٩٩، كما حاولوا الولوج إلى الداخل إذ تسلّلوا في السنغال بحثاً عن الذهب، ووصلوا إلى نجد (بامبوك).

وإذا قامت المنافسة الأوربية الأخرى لهم (للبرتغاليين والإسبان) وخاصةً من قبل فرنسا، وإنكلترا، وهولندا والمنافسة فيما بينهم أيضاً من أجل الحصول على الموارد الاقتصادية ومنها العبيد أيضاً حيث وصل الإنكليز إلى سواحل نيجيريا عام ٩٧٠، وبدؤوا بأخذ العبيد من هناك، وأطلقوا على ذلك الجزء من الساحل اسم ساحل العبيد، كما أطلقوا اسم ساحل العاج، وساحل الذهب (ساحل غانا)، ونافست إنكلترا فرنسا أيضاً فاحتلت حصن سان لويس الفرنسي عام ١١٧٢، ثم أعادته بعد معاهدة بين الدولتين عام ١١٩٨.

لم يأبه المسلمون بهذه المراكز النصرانية لضعفها أولاً، ولأنها ظهرت بمظهر العمل التجاري الخالص في أول الأمر، ولكنه في الواقع لضعف المسلمين ولعدم إمكاناتهم عمل شيء ضدها بل إن الدول الإسلامية القوية

القائمة في المغرب كانت أحياناً تستعين بأصحاب هذه المراكز ضد خصومها، وربما كانوا من المسلمين كالعثمانيين مثلاً أو لتوطيد سلطانها، أو لنصرتها على خصومها السياسيين الثائرين عليها، أو ضدّ دول «نصرانية» أخرى، وإذا كان السعديون قد تنبّهوا لهذا الأمر إلاّ أن أيامهم كانت قصيرةً، وكثرت فيها الأحداث وعندما استقرّ الأمر للمنصور السعدي، اتجه نحو الداخل وقضى على دولة صنغاي أي كانت حروبه ضد المسلمين بالدرجة الأولى، وربما كان تفكيره لجمع المسلمين أولاً في دولةٍ ثم منازلة الدول النصرانية، وما أن مات حتى حدثت الفتن بين أبنائه، وعندما جاء الأشراف العلويون اختلفوا مع العثمانيين في الجزائر، وعملوا على التفاهم مع فرنسا التي بدأت ترنو بأنظارها نحو المناطق التي في جنوب بلاد المغرب وهي منطقة السنغال.

الداخل:

كانت مملكة الصنغاي في هذه المرحلة التاريخية تحكم غربي إفريقية، وتضمّ عدداً من الممالك التي تخضع لها، منها مملكة مالي، ومملكة الفولانيين في ماسينا و... وكان يحكم مملكة الصنغاي منذ عام ٨٩٩ أسكيا محمد الذي استطاع أن يحصل على الحكم عام ٨٩٨، وأسس أسرةً حاكمةً، وقد اتجه إلى قبائل الموش الوثنية الزنجية في منطقة فولتا العليا اليوم، وأعلن الجهاد ضدها، وطلب من حكامها الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، فلما رفضوا حاربهم وانتصر عليهم، ودخل بلادهم، كما توسّع نحو الغرب فضمّ بلاد الماندينغ والفولاني إليه، ووصلت بذلك دولته إلى سواحل المحيط الأطلسي، كما وصل من ناحية الشمال إلى الصحراء، ثم ضم إليه إمارات الهاوسا في شمالي نيجيريا والنيجر أي أن مملكته ضمّت ما يعرف اليوم: النيجر، وشمالي نيجيريا، وفولتا العليا، والسنغال، وغينيا والأجزاء الغربية من سيراليون، والأجزاء الشمالية من ساحل العاج، والتوغو، وبنين، وفي عام ٩٣٥ قام عليه أبناؤه وأجبروه على التخلي عن الحكم لابنه موسى الذي نفاه إلى جزيرةٍ بعيدةٍ في نهر النيجر، غير أن

موسى قد قتل عام ٩٣٨، وتولّى مكانه أخوه (محمد بنكه) الذي حكم حتى عام ٩٤٤، حيث عزله أخوه إسماعيل، وتسلّم السلطة مكانه، وفي عهد محمد بنكه هذا حاولت مملكة مالي الانفصال عن مملكة صنغاي، وطلب (منسي مالي) المساعدة من البرتغاليين الذين بدؤوا يُثبّتون أقدامهم على السواحل الغربية، فأرسل البرتغاليون سفارةً لمالي برئاسة (بطرس فرناندو) عام ٩٤٠ ـ ٩٤١، وكانت نتيجة ذلك أن جلا الفولانيون والتكارنة عن حوض نهر فاليم الذي يتبع مالي، وهذا ما شجع محمود الثاني (منسي مالي) أن يقوم بثورةٍ ضد مملكة الصنغاي إلا أن ثورته قد قمعت بشدة، وأعاد إسماعيل أباه المنفي إلى الحكم إلا أنه كان قد كبر، وكفّ بصره، ومات عام ٩٤٩.

حكم مملكة الصنغاي عام ٩٥٠ بعد إسماعيل أخوه أسكيا إسحاق، واستمر حتى عام ٩٥٦، وفي هذه المرحلة ساءت العلاقة بين مملكة الصنغاي والسعديين في المغرب، وخلفه أخوه الآخر أسكيا داود، وعادت في أيامه مملكة مالي إلى الثورة ضدّه، فأرسل إليها حملةً قمعت حركتها، وزادت العلاقة سوءاً مع السعديين، واستمر حتى توفي عام ٩٩٠ حيث خلفه ابنه أسكيا محمد الثاني الذي حكم خمس سنوات، وحدثت في عهده المناوشات مع السعديين، ثم خلعه إخوته عام ٩٩٥، وتولّى أحدهم السلطة لمدة ثلاث سنوات، حيث جاء بعده أسكيا إسحاق الثاني عام ٩٩٨، وجاءت الحملة السعدية المغربية بقيادة جؤذر باشا، فهزم أسكيا إسحاق الذي فرّ ثم فاوض قائد الحملة، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدةٍ أنهت الحرب، وبايع أسكيا إسحاق السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي غير أن السلطان رفض المعاهدة، وأرسل حملةً أخرى بقيادة محمود باشا الذي عزل جؤذر باشا، واستولت هذه الحملة على مدينة (غاو) عاصمة الصنغاي، وأصبحت مملكة الصنغاي تتبع السعديين، وأصبح مركز المنطقة تمبوكتو بدلاً من غاو، وحدثت مقاومات من قبل أسكيا نوح واضطر إلى الفرار عام ١٠٠٢ نتيجة الحملات السعدية، وكذلك قاوم الأمير محمد كاغ بن أسكيا داود، ثم هدأت المقاومة بعد عام ١٠٠٤.

خضعت المنطقة لباشوات تمبوكتو الذين يُعينون من المغرب، والذين يُطلق عليهم (الأرما)، وبدأ الضعف يظهر على هؤلاء الباشوات مع ضعف دولة السعديين، وبالتالي تقوى الإمارات والممالك الصغيرة التي كانت تضمّها دولة الصنغاي، فقد ظهرت إمارة البمبارا وهم فرع من الماندينغ في مدينة (سيغو)، وبدأت تتوسع، وتمكنت عام ١٠٧١، أن تتخلص من سيادة تمبوكتو، ثم فرضت عليها الجزية عام ١٠٨١، وكانت قد انتهت الدولة السعدية في المغرب، وحدثت فتن في هذه الإمارة، وانتقل الحكم إلى أسرة ديارا عام ١١٦٤، واستمرت في الحكم حتى قضى عليها الحاج عمر الفولاني عام ١٢٧٨، كما قامت إمارة أخرى للبمبارا أنفسهم في (كاآرتا) شمال نهر باكوي أحد فروع نهر السنغال، وقامت هذه الإمارة على يد أخي أمير سيغو إذ رفض سلطانه، وأسس إمارةً خاصةً به، ووقع بينهما الخلاف، وانتصر أمير سيغو، ولكن أبقى إمارة أخيه، ويُعرف حكام هذه الإمارة باسم (مساسي)، وتوسعت هذه الإمارة في عهد حاكمها أبي بكر عام ١٢١١، ثم انتقل مركز الحكم فيها إلى نيورو، واستمرت حتى قام الحاج عمر يضمّ المنطقة، ويُوحّد أجزاءها عام ١٢٧٧.

وكذلك قام للماندينغ مملكة أخرى في هذه الأثناء حملت اسم مملكة مالي إحياءً لمملكتهم السابقة، وقد أسسها (مامامغان)، وقد حاول أن يتوسّع عام ١٠٨١ على حساب إمارة سيغو، لكنه هُزم، وصغُرت مملكته، وخلفه (مامبي كيتا) الذي حكم مدة خمس عشرة سنة، ثم تفرّق أبناؤه بعده، واقتسموا السلطة فيما بينهم، واستقر آخرهم في مدينا باماكو عاصمة دولة مالي اليوم، وهكذا بقي شعب الماندينغ منقسماً في عدة إمارات حتى ظهر ساموري توري عام ١٢٧٧، وأسّس دولته.

إلى جانب إمارات الماندينغ وجدت إمارات أخرى للقبائل الثانية، حيث إمارة لقبائل الفولاني في منطقة (ماسينا) على نهر النيجر جنوب تمبوكتو، وقد كانت جماعة الفولاني في هذه البقعة تقرّ بالسيادة لملوك مالي، ثمّ لباشوات تمبوكتو، وأخيراً لملوك البامبارا في سيغو، وكانوا على

الوثنية، وبدؤوا يعتنقون الإسلام في بداية القرن الثالث عشر، وقام الذين أسلموا منهم بحركةٍ من الجهاد ضدّ الذين بقوا على الوثنية من أبناء جنسهم، فاستنجد الوثنيون بملوك البامبارا، غير أن المسلمين قد انتصروا عليهم، وأسّسوا مملكةً مسلمةً عام ١٢٢٥ في ماسينا حكمت المنطقة كلها، وأقام التوكلور من الفولاني إمارة في (فوتاجالون) في جنوب الحوض الأعلى لنهر السنغال، وكانت أسرة منهم تحكم المنطقة في القرن التاسع، وعلا أمر هذه الإمارة في مطلع القرن الثالث عشر، وفي منتصف القرن ظهر الحاج عمر الذي وحّد السودان الغربي تحت سلطانه من فوتاجالون حتى تمبوكتو.

أحسّت الدول النصرانية بالضعف الذي أصاب المسلمين في الداخل، وشعرت بقوتها في مراكزها الساحلية فأحبت جسّ النبض فسارت باسم الاكتشاف أو بالأحرى المعرفة، لأن تلك الجهات لم تكن مجهولةً بل معروفة، وقد كتب عنها المسلمون، وإن كان يحلو لبعضهم أن يُسمِّيها اكتشافاً أخذاً من الكتب النصرانية ونقلاً أو جهلاً، لقد قام (منجوبارك) برحلةٍ مع مجرى نهر غامبيا، وتمكّن من الوصول إلى مدينة سيغو على نهر النيجر وذلك عام ١٢١٠، ثم قام برحلةٍ ثانيةٍ عام ١٢٢٠، ثم تتابعت الرحلات وخاصةً الفرنسية منها إلى داخل غربي إفريقية، ولم يكن هؤلاء الرحالة إلا رسل بلادهم لمعرفة البلاد، وطرقها، وقوتها، ودراسة ثرواتها، وإمكانية نهبها، فكانت هذه الرحلات بداية حركة «استعمارية» واسعة النطاق، وإن أعطاها الصليبيون الصفة العلمية والعالمية، وقلّدهم المستغربون في ذلك.

لقد أحسّ بالخطر الصليبي بعض رجالات الفولاني وزعماء الماندينغ فعملوا على توحيد المنطقة، وجمع صفوف المسلمين للوقوف أمام الخطر النصراني الاستعماري المرتقب، غير أن الوقت لم يكن كافياً أمامهم، فداهمهم الخطر أثناء القيام بالحروب لوحدة الصف فصرعهم، وتغلّب على المنطقة، وبسط نفوذه عليها، وطبّق سياسته الاستعمارية النصرانية في أرجائها.

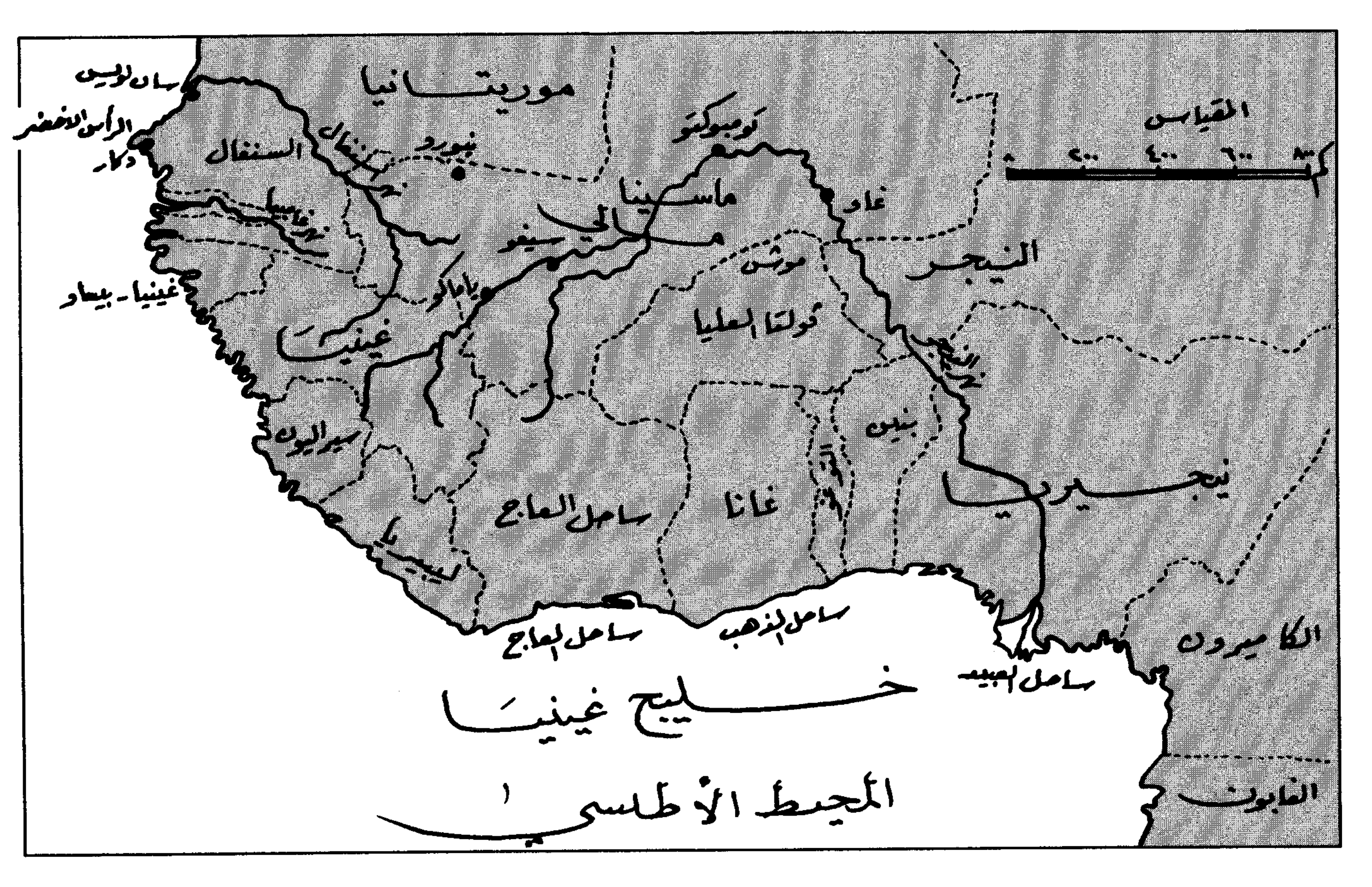
لقد ظهر عام ١٢٥٤ الحاج عمر الفولاني من التوكلور فعمل على غزو بلاد (كاآرتا) عام ١٢٧١، فدانت له، ثم اتجه إلى غزو إمارة سيغو بعد أن اتفق مع ملك ماسينا الفولاني، ولكن الأخير عدل عن فكرته، فاتجه الحاج عمر عندها نحو الغرب باتجاه منطقة السنغال الأوسط غير أن تقدّم الفرنسيين نحو الداخل وبسط نفوذهم على تلك الجهات قد حال دون سيره، فرجع مرةً أخرى نحو الشرق، واحتلّ إمارة سيغو عام ١٢٧٨، وأتبعها بمنطقة ماسينا عام ١٢٧٩، ثم تمبوكتو عام ١٢٨٠ فتوسع بذلك سلطانه، وقام البامبارا في سيغو بالتمرّد عليه، وأعقبهم الفولاني بحركةٍ ضدّه في منطقة ماسينا، فأدّى ذلك إلى مقتله عام ١٢٨١، وتنافس أبناؤه من بعده على السلطة، ودخل بعضهم في حروبٍ ضد بعض مما أدّى إلى زيادة الفوضى، وضعف المسلمين عن مواجهة النصارى المستعمرين فكرههم الناس، وقُتل آخرهم عام ١٣١٦ إثر هزيمة الفرنسيين له أثناء تقدّمهم نحو الشرق.

وأحسّ الفرنسيون بالخطر من حركة الحاج عمر لذا فقد أسرعوا بالتحرك نحو الداخل والتقدم نحو الشرق قبل أن يقوى أمر المسلمين، ويتّحد بعضهم مع بعض، وفعلاً فقد اتجهوا نحو الداخل، وتمكّنوا من القضاء على دولة الحاج عمر.

وشعر بخطر التقدّم الفرنسي (ساموري توري) أحد زعماء الماندينغ، وبدأ يعمل على توحيد صفوف قبائله المتفرقين جنوب دولة الحاج عمر، واستطاع بمدة عشرين سنة أن يوحّد صفوفهم (١٢٨٧ ـ ١٣٠٧)، وقد اتخذ لقب إمام ١٣٠٠ وتصدّى لمقاومة الفرنسيين إلا أنهم قد انتصروا عليه إذ ضعُف المسلمون بعد أن هُزم الحاج عمر، ومشكلة المسلمين أن حركةً كانت تتبع حركةً في المقاومة والقتال، ولم تتوحّد الجهود وتتجمّع القبائل، واستطاع الفرنسيون أن يحتلّوا عاصمة (ساموري توري) وهي (بيساندوغو) عام ١٣٠٩، ثم احتلوا سيغو وتمبوكتو عام ١٣١٠، وهرب (ساموري توري) إلى أعالي نهر الفولتا، واستمر في مقاومة الفرنسيين حتى قُبض عليه

عام ١٣١٦ في شمالي ساحل العاج، فحمل إلى الغابون وبقي هناك حتى توفي عام ١٣١٨، وهكذا سيطر الفرنسيون على أكثر أجزاء إفريقية الغربية، واتجهوا نحو مراكزهم الساحلية، أو تقدّموا من مراكزهم في الساحل، والتقوا مع جموعهم في الداخل فأصبحت المناطق التالية أو الدول الحالية تحت سيطرتهم: السنغال، مالي، غينيا، فولتا العليا، ساحل العاج، التوغو، وبنين، إضافةً إلى المناطق التي دخلوها في وسط إفريقية وهي، النيجر، وتشاد، وإفريقية الوسطى، والتقت مع الكاميرون، والغابون، والكونغو، مع بلاد المغرب، ولم يبق للمستعمرين النصارى الآخرين إلاّ غامبيا التي بقيت للإنكليز على شكل شريطٍ يقع على طرفي نهر غامبيا وسط بلاد السنغال، وغينيا ـ بيساو التي أصبحت مستعمرةً برتغاليةً عام ١٢٩٧، وكان البرتغاليون من قبل ينقلون إليها القبائل الوثنية والمجموعات النصرانية لتحلّ محلّ القبائل المسلمة التي تتحرّك ضدّهم، ثم هناك سيراليون التي أسس فيها الإنكليز مستعمرةً عام ١٢٠٦، ونُقلت إلى التاج البريطاني عام ١٢٢٢، ونقل الإنكليز إليها الزنوج الذين كانوا مُساقين إلى البيع، وأخيراً توسّع الإنكليز نحو الشرق عام ١٢٩٠، وضمّوا إليهم أراضي جديدة، إلا أنها كانت لا تزال المستعمرة وحدها، ولا تزيد مساحتها على ٦٦٤كم٢، وباقي الأجزاء وتزيد مساحتها على ٧٢ ألف كيلومتر مربع تعدّ محمية، وفي عام ١٣١٣، حددت الحدود بين المستعمرات الفرنسية والإنكليزية.

وتقدّم الإنكليز من ساحل الذهب نحو الداخل، وتكوّنت مستعمرة ساحل الذهب في الساحل، والمحمية في الداخل، وهما عماد دولة غانا، كما تقدّموا من ساحل العبيد بكل جهةٍ إذ ضمّوا جزيرة لاغوس إلى مستعمراتهم عام ١٢٨٠، وبدأت تدخل تجارتهم إلى الداخل، وأسّسوا محميةً ضمّت بلاد اليوروبا في نيجيريا اليوم، وأغرت أمراء الشمال من الفولانيين بقبول الحماية الإنكليزية حماية لهم من فرنسا، ووعدتهم بإبقائهم في مراكزهم، واحترام الدين الإسلامي، والتقاليد المرعية في الشمال، فوافق بعض الأمراء، وأعلنت عن قيام محمية الشمال عام ١٣١٨


موريتانيا
السنغال
تومبوكتو
ماسينا
مالي
غاو
النيجر
فولتا العليا
غينيا
سيراليون
ليبيريا
ساحل العاج
غانا
بنين
نيجيريا
الكاميرون
الغابون
سان لويس
الرأس الأخضر
دكار
غينيا - بيساو
باماكو
ساحل العاج
ساحل الذهب
ساحل العبيد
خليج غينيا
المحيط الأطلسي
المقياس

مصور رقم [٣٩]

(شمالي نيجيريا) وجردت حملات عسكرية لإخضاع من رفض الحماية من الأمراء، فاحتلت كانو عام ١٣٢١، وسوكوتو عام ١٣٢٤، واستمر حكم محمية الشمال بيد الأمراء الفولانيين ويساعدهم ضباط من الإنكليز، ثم دمجت مستعمرة لاغوس بالمحمية الجنوبية، وأطلقت عليها اسم مستعمرة - ومحمية نيجيريا الجنوبية، وفي عام ١٣٣٣ ضم الإنكليز محمية الشمال والجنوب وجعلوا منها مستعمرة ومحمية نيجيريا، وأثناء الحرب العالمية الأولى وفي عام ١٣٣٥ أرسلت بريطانيا حملةً إلى الكاميرون التي كانت تحت سيطرة ألمانيا فاحتلت الجزء الغربي وحكمتها باسم عصبة الأمم ثم ضمّتها إلى نيجيريا بعد أن قسّمتها إلى مقاطعتين شمالية وجنوبية، وهكذا نشأت دولة نيجيريا تحت سيطرة الإنكليز.

الفصل الرابع

وَسَط إفريقية

يشمل وسط إفريقية اليوم تشاد، والنيجر، وشمالي نيجيريا، وشمالي الكاميرون إضافةً إلى جمهورية إفريقية الوسطى، وقد انتشر فيها الإسلام تدريجياً، وقامت بعض الممالك التي بسطت نفوذها على الإمارات الصغيرة، كما كانت مملكة صنغاي تتوسّع أحياناً نحو الشرق، وتُخضع أمراء تلك الجهات لها، أو تضمّ بلادهم إليها، وأشهر هذه الممالك:

١ ـ مملكة كانم:

التي قامت في منطقة كانم شمال شرقي بحيرة تشاد، وأسستها أسرة سيف القادمة من الشمال عام ١٨٣. ودخل ملوكها في الإسلام عام ٤٨٠، وتوسّعت حتى شملت أراضي تشاد اليوم، وساعدها حكام تونس من الحفصيين، وهاجمها قوم (البلالا) عام ٧٨٩، واستمرت الحرب بين الطرفين أكثر من عشرين سنة، قُتل خلالها أربعة ملوك من كانم، وأخيراً اضطر الحكام إلى الفرار إلى منطقة بورنو في الجهة الثانية من بحيرة تشاد أو شمال شرقي دولة نيجيريا اليوم، وأسّسوا هناك مملكةً جديدةً بعد أن انتزعوا منطقة بورنو من شعب (الصاو)، واستطاع ملك بورنو (علي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ ـ ٩١٠) أن يُهاجم (البلالا)، وأن ينتصر عليهم، وأن يعود إلى كانم، وأصبحت المنطقتان مملكةً واحدةً تحكمها أسرة سيف، وازدهرت هذه المملكة، وبلغت درجة الأوج، في عهد إدريس الثالث المعروف باسم (إدريس ألونه)، وقد حكم (٩٧٩ ـ ١٠١٣)، وهو الذي

عاصر سلطان المغرب المنصور السعدي وبايعه، وفي عهده توسّعت حدود المملكة، ولكن عمّت الفوضى بعدئذٍ، وتدهور الحكم، واستدعي الشيخ محمد الكانمي ليتولّى أمر الدولة، فأنهى حكم أسرة سيف عام ١٢٢٥، غير أن منطقة بورنو كانت قد خسرتها مملكة كانم لمصلحة الفولانيين أيام عثمان بن فودي، ولم يلبث الحكم أن ضعف بعد الشيخ محمد الأمين الكانمي، وتمكّن الأمير رابح أن يضمّ هذه المملكة إليه، كما ضم بورنو عام ١٣١٠، ثم اصطدم مع الفرنسيين الذين كانوا يُوسّعون نفوذهم شمالاً قادمين من بلاد الكونغو، وكان الأمير رابح قد اتخذ من مدينة (ديكوا) عاصمةً له، وتقع في بلاد بورنو، وهي إلى الغرب من (نجامينا) عاصمة تشاد اليوم بحدود ٢٠٠ كم.

وجّه الفرنسيون ثلاث حملات بقيادة الجنرال (لامي) الذي قُتل على أبواب مدينة (قصيري) التي انتقل إليها الأمير رابح، كما جُرح الأمير رابح في تلك المعركة، ثم توفي متأثراً بجراحه عام ١٣١٨، ودخل الفرنسيون المنطقة.

تابع فضل الله ابن الأمير رابح الجهاد، وأحرز بعض النصر على الفرنسيين، وأخيراً هزم أمامهم، وقُتل عام ١٣٢٧، واستمرت المقاومة بعده عامين، ثم قُضي عليها بعد معركة (عين جالا) عام ١٣٢٩ في شمالي تشاد، وأصبحت منطقة تشاد كلها تحت سيطرة الفرنسيين.

٢ ـ مملكة وادّاي:

تقع وادّاي في شرقي تشاد، وقد جاءت أسرة إليها تُدعى التنجور في القرن الخامس الهجري هاربةً من وجه بني هلال، وسيطرت على المنطقة، وحكمتها حتى القرن العاشر، وامتدّ حكمها إلى الشرق من منطقة وادّاي، واختلطت مع شعب الداجو الذي كان يُقيم هناك، ونشأ من هذا الاختلاط شعب جديد يُدعى الفور، الذي قوي أمره، وطرد التنجور من المنطقة الشرقية التي أصبحت تدعى دارفور، فاتجهت جماعات التنجور إلى الغرب،

واختصّت في منطقة وادّاي، وفي القرن العاشر دخلت في الإسلام، وكان أول الملوك الذين دخلوا في الإسلام عبد الكريم الذي تولّى الحكم عام ١٠٣٠، وخلفه ابنه عروة الذي أقام مدينةً جديدةً لتكون قاعدة حكمه، وأُطلق عليها اسم «وارا»، ثم انتقل مقر الحكم إلى مدينة «أبيشة» وقد خضعت لحكم الدارفور، ثم عادت فاستقلت في أواخر القرن الحادي عشر، ولم يلبث أن عاد إليها الضعف، ولكن استطاع الملك «صابون» أن يُعيد للمملكة قوتها أيام حكمه (١٢٢٠ ـ ١٢٣٠)، وخلفه أخوه محمد شريف صالح، ثم ابنه علي، وقويت الدولة، وحدثت الفرقة بين أفراد الأسرة الحاكمة، وتدخّل الفرنسيون لنصرة أحد الفرقاء، ثم سيطروا على الوضع غير أن الأمير رابح قد ضمّ المنطقة إليه عام ١٢٩٩ أثناء اتجاهه نحو الغرب، وأصبحت وادّاي جزءاً من دولته.

٣ ـ مملكة باغيرمي:

وتقع في جنوبي تشاد اليوم، ووصل إليها الإسلام في القرن العاشر، وأول من أسلم من حكامها السلطان بريمي (إبراهيم)، وقويت الدولة أيام السلطان الحاج محمود الأمين الذي حكم من (١١٦٥ ـ ١٢٠٠)، وفي عهده عمّ الإسلام المنطقة، ثم خضعت إلى مملكة وادّاي عام ١٢٢١، ثم ضمّها ملك كانم الشيخ محمد الأمين الكانمي إلى مملكته عام ١٢٢٧، ثم عادت فاستقلت، وقويت عام ١٢٦٥، ثم هاجمها ملك وادّاي علي عام ١٢٨٨، ثم ضمّها الأمير رابح عام ١٣١٠، وبقيت تخضع له حتى دخلها الفرنسيون عام ١٣١٨.

وكلما اتجهنا إلى الشمال كانت الممالك أصغر ولعل أشهرها مملكة (مانغا) شمال بحيرة تشاد، بل تصبح الإمارات صغيرةً إذ تسود الصحراء، وتفصل المساحات الواسعة بين الواحات، فلا تطمع الممالك بمدّ نفوذها إليها، لذلك كانت بعض الإمارات الصغيرة هي المسيطرة.

وقد وصل العثمانيون إلى شمالي تشاد، وأقاموا القلاع لهم هناك ليردّوا غارات البدو عنها، ومن هذه القلاع، (فايا) وغيرها.

بعد مقتل الأمير رابح وسيطرة الفرنسيين على أكثر أجزاء تشاد اليوم بدأت مقاومة السكان المسلمين فلجأ الفرنسيون إلى الإرهاب فجمعوا أربعمائة عالم من مختلف أنحاء البلاد، وساقوهم إلى مدينة أبيشة قاعدة واداي، وقتلوهم بالساطور عام ١٣٣٦، وعُرفت تلك المذبحة باسم مذبحة «كبكب»، ومع هذا الإرهاب لم تستطع فرنسا السيطرة على الأجزاء الشمالية إلا في عام ١٣٤٨ حيث كان السنوسيون يُقاومون السيطرة الفرنسية إذ كان لهم أكثر من مائة رباط منتشرةً في شمالي تشاد اليوم.

أما في إفريقية الوسطى فقد بدأ الإسلام ينتشر في ربوعها في القرن العاشر، ووصل إليها الدعاة السنوسيون، ومبعوثو المهدي في السودان، وكانت أجزاؤها الشمالية تخضع للممالك التي قامت في أرض تشاد، ودخل الفرنسيون إلى المنطقة عام ١٣٠٧، وعُرف الإقليم وقتذاك باسم (أو بانغي - شاري) أي باسم النهرين اللذين يرويانه، وفي عام ١٣٢٤ ضُمّ إلى منطقة تشاد، ثم أصبح في عام ١٣٢٨ جزءاً من إفريقية الاستوائية الفرنسية التي شملت أربع مناطق هي: ١ - تشاد. ٢ - أوبانغي - شاري. ٣ - الكونغو. ٤ - الغابون، واستمر ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، أما منطقة النيجر فقد قامت فيها عدة إماراتٍ محلية، وكثيراً ما كانت تخضع الشمالية منها للطوارق والجنوبية منها لإمارات الهاوسا، وفي عام ٩٢١ خضعت الإمارات كلها لمملكة صنغاي، ثم عاد إليها إستقلالها مع ضعف مملكة الصنغاي، وفي ٩٩٠ خضع شمالي النيجر إلى دولة السعديين في المغرب، ثم عادت الإمارات المتنافرة إلى وضعها الأول.

وعندما بدأ الفولانيون يفدون إلى المنطقة، ويخضعون إمارات الهاوسا إليهم وخاصةً أيام عثمان دان فودي، دخلت قبيلة غرما إلى الأجزاء الشمالية من النيجر، واتفقت مع القبائل البدوية الأخرى والطوارق للوقوف في وجه الفولانيين، وتمكّنوا بزعامة الطوارق من منع الفولانيين من التقدّم نحو الشمال.

وفي عام ١٣٠٠ وصل إلى المنطقة المُقدّم الإنكليزي (دنهم) والملازم

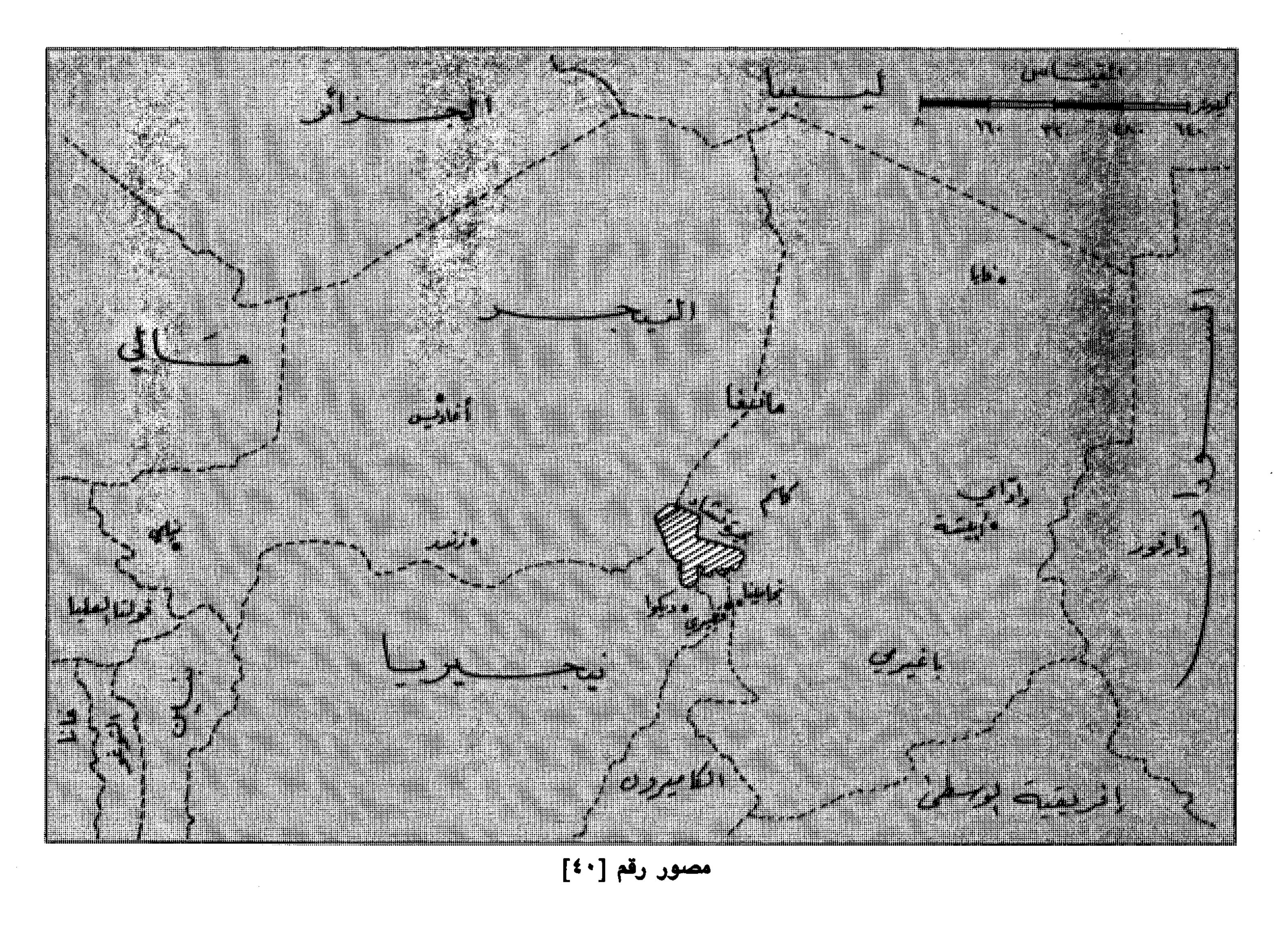
(كلابرتن) الموفدين من قبل الحكومة البريطانية لمعرفة مجرى نهر النيجر، واتفقت بريطانيا مع فرنسا عام ١٣٠٨ لاقتسام مناطق النفوذ، فكانت منطقة النيجر من نصيب فرنسا التي تمكّنت من السيطرة على الأجزاء الجنوبية، أما الأجزاء الشمالية فقد قاومتها قبائل الطوارق، ولكن التعاون بين الدولتين الاستعماريتين قد قضى على المقاومة، واستطاعت فرنسا من السيطرة على منطقة النيجر تماماً عام ١٣٤١هـ.

وأما شمالي نيجيريا فقد انتشرت فيه إمارات الهاوسا، وهي أشبه بممالك صغيرة، وقد بدأت تظهر منذ القرن السابع، وفي هذا الوقت بالذات بدأ الإسلام ينتشر بين رعايا هذه الإمارات، وإن كان يختلف بين إمارة وأخرى، وربما تأخر في دخول بعضها على حين يكون قد عمّ بعضها الآخر، كما أنه قد بقيت الوثنية تنتشر بين أفراد بعض هذه الإمارات حتى قامت دولة الفولاني بينهم، وفي القرن السابع أيضاً بدأت قبائل الفولاني تتجه نحو الشرق وتدخل بين أفراد الهاوسا في هذه المنطقة، ويبدو أن الهاوسا مزيج من الحاميين والعرب والأحباش الذين حلّوا في هذه المنطقة، ونشأت عن حياتهم المشتركة الطويلة مجموعة الهاوسا هذه.

كانت إمارات الهاوسا سبع إمارات رئيسية، تضمّ قبائل الهاوسا، ويُطلق عليها أسماء أبناء ملكهم الذي أسس تلك الإمارات وكلها تقع على حدود نيجيريا والنيجر اليوم عدا (زاريا) التي تمتد إلى الجنوب، وهذه الإمارات هي:

١ - غوبير:

وهي أكثر الممالك الهاوسية اقتراباً من الصحراء أو بعداً إلى الشمال إذا تضمّ أجزاء من جنوبي النيجر، ولما كانت أرضها أكثر المناطق جدباً، لذا كان سكانها أقسى من غيرهم، وكانت مملكتهم أقوى من غيرها لذا فقد فرضت نفوذها على ما جاورها من إمارات، كما أنها خضعت لنفوذ بورنو في الشرق، ومالي وصنغاي في الغرب، وكان المسلمون يحيطون بها من


الجزائر
ليبيا
القياس
مالي
النيجر
أغاديس
مانيغا
كانم
زندر
نيجيريا
الكاميرون
باغيرمي
وداي
أبيشة
دارفور
أفريقية الوسطى
فولتا العليا
غانا

مصور رقم [٤٠]

الغرب والشمال والشرق لذا فقد انتشر فيها الإسلام، سواء أكان عن طريق مملكة مالي أم صنغاي بعدها من الغرب، أم عن طريق القبائل البدوية والطوارق من الشمال، أم عن طريق برنو من الشرق، ومع ذلك فقد بقي عدد غير قليل من سكانها على الوثنية حتى قامت دولة الفولاني فعمّ الإسلام.

وفي عهد الملك باباري الذي حكم من (١١٧٦ ـ ١١٨٧) ضمّ إلى مملكته الإمارات التي كانت تتبع مملكة (كب)، كما استولى على مملكة (زامفارا)، وأسس عاصمةً جديدة اسمها (القاضاوا)، وبعد مدةٍ من حكمه أصبحت مملكة (غوبير) أقوى ممالك الهاوسا، ثم اصطدمت في عهد ملكها (باو) وخلفه (ينف) بدولة الفولانيين، وأخيراً انضوت فيها أيام عثمان بن فودي.

٢ ـ دورا:

وتقع بين كاتسينا وكانو، ولم تلعب دوراً كبيراً في تاريخ إمارات الهاوسا.

٣ ـ رانو:

وهي مملكة من الدرجة الثانية أيضاً، وإن كانت قد اشتهرت بصناعة الحديد، وقد دخلت ضمن مملكة كانو، إذ لم يكتب لها القوة رغم كثرة الملوك الذين تعاقبوا على الحكم فيها.

٤ ـ زاريا:

وهي أكثر ممالك الهاوسا بُعداً نحو الجنوب، وتضمّ مساحاتٍ واسعةً بالنسبة إلى غيرها، وكانت تعرف باسم مملكة «زكزك»، وتضمّ عدداً من الأقاليم تصل إلى سواحل المحيط الأطلسي، ولم ينتشر الإسلام فيها إلا بعد قيام دولة الفولانيين، وقد أخضع هذه المملكة سلطان صنغاي (أسكيا

محمد) عام ٩٢١، وبعد ضياع دولة صنغاي في القرن الحادي عشر أصبحت تجارة الرقيق أهم عنصر في هذه المملكة، ويساق إلى ساحل المحيط الأطلسي. وفي مطلع القرن الثالث عشر خضعت لدولة الفولانيين، وبدأ الإسلام ينتشر في أرجائها.

٥ ـ كتسينا:

يبدو أن هذا الاسم هو اسم زوجة مؤسس المدينة (جنزما)، ويتألف سكانها من السودان، والفولاني، والطوارق، والماندينغ، وأصبحوا جميعاً يتكلمون لغة الهاوسا، خضعت لمملكة صنغاي في عام ٩٢١، ثم نشطت فيها التجارة، وخضعت لسلطان مملكة غوبير، ووصل الإسلام إليها في وقتٍ مبكرٍ، ويعود إلى القرن الثامن الهجري، وأن ملكها الساركن محمد كوار قد أسلم على يد علماء من مالي، وأصبحت من مراكز العلم.

٦ ـ كانو:

وحكمتها في القرن التاسع الأسرة الرنفاوية، ويُعدّ أول ملوك هذه الأسرة (محمد رنفا) من أشهرهم، وقد أسّس القصور، والقلاع، والمساجد، وخلفه (محمد كزولي)، وفي عهده خضعت لمملكة صنغاي، واشتهرت بالعلم والتجارة، وفي القرن الثالث عشر خضعت لسلطان بورنو، وأخيراً تبعت سلطان الفولاني.

تنافس مملكة كانو مملكة كتسينا في العلم والسبق في الدخول في الإسلام، إذ بدأ الإسلام ينتشر فيها منذ القرن الثامن على يد علماء جاءوا من مملكة مالي.

كانت الأسرة الغوداوية تحكم مملكة كانو، وفي أيامها انتشر الإسلام، ويقال أن الملك الحادي عشر من هذه الأسرة قد اعتنق الإسلام، وهو (عثمان زمنقاوي)، وقد انتصر المسلمون على الوثنيين، وفي أيام الملك عمر انتهى عهد الأسرة الغوداوية، وجاءت الأسرة الرنفاوية، وأولها محمد رنفا ـ كما ذكرنا ـ.

٧ ـ بيرام:

وهي من ممالك الدرجة الثاية عند الهاوسا، وتسمى أيضاً (جاران جاباس)، وهو ما تعرف به الآن.

إلى جانب هذه الممالك السبعة توجد ممالك أخرى لا تضمّ الهاوسا فقط، وإنما تشمل مجموعات قد تكون متباينةً ولا يربطها أي رابط، وهي سبع ممالك أيضاً، وتقع إلى الجنوب والغرب من الأولى، فهي أقرب إلى مجرى نهر النيجر، وهي:

أ ـ كب:

وتقع بين ممالك الهاوسا والصنغاي وتشمل أجزاء من نيجيريا، والنيجر، وشمالي بنين، وفولتا العليا اليوم، وقد بقيت مستقلةً عندما خضعت إمارات الهاوسا لسلطان الصنغاي، كما أن الدولة السعدية لم تستطع دخولها بعد أن قضت على مملكة الصنغاي، ولذا فقد حالت دون وصول السعديين إلى بقية ممالك الهاوسا، وكانت على خلاف مع بقية إمارات الهاوسا، ومع مملكة بورنو أيضاً، ودخلها الإسلام عن طريق الصنغاي.

ب ـ يورب:

وتقع إلى الغرب من مجرى نهر النيجر الأدنى وحتى ساحل المحيط الأطلسي، ولم يكن لليوروبا نشاط بحري، وإنما جاء الصليبيون وسيطروا على الساحل منذ نهاية القرن التاسع الهجري، وأسس اليوروبا المدن في الداخل وأشهرها إيلورين في الشمال، وإبادان في الجنوب، وكانت العاصمة القديمة لهذه الإمارة مدينة «أويولي».

جـ ـ نوبي:

وتقع إلى الشرق من مجرى نهر النيجر الأدنى عند التقائه بنهر

(بينوي)، كما شملت جزءاً من جنوب نهر النيجر وسكانها مجموعات مختلفة، ولا يتكلمون لغة الهاوسا، واعتنق أحد ملوكها الإسلام، ويدعى جبريل، لكن غضب عليه السكان فعزلوه، وبقيت الوثنية هي الأكثر شيوعاً حتى دخلت في دولة الفولاني في مطلع القرن الثالث عشر.

د - زامفارا:

قامت عندما ضعفت مملكة (كب) التي تقع إلى الغرب منها، لكنها لم تلبث أن ضعفت، وضمّتها إليها مملكة غوبير، دخل الإسلام زامفارا أيام مملكة الصنغاي، وأخيراً خضعت لسلطان الفولاني، وأصبحت ضمن إقليم سوكوتو.

هـ - ياوري:

تقع على نهر النيجر، وهي أحدث نشأةً من غيرها من ممالك الهاوسا، وتختلف عن الهاوسا بعادات شعبها ولغته، لم تخضع لمملكة صنغاي، وبقيت على الوثنية حتى عام ٩٨٦ حيث أسلم ملكها، وعمل على نشر الإسلام، ثم جاء السلطان (سوت) فحارب الوثنية، ونشر الإسلام.

و - برغ:

تقع على النيجر، وإلى الغرب منه، وتضمّ أجزاء من نيجيريا وبنين اليوم، وقومها من الوثنيين، ويكثر فيهم السحر، وبقوا على ذلك حتى جاءت دولة الفولاني، وكانت قد خضعت لصنغاي، ولكن لم تنجح مع أسكيا محمد وسيلة لحملهم إلى الإسلام.

ز - غرم:

تشبه برغ في شعبها وعقيدته، وبقائها على الوثنية حتى حكم الفولانيون.

دولة الفولاني

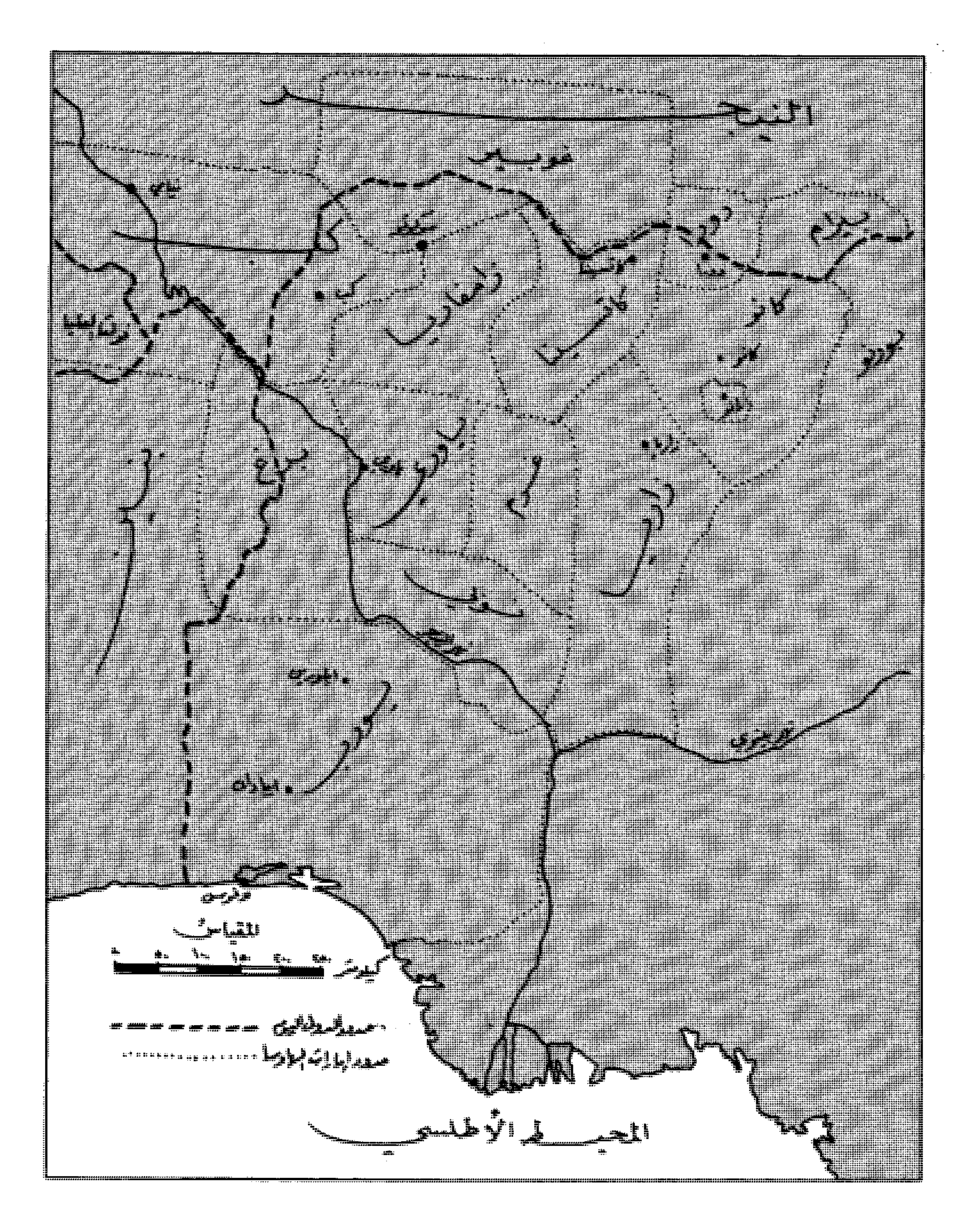
تعود إلى مؤسسها عثمان بن فودي، وفودي لقب وتعني الفقيه، واسمه الحقيقي محمد، ودان تعني ابن، لذا يُقال له: عثمان دان فودي، وقد ولد في بلدة (طفل) من أطراف مملكة غوبير عام ١١٦٨، ودرس العربية والعلوم الدينية، وأسّس حركةً عرفت باسم «الجماعة»، وضمّت مجموعاتٍ من عدة ممالك، من غوبير، وكانو، وزامفارا، وكب، وكاتسينا ومن شعوب متعددة منها: الهاوسا، والفولاني، والطوارق، والزنوج، منهم من كان مسلماً بالأصل، ومنهم من دخل بالإسلام حديثاً، وبدأ الدعوة إلى الإسلام عام ١١٨٨ أي عندما كان في العشرين من عمره، ولما ناصبه مجتمعه العداء خرج عام ١٢١٨ مهاجراً إلى مكان يُدعى (قد) في أطراف مملكة غوبير، وسار معه أنصاره، وتضافر ملوك الهاوسا على محاربة (الجماعة)، وهددها ملك غوبير، وشنّ عليها الحملات، فكان لا بدّ من أن تحمي نفسها فبايعت الشيخ عثمان على السمع والطاعة في المكره والمنشط وعُرف منذ ذلك الوقت بأمير المؤمنين وذلك في عام ١٢١٩، وأتاه إلى مهجره ملك (آهير) فبقي ملكه بينما زالت ممالك غيره، وكان أكبرَ أنصاره أخوه عبد الله، وهو خليفته، وابنه محمد، وصديقه عمر الكموي.

بدأ الجهاد منذ بيعة الشيخ عام ١٢١٩، وقد تمكّن أصحاب الدعوة من دخول (القاضاوا) عاصمة غوبير عام ١٢٢٤ وذلك بعد المعركة الشهيرة التي قادها ملك غوبير (ينف) بنفسه عام ١٢١٩، وساعده بقية ممالك الهاوسا، وشنّوا حرباً على الجماعة وأنصارها في ممالكهم، وعُرفت تلك المعركة باسم معركة (كنو)، أما الجماعة فقد قادها أخو الشيخ عبد الله بن

فودي. ثم فُتحت بقية ممالك الهاوسا، كما فتحت بورنو والأداماوا[1]، واتخذ الشيخ عثمان مدينة سوكوتو قاعدةً له عام ١٢٣٠، وتوفي عام ١٢٣٢، وخلفه ابنه محمد بيلو، الذي كان عالماً ومؤلفاً، واستمرت خلافته حتى عام ١٢٥٣، وفي عهده زار المنطقة الرحالة الإنكليزي (كلابرتون) والتقى به، وتحدّث عن الأمن في البلاد، وعدل السلطان.

وضعفت الدولة بعد محمد بيلو، فكان أمير المؤمنين يُقيم في سوكوتو، وفي بقية المناطق أمراء من الفولاني، وبدأ الإنكليز يُقنعون أمراء الفولاني بقبول الحماية الإنكليزية، فوافق بعضهم فحاربت بهم إنكلترا البقية، وانتصرت عليهم، وفي عام ١٣١٨ أعلنت إنكلترا عن قيام محمية الشمال، ودخلت كانو وسوكوتو عام ١٣٢١، واحتلت بورنو عام ١٣٢٤، واستمر حكم محمية الشمال بيد أمراء الفولاني، ويساعدهم ضباط إنكليز.

(١) الأداماوا: إقليم بين بورنو شمالاً، وباغيرمي شرقاً، وإمارات الهاوسا غرباً، والكاميرون جنوباً، وبعد من الكاميرون.



مصور رقم [٤١]

الفصل الخامس

شرقي إفريقية

يمتد هذا الجزء من شمالي أريتريا حتى جنوب تانزانيا، لقد انتشر الإسلام في هذه الأرجاء في مراحل مختلفة، وقد عمّ الساحل والجُزر، ولم يتعمّق في الداخل إلا قليلاً في الصومال، لقلة السكان في الأجزاء الجنوبية، ولرداءة الأحوال المناخية، وكثافة الغابة، وانتشار الحيوانات.

ولما كانت الأجزاء الشمالية على صلة بالدولة الإسلامية، فقد ارتبطت بها، أما الأقسام الجنوبية التي تقع جنوب الصومال فقد انتشر فيها الإسلام عن طريق الدعوة، ولم تكن على صلة بالدولة الإسلامية لذا فقد قامت فيها إمارات وممالك مستقلة اختلفت في اتساعها حسب الجُزر التي قامت فيها أو أجزاء الساحل التي امتد سلطانها عليها، وقد لا تشمل أحياناً إلا بعض المدن، إذ لم تكن لتتعمق في الداخل ـ كما ذكرنا ـ ولعل معظمها قام على التجارة أو كانت قواعدها مراكز تجارية مهمة، ولعل أشهرها زنجبار، ومملكة الزنج التي تأسست في القرن الرابع الهجري، وكانت حاضرتها مدينة «كلوه» الواقعة في جنوب تانزانيا اليوم، وقد عملت على نشر الإسلام في موزامبيق، ومالاوي، وزامبيا، وزيمبابوي، والإمارة التي قامت في جزر القمر بل نستطيع أن نقول: إن كل مدينةٍ ساحليةٍ كبيرة كانت مقرَّ إمارةٍ خاصةٍ، ولم تكن هذه الإمارات ـ مع الأسف ـ متحدةً فيما بينها الأمر الذي جعلها ضعيفةً لا تثبت طويلاً أمام قوة البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين الصليبيين في تلك الجهات.

خرج البرتغاليون على هذه الإمارات من الجنوب في مطلع القرن العاشر بعد إخراج المسلمين من الأندلس، وقد استولوا على زنجبار عام ٩٠٩، وعلى كلوة عام ٩١١، وأظهر هؤلاء الصليبيون حقدهم فقتلوا السكان، وخرّبوا المدن، ونهبوا كل ما استطاعوا نهبه، وبعد أن رتعوا سنوات وقف في وجههم العثمانيون الذين جاؤوا لنزالهم، والعُمانيون اليعاربة، كما كانت إنكلترا تدعم القتال ضد البرتغاليين منافسة لها لإنكار البرتغاليين حق بقية الدول الأوربية النصرانية التي ساعدت بكل قواها الإسبان والبرتغاليين ضد المسلمين في الأندلس، كما قام الفرس بدور في هذا القتال غير أن إنكلترا والفرس كان دورهم محصوراً في منطقة الخليج، واستطاع العثمانيون أن يدخلوا الأجزاء الشمالية من شرقي إفريقية وهي أريتريا والصومال، كما تمكّنت أسرة اليعاربة التي تحكم عُمان أن تطرد البرتغاليين من بلادها حيث استطاع سلطان بن سيف الحاكم اليعربي (١٠٥٠ـ ١٠٩٠) أن ينقذ مسقط من أيدي البرتغاليين، كما استطاع ابنه سيف (١١٠٤ ـ ١١٢٣) أن يُخلّص ممباسا في شرقي إفريقية من أيدي البرتغاليين، وبدأ نفوذ العُمانيين يتوسع في شرقي إفريقية، ويحلّ محل البرتغاليين في الأجزاء الجنوبية من شرقي إفريقية.

وانتهى حكم أسرة اليعاربة عام ١١٥٤، وجاءت الأسرة البوسعيدية إلى الحكم، فاستقل محمد بن عثمان المزروعي في شرقي إفريقية مستفيداً من انتقال الحكم من أسرةٍ إلى أسرةٍ في عُمان، لكن البوسعيديين استطاعوا ثانيةً من إعادة نفوذهم إلى شرقي إفريقية، وبعدها عاد المزروعي إلى ممباسا بعد أن فرّ من السجن، وتمكّن أن يقتل واليها سيف بن خليفة، ويعود إلى الاستقلال عن عُمان عام ١١٦٠، وتوفي أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة البوسعيدية عام ١١٩٥، وإن كان ابنه سعيد قد تسلّم الحكم منذ عام ١١٩١، وتوفي قبل والده عام ١١٩٤، وخلفه ابنه أحمد فنازعه أعمامه، حيث سار أحدهم وهو سيف إلى شرقي إفريقية وحاصر مدينة ممباسا فاستنجد حاكمها بأحمد، فأرسل له قوةً، فاضطر سيف إلى ترك الحصار،

والاتجاه إلى مدينة لامو، وهكذا عاد البوسعيديون إلى شرقي إفريقية، إذ أصبحت ممباسا تتبع أحمد، وحكم أخوه حمد زنجبار، أما عمهما سيف فقد سيطر على (لامو)، وتركها لابنه بدر من بعده. ولكن عمهما الصغير سلطان استطاع أن يصبح سلطان مسقط على حين انحصر وضع حمد بن سعيد في نزوى، وتبع شرقي إفريقية إلى سلطان، وتوفي سلطان عام ١٢١٩. وخلفه ابنه سعيد وحدثت خلافات في عُمان لا علاقة لنا بها، والذي يهمنا أنِ سعيد توفي عام ١٢٧٣، وشرقي إفريقية يتبعه، وترك عدداً من الأولاد وقد اختلفوا على حكم ما ترك أبوهم، وحكم بينهم نائب الملك في الهند اللورد كاننغ إذ أعطى ثويني عُمان، وأخذ ماجد شرقي أفريقية، وكان هذان كبيرين أما الآخرون فكانوا صغاراً.

وفي عام ١٢٧٥ أرسل ثويني أسطولاً للاستيلاء على أملاك ماجد في شرقي إفريقية وتوحيد المملكة ثانيةً، غير أن حاكم بومباي أرسل سفينةً حالت دون سير أسطول ثويني، وأوقفته عند رأس الحد لأن الإنكليز لا يريدون توحيد المملكة إذ تصبح قويةً، ويُخشى بأسها، غير أن زنجبار كانت تدفع معونةً سنويةً لعُمان.

نقل ماجد بن سعيد حاضرة ملكه من زنجبار إلى دار السلام على الشاطئ الإفريقي رغبةً منه في التوسّع داخل قارة إفريقية إذ رأى أن المسلمين لم يتمكّنوا من مواجهة البرتغاليين، حيث كانت أملاكهم مقتصرةً على شريط من الساحل، وتُشكّل إمارات وممالك متعددة، وأن البرتغاليين لم يستفيدوا من هذا الغلط الذي وقع به المسلمون، بل ساروا على خطتهم إذ لم يتوغلوا في الداخل وللسبب نفسه لم يستطيعوا من مواجهة خصومهم من عُمانيين وعثمانيين وإنكليز، وبدأ ماجد بالتقدم نحو الداخل فوصل المسلمون إلى شواطئ بحيرة تانغانيكا، ومن هناك توسعوا في زائير، وامتدت مراكزهم هناك على مجرى نهر الكونغو، وكان للمسلمين في تلك الجهات والٍ ينفذ أوامر سلطان دار السلام على شواطئ إفريقية الشرقية.

توفي ماجد بن سعيد عام ١٢٨٧، وخلفه أخوه (برغش)، وأراد إعادة

الوحدة بين عُمان وشرقي إفريقية، وعمل على ذلك ولكنه فشل، وضعف حكمه، وازداد النفوذ الصليبي، وتقاسمت دول أوربا المنطقة فأخذت ألمانيا الأجزاء الجنوبية حتى موزامبيق المستعمرة البرتغالية أو ما عُرف باسم تنجانيقا، وأخذت انكلترا جزيرة زنجبار والأجزاء الشمالية من السواحل، أو سواحل كينيا وعُدّت تلك الشطآن محميةً إنكليزيةً، وإن كانت تلك الجهات تحت حكم السلطان (برغش) الحاكم الاسمي للمنطقة، أو كما كان يُعرف باسم سلطان زنجبار.

توفي (برغش) عام ١٣٠٦ وخلفه أخوه الآخر (سيد عبد الله خليفة بن سعيد)، وزاد ضعف دولة زنجبار في أيامه، فتقاسمت الدول سلطنته بشكل رسمي، ولما هُزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٦، وضعت مستعمراتها ومنها تنجانيقا تحت إشراف عصبة الأمم، ثم تقاسمها الحلفاء المنتصرون فكانت تنجانيقا تحت سيطرة إنكلترا، وبقي سيد عبد الله خليفة السلطان الصوري حتى توفي عام ١٣٨٠، وخلفه ابنه جلمشيد، وهكذا أصبح شرقي إفريقية الجنوبي تحت سيطرة إنكلترا.

أما الأجزاء الشمالية فقد تبعت الدولة العثمانية، ولكنها لم تلبث أن ضعفت الدولة فبدأت سيطرة الأمراء المحليين، وهذا ما جعل فراغاً سياسياً في المنطقة، ويمكن لكل أمير أو حاكم يقوى نفوذه أن يبسط حكمه على ما يستطيع، حتى تمكّن أمراء عسير أن يخضعوا جزر دهلك وزيلع وبربره إلى إمارتهم (١٢٤٩ ـ ١٢٧٣).

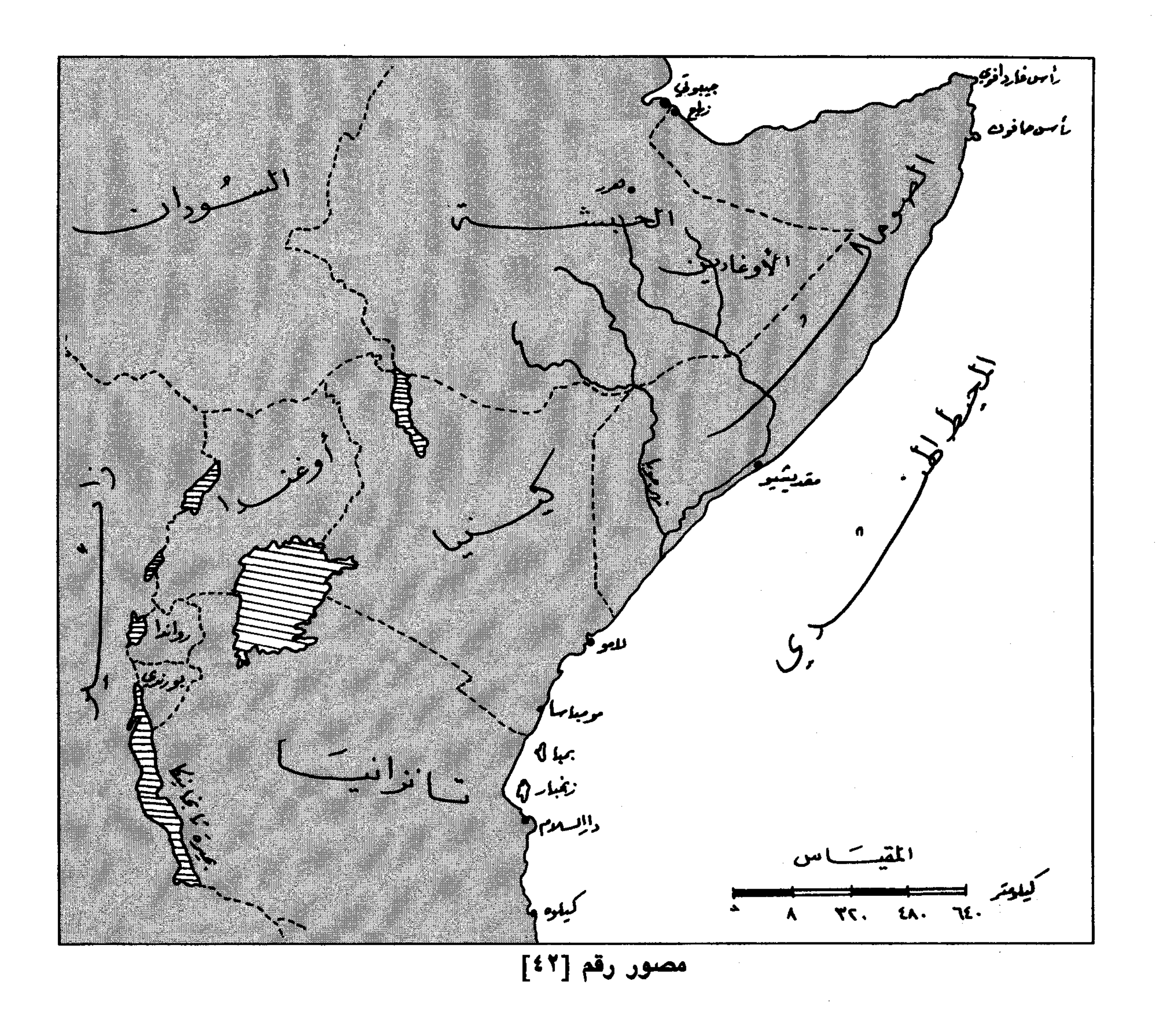
ولما رأت الدولة العثمانية ضعفها وعدم إمكانية سيطرتها على سواحل البحر الأحمر وافق الخليفة العثماني على التنازل عن هذه السواحل من سواكن إلى مضيق باب المندب إلى مصر عام ١٢٧٣، ثم تقدّمت القوات المصرية على السواحل الصومالية حتى وصلت عام ١٢٨٣ إلى رأس غاردافوي، كما توغّلت في الداخل فدخلت هرر، واضطر سلطانها محمد علي بن عبد الشكور إلى التنازل عن إمارته إلى خديوي مصر عام ١٢٩٣، وتابع بعدئذٍ الجيش المصري في تقدّمه على السواحل الصومالية نحو

الجنوب حتى تخطّى نهر جوبا، وأصبح في أملاك سلطان زنجبار الذي احتجّ على هذا التصرّف، واعترفت إنكلترا عام ١٢٩٥ بسيادة مصر على جميع الساحل الإفريقي الشرقي من السويس حتى رأس حافون.

وفي الوقت نفسه كان المصريون يتقدّمون أيضاً في وادي النيل حتى وصلوا إلى أوغندة ١٢٨٧ حيث أطلق عليها يومذاك اسم المديرية الاستوائية.

اشتعلت الحرب بين مصر والحبشة، وهُزمت مصر عام ١٢٩٦ في ثلاث معارك، وتخلّت عن بعض الأجزاء، ولما ظهر ضعف المصريين تقاسمت الدول الكبرى المنطقة فيما بينها، وأعطوا الحبشة جزءاً من تلك القسمة بصفتها دولة نصرانية، وحسب هذا التقسيم أنزلت فرنسا عام ١٢٩٩ قواتها في جيبوتي، وإيطاليا في عصب، وحدث أن احتلت إنكلترا مصر بعد حركة أحمد عرابي، وأصبحت المناطق التي كانت تحت نفوذ مصر بيدها، ودخلت فرنسا تونس وكانت إيطاليا تريد أن تضمها إليها غير أنها سبقت، وهذا ما جعل إيطاليا تتجه نحو شرقي إفريقية لتعوّض ما خسرته في تونس، ونزلت في أريتريا، وحتى تقدمت في الحبشة غير أنها هزمت فاقتصرت على أريتريا، وقامت الحركة المهدية في السودان فأمرت إنكلترا بإخلاء السودان عام ١٣٠٢ حسب مخططٍ مدروسٍ فخلت جهات شرقي إفريقية من القوات المدافعة عنها، وتصرّفت الدول الأوربية حسبما تريد في تلك الجهات، وأخذت كل دولة نصيبها المعطى لها والمتفق عليه فيما بينها، حيث أخذت إنكلترا الصومال الشمالي من رأس حافون حتى حدود جيبوتي، وأخذت فرنسا منطقة جيبوتي، وأخذت إيطاليا أريتريا والصومال الجنوبي من رأس حافون حتى جنوب مصب نهر جوبا، وأُعطيت الحبشة منطقة هرر والأوغادين، وأما ألمانيا فكان نصيبها من الأجزاء الجنوبية التي تحدثنا عنها والتي تقاسمتها مع إنكلترا.

لقد كان لهذا التقسيم أثره السيئ في نفوس مسلمي تلك المنطقة، وقام محمد بن عبد الله حسن المعروف بالملا بالجهاد والتفّ حوله



رأس جاردافوي
رأس حافون
جيبوتي
زيلع
هرر
السودان
الحبشة
الأوغادين
الصومال
كينيا
أوغندا
رواندا
بوروندي
تانزانيا
مقديشيو
المحيط الهندي
لامو
مومباسا
بمبا
زنجبار
دار السلام
كيلوه
المقياس
كيلومتر
٠ ٨ ٣٢٠ ٤٨٠ ٦٤٠

مصور رقم [٤٢]

المسلمون لطرد الصليبيين من البلاد، وبدأت هذه العملية عام ١٣١٧ يوم أعلن أنه مهدي الصومال، ونادى بالجهاد المقدس، وأُطلق على جماعته أيضاً اسم الدراويش، وقد نجح في السيطرة على الأجزاء الداخلية، وحكمها لمدة تصل إلى عشرين سنة (١٣١٧ ـ ١٣٣٧)، وحصر الإنكليز في شريطٍ ضيقٍ من الساحل، وقد جهّزوا أربع حملات للقبض عليه، ولكنها باءت بالفشل، ولكن بعدئذ عزّزت إنكلترا قواتها، وتقدّمت نحو الداخل فهُزم محمد عبد الله حسن، وجرح في بعض المعارك، واضطر إلى الفرار إلى منطقة الأوغادين لإعادة تنظيم صفوفه، غير أنه مات متأثراً بجراحه عام ١٣٣٨، واستمرت المقاومة بعده عدة أشهر، ثم سيطر الإنكليز على الجزء المخصص لهم من الصومال.

وأما إيطاليا فقد استطاعت من السيطرة على ميناء مصوع عام ١٣٠٣، وكذلك ميناء عصب في أريتريا، وبدأت بعدها تبسط نفوذها في الصومال بصورة تدريجية، وقد عقدت معاهدة حماية مع سلطاني (أوبيا) و(ميجورتين) عام ١٣٠٧، ومع ذلك فلم تتمكّن من دخول الساحل وفرض سيطرتها حتى عام ١٣٤٥ حيث جهّزت حملةً قوية أخضعته بالقوة، وكذلك فإن منطقة هرر استمرت بالثورات ضد الأحباش طيلة هذه المرحلة.

انتهى الجزء الثامن بحمد الله

ويليه الجزء التاسع بإذن الله

المَراجِع

- أرض الأنبياء، عبد الله فيلبي، ترجمة عمر الديراوي، المكتبة الأهلية - بيروت.
- بداية الحكم المغربي على السودان الغربي، محمد الغربي، وزارة الثقافة والإعلام - بغداد ١٩٨٢م.
- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة سعيد سليمان، دار المعارف بمصر.
- تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك. تحقيق إحسان حقي - دار النفائس - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- تاريخ شرقي الجزيرة العربية، أحمد مصطفى حاكمة، مكتبة دار الحياة - بيروت ١٣٨٥هـ.
- تاريخ عُمان، وندل فيليبس، ترجمة محمد أمين عبد الله، وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عُمان - ١٤٠١هـ.
- تاريخ الكويت، عبد العزيز الرشيد، مكتبة دار الحياة - بيروت ١٣٩٨هـ.
- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون، محمد الهادي العامري، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٤م.
- تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثالث، جلال يحيى، النهضة العربية - بيروت ١٩٨١م.
- تاريخ المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد، محمد بن عبد الله آل عبد القادر، المكتب الإسلامي - دمشق ١٣٨٢هـ.
- تقويم البلدان الإسلامية، إصدار مؤتمر العالم الإسلامي - كراتشي - ١٣٨٤هـ.
- تقويم العالم الإسلامي، إصدار جمعية الدراسات الإسلامية - القاهرة ١٣٩٠هـ.
- الحكم العثماني في اليمن، فاروق عثمان أباظة، دار العودة - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

- الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية، حسن عيسى عبد الظاهر، من مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠١هـ.
- دليل الخليج، ج.ج. لوريمر، قسم الترجمة بمكتب أمير دولة قطر.
- الدولة السعودية الثانية، عبد الفتاح أبو علية، مؤسسة الأنوار ـ الرياض ١٣٩٦هـ.
- ذكريات يوسف الحكيم، يوسف الحكيم، دار النهار للنشر ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- الرجل الصنم، ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمٰن، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.
- ساحل الذهب الأسود، محمد سعيد المسلم، مكتبة دار الحياة ـ بيروت ١٣٨٢هـ.
- الشعوب الإسلامية، عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٣م.
- صحيح الأخبار عما ورد في بلاد العرب من الآثار، محمد بن عبد الله بن بليهد.
- صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، جورج أوغست فاين، ترجمة سمير سليم شبيلي.
- العثمانيون والقاسم محمد بن علي في اليمن، أميرة علي البداح، جدة عام ١٤٠٤هـ.
- العلاقات الحجازية المصرية، علي بن حسين السليمان، جامعة القاهرة ١٣٩٣هـ.
- علاقة ساحل عمان ببريطانيا، عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ـ الرياض ١٤٠٢هـ.
- غزوات الجراكسة والأتراك في جنوبي الجزيرة (البرق اليماني في الفتح العثماني)، قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي.
- فتح العثمانيون عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي، مكتبة دار التراث ـ القاهرة ١٣٩٩هـ.
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية، سليمان بن محمد الغنام، الكتاب العربي السعودي ـ ١٤٠٠هـ.
- قسمات العالم الإسلامي، مصطفى مؤمن، دار الفتح ـ بيروت ١٣٩٤هـ.
- قلب جزيرة العرب، فؤاد حمزة، مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض.

- مذكرات سليمان شفيق الكمالي.
- المسألة التونسية، عبد الرحمٰن تشابجي، ترجمة عبد الجليل التميمي، دار الكتب الشرقية - تونس ١٩٧٣م.
- المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا، مصطفى عبد الله بعيّو، الدار العربية للكتاب - ليبيا ١٣٩٥ هـ.
- من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، محمد أديب غالب، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض.
- من تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، م.م الرمزي، المطبعة الكريمية الحسينية - أورنبورغ ١٣٢٥هـ.
- مواطن الشعوب الإسلامية (سلسلة كتب) محمود شاكر، المكتب الإسلامي - بيروت.
- النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال حمزة يوسف الصيرفي، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز - الرياض ١٤٠٣هـ.
- هذه هي اليمن، عبد الله الثور، دار العودة - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- الهند في العهد الإسلامي، عبد الحي الحسني، دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد - الدكن - الهند ١٣٩٢.
- اليمن عبر التاريخ، أحمد حسين شرف الدين، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.

موافقة التقويم الهجري

للتقويم «الميلادي»

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
٩٢٣	٢٤/١/١٥١٧	٩٤٥	٣٠/٥/١٥٣٨	٩٦٧	٣/١٠/١٥٥٩	٩٨٩	٥/٢/١٥٨١
٩٢٤	١٣/١/١٥١٨	٩٤٦	١٩/٥/١٥٣٩	٩٦٨	٢٢/٩/١٥٦٠	٩٩٠	٢٦/١/١٥٨٢
٩٢٥	٣/١/١٥١٩	٩٤٧	٨/٥/١٥٤٠	٩٦٩	١١/٩/١٥٦١	٩٩١	٢٥/١/١٥٨٣
٩٢٦	٢٣/١٢/١٥١٩	٩٤٨	٢٧/٤/١٥٤١	٩٧٠	٣١/٨/١٥٦٢	٩٩٢	١٤/١/١٥٨٤
٩٢٧	١٢/١٢/١٥٢٠	٩٤٩	١٧/٤/١٥٤٢	٩٧١	٢١/٨/١٥٦٣	٩٩٣	٣/١/١٥٨٥
٩٢٨	١/١٢/١٥٢١	٩٥٠	٦/٤/١٥٤٣	٩٧٢	٩/٨/١٥٦٤	٩٩٤	٢٣/١٢/١٥٨٥
٩٢٩	٢٠/١١/١٥٢٢	٩٥١	٢٥/٣/١٥٤٤	٩٧٣	٢٩/٧/١٥٦٥	٩٩٥	١٢/١٢/١٥٨٦
٩٣٠	١٠/١١/١٥٢٣	٩٥٢	١٥/٣/١٥٤٥	٩٧٤	١٩/٧/١٥٦٦	٩٩٦	٢/١٢/١٥٨٧
٩٣١	٢٩/١٠/١٥٢٤	٩٥٣	٤/٣/١٥٤٦	٩٧٥	٨/٧/١٥٦٧	٩٩٧	٢٠/١١/١٥٨٨
٩٣٢	١٨/١٠/١٥٢٥	٩٥٤	٢١/٢/١٥٤٧	٩٧٦	٢٦/٦/١٥٦٨	٩٩٨	١٠/١١/١٥٨٩
٩٣٣	٨/١٠/١٥٢٦	٩٥٥	١١/٢/١٥٤٨	٩٧٧	١٦/٦/١٥٦٩	٩٩٩	٣٠/١٠/١٥٩٠
٩٣٤	٢٧/٩/١٥٢٧	٩٥٦	٣٠/١/١٥٤٩	٩٧٨	٥/٦/١٥٧٠	١٠٠٠	١٩/١٠/١٥٩١
٩٣٥	١٥/٩/١٥٢٨	٩٥٧	٢٠/١/١٥٥٠	٩٧٩	٢٦/٥/١٥٧١	١٠٠١	٨/١٠/١٥٩٢
٩٣٦	٥/٩/١٥٢٩	٩٥٨	٩/١/١٥٥١	٩٨٠	١٤/٥/١٥٧٢	١٠٠٢	٢٧/٩/١٥٩٣
٩٣٧	٢٥/٨/١٥٣٠	٩٥٩	٢٩/١٢/١٥٥١	٩٨١	٣/٥/١٥٧٣	١٠٠٣	١٦/٩/١٥٩٤
٩٣٨	١٥/٨/١٥٣١	٩٦٠	١٨/١٢/١٥٥٢	٩٨٢	٢٣/٤/١٥٧٤	١٠٠٤	٦/٩/١٥٩٥
٩٣٩	٣/٨/١٥٣٢	٩٦١	٧/١٢/١٥٥٣	٩٨٣	١٢/٤/١٥٧٥	١٠٠٥	٢٥/٨/١٥٩٦
٩٤٠	٢٣/٧/١٥٣٣	٩٦٢	٢٦/١١/١٥٥٤	٩٨٤	٣١/٣/١٥٧٦	١٠٠٦	١٤/٨/١٥٩٧
٩٤١	١٣/٧/١٥٣٤	٩٦٣	١٦/١١/١٥٥٥	٩٨٥	٢١/٣/١٥٧٧	١٠٠٧	٤/٨/١٥٩٨
٩٤٢	٢/٧/١٥٣٥	٩٦٤	٤/١١/١٥٥٦	٩٨٦	١٠/٣/١٥٧٨	١٠٠٨	٢٤/٧/١٥٩٩
٩٤٣	٢٠/٦/١٥٣٦	٩٦٥	٢٤/١٠/١٥٥٧	٩٨٧	٢٨/٢/١٥٧٩	١٠٠٩	١٣/٧/١٦٠٠
٩٤٤	١٠/٦/١٥٣٧	٩٦٦	١٤/١٠/١٥٥٨	٩٨٨	١٧/٢/١٥٨٠	١٠١٠	٢/٧/١٦٠١

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١٠١١	٢١/٦/١٦٠٢	١٠٤٠	١٠/٨/١٦٣٠	١٠٦٩	٢٩/٩/١٦٥٨	١٠٩٨	١٧/١١/١٦٨٦
١٠١٢	١١/٦/١٦٠٣	١٠٤١	٣٠/٧/١٦٣١	١٠٧٠	١٨/٩/١٦٥٩	١٠٩٩	٧/١١/١٦٨٧
١٠١٣	٣٠/٥/١٦٠٤	١٠٤٢	١٩/٧/١٦٣٢	١٠٧١	٦/٩/١٦٦٠	١١٠٠	٢٦/١٠/١٦٨٨
١٠١٤	١٩/٥/١٦٠٥	١٠٤٣	٨/٧/١٦٣٣	١٠٧٢	٢٧/٨/١٦٦١	١١٠١	١٥/١٠/١٦٨٩
١٠١٥	٩/٥/١٦٠٦	١٠٤٤	٢٧/٧/١٦٣٤	١٠٧٣	١٦/٨/١٦٦٢	١١٠٢	٥/١٠/١٦٩٠
١٠١٦	٢٨/٤/١٦٠٧	١٠٤٥	١٧/٦/١٦٣٥	١٠٧٤	٥/٨/١٦٦٣	١١٠٣	٥/١٠/١٦٩١
١٠١٧	١٧/٤/١٦٠٨	١٠٤٦	٥/٦/١٦٣٦	١٠٧٥	٢٥/٧/١٦٦٤	١١٠٤	٢٤/٩/١٦٩٢
١٠١٨	٦/٤/١٦٠٩	١٠٤٧	٢٦/٥/١٦٣٧	١٠٧٦	١٤/٧/١٦٦٥	١١٠٥	٢/٩/١٦٩٣
١٠١٩	٢٦/٣/١٦١٠	١٠٤٨	١٥/٥/١٦٣٨	١٠٧٧	٤/٧/١٦٦٦	١١٠٦	٢٢/٨/١٦٩٤
١٠٢٠	١٦/٣/١٦١١	١٠٤٩	٤/٥/١٦٣٩	١٠٧٨	٢٣/٦/١١٦٧	١١٠٧	١٢/٨/١٦٩٥
١٠٢١	٤/٣/١٦١٢	١٠٥٠	٢٣/٤/١٦٤٠	١٠٧٩	١١/٦/١٦٦٨	١١٠٨	٣١/٧/١٦٩٦
١٠٢٢	٢١/٢/١٦١٣	١٠٥١	١٢/٤/١٦٤١	١٠٨٠	١/٦/١٦٦٩	١١٠٩	٢٠/٧/١٦٩٧
١٠٢٣	١١/٢/١٦١٤	١٠٥٢	١/٤/١٦٤٢	١٠٨١	٢١/٥/١٦٧٠	١١١٠	١٠/٧/١٦٩٨
١٠٢٤	٣١/١/١٦١٥	١٠٥٣	٢٢/٣/١٦٤٣	١٠٨٢	١٠/٥/١٦٧١	١١١١	٢٩/٦/١٦٩٩
١٠٢٥	٢٠/١/١٦١٦	١٠٥٤	١٠/٣/١٦٤٤	١٠٨٣	٢٩/٤/١٦٧٢	١١١٢	١٨/٦/١٧٠٠
١٠٢٦	٩/١/١٦١٧	١٠٥٥	٢٧/٢/١٦٤٥	١٠٨٤	١٨/٤/١٦٧٣	١١١٣	٨/٦/١٧٠١
١٠٢٧	٢٩/١٢/١٦١٧	١٠٥٦	١٧/٢/١٦٤٦	١٠٨٥	٧/٤/١٦٧٤	١١١٤	٢٨/٥/١٧٠٢
١٠٢٨	١٩/١٢/١٦١٨	١٠٥٧	٦/٢/١٦٤٧	١٠٨٦	٢٨/٣/١٦٧٥	١١١٥	١٧/٥/١٧٠٣
١٠٢٩	٨/١٢/١٦١٩	١٠٥٨	٢٧/١/١٦٤٨	١٠٨٧	١٦/٣/١٦٧٦	١١١٦	٦/٥/١٧٠٤
١٠٣٠	٢٦/١١/١٦٢٠	١٠٥٩	١٥/١/١٦٤٩	١٠٨٨	٦/٣/١٦٧٧	١١١٧	٢٥/٤/١٧٠٥
١٠٣١	١٦/١١/١٦٢١	١٠٦٠	٤/١/١٦٥٠	١٠٨٩	٢٣/٢/١٦٧٨	١١١٨	١٥/٤/١٧٠٦
١٠٣٢	٥/١١/١٦٢٢	١٠٦١	٢٥/١٢/١٦٥٠	١٠٩٠	١٢/٢/١٦٧٩	١١١٩	٤/٤/١٧٠٧
١٠٣٣	٢٥/١٠/١٦٢٣	١٠٦٢	١٤/١٢/١٦٥١	١٠٩١	٢/٢/١٦٨٠	١١٢٠	٢٣/٣/١٧٠٨
١٠٣٤	١٤/١٠/١٦٢٤	١٠٦٣	٢/١٢/١٦٥٢	١٠٩٢	٢١/١/١٦٨١	١١٢١	١٣/٣/١٧٠٩
١٠٣٥	٣/١٠/١٦٢٥	١٠٦٤	٢٢/١١/١٦٥٣	١٠٩٣	١٠/١/١٦٨٢	١١٢٢	٢/٣/١٧١٠
١٠٣٦	٢٢/٩/١٦٢٦	١٠٦٥	١١/١١/١٦٥٤	١٠٩٤	٣١/١٢/١٦٨٢	١١٢٣	١٩/٢/١٧١١
١٠٣٧	١٢/٩/١٦٢٧	١٠٦٦	٣١/١٠/١٦٥٥	١٠٩٥	٢٠/١٢/١٦٨٣	١١٢٤	٩/٢/١٧١٢
١٠٣٨	٣١/٨/١٦٢٨	١٠٦٧	٢٠/١٠/١٦٥٦	١٠٩٦	٨/١٢/١٦٨٤	١١٢٥	٢٨/١/١٧١٣
١٠٣٩	٢١/٨/١٦٢٩	١٠٦٨	٩/١٠/١٦٥٧	١٠٩٧	٢٨/١١/١٦٨٥	١١٢٦	١٧/١/١٧١٤

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١١٢٧	٧/١/١٧١٥	١١٥٦	٢٥/٢/١٧٤٣	١١٨٥	١٦/٤/١٧٧١	١٢١٤	٥/٦/١٧٩٩
١١٢٨	٢٧/١٢/١٧١٥	١١٥٧	١٥/٢/١٧٤٤	١١٨٦	٤/٤/١٧٧٢	١٢١٥	٢٥/٥/١٨٠٠
١١٢٩	١٦/١٢/١٧١٦	١١٥٨	٣/٢/١٧٤٥	١١٨٧	٢٥/٣/١٧٧٣	١٢١٦	١٤/٥/١٨٠١
١١٣٠	٥/١٢/١٧١٧	١١٥٩	٢٤/١/١٧٤٦	١١٨٨	١٤/٣/١٧٧٤	١٢١٧	٤/٥/١٨٠٢
١١٣١	٢٤/١١/١٧١٨	١١٦٠	١٣/١/١٧٤٧	١١٨٩	٤/٣/١٧٧٥	١٢١٨	٢٣/٤/١٨٠٣
١١٣٢	١٤/١١/١٧١٩	١١٦١	٢/١/١٧٤٨	١١٩٠	٢١/٢/١٧٧٦	١٢١٩	١٢/٤/١٨٠٤
١١٣٣	٢/١١/١٧٢٠	١١٦٢	٢٢/١٢/١٧٤٨	١١٩١	٩/٢/١٧٧٧	١٢٢٠	١/٤/١٨٠٥
١١٣٤	٢٢/١٠/١٧٢١	١١٦٣	١١/١٢/١٧٤٩	١١٩٢	٣٠/١/١٧٧٨	١٢٢١	٢١/٣/١٨٠٦
١١٣٥	١٢/١٠/١٧٢٢	١١٦٤	٣٠/١١/١٧٥٠	١١٩٣	١٩/١/١٧٧٩	١٢٢٢	١١/٣/١٨٠٧
١١٣٦	١/١٠/١٧٢٣	١١٦٥	٢٠/١١/١٧٥١	١١٩٤	٨/١/١٧٨٠	١٢٢٣	٢٨/٢/١٨٠٨
١١٣٧	٢٠/٩/١٧٢٤	١١٦٦	٨/١١/١٧٥٢	١١٩٥	٢٨/٢/١٧٨٠	١٢٢٤	١٦/٢/١٨٠٩
١١٣٨	٩/٩/١٧٢٥	١١٦٧	٢٩/١٠/١٧٥٣	١١٩٦	١٧/١٢/١٧٨١	١٢٢٥	٦/٢/١٨١٠
١١٣٩	٢٩/٨/١٧٢٦	١١٦٨	١٨/١٠/١٧٥٤	١١٩٧	٧/١٢/١٧٨٢	١٢٢٦	٢٦/١/١٨١١
١١٤٠	١٩/٨/١٧٢٧	١١٦٩	٧/١٠/١٧٥٥	١١٩٨	٢٦/١١/١٧٨٣	١٢٢٧	١٦/١/١٨١٢
١١٤١	٧/٨/١٧٢٨	١١٧٠	٢٦/٩/١٧٥٦	١١٩٩	١٤/١١/١٧٨٤	١٢٢٨	٤/١/١٨١٣
١١٤٢	٢٧/٧/١٧٢٩	١١٧١	١٥/٩/١٧٥٧	١٢٠٠	٤/١١/١٧٨٥	١٢٢٩	٢٤/١٢/١٨١٣
١١٤٣	١٧/٧/١٧٣٠	١١٧٢	٤/٩/١٧٥٨	١٢٠١	٢٤/١٠/١٧٨٦	١٢٣٠	١٤/١٢/١٨١٤
١١٤٤	٦/٧/١٧٣١	١١٧٣	٢٥/٨/١٧٥٩	١٢٠٢	١٣/١٠/١٧٨٧	١٢٣١	٣/١٢/١٨١٥
١١٤٥	٢٤/٦/١٧٣٢	١١٧٤	١٣/٨/١٧٦٠	١٢٠٣	٢/١٠/١٧٨٨	١٢٣٢	٢١/١١/١٨١٦
١١٤٦	١٤/٦/١٧٣٣	١١٧٥	٢/٨/١٧٦١	١٢٠٤	٢١/٩/١٧٨٩	١٢٣٣	١١/١١/١٨١٧
١١٤٧	٣/٦/١٧٣٤	١١٧٦	٢٣/٧/١٧٦٢	١٢٠٥	١٠/٩/١٧٩٠	١٢٣٤	٣١/١٠/١٨١٨
١١٤٨	٢٤/٥/١٧٣٥	١١٧٧	١٢/٧/١٧٦٣	١٢٠٦	٣١/٨/١٧٩١	١٢٣٥	٢٠/١٠/١٨١٩
١١٤٩	١٢/٥/١٧٣٦	١١٧٨	١/٧/١٧٦٤	١٢٠٧	١٩/٨/١٧٩٢	١٢٣٦	٩/١٠/١٨٢٠
١١٥٠	١/٥/١٧٣٧	١١٧٩	٢٠/٦/١٧٦٥	١٢٠٨	٩/٨/١٧٩٣	١٢٣٧	٢٨/٩/١٨٢١
١١٥١	٢١/٤/١٧٣٨	١١٨٠	٩/٦/١٧٦٦	١٢٠٩	٢٩/٧/١٧٩٤	١٢٣٨	١٨/٩/١٨٢٢
١١٥٢	١٠/٤/١٧٣٩	١١٨١	٣٠/٥/١٧٦٧	١٢١٠	١٨/٧/١٧٩٥	١٢٣٩	٧/٩/١٨٢٣
١١٥٣	٢٩/٣/١٧٤٠	١١٨٢	١٨/٥/١٧٦٨	١٢١١	٧/٧/١٧٩٦	١٢٤٠	٢٦/٨/١٨٢٤
١١٥٤	١٩/٣/١٧٤١	١١٨٣	٧/٥/١٧٦٩	١٢١٢	٢٦/٦/١٧٩٧	١٢٤١	١٦/٨/١٨٢٥
١١٥٥	٨/٣/١٧٤٢	١١٨٤	٢٧/٤/١٧٧٠	١٢١٣	١٥/٦/١٧٩٨	١٢٤٢	٥/٨/١٨٢٦

السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي	السنة الهجرية	تبدأ في ميلادي
١٢٤٣	٢٥/٧/١٨٢٧	١٢٦٨	٢٧/١٠/١٨٥١	١٢٩٣	٢٨/١/١٨٧٦	١٣١٨	١/٥/١٩٠٠
١٢٤٤	١٤/٧/١٨٢٨	١٢٦٩	١٥/١٠/١٨٥٢	١٢٩٤	١٦/١/١٨٧٧	١٣١٩	٢٠/٤/١٩٠١
١٢٤٥	٣/٧/١٨٢٩	١٢٧٠	٤/١٠/١٨٥٣	١٢٩٥	٥/١/١٨٧٨	١٣٢٠	١٠/٤/١٩٠٢
١٢٤٦	٢٢/٦/١٨٣٠	١٢٧١	٢٤/٩/١٨٥٤	١٢٩٦	٢٦/١٢/١٨٧٨	١٣٢١	٣٠/٣/١٩٠٣
١٢٤٧	١٢/٦/١٨٣١	١٢٧٢	١٣/٩/١٨٥٥	١٢٩٧	١٥/١٢/١٨٧٩	١٣٢٢	١٨/٣/١٩٠٤
١٢٤٨	٣١/٥/١٨٣٢	١٢٧٣	١/٩/١٨٥٦	١٢٩٨	٤/١٢/١٨٨٠	١٣٢٣	٨/٣/١٩٠٥
١٢٤٩	٢١/٥/١٨٣٣	١٢٧٤	٢٢/٨/١٨٥٧	١٢٩٩	٢٣/١١/١٨٨١	١٣٢٤	٢٥/٢/١٩٠٦
١٢٥٠	١٠/٥/١٨٣٤	١٢٧٥	١١/٨/١٨٥٨	١٣٠٠	١٢/١١/١٨٨٢	١٣٢٥	١٤/٢/١٩٠٧
١٢٥١	٢٩/٤/١٨٣٥	١٢٧٦	٣١/٧/١٨٥٩	١٣٠١	٢/١١/١٨٨٣	١٣٢٦	٤/٢/١٩٠٨
١٢٥٢	١٨/٤/١٨٣٦	١٢٧٧	٢٠/٧/١٨٦٠	١٣٠٢	٢١/١٠/١٨٨٤	١٣٢٧	٢٣/١/١٩٠٩
١٢٥٣	٧/٤/١٨٣٧	١٢٧٨	٩/٧/١٨٦١	١٣٠٣	١٠/١٠/١٨٨٥	١٣٢٨	١٣/١/١٩١٠
١٢٥٤	٢٧/٣/١٨٣٨	١٢٧٩	٢٩/٦/١٨٦٢	١٣٠٤	٣٠/٩/١٨٨٦	١٣٢٩	٢/١/١٩١١
١٢٥٥	١٧/٣/١٨٣٩	١٢٨٠	١٨/٦/١٨٦٣	١٣٠٥	١٩/٩/١٨٨٧	١٣٣٠	٢٢/١٢/١٩١١
١٢٥٦	٥/٣/١٨٤٠	١٢٨١	٦/٦/١٨٦٤	١٣٠٦	٧/٩/١٨٨٨	١٣٣١	١١/١٢/١٩١٢
١٢٥٧	٢٣/٢/١٨٤١	١٢٨٢	٢٧/٥/١٨٦٥	١٣٠٧	٢٨/٨/١٨٨٩	١٣٣٢	٣٠/١١/١٩١٣
١٢٥٨	١٢/٢/١٨٤٢	١٢٨٣	١٦/٥/١٨٦٦	١٣٠٨	١٧/٨/١٨٩٠	١٣٣٣	١٩/١١/١٩١٤
١٢٥٩	١/٢/١٨٤٣	١٢٨٤	٥/٥/١٨٦٧	١٣٠٩	٧/٨/١٨٩١	١٣٣٤	٩/١١/١٩١٥
١٢٦٠	٢٢/١/١٨٤٤	١٢٨٥	٢٤/٤/١٨٦٨	١٣١٠	٢٦/٧/١٨٩٢	١٣٣٥	٢٨/١٠/١٩١٦
١٢٦١	١٠/١/١٨٤٥	١٢٨٦	١٣/٤/١٨٦٩	١٣١١	١٥/٧/١٨٩٣	١٣٣٦	١٧/١٠/١٩١٧
١٢٦٢	٣٠/١٢/١٨٤٥	١٢٨٧	٣/٤/١٨٧٠	١٣١٢	٥/٧/١٨٩٤	١٣٣٧	٧/١٠/١٩١٨
١٢٦٣	٢٠/١٢/١٨٤٦	١٢٨٨	٢٣/٣/١٨٧١	١٣١٣	٢٤/٦/١٨٩٥	١٣٣٨	٢٦/٩/١٩١٩
١٢٦٤	٩/١٢/١٨٤٧	١٢٨٩	١١/٣/١٨٧٢	١٣١٤	١٢/٦/١٨٩٦	١٣٣٩	١٥/٩/١٩٢٠
١٢٦٥	٢٧/١١/١٨٤٨	١٢٩٠	١/٣/١٨٧٣	١٣١٥	٢/٦/١٨٩٧	١٣٤٠	٤/٩/١٩٢١
١٢٦٦	١٧/١١/١٨٤٩	١٢٩١	١٨/٢/١٨٧٤	١٣١٦	٢٢/٥/١٨٩٨	١٣٤١	٢٤/٨/١٩٢٢
١٢٦٧	٦/١١/١٨٥٠	١٢٩٢	٧/٢/١٨٧٥	١٣١٧	١٢/٥/١٨٩٩	١٣٤٢	١٤/٨/١٩٢٣



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة